الرحلة الحجازية

★ ★

محمد السنوسي

تحقيق
علي الشنوفي

مبرز ودكتور دولة في الآداب
أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب
بتونس

الشركة التونسية للتوزيع

تنسيق ورفع عبد الكافي غفر الله له
ملتقى أهل الحديث

الرحلة الحجازية

الجزء الثاني

تأليف

محمد السنوسي

(1267 هـ / 1851 م ـ 1318 هـ / 1900 م)

تحقيق

علي الشنوفي

مبرز ودكتور دولة في الآداب
استاذ التعليم العالى بكلية الآداب بتونس

نشر

الشركة التونسية للتوزيع

1401 هـ / 1981 م

طبع بالمطبعة الرسمية



الشيخ محمد بن عثمان السنوسي

الفهرس العام

الموضوع	الصفحة

المقدمة

نقتصر في تقديمنا لهذا الجزء الثاني من الرحلة الحجازية على تحليل لمحتواه . غير أننا نرى من واجبنا تنبيه القارىء الى أنه سبق لنا عندما أخرجنا للناس الجزء الاول من هذه الرحلة (1) ان صدرناه بمقدمة باللغة الفرنسية تحدثنا فيها عن مخطوط الرحلة الحجازية الذي لم نعثر إلا عن نسخة واحدة له هي النسخة الكاملة المحفوظة بدار الكتب الوطنية بتونس تحت عدد 3.346 .

وقد استعنا في تحقيقنا لنص هذا الجزء الثاني من الرحلة الحجازية بمجموعة من المصادر والمراجع هي التي أثبتنا قائمتها بالصفحات 13 ـ 14 ـ 15 من المقدمة التي وضعناها باللغة الفرنسية للجزء الأول من هذه الرحلة (2) . وقد حافظنا في تحقيقنا لهذا الجزء الثاني على الترقيم الأصلي للمخطوط وهو الترقيم المثبت بالطرة بين معقفين . فنحن اعتمدنا ذلك الترقيم في جميع احالاتنا من تعاليق وفهارس . كما أننا حرصنا على التعريف بالأعلام وعلى تقسيم النص الى فقرات تواكب تسلسل الأفكار ، وأقحمنا عناوين جديدة لبعض أجزاء النص وضعناها بين معقفين . كما اننا وضحنا العبارات الغامضة واثبتنا تعاليق على كل ما راينا انه جدير بالتوضيح .

ورغبة منا في زيادة توضيح مضامين نص هذا الجزء الثاني من الرحلة الحجازية ذيلناه بملاحق اربعة . فأوردنا في **الملحق الأول** نص قصيدة نظمها

---

(1) انظر : محمد السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الاول ، تحقيق علي الشنوفي ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس 1396 ـ 1976

(2) انظر تحقيقنا للرحلة الحجازية الجزء الاول

محمد السنوسي في تفضيل جريدة الرائـد التونسي على جميع الصحف العربية في زمانه مسبوقة ببسطة من تحريرنا موضوعها الاطار التاريخي لتأسيس هذه الجريـــدة (3) .

اما الملحق الثاني فقد راينا من المفيد للقارىء ان يطلع على النصوص الـرسمية الخـاصة بقنـاة السويس ومشكـلاتهـا الى حـد سنـة 1882 وهـي السنة التي عبر اثناءها مؤلفنـا تلك القناة وذلك لان محمد السنـوسي اسهب القـول عنها في هذا الجزء الثاني من الرحلـة الحجازيـة من الصفحـة 69 الى الى الصفحـــة 76 .

واما الملحق الثالث فقد أوردنا فيه مقتطفات من تعريبنا نقلا عن اللغــة الفرنسية لنصوص من المـراسلات السياسية التي كانت دارت بين درويـن دي لويس وزير الخارجية الفرنسية وسفراء الامبراطورية الفرنسية وقناصلهـــا بشأن المسألة التونسية سنة 1864 (4) . وهذه المسالة هي التي تحدث عنها محمد السنوسي في هذا الجزء الثاني عند التنويــه بخصال الأمير علي بـاي (5) ونحن بايرادنا لهذه المقتطفات نوضح أن مساندة الدول الأجنبية لبايات تونس في تلك الفترة من التاريخ انما كانت حيلة من تلك الدول لنيل مرامها من الدولـة التونسيـة .

واما الملحق الرابع فقد خصصنـاه لدور مصطفى خزنـة دار في افلاس ميزانية الدولة الحسينيـة بتونس حتى يتصور القـارىء مقدار غائلات ما كانت عليه وزارة ذلك المملوك من ضرب القـرايض والغرامات على أفراد الناس من أهل الساحل والعروش وبيع المناصب والخطط .

ثم بعد هذه الملاحق أوردنا فهـارس لما ورد ذكره في هذا الجزء الثانـي من الرحلة الحجازية من الآيات القرآنيـة والأحاديث النبوية والأشعار والأعلام والأماكن والبلدان والمنشـات والطوائف والقبائل والشعوب والدول والمصنفات

---

(3) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 211 . والملاحظ ان هذه القصيدة ورد نصها في الديوان المخطوط لمحمد السنوسي ، ص : 91 ـ 93 . ونحن قد حققنا هذا الديوان وقدمنا له وسلمناه قصد النشر الى مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعيـة بتونس سنة 1976 .

(4) هذه المقتطفات وقع اغفال ذكر العديد منها فيما تم نشره لحد الآن عن ثورة علي بن غذاهم . انظر : بيار غرونشان : وثائق تتعلق بثورة عام 1864 بتونس : جـ . 1 وجـ . 2 تونس 1935 . انظر ايضا : ب سلامة : ثورة بن غذاهم : الدار التونسية للنشر 1967 .

(5) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني : صـ . 212 ـ 213

(6) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني : صـ : 51 تعليق رقم 1

والصحف والكلمات الدخيلة . وقد أثبتنا عقب ذلك فهرسا لمحتوى كامل هذا الجزء الثاني مرقما بترقيم صفحات المخطوط . أما الفهرس العام فقد صدرنا به هذا الكتاب .

وأما فيما يتعلق بحياة محمد السنوسي وآثاره فإننا عمدنا هنا الى ايراد لمحة تحليلية موجزة عن حياة الرجل ومؤلفاته مع الاشارة الى أنه سبق لنا التعرض لذلك في المقدمة التي صدرنا بها تحقيقنا للجزء الثالث من هذه الرحلة (7) وكذلك في دراستنا باللغة الفرنسية بعنوان : مفكر تونسي من أهل القرن التاسع عشر : محمد السنوسي ، حياته وآثاره (8) .

محمد السنوسي : حياته آثاره

ولد محمد بن عثمان بن محمد السنوسي بحاضرة تونس في 22 من ذي القعدة سنة 1267 هـ . / 18 سبتمبر 1851 . ونشأ في بيت علم . ومع أن شهرة عائلته بتونس تجددت عليها العصور في خدمة العلم فقد ظن البعض من معاصري محمد السنوسي أن بيت السنوسي قدمت من طرابلس الغرب وأن لها علقة مع الطريقة السنوسية .

ورداً على هذا الظن الناتج عن المشاكلة اللفظية قال محمد السنوسي : « إن اصل مقدم أجدادي كان من الغرب منذ أربعمائة سنة . ومبدأ اقامتهم كان في جهات الكاف . وزواياهم لا زالت مشاهدها مزارة مثل زاوية سيدي عساكر دفين قلعة سنان وزوايا أصوله وفروعه الذين تنقلوا للكاف مدة في خدمة العلم وآخرهم هنالك الشيخ سيدي عثمان بن الحاج محمد بن أحمد بن مهنية دفين جامع الشيخ حرز الله كان في خطة الافتاء ثم تنقلوا لحاضرة تونس منذ أكثر من مائة سنة في الخدمات العلمية وتقبلوا في خطط القضاء الى هذا العهد (9) . »

فجده وأبوه توليا القضاء المالكي اذ كان أبوه قاضيا بسيدي بوسعيد بضاحية تونس الحاضرة أما جده فكان قاضي الجماعة بتونس الحاضرة .

والتحق محمد السنوسي بجامع الزيتونة حيث تتلمذ لاعيان المدرسين

---

(7) انظر : محمد السنوسي ، الرحلة الحجازية ، الجزء الثالث ، تحقيق علي الشنوفي الشركة التونسية للتوزيع ، تونس 1398 هـ . / 1978 .

(8) انظر : السلسلة الرابعة للتاريخ ، المجلد التاسع عشر ، نشريات الجامعة التونسية ، سنة 1977 .

(9) انظر : محمد السنوسي ، الاستطلاعات الباريسية ، ص : 21 .

كالشيخ محمود بن علي قابادو الشريف المتوفي سنة 1288 هـ . / 1871 . والشيخ علي بن أبي القاسم العفيف الذي انتصب للافتاء سنة 1277 . / 1861 . وتوفي سنة 1292 هـ . / 1876 . والشيخ محمد بيرم الخامس المتوفي سنة 1307 هـ . / 1889 والشيخ صالح بن فرحات التبرسقي الذي تولى القضاء بباردو ثم الافتاء وتوفي سنة 1309 هـ . / 1891 . والشيخ محمد الطاهر النيفر الذي تولى القضاء بتونس الحاضرة وتوفي سنة 1311 هـ . / 1894 . والشيخ أحمد بن محمد بن الخوجة الذي تولى مشيخة الاسلام الحنفي وتوفي سنة 1313 هـ . / 1896 . والشيخ سالم بوحاجب الذي تولى مشيخة الاسلام المالكي وتوفي سنة 1343 هـ . / 1925 . أولئك هم أبرز المشائخ الذين أخذ عنهم محمد السنوسي ويضاف اليهم الشيخ عبد القادر البارودي امام سراية المحمدية وعنه اخذ محمد السنوسي منذ سنة 1280 هـ . / 1864 . الطريقة القادرية .

وبعد أن صار محمد السنوسي من أنجب خريجي جامع الزيتونة جلس به للتدريس اثر حصوله على شهادة التطويع سنة 1287 هـ . / 1870 . وذاع صيته فعينه المشير محمد الصادق باي معلما للامير محمد الناصر باي . ثم في سنة 1291 هـ . / 1874 . انتخبه أستاذه محمد بيرم الخامس كاتبا أول لمجلس جمعية الأوقاف ثم في سنة 1293 هـ . / 1876 عين محررا لجريدة الرائد التونسي . وتواصل نشاطه بالمؤسستين الى أن انفصل عنهما في 5 رجب 1298 هـ . / 3 جوان 1881 لما يئس من الوزير مصطفى بن اسماعيل اذ لم يجد في مناصرته عونا على الاصلاح .

وانتصبت الحماية الفرنسية بتونس في ماي 1881 فتاقت نفس محمد السنوسي الى هجرة البلاد فما كان من الدولة اولا الا منعه (1) . وفي هذا الصدد بعث محمد السنوسي الى الوزير الأكبر رسالة هذا نصها (بتاريخ 26 محرم سنة 1299 هـ . / 18 ديسمبر 1881) :

« جناب المولى الوزير الاكبر حرسه الله

« ليعلم سيدي أني رجل بعيد عن معنى السياسة في نازلة الحال بالنظر لذاتي وبالنظر لمن أريد التوجه اليه (الجنرال حسين) . أما بالنظر لذاتي فغير خفي عن جنابكم أني من خدمة العلم الشريف وغاية شغلي هو تدريس التوحيد والفقه والعربية بجامع الزيتونة كل يوم تطوعا لله . وقد قال ابن خلدون : « إن أهل العلم أبعد الناس عن السياسة » . ومع ذلك لم يكن لي من الخدمة

(1) انظر أسفله نص هذا الجزء الثاني : ص : 174 المؤلف يشرح حقائق مقتضيات سفره .

غير كتابة زهيدة بجمعية الأوقاف التي مدارها حفظ شعائر المساجد والزوايا . فليس في واحد مما أنا بصدده دخل في الدولة وسياستها .

« واما بالنظر لمن أريد التوجه اليه فلا يخفى (عن) سعادتكم أن جناب أمير الأمراء سيدي حسين عندما أعلمه باني ممنوع من الكتابة عنده يرسل تلغرافا لأحد أجانب بلادنا أو غيرها من البلاد العربية فيجيبه لذلك من هو خير مني ولا يحصل من منعي الا قطع نفع كتابتي عنده هاته المدة الوجيزة . وهذا القطع ليس من السياسة في شيء ولولا ضرورة الاحتياج ما كنت لاؤثر أخطار البحر عن الإقامة في فراشي بين أبنائي ولكن يلزمني السعي لاستحصال معيشتهم سيما مع قصر مدة المفارقة على أنه :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا *** فلا يسع المضطر الا ركوبها

ولذلك أطلب من جنابكم السامي مراجعة حضرة المعظم الأرفع سيدنا خلد الله بقاءه بتبليغ تقريري هذا الى حضرته لاعادة النظر في نازلتي على هذا الوجه . والله لا يضيع أجر المحسنين . ولي في هذا البلد سابقية خدمة علمية تقضي بمراعاتها ومن أوضحها تأليفي مسامرات الظريف بحسن التعريف المحتوي على جزئين في تاريخ دولته الرفيعة وتاريخ أسلافه العظام . وهو بصدد الطبع في صحيفة البلاد (الرائد التونسي) الى هذا اليوم (18 ديسمبر 1881) وذلك أعظم دليل على صدقي في هاته الدولة ومرادي اليوم هو أن سفري هذا يكون عن رضى من حضرته ومن جنابكم مراعاة لاحتياج شخصي والله المسؤول أن يلهم الجميع السداد بجاه خير العباد . حرره العبد الضعيف محمد السنوسي خادم العلم الشريف أخذ الله بيده وكتب في 26 المحرم الحرام سنة 1299 هـ. (18 ديسمبر 1881) »

ورغم تلك الرسالة لم ترجع الدولة عن قرارها فتعلل بأداء فريضة الحج فأذن له بالسفر وغادر تونس في 7 رجب 1299 هـ. / 25 ماي 1882 وآب اليها من رحلته الحجازية في 26 ربيع الاول سنة 1300 هـ. / 5 فيفري 1883 . واذاك التحق بوظيفه الذي كان تخلى عنه بجمعية الأوقاف وعين مدرسا بجامع حمودة باشا المرادي .

ثم في 18 جمادى الثانية 1302 هـ. / 4 أفريل 1885 تزعم محمد السنوسي المظاهرة الاحتجاجية الكبرى ضد النظام البلدي ووصلها بحركة جمعية العروة الوثقى فالقت السلطات الفرنسية عليه القبض في 6 شعبان 1302 هـ. / 21 ماي 1885 وعزلته عن وظيفته ونفته مدة ثلاثة اشهر الى قابس .

وفي هذا الصدد نورد هنا نص ثلاث وثائق عثرنا عليها في ملفه بالخزينة العامة للحكومة التونسية :

الوثيقة الأولى : هي رسالة من محمد السنوسي الى موريس بومبار الكاتب العام بالدولة التونسية وهذا نصها :

« قابس يوم الخميس 13 رمضان 1302 هـ. / 25 جوان 1885 .

جناب نخبة الأعيان من أهل الرفعة والشأن العمدة الأكتب الأعز الهمام الموسيو موريس بومبار الكاتب العام بالدولة التونسية .

أما بعد فالمعروض على جنابكم هو أني على يقين من أن للدولة الفخيمة كمال الاعتناء بحفظ شرف الأعيان وجلب قلوب الخاصة والعامة بالكرم والمرحمة ولرجالها شهرة الذكر في التثبت الذي أقامكم مقام الثقة من نفوس جميع التونسيين زيادة على ثقة الدولتين بكم وبسبب ذلك أقبلت على خطابكم فيما أصابني من السفر الى قابس الذي لم أحسب سببه سوى شهرتي بالانشاء وعلوم الأدب العربي وهي الشهرة التي بلغ بها صيت فيكتور هوقو لدى الدولة الجمهورية ما أنتم أدرى به .

غير أني أنا أصبحت من تلك الشهرة مصابا من أصحاب الوشاية الذين تقتضي الطبيعة حسدهم لأمثالي حتى كانت النازلة البلدية فوقعت منها في هذا التغريب مع عدم تصوري في ذلك الوقت لذنبها لكن حيث رأتها الدولة ذنبا ولها صدق النظر فانا أطلب السماح فيها . وقد نفضت منها يدي وأعطي كلمة الشرف بأني لا أعود اليها وأعتمد العفو في رجوعي الى بلادي رجوع اعتبار آمن معه عائلة السماة وتنجبر به قلوب عائلتي على ما هو معروف من كرم الدولة . ومع ذلك فغاية رجائي من شهرة ذكركم بحسن الوساطة هو أن لا أكون عند الدولة الفخيمة معدودا من المذنبين وعذري في عدم التصور للذنب أولا يدفع عني وصف التلبس بأصل الذنب عندها . والاحسان الى الأحرار يقودهم الى محبة المحسن من غير اختيار .

حرره العبد الضعيف محمد بن عثمان السنوسي خادم العلم الشريف جبر الله صدعه آمين » .

أما الوثيقة الثانية فهي الرسالة التالية :

«جناب ... سيدي محمد العزيز بوعتور الوزير الأكبر خلد الله اجلاله وأدام بالعز كماله . أما بعد اهداء أعز السلام المحمول على كاهل الاجلال والاعظام المناسب لرفيع ذلك المقام فلا يعزب عن شريف علمكم ما أصابني من السفر

الى قابس بسبب الشكاية البلدية التي عرضت بكمال الطاعة . وكنت فيها واحدا من وكلائهم حين لم نتصور ذنبها حتى قضيت في هذا التغريب أكثر من شهرين. ولعلمي بكمال فضل الدولة ومرحمتها الشاملة لكافة الأهالي أعرض على وزارتكم السامية طلب العفو الذي يحصل به رجوعي الى بلادي رجوعا يناسب كرم الدولة وشفقة الحضرة العلية التي يظهر عفوها ورضاها بجميل الاحسان مع التعهد مني بأني لا عود الى تعاطي شيء من ذلك ورجائي من الدولة التي لا يخفاها اخلاص طويتي أن تحقق وصفي بصدق الخدمة والطاعة الموروثة والمكتسبة . وعذر عدم تصوري للذنب ابتداء يدفع عني وصف التلبس به عندها .

وبذلك أرجو من صادق خبرتكم وكمال اعتنائكم أن يشملني من الرضا ما يقتضيه انعام الدولة المشكور والله المسؤول أن يديم بقاء الحضرة العلية ويصون فخركم بصدق العمل والنية والسلام من معظم قدركم العبد الضعيف محمد بن عثمان السنوسي خادم العلم الشريف أخذ الله بيده .

وكتب في 18 شوال سنة 1302 هـ. / (30 جويلية 1885) » .

واما الوثيقة الثالثة فهي التالية :

«نسخة أمر علي لعامل الأعراض في الشيخ محمد السنوسي في 9 ذي القعدة 1302 هـ. (19 أوت 1885) : وبعد صدر لكم أمرنا في تغريب محمد السنوسي لعملكم والعمل أن تسرحه بوصول أمرنا هذا اليكم لأننا عفونا عنه والسلام » .

واثر ذلك العفو عاد محمد السنوسي الى أهله بتونس الحاضرة فدخل في مناصب قضائية بالمحكمة المختلطة ثم بالعدلية التونسية فعمل عضوا بالقسم الجنائي ثم نائب حاكم بالمجلس المختلط . وكان دخوله للخدمة سنة 1303 هـ. / 1886 وتم ترسيمه بالوظيف في 14 من ذي القعدة سنة 1304 هـ. / 4 أوت 1887 وكان ذلك بمقتضى قرار وأمر علي .

وقد عثرنا في ملفه بالخزانة العامة للحكومة التونسية على نص هذا الامر العلي وهو التالي :

« نسخة أمر علي في 14 ذو القعدة 1304 هـ. / 4 أوت 1887

من عبد الله سبحانه ... أما بعد فان الثقة الزكي الوجيه الشيخ سي محمد بن عثمان السنوسي أوليناه كاتبا بقسم الأمور المدنية من الوزارة الكبرى بدولتنا التونسية يباشر وظيفته ويستحق بأمرنا هذا جميع المزايا والمنح المرتبة لصاحب هذه المرتبة . وأوصينا له بمزيد الرعي والاحترام . وعلى الواقف ... وكتب في .... »

ثم بعد سنتين من دخولـه في سلك الوظيف قام محمد السنوسي برحلته الى باريس وذلك في 6 من ذي القعدة سنة 1306 هـ . / 4 جويلية سنـة 1889 لمشاهدة المعرض العام الدولي بها وعاد الى تونس في 4 من ذي الحجة 1306 هـ . / غرة اوت 1889 .

وهناك رسالة أخرى بخط محمد السنوسي عثرنا عليها في ملفه بالخزينة العامة للحكومة التونسية تفيد أن المؤلف كانت له بعض الموارد الاخرى زيادة على مرتبه بالوظيف . ونص هذه الرسالة هو التالي :

« الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

جناب العمدة الصدر الهمام الافخم امير الأمراء سيدي محمد العزيز بوعتور الوزير الاكبر خلد الله اجلاله وأدام بالعز كماله . أما بعد تقديم الاحتـرام اللائق بالمقام فالمعروض على وزارتكم السامية هو أني أطلب وكالة فتوحات زاوية السيدة المنوبية الكائنة بمنوبة حيث توفي عنها وكيلها والله يديم بقاءكم والسلام من الفقير الى ربه محمد السنوسي وفقه الله . وكتب في 7 جوان 1897 وفي 7 المحرم 1315 هـ . الامضاء : محمد السنوسي » .

وقد بقي محمد السنوسي رغم اضطلاعه بأعباء الوظيف الاداري على نشاطه الفكري الى ان ابتلي بمرض عضال لازمه سنين ينقه منه يوما ويعاوده آخر الى أن فاجاه الحمام في ليلة السبت 24 رجب 1318 هـ . / 17 نوفمبر 1900 ودفن بمقبرة الزلاج في اليوم الموالي .

والجدير بالذكر ان هذا الأديب التونسي المؤرخ الحقوقي الصحافي قد كـان قبيل وفاته بسنة تعرض لسخط سلط الحماية الفرنسية عليه من أجل مواقفـه الوطنية ونحن نستفيد ذلك من وثيقة رسمية عثرنا عليها في ملفه رقم 31 بالخزينة العامة للحكومة التونسية وهي مذكرة مؤرخة في 31 اكتوبر 1899 وهذا نصها :

« ان مدير المصالح العدلية للحكومة التونسية له الشرف باخبار السيـد الكاتب العام للحكومة التونسية بأن جلسة الدائرة الجنائية المنعقدة في يوم ... من اكتوبر الجاري 1899 قد توقفت وهي في خضم مناقشات احدى النوازل الخطيرة الأهمية اثناء مرافعة السيد سيلتري وذلك بسبب مغادرة قاعة الجلسة من طرف أحد قضاة الجلسة سي محمد السنوسي الذي كان رئيسه سي يوسف جعيط رفض السماح له بالانسحاب من الجلسة . فهذا الصنيع المتميز برفض الطاعة خليق بأن يعاقب مرتكبه عقابا شديد الصرامة سيما وانها ليست المرة الأولى التي يصـدر

فيها مثل هذا الصنيع الذي يبرز ما لهذا الموظف من ذهنية وحالة نفسية أصبحت لا تقبل التغاضي عنها وصارت معرقلا لاجراء الاعمال .

ولذا فلي الشرف باقتراح معاقبة سي محمد السنوسي العقاب التاديبي .

امضاء : مدير المصالح العدلية

قـــــــرار

نحن قنصل فرنسا من الدرجة الأولى الكاتب العام للحكومة التونسية حامل الصنف الثالث من وسام الشرف .

بعد الاطلاع على التقرير الآنف والوارد من مدير المصالح العدلية ،

وبناء على أنه من المهم ضمان الحفاظ على الانضباط ،

قـررنا مـــا يلـــي :

ان سي محمد السنوسي المنشىء بالمصلحة العدلية للحكومة التونسية قد عوقب بخصم في مرتبه قدره أجر خمسة عشر يوما .

وكتب بدار الباي في ديواننا بتاريخ ...

الامضاء : الكاتب العام للحكومة التونسية . »

على أن محمد السنوسي كتب في شأن مرضه الرسالتين التاليتين وقد عثرنا عليهما في ملفه بالخزينة العامة وتفيد الرسالة الأولى بأن ابتداء تفاقم المرض كان في خريف سنة 1898 أما الرسالة الثانية فقد كتبها قبيل وفاته بشهرين :

نص الرسالة الأولـــى :

« تونس يوم الثلاثاء في 27 ربيع الثاني 1316 / 13 سبتمبر 1898

جناب العمدة الهمام الحازم الأعز موسيو بيرج مدير العدلية دام محروسا أما بعد تقديم الاحترام اللائق بالمقام فالواصل الى جنابكم شهادة الدكتور موسيو لوفي فيما رآه من سفري للاستحمام في حمام معدني لمداواة ضعف المعدة وأعصاب الدماغ . ورأيت أن يكون سفري في ذلك الى باريز ولا أظن المدة التي استجمع فيها ما يلزم تصل الى الشهر . ولذلك أرغب الرخصة لي في السفر المـذكـور . ودمتم في حفظ حرره الفقير الى ربـه محمد السنوسي المنشىء العضو بالدائرة الجنائية من الوزارة السامية عافاه الله . محمد السنوسي » .

نص الرسـالة الثانيـة :

« الحمـد للـه

أعلم جناب الحازم البارع الماجد الأعز السيد ريشارد مصلي نائب جناب مدير العدلية دام محروسا بأن احتباس النفس من ضعف أعصاب القلب منعني بالأمس وفي هذا اليوم من مفارقة الفراش وأكد علي الطبيب بترك الحركة الفكرية والبدنية . ولذلك بادرت لاعلام مودتكم بحالتي الحاضرة وارجو من الله اللطـف والعافية . واقبلوا مزيد احترامي .

حرره محمد السنوسي عافاه الله صبيحة الاربعاء في 10 جمادي الاولى 1318 / 5 سبتمبر 1900 . »

تلك هي نبذة مختصرة عن حياة محمد السنوسي **اما آثاره** فلنا أن نقـــول كلمة وجيزة للتعريف بمصادر تآليف الرجل بوجه عام . لقد كان محمد السنوسي يكثر من المطالعة والقراءة دون ملل أو كلل وقد استخدم في تآليفه المتنوعـــة مصدرين رئيسيين انه استعمل بادىء ذي بدء ثقافته في المنقول والمعقول مستنجدا بكتب فقهاء المذهبين المالكي والحنفي فكانت ثقافته هي ثقافة شيخ من شيــوخ الزيتونة يتمتع بالاضافة الى ذلك بتجربة وتفتح الموظف الماهر الخبير في الممارسة لأحكام الفقه الشرعية داخل اطار المهام التي اضطلع بها في الوظيف . ولكن محمد السنوسي امتاز من ناحية أخرى بتمتعه بثقافة يمكن نعتها بكونها ثقافة عصرية وهي تلك التي حصل عليها من مطالعاته للصحف العربية وللمجلات المصرية ومن بينها المقتطف . وتلك المطالعات عرفته بما جد ويجد من تقدم في العلوم العصرية كما أن ما قام به من رحلات قد كان له ضلع في زيادة توسع تلك المعرفة ومتانتها ودقتها . فكان من أجل ذلك من نوع المثقفين الموسوعيين فهو قد كتب في شتى المواضيع اذ صنف في الأدب وفي القانون وفي التاريخ وفي المناقب . ونحن في هذا المجال نقتصر على ذكر عناوين هذه التآليف التي سبق لنا التعرض لها بالتحليل المعمق في كتابنا باللغة الفرنسية : مفكر تونسي من أهل القرن التاسع عشر : محمد السنوسي ، حياته وآثاره .

فالتآليف ذات الصبغة الأدبية هي التالية :

مجمع الدواوين التونسية وقد استغرق تأليفه له مدة ما بين سنة 1287 هـ . / 1870 وسنة 1292 هـ . / 1875 . وهو تأليف ضم عشرين جزءا استوعب فيها شعر نحو الخمسين فحلا من فحول الشعر بتونس . ولم يطبع منها الا جزءان هما

اللذان خص بهما محمد السنوسي أستاذه محمود قابادو نشرهما سنة 1294 هـ . / 1877 . وفي السنة الموالية نشر محمد السنوسي تأليفه المسمى غرر الفرائد بمحاسن الرائد وهو تأليف مفقود الآن ثم نشر تأليفه المسمى درة العروض سنة 1297 هـ . / 1880 . وفي ما بين سنة 1883 وسنة 1886 ألف محمد السنوسي الرحلة الحجازية في ثلاثة أجزاء . ونحن قمنا بتحقيقها ونشرها . ثم ألف محمد السنوسي سنة 1889 رحلته الاستطلاعات البازيسية وطبع الكتاب سنة 1891 . وفي سنة 1897 ألف رسالته في المرأة وعنوانها : تفتق الاكمام أو دراسة عن المرأة في الاسلام . وهو تأليف نصه العربي مفقود . وقد نشرنا نصه باللغة الفرنسية وأعددنا للنشر تعريبه وسيظهر للناس عما قريب ان شاء الله .

وبالاضافة الى هذه التآليف لمحمد السنوسي ديوان شعر حققناه وسلمناه قصد النشر الى مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية بتونس سنة 1975 . كذلك للمؤلف كناشان يحتويان على مذكرات ورسائل اخوانية احدهما يعد 47 ورقة والثاني به 113 ورقة .

اما التآليف ذات الصبغة القانونية فهي كتابه « المقاولات العشر » ألفه سنة 1878 وهو مفقود ثم كتابه : « الروض الزاهر في اسناد الحبس للاسلام الزاهر » وضعه سنة 1303 / 1885 .

ثم كتابة : مطلع الدراري بتوجيه النظر على القانون العقاري » طبع سنة 1305/1888 . وفي السنة نفسها وضع محمد السنوسي رسالته « نظام المدنية المفيد لكتاب العصر الجديد» وهو تأليف مفقود ثم كتب محمد السنوسي رسالة في المجبي سنة 1894 ولم نعثر الا على نصها باللغة الفرنسية .

وأما تآليف محمد السنوسي التاريخية فاولها مسامرات الظريف بحسن التعريف في ثلاثة أجزاء طبع الجزء الاول سنة 1298 هـ / 1881 وبقي الجزءان الآخران مخطوطين ثم كتب محمد السنوسي سنة 1882 النبذة التاريخية في منشأ الوزير مصطفى ابن اسماعيل وهو فيما نعلم لا يزال مخطوطا ثم الف كتابه خلاصة النازلة التونسية سنة 1885 وقد نشره الصادق بسيس سنة 1976 .

واما كتب المناقب فهي كتاب : « الاجنة الدانية الاقتطاف بمفاخر سلسلة السادات الاشراف » طبع هذا الكتاب سنة 1296 / 1878 ثم كتاب « تحفة الاخيار » طبع سنة 1302 /1885 ثم كتاب « المورد المعين » كتبه سنة 1308 / 1891 .

تحليل محتوى الجزء الثاني من المرحلة الحجازية

احتوى هذا الجزء الثاني من الرحلة الحجازية على مائتين وتسع وسبعين

صفحة (279) خصصها محمد السنوسي لذكر السفر الى آسيا فابتدأ بوصف بلاد الخلافة العثمانية وقدم لمحة تاريخية عن عاصمتها مدينة الآستانة حيث أقام من 21 جويلية 1882 الى 24 سبتمبر 1882 . (10) وتنتهي هذه اللمحة التاريخيه بايراد كامل القصيدة التي نظمها سنة 1198 هـ . / 1783 محمد بيرم الثاني في تعداد سلاطين آل عثمان وعنوانها : عقد الدر والمرجان في سلاطين آل عثمان (11) . وهي قصيدة من البحر الطويل خصص ناظمها خمس عشرة بيتا وهي مطلع القصيدة للحمدلة ثم أخذ الناظم في تعداد السلاطين العثمانيين منذ مؤسس الدولة عثمان الى الخليفة المعاصر للناظم وهو عبد الحميد الاول المتوفي سنة 1203 هـ . / 1789 . وفي تلك السنة وقعت اضافة ثلاثة أبيات الى القصيدة . وموضوع تلك الأبيات الثلاثة تنويه بالسلطان الجديد سليم الثالث . ثم بعد مدة أتم القصيدة بيرم الرابع حفيد بيرم الثاني فذكر السلاطين الذين تعاقبوا على دست الخلافة العثمانية حتى منتصف القرن التاسع عشر . (12)

ولعل القارىء لهذا الجزء الثاني من الرحلة الحجازية قد لا يستغرب من ايراد المؤلف لقصيدة عقد المرجان في سلاطين آل عثمان عندما يعلم أن محمد السنوسي قد أعرب عن مشاعره الوطنية وهو يتحدث عن تاريخ الآستانة وتاريخ الدولة العثمانية لما تحدث عن فتحها للبلاد التونسية سنة 1574 بعد استقرار الحكومة الاسبانيولية بها سنة 1535 على اثر تملكها للاندلس سنة 1492 . وفي هذا الصدد قال ما يلي :

« ولهذا كان لأهل المملكة التونسية مزيد تعلق بعرى الدولة العلية تعلق الممنون بصاحب المنة عليه في حفظ دينهم ... ولهذا كان للتونسيين الميل القلبي والتعلق الديني والتشبث الأدبي بمنة الدولة العلية عليهم ... ولهذا أجد من نفسي انبعاثا لتلاوة آيات سلاطين آل عثمان في فتوحاتهم (13) » .

وذكر محمد السنوسي انه حظي باستقبال رائع من لدن مواطنيه التونسيين المقيمين بالآستانة (14) وأنه استغل اقامته بعاصمة الخلافة العثمانية وقد استغرقت ما يربو عن الشهرين لزيارة مختلف معالم تلك المدينة وخاصة الجوامع والمساجد

---

(10) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 12 .

(11) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 5 – 10 .

(12) انظر : احمد عبد السلام : المؤرخون التونسيون ص : 291 .

(13) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص . 4

(14) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 12

والمكتبات (I5) وتناول بعد ذلك موضوع التعليم بدار الخلافة فأسهب في وصف مؤسسات التعليم (I6) . وعند وصفه للمتاحف التي زارها بالاستانة استطرد الى الحديث عن الزي الرسمي التركي وعن أصناف العمائم بتركيا وبتونس (I7) .

ثم واصل المؤلف وصفه للمعالم العمرانية وبتلك المناسبة أورد نص قصيدته في تهنئة الوزير خير الدين بتشييد قصره لما زار ذلك القصر (I8) . وتحدث بعد ذلك عن سير الأحوال الداخلية بعاصمة الخلافة العثمانية وعن الملابسات التي سبقت جلوس السلطان عبد الحميد الثاني على تخت الخلافة (I9) وعن الموقف الحقيقي لهذا السلطان بخصوص : المسالة التونسية (20) وختم هذا الفصل بتقديم نص القصيدة التي نظمها في مدح هذا السلطان (2I) .

اما الفصل الموالي فقد خصصه المؤلف للحديث عن اقامة التونسيين المصلحين بدار الخلافة العثمانية (22) فتحدث عن وضعية أولئك التونسيين وخاصة وضعية الوزير خير الدين وعن العمل الذي تقوم به الجالية التونسية المقيمة بدار الخلافة العثمانية في سبيل التعريف بقضية بلادهم تونس حيث انتصبت الحماية الفرنسية سنة I88I . واورد المؤلف في هذا الفصل محتوى الحديث الذي دار بينه وبين الوزير خير الدين في الآستانة بخصوص السياسة التي اتبعها عندما كان وزيرا اول بتونس من سنة I873 الى سنة I877 وبخصوص المشاعر التي كانت السياسة العثمانية توحي بها اليه .

فمحتوى هذا الفصل يمكننا من القاء اضواء جديدة على حقيقة مواقف الوزير خير الدين وافكاره قبل مباشرته للحكم بتونس فأثناءها ثم بعدها مع انارة جديدة لقضية الحكم المطلق والحكم الشوري وكيف كان مدار الامر فيهما اثناء تلك الفترات الحاسمة من التاريخ التونسي . ففي هذا الفصل حوار له اهمية فائقة ترتكز على استجلاء نظرية الحكم المطلق الاستبدادي والحكم الشوري كما كان يفهما أعلام الفكر وأركان الحركة الاصلاحية أمثال أحمد ابن أبي الضياف وخير الدين ومحمد بيرم الخامس والجنرال حسين .

(I5) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : I3 ـ I8
(I6) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : I9 ـ 20
(I7) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 2I ـ 28
(I8) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 29 ـ 38
(I9) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 38 ـ 42
(20) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 43 ـ 48
(2I) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 46 ـ 48
(22) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 48 ـ 57

ونلاحظ من ذلك الحوار تشددا في لهجة محمد السنوسي يشهد على صدق اخلاص الرجل لحركة النهضة والاصلاح ببلاده . كما نلاحظ تراجعا ملموسا في مواقف خير الدين أثناء مباشرته للسلطة واقراره بذلك التراجع مدة اقامتـــه بالآستانة وهو الذي سطر في كتابه أقوم المسالك أن الهدف الأسمى من تاليفه انما هو المساهمة في تحرير الفكر الاسلامي من التقليد وأن الحرية أمر مقـــدس بالنسبة للشعوب .

أمر آخر نلمسه من خلال هذا الفصل هو خيبة المهاجرين التونسيين الذين كان موقفهم ازاء الباب العالي موقفا عاطفيا فانهم اكتشفوا أثنــاء اقامتهـــم بالآستانة أن الحالة بالبلاد العثمانية أشد سوءا مما هي عليه بالبلاد التونسية اذ السلطنة العثمانية كانت تعاني اذاك سكرات الاحتضار .

وعقب هذا الفصل الذي عنوانه « الخبر عن التونسيين في الآستانة » عقد المؤلف فصلا آخر للحديث عن سفره من الآستانة الى مدينة جدة مرورا بأزمير (23) ثم ببورت سعيد (24) ثم بقناة السويس (25) . وكان عبور هذه القناة مناسبة اغتنمها محمد السنوسي لا يراد تاريخ السويس (26) .

أما الوصول الى مكة المكرمة التي فصل المؤلف القول في تاريخها (27) فقد صادف بيعة أمير جديد عليها . وبتلك المناسبة أورد محمد السنوسي قصيدته في مدح ذلك الأمير وقصيدة الشيخ حسن الوفاء في الموضوع نفسه (28) . ثم لما وقف المؤلف أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة القى قصيدة من نظمه (29) .

وقد اعتنى المؤلف أثناء اقامته بمكة المكرمة بما يجري فيها من نشاط علمي ووجد أن طريقة التدريس بالحرم المكي لا تبتعد عن الطريقة التونسية في القاء المسألة أولا ثم تطبيقها على الكتاب (30) .

وخصص المـؤلف لخبر سفره من المدينة المنورة الى دمشق مع الركب الشامي

---

(23) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 58
(24) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 62
(25) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 72
(26) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 72
(27) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 84
(28) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 98
(29) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص · 116
(30) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 94

صفحات عديدة (31) استطرد في أثناءها الى طرق عدة مواضيع أدبية وفقهية اجتماعية من ذلك أنه عجب كل العجب من أمر العلم في الحجاز والشام مع وجود فحول العلماء هنالك كلهم يقرىء العلوم الدينية والآلية احتسابا لربه وليس لواحد منهم معاش عن ذلك من أموال بيت المسلمين ولا من ادارة الأوقاف بحيث أنه لا جراية على التدريس ولا للمدرس أصلا مع أن صنف العلماء لا محالة مستحق من بيت مال المسلمين وان هذا الأمر عجيب بالنظر الى أمثال هاته الجهات التي هي منبت أصل الدين وذلك من أعظم ما ينبغي للدولة أن تهتم بشأنه (32) .

واسترعى انتباه المؤلف ما رأى عليه علماء الحجاز من عنايتهم بعدة لغات أكثرها عندهم ـ كما قال ـ اللسان التركي الذي هو لسان الدولة العلية واللسان الفارسي لكمال امتزاجه باللسان التركي واللسان الهندي لكثرة الوافدين من الهند واللسان الحبشي ولسان أهل جاوة وهاته الألسن زيادة على اللسان العربي الأصلي في جزيرة العرب (33) .

كما تحدث المؤلف عن الحجز الصحي المسمى بالكارنتينة في وادي الزرقاء فتعرض لمسألة العدوى في المرض وقضية الطبيب الذي يعجل بحياة المريض واهانة المرضى وابعاد امتعتهم الى ما يؤول بها الى النهب (34) . وأثناء اجتيازه لمرحلة وادي الزرقاء علم محمد السنوسي بخبر وفاة محمد الصادق باي تونس فكان ذلك سببا في استعادة المؤلف لذكريات ظروف مغادرته وطنه تونس (35) . ومن الأدلة على حب محمد السنوسي لوطنه تونس وحنينه الى مناظرها الجملية أنه كلما شاهد منظرا طبيعيا خلابا أثناء سفره تذكر ما يقاربه في الجمال من مناظر بلاده (36) .

وكان عبور المؤلف لصحراء الشام قد ذكره بخبر الغساسنة الذين كانت مساكنهم تصل الى تخوم بلاد الشام في التاريخ القديم لجزيرة العرب وكانت لهم عصرئذ حضارة مزدهرة فاغتنم محمد السنوسي هذه المناسبة للتوجه بالنقد

---

(31) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص . 121 وما بعدها

(32) انظر اسفله نص هذا الجزء الثاني ص : 127

(33) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص . 157

(34) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 172

(35) انظر اسفله . نص هذا الجزء الثاني ص . 173 ـ 176

(36) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 168 ـ 171

لنظرية ابن خلدون بخصوص نسبة التوحش للعرب ونزعتهم الى التخريب (37) . وختم المؤلف حديثه عن عبور الصحراء الشامية بقصيدة من نظمه (38) .

ومما لفت نظر المؤلف أثناء عبوره لصحراء الشام عدة قضايا اجتماعية من بينها أحوال النساء من ذلك ما ذكره لما حل بمنزلة بلد معان حين قال : « وقد سال تابع لنا امرأة انتسبت الى معان الحجازية عما وقع بينهم وبين أهل معان الشامية أخيرا فقالت وقعت معركة ذبحنا فيها سبعة عشر رجلا منهم وكسرنا قوائم رجلين وغلبناهم (39) » .

وواصل المؤلف حديثه عن بلد معان فقال : « وعند نزولنا أتوا من من فواكههم بالتين والرمان المجفف . وفيهم جمال بديع . غير أن البنات يشوهن وجوههن بلحى من الوشم تحيط بخدودهن الحمر احاطة النبات الاخضر بالشقيق الاحمر ويثقبن الانوف ويضعن فيها الحلق المتعددة تحليا بها (40) » .

وقد أعجب المؤلف بجمال نسوة أهل حوران ومن ذلك قوله : « وارتحلنا في وضوح النهار من يوم الاحد على صعوبة الارض بالمزالق الى أن خرجنا الى أرض محجرة وقطعنا جسر الرمثة ورأينا نسوة ذلك البلد الذي هو أول بلاد حوران وهن في غاية الجمال (41) » . وشاهد آخر على حب المؤلف للجمال قوله : « كان النزول مع توالي نزول المطر .... ولكن في هذا اليوم تواردت نسوة طفس يبعن الدجاج والبيض والحطب وكلهن جميلات الجمال البارع لولا انهن يستعملن وشما في عوارضهن وذقونهن على نحو اللحية للرجال (42) » .

وقد انتبه المؤلف الى وضع المرأة في بلد حوران فتحدث عن حالة التزويج عند الحورنيين وقال « أما أهالي قرى حوران فلهم نحلات وعوائد متباينة مثلا حالة التزويج عندهم في أكثر البلاد أن الوالد يعطي ابنته بشبه البيع بثمن باهظ ربما يأخذ فيه جميع كسب زوجها (43) » .

---

(37) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 189 – 190
(38) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 191 – 196
(39) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 150
(40) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 151
(41) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 182
(42) انظر اسفله نص هذا الجزء الثاني ص : 183
(43) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 190

أمـا مدينة دمشق فقد استحثت اعجاب محمد السنوسي بمعالم ماضيهـا المجيد وبمسجد الأمويين وباضرحتها العديدة وباسواقها وبمدارسها واخيـرا بفضائـل أهلها الذين يجمعون بين فضائـل العـرب وفضائـل التـرك (44) .

وأمـا مدينة بيروت فقد لخص المؤلف تاريخها ثم ذكر لنا ما قام بـه فيها من جولات سياحية استطلاعية وتحدث عن الشخصيات الاعلام الذين اجتمع بهم فيها خاصة في الأوساط الفكريـة (45) . ولاحظ المؤلف أثناء هذه المرحلـة من سفره ما يحظى بـه الشاميون واللبنانيون وخاصة اهل مدينة بيـروت من عناية فائقة بالآداب وشغف عظيم بالمساجلات الأدبية فكان ذلك مناسبة جـرت محمد السنوسي الى الحديث من فن التخميس وعن حل الألغاز الشعرية والمباحث اللغوية موردا الغاز الشيخ حمزة فتح الله وجواب الشيـخ سـالم بوحـاجب منها ثم جوابه هو نيابة عن استاذه الشيخ بوحاجب المتغيب فترتئذ عن تونس في اقامة بليفورنيـا (القرنـة) مع الجنرال حسين حسين (46) .

واتخذ المؤلف من سفره من مدينة بيروت الى مدينة تونس عن طريق البحر مرورا من بـورت سعيد وجزيرة مالطة مناسبة للحديث عن خاصيات السياسة الحسنـة المتبعة من طرف الانقليز في ادارة بورت سعيد وجزيرة مالطة وفي هذا الصدد قـال : « وبذلك رأيت من حسن السياسة الانقليزية ما هو من مشارع السياسة الاسلاميـة (47) » ثم قـال : « وقد أقمت بمدينة مالطة ثلاثة ايـام في انتظار نوبة البريد البحري الى تونس وجلت في طرائقها ومنازهها البرية والبحرية فرأيتها قد خرجت من حالة النكر التي أقام عليها بهـا أحمد فارس الشدياق مدة أربع عشرة سنـة (48) » .

وينتهي هكذا الجزء الثاني من الرحلة الحجازيـة بعودة محمد السنوسي الى تونس في يوم الاثنين 26 ربيع الاول سنـة 1300 هـ. / 5 فيفري 1883 (49) . وبقي المؤلف طوال ثلاث سنوات سنحت له خلالها عوارض وشواغل أثبطتـه عن جمع تقييدات رحلته فلم ينـه تحرير كامل أجزائها الثلاثـة الا في سنة 1886 . ثم ان تلك الاجزاء الثلاثة لم يكتب لها الرواج مطبوعة بل بقيت مخطوطـة الى

---

(44) انظر اسفله نص هذا الجزء الثاني ص : 196 ـ 207
(45) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 208 ـ 211
(46) انظر اسفله نص هذا الجزء الثاني ص : 214 ـ 273
(47) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 277
(48) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 278
(49) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 279

ان عثرنا عليها سنة 1965 فاعتنينا بتحقيقها ونشرها واستغرق ذلك منا عملا تواصل عشر سنوات كاملة اذ الأمور مرهونة لأوقاتها والبواعث موكولة الى مسبباتها .

وقد مكننا هذا العمل من كشف النقاب عن شخصية مفكر تونسي في الامكان وضعه دون تردد في عداد المصلحين من أهل النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وهو مصلح لئن لم يقم بدور له من البروز والأهمية ما للدور الذي قام به رجال مصلحون أمثال رفاعة رافع الطهطاوي والوزير المصلح خير الدين وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده فقد كان داعية ساهرا وأذاع تصورات عصره المتعلقة بيقظة الاسلام والمسلمين وبتقليد أوروبا والاقتباس عن الغرب .

وهنا يجدر بنا التذكير بان أسفار محمد السنوسي هي التي أكست آراءه قوة واتساع مجال بقدر لم يكن لتلك الأراء قبل السفر ويرجع ذلك الى ان الاتصالات الواسعة التي قام بها مع رجال العلم والعمل والفكر والسياسة أثناء رحلاته قد ساهمت في نمو فكر الرجل . كما أن مناقشاته مع عديد من الأدباء من ذوي الاتجاهات الفكرية المختلفة قد حققت له جدوى كبرى تمثلت في إرهاف أذواقه الفكرية .

فالرحلة الحجازية بأجزائها الثلاثة هي في هذا الصدد بمثابة المصيلة لمعارفه ولتصوراته الشخصية . وفي الامكان القول مع الشيخ الفاضل ابن عاشور : « ان الرحلة الحجازية هي بالنسبة الى كامل تآليف محمد السنوسي بمثابة الرأس للجسد » (50) . اذ هي في الوقت نفسه تقييد للمعارف والعلوم وكراس للمذكرات والسمة البارزة فيها الموسوعية وهي الطابع الرئيسي السائد على كامل الاجزاء التي ظهر المؤلف في مضامينها وكأنه اعتبرها وسيلة جديدة بتبليغ كل ما ارتآه خليقا بأن يقع الحفاظ عليه من التراث الفكري العربي الاسلامي .

فنحن اذا القينا نظرة شمولية تعم كامل تآليف محمد السنوسي ـ وهي تآليف متفاوتة في الغالب حجما وأهمية ـ وجدنا أنها تآليف تكون بالنسبة الى المؤرخ للأفكار في القرن التاسع عشر أدوات عمل ضرورية لانها تمنح عناصر انطلاقا منها يمكن استخلاص الاستنتاجات .

---

(50) انظر : محمد الفاضل ابن عاشور : اركان النهضة الادبية بتونس ، تونس 1965 . ص : 32

فعلى الصعيد الثقافي كان محمد السنوسي يدعو الى دراسة العلوم العصرية والتقنيات الحديثـة وكانت له بخصوص التعليم أفكار هي ان لم تكن تمامـا منفصلة عن التصورات التقليدية فهي تختلف عنها في بعض النقـاط .

وعلى الصعيد الديني حاول محمد السنوسي التوفيق بين قواعد الاسـلام ودعائمه وبين الممـارسات التطبيقية لها في عالم صار فيه وقع تأثير الغـرب متزايدا يومـا فيـوم .

وعلى الصعيد الفقهي القضائـي اعترف محمد السنوسي بأن تطبيق أحكام الشريعة يحتاج الى الاجتهاد حتى تقع الملاءمـة بينها وبين المتغيرات التي تحدث في ظروف عيش النـاس وأوصى بوجوب ايجاد التعديل بالبحث أساسـا عن مصلحة الأمـة وعلى ضوء هذا المبدأ برر المؤلف ضرورة الاقتباس عن الغـرب وكان من الدعاة اليـه . وقد استطاع بفضل ما له من تضلع في العلوم النقليـة والعقلية أن يجتهد في حل معضلات عصره باستخدام المنطـق والقياس وهو لئن كان مالكي المذهب فهو لم يتردد عن المتح من المذهب الحنفي في استدلالاتـه وفي ذلك دليل على سعة نظره ورحابة تسامحـه .

وبالاضافة الى دور محمد السنوسي المفكر المصلح هل في الامكان أن نسند اليه موقفـا ونشاطا سياسيين معينين بالتدقيـق ؟

الجواب عن هذا السؤال هو : نعـم

نعم ان محمد السنوسي رجل ملتزم سياسيا بمعنى أنه كان من أنصـار دعوة المسلمين الى اليقظة من نوم الغفلـة حتى يتم تحرير الأقطار الاسلامية من الوصاية الغربيـة . ونحن نذهب الى هذا الرأي بالرغم من تلك الأسطـورة التي راجت بين معاصريـه من المثقفين في تونس والتي تزعم أن الرجل قـد أمالته فرنسا الى صفها فصار لها مواسيا وعن مصالحها مدافعـا . ونحن ننعت هذا الزعم بانه أسطورة لأننا لم نقف على شيء يمكن اعتماده كبينة تخول لنـا مشاطرة ذلك الزعم خلال ما قرأنـا من تاليف الرجل . على أن من يقرأ الرحلة الحجازيـة يتبين سريعا أن مثل هذه التهمة إنما هي ضرب من التلفيق للحط من شـأن المفكر المتفتـح الواقعـي .

غير أن النزاهة العلمية تفرض علينا اجتناب التعصب العاطفي وتوخـي الاعتراف بأن مواقف محمد السنوسي كمفكر قد اعتورها في كثير من الأحيان شيء من التناقض بين مناهضة للحماية الفرنسية بتونس ومواداعة لها اثـر عودته من منفاه بقابس وبين روح محافظة الى أقصى الحدود ونظرة عصريـة

متفتحة كل التفتح . كل ذلك تجلى لنا من خلال فحصنا لآثار الرجل وألوان نشاطه وهو تيار يتعين التنبيه الى أنه كان سائدا بين معاصريه من أهل الربع الاخير من القرن التاسع عشر .

وتجرنا هذه المسألة المتعلقة بالمتناقضات في موقف مؤلفنا الى مسألة أخرى وهي أن محمد السنوسي كان موظفا حكوميا سواء في فترة نشاطه قبل انتصاب الحماية الفرنسية بتونس أو بعده ، والبديهي أن الوظيفة الحكومية بالنسبة للمفكر تكون في العادة بمثابة القيد الثقيل الذي يعوق انطلاقات فكره لانه وهو قابع في هذا القيد هو موظف امكانياته الخلاقة في خدمة السلطة وتبرير أفعالها .. غير أن هذه المقولة اذا هي تنطبق على بعض المفكرين في بعض البلاد الاخرى أو في أزمنة مغايرة فانها لا تنطبق على حالة محمد السنوسي . وتوضيحا لهذا فان محمد السنوسي كان قطعا أكثر تجديدا ومساهمة في الاصلاح بتونس من كثيرين غيره من مشائخ الزيتونة الذين بقوا في صحن الجامع الأعظم يلقون دروسهم التقليدية دون أن يلوا أية وظيفة حكومية . والحق أن دور المفكر في تونس في ذلك الوقت كان صعبا أن يقوم به بعيدا عن السلطة . ودور المفكر في مثل هذه الحالة أن يبحث عن صيغة يتعايش من خلالها مع المؤسسة التي ينتمي اليها ولو كانت الحكومة ويمارس في الوقت نفسه قدرته على طرح فكره الجديد الخلاق على نحو لا يصطدم به معها وان كان ذلك لا يعني حبس قدرته على التجديد داخل قالب السلطة .

لقد كان من اليسير على محمد السنوسي أن يعثر على هذه الصيغة في مطلع نشاطه الفكري والقلمي وخاصة إبان وزارة المصلح خير الدين فلم تكن الوظيفة الحكومية في تلك الفترة بالذات قيدا يعوق دون مفكر مثل محمد السنوسي بل كانت المكان المناسب الذي طرح من خلاله أفكاره الرائدة لتغيير المجتمع واصلاحه من خلال مؤسسة تصنع هذا التغيير فاستعان محمد السنوسي بوظيفته في الرائد التونسي لصنع هذا التغيير كما استعانت به الحكومة في نفس الصدد وكذلك كان الامر في الفترة الثانية من حياة محمد السنوسي فترة عهد الحماية الفرنسية مع فوارق كثيرة ليس لنا في هذا المجال استعراضها

والامر الذي لا ريب فيه من وجهة نظرنا هو أن محمد السنوسي رغم تعلقه بالنزعة السنية التقليدية المحافظة قد كان له ميل شديد ملحوظ الى التجديد الى حد أنه يمكن اعتباره مجددا خرج من مدرسة التقليد . وهذه النزعة

تمثلت في تناولــه شرح أسرار المخترعات الحديثــة والاكتشافات العلميــة العصرية بالاضافة الى شغفــه بوصف المظاهر التقنية في المدنية الغربية (51) .

ان من يطالع الرحلة الحجازية بأجزائهــا الثلاثــة سيقتنع بما اقتنعنا نحن به من أن محمد السنوســي قد تشرب أفكــار عصره تشربا جعلــه يمتاز عن معاصريــه من مشائــخ جامع الزيتونة بفكر متفتح سمتــه التسامح والاخــاء . فنحن رأيناه في غضون مضامين هذه الرحلة الحجازية بدا لنــا رجلا مكثــارا لربط صلات الود والاخاء وعلاقات الصداقة مع العديد من رجالات عصره يتبادل معهم وجهــات النظر وتجري له محادثــات مع أعلام لامعين في العالم العربي الاسلامي تميزوا بعلمهــم وعملهم في سبيل اصلاح حال الأمــة العربية الاسلامية سواء على صعيد الأخلاق أو على الصعيد التقني الحضاري قصد تحسين ظــروف الحياة الاجتماعيــة (52) .

ومما يلفت النظر في شخصية محمد السنوسي تفرده بسلوك لا يشبه في شيء سلوك المشائــخ الزيتونيين المعاصرين له وجلهم كان ينزع الى الفرار بعيدا عن مصاحبة أولي الامر وخلطتهم . وفعلا فان الدور الذي قام به مؤلفنا عندما كان يتولى رئاسة قلم تحرير جريدة الرائد التونسي قد جنبــه الوقوع في مثل تلك العزلــة والانطوائيــة .

ولا مجال للشك في أن محمد السنوسي يعد بحق احد عناصر المدرســة الاصلاحية التونسية التي تزعمها الوزير خير الدين وهي مدرسة كانت متألفة من أعضاء بعضهم من المماليك كالجنرال رستــم والجنرال حسين وغيرهما من أبناء البلد ولادة والبعض الآخر من أبناء البلد أصالة كمحمد السنوسي وكان احد العناصر الشابة في تلك الحركة الاصلاحية فليس غريبا أن نراه متأثــرا بالأفكار الأوروبية تأثرا أبلغ وأعمق ممن تقدمــه سنا كابن أبي الضيــاف ومحمد بيرم الخــامس .

وفعلا فان نزعة مؤلفنا الى الدفاع عن الأفكار السياسية الجديــدة والى التدليل على صلوحيتها هي نزعة طاغية في مجموع تآليف الرجل وخاصة في الرحلة الحجازيــة فقد كان محمد السنــوسي يحترق رغبــة في النضال في سبيل الأفكار الجديدة وكانت مقالاته وافتتاحياتــه بجريدة الرائد التــونسي

---

(51) انظر : محمد السنوسي : الرحلة الحجازية : الجزء الاول ، تحقيق علي الشنوفي الشركة التونسية للتوزيع تونس 1396 هـ . / 1976 .

(52) انظر : محمد السنوسي : الرحلة الحجازية : الجزء الثالث ، تحقيق علي الشنوفي الشركة التونسية للتوزيع ، تونس 1398 هـ . / 1978 .

أولا ثم بجريدة الحاضرة ثانيا موطنا للدعوة إلى الأفكار الجديدة في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي . وتمثلت احدى الأفكار الأساسية التي بلورها في مقالاته في الدعوة الى تعاون رجال الدولة مع رجال العلم في مجال الاصلاحات الضرورية للبلدان الاسلامية . وهكذا كان المقال الصحفي وسيلة ناجعة استخدمها محمد السنوسي للتوفيق بين العمل والفكرة .

والجدير بالذكر أن رحلات المؤلف سواء في ذلك رحلته الحجازية سنة 1882 أو رحلته الاستطلاعات البارسية سنة 1889 قد أحدثت في نفسه صدمة كانت صبغتها دهشة الانبهار بمشاهداته في بلاد الغرب ودهشة الألم والحسرة بمشاهداته في بلاد المشرق العربي الاسلامي . والقسط الكبير من طرافة الرجل يكمن في صراحة تعبيره عن أفكاره ومواقفه الامر الذي جلب له من الازعاج الشيء الكثير والهب ضده نقمة الحاسدين .

وقد استخدم المؤلف في نص الرحلتين الحجازية والباريسية الوصف الجغرافي والخبر التاريخي واستعملها وسيلة استعان بها على التعريف بالعالم الغربي الأوربي حيث لاحظ وجود حسن التنظيم للسلط العمومية وسيادة العدل والانصاف وانتشار التعليم فادرك أن كل ذلك ساعد عزة الغرب المسيحي.

على أن محمد السنوسي لم يقتصر على وصف محاسن الحضارة الغربية الأوربية مثلما فعل من تقدمه من المؤلفين التونسيين والمغاربة بل إن انتصاره للموضوعية والصراحة قد حمله الى القيام بتحليل للأسباب الرئيسية التي من أجلها كان العالم العربي الاسلامي عامة وتونس خاصة في عصره على جانب من التقهقر والتدهور وتلك الأسباب مردها في راي مؤلفنا الى سيادة الحكم الاستبدادي القهري والى سيادة الجهل . ولذلك لم ينس استنتاج عبرة وهن السيادة العثمانية من خلال عدة أحداث عاشها أو عاينها (53) .

ومن جهة أخرى قد أبرز تأليفه النبذة التاريخية في منشأ الوزير ابن اسماعيل مدى تفشي مرض الخيانة وسوء النية وفساد الأخلاق لدى من ضم بلاط الحسينيين بتونس من موظفين هم كالدمى دأبهم الارتشاء والفعل القبيح . والجدير بالذكر هنا أنه عندما سقطت وزارة المصلح خير الدين سنة 1877 تبعثر في

---

(53) انظر اسفله : نص هذا الجزء الثاني ص : 22 ـ 23 ـ 29 ـ 34 ـ 37 وخاصة ص : 38 ـ 39 ـ 40 ـ 43 ـ 44 ـ 45 ـ 50 ـ 54 ـ 90 ـ 95 ـ 114 ـ 123 ـ 149 ـ 150 ـ 165 ـ 168 ـ 173 ـ

الهجرة جل مماليك تونس بينما بقي بالبلد أبناؤه ومن بينهم محمد السنوسي الذي استمر على العهد فحمل مشعل حركة الاصلاح ولذا يمكن اعتباره حلقة هامة في سلسلة الحركة الاصلاحية لمواصلة نشاط مدرسة الوزير المصلح خير الديـــن .

لقد كان محمد السنوسي رجلا مصلحا بحق اي انه كان يرغب في ان تستعيد الأمة الاسلامية عزتها ومكانتها ونخوتها التليدة . وفعلا قد كان في عصره تدهور الأوضاع بالخلافة العثمانية ـ وهو تدهور صار اذاك ملموسا عند تفكك كيان الامبراطورية العثمانية بتحريض من دول العصر العظمى ـ هذا التدهور قد آكد اليقين عند محمد السنوسي بعسر بل بالاستحالة الفعلية عصرئذ للقيام باصلاح انطلاقا من الداخل . وكان للمصلحين فكرة حسنة عن التقدم الفكري والتقني والعمراني بفرنسا وقد بهرتهم انسانية شرائع فرنسا الامر الذي صيرهم يرون في حماية تلك الأمة الفرنسية وسيلة ناجعة للوصول تدريجيا الى هدفهم المنشود .

ذلك هو عين التصور الذي كان ـ في رأينا ـ محمد السنوسي يفكر فيه . فصار هذا التصور عنده عقيدة أسهب في شرحها في غضون نص الرحلة الحجازية وخاصة في ذيلها الاستطلاعات الباريسية . وما كان محمد السنوسي يعتقد أن ذلك الحل كان منه عدولا أو تنازلا عما كان ينشده ويصبو اليه من اصلاح لحال الأمة التونسية كما تشهد على ذلك تدخلاته بصفته زعيما يتكلم باسم الأمة التونسية سنة 1885 .

فنحن نرى من هذه الزاوية أن مؤلفنا محمد السنوسي مفكر تونسي في عداد الأعلام له طرافته . وقد تجلى ذلك كله في تمادي تأثيره المتواصل عبر جماعة خلفته هي جماعة حركة الاصلاح التي عدت أعلاما منهم علي بوشوشة والبشير صفر وعبد الجليل الزاوش ومحمد الأصرم وعلي باش حامبة وجميعهم رواد حركة تونس الفتاة .

وعلى صعيد آخر ليس في الامكان انكار ما للرجل من مهارة أدبية بالرغم من أنه قد أفرط في استخدام المحسنات البديعية عندما لم يقدر على الامتناع من طرق مواضيع شديدة التنوع . فقد كان محمد السنوسي ناظما وقصائده لم تكن قصائد الشاعر الفحل ومع ذلك قد كان له فضل يجب عدم استصغاره تمثل في كونه عوض الأسلوب التونسي الهرم بأسلوب كتابة غير ثقيل ولا غامض هو

أسلوب عصري حي يشبه أسلوب صحافة العصر وخاصة أسلوب جريدة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق وجريدة المقتطف .

لقد كانت مقالات محمد السنوسي تتسم بميزة الدقة والبيان واعتمد فيها الرجل على تبحره في علم اللغة ومهارته في استخدام الاستدلال البرهاني ارتكازا على القرآن والسنة وأقوال الحكماء والبلغاء . وتلك هي الوسائل الأسلوبية التي استغلها مؤلفنا في العرض وهو مع ذلك لم يغفل استخدام المصطلحات العلمية القديمة والحديثة ولم يتحرج من استعمال المعرب والدخيل . وتلك مبادرة جريئة اقدم عليها محمد السنوسي دون معاصريه .

ومهما يكن الراي الذي نصدره بشأن أسلوب محمد السنوسي فان الرحلة الحجازية بأجزائها الثلاثة لها طرافتها ولها قيمتها اذ المؤلف لم يقتصر على مواصلة فن كتابة المنتخبات الأدبية شان معاصريه وشأن من تقدمه زمنا بل ان حبه للآداب العربية قد دفعه الى اقامة لوحة أدبية حية عن الجهات الكبرى للعالم الاسلامي في القرن التاسع عشر . وبالاضافة الى هذا المظهر الأدبي يجدر بنا أن نلفت النظر الى المظهر التاريخي والمظهر النفساني وذلك ما أبرزه بوضوح ودقة الدكتور أحمد عبد السلام في كتابه « المؤرخون التونسيون من أهل القرن I7 والقرن I8 والقرن I9 » وذلك عندما ترجم لمحمد السنوسي باعتباره مؤرخا من أهل القرن التاسع فقال :

« وهكذا فان الرحلة الحجازية تضم صفحات عديدة يجد فيها المؤرخ لتونس في العصر الحديث وكذلك المؤرخ للعالم الاسلامي المعاصر اخبارا مفيدة وملاحظات سديدة بالغة القيمة . فالرحلة الحجازية تطلعنا لا على الاحداث فقط بل على اهتمامات المفكرين بالأقطار العربية التي يبلل البحر الأبيض المتوسط ضفافها خلال فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ثم ان هذه الرحلة قد تم تحريرها مباشرة اثر انتصاب الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية ولذا فانها تمثل وثيقة فريدة طافحة بالأخبار عن موقف متنوري هذه البلاد سواء من بقي منهم بتونس أو من هاجر الى ايطاليا والى المشرق » (54) .

(54) انظر : احمد عبد السلام ، المؤرخون التونسيون ... المطبعة الرسمية التونسية ، 1973 ، ص : 437 .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

مكـــ

الجزء [illegible] وسبعة [illegible]

اسم [illegible] الجزء [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] من [illegible] الجزء [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] بلاد الترك وبلاد [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

بـــلاد الترك

بـــلاد الترك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] وبلاد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

الحصين بحيث لم يغب عنه اللغة ولذلك لم يكن يعزب عنه جميع ما ورد
علولها بان امانه انما تقتضي بوجوب ما اورده ومن حفظه حجة على
من لم يحفظه المسلمين ما له بضرورة جملة المتفق حققنا انه
ومن ساعدنا انه انما [illegible] ابن اكب على ابن حبيب المنصر
وصالة الجريرة في ارتفاع كان [illegible] بعد ان وجه [illegible]
بصور بها [illegible] وتمر بها الاذان [illegible]
[illegible] وبها حمام وفيها [illegible] والكثير [illegible]
ما [illegible] [illegible] لباب [illegible] غلال [illegible]
ومن ارض [illegible] ما امره [illegible] مكان [illegible]
من نوع [illegible] من كرم [illegible]
[illegible] ولها [illegible] ما يجري [illegible]
من [illegible] ومنها من [illegible] اصلاة [illegible]
ما اقتضاه موضعها [illegible] وما كتبه [illegible] منها وحصول [illegible]
[illegible] لنبلغ به الى المقصد [illegible] حتى جعلت [illegible]
[illegible] اي فضيته [illegible] جميع [illegible] ولم يكن لنا [illegible]
[illegible] وعلى الله فضلا [illegible] وكان [illegible] بعد
زوال [illegible] [illegible] من ربيع الاول [illegible]
يوم الاثنين [illegible] من [illegible] مائة وانتهى .

[illegible]

[illegible]

/ باسم الله الرحمان الرحيم [1]

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم

الجزء الأوسط من الرّحلة الحجازية

القسم الثاني في السّفر إلى آسيا

لا خفاء على من علم الجغرافية أن قسم آسيا يحدّه شمالا البحر الشمالي وشرقا بوغاز بيرين (1) والأوقيانوس المحيط (2) وجنوبا الأوقيانوس الهندي (3) وغربا البحر الأحمر والسويس وبحر الروم (4) ومرمرا وبوغاز القسطنطينية والبحر الأسود وبحر القزوين وجبال أورال. ومساحتها ستّة عشر مليونا من الأميال مربّعة. وعدد سكّانها نحو خمسمائة مليون من النفوس. وهي تنقسم إلى أقسام كبرى وهي بلاد الترك وبلاد العرب وإيران وبلوختان وأفغنستان والتتّر المستقلّة وكرجستان الجراكسة وشيبيريا والصين واليابان والهند الصيني وهندستان وحولها جزر عظيمة مثل سيلان وسومطرة وغيرهما.

(1) بوغاز بيرين هو بحر « بيرين » Béring

(2) هو المحيط الهادي.

(3) هو المحيط الهندي.

(4) هو البحر الأبيض المتوسط.

بلاد الترك

بلاد الترك في آسيا يحدّها شمالا بحر مرمرا وبوغاز القسطنطينية والبحر الأسود وكرجستان وشرقا جزء من كرجستان ومملكة العجم وجنوبا خليج العجم وبلاد العرب وغربا بحر الروم والدردنيل . وتنقسم ستّة أقسام كبرى :

الأول : برّ الأناضولي ويسمّى آسيا الصغرى . والثاني : أرمينية . والثالث : كرد ستان أي بلاد الأكراد . والرابع : الجزيرة وهي / القسم [2] الشمالي الواقع بين الفرات ودجلة . والخامس : العراق العربي . والسادس : سورية أي برّ الشام .

وأمّا بلاد الترك في أوربا فيحدّها اليوم شمالا بلغاريا وسربيا وبوسنيا وشرقا البحر الأسود وبوغاز القسطنطينية وبحر مرمرا وبوغاز الدردنيل وجنوبا بحر الأرخبيل الرومي واليونان وغربا بحر أدريا والجبل الأسود .

ومن مدنها أدريانوبلي التي كانت مقرّ السلطنة قديما وسالونيكي . ومجموع بلاد الترك بأوربا وبلاد الترك بآسيا هو مسمّى المملكة العثمانية وقاعدتها القسطنطينية مقرّ خلافة الإسلام بسلطنة آل عثمان . وأكثر أهل هذه المملكة المتّسعة من المسلمين العرب والأتراك وفيها كثير من الروم والأرمن . وبسلطنة آل عثمان صارت القسطنطينية هي بيضة الإسلام يتعلّق بسلطانها جميع

ممالك الإسلام حتّى من الهند والصين بالدعاء للسلطان العثماني وهكذا سائر بلاد الإسلام في الكرة الأرضية .. نسأل الله أن يديم رفعة شأن هاته السلطنة العظمى والخلافة الإسلامية .

القسطنطينية

هي أعظم مدن الدنيا واليوم قاعدة سلطنة آل عثمان . وكانت تسمّى : بزنطية قبل التاريخ المسيحي باثنتي عشرة مائة سنة نسبة إلى بيزنس رئيس الماغريين واتّخذها ملوك الفرس قاعدة ملك في عصور خالية قبل المسيح وتناوبها ملوك اليونان ودخلت تحت مدينة سبارط من بلاد المورة (كذا) . وتداولتها الدول إلى أن اتّخذها الملك قسطنطين قاعدة الملك الروماني سنة 330 م . فأتقن ترميمها واستكمل رونقها وجعلها تخت قيصريته وقاعدة المملكة الرومانية . وعظم شأنُهَا وكثر شعبها واتّسَعَتْ تجارتها / وثروتها [3]
حتّى فاقت مدينة رومية التي كانت أمّ المدن الرومانية . واستمرّت على تلك السطوة وذاك الصيت مع اتّصال تجارتها بسائر جهات الْمَعْمُورِ حتّى كانت تُسمّى القسطنطينية البخرى (كذا) لكثرة ما يتصاعد من بخار وَاردات السفن إليها .

وعند انتشار الدين الإسلامي واتّساع فتوحاته سيّر لها معاوية (1) جيشا سنة 47هـ (2) مع سفيان بن عوف فأوغلوا في بلاد الروم وحاصروا القسطنطينية . وكان في ذلك الجيش ابن عبّاس وعمرو بن الزّبير وأبو أيّوب الأنصاري وتُوفّي في مدّة الحصار أبو أيّوب ودُفِنَ بالقرب من سورها .

وهكذا تناوب ملوك الإسلام تعاطي القسطنطينيّة ثمّ ظهر سليمان شاه بجنوده في صحاري بلاد أرمينيّة الكبرى وتقرّب من علاء الدين سلطان قونية أكبر السلاجقة . وبعد وفاته قام ولده أرطغرل (3) عند علاء الدين مَقَامَهُ وبعد وفاته قام ولده الغازي عثمان (4) جدّ سلاطين آل عثمان مقامه عند علاء الدين .

---

(1) معاوية بن أبي سفيان ولد بمكة قبل البعثة بخمس سنين وأسلم يوم فتح مكة وله من العمر ثلاث وعشرون سنة واتخذه الرسول كاتبا للوحي وغزا الشام تحت امرة أخيه يزيد وأصبح واليا للشام في زمن عثمان ولما استشهد عثمان وبويع علي بالخلافة في المدينة امتنع معاوية عن مبايعته واتهمه بالهوادة تجاه قتلة عثمان وايوائهم بجيشه . وبايع أهل الشام معاوية على المطالبة بدم عثمان . وتحارب الطرفان في صفين وكادت الغلبة تكون لجيش علي الا أن عمرو بن العاص أنقذ الموقف بطلب التحكيم ، فلما اجتمع الحكمان وفشل أمر التحكيم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة وبايع أهل العراق عليا خليفة عليهم . وما زال الخلاف محتدما بينهما حتى قتل الخوارج علي بن أبي طالب وسلم ابنه الحسن الخلافة إلى معاوية عندما يئس من نصرة أهل العراق له ورأى أن لا قبل له بمعاوية وجنده . فاجتمع أهل العراق والشام على بيعة معاوية وبدأ بتنظيم أمور الدولة سنة 40هـ./660م. وتوفي معاوية سنة 60هـ./680م. (راجع : حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج 1 ص 299—308 . ط 3. القاهرة 1953 . راجع أيضا : رفيق المهايني ، تاريخ الخلافة الأموية والعباسية والدول الاسلامية وأوربا في العصور الوسطى ، دمشق 1951 ، ص 3—8 .

(2) المشهور أن معاوية جهز في سنة 48هـ. جيشا لفتح القسطنطينية برا وبحرا وكان هذا الجيش بقيادة سفيان بن عوف وخرج معه عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وأمر معاوية ابنه يزيد على الجيش فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم . ولم يستطع جيش العرب فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها وفتك النار الاغريقية بسفن المسلمين وفي أثناء الحصار قتل أبو أيوب الانصاري سنة 678م. فدفن خارج القسطنطينية بالقرب من سورها ولا يزال قبر أبي أيوب بجوار مدينة القسطنطينية يزار حتى الآن وعليه مسجد كان الخلفاء العثمانيون يتوجون فيه .
أنظر أسفله صفحة 13 : ترجمة أبي أيوب الانصاري (راجع : حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ... ص 302 . ورفيق المهايني ، تاريخ الخلافة الأموية والعباسية . ص 7. . انظر أيضا : Brockelmann, *Histoire des Peuples et des Etats Islamiques*, Paris, 1949, p. 237.

(3) هو أرطغرل بن سليمان شاه وهو رئيس عشيرة تركمانية وكان تابعا لسلاطين السلاجقة في قونيا . واشترك معهم في الحروب ضد التتر وغزا أملاك بيزنطة وتوفي بين 1281م. و 1288م.

(4) عثمان الأول زعيم أتراك وادي قره سو في الأناضول . هزم البيزنطيين عند بروسا وأزنيق سنة 1301م. ثم أسس سلالة بني عثمان . ملك بين سنة 1299م. وسنة 1326م.

وعند انقراض الدولة السلجوقية (1) تولّى تخت سلطنتهم عثمان المذكور وقد أظهر هذا السلطان من نخوة السلطنة وشدّة البأس وإدامة الفتوحات (2) ما اعتزّ به الإسلام وحمى بيضته . فكان هو وبنوه من بعده مؤيّدين بالفتوحات في سائر حروبهم والحال أنّهم كان يحاربهم الأعجام والعرب والروس والنمسا والمجر والبندقية واليونان مع مساعدة الإنقليز والفرانسيس والسبنيول والطليان وغيرهم .

وكانت القسطنطينية العظمى محطّ رحالهم فهاجمها أورخان
سنة 1336م. (3) وبايزيد (4) ومراد الأوّل (5) وفتحها عدّة مرّة إلى أن وصلوا
إلى ضواحي الآستانة . وبالأخارة أتمّ اللّهُ فتح القسطنطينية بخروجها من
يد الرومانيين للسلطان الفاتح محمّد الثاني (6) في العشرين من جمادى / الأولى [4]
سنة 857هـ. (7) وصيّرها قاعدة السلطنة الإسلامية العظمى .

وأخبار هذا الفتح المبين مسطّرة في الدواوين . يرى بها المطالع ما كان من سطوة الإسلام بأولئك السلاطين الأعلام لا زالت السلطنة الإسلاميّة

---

(1) الدولة السلجوقية نسبة إلى سلجوق زعيم تركماني ظهر في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي . والسلجوقيون هم ثلاثة فروع : فرع إيران والكرمان وآسيا الصغرى . وتغلغل السلجوقيون في مصاف الجيوش الاسلامية وخدموا الخلفاء العباسيين في آسيا وناصروا أهل السنة على الشيعة . ثم قبضوا على زمام الأمر وكان زعيمهم طغرل بك من الفرع الايراني . وأبلى السلجوقيون البلاء الحسن في الحروب الصليبية . وانقرضت دولتهم في إيران عند ظهور الدولة الخوارزمية وسقطت في بلاد الكرمان تحت وطأة المغول . أما في آسيا الصغرى فنشأت منها دولة بني عثمان .

(2) أشهر تلك الفتوحات الانتصارات التي حققها ضد البيزنطيين في بروسا وفي أزنيق سنة 1301م .

(3) أورخان (1288م. ؟ – 1359م. ؟) ابن الأمير عثمان . هو مؤسس الامبراطورية العثمانية أنشأ جيشها وقوى سلطته في آسيا الصغرى ثم اجتاز البوسفور فاتحا مكدونيا وتراقيا .

(4) بايزيد الأول أو أبو يزيد (1347–1403م). الملقب : يلدرم أو البرق . سلطان عثماني (1389م. – 1403م.) حاصر القسطنطينية سبعة أعوام ولكن دون جدوى . وانتصر في حروب البلقان والأناضول . كسره تيمورلنك في وقعة أنقره فأسره (1402م.)

(5) مراد الأول هو ثالث سلاطين بني عثمان . نظم عسكر الانكشارية ووسع أملاك الدولة العثمانية في الأناضول واغتنم الفرصة من إنقسام الدول المسيحية على بعضها ليتوغل في البلقان . وقتل مراد الأول في وقعة كسوفا في محاربة السرب سنة 1389م.

(6) السلطان محمد الثاني (1451م. – 1481م.) فتح القسطنطينية سنة 1453م .

(7) يوافق سنة 1453 الميلاديسة .

بسلاطين أبنائهم محفوظة . وبعين العناية الإلاهية ملحوظة . فقد صانت بيضة الإسلام في كثير من أقطار المعمور حتّى كان فتحها للبلاد التونسيّة (1) بعد استقرار الحكومة السبنيوليّة بها على إثر تملّكها للأندلس (2) من الأيادي الإسلاميّة الباقية بحول الله إلى يوم النشور .

ولهذا كان لأهل المملكة التونسيّة مزيد تعلّق بعرى الدولة العليّة تعلّق المَمْنُون بصاحب المِنّة عليه حفظ دينهم الذي كان معرّضا للتّلف لما رأوا عليه أهل مملكة الأندلس التي هي أعظم من تونس شأنا وأكثر عمرانا وأعرق في حضارة الإسلام وأقرب لرعاية الذمام فلم يمض عليها غير ما مضى من الأعوام وأكْرِهَ أهلُها على ترك الإسلام وصاروا إلى ما هم عليه في هاته الأيّام .

ولكن بمزيّة السلطنة العثمانية وعناية السلطان سليم (3) بردّ الله ثراه وقع فتح تونس (4) بإرجاعها للإسلام وافتكاكها من يد السبنيول بعد أن استقرّ بها تلك الأعوام . ولهذا كان للتونسيين الميل القلبي والتعلّق الديني والتشبّث الأدبي بمنّة الدولة العليّة عليهم يرون التعلّق بأذْيالها من واجبات الذمم بين الأمَم ونبذ حرمتها من كفران النعم وانتهاك الحرم . نسأل الله أن يجازي سلاطين الدولة العليّة عن أهل الإسلام في هاته المملكة بالجزاء الأوفر وأن يحفظ هذا الدين بتأييده المبين .

---

(1) استولى الأتراك العثمانيون على تونس سنة 1574م. على يد القائد سنان باشا .

(2) كان ذلك سنة 1492م. عند سقوط غرناطة بيد الاسبان .

(3) هو السلطان سليم الثاني : سلطان بني عثمان الحادي عشر (1566–1574) . أنظر ترجمته في دائرة المعارف الاسلامية ، ط 1 ج 4

(4) كان نزول الاسبان قرب حلق الوادي في 15 جوان 1535 بقيادة شارل كانت الذي وقع معاهدة سلم مع الأمير الحفصي الحسن بن محمد في 6 أوت 1535 . واستمر الاسبان بتونس إلى أن قدم سنان باشا على رأس أسطول عثماني لنصرة تونس وطرد الاسبان فنزل بحلق الوادي في 15 جويلية 1574 . أنظر : أرتور بالقريين ، تاريخ تونس ، ط. تونس 1948 ، ص 138–142 . أنظر أيضا : أحمد ابن أبي الضياف ، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تونس 1963 ، ج 2 ص 20 .

ولهذا أجِدُ من نفسي انبعاثا لتلاوة آيات سلاطين آل عثمان في فتوحاتهم التي اعتزّ بها أهل الإيمان ولكن موضوع مقامي يمنعني من إطالةَ [5] القول بما هو مخلّد في بطون الصحف وحوته تفاصيل التواريخ وإيراده او إيراد بعضه في هذه الفصول يعدّ من الفضول . وأنا على يقين من أنّ ذكري لمزاياهم التي خلّدتها الأساطيل والمدافع والسيوف ليس فيه لضعيف خامل مثلي مزيّة ، والشمس عن مدح المادح غنيّة .

ومع ذلك لم أجد بدّا من ترديد ذكرهم بإيراد قصيدة تونسيّة نظمها شيخ الإسلام البيرمي الثاني (1) وسمّاها ، عقد المرجان في سلاطين آل عثمان ، نحلّي بها جيد هذا الكتاب ومن لم يجد ماء تيمّم بالتراب وهي قوله :

(قصيدة شيخ الإسلام محمد بيرم الثاني :
عِقْدُ المَرْجَان في سَلاَطِين آلِ عُثْمَانَ)

[من بحر الطويل]

1 ــ أُقَدِّمُ قَبْلَ الْقَصْدِ شُكْرًا لِمُنْعِمِ
عَلَيْنَا بِمَا أَرْبَى عَلَى كُلِّ أَنْعُمِ

2 ــ عَلَى عِزِّ هَذَا الدِّين وَالْمِلَّة الَّتِي
لَحِقَتْهَا فَازَتْ بِفَضْلِ التَّقَدُّمِ

3 ــ وَأَتْبِعُهُ أَزْكَى الصَّلاَةِ مُسَلِّمًا
عَلَى أَشْرَفِ الْمَخْلُوقِ قَدْرًا وَأَعْظَمِ

4 ــ نَبِيٌّ لَهُ وَصْفُ النُّبُوَّةِ ثَابِتٌ
وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ فَافْهَمِ

(1) هو محمد بيرم الثاني ولد عام 1162هـ./1748م. وتوفي عام 1247هـ./1831م. أنظر ترجمته : اتحاف ، 7 ، – ص 158–162 .

5 ـ مُحَمَّدٍ مَنْ قَدْ أظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ
بِمَكَّةَ ذِي الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمُعَظَّمِ

6 ـ وَأعْلاَهُ بِالأنْصَارِ إذْ حَلَّ طِيبَةَ
فَحَيَّا بِوَجْهٍ مُشْرِقٍ ذِي تَبَسُّمِ

7 ـ وَمَا زَالَ مَحْرُوسَ الْجَنَابِ مُؤَيَّداً
بِكُلِّ إمَامٍ بِالْعُلاَ ذِي تَهَمُّمِ

8 ـ مَحُوطاً إلَى أنْ آلَ تَدْبِيرُ أمْرِهِ
وَحِفْظُ حِمَاهُ بِالْخَمِيسِ الْعَرَمْرَمِ

9 ـ لِحَيٍّ حَلاَلٍ يَعْصِمُ النَّاسَ أمْرُهُمْ
إذَا طَرَقَتْ إحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ

10 ـ كِرَامٍ فَلاَ ذُو الضِّغْنِ يُدْرِكُ تَبْلُهُ (1)
لَدَيْهِمْ وَلاَ الْجَانِي عَلَيْهِمْ بِمُسْلَمِ

11 ـ مُلُوكِ بَنِي عُثْمَانَ سِلْسِلَةِ الْعُلاَ
غُصُونٍ نَمَتْ إذْ فُرِعَتْ مِنْ غَطَمْطَمِ (2)

12 ـ فَلِلَّهِ مَا قَدْ شَيَّدُوا مِنْ بِنَائِهِ
وَمَا هَدَمُوا لِلْكُفْرِ مِنْ كُلِّ مَعْلَمِ

13 ـ لَقَدْ أحْكَمُوا أمْرَ الْجِهَادِ بِمَا أتَوْا
بِأعْظَمِ صُنْعٍ فِيهِ مِنْ بَعْدِ أعْظَمِ

/ [6]

14 ـ فَكَانَ لَهُمْ وَاللَّهُ يَكْلَأُ مَجْدَهُمْ
بِمَا فَعَلُوا حَقّاً عَلَى كُلِّ مُسْلِمِ

---

(1) التبل : الحقد .
(2) الغطمطم : البحر العظيم .

15 ـ وَقَدْ رُمْتُ فِي ذَا النَّظْمِ جَمْعَ مُلُوكِهِمْ
وَجَمْعَ مَزَايَاهُمْ لِتُرْوَى فَتُعْلَمِ

16 ـ فَأَوَّلُهُمْ عُثْمَانُ بَاكُورَةُ الْعُلاَ
مُذِيقُ الرَّدَى مِنْ بَأْسِهِ كُلَّ مُجْرِمِ

17 ـ لَهُ فُتِحَتْ بُورْسَا (1) فَأَضْحَتْ سَرِيرَهُمْ
فَكَانَ لَهَا فِي ذَاكَ فَضْلُ التَّقَدُّمِ

18 ـ وَثَانِيهِمْ أُرْخَانُ مَنْ قَدْ أَتَتْ بِهِ
كَرِيمَةٌ مِنْ صُلْبِ الْوَلِيِّ الْمُعَظَّمِ

19 ـ شَجَاعَتُهُ قَدْ أَظْهَرَتْهَا حُرُوبُهُ
فَعَنْهُ بِمَا تَخْتَارُ فِيهَا تَكَلَّمِ

20 ـ وَثَالِثُهُمْ مَنْ نَالَ فَضْلَ شَهَادَةٍ
مُرَادٌ (2) مُحَلِّي الْقَرْنِ حَمْزَةُ عِنْدَمِ

21 ـ فَذَاكَ الَّذِي قَدْ فَضَّ خَتْمَ أَدْرَنَةَ (3)
فَذَاقَتْ بِهِ بَرْدَ الْهَنَاءِ وَالتَّنَعُّمِ

22 ـ وَرَابِعُهُمْ شَمْسُ الْعُلاَ بَايَزِيدُهُمْ (4)
مَوَاقِفُهُ فِي الْحَرْبِ مُرَّةُ مَطْعَمِ

23 ـ لَئِنْ كَانَ مَعْ تَيْمُورَ مَا أَنْفَذَ الْقَضَا
فَإِنَّ ارْتِكَابَ الْغَدْرِ مَنْشَأُ التَّثَلُّمِ

---

(1) هزم عثمان بن ارطغرل البيزنطيين في بروسا سنة 1301م .

(2) هو مراد الأول ، ثالث سلاطين بني عثمان نظم العسكر الانكشاري ووسع أملاك الدولة في الأناضول وتوغل في البلقان وقتل في وقعة كسوفا في محاربة السرب سنة 1389م. انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ط 1 ، ج 3

(3) أدرنة : كانت من مدن الامبراطورية البيزنطية فتحها السلطان مراد الأول سنة 1362م.

(4) هو بايزيد الأول أو أبو يزيد (1347—1403) الملقب : يلدرم : أو البرق . تولى السلطنة العثمانية من سنة 1389 إلى سنة 1403 . حاصر القسطنطينية سبعة أعوام ولكن دون جدوى ، وانتصر في حروب البلقان والأناضول . كسره تيمورلنك في وقعة أنقرة فأسره سنة 1402م .

24 ـ وَلاَ عَجَبَ لِلأُسْدِ إنْ ظَفِرَتْ بِهَا
كِلاَبُ الأَعَادِي مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ

25 ـ فَحَرْبَةُ وَحْشِيٍّ سَقَتْ حَمْزَةَ الرَّدَى (1)
وَحَتْفُ عَلِيٍّ مِنْ حُسَامِ ابْنِ مُلْجَمِ (2)

26 ـ وَخَامِسُهُمْ فَخْرُ الْمُلُوكِ مُحَمَّدٌ (3)
مُجَدِّدُ هَذَا الْمُلْكِ بَعْدَ التَّصَرُّمِ

27 ـ وَسَادِسُهُمْ ثَانِي المُرَادَيْنِ مَنْ رَقَى (4)
مِنَ الْعِزِّ مَرْقَى لاَ يُنَالُ بِسُلَّمِ

28 ـ تَخَلَّى عَنِ الأَمْرِ اخْتِيَاراً لِشِبْلِهِ
وَعَادَ مُجْبَرِ الْحَالِ خَوْفَ تَأَلُّمِ

29 ـ وَسَابِعُهُمْ فَحْلُ الْفُحُولِ مُحَمَّدٌ
لَهُ فَتْحُ اسْطَنْبُولَ أَشْرَفُ مَغْنَمِ (5)

30 ـ عَقِيلَةٌ (6) عَنْ صَيْدِ الْمُلُوكِ تَمَنَّعَتْ
وَكُلُّهُمْ فِي وَصْلِهَا ذُو تَهَمُّمِ (7)

---

(1) الحربة هي آلة للحرب من الحديد قصيرة محددة وهي دون الرمح . أما حمزة فهو عم النبي (ص) وهنا إشارة إلى مقتله في وقعة أحد سنة 627م .

(2) هنا إشارة إلى مقتل علي بن أبي طالب في الكوفة سنة 661م. قتله عبد الرحمان بن ملجم الخارجي .

(3) هو السلطان العثماني محمد الأول ، دامت ولايته من سنة 1416م. إلى سنة 1421م. . انتصر على السرب وعلى أسطول البنادقة .

(4) هو السلطان مراد الثاني دامت ولايته من سنة 1421م. إلى سنة 1451م. حاصر القسطنطينية لكنه لم يقو على فتحها . دارت الحرب سجالا بينه وبين الدول الغربية في البلقان وعلى حدود هنغاريا .

(5) دخل السلطان محمد مدينة القسطنطينية مظفرا في 29 ماي 1453م. وهو الذي حول وصير كنيسة آيا صوفيا جامعا اسلاميا . وآيا صوفيا معناها باليونانية : الحكمة المقدسة . وكان الملك قسطنطين بني تلك الكنيسة سنة 320م. ودامت ولاية هذا السلطان العثماني من سنة 1451م. إلى سنة 1481م.

(6) العقيلة : بمعنى الدرة .

(7) تهمم الشيء : طلبه وتحسسه .

31 ــ لَقَدْ جَاءَهَا يَخْتَالُ فِي الْعِزِّ مُودِعًا
خَبَايَا الْمَنَايَا عِنْدَ جَيْشٍ عَرَمْرَمِ

32 ــ لَدَا أَسَدٍ شَاكِي السِّلاَحِ مُقْذِفٍ
لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

33 ــ فَزَحْزَحَ عَنْهَا سَيِّدَ الرُّومِ خَاسِئًا
لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ

34 ــ وَحَلَّ بِهَا لَمَّا تَنَاءَتْ جُنُودُهُ
بِتَكْبِيرِ مُنْشِي الْعَالَمِينَ وَمُعْدِمِ

[7] /

35 ــ وَقَدْ وَسَمَ السَّيْفُ الْعِدَى فِي رُؤُوسِهِمْ
كَأَنَّهُمْ قَدْ خَضَبُوهَا بِعَظْلَمِ (1)

36 ــ فَمَا الْحَرْبُ إِلاَّ مَا رَأَوْا مِنْ بَلاَئِهِ
وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ (كذا)

37 ــ وَثَامِنُهُمْ فَرْعٌ لَهُمْ بَايَزِيدُهُمْ (2)
أَخُو الْجُودِ مَنْ ذَا سَدَّ خَلَّةَ مُعْدِمِ

38 ــ وَتَاسِعُهُمْ مِفْتَاحُ فَتْحِ مَمَالِكَ
غَدَتْ فِي جَبِينِ الدَّهْرِ غُرَّةَ أَدْهَمِ

39 ــ سَلِيمٌ (3) الَّذِي قَدْ حَلَّ بِالشَّاةِ (كذا) بَأْسُهُ
فَأَدْبَرَ يَطْوِي الأَرْضَ مِنْ قُرْبِ جَهْضَمِ (كذا)

---

(1) العظلمة : الظلمة .

(2) هو ابن السلطان محمد الفاتح دامت ولايته من سنة 1482م. إلى سنة 1512 (26 ماي 1512) .

(3) هو سليم الأول دامت ولايته من سنة 1512م. إلى سنة 1520م. والمراد بالشاة هنا شاه كولي زعيم شيعة آسيا وقد هزمه السلطان سليم في وقعة شلديران في 23 أوت 1514م. كما انتصر سليم الأول على قنصو الغوري سلطان المماليك في وقعة مرج دابق بالقرب من حلب سنة 1516م. وفتح سوريا ومصر .

40 ــ وَلاحَ بِتَبْرِيزَ سَنَاهُ فَأَصْبَحَتْ
عَرُوسًا تَجَلَّتْ فِي وِشَاحٍ مُنَمْنَمِ

41 ــ وَمَنْ بَرَقَتْ بِالشَّامِ أَنْوَارُ بَرْقِهِ
دَعَتْهُ دُعَاءَ الْبَائِسِ الْمُتَظَلِّمِ

42 ــ فَسَكَّنَ مِنْهَا رَوْعَةً بِقُدُومِهِ
وَضَمَّتْ عَلَيْهِ سُورَهَا ضَمَّ مِعْصَمِ

43 ــ وَوَاجَهَ مِصْرَ بِالأَذَى إِذْ تَلَكَّأَتْ
فَأَجْرَى بِهَا نِيلاً تَدَفَّقَ بِالدَّمِ

44 ــ وَقَدْ غَرَّهَا الْغَوْرِيُّ فَغَارَ بِدَافِقٍ
وَأَقْبَلَ طُومَانُ (1) كَذِئْبٍ لِضَيْغَمِ

45 ــ فَأَصْبَحَ مَصْلُوبًا بِبَابِ زَوِيلَةَ
يُدَاسُ بِأَقْدَامٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمِ

46 ــ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَبْنَاءِ جَرْكَسَ نَاعِقٌ
كَأَنَّهُمْ قَدْ لامَسُوا عِطْرَ مَنْشَمِ (2)

47 ــ وَأَضْحَى سَلِيمٌ لِلْمَقَامَيْنِ خَادِمًا
بِذَاكَ يُنَادِي لِلسَّلاطِينِ خَادِمِي

48 ــ وَعَاشِرُهُمْ ذُو الرَّأْيِ وَالْبَأْسِ وَالنَّدَى
سُلَيْمَانُ جَرَّاعُ الْعِدَى كَأْسَ عَلْقَمِ (3)

---

(1) طومان : هو طومان بك سلطان مصر هزمه السلطان سليم الأول ومات خنقا في حبسه بالقاهرة في 13 أفريل سنة 1517م. (راجع : بروكلمان ، تاريخ الشعوب والدول الاسلامية ، باريس 1949 ، ص 245 .

(2) منشم : اسم امرأة عطارة كانوا إذا تطيبوا من عطرها اشتدت الحرب بينهم فصارت مثلا في الشر يقال : أشأم من عطر منشم .

(3) هو سليمان الأول القانوني (1520–1566) لقبه الاتراك بالقانوني والافرنج بالمعظم . قاد بذاته الحرب بثلاث عشرة حملة منها عشر في أوروبا وثلاث في آسيا فوسع حدود السلطنة .

49 ـ قَدِ انْتَظَمَتْ بَغْدَادُ فِي سِلْكِ مُلْكِهِ
فَصَارَ لَهُ أَمْرُ الْعِرَاقَيْنِ يَنْتَمِي

50 ـ وَقَدْ ظَهَرَتْ آثَارُهُ بِحَدِيثِهَا
حُدَاةُ الْوَرَى تَحْدُو بِهِ كُلَّ مَوْسِمِ

51 ـ فَمِنْهَا وَيَا لِلَّهِ غَزْوَةُ رُودِسَ (1)
تُغَنِّي بِهَا طَيْرُ الْفَلاَ بِتَرَنُّمِ

52 ـ وَفِي سَكَنْتَوَارَ (2) بَعْدَ أَنْ فُتِحَتْ لَهُ
أَجَابَ إِلَى الْمَوْلَى بِقَلْبِ مُسْلِمِ

53 ـ فَلاَحَتْ بِأُفْقِ الْمُلْكِ طَلْعَةُ شِبْلِهِ
سَلِيمِ عَظِيمِ الْقَدْرِ فَرْعِ مُعَظَّمِ (3)

54 ـ لِهِمَّتِهِ الْعُلْيَا قُبْرُصُ (4) أَذْعَنَتْ
تُقَابِلُ مَسْعَاهُ بِوَجْهِ مُغَشَّمِ (5)

55 ـ وَفِي يُمْنِ مِنْ بَعْدُ بَدَا فُتُوحُهُ
لِوَاحِدِ الأَرْضِ أَتَى بِالْمُتَمَّمِ

/ [8]

56 ـ وَأَحْيَا بِهِ الرَّحْمَانُ تُونُسَ عِنْدَمَا
غَدَتْ بَعْدَ عِزٍّ شَامِخٍ فِي تَحَطُّمِ (6)

57 ـ فَشَدَّ بِضَبْعَيْ سَعْدِهَا فَأَقَامَهُ
وَكَانَ بِقَهْرِ الأَسْرِ صَاحِبَ مَحْتَمِ (كذا)

---

(1) سقطت رودس في يد جيش السلطان سليمان الأول في 21 ديسمبر 1522م.

(2) كذا بالنص .

(3) هو سليم الثاني (1566—1574) .

(4) استولى الاتراك على جزيرة قبرص سنة 1570 وافتكها منهم الانقليز سنة 1878 ثم صارت دولة مستقلة سنة 1960 .

(5) المغشم : الشجاع الذي يركب رأسه فلا يثنيه شيء عما يريد .

(6) إشارة إلى حملة النجدة التي قادها سنان باشا إلى تونس سنة 1574 فأطرد الاسبان وانتصر عليهم

58 ــ وَمِــنْ بَعْــدِهِ قَدْ بَايَعَ النَّاسُ فَــرْعَــهُ
مُرَادًا كَرِيمَ النَّفْسِ وَابْنَ مُكَرَّمِ (1)

59 ــ وَيَتْلُــوهُ فِــي دَسْتِ الإِمَامَةِ شِبْلُــهُ
مُحَمَّدُ مُغْضِي الطَّرْفِ عَنْ فِعْلِ مَأْثَمِ (2)

60 ــ أَقَامَ عَلَى أَغْرَى (كذا) فَأَبْدَى بِأُفْقِيهَا
سَحَائِبَ حَرْبٍ أَمْطَرَتْ كُلَّ لَهْزَمِ (كذا)

61 ــ وَعَــفَّــرَ لِلرَّحْمَانِ فِــي الأَرْضِ وَجْهَــهُ
فَتَــابَ بِفَتْــحٍ لِلطَّــوَاغِيثِ مُــرْغِــمِ

62 ــ وَقَامَ ابْنُهُ ذُو الحُسْنِ أَحْمَدُ بَعْــدَهُ (3)
يُحَيِّ بِبَــدْرٍ تَحْــتَ تَــاجٍ مُنَــظَّــمِ

63 ــ وَمِــنْ بَعْــدَ هَــذَا مُصْطَفَى بْنُ مُحَمَّدٍ
أُقِيمَ وَلَكِــنَّ عَقْدَهُ غَيْــرُ مُبْــرَمِ (4)

64 ــ فَبُويِــعَ عُثْمَــانُ بْــنُ أَحْمَــدَ بَعْــدَهُ
وَأُنْــزِلَ عَــنْ قُــرْبٍ لأَمْــرٍ مُحَتَّــمِ (5)

65 ــ وَقَــدْ عَادَ بَعْدَ الخَلْعِ خَاقَانُ مُصْطَفَى
وَأُنْــزِلَ بَعْــدَ الْعَــوْدِ مِثْــلَ الْمُقَدَّمِ

66 ــ فَجَــاءَ مُــرَادٌ نَجْــلُ أَحْمَــدَ بَعْــدَهُ
فَكَــانَ كَعَالَــمٍ لاَحَ إِثْــرَ تَــوَهُّــمِ (6)

---

(1) لما توفي سليم الثاني في 12 ديسمبر 1574 تولى ابنه مراد الثالث السلطنة وتوفي في 16 جانفي سنة 1595 .

(2) هو السلطان محمد الثالث دامت ولايته من سنة 1595 إلى سنة 1603 .

(3) دامت ولاية السلطان أحمد من سنة 1603 إلى سنة 1617 . فخلفه أخوه مصطفى .

(4) أكره السلطان مصطفى على التنازل لفائدة عثمان بعد ولايته بثلاثة أشهر .

(5) مات عثمان مقتولا في 30 ماي سنة 1622 .

(6) في 11 سبتمبر 1623 أجبر مصطفى على التنازل لفائدة مراد الرابع الذي لم تتجاوز سنه إحدى عشرة سنة .

67 ـ أطَــلَّ عَلَــى دَارِ السَّلاَمِ بِجَيْشِـهِ
فَــأنْقَــذَهَــا مِـنْ رَابِضِـي مُـذَمَّـمِ

68 ـ وَقَــدْ لَبِسَــتْ مَــا زَانَهَــا لِمَسَرَّةٍ
وَألْقَــتْ بِمـَا قَــدْ شَانَ مِــنْ ثَوْبِ مَأتَمِ

69 ـ وَعَــادَتْ إلَــى عَــادَاتِـهَــا دَارَ سُـنَّــةٍ
تُـجَــرِّرُ أذْيَــالَ النُّـهَــى وَالتَّـنَـعُّــمِ

70 ـ وَقَدْ قَامَ إبْرَاهِـيمُ (1) وَهْوَ ابْـنُ أحْمَـدَ
فَلِلَّــهِ مِـنْ حَـزْمٍ وَحُـسْـنِ تَوَسُّـمِ

71 ـ بِعَنْـوِيَّــةٍ مِنْـهُ وَقَــدْ جَـاسَ أرْضَهَــا
بِأسْيَــافِ أجْـنَــادٍ لَـهُ نَهْشَ أرْقَمِ

72 ـ أقَــامُــوهُ عَــنْ كُـرْسِـيِّــهِ وَتَقَــدَّمُوا
لِـمَـنْ هُـوَ فِـي عَهْـدِ الصِّبَــا وَالتَّنَعُّمِ

73 ـ مُحَمَّــدٍ (2) فَـرْعٍ مِنْـهُ فَانْصَـدَعَ الْبِنَا
وَهَـبَّ مِـنَ الْكُفَّــارِ كُــلُّ تَـضَـرُّمِ

74 ـ وَلَكِنَّــهُ لَـمَّــا تَكَــامَــلَ وَاسْـتَــوَى
بَــدَا مِـنْــهُ حَــزْمٌ فَاضِـحٌ كُلَّ أحْزَمِ

75 ـ فَتَمَّــمَ فَتْحًــا كَــانَ سَنَّــهُ وَالِـدُهُ
بِكَنْـدِيَّــةَ أعْـظِــمْ بِـهِ مِـنْ مُتَمِّمِ

76 ـ وَنَاهِـيكَ مِـنْ فَتْـحٍ يَضِيقُ بَيَـانُـهُ
عَنِ النَّظْـمِ فَانْظُـرْ لِلتَّـوَارِيخِ تَعْلَمِ

(1) لما توفي مراد الرابع في فيفري 1640 خلفه أخوه إبراهيم .
(2) في 8 أوت 1648 أنزل السلطان إبراهيم من دست السلطنة العثمانية وفي 18 أوت 1648 قتل ذبحا وحمل ابنه محمد الرابع على ولاية السلطنة وهو في عهد الصبا .

[9]

77 — وَمِنْ بَعْدِ هذَا تَمَّ بِالْخَلْعِ أَمْرُهُ (1)
فَيَالَكَ مِنْ فِعْلٍ قَبِيحٍ مُذَمَّمِ

78 — فَقَامَ سُلَيْمَانُ أَخُوهُ مَقَامَهُ
وَلَمْ يَأْلُ جُهْدًا فِي صَلاَحِ الْمُحَطَّمِ

79 — وَمِنْ بَعْدِهِ قَدْ قَامَ أَحْمَدُ صِنْوُهُ (2)
فَبَانَتْ جِرَاحٌ لاَ تُدَاوَى بِمَرْهَمِ

80 — وَأَعْقَبَ هَذَا مُصْطَفَى بْنُ مُحَمَّدٍ (3)
وَأَخَّرَ عَمَّا نَالَهُ مِنْ تَقَدُّمِ

81 — فَقَامَ أَخُوهُ أَحْمَدُ بَعْدَ خَلْعِهِ (4)
وَسَلَّمَ لَمَّا شَامَ بَرْقَ التَّأَلُّمِ

82 — وَقَدْ فُتِحَتْ تَبْرِيزُ قَهْرًا وسورة
بِأَيَّامِهِ وَجْهِ الزَّمَانِ الْمُطَهَّمِ

83 — فَبُويِعَ لِلسُّلْطَانِ مَحْمُودِ بَعْدَهُ (5)
هُوَ ابْنُ أَخِيهِ مُصْطَفَى الْمُتَقَدِّمِ

84 — وَمِنْ بَعْدِهِ قَدْ قَامَ عُثْمَانُ صِنْوُهُ (6)
وَمِنْ بَعْدِ هَذَا مُصْطَفَى ذُو التَّقَدُّمِ (7)

85 — إِلَى الْمُوسْكُو إِذْ وَجَّهَ الْعَزْمَ نَحْوَهُ
وَجَرَّدَ فِي حَرْبٍ لَهُ كُلَّ أَصْرَمِ

---

(1) تم خلع السلطان محمد الرابع في 8 نوفمبر سنة 1687 . وخلفه سليمان الثاني (1687–1691) .
(2) هو السلطان أحمد الثاني خلفه السلطان مصطفى الثاني سنة 1695 .
(3) دامت سلطنة مصطفى الثاني من سنة 1695 إلى سنة 1703 .
(4) هو السلطان أحمد الثالث خلع في فاتح أكتوبر سنة 1730 .
(5) هو السلطان محمود الأول (1730–1754) .
(6) هو السلطان عثمان الثالث (1754–1757) .
(7) هو السلطان مصطفى الثالث (1757– 1773) .

86 ـ وَمِنْ بَعْدِهِ عَبْدُ الحَمِيدِ إمَامُنَا (1)
أَخُوهُ عَظِيمٌ مِنْ عَظِيمٍ مُفَخَّمِ

87 ـ أبَانَ لَهُ اللَّهُ الْهُدَى وَأنَالَهُ
رَشَاداً وَتَسْدِيداً لَدَى كُلِّ مَهْتَمِ

88 ـ فَهَاكَ سَلاَطِينَ الزَّمَانِ جَمَعْتُهُمْ
بِنَظْمٍ كَسِمْطٍ بِاللَّئَالِي مُنَظَّمِ

89 ـ وَعِدَّتُهُمْ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ قَدْ غَدَتْ
سَمَاءُ الْعُلاَ مِنْهُمْ تُضِيءُ بِأنْجُمِ

90 ـ وَدَوْلَتُهُمْ خَمْسُ الْهُنَيْدَاتِ عَمَّرَتْ
وَفِي طُولِ هَذَا الْعُمْرِ لَمْ تَكُ تَهْرَمِ

91 ـ وَذَا فِي ثَمَانٍ بَعْدَ تِسْعِينَ ضُمَّهَا
إلَى مَائَةٍ مِنْ بَعْدِهَا ألْفٌ تَعْلَمِ (2)

92 ـ وَنَاظِمُهَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ مُحَمَّدٌ
أَقَلُّ الْوَرَى الْمَشْهُورُ فِيهِمْ بِبَيْرَمِ

93 ـ يَقُولُ تُنَادِينِي الْمَعَالِي بِقَوْلِهَا
إلَيْكَ الَّذِي قَدْ قُلْتَ فِيهِمْ بِهِ أخْتِمِ

94 ـ أيَا دَوْلَةً أرْبَتْ عَلَى كُلِّ سَابِقٍ
عَلَيْهَا لِعِزِّ الدِّينِ وَالْمِلَّةِ اسْلَمِ

95 ـ وزاد عليها بعد ذلك قولـه :

96 ـ وَقَدْ سَلِمَتْ حَتَّى رَأتْ فِي سَرِيرِهَا
هُمَامًا بِهِ الدِّينُ الْحَنِيفِيُّ يَحْتَمِي

(1) هو السلطان عبد الحميد الأول (1773–1789) .

(2) سنة 1198هـ. توافق في التاريخ الميلادي : 1783–1784 .

97 ـ سَلِيمَ بْنَ خَاقَانِ الخَوَاقِينِ مُصْطَفَى
لَهُ فَتْحُ مِصْرَ قَدْ غَدَا خَيْرَ مَغْنَمِ (1)

/ [10]

98 ـ لَهُ حَصَلَتْ مِنْ بَعْدِ هَذَا شَهَادَةٌ
بِهَا نَالَ فِي الْفِرْدَوْسِ طِيبَ التَّنَعُّمِ

99 ـ كَمَا حَصَلَتْ مِنْ بَعْدِهِ لابْنِ عَمِّهِ
وَذَا مُصْطَفَى فَادْعُ لَهُ بِالتَّرَحُّمِ (2)

100ـ تَلاَهُ إِمَامُ الْعَصْرِ مَحْمُودُ صِنْوُهُ
جَلِيلٌ عَظِيمٌ مِنْ جَلِيلٍ مُعَظَّمِ (3)

101ـ أَطِلْ يَا إِلاَهَ الْعَرْشِ فِي الْخَيْرِ عُمْرَهُ
وَصُنْهُ لِحِفْظِ الدِّينِ رَبَّا وَسَلِّمِ

102ـ ولاَ زَالَ هَذَا البَيْتُ لِلدِّينِ قَائِماً
إِلَى زَمَنِ الْمَهْدِيِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمِ

وقد قرّظ هاته القصيدة رئيس الكتبة الشيخ محمّد الدّرْناوي (4) بقوله :

1 ـ يَا أَيُّهَا القَاضِي الْهُمَامُ الْمُشْتَهِرْ
وَمَنْ بِهِ إِقْلِيمُ تُونِسَ افْتَخَرْ

2 ـ وَابْنُ رَئِيسِ الْعُلَمَاءِ الْجِلَّهْ
وَفَخْرُهُمْ لِلَّهِ مَا أَجَلَّهْ

---

(1) هو السلطان سليم الثالث (1789–1807) .

(2) هو السلطان مصطفى الرابع (1807–1808) .

(3) هو السلطان محمود الثاني (1808–1839) .

(4) لم أعثر على ترجمة الشيخ محمد الدرناوي وإنما ترجم ابن أبي الضياف لعلي الدرناوي والغالب على الظن أن علي هو ابن محمد الدرناوي وهذه عبارة ابن أبي الضياف : أبو الحسن علي بن محمد الدرناوي ربته جدته لأمه لتغيب أبيه وهو رضيع ... ثم قدمه المشير أبو العباس أحمد باي لقلم الانشاء فكان من أواسط الكتاب ... ولم تزل أبواب الثروة عنه مسدودة وآماله متسعة ممدودة إلى آخر أنفاسه المعدودة ظهر يوم الجمعة ثاني يوم عيد الأضحى من سنة 1284 (3 أفريل 1868) . انظر : اتحاف ، ج 8 ص 164 .

3 ــ نَظْمُكَ يَا مَوْلَى يُحَاكِي الْجَوْهَرَا
فِي آلِ عُثْمَانَ سَلاَطِينِ الْوَرَى
4 ــ كَمَا حَكَى فِي نَسْجِهِ رَقْمَ الْحُلَلْ
لاِبْنِ الخَطِيبِ (1) الحبْرِ فِي نَظْمِ الدُّوَلْ
5 ــ فَارْقِيهِ (كذا) يَا إِمَامَ الْعَصْرِ
لاَ زِلْتَ جَامِعًا لِكُلِّ فَخْرِ
(من بحر الرجز)

وقد ترصّع تاج السلطنة بعد أولئك الكرام بولاية السلطان عبد المجيد (2) ابن محمود خان ثمّ بولاية السلطان أخيه عبد العزيز خان (3) وبخلعه تولاّها السلطان مراد (4) بن عبد المجيد ثمّ وقع خلعه فألقت السلطنة قيادها للسلطان الغازي عبد الحميد (5) خلّدَ اللّهُ سلطنتهم إلى يوم الدين (6) .

---

(1) هو لسان الدين ابن الخطيب (ولد سنة 1313م. وتوفي سنة 776هـ./1374–1375) ولد في لوشه جنوبي غرناطة . لقب بذي الوزارتين : الادب والسيف . ينتسب إلى أسرة هاجرت من الشام إلى الاندلس . تعلم على أكابر الشيوخ وولي الوزارة . اتهم بالزندقة فقتل . كتبه تناهز الستين معظمها في التاريخ وتخطيط البلدان والشعر والأدب والتصوف والطب . من أهمها : الاحاطة في تاريخ غرناطة . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، ط 2
(2) دامت ولاية السلطان عبد المجيد من سنة 1839 إلى سنة 1861 .
(3) دامت ولاية السلطان عبد العزيز من سنة 1861 إلى سنة 1876 .
(4) هو مراد الخامس وقع خلعه في السنة التي ولي فيها (1876) .
(5) هو السلطان عبد الحميد الثاني دامت ولايته من سنة 1876 إلى سنة 1909 . والملاحظ أن السلطنة العثمانية انتهت بولاية السلطان محمد السادس (1918–1924) .
(6) اندثرت الخلافة العثمانية عام 1924 على يد مصطفى كمال آتاترك .

سفر المؤلف إلى القسطنطينية

وقد كان سفري للقسطنطينية من بلد قرنة بركوب البحر يوم ثلاثين من شعبان (1) بمشايعة أمير الأمراء حسين المكلّف بالمعارف العموميّة بتونس (2) وأتباعه . وعند وصولي إلى نابلي يوم رمضان تلقّاني إبراهيم المويلحي المصري (3) . واكتريت مع شركة المساجري (4) فكان الركوب في أضخم البوابير البحرية التي اختصّت بتلك الشركة لسفرها في البحور الكبرى . وسافرنا باكرة ثاني رمضان وكان الجوّ غاية الصفو / فكانت أيّام [11] السفر كلّها رائقة .

وحيث كنت أجتمع مع خاصّة المسافرين على طاولة الطعام كلّ يوم وكنت ملتزما ترك ما يأتون به من الخمر وآنيته الملازمتين للطعام أظهر لي القبطان يوما تعجّبه من ذلك فقلت له : هو ممنوع في شريعتنا . فقال لي : إنّ كثيرا من الركاب معنا يقولون إنّ القليل منه غير ممنوع فيتناولون مقدار

(1) 30 شعبان سنة 1299هـ. يوافق 16 جويلية 1882م.

(2) أنظر ترجمته أسفله ص : 48 تعليق

(3) توفي إبراهيم المويلحي سنة 1906 . (أنظر ترجمته : محمد المويلحي ، حديث عيسى بن هشام ، بيروت 1966 . ص 5–6) .

(4) إحدى الشركات الفرنسية للنقل البحري .

أربعة أصابع من آنية الخمر فقط » . فقلت له : « هذه الخمر عصير عنب وهي في ديننا محرّم كثيرها وقليلها والقائلون بجواز ذلك القليل لم يريدوا إلاّ إقناع السائل تستّرا من إظهار المجاهرة بارتكاب المحرّم » .

وقد مررنا في طريقنا على جزيرة قبرص (1) وهي افتتحها الإسلام ودخلت في حوزة آل عثمان إلى أن تسلّمها الإنقليز إثر الحرب الأخيرة . ومررنا على بلد مسّينة المشتهرة بمعامل الحرير واجتزنا بحر اليونان ووقفنا في مرسى أثينا قاعدة مملكة اليونان واجتزنا بين جزر اليونان إلى جناح قلعة وقطعنا الدردنيل .

(1) أنظر أعلاه : التعليق صفحة 7 عدد 4 .

مدينة القسطنطينية

وشاهدنا أجمل مناظر القسطنطينية العظمى فكان موقعها أجمل مكان في الدنيا على خليج البحر الأسود فيما بينه وبين بحر مرمرا بين أوربا وآسيا ، وأرضها آخذة في الارتفاع من الخليج إلى الداخل يحدّها شمالا البحر الأسود الممتدّ طولا بسبعمائة وستين ميلا وجنوبا برّ الأناضول وبحر مرمرا وطوله مائة وخمسون ميلا وبوغاز الدردنيل وشرقا اسكودار قبالة القسطنطينية وجزء من برّ الأناضول وغربا برّ الترك من أوربا . ومحيطها اليوم اثني عشر ميلا . وسكانها أكثر من مليون ونصف ، المسلمون منهم أكثر من مليون ومنهم رجال الدولة والمتوظفون وبعضهم أصحاب أملاك وتجارة وبعضهم أهل حرف والنصارى الروم / بها أهل تجارة وأهل حرف ، والأرمن بها [12] منهم الصيارفة والجوهريون وأصحاب معامل القطن والقطائف وعملة الساعات .

[دخول المؤلّف مدينة القسطنطينية]

ودخلتها عند الغروب من سادس شهر رمضان المعظّم سنة 1299هـ (1) وتلقّاني في بوغازها كلّ من وكيل التوانسة سابقا الثقة التاجر الأكمل

(1) يوافق 22 جويلية 1882 .

عمر رواي والماجد الأعزّ الأبرع محمّد الهادي بيرم مرسلا من والده لمرضه والمرعي العربي بسيس . ونزلت في دار سكنى العلاّمة النحرير الماجد الشيخ محمّد بيرم . وعند ملاقاتي به أنشدته :

1 ــ وَقَدْ يَجْمَعُ اللّهُ الشَّتِيتَيْنِ بَعْدَمَا
يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أنْ لاَ تَلاقِيَا

(من بحر الطويل)

ولكن بعد أن سدل الليل رواقه واتّقدت مآذن المدينة وأسواقها رأيناها في أبهج المناظر الليلية ، وأنشدت فيها شعر الشيخ إبراهيم الرياحي (1) حين وجّهه إليها أحمد باشا باي في إرساليته لباب السلطنة سنة 1254 (2) وذلك قوله : [من بحر الكامل]

1 ــ بَلَدُ الْخِلاَفَةِ فِي الْجَمَالِ فَرِيدُ
وَلِسَانُهُ (3) غَرَضٌ مَدَاهُ بَعِيدُ

2 ــ مَنْ ظَنَّ يُحْسِنُ وَصْفَهُ فَكَأنَّهُ
نَحْوَ الصُّعُودِ إلَى السَّمَاءِ يُرِيدُ

وخرجت لصلاة العشاء بأقرب الجوامع من بيت نزولي على شوق شديد لحضور الجماعة في المسجد الجامع بعد المدّة التي قضيتها في إيطاليا لا أسمع إلاّ قرع النواقيس قرعا يغتمّ منه القلب فكان دخولي تلك الليلة لجامع : بشكطاس من ألذّ ما لاقيته في تلك المدينة العظمى . وكان وَقْعُ تلاوة القرآن من قُرّاءِ المحفل ثمّ من الإمام أعظم المواقع من نفسي . نسأل الله أن يثبّت قلوبنا على الإيمان بجاه سيّد ولد عدنان .

---

(1) ولد سنة 1767/1181 وتوفي 1849/1266 .

(2) أنظر خبر هذه السفارة : اتحاف ، ج 4 ص : 19–25 . والتاريخ الهجري يوافقه 1838م .

(3) ورواية ابن أبي الضياف لهذا البيت كما يلي :

بلد الخلافة في الجمال فريدة　　ولشأنه عرض مـداه بعيد

(راجع : اتحاف ، ج 4 ص 24) .

وقد أقمت بها إلى يوم الأحد الثاني عشر من ذي القعدة (1) فكانت مدّة إقَامَتِي بها أكثر من شهرين تتبّعت فيها ما تيسّر لي من وجوه المطالعة ولذلك نذكر / المهمّ منها على التفصيل الآتي : [13]

(1) يوم الأحد يوافق 11 ذي القعدة/1299 = 24 سبتمبر 1882 .

أبو أيوب الأنصاري (1)

هذا الصحابي الذي شهد مع النّبِـيّ صَلّى الله عليه وسلم المغـازيَ وحضر واقعة صِفِّيـنَ مع عَلِـيٍّ وخَرَجَ في غَزْوِ القسطنطينية مع سفيان بن عوف سنة 48هـ فأصبح مدفنه أعظم مزار بتلك المدينة وحوله جامع بهيج من أشهر جوامعها خطيبه جلال الدين أفندي . فكان لوجود مَدْفَنِ ذلك الصحابي في تلك البلاد فخر لمقرّ السلطنة الإسلامية من بلاد الرّوم ولذلك نتبرّك بذكره في هذا المقام .

وهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عوف بن عتم بن مالك بن النجار الخزرجي الصحابي الجليل شهد الْعَقَبَةَ وَبَدْرًا وَأُحُدًا وَالخَنْدَقَ وَبَيْعَةَ الرِّضْوَانِ وجميع المشاهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين قدم المدينة مهاجرا وأقام عنده شهرا حتّى بنيت مساكنه ومساجده .

وقد رويت له مائة وخمسون حديثا عن النبيّ صلّعم وروى عنه سبعة من الصحابة وقال ابن عبد البرّ (2) : « كان أبو أيّوب الأنصاري مع عليّ بن أبي طالب في حروبه كلّها ، وكانت وجهته في غزو بلاد الروم تبرّكا به

(1) أنظر أعلاه صفحة 3 خبر هذا الصحابي رضي الله عنه .

(2) هو يوسف ابن عبد البر (978–1071) ولد في قرطبة وتوفي في شاطبة . من أعلم محدثي زمانه في المغرب . له : الاستيعاب في معرفة الاصحاب .

حيث إنّه كان شيخا هرما وتوفّي عند القسطنطينية فأمر يزيد أن يُدْفَنَ بالقرب من سورها ويُتَّخذ له مشهد هنالك . وكانت وفاته سنة خمسين من الهجرة رضَه » .

وقد تبرّكت بزيارة مقامه رضَه فكان ضريحه موقع الجلال والمهابة التي يقتضيها مقام صحبته لسيّد الوجود صلّعم . وعند الوقوف على ضريحه أنشدته قولي : [من بحر الطويل]

[14] 1 ـ أبَا أيُّوبَ إنَّا قَدْ أتَيْنَا نَزُورُعُلاَكَ فِي دَارِ الخِلاَفَهْ
2 ـ فأكْرِمْ نُزْلَنَا وَأجْزِلْ قِرَانَا فَذَلِكَ لَمْ نُرِدْ شَيْئًا خِلاَفَهْ

آياصوفيا

هذا أعظم جوامع دار السلطنة الإسلامية وأصل هذا الاسم مركّب من كلمتين يونانيتين (1) وأصل هذا الجامع أعظم كنيسة للرومانيين بعد كنيسة رومية بناها ملك الرومان قسطنطين الكبير سنة 320 للميلاد وسمّاها الحكمة الإلاهية (1) . ثمّ وسّعها ابنه قسطنس غير إنّها احترقت سنة 532 للميلاد (2) فجدّد بناءها الامبراطور جوستيان واشتغل ببنائها مدّة سبع سنين ونصف(3) .

وكان بناتها مائة مهندس مع مائة قلفا أي رئيس البنّائين وعشرة آلاف فاعل مع البنّائين . فجاء طولها مائتان وسبعون قدما وعرضها مائتان وأربعون قدما وقطر قبّتها مائة وخمسة عشر قدما وارتفاعها من الأرض إلى القبّة مائة وثمانون قدما . وبداخلها مائة وسبعون عمود من الحجر السماقي (4) والرخام بعضها جلب من هيكل الشمس في بعلبكّ ومن هيكلي الشمس والقمر في هالي

---

(1) الكلمتان هما : آيا بمعنى : الاهية أو مقدسة ثم صوفيا بمعنى الحكمة . (أنظر أعلاه صفحة 6 تعليق 5) .

(2) احترقت هذه الكنيسة أيضا في سنة 404م .

(3) استعان الامبراطور جوستيان بمهندسين يونانيين هما : أنتيميوس دي ترالي وايزيدوردي ميلي .

(4) السماقي نسبة إلى السماق أي الخالص البحت .

بولي بمصر ومن هياكل أفسس (1) وأثينا ومن جزائر بحر الروم . وعلى دائره ممشى يصعد إليه بأدرج وهو البناء الباقي إلى الآن .

وعندما فتح السلطان محمّد الثاني الفاتح القسطنطينية اتّخذها جامعا إسلاميا وأقام فيه الصلاة لعبادة الله وحده لا إلآهَ سواه . وقد أتى الزلزال في بعض جدرانه الخارجية فعضدها السلطان مراد الثالث بعضائد الأبنية وعقد عليها قناطر تعتمد عليها القبّة وبنى حوله مدارس وحمّامات ومدافن ، وأقام له أربع مآذن .

ولهذا الجامع مدخل واسع طويل مُزَيَّنٌ بالفسيفساء المحلاّة بالذهب ، وبوسطه باب كبير من نحاس به نقوش ، وقبّته مقامة على أعمدة من الرخام
[15] كبيرة والصخر المحبّب المصري ، وأسفل القبّة محاط برواقين / محولين (كذا) من نيف وستين عمودا من حجر اليشب (2) . وبأعلا القبّة قمم متقنة البناء مزيّنة ومحيطها مزيّن بالفسيفساء التي بها صور تُشِيرُ إلى بعض ما في التوراة والإنجيل من الحوادث التاريخية .

ويقال إنّ منها صورة المسيح وصورة الملك قسطنطين ، وبموجب حرمة إبقاء الصور في الشريعة الإسلامية أمر السلطان محمّد الفاتح بها فسترت بالكلس ونزع ذلك عنها السلطان عبد المجيد وسترها بدهن ذهبي وأبقى منها أربعة أجنحة من الكَارُوبِيم (3) مصوّرة على جوانب القُبَّة الأربعة إلاّ أنّ رؤوسها موشّحة بشكل نجم كبير مذهّب . وقد رأيت بها اسم الله واسم النبيّ وأسماء الخلفاء الراشدين على جوانبها بأحرف عربية كبيرة ذهبية .

وعلى يمين المحراب منبر بديع من فوقه مرفوع صنجق السلطان محمّد الفاتح ، وفي إحدى جهاته محلّ للخطيب وقبالته في الجهة الغربية طبقة قائمة

---

(1) أفسس : مدينة قديمة في بلاد ايونيا . ليس فيها اليوم إلا الأنقاض .

(2) اليشب : حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه أصفى منه .

(3) كذا بالنص وكلمة كروبيم لفظة عبرانية معناها سادة الملائكة أو المقربون منهم .

على أعمدة ثمينة تختصّ بالحضرة السلطانية عند حضور الصلاة هنالك ، وخطيبه اليوم مصطفى أفندي .

وتوجد بداخل الجامع جهات فسيحة تختصّ بالنساء ومواضع تجري بها المياه للوضوء ومحافل لجلوس المدرّسين ، وحول المحراب كثير من مصاحف القرآن الثمينة على محاملها يتناولها كلّ تال لكتاب الله من القرّاء في انتظارهم للصلاة .

[مسألة سدل اليدين عند القيام للصلاة]

وقد اتّفق لي في دخولي الأول لهذا الجامع قبل صلاة العصر أن صلّيت تحيّة المسجد بمحلّ الصفّ الأول وأسدلت يديّ عند القيام للصلاة فرأيت تشويشا من الحاضرين وتساؤلا وقع بين القوم لم أنتبه لشأنه . وبعد فراغي من الصلاة قام إليّ رجل كبير [مسنّ] بأناة وحيّاني بالمصافحة ثم سألني عن بلادي فأعلمته أني مغربي تونسي ثمّ سألني عن سدل اليدين في الصلاة فأعلمته أنّ ذلك مشهور مذهب مالك فقال للمنتظرين له ممّن حولنا : « مذهب مالكي سنّي » . وكان يتكلّم / بقليل من العَرَبيّةِ فقال : « إنّ سدل [16]
اليدين عندنا معروف للشيعة ولذلك تشوّش الجماعة » .

وعند ذلك تذكّرت ما ثبت من أنّ مالكا قبض في الصلاة وتذكّرت ما ذكره فقهاؤنا من أنّ القبض لا بأس به عند الضرورة أو خوف التشويش ومن ذلك الوقت رجعت إلى القبض في الصلاة مدّة إقامتي بالآستانة .

[السلطان عبد الحميد كان على علم بمقدم المؤلّف إلى الآستانة]

ولكن بعد ذلك اتّفق لي أن صلّيت في جامع الحميدية يوم الجمعة وكان مقرّ الحضرة السلطانية في الارتفاع بحيث أنّ المصلّين تحت نظرها العالي .

وكان الشيخ محمد ظافر (1) مع الحضرة السلطانية هنالك . وفي عشية ذلك اليوم اجتمعت به فأخبرني أنّ السلطان كان عالما بمقدمي وبتفاصيل أحوالي ومذهبي وعندما رآني قابضا في الصلاة سأل الشيخ محمّد ظافر عن ذلك حيث إنّ مذهبي مالكي فلم يمكنه الجواب عن ذلك وعند ذلك أعلمته بتفاصيل مسألة القبض والسدل في المذهب المالكي وما ثبت عن مالك من القبض والسدل وما ذكره فقهاؤنا في القبض للضرورة وخوف التشويش وما دعاني للقبض ممّا جرى بآيا صوفيا ونقل جوابي للحضرة السلطانية .

[دراسة التفسير والحديث والوعظ في رمضان بجامع آيا صوفيا]

وقد رأيت بعد صلاة العصر في آيا صوفيا انعقاد مجالس كثيرة لدراسة التفسير والحديث والوعظ في رمضان وبعض المجالس يختصّ بالنساء يجلسن داخل سياج حافظ لهن ويجلس المدرّس وَرَاءَ السياج فيقرئهنّ ولا يحضر عليه أحد من الرجال . وهاته الدروس تختصّ بشهر رمضان يجلس لهما المشاركون في العلم ولهم عطايا آخر الشهر تختصّ بهم .

[دروس رمضان لا يقرئها العلماء في تركيا]

وقد وقفت على درس أحدهم فإذا هو يتلو قوله تعالى: «وَأَنَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» (2) فقرأ فلا تعبدوا مع الله أحدا . فعاجلته بتلقين الآية ، فلم يقبل . وأخذ يقرّر معناها باللسان التركي إلى أن
[17] وصل لتعبدوا فذكر مصدر العبادة العربي وأخذ يفسّر الآية بذلك فأعدت / تنبيهه فتكلّم بالتركي ولم أفهم ما قال سوى أنّ رجلا عالما كان بمقربة منّا وكان يسمع جميع ذلك فقام إليه وصاح به وتكلّم معه بالتركي وأرجعه .

(1) أنظر ترجمته أسفله صفحة : 48 . التعليق .
(2) القرآن : سورة الجن 72 ، الآية 18 .

وبعد ذلك قال لي ذلك العالم إنّ دروس رمضان لا يقرئها العلماء في بلادنا ووصف الرجل بالجهل فعذرته وقلت له إن ما ترجم به الرجل يمكن أن يكون صحيح المعنى لأن المعنى النهي عن مشاركة الله بالعبادة فيما أراد وهذا في نفسه صحيح لولا أنّه أراد تفسير آية معيّنة وتلاها على غير ما أنزل الله . وكانت معرفة هذا العالم بالعربية قليلة وغاية ما استفدت منه أنّ المدرس تلا عبارة التفسير في مقام تلاوة الآية .

وتذكّرت بذلك ما أخبرني به الشيخ محمود قابادو (1) من أنّه سمع مدرّسا بالآستانة يُقْرِىءُ متن التلخيص فأنشد : وقبر حرب بمكان قفز (2) بالزاي المعجمة وشرح ذلك باللسان التركي فلم يعرف ما قاله . والجهل يتوارث في الأمم إذا لم يوجد فيها ما يرفعه .

---

(1) محمود قابادو (1227/1813–1287/1871) شاعر تونسي كان ميالا الى التصوف . انظر محمد الفاضل ابن عاشور . أركان النهضة الادبية بتونس – تونس 1965 ، ص 5–10 .

(2) أصل البيت كما يـ وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر .

جوامع الأستانة

إنّ أعظم أبنية الآستانة في ثلاثة أصناف هي الجوامع والسرايات السلطانية والقشلات (1) الحربية . وقد دخلت فيها إلى جامع السلطان محمد وقد حلّ به الخراب وخطيبه توفيق أفندي وصلّيت صلاة العيد في جامع السلطان سليمان وهو أكبر من آيا صوفيا وخطيبه اسمه مصطفى أفندي وصلّيت في جامع السلطان بايزيد . وساحاته في شهر رمضان بها أسواق للتحف والحلويات وخطيبه كامل أفندي ويكي (كذا) جامع وإمامه علي أفندي وجامع نوري عثمان وخطيبه سليمان أفندي يحسن العربي ويدرّس الحديث على منبره في خطبته يوم الجمعة وقد حضرت للصلاة خلفه فأتى كتاب الغسل / من صحيح [18]
البخاري وقوله تعالى «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا» (2) وأخذ يقرّر معناه بالعربية . وحيث إنّ القسطلاني (3) ذكر أنّ لفظ الغسل يقال بضمّ الغين وفتحها وكسرها وفسّر معانيه أراد الخطيب تقرير ذلك غير أنّه ذكر المعنى المصدري في الفتح وذكر معنى الاغتسال في الضمّ وتلعثم فوق المنبر بعد أن

(1) القشلات جمع القشلة وهي كلمة دخيلة معربها : ثكنة ج ثكنات .
(2) القرآن : سورة المائدة : 5 الآية : 6 .
(3) هو أحمد القسطلاني (1448–1517) مصري علامة بالحديث . من مؤلفاته : ارشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري .

صرّح بثلاثة معان ، ولم يكن بيده الشرح فأعرض عن بقية المسألة وتنقّل إلى تقرير معنى الحديث .

وقد اجتمعت به بعد الصلاة وشكرته على حسن صنيعه في نشر الحديث الشريف بالتدريس على المنبر فكان على خجل من مسألة الغسل وذكرها لي في صورة متفهّم لكلام القسطلاني . وحيث كنت على ذكر من المسألة بادرته إلى تفصيلها الذي هو بالفتح الأشهر من ضمّها مصدر غسل وبمعنى الاغتسال وهذان المعنيان تحت فتح الغين ويصحّ ضمّها فيهما على غير الأفصح وبكسرها اسم لما يغسل به من سدر أو صابون وبالضمّ اسم للماء الذي يغتسل به وعليه فالمعاني التي ذكرها القسطلاني أربعة منها معنيان تحت ضبط واحد ، وذكرت له أنّ كلامه فوق المنبر لم يخرج مما ذكره القسطلاني ، فاستحسن منّي الفهم .

وقد بلغني عنه أنّه إذا أخطأ في رواية حديث أو نقل مسألة يعتذر بأنّه يقول ذلك باللسان العربي والحاضرون لا يفهمون ما يقول وبذلك لا يرى من حرج فيما يأتي به .

وصلّيت بجامع السلطان سليم وإمامه حقي أفندي وجامع شاهزاده وإمامُه أمين أفندي أمّا أئمّة الحضرة السلطانية فهما يوسف أفندي وراشد أفندي يصلّي به أحدهما أينما أراد الصلاة من جوامع الآستانة .

[العادات المستحسنة في جوامع الآستانة]

ومن مستحسن العادات في جوامع الآستانة أنّ المصلّين لا يدخلون
[19] أنعلتهم إلى بيت الصلاة ، وللأنعلة حفظة عند الأبواب لهم خزائن / يحفظون بها الأنعلة . وقد كره الفقهاء دخول النعل غير المأمونة من النجاسة إلا للضرورة ، وقد دفعت الضرورة عادة البلاد العثمانية .

المعارف في الأستانة

إنّ إدارة المعارف الدينية منوطة بمشيخة الإسلام التي هي مصدر جميع الخطط والوظائف في القضاء والفتوى والتدريس والإمامة . وقد أدركت هنالك شيخ الإسلام أحمد أسعد أفندي وهو رجل خمول ليس له يد في العلوم ومستشاره نجيب أفندي رجل عالم عفيف يحسن العربية وأمين الفتوى نوري أفندي رجل فاضل منصف ، وقاضي عسكر الروميلي قدري بك ، وقاضي عسكر الأناضول الحاج نظيف أفندي ، وقاضي اسلامبول خير الله أفندي ، والقاضي في سائر الممالك العثمانية لا يقيم على خطته أكثر من سنة وينتقل من جهته إلى غيرها .

وبالآستانة أكثر من أربعين مكتبة تحوي نفائس الكتب الخطيّة وبها مطابع تَطبَع الكتب وتنشر الصحائف اليومية والأسبوعية .

وأمّا المكاتب هنالك فقد علمت منها خمسة وتسعين مكتبا تحت ناظر المعارف الوزير مصطفى باشا وكان يومئذ مدير المكتب الملكي عبد الرحمان أفندي ، ومدير المكتب السلطاني إسماعيل بك . والمكتب السلطاني يعلّم التركي والفارسي والعربي والفرنساوي وحياة الحيوان والكيمياء والطبيعيات والحساب والرياضيات والتاريخ والجغرافية وتاريخ الإسلام والمثلّثات والتصوير . والمكتب الملكي فيه التاريخ والجغرافية والحساب والعربي والفارسي

والفرنساوي والمساحة والطبيعيات والكيميا والأدبيات العثمانية ومجلّة الأحكام
[20] وأصول الفقه والمالية وأصول الدفتر وأصول الإدارة وحقوق المال والترجمة /
والاقتصاد والجغرافية الصناعية في خمسة أقسام . وهذا تفصيل المكاتب وعدد
تلاميذها :

	(عدد التلاميذ)
مكتب حربي	2128
ثمانية مكاتب رشدية عسكرية	2128
مكتب طبي عسكري	448
مكتب طبي	151
مكتب ملكي شاهاني	450
مكتب سلطاني	576
	5881
مكتب طبي ملكي	502
دار المعلمين	74
دار المعلمات	129
دار العمليات	24
دار الشفقة	300
	6910

	(عدد التلاميذ)
	6910
تسعة عشر مكتبا رشدية ملكية للذكور	1510
عشرة مكاتب رشدية ملكية للإناث	423
تسعة وعشرون مكتبا ابتدائية للذكور	1249
ثمانية للإناث	219
ستة مكاتب جمعيات للذكور	672
أربعة للإناث	103
	11086

[21] فجملة ذلك أحد عشر ألف تلميذ وستة وثمانون تلميذا في خمسة /
وتسعين مكتبا بالآستانة . وأمر تعليم المكاتب آخذ في النموّ والتقدّم .

المتاحف

اعلم أنّ اسم المتاحف أطلقناه هنا على كلّ ما يقع به الإتحاف ممّا تنجذب النفوس لرؤيته ويروقها جماله . وبالآستانة كثير من هذه المتاحف وفي أوّلها مكتبات الآستانة المحتوية على نفائس الكتب الجميلة الخطوط من الفارسي والتركي والعربي المذهّبة الأسفار المحتوية على لطائف الآداب والعلوم .

وأعظم ما تبتهج به النفوس هنالك اعتناؤهم بالمصاحف الشريفة إتقانا في الخط والتذهيب مع كمال الصحّة . وهاته المصاحف توجد في جميع الجوامع بحيث إنّ جانبي المحراب من كلّ جامع معدودَيْنِ لوضع محامل المصاحف الكريمة على طول الجامع يشتري الأغنياء ما عزّ من المصاحف ويجعلونها حبسا على تلاوة المصلين في الجامع ، وهي هنالك مباحة لكلّ مصلّ مصونة بحفظ قيّم الجامع ، والمتقدّمون لتناولها في الصفّ الأول هم القرّاء المجوّدون بحيث إنّ المتقدّم للصفّ الأول يجد به أحسن القرّاء معتكفين على تلاوة القرآن في تلك المصاحف الشريفة بحسن التجويد وإخراج جميع الحروف من مخارجها مع الرطانة التركية وحسن الصوت وبذلك كنت ترى تلك المناظر من أجمل المتاحف .

ولا يخفى على مسلم ما اختصّت به بلد الخلافة من وجود الآثار النبوية التي محلّها من أعظم مزارات الآستانة في سراية طولغيو (كذا) يخرج لها

السلطان في خاصّة رجاله ليلة السابع والعشرين من رمضان كلّ سنة فيتبرّك بمشاهدتها ويبيح التبرّك بها بقية أيّام الشهر . وتلكَ من أعظم الآثار النبويّة الباقية في الإسلام .

[22] وبالآستانة / من حدائق التنزّه وساحات الجولان وأماكن الخلاعة ومحلاّت الاجتماعات الرائقة ما يحتاج إليه الإنسان في راحته . وفكاغند خانة على الخصوص محلّ فيه جميع المطبوعات الجديدة من الصحف التركية والعربية والإفرنجية والرسائل لمطالعة الواردين . وفي جميع محلاّت الاجتماع المهمّة توجد الصحف اليومية يتناول لطائف أخبارها كلّ داخل لذلك المحلّ ، وسيأتي تفصيل كثير من متنزّهات الآستانة ، ومع ذلك فإنّ أغلب المساكن الكبرى هنالك تختصّ بحدائق في أعلى طبقة من الانتظام تظلّلها الأشجار وتكلّلها الأزهار معدودة لاستراحة الأفكار .

أمّا الآثار القديمة المسمّاة بالأنطيكة فهنالك من الآثار البنائية والصناعية ما أبقاه التاريخ الروماني القديم والتاريخ العثماني الجديد عبرة للناظرين . وحيث إنّ محتويات المتاحف هي آثار الأمم وشاهد صِدْق تاريخها فإنّ أبهج متحف دخلته بالآستانة محلّ الانكشارية .

[متحف الإنكشارية]

وهذا اللفظ معناه عساكر جديدة ، وقد أسّس أوجاقهم السلطان مراد الأول سنة 1362م . وجدّد هاته الأوجاق وأكمل ترتيبها السلطان بايزيد الأول سنة 1389م . ولكن هَدَمَ أوجاقهم وقتلهم السلطان محمود في حزيران سنة 1826 م . لما ظهر منهم من النفاق على الدولة في أخبار طويلة تطلب من كتب تاريخ الدولة العثمانية . وعلى كلّ حال متحف الإنكشارية بالآستانة

محلّ واسع في طاق علويّ جوار مكتب الصنائع دخلته بعد النظر في مكتب الصنائع والنظر في المصنوعات الجديدة به .

وأصل وضع هذا المحلّ كان بعد إبادة أوجاق الانكشارية وتغيير جميع الملابس الرسمية والخصوصية في البلاد العثمانية / إلى اللباس الإفرنجي فأقامت [23] السلطنة متحفا عظيما لحفظ آثار جميع سلاطين آل عثمان بما كان من خصائصهم . وأقامت تماثيل من نحاس قائمة الأشخاص وَأَلْبَسَتْ كُلَّ تمثال نوعا من أنواع اللباسات القديمة التي كانت تختصّ بها أصناف الناس على عهد الإنكشارية .

[تنوّع اللباس باختلاف أصناف الناس]

وكان اللباس المجعول لتلك التماثيل من أفخر ما كان يلبسه أهل المقدرة من ذوي الدولة والخاصّة والعامّة فبلغت إلى مئات من أنواع اللباس من مبدأ لباس ذي السلطنة وكلّ ذي وزارة وذي إمارة وذي إدارة ووظيف إلى كلّ ذي مهنة أو خدمة خصوصية أو عمومية بحيث كان لكلّ فرد من أولئك لباس يمتاز به عمّن سواه حتّى أرباب الموسيقى الخصوصية والمضحكين والطبّاخين والمُناولين للطعام والمنفقين فضلا عن متوليي الخراج وكبراء الحرف وغيرهم .

ومع اختلاف أنواع الثياب كان لباس رؤوسهم مختلفا يحصل به التمييز . ولم نعرف في سابق ما رأيت من أغطية الرؤوس التي على تلك الأشكال سوى ما اعتداه علماء تونس من تخصيص القضاة والمفتين والأئمّة بلبس المَلْوسَة الملتفّة على قطن يُغَطّى بها الرأس فما كان للذين على مذهب الإمام أبي حنيفة على شكل صنوبري ، وما كان للذين على مذهب مالك على شكل مسطّح ، وكذلك ما اعتداه المنتسبون للعلم من المدرّسين والعدول والقرّاء من لبس الزمالة وهي عمامة تكون على صفة خاصّة .

[ما ألغز به جدّ المؤلّف في الملوسة]

وقد كان المولى الجدّ الشيخ محمّد السنوسي (1) قاضي حاضرة تونس ألغز في الملوسة بقوله : [من بحر الطويل]

1 ــ مُعَمّىً عَلَى مَوْضُوعِهِ قَدْ تَظَاهَرَتْ (كذا)
بِحُسْنِ عُلاَهُ المُشْرِفُونَ عَلَى الأَمْرِ

2 ــ تسولم استكشفت معرفة اسمه (كذا)
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ سقط غاية الصدرِ (كذا)

/ [24]

3 ــ وَمَشْحُون نُطْقٍ إنْ قَلَبْتَ مُعَمَّماً
وَأَعْمَلْتَ فِي اسْتِنْطَاقِهِ غَايَةَ الفِكْرِ

4 ــ وَأَشْرَف أَشْرَافِ الرِّجَالِ مَقَرُّهُ
فَهَذَا لإيضَاحِ غَدَا غَايَةَ القَدْرِ

[خبر الزمالة التونسية]

وقد وجدت أشكال الملوسة والزمالة بمحلّ الإنكشارية من لباسات غير ذوي الخطط العالية ورأيت من أنواع تغطية الرؤوس ما هو مصنوع صنع الزمالة التونسية في ارتفاع نحو الميترو وهو مربّع في عرض نحو الثلاثين صنتمير يوضع على الرأس وهو لباس وزير الحرب ومنه ما هو في تلك العظمة وهو اهليجي (كذا) الشكل ورأيت به مصداق قول أبي دُلاَمة (2) عند لبسه للقلنسوّة الطويلة : وصار وجهي في وسطي .

(1) توفي جد المؤلف محمد السنوسي عام 1255/1839 . أنظر : اتحاف ج 8 ص 41 .

(2) أبو دلامة : عبد أسود من موالي بني أسد بالكوفة . نادم السفاح والمنصور والمهدي الخلفا العباسيين . كان يقول الشعر وكان الناس يخافون لذاعات لسانه . توفي في 776م. أو 786م .

ورأيت من أغطية الرؤوس أشكالا أصغر مختلفة لا حاجة إلى تعدادها . وقد كان الترك يلاحظون في عظمة تلك العمائم عظمة اللاّبسين والعمائم تيجان العرب ولهذا عِنْدَمَا أمر السلطان محمود بترك تلك الألبسة على ضخامتها التي يعدّونها برهان عظمة الرجال فوق رؤوسهم وزينة لوجوههم التي هي محلّ المواجهة استغناء بها عن القلانس الطويلة وتعويضها بالشاشية التركية التي لا تزيد على ستر الرأس شقّ ذلك على الترك وعلى عظماء الرجال بالخصوص ورأوها مصيبة حلّت بهم إلى أن ألفها الجيل الجديد . ولا زال من عامّة الأقدمين من يحافظ على عمامته التركية ولباسه التركي القديم .

[حسين باي كان بتونس أمر العدول بالتزام لبس الملوسة]

وقد تذكّرت بهاته القصّة المقدّس حسين باي كان بتونس أمر العدول بالتزام لبس الملوسة وكان منهم العدل الشيخ منصور الورغمّي وهو دَمِيمُ الصورة قصير القامة فاستهجن تغيير عمامته بلبس الملوسة وطلب من شيخ الإسلام البيرمي الثالث (1) / إعفاءَهُ من ذلك فلم يجبه وذهب بها إلى الشيخ [25]
إبراهيم الرياحي (2) باش مفتي المالكية ولبسها أمامه فأضحكه وطلب منه أن يتوسّل له في الإعفاء ممّا يصير به أضحوكة . وصار هذا الموضع محلّ محاورة فكتب الشيخ إبراهيم الرياحي في ذلك بقوله : [من بحر الكامل]

1 ـ كَبُرَتْ عَلَيْهِمْ إنَّهَا لَكَبِيرَةٌ
مَنْصُوبَةٌ عَلَمًا عَلَى التَّبْرِيزِ

2 ـ فَتَفَرَّقُوا أيْدِي سَبَأ فِي حَمْلِهَا
وَالْخُلْفُ بَيْنَ النَّاسِ غَيْرُ عَزِيزِ

(1) محمد بيرم الثالث توفي سنة 1259/1843 . (انظر ترجمته : اتحاف ، ج 8 ، ص 54–55) .
(2) انظر أعلاه صفحة 12 من المخطوط تعليق

3 ـ فَعَلَى فَرِيقٍ مِنْهُمْ هِيَ مُثْلَةٌ
وَلِبَعْضِهِمْ زُلْفَى إِلَى التَّمْيِيزِ

4 ـ أَمَّا بَنُو ورْغِمَّةَ فَفَقِيهُهُمْ
لَمْ يَجْرِ مَذْهَبُهُ عَلَى التَّجْوِيزِ

5 ـ فَلِذَاكَ رَامَ حِمَاكَ عِلْمًا أَنَّ مَنْ
يَأْتِيهِ فِي حِرْزٍ هُنَاكَ حَرِيزِ

6 ـ فَأَجِرْهُ مِنْ هَمْزٍ وَمِنْ لَمْزٍ بِهَا
مَا حَالَةُ الْمَهْمُوزِ وَالْمَلْمُوزِ

7 ـ لاَ زِلْتُمْ كَهْفًا يُلاَذُ بِعِزِّهِ
فَيَنَالُ فَوْقَ الْعَضْدِ كُلُّ عَزِيزِ

وقد أجابه الشيخ محمد بيرم الثالث عن ذلك بقوله : (من بحر البسيط)

1 ـ يَا أَيُّهَا الْعَلَمُ الَّذِي حَسَنَاتُهُ
شَرُفَتْ بِطَلْعَتِهَا عَلَى الإِبْرِيزِ

2 ـ وَجَّهْتَ لِي دُرَرًا يُقِرُّ بِحُسْنِهَا
أَهْلُ الصِّيَاغَةِ مِنْ أَلِي (كذا) التَّبْرِيزِ

3 ـ فَرَفَعْتُ مَطْلَبَهَا وَنَيْلُ مَرَامِهَا
سَهْلٌ بِيَمِينِ اللَّهِ اللَّهُ غَيْرُ عَزِيزِ

4 ـ فَعَلَيْهِ تَأْخِيرُ الْعِمَامَةِ بُرْهَةً
حَتَّى يَكُونَ الْقَوْلُ فِي التَّمْيِيزِ

ثمّ إنّ شيخ الإسلام المذكور عرض القضيّة على المولى الجدّ الشيخ محمّد السنوسي القاضي فكتب له بقوله : (من بحر الرجز)

1 ـ قُلْ لِلْفَقِيهِ الْمُسْتَجَازِ لِجَاهِهِ
فِي رَفْعِ نَصْبِ حَقِّ لِلتَّمْيِيزِ

2 ــ إنّ النُّحَاةَ النَّصْبَ حَتْماً أوْجَبُوا
فِي بَابِهِ وَأبَوْا مِنَ التَّجْوِيزِ
3 ــ وَاسْتَهْجَنَ الدُّؤَلِي (1) لَحْنَنَا سَاقَهُ
نَقْلاً مِنَ الأمْثَالِ لِلتَّبْرِيزِ
4 ــ / وَكَذَا الْعُمُومُ إذَا تَخَصَّصَ بَعْضُهُ [26]
ضَعُفَتْ دَلاَلَتُهُ بِنَصِّ الْجِيزِ
5 ــ وَالظَّنُّ فِيمَنْ يَسْتَجِيرُكَ إنَّهُ
مَنْصُورُ خَافِقَةٍ كَمَا الإبْرِيزِ

[أصل العمائم العظيمة]

وأصل هاته العمائم العظيمة من شعائر الدولة السلجوقيّة (2) وتوسّعت فيها الدولة العثمانية وتفنّن فيها الجراكسة أيضا . وقد رأيت فيما كتبه القطبي في تاريخ مكّة المشرّفة أنّه كان من شعار سلاطين الجراكسة عمامة كبيرة ملفوفة بصنائع مكلّفة يجعلون في مقدّمها ويمينها وشمالها شكل ستّة قرون بارزة من نفس العمامة ملفوفة من نفس الشاش يلبسها السلطان في مواكبه وديوانه ويلبس قفطانا من فاخر الثياب على كتفه الأيمن قطعة طراز مزركش بالذهب وكذلك كتفه الأيسر . إلاّ أنّ ذلك غير مخصوص بالسلطان بل يلبسه الأمراء فمن دونهم . ويخلع بهذا الثوب المطرّز على من أراد . ويحمل على رأس السلطان قبّة صغيرة لطيفة وفي وسطها صورة طير صغير يظلّل السلطان بتلك القبّة ويحملها على رأس السلطان أمير كبير وظيفته أن يصير سلطانا بعد ذلك . وأكابر أمرائه أربعة وعشرون أميرا بطبخانات [تكنات]

(1) هو أبو الاسود الدؤلي شاعر من قبيلة ديل توفي عام 681م. إليه ينسب أصول النحو العربي .
(2) السلجوقية نسبة إلى سلجوق : زعيم تركماني ظهر في النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد . (انظر أعلاه صفحة 3 . التعليق .

تضرب على أبوابهم صبحا وعصرا كلّ واحد منهم أمير مائة مقدم ألف بمنزلة البكلربكية (كذا) عندهم ويلبس كلّ منهم عمامة بأربعة قرون ودونهم أمير عشرة مقدم مائة بمنزلة السنجق فيلبس كلّ منهم عمامة بقرنين ودونهم الخاصكية يكون له فرس وخادم وعلى رأسه زنط عليه عمامة بعذبة يديرها من تحت حنكه دون الحليات (كذا) وهم مشاة على رؤوسهم طوقي من جوخ أحمر ضيّق من موضع يدخل في رأسه وسيع من أعلاه لا يلطا (كذا) برأسه وملبوس أكثرهم الملوطة البيضاء المصقولة يكون على كتفه طراز أطلس أوْ
[27] مزركش وفي أوساطهم شدود بيض مصقولة يشدّون / بها أوساطهم ويسدلون طرفها إلى أنصاف سيفانهم.هـ. [انتهى النقل عن القطبي] .

وعلى ذكر كبر العمائم رأيت في رحلة ابن بطوطة (1) أن عمامة عماد الدين الكنـدي (2) قاضي اسكندرية خرقت المعتاد للعمائم حتّى قال : لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها رأيته يوما قاعدا في صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب .

(1) الرحالة ابن بطوطة (1304م. – 1378م.) له : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . (راجع ترجمته : دائرة المعارف الاسلامية ، ط 2
(2) هو أحد قضاة الاسكندرية عاش في القرن الرابع عشر الميلاد .

تياترات الأستانة

ومن مجامع الآستانة ومنتزهاتها التياتروات (المسارح) المعدّة لضرب الآلات ورقص الغانيات وتشخيص المضحكات . وهنالك تسمع النغمات التركية وتوجد رائعات الجمال من بنات الروم والأرمن وتشاهد المشاهد المضحكة في تشخيص الروايات الصحيحة وموضوعات النّوادِرِ المسلّية للتربية والطرب على قاعدة ما وضعه العرب من الروايات التي يعبّر عنها بحديث خرافة وما وضعه على ألسنة العجميات مما حوى نوعه كتاب كليلة ودمنة (1) .

وحيث إنّ شرح هذا الباب طويل وسبق منا كلام في شأنه ربما يشفي الغليل (2) نذكر هنا من لطائفه نادرة وضعها المكلّف بالمعارف العمومية بالدولة التونسية أمير الأمراء حسين (3) من إنشائه وأتحف بها نخبة أبناء الملوك الهمام المرفّع شأنه سيّدي الناصر باي (4) عند اعتنائه بانتقاء لطائف الأدبيات وحفظه للمقامات . وأشار المنشيء بهاته النادرة إلى بعض أحوال أهل

(1) هو لابن المقفع .

(2) سبق للمؤلف أن بسط الحديث عن التياتروات (المسارح) في الجزء الاول من الرحلة الحجازية ص : 62—92 . انظر تحقيقنا لهذا الجزء نشر الشركة التونسية للتوزيع . 1976 .

(3) انظر ترجمته أسفله صفحة 48 تعليق .

(4) انظر ترجمته أسفله صفحة 56 تعليق .

الدولة التونسية في ذلك التاريخ سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف (1) وذلك قولـه :

[نادرة من تأليف أمير الأمراء حسين]

« يُحْكَى أنَّ رَأْسَ الْحَيَّةِ وَذَنَبَهَا تَنَازَعَا لَدَى دَوْلَةِ الدَّهْرِ فَقَالَ الذَّنَبُ إنَّ الرَّأْسَ لاَ يَزَالُ يَتَقَدَّمُ عَلَيَّ وَأنَا أقْطَعُ الْفَرَاسِخَ فِي خِدْمَتِهِ . وَاسْتِحْصَالِ شَهْوَتِهِ ، وَكَأنَّهُ يَرَى أنِّي خُلِقْتُ عَبْدًا مُلْزَمًا بِالْخُضُوعِ لأمْرِهِ . وَبِاتِّبَاعِ سَيْرِهِ . مَعَ أنِّي خُلِقْتُ أخَاهُ . وَأسُدُّ مَسَدَّهُ فِي كُلِّ مَا يَتَوَخَّاهُ . حَيْثُ إنِّي مِنْ دَمِ أبِيهِ وَأمِّهِ . وَأحْمِلُ سُمًّا نَافِعًا مِثْلَ سُمِّهِ . فَاقْضِ بَيْنَنَا / [28] بِحُكْمِ الإنْصَافِ . الْمَبْنِيِّ عَلَى مَا تَعْلَمُهُ فِينَا مِنَ الأَوْصَافِ . بِأنْ تَجْعَلَ لِي نَوْبَةً أتَقَدَّمُ فِيهَا عَلَى أخِي الْمَذْكُورِ . وَأسْعَى أمَامَهُ بِسَعْيِي مَشْكُورٍ . فَاسْتَجَابَتْ حُكُومَةُ الدَّهْرِ دَعْوَى الذَّنَبِ . وَعَكَسَتْ بَيْنَهُمَا التَّرْتِيبَ فِي الرُّتَبِ . فَكَانَ ذَلِكَ مُوبِقًا لِكُلٍّ مِنْهُمَا . وَمُعَطِّلاً لِسَوَادِ الرُّشْدِ بَيْنَهُمَا . حَيْثُ صَارَ الذَّنَبُ يَخْبِطُ فِي سَيْرِهِ خَبْطَ عَشْوَاءَ . لاَ يَعْبُرُ سَيِّئًا إلاَّ إلَى مَا هُوَ أسْوَأ تَلْطِمُهُ تَارَةً حَجَرَةٌ . وَتُدْمِيهِ شَوْكَةٌ وَتَخْدِشُهُ شَجَرَةٌ حَتَّى هَوَى بِالرَّأْسِ فِي الْمَهَالِكَ . وَكَانَ سُوءُ الْعَاقِبَةِ غَايَةَ مَا هُنَالِكَ . فَمَا أشْقَى الْمَمَالِكَ الَّتِي فِي مِثْلِ هَذَا الْغَلَطِ حَاصِلَةٌ . وَلِهَاتِهِ الْغَايَاتِ الْوَخِيمَةِ وَاصِلَةٌ . الَّتِي لاَ سَبَبَ لَهَا إلاَّ تَأخِيرُ الأَخْيَارِ الْكَمَلَةِ وَتَقْدِيمُ الْجَهَلَةِ السَّفَلَةِ : [من بحر البسيط]

1 — « لاَ يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لاَ سَرَاةَ لَهُمْ
وَلاَ سَرَاةَ إذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا »

(1) يوافق : 1871–1872م.

وقد نظمت هذه الحكمة بقولي : [من بحر البسيط]

1 — قَدْ غَالَطَ الدَّهْرَ تَمْوِيهٌ فَوَا عَجَبَا
لِمَا نَرَى وَامْتِثَالُ الأَمْرِ قَدْ وَجَبَا

2 — تَشَبَّهَتْ دُوَلُ الإِسْلاَمِ قَاطِبَةً
بِحَيَّةٍ قَدْ سَعَتْ تَبْغِي بِهِ أَرَبَا

3 — وَافَتْهُ سَاعِيَةً وَالرَّأْسُ يَقْدُمُهَا
بِمَا لَهُ مِنْ عُيُونٍ تَتَّقِي الْعَطَبَا

4 — فَاسْتَظْهَرَ الذَّنَبُ الدَّعْوَى بِأَنَّهُ لَمْ
يَزَلْ يُتَابِعُ سَيْرَ الرَّأْسِ مُحْتَسِبَا

5 — وَطَالَبَ الدَّهْرَ يَوْمًا أَنْ يُقَدِّمَهُ
إِذْ كَانَ كَالرَّأْسِ يَحْوِي السُّمَّ وَالنَّسَبَا

6 — فَأَبْرَمَ الدَّهْرُ حُكْمًا فِي تَقَدُّمِهِ
وَسَارَ بِالرَّأْسِ لاَ يَدْرِي لِمَا ذَهَبَا

7 — حَتَّى هَوَى الْكُلُّ فِي الْمَهْوَاةِ عَنْ غَلَطٍ
فِي حُجَّةِ الذَّنَبِ الْجَانِي بِمَا طَلَبَا

8 — وَهَكَذَا غَلِطَ الأَيَّامِ أَجْمَعُهَا
مَهْمَا تُسَوِّ بِرَأْسِ الدَّوْلَةِ الذَّنَبَا

وقد غالطت في هذا الغرض بقولي : [من بحر الطويل]

1 — لَقَدْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ الَّذِي طَالَمَا غَدَا
بَعِيدًا عَنِ الإِنْصَافِ أَعْظَمَ جَائِرِ

2 — فَأَعْلَى صَنَادِيدَ الْبَرَاعَةِ مُدَّةً
وَذَا الْوَقْتَ أَعْلَى فِيهِ أَهْلَ الْمَحَابِرِ

[29]

داخلية مدينة الأستانة

القسطنطينيّة العظمى وتسمّى الآستانة محاطة بسور عال وبأبراج كبيرة مربّعة تبلغ نحو العشرين برجا من أبنية اليونان . وكانت لها ثلاثة وأربعون بابا ثمّ صارت إلى اثنين وعشرين ، والآن لها سبعة أبواب وداخلها أسواق عظيمة أشهرها :

البازستان لبيع الأسلحة والملابس والتحف

وقلبقجي جارسوقي (كذا) وكان فيه كرسي معدّ لجلوس السلطان

وأوزون جارشو (كذا) تباع فيه الأقمشة الافرنجية

وسوق الشيرشة (كذا) أغلبه فيه باعة العرب وهو اليوم من أكبر أسواقها ، به أكثر من عشرة آلاف حانوت (دكان للتجارة) . ووجدته محلّ تجارة أهل جربة من أهل تونس .

[دائن ومدين وإنصاف حمّودة باشا]

وهنا نذكر لطيفة من لطائف المقدّس حمّودة باشا (1) عندما كان يمهّد أمر الدولة التونسية فقد اتّفق أنّ تونسيا له دين على رجل من جربة

(1) هو أبو محمد حمودة باشا ابن الباشا علي ابن الباي حسن بن علي ، ولد عام 1759/1173 ، وبويع في حياة والده عام 1777/1191 وجددت له البيعة لما توفي أبوه في 18 جمادى الثانية 31/1196 ماي 1782 وتوفي عام 1813/1229 . (راجع ترجمته : اتحاف ، ج 3 ص 11—88) .

سافر إلى الآستانة وبعد مدّة ساقت الأقدار ذلك الدائن إلى الآستانة فطلب من غريمه دينه وتلدّد عليه إلى أن توعّده بالشكاية فما كان من الجربي إلاّ أن قال له : اشْتَكِ بِـي إلى حمّودة باشا يعيّن لي قبّجي (1) ويأخذ مني خرّوبة (2) . كلّ ذلك على وجه الاستهزاء . وحيث إنّ الدائن هنالك غريب وأيس من اقتضاء دينه رجع صفر اليدين . وبعد وصوله إلى تونس بلغه أنّ للجربي مكاسب في بلد جربة فتوجّه إلى محكمة باردو (3) وأعاد قصّته على حمّودة باشا فدعا باش حانبه (4) وأذنه بتعيين قبّجي يسافر إلى الآستانة ولا يأخذ في أجر خدمته إلاّ خرّوبة ويطالب المدين بقضاء جميع الدين أو القدوم معه إلى تونس أو الامتناع من ذلك كلّه ، وعندما دخل القبّجي إلى سوق الجرابة بالآستانة ارتجّ جميع الجرابة الذين لهم أهل وضياع في جربة وعلموا خبر الدائن والمدين وأسرعوا إلى إجابة أمر حمودة باشا فقضى الرجل جميع دينه وأرادوا أن / يجمعوا للقبّجي إعانة على سفره فلم يقبل إلاّ الخرّوبة [30] المعيّنة ، ورجع من حيث أتى . وعند دخوله على حمّودة باشا أحضر الدائن وسلّمه دينه وقال : لوأن الجربي استعصى ما كنت آمر إلاّ بإباحة جميع ما لمقيمي الآستانة من الجرابة في بلدهم جربة .

[السوق النقلي بالآستانة]

وبالآستانة سوق نقلي يبيع الخضر والأفاويه يتنقّل كلّ يوم من الأسبوع إلى قسم من أقسام البلد فيأخذ أهله لأنفسهم ما يكفيهم للأسبوع . لكن توجد حوانيت للبيع اليومي بأكثر ثمنا ، ومع ذلك فصناعة القصابة أغلب أهلها من

---

(1) القبجي هو عون تحت سلطة باش حانبه .

(2) الخروبة : عملة من النحاس هي دون الريال .

(3) بـاردو : بلـدة بضاحيـة تونس العاصمة وفيها سـراي الباي إلى يوم اعلان الجمهورية في 25 جويلية 1957 .

(4) الباش حانبة هو رئيس الحجاب في نظام محكمة الباي هو الواسطة بين الباي والمتظلمين وهو الساهر على تنفيذ أحكام محكمة الباي بباردو .

الروم الاغريق يتولّون اللحوم ذبحا وبيعا ومنهم أغلب الخبّازين ، وعادة البلد أنّهم لا يتولّون عجنا ولا خبزا وتأخذ كلّ بيت من فرن الحومة قدر الكفاية يوميا بثمن نقد أو مشاهرة . ويجري عندهم مجرى الخبز أنواع الحلويات التي يحتاج إليها أهل الحومة .

[خانات الآستانة]

وأمّا خانات البلد فمنها ما يسع الخمسين ألف نفس أعدّتها الحكومة في الأصل لسكنى المسافرين مجّانا لتسهيل المؤن على التجّار والواردين ، ولكن تغيّر أكثرها إلى محلاّت عمومية خصّتها الدولة بما عرض لها .

[المتنزهات بالآستانة]

وأمّا المتنزهات فمن أجملها الكاغد خانه الذي حوله القرن الذهبي ، وموقع كاغد خانه ممّا يلي الترسخانه في بقعة خضراء طولها نصف ميل تجري إليها المياه في قناة حولها أشجار وفي تلك الروضة قصر تحيط به جنينة مزهرة بناها السلطان أحمد الثالث سنة 1724م. ومنبع القناة في بركة عليها حوض من نحاس أصفر عليه ثلاث حيّات يخرج الماء من أفواهها ويجري الماء منها إلى أن يجتمع بماء آخر فيجريان معا بمصبّ القرن الذهبي وفيه تسير زوارق المتنزّهين لا سيّما يوم الجمعة حيث يكون الاجتماع على شاطىء ذلك الجدول .

[مساكن الافرنج بالآستانة]

والبيرة المسمّاة : بك أوغلي يسكنها الافرنج وصارت الآن أبنيتها بالحجارة على النمط الأورباوي / وبها أوتيلات [نزل] ولها طريق تحت [31]
الأرض يسمّى تونيل [نفق] يصعد منه إليها بمراكب نارية .

وغلطه بناها في الأصل أهل جنوة ويسكنها الأروام واليهود وبها أماكن التجارة العمومية . ومن آثار أهالي جنوة هنالك برج المسيح ارتفاعه مائة وأربعون قدما كان بناؤه سنة 1446م. لإعلام عموم سكان المدينة بما يحدث فيها من الحريق بعلامات ينشرونها عليها تدلّ على مكان حدوث الحريق ، وذلك لكثرة ما يقع بالمدينة من الحريق بسبب أنّ أبنية البلد في الأصل كلّها خشبية خشية ما كان يطرأ على البلد من الزلزال الذي تعظم به أخطار سقوط الأبنية ، ولم يزل الخشب مادّة لمعظم مبانيها إلى هذا اليوم .

ولكن مصيبة الأهالي من الحريق أيضا مصيبة كبرى إذ ربّما احترق في المرّة الواحدة ما قيمته الملايين من الليرة بين أبنية وأمتعة ولهذا كان السكان دائما في حذر وللنفائس محلاّت مخصوصة أو صناديق خفيفة على مقربة من ربّة البيت دائما لا تشتغل بغيرها إذا أصاب الحريق بيتها . وقد يكون سبب الحريق طبيعيا فيما رأيت حيث إنّ الجدران يستعملونها ذات طابقين ويملؤون ما بينها بمادة ألطف (كذا) ويدهنون عليها بالأدهان الزيتية ، ولا يخفى أنّ اشتداد الحرّ عليها يصل بها إلى درجة الاتقاد في بعض الأحيان ثمّ إذا حدث الحريق بسبب خارجي واشتعل في جهة تستوجب حرارته اتّقاد ما تصل فيه الحرارة إلى درجة الاتّقاد وبذلك يعظم المصاب ويمتدّ الحريق إلى أقصى الجيران . ومهما حدث حريق في محلّة نشرت علامات الإعلام به وطاف المنادي في جميع المحلاّت والأسواق بالنداء عليه عسى أن يسمع به من له في تلك المحلّة منزل فيسرع إلى إنقاذ ما به .

[32] وقد شاهدت هنالك حريقين مهولين أحدهما في محلّة / دله بقجه والثاني وقع في محلّة بيلارباي بلغت الخسائر فيهما مبالغ عظيمة . وربما خرج بعض العائلات في حالة إعدام يتكفّفون فيها الطعام . ولهذا صار الناس يميلون إلى بناء الأحجار في كثير من الجهات لضعف أمر الزلزال منذ أربعمائة سنة وانقطاعه أخيرا . غير أنّ السلطان الغازي عبد الحميد كان قبل السلطنة تخيّر

لنفسه مسكنا على جبل مشرف هنالك قريب من قيشان طاش سمّاه يلدز (النجم) وعند تولّيه تخت السلطنة لم يستبدل بمقرّه قديم السرايات وزاد في الأبنية حول يلدز بمقدار ما تدعو إليه سلطنته وتوسّع في عمارة تلك الجهة حتّى وزّع مواضع منها على أغنياء وزرائه وبنوا بها قصورا بقرب يلدز .

[خبر قصر الصدر الأعظم خير الدين باشا قرب قصر يلدز]

وكان من الوزراء الذين منحهم ذلك الصدر السابق خير الدين باشا (1) وعند حلولي بالآستانة كان قصره شارف التمام . وقد دعاني للتفرّج فيه فكان بناؤه كالأبنية التي حوله من خشب في غاية التنظيم والإتقان ، واعتذر لي عن ضيق البيوت بأنّه خلافا لما كان معتادا له في تونس بقوله : « كنت سابقا أبني لنفسي فقط وتبيّن أني بنيت لغيري في تونس والآن يلزمني أن أبني لغيري بحيث أبني البناء الذي يقبله أهل البلد لأنّي لست على يقين من إقامتي في هذا البلد وربّما لزم بيعه لهم في وقت ما » .

ولم نر في تلك الجهة من الأبنية الحجرية سوى قشلة (ثكنة) عسكرية هنالك في غاية الضخامة . وعلى كلّ حال فإنّ مبانيهم الخشبية الشاهقة يتأنّقون فيها بما تفوق به على الأبنية الحجرية .

. [قصيد المؤلّف في تهنئة خير الدين باشا ببناء قصره قرب يلدز]

وقد رأيت من واجب حسن المعاملة أن أهنّىء الوزير خير الدين هنالك ببناء تلك الدار استحسانا لما دعاني للنظر فيه ولذلك قلت : [من بحر الكامل]

1 ــ بِالْيُمْنِ شِيدَتْ خَيْرُ دَارٍ فَائِقَهْ
وَبِهَا سُعُودٌ لاَ تَزَالُ مُوَافِقَهْ

(1) انظر ترجمته : أسفله صفحة 48 تعليق .

[33] 2 ـ / شيدتْ علَى متْنِ الْمعَالِي وَاغْتَدَتْ
تَزْهُو بِآيَاتِ الضَّخَامَةِ رَائِقَهْ
3 ـ وَضَخَامَةُ الْبُنْيَانِ تُنْبِىءُ عَنْ
ضَخَامَةِ هِمَّةِ الْبَانِي وَتِلْكَ مُطَابِقَهْ
4 ـ وَهْيَ التَّوَارِيخُ الَّتِي صَدَقَتْ بِلاَ
رَيْبٍ وَتَشْهَدُ لِلْعُصُورِ اللاَّحِقَهْ
5 ـ وَلِهَاتِهِ الدَّارِ الرَّفِيعَةِ بَهْجَةٌ
وَتَنَاسُقٌ تِلْكَ الشَّهَادَةُ صَادِقَهْ
6 ـ إِذْ أَنَّهَا فَاقَتْ وَرَاقَتْ وَاغْتَدَتْ
شَمْسُ الْجَمَالِ عَلَى ذُرَاهَا شَارِقَهْ
7 ـ وَتَخَيَّرَتْ دَارَ الْخِلاَفَةِ مَوْقِعًا
وَالشَّيْءُ يَأْلَفُ بِالسُّمُوِّ عَلاَقَتَهْ
8 ـ فَغَدَتْ كَأَحْسَنِ شَامَةٍ فِي وَجْنَةٍ
شَخْصِ الْجَمَالِ بِهَا يُوَاجِهُ عَاشِقَهْ
9 ـ وَعَلَى مَنَاكِبِهَا لَقَدْ نَشَرَ الْهَنَا
وَالسَّعْدُ وَالإِقْبَالُ نَشْرَ مُسَابِقَهْ
10 ـ وَالْخَيْرُ فِي أَكْنَافِهَا قَدْ عَمَّ إِذْ
خُصَّتْ بِخَيْرِ الدِّينِ وَهْيَ اللاَّئِقَهْ
11 ـ نَاهِيكَ مِنْ شَهْمٍ حَلِيفِ دِرَايَةٍ
ذِي نُهْيَةٍ فِي كُلِّ أَمْرٍ فَائِقَهْ
12 ـ زَانَ الْوِزَارَةَ وَالصَّدَارَةَ بِالْجَدَارَةِ
وَالْمَهَارَةِ فِي مَعَالِي سَابِقَهْ
13 ـ وَأَبَانَ لِلإِسْلاَمِ أَقْوَمَ مَسْلَكٍ
أَجْلَى كَعُوبَ مَعَارِفٍ مُتَنَاسِقَهْ

14 ـ أمَّا مآثِرُ نُصْحِهِ وَصَنِيعِهِ
فَهِيَ الَّتِي بِالشُّكْرِ دَامَتْ نَاطِقَهْ

15 ـ يَا أيُّهَا العَلَمُ الَّذِي نَفَحَاتُهُ
فِي كُلِّ مَكْرُمَةٍ تَرَاءَتْ عَابِقَهْ

16 ـ تهْنِيكَ دَارٌ قَدْ أقَمْتَ بِنَاءَهَا
فَغَدَتْ إلَى إيوَاءِ مَجْدِكَ لائِقَهْ

17 ـ دَارٌ تُعَدُّ كَدَارَةِ الحَمْلِ الَّتِي
لِلشَّمْسِ فِيهَا السَّعْدُ مُتَوَافِقَهْ

18 ـ فَحُلُولُكُمْ فِيهَا بِيُمْنِ سَعَادَةٍ
يُولِيكَ مَا تَخْتَارُ مِنْهُ مَرَافِقَهْ

19 ـ وَلَهَا بِسُكْنَى مَجْدِكُمْ فَخْرٌ بِهِ
فَاقَتْ وَأبْدَتْ آيَةً بِكَ صَادِقَهْ

20 ـ وَلِذَاكَ مَنْ رَاقَتْهُ أنْشَدَ قَائِلاً
أرِّخْ بِخَيْرِ الدِّينِ دَارًا لائِقَهْ

[ساحة آت ميدان بالآستانة]

ومن أبهج ساحات الآستانة آت ميدان وهي في الأصل معدّة لسباق الخيل / طولها تسعمائة قدم وعرضها أربعمائة وخمسون قدما . وكانت فيها [34] مسلّة حجرية أصلها من مدينة تيفس المصرية وعمود قسطنطين صاحب التمثال النحاسي وعمود الحيّة الذي هو من نحاس على شكل حبل ملفوف وعلى رأسه ثلاث حيّات يقال إنّه في الأصل أقيم في عهد اليونان رصدا لتنفير الأفاعي ولهم عنه خرافات مروية عن الكهنة .

[سلوك الشبان والعذارى والمخدّرات والغواني في المنتزهات بالآستانة]

وأمّا الباب العالي فهو عبارة عن قوس مرتفع هو مدخل دار الملك . وقد أدركت هنالك أمام مقرّ الوزارة الحربية وهي إلى عسكرية (كذا) مجالا لكراريس (مركبات) المتنزّهين والمتنزّهات يتجوّل فيها الشبان والعذارى والمخدّرات والغواني على اختلاس نظر وإرسال خاطر يبعث الأنس ويطرب النفس . وربّما تحصّلت فيه مواعيد الوصال بمبادئه الخفيّة السارية سريان النسيم من نفس كلّ كريم مع قيام حراسة الضبط بحضور رئيس الضبطية لمنع التجاهر بما لا يليق وأعظم أيّام التنزّه فيه يوم الأربعاء من كلّ أسبوع .

[موقف المؤلّف من سلوك النساء في الآستانة]

وقد هالني وجود ذلك المنتزه في بلاد اقتضت شريعة أهله حجاب النسوة ولكن بعد إقامتي هنالك رأيت أنّ داخلية إدارة جميع البيوت منوطة بالنساء ومن حقوقهنّ شراء لوازم البيوت بأنفسهنّ فضلا عن شراء لباسهنّ ولباس أبنائهنّ وتلك سنّة الروم القديمة وبذلك كان اختلاطهنّ بالأسواق ومحلاّت التجارة أمرا معروفا . أمّا ما يحتجبن به فهو نقاب شفّاف لا يحجب ما وَرَاءَهُ وكثير منهنّ يستعملن التدخين في الطريق وهنّ من المخدّرات الرفيعات وربّما استترن بشمسيات من الحرير صغرى يجعلنها على رؤوسهنّ ويحتجبن بها إذا أردن . وجميع الكراريس (المركبات) مفتوحة المنافذ وكثيرا ما تصدر الأوامر للنساء باستعمال الخمار الصفيق فلم تبلغ الحكومة من ذلك مقصدها فكأنّ طريقة نساء الروم بقي عليها نساء الترك .

[بستان محمود بن عيّاد التونسي بمنتزه الشحلجة]

[35] ومن المنتزهات المشتهرة بحسن / المياه وعذوبتها الشحلجة وهي موضع رياض غير أنّ طرق الوصول إليها وعرة صعبة طبيعية ترتقي في جبل على

غبار في المصيف ووحل في الشتاء . وقد توجّهت إليها في يوم نزهة في صحبة العلامة الشيخ محمّد بيرم (1) وبَنِيه ودخلنا هناك إلى مرسح فيه تشخيص رواية باللسان الأرمني . وكان أحسن البساتين فيما رأينا هنالك بستان محمود بن عيّاد التونسي (2) وبداخله واد صناعي يلتوي على عدّة برك أعدّه صاحبه للسبح به مع الغواني من تابعاته ومملوكاته .

[حكم المذهب الحنفي في سبح المملوكات مع مالك اليمين مكشوفات]

وقد كان أبو يوسف (3) رضه لاحظ في سبح المملوكات مع مالك اليمين مكشوفات ما في حرمة نظرهنّ لبعضهنّ إذ نظر عوراتهنّ محرّم عليهنّ وإن لم يكن محرّما على مالكهنّ . فالواجب على المالك اعتبار ذلك .

[أصل المياه الجارية بالقسطنطينية]

وشهرة مياه الشحلجة بين ظرفاء الآستانة في صفائها وعذوبتها وبرودتها بحيث أنّهم يعدّونها من مفاخر بلادهم الطبيعية . وأصل المياه الجارية بالقسطنطينية تأتيها في قناتين بناهما الملك هادريان (4) والملك قسطنطين (5) طولهما نحو عشرة أميال تأتي فيهما المياه من سبعة مناهل تبعد عن المدينة بنحو ستّ ساعات حيث تجتمع مياه المطر في واد له حائط بأسفله تنحصر المياه يقال له بنوده (كذا) ومنه تخرج في تينك القناتين إلى موضع يسمّى التقسيم

---

(1) محمد بيرم الخامس ، ولد عام 1840/1256 بتونس وتوفي عام 1889/1307 بمصر (انظر ترجمته أسفله صفحة : 48

(2) محمود بن عياد ولد بتونس حوالي عام 1810 وتوفي بالآستانة عام 1880 . (انظر ترجمته أسفله ص : 51 انظر أيضا الملحق رقم : 4

(3) هو أبو يوسف الكوفي (731م. — 798م.) : تولى القضاء في بغداد لثلاثة من الخلفاء : المهدي والهادي وهارون الرشيد . كان حجة في الفقه الحنفي .

(4) هادريان أو هادريانوس : أمبراطور روماني ولد بروما عام 76م . وانتصب امبراطورا سنة 117م. إلى سنة 138م.

(5) هو قسطنطين الكبير امبراطور روماني (274م. — 337م.) نقل عاصمة الامبراطورية من روما إلى بيزنطية فسميت القسطنطينية .

وقع بناؤه على عهد الملك جوستنيان (1) طوله ثلاثمائة وستة وثلاثين قدما وعرضه مائة واثنان وثمانون قدما وهو قائم على ثلاثمائة وستة وثلاثين عمودا من الرخام ومنه تتوزّع المياه في مجار من الحجر إلى الجوامع والسرايات والبيوت والبساتين .

[السرايات بالآستانة]

وأمّا السرايات فإنّ الكلام على أوصافها ممّا يكلّ دون الوصول إلى غايته قلم الكاتب ، وشهرتها في الإتقان والعظمة بين أبنية العالم الشهيرة مغنية عن الإطالة بوصفها : [من بحر الكامل]

[36] / إنَّ الْبِنَـاءَ إذَا تَعَاظَمَ قَدْرُهُ أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّأْنِ

ومن أشهرها سراية طوبقبو التي جدّدها السلطان محمّد الفاتح ولها سور به ثمانية أبواب ولرسمها ثلاث زوايا ومحيطها ثلاثة أميال وطولها نحو ستّة آلاف ذراع كان بناؤها على قاعدة البزنطية أي القسطنطينية القديمة . وقد وجدتها اختصّ قسم منها بمستودعات الآثار النبويّة .

وأشهر تلك السرايات في الزينة سراية بشكطاش التي أنفق على إتقانها السلطان عبد العزيز أموالا ذريعة . ووجدتها مأوى للسلطان مراد استقرّ بها بعد خلعه من السلطنة محفوظة بالخفراء لا يمكن الاقتراب إليها من جوانبها لعموم المارّة فضلا عن خواصّ الناس الذين تترصّدهم الجواسيس وربّما تعلّقت بهم نسبة المقاصد بمجرّد المرور احتياطا لشوكة السلطنة وصيانة لمقام ساكنها .

[جسر كوبري الواصل بين البرّين]

وحيث إنّ موقع البلد على ضفّتي البحر كان عليه جسر من خشب عظيم طوله مئات من الميتروات يواصل بين البرّين يُسَمَّى كُوبَرِي تسير

(1) انظر خبره أعلاه صفحة 14 .

عليه العربات والخيل والمارّة بأداء زهيد يجتمع منه قسم عظيم من المداخيل اليومية ، غير أنّ ذلك الدخل العظيم لم يكن تحت ضبط ويمكن توزيع معظمه على المباشرين له والمتولّين عليه بدون طريق للاحتساب عليهم إذ المارّة عليه يسترسل مرورهم بياض النهار استرسالا متواصلا لا يمكن لمستخلصي الأداء معه أن يشتغلوا بغير القبض لعدم إمكان الفرصة .

وقد تعجّبت من أمر ذلك الدخل لكثرته وتعجّبت من عدم إيجاد طريقة لضبطه حتّى لا يضيع عن الدولة لأنّي رأيت في أوربا أنّ كثيرا من المنازه والمتاحف لها في مدخلها دولاب يوقّع علامة منه كلّما سلك منه داخل ، ولا شكّ أنّ توقيع ذلك الدولاب أعدل شاهد على عدد الداخلين الذين ربّما لا يبلغ / عدّهم في الشهر إلى عدد المارّة في ساعة على ذلك الكوبري ، ولا [37] يمكن معّ وجود ذلك الدولاب أن يخفى أمر داخل للمحلّ ولو أنّ الدولة جعلت على مدخلي الكوبري آلة من ذلك النحو لأمْكَنَ للمحتسب أن يتحقّق حقيقة الحال ويصون في اعتقاده إبانة الرجال ، ولكنّني لمّا تحدّثت مع بعض الأعيان في ذلك ذكروا لي من أخبار واردات القمرق ، وحسبك ما هي واردات القمرق في القسطنطينية العظمى ، ما حملني على الذهاب إليه ورأيت هنالك ما يضيق عنه نطاق الشرح ويدخل به المتكلّم في باب التعديل والجرح ، وذلك من فضول القول لمن لم يكن له من الأمر شيء .

[البوسفور]

أمّا أصل البوغاز الفاصل بين أوربا وآسيا فيسمّى البوسفور والدردنيل (ومبدأه من شنا قلعه : كذا) وعلى جوانبه القلاع المجهّزة بالمدافع ولا يقع المرور فيه بغير إذن الدولة ، وهو الممرّ البحري الذي يواصله بين البحر الأبيض والبحر الأسود في طول عشرين ميلا وعرض ميل أو يزيد . وكلّما تعمّق الداخل في السيور (كذا) شاهد على جوانبه من الحدائق والمباني والسرايات

ما يبهج الناظر ويسرّ الخاطر إلى أن يصل إلى مدخل البحر الأسود في مضيق يسمّى : بيد كدره (كذا) . وهنالك سرايات سفراء الدول من أضخم المباني حولها الفابورات [السفن] المذهّبة والزوارق الجميلة . ومع وجود المراكب البرّية بالمدينة من التراموای والكراريس والخيل فإنّ طريق البحر لا يزال غاصًّا بالفابورات النقلية والزوارق في عموم جهات البلد بحيث إنّ البلد مع اتّساعه قرّبته الأدوات النقلية أحسن تقريب .

[وجوه المواصلات بالآستانة]

وهنالك جميع وجوه المواصلات من البوسطة (البريد) والتلغراف والبانكات التجارية في سائر الحومات وهؤلاء الصيارفة يتولّون أمور الأغنياء وذوي الدولة في / تعجيل ما يحتاجون إليه ويتولّون قبض مداخيلهم [38] بصفة وكيل خصوصي للشخص . وبالجملة فإنّ جميع المواصلات والتوسّعات التجارية هنالك قائمة أحسن قيام ، وحسبك أنّ هاته المدينة كانت دار ملك لدول عظيمة وصارت بمنّة الله مقرّ خلافة الإسلام ، خلّد الله بها سلطنة آل عثمان على ممرّ الزمان .

وهنا نحلّي جيدها بذكر سلطانها إنسان عينها وعين إنسانها لا زالت به وبآله سلطنة الاسلام في عزّ وتقدّم .

السلطان الغازي عبد الحميد خان

مجدّد الدولة وفارس الميادين في كلّ جولة تولّى الله تدابيره بالتأييد وخلّد به عزّ الإسلام على ممرّ الأبد الأبيد . قد نشأ هذا السلطان نشأة صالحة واختار ما يرضي ربّه وطلب بما اختاره رضى الخلق وتقدّم لسلطنة آبائه بعد خلع عمّه وأخيه في وجيز من المدّة على حين كانت السلطنة في داخليتها دغلا من اختلاف قلوب الرجال مع انتشار سوء الأعمال وهي محفوفة بأخطار خارجية من اختلاف الدول عليها بأسباب مالية وسياسية هي في الحقيقة من منابت دغل قلوب رجال الدولة وضغائن نفوسهم على سلطانهم الذي عاجلوه بما أرادوا المغفور له السلطان عبد العزيز قدّس الله روحه (ولا تتمّ نكاية الأعداء إلاّ بجناية الأصدقاء) وقد تفنّن في اللعب بمقام السلطنة أصحاب الغايات فتارة استنزلوا إطلاقها إلى التقييد بمجالس كانت خادمة لمقاصد الأفراد ، وتارة أغروا بها الدول المجاورة فحصلوا من إرهابها على ما يشتهون ، إلى غير ذلك من التلاعبات التي جعلت وصف الخيانة مطّردا في رجال الدولة ، وإلاّ فإنّ وظيفة كلّ متوظّف توجب عليه حفظ جميع نصاب وظيفه بسياج القوّة وصدق التدبير .

وعند جلوس السلطان عبد الحميد / على تخت السلطنة (1) رأى تداعي [39]
سائر الجوانب مع فساد القوّة وتلاشيهما إلى حيث لا يمكن ردّ ما تهاوى

(1) جلوس السلطان عبد الحميد الثاني على تخت السلطنة العثمانية عام 1876م. (انظر ترجمته أسفله صفحة 48 .

للسقوط (من ذا يردّ نزول العارض الهطل) فسكن السلطان لجميع ما جاش : (والسكون مبدأ الحركات الخيرية والنباتات القوية) وساير ما هجم حدوثه وعانى الحروب الداخلية والخارجية فكان بين استصفاء للرجال وحذر من غوائل من هو معهم وبين تجهيزات حربية لميادين الحروب وتدابير سياسية لمقاومة بقيّة الدول . وأمكن له بحزمه وتأنّيه أن استخرج خبث الرجال من اللمّة الملتوية عليهم واستعمل طيّبهم في صالح أعماله .

وكان صدره الأعظم يومئذ شيخ الدولة ورجل السياسة سعيد باشا ، وسرداره رجل الحرب وبطل بليفنا عصمان باشا ، إلى غير ذلك ممّن انتقاهم لدولته العليّة . وقد استعان على مقاصده بوجوه كان ظهورها في الخارج من خوارق العادات إلى أن وضعت الحرب أوزارها وخرج منها متحلّيا بحلية الغازي ولقّب بذلك من ظهر منهم الصدق من رجال تلك الحرب في أخبار طويلة لا يكفي لشرحها غرض رحلتنا هاته .

[تحارير المؤلّف في صحيفة الرائد التونسي بشأن حروب السلطنة العثمانية]

ولكني بمنّة الله كنت من الخادمين للإسلام بقلمي في تلك الحرب بما حرّرته في صحيفة الرائد التونسي منذ ابتدائها إلى نهايتها في فصول طويلة الذيل تضمّنت تفاصيل ما كانت عليه الوقائع في كلّ أسبوع وتوشيح مقالات افتتاحية في ذلك الخصوص وبعضها عنوانها : المؤمنون كالبنيان المرصوص . ومن تلك المقالات ما أثبتّه في كتابي : غرر الفرائد بمحاسن الرائد (1) وهنالك تفاصيل الوقائع والأخبار التي هي في الواقع خلاصة تاريخ تلك الأعصار التي توجّتها ولاية هذا السلطان وجميعها ضمن مجموعات صحيفة الرائد التي من تحرير قلمي مدّة مباشرتي لإنشاء الرائد التونسي / في الدولة الصادقية [40]

(1) لم نعثر له على أثر بدار الكتب الوطنية وغاية ما نعلمه عنه ما أخبرنا به المؤلف أو ما ذكره اسحاق قطان في المجلة التونسية ، 1902 ، ص 433 . انظر بخصوص الرائد التونسي : الملحق رقم 1 .

والوزارة الخيرية حيث باشرت خطة إنشائه خامس شعبان سنة 1293 (1) واستمررت عليها إلى خامس رجب سنة 1298 (2) .

وما سكنت دهماء سياسة سلطنته حتّى تحرّكت الحركات التونسية (3) ثمّ أعقبتها الحركات المصرية (4) وتفاصيلُها ملء أسفار من صحف الأخبار من طالعها بالتدبّر والاختبار يعلم أخطار تلك الأوعار .

[سلوك السلطان عبد الحميد]

وعند دخولي لدار الخلافة رأيت من وفور حرس التجسّس وسكون نفوس جميع رجال الدولة بخمود يؤذن بأنّهم تجرّدوا من مفاسد الاستبداد ما هالني أمره . فكانت جميع وجوه تصرّفات الدولة على سعة السلطنة العثمانية كلّها بيد شخص السلطان يطالع بنفسه جميع أوراقها ويوقّع عليها بقلمه وإرادته . وما كانت يومئذ تصرّفات جميع رجال دولته إلاّ بالمباشرة لتنفيذ الإرادات السنيّة . وبذلك كانت الإدارات الصغرى غير منتظمة بل إنّها إلى الإهمال أقرب فكان الارتشاء فيها بحيث يراه كلّ من يدخلها وكانت الأيدي عائثة في موارد المداخيل بما اقتضاه ذلك الإهمال . ولا سبب لذلك إلاّ اشتغال نفس السلطان بمهامّ الدولة وعدم إطلاقه ليد أحد من رجاله ، وبمقدار ما أمكنه من قصر وجوه التصرّفات على نفسه كان يتوجّس خيفة من غدر الغادرين ومكر الماكرين ، ولذلك اتّخذ من أوجه الاحتراس وتنظيم حرس الجواسيس ما قام به بواجبات حفظ نفسه ، وحفظ النفس أول الواجبات التي أجمع عليها المليّون .

---

(1) يوافق 26 أوت 1876 .

(2) يوافق 3 جوان 1881 .

(3) هنا إشارة إلى انتصاب الحماية الفرنسية على تونس في ماي 1881 .

(4) هنا إشارة إلى انتصاب الحماية الانقليزية على مصر بعد ثورة أحمد عرابي عام 1882 .

[تعرض جواسيس السلطان للمؤلّف بجامع الحميدية]

دخلت لصلاة الجمعة بجامع الحميدية لمشاهدة موكب حضور السلطان للصلاة ، فكان ذلك الموكب من أعظم المواكب السلطانية تحضره الموسيقى العسكرية والعسكر المشاة من الجيش النظامي يحيط بالطريق فيما بين سرايته
[41] والجامع ويحوط ميدان ركوبه ونزوله خيالة (فرسان) / الجراكسة في أفخر ملابسهم مُدَجَّجِينَ بسلاحهم على خيولهم المسوَّمة ، ويدخل حرس الياورات للجامع فيحيطون بجميع جوانبه ويدخل السلطان في لمّة وزرائه مُتَدَرِّعًا بإحاطتهم به .

وكنت عند دخولي للجامع أخذت معي مرآة هند صغرى ليمكن لي بها النظر في أخريات ذلك الميدان فوضعتها بجيبي وبسبب ذلك بمجرّد وقوفي دَاخِلَ الجامع لأداء تحيّة المسجد عاجلني أحد الياورات ووضع يده على جيبي وطلب مني استخراج ما أوجس منه خيفة ولكن كان ذلك منه بلطف تركي فعلمت عذر الرجل ورأيت لنفسي الذنب في عدم أخذ تلك المرآة بيدي لتكون بادية حالة الدخول لجامع يحضره السلطان وأنا رجل غريب بحسب لباسي التونسي ، فأخرجت له المرآة وناولته إيّاها فنظرها وأرجعها لي وذهب في حال سبيله فصلّيت تحيّة المسجد وأتممت جلوسي لأداء الجمعة وحضرت مجلس وعظ الإمام وخرجت في الخارجين .

[احتراس السلطان عبد الحميد بجواسيسه]

ومع كمال احتراس السلطان بجواسيسه وياوراته تدرّع لنفسه بأخلاط من الغرباء الذين يأمن غائلتهم ، وكان أولهم عبد خصيّ اتّخه باش آغة وهو بهرام آغة ، ودامت لذكره رنّة في السلطنة إلى أن نقله الله إلى الدار الآخرة .

[خبر الشيخ محمّد ظافر مع السلطان عبد الحميد]

ومع ذلك أدخل [السلطان عبد الحميد] في بلاطه الشيخ محمّد ظافر (1) أستاذ الطريقة المدنية الشاذلية حيث إنّه أخذ عنه الطريقة الشاذلية قبل سلطنته ، واتّخذه أمينا لمصاحبته وهو محلّ لتلك الأمانة . وأدخل أيضا الشيخ أحمد أسعد المدني حيث إنّه اتّخذه فرّاشة له في الحرم النبوي قبل سلطنته وتردّد عليه فاتّخذه جليسا من أهل المدينة المنوّرة وأدخل أيضا الشيخ أبا الهدى الصيّادي أستاذ الطريقة الرفاعية بحلب حيث تردّد عليه بما له من أنسبة للقطب الرفاعي فاتّخذه أيضا جليسا . ولهؤلاء / الثلاثة مقام سام في السلطنة (42)
العثمانية يومئذ مع نفوذ في جميع الدوائر ومع ذلك بينهم تنافس وتباين لا يَعْدَمُ مَعَهُ السلطان نفعا من جهة معرفة دخيلاتهم .

وهكذا رأيت التنافس والتباين في المقرّبين من الياورات بما لا يأمنون به على أنفسهم من بعضهم ويضطرّون إلى التمسّك بحبل رحمة سلطانهم .

[خبر الشيخ محمّد بيرم الخامس مع السلطان عبد الحميد]

وقد أخبرني الشيخ محمّد بيرم أنّه عندما تشرّف بمقابلة السلطان سأله هل يرى من دواء لسياسة الأمّة فكان جوابه : إنّ الدواء هو إعطاء الأمّة حرّيتّها بإقامة المجالس التي تتحمّل مسؤوليتها ويستريح معها الجناب السلطاني . فكانت هاته الكلمة على المسامع السلطانية من أكبر الكبر حتّى إنّه بعد خروجه قال [السلطان] إنّ الأمراض العصبيّة أثّرت في فكر الرجل . ثمّ أعانه على السفر فخرج برهة لايطاليا وعاد بأهله وتحفّظ جهده في إقامته بمقدار ما تختلف به الظروف على أولئك المقيمين من أخلاط البلاط السلطاني .

---

(1) انظر ترجمته أسفله صفحة 48 .

[خبر موقف المؤلّف من غرض السلطان في فتح صحيفة عربية إسلامية]

ولا يخفى أنّ اليد التي وجدت لأولئك الأخلاط في ذلك البلاط ربّما كان لها أثر في الأعمال الصغيرة بما ينقمه رجال السلطنة ولكن من علم مغزى السلطان في ركوب تلك الأسنّة حكم له بمزيد الحكمة في أعماله تحفّظا على ماله وبهذا كانت الحالة حرجة في ذلك العصر (قد يعتري الشمس غيم ثمّ ينحسم) وبسبب ذلك كانت لصحائف الأخبار في شأن السلطنة رنّات عجيبة في وصف رجال البلاط السلطاني بالدراويش وفي تنفير العرب من سلطنة الترك التي بتلك الصفات حتّى دعاني الشيخ محمد ظافر إلى فتح صحيفة عربية إسلامية لجمع كلمة الإسلام على سلطنة آل عثمان والمدافعة عنها . وكان ذلك على حين إيقاف صحيفة الجوائب (1) التي لم تسلم من الوقوع في غلط تلك المضايق الحرجة على أن أستقلّ بدخل الصحيفة وتجري عليّ
[43] جراية / كافية بمقدار ما يقع عليه التراضي ويقع نقل عائلتي بمصروف الدولة .

والحقّ يقال : إنّ هذا الغرض من واجبات السلطنة العثمانية التي لا ينبغي لها التخلّي عنها ولكنّي بما رأيت عليه صعوبة الحال واختلاف مشارب الرجال وتزاحمهم على ما يبلغون به الآمال في جميع الأعمال مع فشوّ أمراض صعبة الانتفاض لم يصف لي مشرب ذلك الاستدعاء ، وإن كنت أجد من نفسي له باعثا دينيا وأدبيّا ، فاعتذرت بأنّي قاصد حجّ بيت الله الحرام وإن كتب الله لي السلامة بالرجوع يقع النظر في ذلك الموضوع .

وكان هذا جوابي عدّة مرار إلى أن فارقت تلك الديار .

[موقف السلطنة العثمانية من الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية]

أمّا مسايرة السلطان للظروف في جميع عوارض السياسة فكان من الحكمة البالغة بالنظر لصعوبة الحال . وقد كانت الجرائد هرفت في شأن تونس ومصر

(1) انظر أسفله صفحة 49 . انظر أيضا أسفله الملحق رقم 1 .

بما لا تقتضيه الظروف وربّما نقلت عن شخص السلطان ما يتمنّاه أهل الإيمان وشاع بين البلدان ما لا يقتضي الحال أن يكون في حيّز الإمكان . فتذاكرت يوما مع أحد كتاب الدولة في مسألة تونس فقال لي : أخبرك عن أمر سياسي داخلي يعطيك الجواب عن السؤال وحاصله :

أنّه جرى امتحان لقبول بعض الكتّاب في الوزارة الخارجية ، والعادة أنّ من مواد امتحان كتّاب الخارجية أنّهم تعرض عليهم مسألة سياسية يعطي فيها كلّ واحد رأيه فمن وافق سياسة الدولة وقع قبوله ، ومن خالفها وقع طرحه . وعرضت عليهم المسألة التونسية : هل تتداخل فيها الدولة العثمانية مع فرنسا أم لا ؟

فاغترّ الضعفاء من الكتّاب بما رأوه في الصحف وكتبوا في استحسان التداخل الكلّي اعتبارا لكون المملكة إسلامية وهي من مشمولات أنظار الدولة العثمانية ومن واجبات سيادة السلطنة إنقاذها من يد كلّ متسلّط عليها إلى غير / ذلك ممّا هذا سبيله . وهذا في الواقع أمر تقتضيه حاجة التونسيين خاصّة . ولذلك كان أيضا رأي الشيخ محمّد بيرم في تقريره الذي رفعه للحضرة السلطانية على ما أخبرني به والعذر له لكونه تونسيا متلهّفا على بلاده لم ينظر للمسألة نظر متجرّد معتبر لمقتضى الحال . [44]

أمّا نظر أهل الرأي والسياسة من الكتّاب فإنّ ارتباك الدولة العلية لا يسمح لها بتعاطي أسباب العداوة مع الدول العظام حفظا لنظام سياستها . وسيادتُها على تونس ليس لها منها سوى الدعاء للسلطان على رؤوس المنابر وكتب اسمه على السكّة. وهذان الأمران ليس لهما أهميّة في سياسة الدولة العلية إذ لم يكن لها منها جباية ولا عسكرية ولا تداخل سياسي يقتضي ارتكاب معاداة دولة فرانسا في وقت الحاجة إلى مودّة الدول . وبذلك لا ينبغي للدولة العلية التداخل في شأن حماية فرانسا لتونس حيث رضيها باي تونس وقبلها لبلاده .

ثمّ بعد أن وقع النظر في تلك الكتابات قبلت الدولة في كتابة خارجيتها أصحاب الرأي الأخير وتركت أهل الرأي الأول . وهذا عنوان سياسي لا

يقبل الارتياب . قلت : وقد أيّدت ذلك لمخبري بأنّ الدولة التي اضطرّها الحال إلى ترك بوسنة وسرسك للنمسا وترك قبرص لانقلترة زيادة على ما تركته للروس من البلاد الاسلامية لها العذر الأوفر في ترك تونس التي لم تكن لها فيها سوى السيادة الذكرية وللدّول سياسات تحافظ عليها في الاحتفاظ على أصول الملك . على أننا نحن التونسيون (كذا) كنّا رأينا أنفسنا طعمة ورأينا دولة إيطاليا حولنا تفتل في الذروة والغارب وتحاول من وزارة مصطفى بن
[45] اسماعيل ما لم يقع ومن طالع / صحيفة المستقلّ العربية التي نشرتها إيطاليا تلك المدّة يعلم حقيقة الحال . ومع أنّ مركز البلاد التونسية بين جزر صقلية التي يتوارد منها اللصوص وبين بلاد الجزائر التي عاقتها دولة فرانسا مدّة سنين متطاولة وأخذت بها عدّة مسالك تجريبية في سياسة العرب مع ما لأهل تونس من العلم بما بلغت إليه السياسات الفرنساوية التابعة لحضارة فرانسا وتبحّر عمرانها واتّساع دائرة تمدّنها كانوا عَلَى سرور عظيم بسلامتهم من اليد الطليانية ولهم أمل في حسن استقبال الحماية الفرنساوية بعد انقطاع أوصال الاتّصال مع الدولة العثمانية التي اضطرّتها الظروف إلى رفع اليد عن البلاد التونسية .

وظهر بعيد ذلك مصداق الرأي الثابت في دولة مصر بعد التفافها على أحمد عرابي في الامتناع من التسلط الانقليزي . وكانت الرسل الشخصية والكتابات متواردة عليه من الآستانة والمابين الهومايوني بما ينقل عن شخص السلطان فلم يكن إلاّ أن صدر فرمان من السلطان في الاعلان بعصيان أحمد عرابي وانحلّت عراه واستسلم المصريون على وفرة جيوشهم وتدجّج سلاحهم واجتماع أمرهم ودهمهم الانقليز وأدخل حامية وباشر أمر المملكة والبلاد بما أراد مع أن الخراج المصري جار للدولة العلية . وللظروف أحكام يعرفها الحكّام . وسترى في شرح بعض أسرار الحوادث المصرية ما ينذهل به الفكر .

وعلى كلّ حال فإنّ زمام السلطنة العثمانية أو البيضة الاسلامية لم يكن إلاّ بيد سلطانها يتولّى به العظيم والحقير من شأنها ، نسأل الله أن يؤيّده بتوفيق من عنده لصيانة أهل ملّته وبلاده .

[قصيدة المؤلّف في مدح السلطان عبد الحميد]

[46] وقد امتدحته (السلطان) بقصيدة وقعت من جلالته موقع القبول وأمر / بحلّ معقودها للترجمة باللغة التركية فحلّلت معقودها وصيّرت معانيها في

كلام مرسل وتول" نسخه جناب العلامة الشيخ سيدي محمّد بيرم بقلم إلى التركي أقوب وتولّى ترجمتها مترجم الحضرة السلطانية وأعددت جائزتها من شرف الحياة لا من تحف الهبات ، ولذلك جعلتها زينة لهذا الكتاب وحسن خاتمة لهذا الباب وهي : [من بحر البسيط]

1 ــ السَّعْدُ سَاعَدَ وَالْمَأْمُولُ قَدْ أَلِبَا
وَالدَّهْرُ هَبَّ بِإِقْبَالٍ لَهُ انْجَلَبَا

2 ــ وَفِي التَّثَبُّتِ وَالصَّبْرِ الْجَمِيلِ لِمَنْ
يُدَبِّرُ الأَمْرَ تَيْسِيرٌ لِمَا صَعُبَا

3 ــ وَمَنْ أَرَادَ الْعُلاَ سَهْلاً بِلاَ خَطَرٍ
يَقْضِي اللَّيَالِي بِالتَّسْوِيفِ مُرْتَقِبَا

4 ــ وَمَنْ تَوَكَّلَ فِي الأَمْرِ الْمُهِمِّ عَلَى
رَبِّ الْعِبَادِ كَفَاهُ أَسْوَاء الْعَطَبَا

5 ــ فَبِاعْتِمَادِي عَلَى الرَّبِّ الْجَوَادِ أَرَى
لِعُنْصُرِ النَّارِ تَسْخِيرًا لِي انْجَذَبَا

6 ــ بِهِ الْبَوَاخِرُ قَدْ أَضْحَتْ مَوَاخِرَ فِي
زَوَاخِرِ الْيَمِّ كَيْ نَقْضِي بِهَا أَرَبَا

7 ــ وَالْمُزْجِيَاتُ عَلَى أَرْضٍ قَدِ الْتَهَمَتْ
تِلْكَ الثَّعَابِنُ لِمَا يَمَّمْتُ لَحَبَا

8 ــ بِهَا خَرَقْتُ جِبَالاً وَاقْتَطَعْتُ
مَسِيلاَتِ الْفَيَافِي وَأَدْرَكْتُ الذي عَزَبَا

9 ــ أَخَالُ أَنَّ السَّحَابَ الْجَوِيَّ يَحْمِلُنِي
وَقَدْ سَمِعْتُ لَهُ مِنْ رَعْدِهِ صَخَبَا

10 ــ أَوِ الْبِسَاطَ عَلَى رِيحٍ نَسِيرُ بِهِ
لِحَضْرَةِ مَنْ أَتَاهَا نَالَ مَا طَلَبَا

11 ـ ذِي حَضْرَةُ الْمُعْتَلِي بِاللَّهِ حَيْثُ حَمَى
مِنْ بَيْضَةِ الدِّينِ مَا أَضْحَتْ بِهِ شُعُبَا

12 ـ فَخْرِ السَّلاَطِينِ تِيجَانِ الدُّسُوتِ
وَسَادَاتِ الْمُلُوكِ الأُلى سَادُوا أَبًا فَأَبَا

13 ـ مِنْ آلِ عُثْمَانَ أَعْلاَمِ الْبَسِيطَةِ فِي
سِتِّ الْهُنَيْدَاتِ لاَ زَالَتْ لَهُمْ حِقَبَا

14 ـ هُمُ الْغُزَاةُ الْهُدَاةُ الأَكْرَمُونَ ذَوُوا
الفَضْلِ الَّذِي فِي مَجَارِيهِمْ قَدِ انْشَعَبَا

15 ـ وَهْوَ الْخَلِيفَةُ فِي أَرْضٍ قَدِ اعْتَصَمَتْ
مِنْهُ الْعِبَادُ بِكَهْفِ ظِلُّهُ رَحُبَا

16 ـ عَبْدُ الحَمِيدِ سَدِيدُ القَوْلِ مَنْ حُمِدَتْ
خِلاَلُهُ أَيَّ حَمْدٍ أَتْرَعَ الْهُضُبَا

/ [47]

17 ـ حَامِي حِمَى الدِّينِ بِالْعَدْلِ الْمُبِينِ
حَزْمِ الْمَتِينِ الَّذِي قَدْ سَابَقَ الشُّهُبَا

18 ـ فَاللَّهُ أَوْلاَهُ أَمْرَ الْخَلْقِ قَاطِبَةً
وَهْوَ الْعَلِيمُ بِمَنْ يَأْتِي بِمَا وَجَبَا

19 ـ وَصَارِمُ الصِّدْقِ فِي الأَعْمَالِ مِنْهُ يُرَى
مَاضٍ بِعَزْمٍ وَمَا أَنْ فِي يَدَيْهِ نَبَا

20 ـ حَيْثُ امْتَطَى مَتْنَ تَأْيِيدٍ أُمِدَّ بِهِ
وَهَلْ جَوَادٌ بِتَأْيِيدِ الإِلاَهِ كَبَا

21 ـ وَخِلْعَةُ العِزِّ مَعَ تَاجِ الْمَهَابَةِ لَمْ
تَبْرَحْ عَلَيْهِ إِذَا مَا حَلَّ أَوْ رَكِبَا

22 ـــ وَالْعِـزُّ بِاللّــهِ وَالنَّصْرُ الْمُبِينُ لَـهُ
كُلٌّ ظَهِيـرٌ يُوَالِـيهِ الَّذِي طَلَبَا
23 ـــ وَالرَّأْيُ وَالْحَـزْمُ وَالتَّوْفِيقُ يَصْحَبُـهُ
فِيمَـا يُـدَبِّرُ لِلأَمْـرِ الَّـذِي احْتَزَبَا
24 ـــ إِذْ سَاسَ سَلْطَنَةَ الإِسْـلاَمِ مُعْتَضِـداً
بِاللّـهِ مُبْتَهِـلاً لِلّـهِ مُحْتَسِبَا
25 ـــ وَعَـنْ جَمِيعِ الرَّعَـايَـا ذَبَّ مُنْتَصِـراً
لِلْحَـقِّ فَهْـوَ لَـهُ الْغَازِي غَدَا لَقَبَا
26 ـــ قَدْ جَيَّشَ الْجَيْشَ فَانْقَادَتْ لَـهُ أُسُـدٌ
تَـرْجُـوهُ عِنْـدَ رِضًى تَخْشَاهُ إِنْ غَضِبَا
27 ـــ مِـنْ كُلِّ مُنْتَطِقٍ شَاكِي السِّـلاَحِ لَهُ
لِبَـاسُ بَأْسٍ شَـدِيـدٍ يُخْتَشَى رَهَبَا
28 ـــ يُدَافِعُـونَ عَـنِ الدِّيـنِ الْقَوِيـمِ وَعَنْ
أَوْطَانِـهِـمْ وَعَـنِ السُّلْطَـانِ مُذْ نُصِبَا
29 ـــ إِذْ صَالَ صَوْلَـةَ لَيْثٍ فِي مَهَـابَتِـهِ
بَلْ فَاضَ بِالجُودِ مِثْلَ الْغَيْثِ مُنْسَكِبَا
30 ـــ فَفِـي مَيَـامِنِـهِ يُمْـنٌ لآمِلِـهِ
وَمَـنْ يُعَـادِهِ مِنْهَـا يَلْتَـقِ تَعَبَا
31 ـــ وَفِـي أَنَامِلِـهِ يَـمٌّ الأَمَـانِ لأَرْ
بَابِ الأَمَانِـي أَضْحَـى هَامِراً ذَهَبَا
32 ـــ وَلاَثِـمُ الْكَفِّ يُؤْتَـى مَـا أَرَادَ وَإِنْ
ثَـوَابُ لَثْمِـهِ عِنْـدَ اللّـهِ قَدْ كُتِبَا
33 ـــ إِذْ تِلْكَ لِلـدِّينِ وَالـدُّنْيَـا مَتَـابِعُهَـا
بِالآجْـرِ وَالْمَـالِ لاَ بِالْمَـاءِ إِنْ سُكِبَا

34 ـ فَاللَّهُ يَكْلأُهُ حِفْظاً وَيَنْصُرُهُ
عَمَّنْ يُنَاوِيهِ أَنْ يَلْقَى بِهِ شَغَبَا

35 ـ يَا نَاصِرَ الدِّينِ يَا مَنْ يُمْنُ طَائِرِهِ
عَمَّ الْعِبَادَ بِمَا كُلٌّ بِهِ صَبِبَا

36 ـ أَهْدِي لِبَحْرِكَ دُرّاً فِي قَلاَئِدِهِ
كَأْسُ الْمَدِيحِ بِهِ قَدْ أَطْلَعَتْ حَبَبَا

37 ـ هَدِيَّةٌ أَرْتَجِي مِنْكَ الْقَبُولَ لَهَا
إِذِ اقْتِبَالُكُمْ مِنْ خَيْرِ مَا كُسِبَا

[48] 38 ـ / فَفِي رِضَاكَ رِضَى الرَّبِّ الْكَرِيمِ وَمَنْ
نَالَ الرِّضَى فَازَ بِالْمَطْلُوبِ مُقْتَرِبَا

39 ـ فَدُمْ مُحَاطاً بِأَسْوَارِ الْعِنَايَةِ فِي
سَجِفِ الْهُدَى بِخَفِيِّ اللُّطْفِ مُصْطَحِبَا

40 ـ إِنِّي أُعِيذُكَ بِاسْمِ اللَّهِ خَالِقِنَا
مِنْ شَرِّ ذِي حَسَدٍ أَوْ غَاسِقٍ وَقَبَا

41 ـ وَاللَّهُ كَالِئُكُمْ فِي كُلِّ آوِنَةٍ
كَلاَءَةَ الْحِفْظِ فِيمَا كَانَ أَوْ حُسِبَا

42 ـ فَعِشْ هَنِيئاً وَثِقْ بِاللَّهِ مُعْتَمِداً
فَضْلَ التَّوَكُّلِ فِيمَا هَانَ أَوْ صَعُبَا

43 ـ دَامَتْ مَعَالِيكَ لِلإِسْلاَمِ مَرْحَمَةً
يَأْوِي لَهَا كُلُّ مَنْ قَدْ نَاءَ أَوْ قَرُبَا

44 ـ وَالدِّينُ مِنْكَ قَرِيرُ الْعَيْنِ يُنْشِدُنَا
السَّعْدَ سَاعَدَ وَالْمَأْمُولُ قَدْ أَلِبَا

الخبر عن التونسيين في الآستانة (1) :

لا خفاء أنّ الوزير التونسيّ خير الدين باشا (2) بعد انفصاله من الوزارة التونسيّة (3) للأسباب الظاهرة والخفيّة (4) ممّا لا يشذّ عن تاريخ البلاد تيسّر له التنقّل لبلد الخلافة بأمر من السلطان (5) بواسطة الشيخ محمّد

---

(1) هؤلاء التونسيون هم نخبة من زعماء الإصلاح بتونس في النصف الثاني من القرن العشرين : خير الدين ورستم ومحمد بيرم V ومحمد العربي زروق . وقد اضطرهم انتصارهم للخلافة العثمانية بعد فشل وزارة خير الدين إلى الهجرة من تونس إلى الآستانة .

(2) ولد حوالي سنة 1820/1236 وأصله من قبيلة أبازه الضاربة بجبال الجركس في شمال غربي بلاد القوقاس . ودخل تونس حوالي سنة 1838/1255 وتوفي بالآستانة في 8 جمادى الثانية 30/1307 جانفي 1890 ونقل جثمانه إلى تونس في 28 مارس 1968 واحتفل بدفنه بمقبرة الشهداء في 9 أفريل 1968 . أنظر : ترجمته المراجع الآتية حسب الترتيب الزمني :
— إتحاف : ج IV ، ص 156 ، ج V ، ص ص : 19—32—42—63—95—96—97—99 .
Revue Tunisiene N° 18, 1934 pp. 181-225
— مجلة الثريا : عدد 6 . سنة 1944 : خير الدين : مقال للفاضل ابن عاشور .
J. Ganiage : Les Origines du Protectorat Français en Tunisie Paris 1959 pp. 81, 371 - 374, 433, 483 .
— المنجي الشملي : خير الدين باشا . الدار التونسية للنشر . 1968 . 31 ص .
— محمد الصالح مزالي : من رسائل ابن أبي الضياف ، تتمة لإتحاف أهل الزمان ، [رسائله مع خير الدين] ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1969 ، ص : 79—83 .
— محمد الصالح مزالي : أحوال تونس قبيل الاحتلال ، [رسائل أنطوان كوني لخير الدين] ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1969 ، ص : 9 ، 46 ، 59 .

(3) في رجب 22/1294 جويلية 1877 .

(4) انظر : J. Ganiage : Les Origines pp. 471—476

(5) الغازي عبد الحميد الثاني (1842—1918) دامت خلافته من 1876—1909 . انظر : ترجمته : دائرة المعارف الإسلامية . ط 2 [(E. I.,2)] ، مجلد 1، 65—67 (مقال I. Deny) محمد السنوسي : الرحلة الحجازية ، ج II ، ص 38—48 . في خصوص استقدام. السلطان عبد الحميد خير الدين إلى الآستانة لتوليته الصدارة العظمى أنظر أسفله ص 52 :

ظافر (1) وأكرم السلطان نزله (2) وأولاه رئاسة مجلس شورى الدولة (3) والصدارة العظمى (4) ثمّ تنازل عن وظيفته (5) وبقي منعّما بالإكرامات السلطانيّة في أخبار طويلة (6) .

وعندما حاق بالبلاد التونسيّة ما غيّر حالة الدولة بوزارة مصطفى بن إسماعيل (7) خرج منها أمير الأمراء رستم باشا (8) الذي كان وزير الحرب

---

(1) محمد بن حسن بن حمزة بن عبد الوهاب ظافر المدني ولد سنة 1827/1244 بمسراته حين انتصب أبوه الشيخ حسن المولود بالمدينة 1774/1194 ينشر الطريقة المدنية الشاذلية بعد أن طوف بالمغرب الأقصى وطرابلس ومصر . وإلى هذا الشيخ ارتحل شاعر تونس محمود قبادو لأخذ الطريقة وخلف محمد أباه في نشر الطريقة فاستقدمه السلطان عبد الحميد عند ولايته وكان أخذ عنه الطريقة قبل سلطنته فاستخلصه لنفسه وحصلت للشيخ محمد ظافر بذلك وجاهة عظمى بالآستانة . (انظر : الرحلة الحجازية . ج II ص 42 ، ج III ص ص : 2–5) .

(2) خصص له السلطان مسكنا بقصر « دلمي يقشي » وهو قصر من المرمر شيده السلطان عبد المجيد سنة 1853 . انظر : Revue Tunisiene N° 18, 1934 p. 214

(3) هذا المجلس متركب من عضوين انجليزيين وآخرين فرنسيين بتعيين من حكومتيهم ومن عدد من الموظفين العثمانيين . ومهمة المجلس تنظيم المالية العثمانية وأسندت رئاسته لخير الدين بعيد وصوله إلى الآستانة وبقي على رأسه إلى 8 ذي الحجة 3/1295 ديسمبر 1878 انظر : — : م . ص . مزالي : أحوال تونس قبيل الاحتلال ... ، ص : 46 .

(4) في 9 ذي الحجة 4/1295 ديسمبر 1878 .

(5) في 25 رجب 1296/منتصف جويلية 1879 .

(6) لم تنقطع صلة خير الدين بالسلطان عبد الحميد الذي بقي يدعوه للاستشارة من حين لآخر وقد تخلص خير الدين بقوله لما حاول السلطان إقناعه بالرجوع لمنصب الصدارة : « إن ذلك لا يكون مجديا إلا بحصول أمرين هما صبر أيوب وعمر نوح ومن يضمن لي ذلك ؟ » انظر : Revue Tunisienne : N° 18, 1934, p. 216.
م . ص . مزالي : أحوال ... ص 59 وكان خير الدين من بين الوزراء الذين منحهم السلطان مواضع لبناء قصور بقرب يلدز . قال الشيخ محمد السنوسي في الرحلة الحجازية : ج 2 ص 32 : « وعند دخولي بالآستانة كان قصره (خير الدين) شارف التمام وقد دعاني للتفرج فيه ... » .

(7) ولد مصطفى بن إسماعيل ببنزرت حوالي سنة 1850/1267 وتولى الوزارة الكبرى بتونس في 25 شعبان 24/1295 أوت 1878 وأبعد عنها في 17 شوال 12/1298 سبتمبر 1881 . ولما اقترحت فرنسا على الباي إقصاءه عن الحكم جاز لأحد موظفي السفارة الفرنسية أن يكتب : « كان فراقه أوقع على نفس الباي من فقد الاستقلال » . ومات مصطفى بن إسماعيل بالآستانة سنة 1304–1887/1305 على حالة فقر لا مزيد عليه . انظر ترجمته : المخطوطة بعنوان : « نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل » : دار الكتب الوطنية ، تونس . رقم 03749 . انظر أيضا : م . ص . مزالي : أحوال ... رسالة عدد 6 ص : 53 .
J. Ganiage : Les Origines pp. 433, 475 et 483

(8) مملوك جركسي قدم تونس في عهد أحمد باي ودرس بمكتب الحرب بباردو وولي وزارة الحرب بالدولة التونسية من جمادى الأولى 1287/أوت 1870 إلى شعبان 1295/أوت 1878 وتوفي بالآستانة في صفر 1304/نوفمبر 1886 . أنظر : ترجمته : إتحاف : ج 5 ص 29 . انظر أيضا : م . ص . مزالي : من رسائل ابن أبي الضياف : ص ص : 32–56–66 . انظر أيضا : J. Ganiage : Les Origines pp. 83 et 478 n° 101

بتونس وتنقّل أوّلا إلى مصر . وخرج منها الشيخ محمّد بيرم (1) الذي كان رئيس جمعية الأوقاف (2) وناظر المطبعة (3) ولحق بالاستانة أيضا . وخرج منها أمير اللواء محمّد العربي زرّوق (4) الذي كان رئيس المجلس البلدي (5)

---

(1) محمد بيرم V ولد بتونس في المحرم 1256/مارس 1840 . كلفه خير الدين في صفر 1291/ مارس 1874 بإدارة جمعية الأوقاف فانتخب تلميذه محمد السنوسي كاتبا أول بتلك الجمعية وفي ربيع الأول 1292/ماي 1875 كلف خير الدين بيرم V بإدارة المطبعة فانتخب بيرم محمد السنوسي محررا لجريدة الرائد التونسي في 5 شعبان 26/1293 أوت 1876 . والملاحظ أن الشيخ محمد السنوسي عند تخليه عن منصبيه بجمعية الأوقاف والرائد في 5 رجب 3/1298 جوان 1881 خلفه في المنصبين الشيخ أحمد الورتاني . وقد ساهم الشيخ محمد بيرم V في تهيئة برامج المدرسة الصادقية 1875/1292 وفي تأسيس المستشفى الصادقي وتنظيمه 1879/1297 . وقد حاول أثناء قيامه بمهمة إلى باريس في منتصف عام 1879/1297 إقناع غنبيطه Gambetta رئيس الحكومة الفرنسية بضرورة تبديل القنصل الفرنسي بتونس رسطان Roustan ولكن دون جدوى . وفي 9 ذي القعدة 13/1297 أكتوبر 1879 غادر الشيخ محمد بيرم V تونس نهائيا بمناسبة القيام بفريضة الحج فاستوطن أولا الآستانة إلى نوفمبر 1884 ثم توجه إلى مصر حيث توفي في 25 ربيع 18/1307 ديسمبر 1889 . انظر : ترجمته : محمد بيرم V : صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار والأمصار ، القاهرة . 1302–1311 . ج 5

— Revue Tunisienne : nº 22. 1935, p. 232

— دائرة المعارف الإسلامية . ط (E.I; 1) مجلد 3 ، 731 (مقال M. Bencheneb)

— J. Ganiage : Les origines... p. 559, nº 89

— محمد السنوسي : الرحلة الحجازية : ج 2 ص ص : 39–40 .

— زين العابدين السنوسي : محمد بيرم V : دراسة ونصوص ، تونس 1952 .

— محمد الفاضل ابن عاشور : أركان النهضة الأدبية بتونس ، تونس 1965 ص ص 15–28 .

— فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، بيروت 1914 ص ص 64–65 ، 139–141 .

(2) أسس خير الدين جمعية الأوقاف بمقتضى أمر 19 مارس وأمر 2 جوان 1874 .

(3) سمى خير الدين محمد بيرم V مديرا للمطبعة وللرائد في ماي 1875 والملاحظ أن محمد الصادق باي كان أسس المطبعة في 20 جويلية 1860 لإصدار الرائد التونسي وجعل نظر المطبعة لحسين رئيس المجلس البلدي . انظر :
إتحاف : I.B.L.A. 1954, pp. 138-139; Revue Tunisienne 1939. 32 V
A.G.T. Carton Z531, 3; Arch. Consulat Britannique à Tunis L. B.28

(4) غادر محمد العربي زروق تونس نهائيا سنة 1881 إثر انتصاب الحماية الفرنسوية بعد أن كان مديرا للمدرسة الصادقية منذ تأسيسها في فيفري 1875 ورئيسا للمجلس البلدي . أنظر :
Revue Africaine. XXII, 1878; R.A. 1954, p. 165; J. Ganiage : Les Origines - pp. 481-482, 538-539.

انظر أيضا : إتحاف : ج 7 ص 130 .

(5) تأسس المجلس البلدي بتونس في محرم 1275/أوت – سبتمبر 1858 وترأسه مدة خمس سنوات أمير اللواء حسين . انظر : إتحاف : ج 4 ص 255 ، ج 5 ص ص 32 ، 99 . انظر أيضا : الثريا : عدد 3–1944 وصفوة الاعتبار : ج 3 ص 22 . ملاحظة : تركيب المجلس البلدي عند تأسيسه من عشرة أعضاء ولذلك سمي مقره دار العشرة : دار حسين اليوم حيث إدارة الآثار بتونس .

ولحق بالآستانة أيضا . وبعد عزل أمير الأمراء حسين (1) الذي كان مستشارا مكلّفا بالمعارف (2) مقيما ببلد قرنة (3) في نازلة قابض أموال الدولة القائد نسيم شمّامة (4) صار أيضا متردّدا في اتّخاذ المقرّ .

وآل من أمر رستم أن التحق أيضا بالآستانة لتزوّجه بابنة خير الدين (5)
[49] / هنالك حيث كان عاقدًا عليها بتونس وأقام بها في كنّ بيته

---

(1) هو رجل من الجراكسة أتي إلى تونس وسنه دون العشرة فربي في سراية الباي حسين وأدخل إلى مكتب الحرب بباردو فتعلم العربية والفقه والفرنسية والتركية والفنون العسكرية وتتلمذ لمحمود قابادو والشيخ بيرم IV والشيخ ابن الخوجة وساهم مع خير الدين في الحركة الإصلاحية بتونس وتوفي بإيطاليا بمدينة بيرنسي في 6 ذي القعدة 1304/27 جريلية 1887 . انظر : ترجمته Archives Gouvernement Tunisien : Coresp. Cons. Française - J. Ganiage : Les Origines - p. 83.
انظر أيضا : الثريا ، عدد 3–1944 .
انظر أيضا : إتحاف : ج 4 ص : 255 ، ج 5 ص : 19 ، 32 ، 42، 99 .
انظر أيضا : صفوة : ج 3 ص 22 . انظر أيضا : فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ج 2 ص 102 . انظر أيضا : أحوال : ص 42 . انظر أيضا : رسائل : ص : 18، 23، 60، 63، 67، 79، 81، 84، 86 . انظر أيضا : الرائد التونسي : 20 ربيع الأول 4/1277 أكتوبر 1860 .

(2) سمي حسين أمير أمراء سنة 1278/1861–1862 ووزير استشارة سنة 1290/1873 ووزير العلوم والنافعة في شوال 1291/نوفمبر 1874 إلى أن أفضى الأمر عند انتصاب الحماية الفرنسوية إلى عزله من وظائفه وتجريده من نياشينه سنة 1299/1881 . انظر : محمد الطاهر ابن عاشور : أليس الصبح بقريب . تونس 1967 . ص : 118 .

(3) هي مدينة ليفورنيه Livourne أقام بها حسين مرة أولى سنة 1871 ومرة ثانية من سنة 1873 إلى سنة 1881 مصحوبا بكاتبه الشيخ سالم بوحاجب لتتبع ورثة القائد نسيم شمامة فيما تخلد بذمة مورثهم لفائدة الصندوق التونسي .
انظر : J. Ganiage : Les origines - p. 559
انظر أيضا : الثريا : عدد 3 و5–1944 .
انظر أيضا : أحوال : ص 42 .

(4) نسيم بن بشي شمامة الإسرائيلي ولد بتونس سنة 1220/1805 قدمه الباي رئيسا على يهود تونس في جميع ما يخصهم في ربيع الأول 1276/أكتوبر 1859 برتبة قائد وبعد أن أمن على أموال الدولة من سنة 1276/1859 إلى سنة 1280/1864 رخص له مصطفى خزنة دار بمغادرة الإيالة نهائيا دون أن يطالب بأية محاسبة في تصرفاته وتسبب عن ذلك تتبع ورثته . فأقام نسيم مدة في باريس ثم استقر بالقرنة حيث توفي في 25 ذي القعدة 1289/24 جانفي سنة 1873 . انظر : J. Ganiage : Les origines - pp. 183-184, nº 19, 749-752 - Revue Tunisienne nº 22, 1953, p. 225.
انظر أيضا : إتحاف : ج 5 ص 16 . انظر أيضا : الثريا : عدد 3 ، 1944 .
انظر أيضا : أحوال : ص 54 تعليق 15 وص 42 تعليق 6 .

(5) هي محبوبة بنت جنات بنت مصطفى خزنة دار . ولدت سنة 1280/1864 . انظر : Revue Tunisienne nº 18, 1934, p. 182.

متمتّعا بثروته التونسيّة . وبقي حسين مطلوبا للبناء على البنت الثانية (1) التي عقد عليها بتونس أيضا . وقد حمّلني رسالة شفاهيّة إلى صهره (2) في الاعتذار الذي آل بعد ذلك إلى الفراق قبل التواصل (3) وكان يقول : «إنّ صهره عقله وعقل رفيقه رستم عن تزوّج بنات وليّ عهد تونس (4) قبل شيخوختهما التي تمنع من ذلك التزوّج» .

وعند دخولي للآستانة وجدت بها أولئك (5) الأعيان من أهل تونس (6) تحت ظلّ حماية السلطنة العثمانيّة . أمّا خير الدين فكان ملحوظا بمزيد الإكرام والاعتبار من شخص السلطان وإن لم يرض عنه رجال الدولة (7)

---

(1) البنت الثانية هي أم هاني أخت محبوبة ولدت سنة 1866/1283 وتزوجت بكار زروق .
انظر : Revue Tunisienne nº 18, 1934, p. 182

(2) هو خير الدين .

(3) سبب الفراق قبل التواصل بابنة خير الدين هو أن حسين اقترن مدة إقامه بالقرنة بفتاة إيطالية من فيرنزه هي الست أنجلينة وقد أنجبت منه ابنتها : فريدة : التي تزوجت الماصل علي باش حامبة . انظر : أحوال : ص 42 تعليق 6 .

(4) هو علي بن حسين ولد في ربيع الأول 26/1233 جانفي 1818 . ولي المملكة التونسية في 9 ذي الحجة 28/1299 أكتوبر 1882 وتوفي في 4 ربيع الأولى 11/1320 جوان 1902 .
انظر : م ص . مزالي : الوراثة على العرش الحسيني . تونس 1969 ص ص 12 ، 38 .
انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... p. 98, nº 57
انظر أيضا : E.I. art. Husaynides. R. Mantran

(5) في النص : أولائك .

(6) وصف الشيخ محمد السنوسي في الجزء الثاني من هذه الرحلة الحجازية ص 10 سفره من إيطاليا إلى تركيا ودخوله للاسانة بقوله : «وقد كان سفري للقسطنطينية من بلد قرنة فركبت البحر يوم ثلاثين شعبان بمشايعة أمير الأمراء حسين المكلف بالمعارف العمومية بتونس واتباعه . وعند وصولي إلى نابلي يوم رمضان تلقاني إبرهيم باي المويحلي المصري واكتريت مع شركة المساجري . فكان الركوب في أضخم البوابير البحرية التي اختصت بتلك الشركة لسفرها في البحور الكبرى . وسافرنا باكرة ثاني رمضان وكان الجو في غاية الصفو .... ودخلتها (القسطنطينيه) عند الغروب من سادس شهر رمضان المعظم سنة 1299 [22 جويلية 1882] وتلقاني في بوغازها كل من وكيل التوانسة سابقا الثقة التاجر الاكمل عمر رواي والماجد الأعز الابرع محمد الهادي بيرم مرسلا من والده لمرضه والمرعي العربي بسيس . ونزلت في دار سكنى العلامة النحرير الماجد الشيخ محمد بيرم .... وأقمت بها (القسطنطينية) إلى يوم الأحد الثاني عشر من ذي القعدة . فكانت مدة إقامتي بهـا (القسطنطينية) أكثر من شهرين تتبعت فيها ما تيسر لي من وجوه المطالعه . ه» .

(7) مل خير الدين من الدسائس والخزعبلات التي كان يعانيها يوميا وكلما أراد إصلاحا وجد أمامه من دأبهم المعارضة والمراوغة والمماطلة . انظر : أحوال : ص 59 تعليق 2 .

ولا عموم الأهالي لكونه دخيلا على الدولة . وقد لاقى من مضادّة الخاصّة ما لم يمكنه معه البقاء على منصبه . أخبرني الشيخ محمّد ظافر بأنّ سعايات مصطفى ابن إسماعيل في الآستانة بلغت إلى أنّ بهرام آغة (1) قال السلطان : « إنّ خير الدين هو الذي أعطى البلاد التونسيّة لدولة فرنسا ومنحها مدّ السكّة الحديدية (2) وسهّل لها جميع الطرق وبعد خروجه لم يمكن لخلفه مصطفى ابن إسماعيل أن يرجع شيئا ممّا أسّسه خير الدين حتّى إنّ الأساطيل الفرنساوية لمّا قدمت لتونس أقامت في النفيضة (هكذا قال) التي باعها لهم خير الدين (3) » . وبسبب ذلك حرّروا فصولا في بعض تفاصيل نشروها في صحيفة الوطن المصريّة (4) وقدّموها للسلطان لدفع ما عرض عليه في شأن خير الدين يظنّون بها دفع ما أكّده المصدّقون .

وعند دخولي إلى الآستانة وجدت المحرّر سليم الشدياق (5) طبع ترجمة المحاكمة التي جرت بين قنصل فرانسا بتونس رسطان (6) وبين محرّر

---

(1) بهرام آغة عبد خصي اتخذه السلطان عبد الحميد الثاني باش آغة انظر أعلاه : الرحلة : ج 2 ص 41 .

(2) انظر : V. Revue Tunisienne : n° 18, 1934, pp. 204-207.
V. J. Ganiage : Les origines... pp. 469-470.

(3) النفيضة : اسم هنشير كان المشير الصادق باي أعطاه لخير الدين سنة 1871/1288 عند صدور الفرمان في إثبات حق الوراثة للحسينيين على عرش تونس مع ضبط ارتباطهم بالدولة العثمانية بفضل المفاوضات التي تولاها خير الدين بالآستانة . انظر :
V. Revue Africaine : 1955 - pp. 342-345.
V. Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. p. 208.
انظر أيضا : أحوال : ص 61 — رسائل : ص 85 .

(4) جريدة أسبوعية سياسية أدبية تجارية أنشأها ميخائيل عبد السيد سنة 1877 في القاهرة . انظر : فيليب دي طرازي : تاريخ ... ج 3 ص 9 .

(5) سليم بن أحمد فارس الشدياق درس بالمكتب الحربي بباردو وانتقل إلى الآستانة معينا لأبيه في إدارة جريدة « الجوائب » وتحريرها . والملاحظ أن والده قدم لتونس باستدعاء المشير الأول أحمد باي للخدمة بالمملكة وبتلك المناسبة اعتنق الدين الإسلامي بعد أن كان على مذهب البروتستنت وصار يسمى بالشيخ أحمد فارس الشدياق . انظر : فيليب دي طراز : تاريخ ... ج 1 ص ص : 96—97 .

(6) تيودور رسطان Theodore Roustan ولد بإيكس اين بروفانس Aix-en-Provence بفرنسا في 8 أوت سنة 1833 وتوفي في 8 أوت سنة 1906 سمي قنصلا عاما لفرنسا بتونس في 17 ديسمبر 1874 ووزيرا مقيما بتونس في 13 ماي سنة 1881 . انظر : ترجمته :
J. Ganiage : Les origines... - pp. 445-446, n° 23.

« أنترانسيجان » رشفور (1) بالقلم العربي لما تضمّنته من تفاصيل أسرار الوقائع التونسيّة . وكان طبعها على / نفقة التونسيّين بعد أن حرّرتُ [50] عن علاّلة بن الزاي (2) في بلد إيطاليا (3) كثيرًا من أسرار مخدومه مصطفى ابن إسماعيل بطلب من أمير الأمراء حسين حيث أراد منّي ذلك الغرض فحرّرته في بعض كراريس ينسبها الناس إليه (4) فرفع ستار تلك الأسرار وقد وجّهها إلى الآستانة أيضا .

---

(1) جرت هذه المحاكمة بباريس ودامت ثلاثة أيام : 13—14—15 ديسمبر سنة 1881 . انظر : J. Ganiage : Les origines... pp. 685-693, le procès de l'«Intransigeant ».

انظر أيضا : الرحلة : ج 2 ص : 43 .

(2) كان معينا لمصطفى بن إسماعيل وكانت له سطوة نادرة على تلبه ويعد من أهم عناصر الفساد بالقصر الملكي . وقد استعمله القنصل رسطان في التجسس على ابن إسماعيل وعلى الباي محمد الصادق وكان له نفوذ عظيم عليهما بلغ درجة سمحت لجريدة « مستقبل صردانيا » أن تنعته بلقب : « كاهية الوزير الأكبر » وكان علالة ترقى إلى رتبة : « آلاي أمين » بمقتضى أمر مؤرخ في 18 جوان 1879 إلا أنه بعد ذلك بقليل جرد من رتبته العسكرية ونفي إلى جزيرة جربة مع سجنه ببرج المكان وذلك إثر نازلته مع الشيخ محمد الطاهر النيفر القاضي المالكي . انظر : أحوال : ص : 49—50 ، 53 .

انظر أيضا : J. Ganiage : Les origine... pp. 480 - 559 et 561.

(3) أقام الشيخ محمد السنوسي بإيطاليا من يوم السبت 10 رجب 1299/28 ماي 1882 (انظر : الرحلة . ج 1 ص 28) إلى يوم الثاني من رمضان 1299/18 جويلية 1882 (انظر : الرحلة . ج 2 ص 10) فكانت مدة الإقامة شهرا وثلاثة أسابيع .

(4) إنها المخطوطة الموجودة بدار الكتب الوطنية بتونس مجهولة المؤلف تحت عنوان : « نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل » رقم 03749 (أوراق 31 — مسطرة 16 — مقياس 22،3 × 16،6) . تبتدىء هذه المخطوطة هكذا : و : 1 ب « بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما . الحمد لله . هاته نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل وما جرى في أيام تعلقه بالدولة الصادقية من التقلبات والحوادث المؤلمة التي كانت نتيجتها احتلال الفرنسيس لهاته الديار التونسية واستيلاؤهم على زمام إدارتها والضرب على أيدي ولاة أمورها من التصرف في أمورها واستعباد أهلها وإرسال سهام الاستبداد والذل على أهلها والله عليم بما يعملون » . ويلي هذا الاستهلال ثلاثة فصول :

1 — في منشأ مصطفى بن إسماعيل .

2 — في بعض أعماله مع مخدومه .

3 — في سبب دخول الفرنسيس لتونس . ثم يلي هذه الفصول فصل رابع يحتوي على تقرير من علالة بن الزاي في خدمته الحقيقية مع دولة فرانسا منقول من خطه وبوسطه ذكر مقتل العادل باي ومقتل الطاهر باي . وتنتهي المخطوطة بما يلي : و31 أ : « انتهى ما وجد من هاته النبذة التاريخية والتقرير الذي سطره علالة بن الزاي في تسطير خدمته مع دولة فرانسا وهو لعمرو الحق من الخائنين لبلاده وخالقه وقد جوزي في آخر مدته على مقتضى ما يستحقه وما ربك بظلام للعبيد » . (انظر اسفله : صفحة 175) .

وعلى كلّ حال فإنّ السلطان لم يضع من جانب خير الدين وأغضى عنه وهو منه في احتراس حتّى لم يسمح له بالتداوي في بلد أوربا تخوّفا من خروجه وأعانه على إحضار من شاء من الأطبّاء وأخبار ولاياته وتصرّفاته غير شاذّة عن الدواوين (1) .

وقد اجتمعت به هنالك عدّة اجتماعات فصرّح لي في بعضها بغاية ما كان عنده من الكدر من حيث أنّه عند مفارقته لمنصب الوزارة الكبرى (2) رأى جميع خاصّته وخاصّة الدولة وأعيان الأهالي تسارعوا لبستان مصطفى بن إسماعيل (3) لكون الصادق باشا (4) أولاه وزيرًا مباشرا (5) بإعطاء خطّة الوزارة الكبرى لأمير الأمراء مَحمّد خزنة دار (6) وقال لي : « إنّ ذهاب أولئك الأعيان لتهنئة مصطفى بن إسماعيل إغراء للباي على إعطائه خطّة الوزارة الكبرى بعد حين . ولو أنّهم تركوه ولم يذهبوا له بالمرّة لما تجاسر الباي بعد ذلك على ترقيته لخطة الوزارة الكبرى (7) » . فقلت له : « لا يخفى

---

(1) الدواوين : الشرطة السرية لعبد الحميد .

(2) في 11 رجب 22/1294 جويلية 1877 .

(3) خير الدين يعرض بالشيخ محمد السنوسي الذي نظم قصيدا نشر في الرائد في مدح مصطفى بن إسماعيل .

(4) ولد في 5 صفر 7/1228 فيفري 1813 وولي في 23 صفر 22/1276 سبتمبر 1859 وتوفي في 15 ذي الحجة 28/1299 أكتوبر 1882 أنظر إتحاف : ج 5 . انظر أيضا : م . ص . مزالي : الوراثة على العرش الحسيني . ص ص 11 ، 34—38 .
انظر أيضا : E.I. 2ème Ed. art. Husaynides. R. Mantran.
J. Ganiage : Les origines... pp. 89-97, 121-124.

(5) في رجب 1294/جويلية 1877 . انظر : J. Ganiage : Les origines... p. 476

(6) محمد خزنة دار مملوك أصله يوناني ولد حوالي سنة 1810/1225 بجزيرة كوس Cos ترعرع بين مماليك حسين باشا باي وارتقى إلى خطة خازن مال شاكير صاحب الطابع ثم ولي عاملا بسوسة والمنستير سنة 1838/1254 . وسمي وزيرا للداخلية في جمادى الأولى 1278/نوفمبر 1861 ووزير الحرب في رجب 1279/ديسمبر 1862 ثم وزيراً للداخلية في ربيع الثاني 1282/سبتمبر 1865 ثم وزيرا أكبر في 11 رجب 22/1294 جويلية 1877 واستعفى من منصبه في 25 شعبان 24/1295 أوت 1878 ثم سمي مرة ثانية وزيرا أكبر في 17 شوال 12/1298 سبتمبر 1881 واستعفى لكبر سنه في سنة 1883/1300 وتوفي بالمرسى في 23 شوال 22/1306 جوان 1889 . أنظر : ترجمته : J. Ganiage : Les origines... p. 82.
Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 203.

(7) في 24 أوت 1878 .

على سيادتكم أنّكم أبقيتم ملك تونس ملكا مطلقا وما يخشاه الأعيان والمتوظّفون وخاصّة رجال الدولة من ملوك الإطلاق فاض عليهم بتهنئة كلّ مسؤول إظهارًا للرضى الذي لم يكن الملك متوقّفا (1) عليه . ولو أنّ سيادتكم قيّدتم الدولة بمجلس شوري (2) مدّة وزارتكم الكبرى ما أمكن استبداد الملك بما حصل ولا اضطرّ الأهالي لما كان منهم » . وهنا نذكر أنّ هذا الوزير قد أمكنه أن جمع إليه في مبدإ أمره خاصّة من عقلاء الرجال بتونس (واستعمال مصطفى بن إسماعيل المقرّب عند الباي بترقيات وعطايا ووعود) (3) وبذلك السلم ارتقى إلى خطّة الوزارة الكبرى بتونس بعد إسقاط صهره ووليّ ترقيته / مصطفى خزنة دار (4) ولكن (5) [51]
بشهادة الله أنّه تعاطى التصرّف في الوزارة بطريقة جدّية سلك بها مسلك

---

(1) في النص : مترقف .

(2) كانت المحاولة الأولى لإحداث مجلس شوري بالبلاد التونسية فاشلة وحاصل الأمر أن المشير محمد الصادق باي ألزم إتماما لقانون عهد الأمان بتكوين مجلس شوري سمي بالمجلس الأكبر تركب من ستين عضوا : عشرون من رجال الدولة وأربعون من أعيان الحاضرة . وافتتح محمد الصادق باي الجلسة الأولى لهذا المجلس في 24 أفريل 1861 . وقد جسمت هذه المؤسسة استبداد المماليك بالسلطة دون الباي فبادر إلى إبطالها في 30 أفريل سنة 1864 ، بمناسبة ثورة علي بن غداهم . انظر : إتحاف : ج 5 ص ص 33—38 .
انظر أيضا : Revue Tunisienne, 1939, p. 70; 1935, p. 220.
J. Ganiage : Les origines... pp. 76-88.
Fitoussi-Bénazet : L'Etat tunisien et le protectorat français, pp. 52-117.

(3) زيادة في الطرة بخط المؤلف .

(4) مصطفى خزنة دار مملوك أصله يوناني واسمه الحقيقي : جورج كلكياس سترافلكيس : Gerges Kalhias Stravelakis ولد بجزيرة شيو(Chio) في سنة 1817. قدم تونس صغير السن فأدخل دين الإسلام وسمي مصطفى وترعرع في سراية حسين باي مع تربه الأمير أحمد الذي سماه ، عندما ولي العرش الحسيني سنة 1837 خزنة دار مكان شاكير ثم زوجه أخته كلثوم . وهكذا أصبح مصطفى صهرا لحاكم البلاد ووزيرا في الدولة وسنه دون الخامسة والعشرين . وتوفي في 26 جويلية سنة 1878 . أما بخصوص التهمة الموجهة ضد خير الدين بكونه أسقط مصطفى خزنة دار من الوزارة الكبرى فتجدر الملاحظة أن خير الدين دفعها عن نفسه سواء عن طريق أعضاده ومن بينهم أمير الأمراء حسين أو بنفسه. انظر : Revue Tunisienne n° 22, 1935, p. 230 .
أنظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp. 89-98, 179-195, 202-217, 279-321, 422 - 443 . انظر كذلك أسفله الملحق رقم 4 .

(5) في النص كذا : لاكن .

التنظيمات (1) فنفع البلاد ودفع عنها كثيرًا من غائلات ما كانت عليه وزارة مصطفى خزنة دار (2) وتلك سنّة في المتوظّفين يسلك المتولّي منهم ضدّ ما كان عليه المتخلّي ممّا كان سببًا للانتقاد على المتخلّي سيّما وقد صادف ذلك من هذا الوزير أمرين مهمّين ؛ أحدهما بلوغه في الثروة من وزارة سلفه إلى المبلغ الذي أقنعه عن مزيد التطلّب لما في يد غيره فجمع ليده الخاصّة أعزّ أملاك الدولة ونتائج مصاهرته لمصطفى خزنة دار ودخل للدولة عند انتصاب الكومسيون (3) بعد تأخّره في بيته مدّة (4) فكان تصرّفه بمشاركة الأعضاء الأجانب الذين يحرسون المال لحقوق أرباب الديون (5) وفي مجموع ذلك مقتض للعفّة ومانع من غيرها . والأمر الثاني : هو أنّه وإن لم يتعلّم العلوم

---

(1) انظر : إتحاف. ج 5 ص 58 . انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines pp. 371–374

(2) نتصور مقدار غائلات ما كانت عليه وزارة مصطفى خزنة دار من مطالعة هذه الرسالة فقد كتب أنطوان كونتي إلى خير الدين بالآستانة رسالة بتاريخ 24 ديسمبر 1878 جاء فيها ما يلي : « رجعنا في السياسة الداخلية إلى ما كنا عليه في عهد المرحوم سيدي مصطفى من ضرب الفرايض والغرامات على أفراد الناس من أهل الساحل والعروش وبيع المناصب والخطط فشيء يأخذه العمال وآخر يأخذه غيرهم وصار يقع ذلك من غير تحاشٍ حتى أن الكومسيون المالي جعل جريدة في أسماء الأنفار الذين أصيبوا بذلك وفي عزم الناظر المالي أن يجمع القناصل الثلاثة ويتفاوض معهم في ذلك » . انظر : أحوال : ص : 35 . انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp. 319-334

(3) كان انتصاب الكومسيون في 5 جويلية 1869 . يقول أحمد بن أبي الضياف : « وتكلم القناصل مع الباي في ذلك ثم أتاه قنصل الفرنسيس وهو الفيكنت دي بونمليو Vicomte de Botmiliau لما أضطره بنو جنسه وقال له « إن مصرفكم فيما لا يعني أكثر من الكثير ويجب اعتبار حال الغرماء لأنهم دفعوا أموالهم ولابد لتدبير ذلك من كومسيون » أي مجلس مختلط ... فوافقه الباي على ذلك سرا » . انظر : إتحاف : ج 5 ص 114 وفي ص 118 من ج 5 إتحاف يواصل ابن أبي الضياف كلامه على الكومسيون فيقول : « ظهر لمولانا ... أن يفوض إدارة المال إلى كومسيون مالي تحت رئاسة أمير الأمراء الوزير السيد خير الدين منقسم إلى قسمين : أولهما مركب من عضوين تونسيين وثالث فرانساوي عارف بأحوال المال تستدعيه حضرته العلية من الدولة الفرانساوية وسمي هذا القسم قسم العمل ... والثاني يتركب من ستة أعضاء اثنان فرنساويان واثنان انقليزيان واثنان طليانيان تقدمهم أرباب الديون المذكورة المناضلة عن حقوقهم ... ويسمى هذا القسم قسم النظر والتصحيح » . انظر أسفله الملحق رقم : 4. أنظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp. 335-402
Revue Tunisienne n° 18, 1934, p. 191; n° 22, 1935, pp. 214-228.

(4) كان ذلك من ديسمبر سنة 1862 إلى جويلية 1869 .

(5) انظر : J. Ganiage : Les origines... pp. 288–298

والسياسة بالطرق المدرسيّة (1) إلاّ أنّه فيه همّة دعته للتشوّف إلى المعارف والسياسات وأعانه على ذلك سفره لباريس (2) لعمل الحساب مع محمود بن

---

(1) يقول الشيخ الفاضل ابن عاشور في أركان النهضة الأدبية بتونس ص 12 : « فألقته (خير الدين) يد الأقدار إلى مبعوث من طرف باي تونس (أحمد باي) ينتقي له مماليك ويطلب خاصة شابا مهذبا متعلما يحسن اللغة الفرنسية فكان خير الدين هو الشاب المطلوب . ودخل تونس (خير الدين) سنة 1838/1255 في أول عهد المشير الأول أحمد باشا الحسيني فجعله المشرف على إنشاء المدرسة الحربية والواسطة بينه وبين المسيرين لها من الأساتذة الأرووبيين » ويقول : J. Ganiage في كتابه : «Les origines...» ص 371 : « إن خير الدين رجل لا ثقافة له أصلا إذ كان أميا كسائر مماليك قصر باردو غير أنه كان يفهم اللغة التركية وبفضل إقاماته الطويلية بفرنسا أجاد إتقان اللغة الفرنسية فقد درس في باريس النظام السياسي للدول الغربية». (انظر: R. Tun. n° 18, 1934, p.183) ويقول خيرالدين متحدثا عن أصله ونشأته في مذكراته : « وربيت أولا بالقصر (قصر باردو) فدرست به اللغة العربية والعلوم الإسلامية ثم دخلت إلى الجيش حيث تلقنت معارفي العسكرية بإدارة لجنة من الضباط أو فدتهم فرنسا لتنظيم عساكر الباي وتعليمهم » . أما نحن فلم نجد في خزينة الحكومة التونسية بين الوثائق الخاصة بالمكتب الحربي بباردو ما يدعم القول بأن خير الدين كان يحسن الفرنسية قبل قدومه إلى تونس كما لم نعثر على ما يؤيد أنه أشرف على إنشاء المكتب الحربي ... الخ منذ قدومه فهذا الإشراف لم يقع إلا بعد ارتقاء خير الدين إلى رتبة أمير لواء الخيالة سنة 1841/1258 وهو إشراف لا بمعنى الإدارة إذ المكتب الحربي في تلك الفترة كان يديره كالليقاريس Calligaris وهو ما يؤيده قول خير الدين في مذكراته. وأما قول جان قانياج J. Ganiage بأنه أمي أصلا فمردود والصواب ما قاله الشيخ محمد السنوسي من أن خير الدين لم يتعلم بالطرق المدرسية وإنما حصلت له مشاركة في العلوم عرف بها طريق الاستعانة على كل صناعة بصالح أهلها . انظر : المنجي الشملي : خير الدين باشا . الدار التونسية للنشر 1968 ، ص : 11 .

(2) كان السبب في سفر خير الدين لفرنسا (سنة 1853) أن الباي لما تحقق عنده الحرب بين الدولة العليـــة ودولة الموسكو رام أن يفعل أكثر من عادات أسلافه مع عسر الوقت . والعادة أن الدولة التونسية تبعث شقوفا حربية لإعانة الدولة العلية إذا كان لها حرب ولم يكن له من اليسر ما يوفي بهمته فبعث خير الدين لاقتراض مال من بعض ديار المتجر بفرانسا وكتب له تفويضا بيده ولم يعارض في ذلك غير وزيره وصاحب سره وابن تربيته مصطفى خزنة دار . (انظر : إتحاف . ج 4 ص : 156) . ولما علم (أحمد باي) أن النازلة (نازلة محمود بن عياد) آلت إلى جدل وخصام ... أتى الأمر من بابه ... فكاتب أمير لواء الخيالة أبا محمد خير الدين وهو إذاك بباريس وآذنه بمباشرة النازلة ... ودامت النازلة نحو ثلاث سنين آل الأمر فيها إلى ما لخصه خير الدين في كتاب طبعه باللغة الفرنساوية واللغة العربية . (انظر : إتحاف : ج 4 ص : 154) . وفي هذا الصدد أرسل المشير أحمد باي رسالة إلى وزير خارجية فرنسا هذا نصها : « الحمد لله نخبة الوزراء الأركان وعمدة أكمل الرفعة والشان ومن اشتمل على الوفاء بالعمل واللسان وصاحب المحاسن التي لا يحصيها الحسبان فريدة الكبراء وفخر سلك الوزراء حبيبنا السيد دوروان دو لويس وزير الأمور الخارجية في الدولة العظمى الفرنساوية أدام الله حفظه وأجزل من العز حظه أما بعد إهداء التحية المناسبة لوزارتكم السنية فإن مطالبنا من محمود ابن عياد التي كاتبنا جنابكم الأعز فيها قبل هذا مع مكتوبنا للجناب المعظم السلطاني وانتظرنا عدله في النازلة المباشر فيها أمير الأمراء ووزيرنا في الأمور البرانية الكنت ابننا جوزاب راف وكنا أمرنا الأعز الأرشد ابننا خير الدين أمير لواء الخيالة أن يباشر النازلة معه بحيث تكون يدهما واحدة وتأخر إعلام جنابكم بذلك والآن نعرض لعزيز جنابكم أن يدهما في هذه الخدمة واحدة والحاضر منهما يقوم مقام الغائب فيما يتعلق بطلب حقنا الذي رجونا جنابكم في ذلك. ودمتم ودام لكم الإنعام على ممر الدوام. حرره الفقير إلى ربه تعالى عبده المشير أحمد باشا باي صاحب المملكة التونسية في 15 ربيع الأول سنة 1271/5 ديسمبر 1854 (انظر: A.E. Paris, correspondance politique, Drouyn de Lhüys, juillet 1852 - avril 1955.

عيّاد (1) على عهد المشير الأوّل أحمد باشا باي (2) . فأقام بها مدّة (3) وتعرّف بالأعيان وشاهد ما عليه الرجال فانتشر بذلك في رياض المطالعات واستعان عليها بمن اختارهم . وسار على ذلك المنهج بعد رجوعه من سفره حتّى حصلت له مشاركة عرف بها طريق الاستعانة على كلّ صناعة بصالح أهلها . وقد كان الوزير مصطفى خزنة دار يقول : « إنّ خير الدين وحسين ورستم مجموعهم رجل واحد لأنّ خير الدّين يقدر على العمل إذا وجد حُسْن التدبير من غيره وليس له قدرة على التدبير ، وحُسَيْنا يقدر على التدبير ولا قدرة له على العمل ، ورستمًا رجل أمين فمجموعهم بمثابة رجل واحد مدبّر عامل أمين ومن انفرد منهم لا يمكن له أن يستقلّ بفضيلته » .

[52] ومن أحاسن عمل خير الدين أنه في مدّة / تأخّره عن الخدمة (4) جمع زروعه في كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال

---

(1) محمود بن محمد بن عياد ولد بتونس حوالي سنة 1810 وتوفي بالآستانة في 18 فيفري سنة 1880 . انظر : إتحاف ، ج 4 ص ص 151–155–156 . انظر أيضا :

Revue Tunisienne : n° 18, 1934, pp. 184-186.

J. Ganiage : Les origines... pp. 181-185, 750.

انظر أيضا : رسالة الجنرال حسين : حسم الالداد في نازلة ابن عياد . المطبعة التونسية . 1876/1292 .

(2) مولد هذا الباي في الحادي والعشرين من رمضان سنة 1221/2 ديسمبر 1806 وأمه جارية من سبي سنبيرة(St Prietro) جزيرة في الجنوب الغربي من سردانيا) جاءت صغيرة مع أمها وأختها وتربت بدار جدته لأبيه . بويع أحمد ضحى يوم الثلاثاء عاشر شهر الله رجب سنة 1253/ 10 أكتوبر 1837 وتوفي في 13 رمضان سنة 1271/30 ماي 1855 . انظر : إتحاف : ج 4 ص ص : 188–265 . انظر أيضا : الوراثة : ص : 31–32–33 . انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp. 10, 112-122

(3) من سنة 1853 إلى موفى سنة 1856 .

(4) استقال خير الدين في ديسمبر سنة 1862 من منصبيه كوزير البحر ورئيس للمجلس الأكبر وبقي متوقفا عن الخدمة إلى أن عين رئيسا للجنة المراقبة المالية الدولية في 5 جويلية سنة 1869 . انظر : J. Ganiage : Les origines... pp. 81-371 والملاحظ أن مدة التوقف عن الخدمة هي سبع سنوات لا تسع كما جاء في (R.T. n° 18, 1934, p. 187) .

الممـالك (1) بمشاركة أعيان من علماء تونس (2) فجاء كتابا مفيدا حصل له بطبعه صيت في السياسة فأمكن له أن يكون رئيس الكومسيون المالي عند انتصابه ووزيراً مباشرًا بحسب ما اقتضته تلك الظروف (3). وبعد انفصاله من وزارة تونس (4) وسعاية الشيخ محمّد ظافر له في الانتقال إلى الآستانة كان أوّل تلغراف (5) ورد لتونس تضمّن أنّ الحضرة السلطانيّة رأت بعض فصول من كتاب أقوم المسالك واستحسنتها فأمرت بإحضار مؤلّفه . فكان هذا الكتاب هو باب الدخول إلى وزارتي تونس والآستانة (6) . ولكنّه بعد أن استقرّ في خطّة الوزارة الكبرى بتونس بضع سنين تنكّر لمن كانوا في إعانته ممّن يسند إليهم التدبير وأخذ بيده زمام الإطلاق في الدولة ورشقته سهام الاعتراض وفسدت أنصاره ونقموا عليه أمورًا كثيرة من أعظمها مخالفته في العمل لواجبات الشورى التي كانت من زهرات كتابه أقوم المسالك . وقد أوقفني

---

(1) كان الفراغ من طبعه بتصحيح محمد البشير التواتي بمطبعة الدولة التونسية في 18 ربيع الثاني سنة 1868/1285 (انظر : أقوم المسالك : ص 464) وظهر هذا الكتاب بالفرنسية بالعنوان التالي :

Réformes nécessaires aux Etats Musulmans. Essai formant la première partie de l'ouvrage politique et statistique intitulé : « La plus sûre direction pour connaître l'état des nations », par le Général Khéredine, Ministre de la Marine à Tunis et ancien Président du Grand Conseil Tunisien. Traduit de l'arabe sous la direction de l'auteur. Paris, imprimerie administrative de Paul Dupont, 54 rue de Grenelle, Saint-Honoré, 1868.

انظر : Revue Tunisienne n° 18, 1934, p. 187.

(2) من بين هؤلاء الأعيان الشيخ سالم بوحاجب المولود بقرية بنبلة من قرى المنستير سنة 1828/1244 والمتوفي بتونس في ذي الحجة سنة 1925/1343 درس بجامع الزيتونة الأعظم وجلس به مدرسا من الطبقة العليا من مدرسي المالكية من 1265 إلى 1330 . وعند تأسيس المجلس البلدي في المحرم من سنة 1858/1275 انتخب ليعمل به كاتبا وهنالك تعرف بحسين ومنه تعرف بخير الدين فأصبح لكل منهما صديقا . وتولى إعانة خير الدين على تحرير كتاب أقوم المسالك كما صرح بذلك في خاتمته إذ قال : « مستعينا في تحريره ببعض أبناء الوطن » . انظر : الثريا : عدد 5 ص ص : 2–3 .

(3) سمي خير الدين وزيرا مباشرا في شوال 1286/جانفي سنة 1870 .

(4) انفصل خير الدين عن الوزارة الكبرى في 11 رجب 22/1294 جويلية سنة 1877 .

(5) انظر خبر هذه البرقية في : Revue Tunisinenne : n° 18, 1934, p. 213

(6) سمي خير الدين وزيرا أكبر بتونس في 29 شعبان 22/1290 أكتوبر سنة 1873 وسمي صدرا أعظم بالآستانة في ذي الحجة 1295/أوائل ديسمبر سنة 1878 .

صهره وناصره أمير الأمراء حسين المكلّف بالمعارف العمومية على مكتوب كاتبه به من إيطاليا (1) أنّب عليه فيه غاية التأنيب لتركه واجبات الشورى واستبداده بالتوغّل في سكر الولاية . وقال لي في أحد مجالسه : « لا تكون نتيجة سيرة خير الدين إلاّ تسهيل الطريق لوزارة مصطفى بن إسماعيل حيث إنّ نفور الباي من خير الدين قاومه أوّلا معاضدة وليّ العهد (2) وخاصّة رجال الدولة لخير الدين ولكن بنفور هؤلاء لا يبقى إلاّ انتظار وزارة مصطفى بن إسماعيل » . ولكن قد سبق القضاء فتمادى خير الدين على استبداده وانحلّت جموع أنصاره وربّما وجدت لبعضهم يد سريّة (3) مع مصطفى بن إسماعيل
انتهز منهم فرصتها . وهنا لابدّ من صيانة / بعض الأعراض ممّا [53]
يقتضيه نشر بساط الاعتراض .

وكنت في ذلك الوقت محرّرا للرائد التونسي (4) فكتبت فصلا افتتاحيّا جعلتُ عنوانه « لا قول إلاّ بعمل » ، وتكلّمت فيه على الموضوع بكلام عموميّ تمعّر له وأنكر الكلام في ذلك الموضوع . وصرّح لي مرّة بقوله : « إنّي كتبت أقوم المسالك قبل مباشرتي للخطّة وعندما باشرتها رأيت واجباتها قاضية بغير ذلك » . هذه نهاية ما سمعت منه في الاعتذار عن مخالفته لرأيه في الشورى . ولم يقع نشر ذلك الفصل بالصحيفة . ولكنّه اضطرّ للخروج

---

(1) انصرف الوزير حسين إلى نازلة القائد نسيم شمامة منذ أن فوض أمرها إليه في ربيع الثاني 1290/جوان 1873 ولم يزل مهتما بها حتى دعاه تشعب النازلة والخطر الذي أحدق بمصالح الدولة بها إلى الانقطاع للاشتغال بها بإيطاليا وقد أقام في مدينة القرنة Livourne من سنة 1873 إلى سنة 1881 مترددا في تلك المدة على تونس مرات لم يطل فيها مقامه . انظر : الثريا : عدد 3 .

(2) ولي العهد إذاك هو علي باي المولود سنة 26/1234 جانفي سنة 1818 . ولي في 26 ذي الحجة 28/1300 أكتوبر سنة 1882 وتوفي في 4 ربيع الأول 11/1320 جوان سنة 1902 . وكانت ولاية علي باي هي الأولى بعد الاعتراف الرسمي بالوراثة في البيت الحسيني ولكن بانتصاب الحماية الفرنسية انقطع إسناد المراتب الشرفية التركية للبايات . انظر : الوراثة : ص ص : 12 ، 38–39 . انظر أيضا : E.I. 2ème éd. Husaynide. R. Mantran

(3) انظر المخطوطة التي نسبناها لمحمد السنوسي والموجودة بدار الكتب الوطنية بتونس تحت عنوان : « نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل » رقم 03749 .

(4) اشتغل محمد السنوسي محررا للرائد التونسي من 5 شعبان 26/1293 أوت 1876 إلى 5 رجب 3/1298 جوان 1881 .

من خطّة الوزارة بطلب من الباي بعد ثلاثة أسابيع من حديث ذلك الفصل (1) ولذلك أثبته في كتابي « غرر الفرائد بمحاسن الرائد » وإن لم يقع نشره في الصحيفة (2) . ومن هذا التفصيل يعلم المطالع معنى قولي له في الآستانة « إنكم أبقيتم ملك تونس ملكا مطلقا » . ولكنّه أجابني في الآستانة بغير جوابه في تونس فقال لي : « هذه إحدى المسائل التي يعترضون عليّ بها مع أني قد سعيت مع الباي في إقامة مجلس شوري ونقلت له عن الأعيان أنّهم يطلبون ذلك . فقال لي الباي : « نطلب أن تسمّي لي هؤلاء الطالبين » ففسخت المجلس وأرسلت لكلّ من شيخ الإسلام (3) والقاضي المالكي (4) لكونهما أكثر الفقهاء تبصّرا بأحوال العصر . واجتمعت مع كلّ واحد منهما بانفراده وتكلّمت معه في المسألة فكان جوابهما يدور على محور واحد وحاصله أنّ هذا الأمر لا يرضي الباي ولا يقوم لك به أصحابك ولا يعرف الأهالي له قيمة ولا يطلبونه » . قال لي خير الدين : « ثمّ إني سألت الذين طلبوا ذلك منّي من أصحابي عمّن يقوم بوظيفة المجلس من الأهالي . فكنت كلّما سألت واحدًا ذكر لي بقيّة أصحابي وانحصرت دائرة الأمر فيما بيننا مع كون الباي غير راض بذلك / فتركت الخوض في المسألة بعد ذلك . [54]
ولا شكّ عندي أنّ الاستبداد مع الصدق والنصيحة أنفع من المشاركة في الرأي إذا أفضى للتشتّت » . وعند ذلك قلت له : « أمّا الاستبداد بشرط الصدق والنصيحة فلا يخفى أنّه غير مضمون الدوام ، إمّا بتغيّر فكر الشخص أو بتغييره بغيره ، وأمّا كون الأهالي غير طالبين والباي غير راض

(1) جرى حديث ذلك الفصل بين خير الدين ومحمد السنوسي في 19 جمادى الثانية 1294/غرة جويليا 1877 .

(2) لم نعثر لهذا الكتاب على أثر لا بدار الكتب الوطنية ولا بغيرها .

(3) عند وفاة الشيخ محمد معاوية أسندت مشيخة الإسلام إلى الشيخ أحمد ابن الخوجة في 27 صفر 13/1294 مارس 1877 . انظر : الثريا : عدد 8 . ص 9 .

(4) هو الشيخ محمد الطاهر النيفر : ولد عام 1824/1240 وتوفي بتونس عام 1894/1311 . والملاحظ أن خير الدين هو الذي عينه قاضيا مالكيا في سنة 1873/1290 . انظر : الثريا : عدد 10 . ص 2 .

فلا يخفى أنّ هاته التغييرات الدولية تارة تكون من الأدنى للأعلى فيثُور الأهالي إلى أن يحصلوا على انقلاب الدولة وذلك عند استضعاف الدولة وفوز الأهالي بالقوّة الكافية وتارة يكون من الأعلى للأدنى فتحمل الدولة أهاليها على ما فيه صلاح ملكهم وتدخل فيهم ذلك النظام شيئا فشيئا إلى أن يصير جبلّة فيهم ، وهذا تارة يكون بنصح الملوك للأمّة حفظا لقوّة الشوكة كما فعله السلطان سليم (1) في أخبار تنظيماته (2) وتارة يكون باستسلام الملك حين يرى من نفسه ضعفا في وجه غيره فيضطرّه ذلك إلى هذا النوع من التسليم وإلاّ فإنّ تنازل الشخص الواحد عن استبداده بالأمر من عند نفسه لا أظنّ أنّ النفس تقبله بسهولة وقد أفادنا التاريخ وجود هاته الأصناف بأسبابها في دول كثيرة . وكان الأمل من وزارتكم أن تكون الدولة من الصنف الثاني لما تقتضيه حالة جهل أغلب الأهالي » . ثمّ أرخيت له العنان وجريت معه بحسب جريه في ذلك الميدان .

وقد أظهرت له في إحدى الليالي تعجّبي من قبوله لخطّة الصدارة بعد ولايته رئاسة مجلس الشورى (3) حيث إنّ تلك الرئاسة من الوظائف

---

(1) هو السلطان سليم الثالث ولي الخلافة العثمانية من سنة 1789 إلى سنة 1807 . وفي عهده تمت أولى محاولات الإصلاح على غرار الإصلاح الفرنسي انظر أولا :
دائرة المعارف الإسلامية ط 1. (E.I., 1) مجلد IV ص : 227—231 (مقال J.H. Kramers)
وثانيا : C. Brockelmann : Histoire des peuples et des Etats islamiques, Paris, 1949 pp. 290-291.

(2) هي الإصلاحات المعروفة بالتنظيمات وقد اتخذها السلطان سليم الثالث على مثال تنظيمات المؤسسات الفرنسية إذ نصحه باتباعها سفير نابليون الأول بتركيا الجنرال سبستيان Sebastiani والملاحظ أن الديبلوماسية الفرنسية كان لها تأثير بالغ في بلاط هذا السلطان . وكان في عداد هذه التنظيمات تنظيم الجيش إلا أن العساكر الإنكشارية لم يرضوها فدبروا مؤامرة ضد السلطان سليم فأجبر على التنازل عن الخلافة العثمانية في 29 ماي 1807 ونفذ فيه حكم الإعدام في عام 1808 . انظر : دائرة المعارف الإسلامية ط 1 (E.I.,1) مجلد IV ص : 689—693 (مقال J.H. Kramers)

(3) مجلس الشورى هو لجنة خاصة مركبة من عضوين انجليزيين وعضوين فرنسيين بتعيين من حكومتيهم ومن عدد من الموظفين العثمانيين . ومهمة هذا المجلس تقديم تقرير بخصوص إعادة النظام المالي العثماني . وقد أسندت رئاسة هذا المجلس إلى خير الدين بعيد وصوله إلى الآستانة وبقي على رأسه إلى 8 ذى الحجة سنة 1295/1878 . والملاحظ أن خير الدين عين صدرا أعظم بالآستانة في 28 ذي القعدة 1294/4 ديسمبر 1878 . انظر :
Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 216.

الاستمراريّة وصعوبة الصدارة في البلاد العثمانية لاسيّما على الدخيل لا تقتضي استمرارًا . كما أني أظهرت له تعجّبي من إقامته وإقامة غيره من التونسيّين هنالك تحت ضغط الاحتراس من / ترصّد الجواسيس (1) . فصـدّق تعجّبي [55] من كلا الأمرين وقال لي : « أمّا قبول الصدارة فالحقّ فيه ما تقول ولكنني (2) قبلتها حيث إنّ الصادق باي يعتقد أنّ من يخرج من بلاده يموت جوعا فأردت أن أريه أنّ من يخرج من بلاده يصير صدرًا أعظم (3) في مقام السلطنة العثمانية وأنا على يقين من عدم استمراري على تلك الخطّة ولذلك بعد خروجي منها عُرضت عليّ مرارًا ولم تزل الحضرة السلطانيّة تطلب إعادتي لها وأنا على رأيي الأوّل في عدم العودة . وأمّا الإقامة في الآستانة على الحالة الموجودة فإني قبل دخولي للآستانة ما كنت أحسب شيئا ممّا هو موجود ولو أنّ إمامي الأعظم أبا حنيفة (4) أخبرني بشيء ممّا وجدت عليه بلاد الترك كنت أقول إنّ الإمام رضه عارف بأمر الدين وربّما شذّت عنه أمور الدنيا . وما كنت أتصوّر وجود هاته الحالة في مقرّ السلطنة الإسلاميّة ولكن بعد وجودي في هاته البلاد وجب البقاء على هاته الحال . وأنا لا أدري كيف المآل (5) » .

---

(1) كان للسلطان عبد الحميد الثاني مصلحة للجوسسة تحدث عنها الشيخ محمد السنوسي في هذا الجزء الثاني من الرحلة الحجازية (ص 40-41) فقال : « وبمقدار ما أمكنه (السلطان عبد الحميد) من قصر وجوه التفرقات على نفسه كان يتوجس خيفة من غدر القادرين ومكر الماكرين ولذلك اتخذ من أوجه الاحتراس وتنظيم حرس الجواسيس ما قام به بواجبات حفظ نفسه ... دخلت لصلاة الجمعة بجامع الحميدية لمشاهدة موكب حضور السلطان الصلاة ... ويدخل حرس الياورات للجامع فيحيطون بجميع جوانبه ويدخل السلطان في لمة وزرائه متدرعا بإحاطتهم به وكنت عند دخولي للجامع أخذت معي مرآة هند صغرى ليمكن لي بها النظر في أخريات ذلك الميدان فوضعتها بجيبي وبسبب ذلك بمجرد وقوفي داخل الجامع لأداء تحية المسجد عالجني أحد الياورات ووضع يده على جيبي وطلب مني استخراج ما أوجس منه خيفة ولكن كان ذلك منه بظرف تركي فعلمت عذر الرجل ورأيت لنفسي الذنب في عدم أخذ تلك المرآة بيدي لتكون بادية حالة دخولي الجامع بحضرة السلطان وأنا رجل غريب بحسب لباسي التونسي فأخرجت له المرآة وناولته إياها فنظرها وأرجعها لي وذهب في حال سبيله » .

(2) في النص كذا : ولد كني .

(3) في النص كذا : أعظما .

(4) توفي أبو حنيفة ببغداد سنة 767/150 .

(5) في النص كذا : المثال .

وقد سمعت ما يقرب من جوابه من بقيّة الذين ساقتهم المقادير إلى بلاد خلافة الإسلام واضطرّهم اضطراب الأهواء العصريّة إلى ذلك المركز وبذلك ازددت حبّا في بلادي وصرت أنشد في قومي : [من البسيط]

وما أُصَاحِبُ من قومٍ فأَذْكُرُهُمْ إلاّ يَزِيدُهُمْ حُبًّا إليَّ هُمُ

وقد اكتريت لسفري من الآستانة صحبة فابور نمساويّ إلى جدّه . وأمكن السفر من الآستانة عشية يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة (1) وصاحبني للمشايعة كلّ من الشيخ محمّد بيرم (2) وابنه الأعزّ محمد الهادي (3) وأتباعه . وأدركنا هنالك للمشايعة كلّ من الشيخ محمّد ظافر وصهره الخير عبد الرحمان / الجزولي (4) . وكان الفابور محتبكا بركاب الحجاج من أهل فارس وبعض الترْك الذين تعرّفت بأعيانهم وطابت لي مرافقتهم . [56]

[رسالة المؤلّف إلى الأمير محمد الناصر باي]

وقبل خروجي من الآستانة كتبت إلى أصفى أودّائي (5) مكتوبا يشفّ عمّا يكنّه الفؤاد ونصّه :

---

(1) يلاحظ أن الشيخ محمد السنوسي يذكر هنا أن خروجه من الآستانة كان عشية يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة سنة 1299/24 سبتمبر 1882 بينما ذكر في الصفحة 10 من هذا الجزء الثاني من الرحلة أن خروجه من الآستانة كان يوم الأحد الثاني عشر من ذي القعدة . ولعل مراده أن المشايعة كانت عشية يوم السبت وأن إقلاع الباخرة كان صباح يوم الأحد . ويلاحظ أيضا أن إقامة الشيخ محمد السنوسي بالآستانة دامت من 6 رمضان 1299/8 جويلية 1882 إلى 11 ذي القعدة 1299/24 سبتمبر 1882 .

(2) يلاحظ أن الشيخ محمد بيرم الخامس أقام بالآستانة إقامة أولى من صفر 1297/جانفي 1879 إلى شعبان 1298/جوان 1881 وإقامة ثانية من المحرم 1299/نوفمبر 1881 إلى المحرم 1302/ أكتوبر 1884 .

(3) محمد الهادي هو الابن البكر للشيخ محمد بيرم الخامس وكان فتى لم يبلغ العشرين من عمره لما اضطر والده إلى هجرة البلاد التونسية فألحقه أبوه مدة إقامته بالآستانة بمكتب خصوصي في مدينة جنيف من بلد سويسرة . ثم ارتحل مع أبيه إلى مصر حيث استقرت عائلته وهو الذي سهر على طبع الجزء الخامس من صفوة الاعتبار وذيله بترجمة أبيه .

(4) من أسرة الجزولي نسبة إلى قرية « جزولة » بالمغرب . انظر : دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة الجديدة . ج 2 ص ص : 540—541 . مقال بقلم محمد بن الشنب .

(5) هو محمد الناصر بن محمد باي ولد في 28 شوال 1271/14 جويلية سنة 1855 وجلس على العرش الحسيني في 17 ربيع الأول 1324/11 ماي سنة 1906 وتوفي في 15 ذي القعدة 1340/10 جويلية

« الحمد لله وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم » .

أقسم بالوداد * وما حلّ بسويداء الفؤاد * من ألم البعاد * ومزيد الاشتياق إلى المراد * لقد أذاب الشوق نفوسا * وأراق من الأنس كئوسا * ولم يحل معه إيناس الجلاس * بطيّب الأنفاس * ولا راقت منازه الأسفار * وإن أسفرت عن جبين الاستبشار * وكشفت عن محيّا الآمال * في جميع الأعمال * وأبانت من تقلّب الأحوال * ما تضيق منه نفوس الرجال * وتفيق بالرجوع إلى الكبير المتعال * فتصبح رافلة في جلابيب الدراية * حافلة بما بان لها من تلك الآية * وما هي فائدة السفر * لولا ما تفضي إليه من البعد عن خدن الودّ المعتبر * ويا لله ما أثّله الشوق * ممّا زاد على الطوق * وذلك الاشتياق * للمشتهر العجز على الإطلاق * الحازم الأقسم * الذي بانت مكارمه كنار على علم * الدرّاكة النقّادة * ذي الفطنة الوقّادة * والعراقة في المجادة * الجناب الملوكي المحمّدي الناصري لا زالت دوحة وداده دانية الجني * تثمر له بحسن الثناء * الذي هو لأمثاله غاية المنى * أمّا بعد إهداء أيمن تحيّة * لائقة بالوصلة الروحيّة * والسؤال عن كريم خاطر السدّة السنيّة * وعن كافّة الأحوال * والأمل في الله أن يكون جريانها وفق الآمال * فلا يعزب عن شريف العلم ما عندنا من الشوق العظيم . وإني بما عندكم لعليم * كيف وأنا أرى الشوق لبلادي * وإيناس أهل ودادي * الأعزّ من أولادي * يتزايد في الروائح والغوادي * حتى دعاني إلى تخميس بيتين لأحد شعراء البلاد * / يشكو فيهما ألم البلاد بقولي : [من الطويل] [57]

سنة 1922 . وفي أيامه حدثت واقعة الزلاج سنة 1911/1329 وفي 7 شعبان 5/1340 أفريل سنة 1922 تنازل عن العرش لامتناع السفارة الفرنسية من تكذيب استجواب نشره الصحافي « ديمازيار » واحتدت الأزمة بينما كان رئيس الجمهورية الفرنسية « ميلران » بالجزائر يتأهب للالتحاق بتونس . ثم تكفل الجنرال « روبيو » قائد جيش الاحتلال ووزير الحرب للحكومة التونسية بإقناع الباي . وحصل منه فعلا الرجوع في التنازل وإمضاء نداء في تكذيب الشائعات المتعلقة به وفي حث السكان على الترحيب برئيس الجمهورية الفرنسية . والجدير بالملاحظة أن محمد الناصر باي تتلمذ في شبابه للشيخ محمد السنوسي . أنظر : م. ص. مزالي : الوراثة : ص ص 12 ، 41—42 .

1 — خَلِيلَيَّ إِنَّ البُعْدَ أَفْنَى تَفَنُّنِي
وَأَبْقَى فُؤَادِي مِنْ جَنَى الشَّوْقِ يَجْتَنِي

2 — لِذَا تَرَايَانِي شَائِقًا لَسْتُ أَقْتَنِي
أَحِنُّ إِلَى الخَضْرَاءِ فِي كُلِّ مَوْطِنِ
حَنِينَ مَشُوقٍ لِلْعِنَاقِ وَلِلضَّمِّ

3 — بِلَادِي وَإِينَاسُ الفُؤَادِ رَبِيعُهَا
وَمِنْ وِدِّ أَخْدَانِي تَسَامَى بَدِيعُهَا

4 — هِيَ الأُمُّ لِلأَبْنَاءِ تَحْنُو ضُلُوعُهَا
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ جِسْمِي رَضِيعُهَا
وَلَا بُدَّ مِنْ شَوْقِ الرَّضِيعِ إِلَى الأُمِّ

وقد كان القلق كاد أن يذيقني ألم الأرق بسبب الابتعاد * عن منبت الأبناء ومسكن الأجداد * غير أنّ لطف اللطيف * تدارك العبد الضعيف * بتيسير السفر إلى بلد الله الحرام * وزيارة قبر نبيّه عليه السلام * وذلك أعظم ما تأنس له النفوس * ويسعى أولو الأحلام إليه ولو على الرؤوس * نسأل الله حسن البلوغ والإيّاب * وأن يمتّعنا بحسن القبول وجمع الشمل بالأحباب * إنّه كريم وهّاب * وقد تعيّن بإرادة الله وحوله السفر مساء غد التاريخ ونؤمل من حسن عهدكم المحفوظ عندي أن تشملونا بدعاء عن ظهر غيب وإني على كلّ حال * لكم داع ببلوغ الآمال * ونجاح الأعمال * وأمد السفر إلى جدّة نحو العشرة الأيّام * نسأل الله أن يسخّر لنا فيها البحر بمحض الإنعام * وعلى الله الاعتماد في بلوغ الأمل * وجمع الشمل المكتمل * ونرجو أن يبلغ مني إلى جناب أخيكم سلام أخلصه القلب من سويدائه * يليق بسموّه وحسن أنبائه * كما يبلغ إلى كافّة الجمع السعيد وعلى الخصوص أبنائنا السعداء حماهم الله وجملة أتباعكم فرداً فرداً أدام الله حفظكم وبقاءكم للجميع * بجاه النبيّ الشفيع * والسلام من معظّم قدركم * وناشر فخركم * مخلص ودّكم * محمّد السنوسي وفّقه اللّه . وكتب في 10 ذي القعدة سنة 1299 (1) » .

(1) 23 سبتمبر 1882 .

أزمير

هي مدينة من آسيا الصغرى أي الأناضولي على الرأس الشرقي من خليج في البحر المتوسّط يدعى باسمها واقعة في حضيض جبل باغوس . ويتّصل قسم منها إلى سفحه . ولم يتحقّق علماء الجغرافية تاريخ تأسيسها ولذلك وقع لهم فيها اختلاف كثير .

وعلى كلّ حال هي موجودة من قبل الميلاد بألف سنة . وكانت بيد اللاليجيين (1) والأيوليين (2) والكولوفونيين (كذا) وأدخلوها في المحالفة الأيونية (3) إلى سنة 627ق‌م . فافتكّها الليديون (4) وخرّبتها الحروب

---

(1) المفروض أن مدينة أزمير تأسست نحو سنة 1130ق‌م. واللاليجيون **Lyciens** هم سكان **Lycia** ليسيا أو ليقيا : قديما بلاد في آسيا الصغرى واقعة على الساحل الجنوبي وأمامها انتصر العرب في وقعة ذات الصواري وقضوا على سيادة الروم البحرية سنة 655م .

(2) الأيوليون **Iliens ou Loniens**

(3) نسبة إلى أيونية : **Ionie**

(4) الليديون : **Lydiens** هم أهل ليديا وهي قديما بلاد في آسيا الصغرى على بحر ايجه أو بحر الأرخبيل بين ميزيا وكاريا . ومن ملوك الليديين كريزوس (نحو 563ق‌م. - 548ق‌م.. الذي قهره قورش **Cyrus** ملك الفرس (نحو 560ق‌م. - 529ق‌م.. ومؤسس الامبراطورية الفارسية . (انظر الدائرة الكبرى للمعارف :
La Grande Encyclopédie inventaire raisonné des Sciences, des Lettres et des Arts par une société de savants et de gens de lettres. Paris. s.d. tomes : XXII, p. 816-819, XXX, p. 114, 115; XVI, p. 221.

فهلكت (1) إلى أن جدّدها الاسكندر الكبير (2) . ثم دخلت حوزة برغماموس (3) . ثم الرومان ثمّ خرّبها الزلزال فجدّدها مركش أريليوس (4) .

وتنصّر أهلها على عهد المسيح . وفي القرون المتوسّطة تنقّلت من يد الجنويين إلى أيدي أشراف رودس (5) . ثم أخذها من أيدي القياصرة ذكش السلجوقي أحد ملوك شاه سنة 477 هجرية (6) وجعلها قصبة حكومة صغيرة . ثمّ أعيدت للسلطنة اليونانية (7) . ثمّ تملّكها السلطان أورخان العثماني مدّة اثنتي عشرة سنة فدمّرها تيمورلنك (8) . ثمّ افتتحها السلطان مراد الثاني سنة 1422 مسيحية (9) .

واستقرّت بيد الدولة العثمانية فجعلت عائلة قاره عثمان أوغلو حاكمة هنالك ثمّ إنّ السلطان محمود (10) انتزع الحكم من العائلة المذكورة سنة 1235هـ ـ (1819–1820) وأرسل من الآستانة رجلا مُسْلِماً وَالِياً عليها عن غير رضى الأهالي . ثمّ داخَلَتْهَا حركة يونانية فاضطربت بها عدّة سنين إلى أن استولى الترك على مُورَه سنة 1239هـ (11) وعند ذلك استعمل

(1) الذي خرب مدينة ازمير هو الملك الليدي Alyatte الياط (610ق‌م. – 561ق‌م.) والد كريزوس Crésus

(2) كان ذلك التجديد في القرن الرابع قبل الميلاد لأن الاسكندر الكبير الملقب بذي القرنين ولد سنة 356ق‌م. وتوفي ببابل 324 ق م.

(3) برغماموس : مملكة عمرت في القرن الثالث ق م .

(4) مارك أريليوس : امبراطور روماني حكم من سنة 161م. إلى سنة 180م .

(5) رودس : جزيرة شرقي الأرخبيل اليوناني .

(6) أخذ السلجوقيون مدينة أزمير من البيزنطيين سنة 477هـ./1084م. ومنها أبحروا للقرصنة في بحر ايجه والبحر الاسود .

(7) حارب الافرنج السلجوقيين وفتحوا أزمير سنة 1334م .

(8) نهب تيمورلنك مدينة أزمير سنة 1402م. وطرد منها فرسان رودس .

(9) مراد الثاني هو سادس خلفاء بني عثمان حكم من سنة 1421م. إلى سنة 1451م .

(10) السلطان محمود الثالث وهو السلطان التاسع والعشرون من سلالة بني عثمان (1808–1839) أباد الانكشارية وأضعف السلطنة فثار عليها اليونان . وانكسر أسطول هذا السلطان في واقعة نافارين البحرية (1827) .

(11) يوافق سنة 1823–1824 الميلادية .

الأتراك في ذبح اليونان فلم يَدَعوا امرأة ولا صبيًا ولا شَيْخًا إلاّ أدركوه دون مقرّه إلاّ من التجأ منهم إلى قنصلات فرانسا وأمكن لها أن نقلته إلى مراكبها البحرية . ثمّ بعد عشر سنين أتى عليها حريق / وعاد إليها بعد [59] أربع سنوات أخر فدمّر أكثرها وبعد ذلك أخذ أهلها في ترميمها إلى أن عادت إلى رونقها السابق . وهي الآن مركز متصرّفية تابعة ولاية آيدين ومحلّ إقامة والي الولاية المذكورة .

وقد وصلناها صبيحة يوم الاثنين 13 من ذي القعدة الحرام سنة 1299 (1) عن 430 كيلوميتر من الآستانة قطعناها بسير البحر بساعات 16 . فإذا هي ذات ميناء أمينة على السفن هنالك حيث إنّ مرساها في خليج داخل في البرّ بانعطاف طوله 50 كيلوميتر ومعدّل عرضه 20 كيلوميتر تحيط به جبال ميماس من الجنوب وباغوش من الشرقي وسيبيل من الشمال فتمنع عند الرياح .

وقعر البحر سهل مشوليس فيه شيء من الصخر بحيث إنّ السفن فيها تكون في غاية الراحة والأمن . وجميع البواخر التي تدخل إليها تصل بنفسها إلى حدّ البرّ على كثرة مرور السفن التجارية بها بحيث أمكن لفابورنا أن دخل إلى غاية أنّ الركاب فيه يشترون المبيعات من باعة المارّة في البرّ .

وكانت البلد جميلة المنظر ممّا يلي البحر بسبب حدوث أبنية من النسق الجديد على جميع خطّ الساحل سيّما وهنالك المحالّ التجارية والمتنزهات الصناعية وخان الوزير والقلعة وبعض ديار القناصل . ووجدنا هنالك يومئذ محلّ البوسطة العمومية قد تمّ بناؤه في تلك الجهة على أكمل انتظام وفتح لقبول المكاتيب فسلّمنا فيه مكاتيبنا .

والطريق هنالك متّسقة ولمّا دخلنا إلى داخل البلد رأيناها مختلفة الانتساق فأمّا جهات سكنى المسلمين فأكثر أبنيتها من خشب ليست كثيرة الارتفاع

(1) يوافق 26 ديسمبر سنة 1882 .

وصوامع جوامعها مبنية بالحجارة مدهونة المنافذ وفي أثناء بعضها حدائق
[60] ووراءها بساتين متّسعة وأغلب طرقها طبيعية ضيّقة / إلاّ محلاّت الأسواق
منها فربّما كانت رحبة مسقّفة باللوح لكن تغلب على عملة أهلها النظافة .
وأمّا جهات سكنى الإفرنج فهي مبنية من حجارة وربّما كان منها بعض
الطرق مبلّطا والأغلب على أزقّتها الضيق . وعلى كلّ حال فإنّ موقعها في
غاية الحسن وتربتها جيّدة وهواؤها طيّب وزروعها كثيرة تنبت تينا وعنبا
وبطيخا لا يوجد أجود منها .

[دخول المؤلّف إلى بعض محلاّت الأكل بأزمير]

وقد كان برفقتي يومئذ كل من المدرّس علي باي وعبد الباقي باي كاتب الوزارة الخارجية . ومعنا أتباعنا فدخلنا إلى بعض محلاّت الأكل هنالك من محلاّت المسلمين وهو عبارة عن محلّ متّسع فيه مدرج يصعد منه إلى بيت علوية جميعه من خشب . وبالبيت العلوي مقاعد ومائدة عن طوله للآكلين وأسفله معدود لطبخ الطعام . وصاحب المحلّ يتولّى الطبخ بنفسه وله غلمان لمناولة الطعام كلّهم مسلمون لهم حسن سكينة ومعاملة طيّبة .

وعند دخولنا اقترحنا أن يكون الطعام من شواء اللحم خاصّة لأنّه أقرب لموافقة جميع الأمزجة . وأرسلنا أحد غلمانه فأتانا ببطيخ البلد وعنبها وكان العنب جيّدا لا نواة فيه والبطيخ يميل لونه إلى الخضرة في أقصى درجة من الارتواء وكلاهما في أشدّ العذوبة . وكان شواء اللحم بالسمن فجاء على أحسن ما يطلب . وبعد خروجنا وجدنا أنجاصا وخوخا أحمر اللون أخذنا منهما فكان كلّ منهما في غاية الارتواء . ومرافق العيش هنالك كلها منخفضة الأسعار .

[وصف الحياة الاجتماعية بأزمير]

وأما عدد سكان أهل البلد فهم فيه على التفصيل الآتي :

مسلمون	75000
أروام	45000
[61]	/
يهـود	15000
كتليك	10000
أرمن	6000
افـرنـج	4000
	155000

وذلك على حسب التقويمات الأخيرة وإلاّ فهنالك من يرى أنّ عددهم دون ذلك وهي بلدة كثيرة المتجر برًّا وبحرًّا تختلف إليها السفن التجارية والحربية في كل آن وبضائعها الحرير والقطن والصوف وشعر المعز والزرابي المتقونة والتين والزبيب . ويأتيها من الخارج منسوجات الكشمير والعفص وعود النـدّ والأفيون وغير ذلك .

وفيها مدرسة رشدية وعدّة مكاتب للمسلمين والمسيحيين . ويطبع بها جرنال الولاية الرسمي المسمّـى آيدين ونحو أربعة عشـر جـرنالا بين يوناني وأرمني وفرنساوي .

ولها سكّة حديد تتّصل بها مع آيدين وفيها آثار قديمة من الأبنية والخرابات وقد وجد فيها أخيرا حجر منقوش حجمه قدر حجم الختم عليه صورة قيصر يقتبل رأس بوميبوس (1) وصور خمسة من الأعيان . أمّا القيصر فعلى رأسه إكليل من الغار جالس على كرسي[ ]مـلـق يده اليسرى على فخذه

(1) بومبايوس : (107–48قم.) قائد روماني . أحد حكام روما الثلاثة مع قيصر و كراسيوس . حمل بجيشه على سوريا وفتحها وجعلها اقليما رومانيا (64قم.) .

مُغَطّ باليمنى وجهه وثلاثة من الواقفين مدجّجون بالسلاح والرابع حامل مشعلا والخامس أمام كرسي القيصر جاث على ركبتيه يقدّم إليه رأس بومبيوس الذي ذبحه قوّاد عسكره وهو منهزم في مصر واستقبله خصمه المستظهر عليه ذلك الاستقبال . وكان هذان الأميران شخّصا في كثير من
[62] الملاعب مرارا عديدة / ولم يوجد أثر قديم لتشخيصهما حتّى وجدت الآن هاته الحجارة . وقد أرسلت إلى الجمعية العلمية بباريز . ولمّا كانت إقامة الفابور في أزمير ثلاث ساعات لشحن البضائع أمكن له أن أتمّ الشحن بعد الزوال غير أنّه لم يأخذ الماء كعادته لأنّه ملأ خزائن مائه من الآستانة ولذلك عاجل السفر بنا عشية هذا اليوم وكان الجوّ صحوا والهواء معتدلا .

بورت سعيد

بلد من أشهر مراسي مصر السفلى قديمة يبعد مركزها عن البحر بما دون الميل وإليها تنسب تلك المرسى الشهيرة من مراسي بحر الروم التي انفتح لها خليج السويس (1) المتواصل فيما بينها وبين البحر الأحمر حتّى صارت بذلك من أكثر المراسي عمرانا تختلف إليها الفوابير في كلّ وقت . وميناها أمينة جدّا تصل فيها الفوابير على مقربة من الشاطىء . وقد حدثت على ذلك الشاطىء بلد جديد العهد يسمّى بورت سعيد الجديدة .

وقد وصلنا إلى تلك الميناء صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من ذي القعدة الحرام فنزلناها ودخلنا بورت سعيد الجديدة وهي بلدة جميلة المنظر منتظمة التخطيط أبنيتها كلّها على النسق الإفرنجي في المساكن والأسواق . وجوانب طرقها مبلّطة وأواسطها أغلبها طبيعي . وهي متّسعة لا توجد بها عجلات الكراريس أصلا حيث إنّ البلد صغير وتواصل البحر بالسيارات إلى غيرها من المراسي أغنى عن استعمالها . وهنالك محلاّت نوّاب الدول كلّها في غاية الانتساق . وفيها أوتيلات عمومية نظيفة ومحلاّت للاطعام كافية ومحلاّت

(1) السويس : ترعة تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط طولها 168 كم فتحت من بور سعيد إلى السويس سنة 1869 . انظر الملحق رقم : 2

بوسطة ومراكز شركات الفوابير ومركز التلغراف ومحل تياترو اتّساعه على
نسبة البلد بحيث / إنّه في بعض الأحيان يكون قهوة (1) عمومية تنتصب فيها [63]
موسيقى إفرنجية وعند حضور مشخّصين يكون لهم محلّ كاف .

[وصف سكان بورت سعيد]

وجميع سكّان هذا البلد من الإفرنج عدا سوق الخضر فأكثر أهله من المسلمين وبعد تجاوز آخره يكون البلد القديم قبالة الرائي . وجميع طرقه طبيعية وسوقه متّسع وحوانيته بعضها من لوح وأبنيته غير مستعلية وبياض الجصّ هنالك قليل . وهنالك جامع خطبة وحمّام حديث العهد داخله عربي وخارجه فيه قسم إفرنجي .

وجميع سكّان هذا البلد من المسلمين لباس رجالهم قمصان الكتّان الأزرق ونساؤهم يشتملن بشملة سوداء وخمار أسود يعتلي على هناة من نحاس تنزل من أعلى الجبهة على قبة الأنف ذات حلق ترصّع بالعقيق . ولهنّ باعة في أسواق البلد ما منهنّ إلاّ شمطاء حيزبون (2) على بذاءة ألسن . والسوقة هنالك للنساء عليهم شطط في المخاصمة والشتم . ولهم ولع بأكل الفول المطبوخ بالماء بحيث يوجد في أكثر جهات السوق عندهم .

وأكثر أهل البلد ملاّحون إذ ذلك أروج صناعة عندهم وليس لجميعهم من الحرف والصنائع ما يكفي اجتماعهم .

وحيث إنّ فابورنا أقام يوم الجمعة ويوم السبت لوسق البضائع كنت في ذينك اليومين وأغلب الليلة التي بينهما في القسم الإفرنجي آكل من محلاّت الأطعمة هنالك ما يطيب أكله لنظافة المحلاّت والأطعمة هنالك . ودخلت للقسم العربي القديم مرّة للتفرّج ومرّة للاستحمام في الحمّام السابق الذكر .

(1) قهوة : كلمة يقصد منها في التعبير الدالج التونسي : المقهى .
(2) الحيزبون : المرأة العجوز .

[التقاء المؤلف بصديق له نمساوي]

وقد صادفني في اليوم الأول عند العصر رجل من معارفي بتونس اسمه دوارد وقلازر صاحب مرصد فينـّا النمساوي وهو من السيّاحين الفلكيين أقام بتونس أكثر من سنة ورحل عنها في سياحته فصادفته / هنالك [64] قاصدا التوجّه إلى صنعاء اليمن فأحسن تلقّينا هنالك . وفي عشية اليوم حضر عندي في الفابور ودعاني للتفرّج في البواخر الحربية النمساوية التي كانت مقيمة هنالك في وقائع عرابي باشا .

فسرّني منه ذلك واستصحبت معي بعض رِفاقي وركبنا إلى بارجة مدرّعة بيضاء اللون فإذا هي تحمل مدفعين طول الواحد نحو ثلاثة ميتروات كلّ واحد منهما إلى جهته من طرفي البارجة . وفيها عساكر طوبجية (1) وأسلحتهم وعدّة المدفعين . ووجدنا في تلك البارجة نصف قنصل النمسا وقبطان البارجة فتلقّيانا أحسن التلقّي وبعد التفرّج في البارجة دخلنا إلى بيت القبطان فجلسنا هنالك نحوا من الساعة . وكان النصف قنصل يحسن العربية وقد أخبرني أنه تعلّمها في بيروت على الشيخ يوسف الأسير (2) وكان موضوع المحادثة في الأحوال البحرية ممّا يوافق مشرب القبطان .

ورجعنا من البارجة ومعنا النصف قنصل فدعانا إلى موسيقى إفرنجية هنالك تلك الليلة في المحلّ الذي ذكرنا آنفا أنّه يكون ملعبا للتياترو . وكان

(1) طوبجية : كلمة تركية تدل في الاصطلاح العسكري على العساكر المشتغلين بالمدافع .

(2) يوسف الأسير : هو يوسف بن عبد القادر بن محمد الحسيني الأزهري من بني الأسير . كاتب وفرضي وفقيه وشاعر . ولد في صيدا سنة 1232هـ./1817 وانتقل إلى دمشق سنة 1247هـ./1831 ثم عاد إلى صيدا فتعاطى التجارة وتوجه إلى الأزهر بمصر فأقام سبع سنين ورجع إلى بلده ثم قصد طرابلس الشام فأقام بها ثلاث سنوات تولى في خلالها رئاسة كتاب محكمتها الشرعية وأخذ العربية عنه بعض المستشرقين ومنهم الدكتور فان ديك . ثم تولى منصب الافتاء في عكا ... وسافر إلى الآستانة فتولى رئاسة تصحيح الكتب في نظارة المعارف وتدريس العربية في دار المعلمين . ثم عاد إلى بيروت وتولى رئاسة التحرير لجريدتي : ثمرات الفنون : ولسان الحال : مدة . ومن كتبه : رائض الفرائض – ط. وشرح أطواق الذهب . – ط. وارشاد الورى – ط. في نقد كتاب نار القرى لناصيف اليازجي . وتوفي ببيروت سنة 1308هـ./1889 . (انظر : الزركلي : الأعلام : ج 9 . ص : 315. .

تلك الليلة غاصًا بالإفرنج وجميع رحابه ملآنة بالجالسين على الكراسي تدار عليهم الأشربة السكرية والقهوة والمسكّرات على قلّة . فأقمنا هنالك إلى قرب نصف الليل ورجعنا إلى فابورنا فنمنا هنالك تلك الليلة .

وعدنا في الصباح إلى البلد فقضينا هنالك يومنا وفي العشي رجعنا إلى القابور وحضر هنالك دوارد وقلازر راكبا معنا قاصدا مرسى الحديدة وحضر النصف قنصل النمساوي لموادعته . وعند تأهّب الفابور للسفر رجع النصف قنصل المذكور وأقلعت السفينة ليلة الأحد .

[65] وبما أنّ صاحب المرصد كان برفقتنا نبّهنا تلك الليلة إلى نجم / طلع من ذوات الأذناب . فترصّدنا طلوعه معه على سطح البحر ونظرناه أحسن منظر ولم نزل نشاهده في طريقنا بحرًا وبرًّا وهو يتّضح مرأى ويعظم نورا إلى أن كنّا نراه في موسم الحجّ آخر كلّ ليلة كأنّه مطلع فجرها على الكعبة المشرّفة .

وحيث إنّ طلوع ذوات الأذناب من النجوم قليل وللنّاس فيها مذاهب أفاض في ذكرها أصحاب الجرائد الإفرنجية والعربية في مدّة طلوع هذا النجم العظيم إلى مدّة نحو الستّة الأشهر رَأَيْتُ أن ألخّص في ذلك فصلا هنا وهو هذا .

النجم ذو الذنب

هذا النجم من أعظم ذوات الأذناب ومطلعه من جهة الشرق كان قريبا من الشمس قربا كليا وعند اتضاحه كانت نجمته المسمّاة بالنواة في غاية السطوع والكبر والإشراق وسلوك الأشعّة تدور حول نواته وتمتدّ بطرفيها امتدادا عظيما . وكانت بعيدة عن خطّ الاستواء جنوبا تسع درجات . وقد زعم أصحاب الارصاد بالنظر إلى حساب مواقعه في تعيين فلكه الذي يدور فيه حول الشمس أنّه هو النجم الذي كان ظهر سنة 1668م وظهر سنة 1843م وظهر سنة 1880م .

وزعم بعضهم أنّه سيعود ظهوره بعد سنة أو سنتين . وإذا وقع ذلك فربّما يسقط على الشمس فيحترق احتراقا يفنى به من الوجود لأنّه في هاته السنة قاربها حتّى لم يبق بينه وبينها إلاّ نحو ستمائة ألف ميل . وهو يبطىء السير بين دوراته .

قلت ولا يخفى نور ظهور ذوات الأذناب مع اختلاف أطوارها وأحوالها بحسب المطالع والأزمان . وهذا قاض بأنّ أحكامها غير معروفة فضلا عن معرفة أحوالها إذ طريق معرفة الأحوال والأحكام إنّما هو التكرّر والتجدّد وهو غير حاصل / فلا يكون الحكم عليها والحالة هاته إلاّ فرية بغير مرية (1) . [66]

(1) الفرية : الكذب واختلاقه .
المرية : الجدل والشك .

وقد تتبّع هذا النجم أصحاب مراصد أوربا بالسبكترسكوب مرايا الإرصاد التي يطلعون بها على معرفة عناصر الكواكب وذكروا أنّ العناصر التي تركّب منها هذا النجم هي الصديوم والكربون مركب من الهيدروجين وقد رآه صاحب مرصد بلارمو من عمل إيطاليا أول شهر اشتمبر وأمّا صاحب مرصد أثينا فذكر أنّه في ثامن الشهر رأى نجما صغيرا ذا ذنب على بعد أربع درجات إلى الجنوب الغربي من هذا النجم الكبير . وإذا ثبت ذلك فلا يبعد أن يكون منشقّا عنه .

وحيث إنّ ذوات الأذناب من النجوم قليلة بالنظر إلى مرائينا من الكواكب السيّارة والثابتة وإن كانت في نفس الأمر والواقع كثيرة وعددها غير متناه غير إنّه ما يرى منها إلاّ ما قارب الأرض حتّى كان للمرئي منها موقع الاستغراب في النفوس فلذلك ألخّص هنا جملة في ماهيتها وصفتها وبعض تواريخها .

أما ماهيتها فذهب بها المتقدّمون من الفلاسفة إلى ثلاثة مذاهب :

أحدها : أنها كواكب متفاوتة الأقدار والألوان وأنّ الأحمر منها يختصّ بالدلالة على سفك الدماء .

والثاني : أنّها آثار انعكاس ضوء الشمس وليس لها وجود حقيقي .

والثالث : أنها سحب في الجوّ تستنير بنور الكواكب فتضيء ويقرب من الثالث مذهب أرسطوطاليس ومن تبعه في زعمهم أن ذات الذنب أبخرة تتصعّد عن الأرض فإذا بلغت طبقة الهواء المجاورة لكرة النار فتتحرك عن الاستدارة وتستطيل وتحترق فتُضِيءُ إلى أن ينطفيء نور احتراقها فتختفي . وذهب المتأخرون من الفلاسفة طرائق قددا (1) في ذوات الاذناب ومذاهب شتى . وأشهرها مذهبان :

(1) قددا : من القدة وهي الفرقة من الناس تختلف أهواؤهم قدة ج قدد وأقدة . يقال : كنا طرائق قددا أي فرقا مختلفة الأهواء .

أحدهما : أنّ قوة أشعّة الشمس تدفع مجاري من بعض / النجوم حتّى [67]
تغشّيها وتمتدّ وراءها فيتكوّن الذنب من ورائها وكلّما قويت الدافعة قويت أشعّة الذنب وربّما تعدّدت الأذناب بحسب تلك القوّة . وقد ظهر ذو ستّة أذناب سنة 1744م .

والمذهب الثاني : أنها من أصل واحد هي والشهب التي تنقضّ فإذا تسلّطت عليها جاذبية الشمس جذبت الجانب القريب منها فيستطيل وكلّما قرب من الشمس دَقّ مقدّمه إلى أن يصل إلى حالته التي يشاهد عليها . وقد أنصف من قال : إنّ معرفة حقائقها تتوقّف على مماستها لأرضنا حتّى نلمسها بأيدينا كما رأيناها بعيوننا . وأين الثريا من يد المتناول .

وأمّا وصفها فقد ذكر متأخرو علماء الإرصاد أنّ ذوات الأذناب تدور في أفلاك حول الشمس فتميل على دائرة البروج كلّ الميل ولذلك تشاهد في كلّ ناحية من السماء على أبعاد متفاوتة من دائرة البروج وبعضها يدور حول الشمس كالسيارات وبعضها على عكسها حتّى تحيّر مراقبوها في معرفة جهاتها. وأشكال أفلاكها إهليلجية مستطيلة جدًّا ولذلك يطول زمن إتمام ذوات الأذناب دورتها حول الشمس . ولم يتحقّق عند أصحاب المراصد إلى الآن إلاّ مدّات تسع من ذوات الأذناب أقصرها ثلاث سنوات وستة أشهر وأطولها يقرب من السبع والسبعين سنة . وقد شوهد من عموم ذوات الأذناب سبعمائة وخمسة نجوم وبعضهم قدّروها تقديرات ذكروا بها أعدادا على تباين مقاديرها لا ينبغي لمتثبّت أن يعتمدها .

وأما أطوال الأذناب التي ظهرت فقد ضبطوها بحسب ما تقتضيه نظرات المراصد في المقادير التي تعطيها في التعظيم وأطول ذنب ظهر هو ذنب نجم سنة 1680م . ومبلغ طوله مائة وثلاثة وثلاثون / ألف ميل . [68]

وأما تواريخها فإنّها مبنية على خرافات الأقدمين من القالة لبعضها بتأثير الشرور عند قوم والخير عند آخرين . وأكثر ما ينسبه إليها أهل الأعصار

الوسطى هو الدلالة على سفك الدماء وموت الملوك وانقلاب الدول وحوادث الأمراض والقحط . وصادفتهم في ذلك اتفاقيات كثيرة لا غرض لنا بتعدادها .

ولما جاءت شريعة الإسلام أدام الله رشدها رفعت تلك الأوهام عن عقول جهلة الأمم في جميع حوادث الكواكب التي كانوا يَتَشَاءَمُونَ بها مثل الخسوف والكسوف . ولذلك قال صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام في حوادث الشمس والقمر الكثيرة الظهور إنّما يخسفان لموت أحد ولا لحياته وإنما هما آيتان يخوّف الله بهما عباده . ولذلك طولب المسلم بالرجوع إلى ربّه عند رؤية آية من آياته بالصلاة والتسبيح نسأل الله أن يلهمنا الرشاد بحرمة خير العباد .

الإسماعيلية

هي بلد في منتصف ترعة السويس الممتدّة من البحر المتوسّط إلى البحر الأحمر إلى الجهة الشرقية من الزقازيق من مصر السفلى أحدثها إسماعيل باشا خديوي مصر سنة 1281 هجرية (1864—1865) ونسبها إليه لتكون مركزا متوسّطا لأعمال الترعة المذكورة عند فتحها وواصل بينها وبين مصر والاسكندرية بسكّة الحديد وجلب إليها مياه النيل من ترعة الزقازيق . واختطّها واسعة الطرق وبنى فيها سراية فاخرة له وكثيرا من الحمّامات والمساكن . فأوى إليها كثير من السكان المختلفي الجنسية حتّى جعل فيها مجلسا مختلطا رغبة في نجاحها ونفع البلدان المجاورة لها فكانت من أشهر مراسي الترعة .

غير أنّها لبعدها عن / ممرّ السفن من الترعة لا يمكن للسفن أن تصل إلى [69]
شاطئها وإنّما تقف في ممرّها وينزل الراكبون في قوارب أو فوابير صغيرة من نوع السيارات ملازمة السير بين بورت سعيد والاسماعيلية بريدا يوميا . وعلى كل حال فإنّ منظر البلد والبساتين يظهر لراكب السفن قبل النزول إليها .

وقد وصلناها عشية يوم الأحد 19 من شهر ذي الحجة الحرام سنة 1299 فإذا هي جميلة المنظر بسبب إحاطة الحدائق بها ممّا يلي البحر . ويمكن بالتقدير أن تسع خمسة عشر ألف نفس غير أنّها لخلوّ كثير من مساكنها لم

يكن بها أكثر من سبعة آلاف نفس عدا المتواردين لجهر (1) الترعة أو سكّة الحديد فيكثرون ويقلّون على حسب اختلاف الحال .

ومع كون فابورنا أرسى بقصد المبيت عندها لم يمكني النزول إليها بسبب هجوم الليل حتّى إنّ دوارد وقلاز طلبني لمرافقته صحبة القبطان لحضور على التياترو تلك الليلة وعدته بالموافقة واستحضرت مكاتيبي لنلقيها في البوسطة هنالك لكن لمّا تأخّر حضور الفابور المعدّ لنزول القبطان إلى نحو العشاء ودعونني عند ذلك للنزول معهم استسمحتهم وسلّمت لهم مكاتيبي ليتولّوا تبليغها إلى البوسطة وأقمت في الفابور تلك الليلة وفي آخرها سافر فابورنا :

---

(1) جهر الشيء : كشفه وحزره . يقال حزر الشيء : قدره بالحدس وخمنه . وكلمة جهر يجهر جهرا لها في اللهجة التونسية معنى نظف ينظف تنظيفا .

السويس (1)

هو أعظم مراسي البحر الأحمر عند مبدئه من شماليه وكانت البلد التي على هاته المرسى تسمّى في العهد القديم القلزم وتسمّى الآن السويس من عمل مصر ذات سور وحصن منتظمة البناء على النسق الجديد ، كثيرة الحدائق زاد عمرانها بسبب فتح الخليج وانتظامها واحتلّها قناصل الدول .

وفيها بوسطة منتظمة ومركز تلغرافي يمتدّ إلى عموم جهات الأرض .
وفي العهد / الأخير ارتبط التلغراف منها إلى عدن بسلك يمتدّ تحت البحر [70]
الأحمر . وأمّا مرساها التي يختلف إليها الفابورات المارّة بين بحر الهند وبحر الروم في كلّ آن فإنّها قديمة أصلية يحيط بها جزائر صغيرة . ومنها جزيرة شدوان . غير أنّ تراكم الرمال على شاطىء الميناء كان به عمق الماء هنالك قليلا بحيث إنّه ربّما كان خمسة عشر قدما ولذلك لا يمكن للسفن أن تصل إلى آخر الميناء وترسو على بعد ، سيّما إذا كانت الريح شمالية فإنّ الماء

(1) أنظر أسفله الملحق رقم : 2 . فرمان الامتياز الأول بتاريخ 30 نوفمبر 1854 : وفرمان الامتياز بتاريخ 5 جانفي 1856 . واتفاقية 22 فيفري 1866 . والملاحظ أن قناة السويس تمت بشأنها اتفاقية بتاريخ 29 أكتوبر 1888 . واتخذ مرسوم 28 أفريل 1936 بشأن تعيين الحد الأعلى لرسوم المرور في القناة . وفي سنة 1936 أبرمت معاهدة التحالف بين مصر وبريطانيا بشأن قناة السويس كما تمت الاتفاقية بين مصر والمملكة المتحدة في 19 أكتوبر 1954 ثم في 26 جويليا 1956 صدر قانون بتأميم الشركة العالمية التي تدير القناة ثم في جوان 1967 تعطلت الملاحة في القناة إثر الاعتداء الاسرائيلي ولم تستأنف إلا بعد حرب أكتوبر 1973 .

يتناقص كثيرا . وأمّا إن كانت الريح جنوبيّة فإنّها تجرّ الماء إلى المرسى فيكثر ماؤها . وللمرسى المذكور ثلاث منَارات .

وأقمنا في تلك المرسى ليلة الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي القعدة حيث وصلنا إليها آخر العشيّ . وكان أملنا أن نقطع تلك الليلة بالمسير في البحر الأحمر ولذلك لم ينزل من فابورنا يومئذ أحد إلى السويس طمعا في تعجيل السفر . غير أنّه وردت إلينا من البلد مبيعات من الخبز والفواكه في مراكب أهلها . وقد اشتريت من دلاّعها على ارتفاع ثمنه في تلك العشيّ فإذا هو من أعذب أنواعه وأحسنه نضجا واحمرارا لكن على كلّ حال لم يمكن للفابور أن يأخذ في المسير إلاّ بعد طلوع فجر يوم الثلاثاء .

وحيث أن الخليج المنفتح بين بحر الروم والبحر الأحمر ينسب إلى السويس فيسمّى اليوم خليج السويس وكان في العهد القديم يسمّى خليج هيروفليت وهو في الأصل برزخ بين البحرين من الأرض تعلوه مياه راكدة في بعض الجهات مع انحلال الزلق في بقيتها على طوله الذي هو نحو مائة وثمانين ميلا وعرضه الذي يبلغ نحو العشرين ميلا . وبعد تطاول السنين عليه خرقه دولسبس خرقا واصل به ما بين البحرين .

[كيفية عبور السفن من خليج السويس]

وقد قطعناه بالسفر في يومين وليلتين إلا أنّ سفرنا فيه الليل كان قليلا
جدًّا والسفر في النهار ربّما توقّف لانتظار مرور غيرنا في الممرّ لأنّه واحد / [71]
وأوّل دخولنا له آخر عشيّ يوم السبت الثامن عشر من ذي القعدة . وعندما سرنا فيه بضعة أميال وقع الفابور في وحل غاص به غوصا منع من التقدّم فتأخّر وتقدّمه معمل التنظيف إلى أن زال ما هنالك من الوحل . فاستمرّ سيرنا فيه على المناوبة مع عموم السفن المارّة فيه . وذلك لأنّه لما كان ممرّه يضيق عن مرور باخرتين كبيرتين جعلوا في وسطه علامات على تقاسيم هنالك .

فإذا دخلت باخرة لقسم من ذلك الخليج نصبت علامة دخولها . فإذا وصلت باخرة أخرى لذلك القسم من الجهة المقابلة يلزمها أن تقف على جانب الممرّ إلى أن تخرج السابقة ثمّ ترفع هي علامة دخولها فتقف لها غيرها وهكذا .

ولسبب ذلك يعسر اجتيازه بالليل زيادة على صعوبة مسير النهار ولذلك لما حلّ الإنقليز بمصر في أواخر شوال الفارط (1) جال الخبر بلزوم فتح خليج ثان جوار الخليج المذكور حيث إنّ توسعته تصعب مع امتلائه بالماء . ومع ذلك فإنّ دولسبس استعدّ لتنوير عموم الخليج بالليل وهو من الأعمال المنتظرة النجاح في تحسين هذا الخليج .

وحيث إنّ مرور السفن في هذا الخليج عليه رسم أداء عظيم تراضى عليه جميع الدول فقد صار من أعظم أبواب مداخيل الدولة المصرية . وقد بلغ ميزان ما مرّ فيه من البضائع حمولة السفن في سنة 1882م التاريخ إلى سبعة ملايين طنّ . ولذلك بلغ مدخوله في هذه السنة 1883 إلى 593، 409، 63 فرنكا . وارتفعت أسعار أسهمه ارتفاعا باهضا حيث إنّ فاضل دخله الراجع لأرباب الأسهم بعد إخراج المصاريف بلغ إلى 318،674،31 . وهذا المبلغ العظيم عبارة عن كون فائدة المائة فرنكا في هاته السنة بلغت إلى 166 فرنكا . ولمّا كان هذا الخليج من أعظم نتائج العصر رأيت أن أبسط القول عليه بخصوصه بعد أن نذكر ترجمة الرجل / الذي تولّى فتحه ثمّ نذكر نتيجة هذا الفتح [72]
للعمران البشري .

خليج السويس وفاتحه :

إن فرديننو بن ماتيودولسبس (2) الفرنساوي من أصحاب الجد والبراعة والحزم . وقد كانت له الكفاءة التامّة في النيابة عن دولته بقنصلات

(1) يوافق سبتمبر سنة 1882 .
(2) أنظر أسفله الملحق رقم 2 .

مصر وغيرها هو الذي فاوض سعيد باشا خديوي مصر سنة 1854 مسيحية أي سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية في فتح برزخ السويس . وحرّر فيه تقريرًا تاريخيا تضمّن أنّ هذا البرزخ الذي يبلغ 140 كلوميتر لم يكن سابقا بهذا المقدار لأنّ البحر الأحمر كان داخلا في الأرض على مسافة خمسين كلوميتر .

وكان هذا المحلّ يدعى جرن يروبوليت وآثاره من البحيرات المالحة الموجودة تؤكّد ذلك . وقد ذكر المؤرّخ هيرودوت أنّ المسافة من البحر الأحمر إلى البحر المتوسّط لم تكن أكثر من مائة كلوميتر . وحينئذ لا شكّ أنّ تقلّب الطبيعة بالزلازل ونحوها غيّر هيأة المحلّ فانفصل ما بين البحر الأحمر والجرن الذي جفّ شيئا فشيئا لعدم اتّصاله بالبحر بعد أن أبقت المياه جانبًا عظيما من الملح يدلّ على مكانها الأوّل .

لكنّ البرزخ المذكور وإن كان متّسعا إلاّ أنّه على كلّ حال كان وصلة بين قارّتَيْ آسيا وإفريقيا يمنع المرور منه إلى الهند حتّى كانت المسافة التي يتوصّل بها إلى البرّ الهندي من إفريقيا فوق التسعة آلاف كلوميتر وذلك يبلغ نحو ربع مساحة كرة الأرض تقريبا . ولذلك كان القدماء اجتهدوا في رفع ذلك الحائل وتعاطاه بعض السلاطين والملوك من الأقدمين حتّى تلقّب ذلك الخليج بأسمائهم .

وأوّل من ابتدأ هذا المشروع من ملوك مصر نيكوس فواصل البحر
[73] الأحمر بإحدى ترعات النيل القريبة من البحر المتوسط / وحفر من قرب جزيرة أفاريس إلى بناريس قناة طولها تسعون كلوميتر . ودعيت باسمه . وقبل الميلاد بخمسمائة سنة أخذت مياه البحر تتقطع عن جرن يروبوليت فحفر الملك داريوس الأوّل (1) قناة صغيرة لإتمام عمل نيكوس . ولذلك سمّي من يومئذ خليج داريوس أو الفراعنة .

(1) داريوس الأول : ملك فارس (522–585ق.م.) .

ثمّ بعد مائتي سنة أو أكثر أتت عليه الرمال وأعاد فتح القناة الملك بطليموس فيلادلف (1) سنة 270 ق م . قبل الميلاد ودُعيت باسمه واستمرّت على ذلك قريبا من أربعمائة سنة . ثمّ جدّدها الملك تراجان (2) سنة مائة وخمسة وعشرين . ثمّ في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب أمر سيدنا عمرو بن العاص بتوسيع القناة الموصلة بالبحر المتوسّط للمواصلة بين البحرين . وسمّي ذلك باسم أمير المؤمنين بعد فتح مصر .

غير أنّه كانت تمرّ به سفن صغيرة تحمل الأمتعة لشاطىء البحر الأحمر وذلك وقوفا على قدر الحاجة في الحصول على سبب المواصلة وقد كان عمر بن الخطاب يكره الفصل بينه وبين المسلمين بما يمنع اتّصال أخبارهم به حتّى أن عمرو بن العاص كتب إليه يستفتيه في السكنى بالإسكندرية . فسأل هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين . إذا جرى النيل . فكتب إلى عمرو : إني لا أحبّ أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفا فمتى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتّى أقْدِم إليكم قدمت .

وقد كان ذلك منه رضي الله عنه لفقد أسباب المواصلات البحرية عند ذلك حتّى ذكر راحلته المتيسّرة في ذلك الوقت . وقد استمرّت القناة على حالتها إلى خلافة أبي جعفر المنصور فرمّم الخليج سنة سبع وستين وسبعمائة مسيحية لمنع المواصلة بين البحرين فانقطعت بسبب ذلك مواصلة قناة نيكوس والبحيرات / المالحة وأتت عليها الرمال وتقلّب الأجيال حتّى اتّسع البرزخ [74]
وعظم الحاجز ولم يقم أحد بفتحه إلى أن نهض له فردينودوليسبس .

---

(1) هو بطليموس الثاني فيلاد لفوس : ملك مصر (285–256ق.م.) أحسن السياسة وأكرم العلماء . إلى عهده ينسبون ترجمة التوراة السبعينية . بنى منارة الاسكندرية .

(2) تراجان أو تراجانوس : (52–117م.. : ولد في اسبانيا . امبراطور روماني انتصر في محاربة البارثيين في ما بين النهرين وعمر البنايات الفخمة واضطهد المسيحيين . والملاحظ أن المؤلف ينسب تجديد القناة إلى تراجان سنة 125 ميلاديا بينما تراجان توفي سنة 117 ميلاديا .

فضرب لهذا العمل أسهاما من المال تولّى دفعها أرباب الأموال من أوربا . .وقام بهذا العمل للدولة المصرية واستمرّ على حفره عشر سنين وأتمّه على أحسن حالة بتكسير معظم الصخور ورفع كثبان الرمال إلى أن استكمل صنعه على الوجه الذي يصلح معه لمرور السفن العظيمة المتجرية والحربية . وبلغت نفقة ذلك إلى 799 و931 ، 472 فرنكا .

وبعد تجربة المرور فيه تعيّن يوم افتتاح المرور فيه مرورا رسميًّا وهو اليوم السابع عشر من نوفمبر الأعجمي سنة سبعين وثماني عشرة مائة مسيحيه الموافق لأواسط شعبان سنة ست وثمانين ومائتين وألف (1) . واستدعى الخديوي إسماعيل باشا جميع الامبراطورات والملوك والأمراء والوزراء والسفراء وأصحاب الجرنالات ومشاهير رجال التجارة والأدب من الأورباويين وغيرهم وخصّ أعيانا من الحجاز . وعيّن لجميعهم جميع أوتيلات مصر والاسكندرية وبورت سعيد والاسماعيلية والسويس وأجرى نفقة جميعها على أكمل وجه .

وتلقّى جميع الواردين لذلك الموسم من المدعوّين وغيرهم بجميع لوازمهم وركوباتهم برًّا وبحرًا أين شاؤوا ذهابًا وإيّابًا بحيث كان معدّل مصروف الشخص في مصر والاسكندرية خمسة وستين فرنكا يوميا وفي الصعيد وبورت سعيد والسويس والاسماعيلية مائة وخمسة فرنكات يوميا . وأعدّ البواخر الكافية لحمل جميعهم للمرور في الخليج ومن شاء الرجوع إلى بلاده على غير طريقه الأولى أرجعه على اختياره .

وكان من الحاضرين أمبراطورة فرانسا لمرض زوجها ونفس أمبراطور
أوستريا / بدائرة وزرائه ووليّ عهد ألمانيا لعجز والده ووليّ عهد إيطاليا [75]
لمرض والده ووليّ عهد هولانده إلى غير ذلك من وافدي أميركا وانكلتره . وبالجملة فقد كان ذلك الموسم في مصر من أعظم المواسم التي عادت بالمنفعة العظمى على جميع العمران البشري وظهر فيه من احتفال المصريين ما خلّد لهم حسن الذكر .

(1) الصواب أن يوم افتتاح المرور في قناة السويس كان يوم 17 نوفمبر سنة 1869 الموافق ليوم 12 شعبان 1286 هـ.

وعند مرورهم في الخليج كانت أوّل سفينة شقّت مياه الخليج في ذلك اليوم هي الإيقل الفرنساوية وفيها الأمبراطورة ثمّ من ورائها سفن الأمبراطورات والملوك وغيرهم . وعند احتفال موكب اجتماع الجميع مع خديوي مصر يومئذ إسماعيل باشا خطب في ذلك الجمع شيخ الأزهر وإمامه المؤلف المشهور الشيخ إبراهيم السقاخطبة نشرتها جميع الصحف في ذلك العهد . وهذا نصّها :

[خطبة شيخ الأزهر بمناسبة افتتاح المرور من قناة السويس]

الحمد لله الذي برى الممالك * ويَسَّرَ للسالكين المسالك * والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد الأمين * وعلى آله وأصحابه أجمعين * أمّا بعد * أدام الله لجميع الحاضرين السعد * فهذا الجمع حافل * ومحفل كامل * اجتمع فيه السلاطين العظام * ووكلائهم الفخام * والأمراء والذوات الكرام * محفل بهيج أنور * انعقد لفتح الخليج الموصّل بين البحر الأبيض والأحمر * استفدنا فيه أنّ المولى الجليل * جعل الاشتراك والتعاون في الأمور من أعظمِ وَسَائِلِ التسهيل * فلولا أنْ قدّر الله لهذا شركة الأمم * في بذل الأموال والهمم * لما حصل اتّصال البحرين * ولا انفصال البرّين * وطالما عدّت العقول * أنّ هذا متعذّر الحصول * فالحمد لله على أن يسّر هذا الأمر الخطير * وأظهر لنا أنّ كلّ خطب بهمم الرجال يسير * وأنْ جعل مساعي الملوك والحكّام * أصحاب الهمم والاجتهاد والاهتمام * سببا لحصول المقاصد العظيمة والمفاخر * والمطالب الجسمية والمآثر * .

ويدلّ للسعي في الأسباب من التعاون قوله تعالى في قصّة ذي القرنين / [76]
* وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا إلى قوله تعالى: حتّى إذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ * (1) وانه لما طلب منه بلوغهم الأمر المستصعب

(1) القرآن : سورة الكهف : 18 من الآية : 84 إلى الآية : 93 .

قال : أعينوني بقوة لتحصيل هذا المطلب . وحديث أنّه عليه السلام عَاوَنَ الصحابة في حفر الخندق حول المدينة للتحصين يدلّ على أنّ السعي في الأسباب والمعاونة في الأمور المهمّة من الدّين . ولو أنّ أهل مصر حصل لهم في ذلك تعب مَالاً وبَدَنًا لَكِن النتيجة أورثتهم سرورا وهناء .

فمن هذا تستفيد الأمم شَرْقًا وَغَرْبًا * اتّصالا وائتناسا وقُرْبًا * وَيَتَيَسَّرُ اجتلاب الأموال والأرزاق * وتخفّ عن أهل الأسفار المحن والمشاقّ * ويحصل الاكتساب لعموم البلاد * ويكمل الاجتماع والائتلاف والاتّحاد *ويسرع التمدّن وتتمّ العمارية * خصوصا لأهل الأوطان المصرية * فنسأل الله تعالى أن ينفع به العموم * ويجلب لنا ولوطننا خيرا يستمرّ ويدوم * ونسأله سبحانه وتعالى العزّ والتمكين والامتنان * لمولانا السلطان ابن السلطان عبد العزيز خان * وسعادة امبراطور أوستريا وقرال مجر * وسعادة امبراطورية فرنسا وسعادة ولي عهد دولة البروسيا وسعادة برانس فلمنك (بلجيك) وللوكلاء الكرام المشرفين بالنيابة عن الملوك الغائبين وسعادة الخديوي الأعظم * والراوي الأفخم * الساعي بهمّته وجدّه * في تتميم ما أسّس من أبيه وجدّه * من ترقية وترفيه العباد * وزيادة العمورية في المدن والقرى والبلاد * وكذلك نسأل الله لأنجاله الكرام * والحضرة التوفيقية ورجاله الفخام * وفّقهم الله للأحوال المرضية * وأن يمنحهم من فضله العظيم برّه المتعاقب * وأن يحسن لنا ولجميع الحاضرين الخواتم والعواقب *

البحر الأحمر

هو شعبة من بحر الهند تمتدّ من بوغاز باب المندب إلى ترعة السويس ويُسَمَّى / بحر القلزم بالإضافة إلى اسمه مدينة كانت في موقع السويس : [77] ويسمّى الخليج العربي وشهرته الآن بين علماء الجغرافية بالبحر الأحمر أو بحر الأحمر بإضافته لاحمرار لونه بسبب تكوّنات مرجانية تظهر تحت مياهه الصافية أو بسبب نبع أحمر يجري إليه فيختلط بمائه .

أقول وطول هذا البحر نحو أربع عشرة مائة ميل وعرضه مختلف أكثره لا يتجاوز المائتي ميل وأقلّه يبلغ نحو ثمانية عشر ميلا . وهو عند جدّة يبلغ إلى مائة وعشرين ميلا . وهو فاصل بين بلاد العرب الواقعة على شرقيه وبين مصر والنوبة والحبشة الواقعة على غربيه . وأمّا عمق هذا البحر فمختلف ومعظمه يبلغ إلى 6324 قدما . وفي وسطه تلال مستديرة يغشي سطحها موادّ ملحية وجيرية ورملية ممتدّة على طوله من بوغاز باب المندب إلى ترعة السويس . ويقلّ عمق الماء على جميع شواطئه حيث تكثر الجزائر والكثبان وخطوط المرجان .

وأعظم جزائره جزائر قبرسان المحاذية شواطىء بلاد العرب وجزائر دهلك وجبل بير ذو البركان المرتفع عن سطح أكثر من ألف قدم وفي جنوبيه

جزائر زباير وجزيرة كمران المحاذية بلاد اليمن وفي مدخل خليج العقبة منه جزيرة تاران .

وبما أنّ ماء المطر لا يقع على البحر الأحمر إلاّ قليلا مع صغره كان ماؤه أكثر احتواء على الموادّ الملحية والتبخّرات حتّى زعم بعضهم أنّه بتطاول الزمان لابدّ وأن ينضب ماؤه ويصير موضع سبخة . وأمّا الرياح فإنّها مشتدّة وقد تبلغ إلى تعسّر مصادمة السفن الشراعية إيّاها . ولذلك قد يضطرّ راكبوه من الهند إلى الإرساء في حديدة (1) فيسلكون طريق البرّ منها .

[78] وأهمّ مراسي البحر الأحمر السَّوِيسُ / وَالطُّوْرُ وَقَصِيرُ وَسَوَاكِن في الشاطىء الإفريقي وَيَنْبُعُ مرسى المدينة وَجَدَّةُ لمكّة ولو هي وحُدَيْدَةُ وَمُخَا (كذا) في الشاطىء العربي . وعدّة منارات منها إبريمُ وأخرى في شاطىء دَالُوسَ على بعد مائتي ميل من جَدَّةَ ومنارة في رأس شارب إلى غير ذلك من المنارات .

وكان البحر الأحمر ذا أهمية في التجارة على عهد الرومانيين وفيه أقام المصريون والفنيقيون صلات تجارية مع الهند حتّى قيل إنّ سيزوستريس كان له في البحر المذكور خاصّة أسطول مؤلّف من أربعمائة سفينة حربية لوقاية التجارة فيه . ثُمَّ تَنَاقَصَتْ تلك التجارة على عهد الرومانيين أيضا والبطالسة.

وبعد استيلاء المسلمين على مصر فتح العرب مع الهند والصين تجارة عظيمة في البحر الأحمر . ثمّ شاركهم فيها الجنوزيون والفينيقيون إلى أن اكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح . ففقدت منه أهميّة التجارة إلى إنشاء الإنقليز طريقا بريّة في مصر لتوصل لأملاكهم في الهند فعادت لها بعض الأهمّية .

(1) الحديدة : ميناء في اليمن على ساحل البحر الأحمر . وهي أهم موانئ تجارة البن في اليمن ومحط رحال حجاج مكّة الوافدين من أواسط إفريقيا .

ولما فتح برزخ السويس الذي اتّصل به ما بين البحر الأحمر والبحر المتوسّط صارت أهميّة التجارة فيه لها اعتبار عظيم . وأعظم مواقع هذا البحر انفلاق ماثه نصفين على فرق كالطود العظيم لمرور سيّدنا موسى عليه السلام وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام حين أدركه فرعون ومعه المصريون حتّى إذا أنجى الله موسى ومن معه اجتمع الماء على فرعون وقومه فكانوا من المغرقين وفي تعيين محلّ الغرق من البحر المذكور خلاف واشتهر بموضع هنالك يسمّونه : قلتة فرعون معروفة لجميع مارّة البحر الأحمر .

وقد سافرنا في البحر الأحمر باكرة يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة 1299 (1) فسافرنا فيه أربعة أيّام من السويس إلى جدّة . واشتدّ علينا الحرّ هنالك / شدّة اضطرّتنا إلى خلع الثياب قبل الإحرام إذ قد [79] تبلغ الحرارة في البحر المذكور إلى مائة واثنتين وثلاثين درجة عندما تهبّ ريح السموم . وعند هبوب الريح الجنوبية نهاية ما تبلغه الحرارة مائة وسبع درجات . وهكذا تتدرّج الحرارة من تلك الدرجات إلى ستّ وسبعين درجة في الأقل . ولا تكون حرارة البحر الأحمر أقلّ من ذلك .

وحيث إنّ الدليل الذي استصحبناه من بورت سعيد لقطع الخليج والبحر الأحمر اعتراه ضعف ليلة الخميس أصبحنا ضالّين عن الطريق . وعند وضوح النهار تبيّن له أنا قد سرنا في غير الطريق نحو الأربعين ميلا فاضطرّ إلى الرجوع في تلك المسافة إلاّ أنّ النهار كان موافقا والهواء مساعدا حتّى أعانه ذلك على مزيد السير وبلغنا إلى مسامتة رابغ بعد الزوال بنحو ساعتين .

[إحرام المؤلّف]

وحيث إنّ ذلك المحلّ هو محلّ الإحرام استعدّ لذلك جميع الحجّاج من باكرة ذلك اليوم فاصبحوا مزدحمين على استحصال سنّة الاغتسال في

(1) يوافق : 1882/10/4 .

مناظر العموم فيضطرّون إلى كشف عوارتهم وهو محرّم لا يقاوم فعل السنّة مع ما يرتكبونه لذلك من أذيّة بعضهم بالازدحام والمشاجرة والشتم وكلّها محرّمة .

وبما أنّ هذا الاغتسال هو أوّل سنّة من أفعال الحجّ عزّ عليّ تركه ولم يمكني تعمّد تلك المحرّمات فبقيت في حيرة من أمري وتطلّبت استئجار بيت . فلم يسمح به صاحب الفابور لكن من بركة الحرص في تحصيل السنّة لمّا علم القبطان بحاجتي من البيت أرسل إليّ سرّا بأنّ له حمّامًا تامّ الحرارة يختصّ به ولا يمكن له الإعلان به إلى ركاب الغمرة خشية تهافتهم عليه . وأنّه آذن مستخدم الغمرة بأن يهيّئه لي في الوقت الذي أريده . فأعطيت ثياب إحرامي للمستخدم المذكور ليضعها فيه سرًّا وعيّنت له وقت إحضاره .
[80] فإذا هو حمّام تامّ الموجبات أمكن لي / فيه الجمع بين الغسل بالصابون للنظافة والاغتسال بالماء .

ولبست هنالك ثياب إحرامي وصلّيت خارجه وأعلنت هنالك تلبية الإحرام وقد رأيت من إقبال المسلمين في ذلك اليوم على بياض ثيابهم التي ذكّرتنا حالة الاشتمال بالأكفان والتجرّد الذي تساوى به الرفيع والوضيع والإعلان بالتلبية للمجيب السميع ما يدلّ أرباب البصائر على عظمة مشروعية هذه العبادة التي اصطفى الله بها عباده .

وقد قلت عند ذلك (بيتين من الشعر) وهما : (من بحر الوافر)

1 ــ إلاَهِي الْقَوْمُ قَدْ خَلَعُوا الثِّيَابَ
وَلَبِسُّوا وَارْتَجَوْا مِنْكَ الثَّوَابَ

2 ــ وَقَدْ جِئْنَا لِحَجِّ الْبَيْتِ فَاغْفِرْ
بِفَضْلِكَ ذَنْبَنَا وَأَحْسِنْ مَتَابَ

جدة

بلدة من الحجاز في جزيرة العرب على نحو النصف من البحر الأحمر تبعد 65 ميلا من مكّة المشرفة . وقد اختلف قول المؤرّخين في مبدأ تاريخها . وزعم ابن بطوطة (1) أنّها من عمارة الفرس والذي يؤخذ من مجموع كلام مؤرّخيها أنّ أرضها كانت تعلوها مياه البحر . والذي مصّرها هو سيّدنا عثمان بن عفّان . وقد صارت محطّا للمراكب البحرية سنة 25 من الهجرة .

ونشأت فيها التجارة بمقدار كثرة مرور السفن على مرساها التي هي الطريق الوحيد إلى آسيا من أوربا أو إفريقيا . وقد كان وصولنا إلى مرساها بعد زوال يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة 1299 وكان موقف فابورنا بعيدا عن الشاطىء بمسافة أكثر من ميل حيث لا يمكن للفابور الدخول إلى تلك الميناء بسبب وجود الصخور المرجانية / وجزر الماء في تلك [81]

(1) هو محمد بن عبد الله بن بطوطة : رحالة ومؤرخ . ولد في طنجة سنة 1304/703 وبها نشأ وخرج منها سنة 725هـ. فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين والجاوة وبلاد التتر وأواسط افريقيا . واتصل بكثير من الملوك والأمراء . ثم عاد إلى المغرب الأقصى فانقطع إلى السلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين) فأقام في بلاده وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس سنة 756هـ. وسماها تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار – ط. وتوفي بمراكش سنة 1377/779 . (انظر : الزركلي : الاعلام : ج 7 – ص : 114 .

المسافة حتّى كان في بعض الجهات منها لا يزيد على الثلاثة أقدام . وأكثره لا يتجاوز الثمانية عشر قدما .

وللمرسى هنالك مراكب شراعية يسمّونها السنابك تنقل الأمتعة والراكبين من الفوابير إلى البلد بكراء زهيد لا يتجاوز قدره العشر قروش عن الرجل وأمتعته مع أنّها في المواضع القليلة الماء يحتاج ملاحوها للنزول منها ليتولّوا جرّها بأيديهم . والبلد ممّا يلي البحر جميل البناء بالحجارة مجصّص كلّه .

وعند نزولنا دخلنا إلى محلّ القمرق واطّلعوا على تذاكر جوازنا وكتبوا لنا فيها بالقلم التركي كتابة أخذوا عنها عشرة قروش . وعند دخولنا من البلد عرضنا التذاكر المذكورة فأعطونا هنالك تذاكر صغيرة مختومة أخذوا عن الواحدة ثلاثة قروش . فدخلنا البلد فإذا هي ذات سور حصين تحيط به خنادق وتتخلّله أبراج قديمة بها مدافع من النوع القديم . ولها تسعة أبواب منها ستّة مما يلي البحر .

وأزقّة البلد أغلبها متّسع وكلّها طبيعية وفيها عدّة جوامع وسرايات جميلة المنظر من ظاهرها وربّما كان داخلها متّسعا . ومن أحسن أبنيتها الجديدة ديار القناصل وبعض ديار أعيان تجّارها . وفيها مركز تلغرافي وبوسطة عمومية إلاّ أنّها غير منتظمة وكلاهما بيد الولاية العثمانية وأسواقها عامرة بالمتجر لا سيّما في موسم الحجّ . وأعمال أهلها صيد السمك والغوص عن المرجان الأسود يصطنعون منه سبحا وغيرها .

وترد إليها كثير من أنواع المتاجر الأوروباوية والآسياوية . ومنها تصدر جميع ضروريات أهل الحجاز . وفيها كثير من التجار الهنود والمصريين . وعدد سكّانها نحو الثمانية عشر ألفا وفي أيّام الحجّ يكثرون بسبب التجارة حتّى إنّهم ربّما بلغوا إلى الأربعين ألف . ويمرّ بها من الحجّاج في كلّ
سنة نحوا من المائة والعشرين ألف نفسا . وقد / خرجنا صبيحة يوم السبت [82]

لمزاراتنا فزرنا داخل البلد مدفنًا لبعض آل البيت . وخرج بنا المزوّرون إلى المقبرة خارج البلد وفي مبداها قبّة منسوبة لأمّنا حواء . يقولون إنّها على مدفن رأسها .

وهنالك بيت أخرى تبعد عنها نحو خمسين خطوة يزعمون أنها على محلّ سرّتهما .

[أعمال المزورين بجدّة]

أما أعمال المزورين هنالك مع مارّة الحجّاج وعلى الخصوص مغفّليهم فإنها فوق ما يعقل من وجوه الزور فتراهم يتجاذبون الحاجّ المسكين من ثياب إحرامه إلى أحدِ أمواتهم بعد أن يوقفوا عندها من شيعتهم مَنْ يُشاركونه في محصولِ الزيارة ويقولون للحاجّ : هل تزور قبر سيّدنا فلان ؟ فإذا وصل ووجد هنالك الشركاء فيغريه باعطائهم وربّما تمالؤوا عليه واغتصبوا منه ما يسمّونه له صدقة .

وأعجب من ذلك انتصاب بعضهم على حافة الطريق يبسطون منديلا مستطيلا على مكان مرتفع من الأرض وربما كان مزبلة ويقولون لمارّة الحجّاج : أعط الزيارة لصاحب هذا القبر . إلى غير ذلك من حيل الصناعة . وعلى كلّ حال قد خلّصنا الله من أيديهم مخلصا حَسَنًا .

واكترينا هنالك الإبل واكترينا لها محاملنا المسماة بالشقوف . وكان اكتراؤنا في معيّة رفقائي من الترك وزميلي في الشقوف محمّد علي باي بن عصمت أفندي قاضي المدينة المنوّرة . وكان خروجنا من جدّة بعد أن صلّينا بها صلاة العشاء . وممّن اجتمعت بهم في جدّة من خاصّة أعيان تجّارها وأزكياء أخيارها السيّد أحمد المشّاط وهو شيخ فاضل واسع التجارة حسن الإدارة مشارك في الآداب والسياسة صادفته معه أثر فالج أصابه فعطّل بعض حركاته . ودعاني للنزول في بيته فاعتذرت له لما عندي من الميل عند النزول

إلى الانفراد . وعلى كلّ حال رغبت منه قبول مكاتيبي الواردة والصادرة
[83] حيث إني سبقت مني الوصاية / بتوجيه مكاتيبي على اسمه .

[مكتوب الشيخ محمّد بيرم الخامس إلى أحمد المشّاط]

وقد استصحبت له مكتوبا من الشيخ محمّد بيرم وكان هو سبب التعارف بيننا . فأحسن في حفظ مكاتيبي وتبليغها على أحسن الحالات جزاه الله خيرًا ولحسن المكتوب البيرمي نثبته هنا . وهذا نصّه :

المقام الذي نعظّمه ونجلّه ونثني عليه من المحامد بما هو جدير به ومحلّه الممدوح بألسن الغادي والرائح الكريم الشيم حتّى تعطّرت بثنائه سائر الأخبار العطرة الروائح الماجد الفاضل النحرير الكامل سيّدي أحمد المشّاط لا زال حميد الأخلاق مثنيا عليه في سائر الآفاق .

« أما بعد سلام عاطر * وثنـــاء لمحامدكم البهيّة ناشر * فإنّ العبد منذ تشرف بملاقاتكم السعيدة * وتَعَرَّفَ بشمائلكم الفريدة * لم يزل وداده إليكم راسخ الأوتاد * وقلبه متأسّفا من البعاد * وثناؤه عن كريم أخلاقكم يخرق المعتاد * وإنّما أخرّته عن مكاتبتكم حوادث الانكاد * وهول المصائب بوطنه من شرار العباد * وترامي كلّ يوم في بلاد * : (من بحر البسيط)

1 – يَوْمٌ بِجَزْوَى وَيَوْمٌ بِالعَقِيقِ وَبِالْـــ
ـــغَرِيبِ يَوْمٌ وَيَوْمٌ بِالْخُلَيْصَاءِ

إلى أن مَنَّ الكريم الجواد * بالاستراحة حصّة بدار الخلافة لا زالت ثابتة العماد * وحانت هاته الفرصة للمكاتبة مع الفاضل النزيه النحرير الوجيه الشيخ سيّدي محمّد السنوسي . فأصحبنا معه مزيد الاشتياق إلى تلك الأخلاق وهو حرسه الله ينهي إليكم ما للمخلص من الودّ الراسخ * والثناء القائم على الصدق الشامخ * وهو أصحبه الله السلامة جدير بأن تشتمله من عنايتكم التفاتة

وسترضى بحول الله شماته . والأمل من فضائلكم الدعاء لمخلص ودّكم في مضان الإجابة لا زلتم مصيبين في كلّ غرض غاية الإصابة والسلام من الداعي محمّد بيرم التونسي لطف الله به في 11 ذي القعدة سنة 1299 (1) » .

(1) يوافق : 1882/9/24 .

[84]

مكّة المكرّمة

هذه أمّ القرى ومهبط الوحي ومحلّ وجود خير الوجود ومظهر الشريعة الإسلامية وبها كعبة العرب وموضع اجتماع قبائلهم . وهي محلّ حكومتهم العظمى ومقرّ أشرافهم وتسمّى مكّة لقلّة مائها . وتسمّى المعطشة وتسمّى بكّة وأمّ كوثي . وهو محلّ من بيقعان وفاران وتسمّى قرية النمل والباسه . وطولها من باب المصلّى إلى باب الماجن أربعة آلاف ذراع واثنان وسبعون ذراعا . وطولها من طول المعلّى إلى باب الشبيكة أربعة آلاف ذراع ومائة واثنان وسبعون ذراعا .

وغير خاف على مطالع السيرة النبوية خبر خروج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من مكّة بعد أن أرسله الله فخرج مُهاجرًا إلى المدينة إلى أن جاءه نصر الله والفتح . وقد وقع الخلاف في فتح مكّة هل كان **عَنْوَةً** فتكون مقسومة ولم يقسمها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأقرّها على ذلك لا تباع ولا تكرى . ومن سبق إلى موضع فهو أولى به . وبه قال مالك وأبو حنيفة والأوزاعي . **أو كان صُلْحًا** فبقيت ديارها بيد أهلها يتصرّفون في أملاكهم بالسكنى والبيع والإجارة وبه قال الشافعي وغيره وعليه جرى عمل الناس قديما وحديثا . وهذا الخلاف إنّما هو في أرضهاوأمّا أبنيتها الحديثة فلا خلاف في أنّها تباع على قاعدة من بنى في أرض الوقف حيث يجوز له بيع ما بناه .

وقد اختلف العلمـاء أيضا في حكم المجاورة بمكّة فمذهب أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي كراهة ذلك لخوف ضعف الاحترام للبيت العتيق . ولذلك كان عمر رضي الله عنه يدور على الحاجّ بعد قضاء النسك بالدرّة
[85] ويقول : يا أهل اليمن يمنكم ويا أهل الشام / شامكم ويا أهل العراق عراقكم فإنّه أبقى لحرمة ربّكم في قلوبكم .

وسئل مالك : هل الحجّ والجوار أحبّ إليك أو الحجّ والرجوع ؟ فقال : ما كان الناس إلاّ على الحجّ والرجوع . وذهب صاحبا أبي حنيفة والشافعي وأحمد إلى استحباب المجاورة أي مع المحافظة على واجب الاحترام للبيت الحرام .

[بنـاء الكعبة المشرّفة]

أمّا بناء الكعبة المشرّفة فكانت إقامتهـا للطواف مـن عهـد آدم عليه السلام على نحو طواف الملائكة بالبيت المعمور لطاعة ربّهم فيما أمرهم به وقد رفع إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت بنصّ القرا ن . وروى الأزرقي عن أبي إسحاق أنّ إبراهيم رفع البيت تسعة أذرع وجعل طوله من الحجر الأسود إلى الركن الشامي اثنين وثلاثين ذراعا وعرضه من قبل الميزاب من الركن الشمالي إلى الركن الغربي المسمّى ركن العراق اثنين وعشرين ذراعا ومن جانب ظهر البيت من الركن الغربي إلى الركن اليماني إلى الحجر الأسود عشرين ذراعا .

وجعل الباب لاَصِقًا بالأرض غير مبوّب إلى أن جعل لها تبّع الحميري (1) بابا يغلق وحفر إبراهيم في بطن البيت عن يمين حفرة لتكون خزنة للبيت يوضع فيها ما يهدى إلى البيت . وكان إبراهيم يبني وابنه إسماعيل ينقل له

---

(1) تبع الحميري : أحد ملوك اليمن الأقدمين الملقبين بالتبابعة . ذكرهم القرآن . أولهم الحارث بن قيس بن صيفي بن سبا الحميري . وكلمة تبع محرفة عن : بتع : وهو إسم أسرة نبيلة من قبيلة همـدان .

الحجارة على عاتقه حتّى انتهى إلى موضع الحجر الأسود فقال : ائتني بحجر أضعه هنا يكون علما للناس يبتدئون منه الطواف . وكان الحجر الأسود مستودعا بجبل أبي قبيس فوضع مكانه . ولم يكن للبيت سقف وهنالك كان حفر بئر زمزم . وفي الحديث : ماء زمزم لما شرف له (كذا) . وروي أن الحجر الأسود كان نورا يتلألأ ويضيء فسوّدته أرجاس الجاهلية . وفي الحديث : الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ يَاقُوتَتَانِ مِنْ يَاقُوتِ الْجَنَّةِ طَمَسَ اللَّهُ نُورَهُمَا .

وبعد بناء البيت طلع إبراهيم على جبل / ثبير وأذّنَ في النّاس فقال : [86] يا عباد الله إن رَبَّكم قد بنى لكم بيتا وأمركم أن تحجّوه فحجّوه وأجيبوا داعي الله . وقد بناه بعد إبراهيم الحارث بن مضاض الأصفر من جُرْهُمٍ وزاد في رفعه . ثمّ بناه العمالقة وعند تفرّق قبائل جُرْهُمٍ وخروجهم إلى البرّية اعتادوا في أسفارهم حمل أحجار من الحرم يطوفون بها إذا نزلوا تبرّكا بأثر البيت . قيل وكان ذلك سبب عبادة الأحجار في الجاهلية .

[خبر قصي بن كلاب وتولّيه سدانة الكعبة]

وممّن بنى الكعبة قبل الإسلام قصيّ بن كلاب بعد قدومه إلى مكّة . وكانت سِدَانَة البيت بيد كبير خزاعة خليل بن حبشيّة فتزوّج بابنته قصيّ . وبعده تنقّل مفتاح البيت إلى أبي غيشان وكان سكّيرا فباع المفتاح بزقّ من خمر . وفي المثل : أخسر صفقة من أبي غيشان . وصار المفتاح إلى قصيّ .

وقد كانت خزاعة خلفا عن بني جرهم في سدانة الكعبة منذ سنة 207 بعد المسيح . غير أنّهم أحدثوا بمكّة أوهاما باطلة منها عبادة هبل (1) الذي هو أحد ثلاثمائة وستين صنما داخل الكعبة . واستمرّوا إلى ظهور أمر قريش

(1) هبل : معبود العرب في الجاهلية . من أصنام الكعبة . سحقه النبي صلعم بعد رجوعه إلى مكة ظافرا .

وقد تولّى الحكم رئيسهم قصيّ سنة 440 بعد الميلاد وهو الذي جمع القبائل القرشية تحت يده وجعل الحكومة في أيدي جمهور من العرب وبنى دار الندوة يجتمعون فيها للمشورة وغيرها . فلم يكن يتزوّج رجل من قريش إلاّ فيها ولا يدخلها إلاّ ابن أربعين سنة . وكان يدخلها ولد قصيّ كلّهم . وقسّم جهات البيت بين طوائف قريش فبنوا دورهم حول البيت من جهاته الأربع وتركوا حول البيت مِقْدَارًا للطواف يقال إنّه المقدار المفروش الآن حول البيت المسمّى بالمطاف إلى أن زاد عمر في المسجد الحرام وتبعه مَنْ بَعْدَهُ .

[ما اجتمع من المناصب لقصيّ بن كلاب]

وقد اجتمع لقصيّ من المناصب ما لم يجتمع لغيره . فكانت بيده الحجابة
[87] والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة . أمّا الحجابة فهي / سدنة البيت أي تولي مفتاح البيت . وأمّا السقاية فهي سقاية الواردين للحجّ بالماء العذب وينبذ لهم التمر والزبيب فيسقيهم منه . وأما الرفادة فهي إطعام سائر الواردين للحجّ فيمدّ لهم الأسمطة أيّام الحجّ . واستمرّت في الاسلام فكان الطعام يصنع بأمر السلطان بمِنًى للناس حتّى ينقضي الحجّ . وأمّا اللواء فهو راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة لتوجّه العسكر للحرب . وأما القيادة فهي قيادة الجيوش (وقد أعطى قصيّ سدانة الكعبة لعبد الدار فبقيت في بني شيبة من بنيه إلى هذا اليوم) وقد خصّ من أبنائه هاشما بالرفادة والسقاية . واتّسعت مكّة في مدّته ثمّ خلفه المطّلب ثمّ عبد المطّلب جدّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم .

[وضع الرسول صلعم للحجر الأسود]

ولما أضرّ السيل بجدران الكعبة بناها قريش ورضوا بمحمّد الأمين أن يتولّى وضع الحجر الأسود مكانه بعد أن أشار عليهم بوضعه في ثوب تولّى

حمل أطرافه كبراء جميع القبائل إرضاء لهم بعد اختلافهم . وجعلوا ارتفاعها ثمانية عشر ذراعا ونقصوا من عرضها ورفعوا بابها عن الأرض وجعلوا داخلها ستّ دعائم في صفين ثلاثة في كلّ صفّ من الحجر إلى الركن اليماني . وجعلوا في ركنها الشامي من داخلها درجة يصعد منها إلى سطح الكعبة .

[خذلان أبرهة الأشرم في محاولة هدم الكعبة]

وقد كان أبرهة الأشرم أحد قواد النجاشي تغلّب عليه وجعل سائر الحبشة تحت قيادته وظفر في كثير من الحروب وبنى كنيسة معجبة بصنعاء وأغار على الحجاز لهدم الكعبة بأربعين ألفا فخذلوا وازداد بذلك احترام العرب لمكّة حتّى قال أحد المؤرّخين الإفرنج : إنّه مع اختلاف أهواء العرب اتّفقوا جميعا على إعلاء قدر الكعبة على سائر هياكل عباداتهم ورأوها هدية من الله إليهم إعلاما بفضلهم ووضعوا فيها الثلاثمائة والستّين صنما فصارت عندهم بمنزلة البنتيون عند قدماء اليونان .

[تعظيم الكعبة]

[88] وأظهرت / الصائبة واليهود وسائر العرب تعظيمًا وبذلوا جهدهم في زخرفتها بل رغبوا في فوقانها على سائر مباني الدنيا ولذا كانت روايات شرفها أحبّ الأحاديث عندهم . وعلّقوا عليها المعلّقات السبع رغبة في أن يعلّق عليها سائر أنواع الشهرة . وكانت لقريش سدنة الكعبة ضرب من التحكّم الديني اعترف به سائر العرب ولذا كان لهم الحقّ في تعيين الأشهر الحرم التي يمتنع فيها القتال بين جميع قبائل العرب ويلقى أمامهم السلاح من يحضر سوق عكاظ قبل الدخول للجلوس لئلاّ يقع بينهم سفك الدماء .

وكان عبد المطلب بن هاشم المولود سنة 497 بعد الميلاد ممارسا للحكومة العظمى في مكّة من سنة 520 (ميلاديا) إلى سنة 579 (ميلاديا) فخلّص وطنه من غارة الحبشة وأقرع بين أولاده حين بلغ عددهم 18 وذلك سنة 569 م

لذبح أحدهم قربانا وفاء بنذره . فوقعت القرعة على عبد الله أحبّهم إليه وعمره إذّاك خمس وعشرون سنة . فهمّ بذبحه . وأنكر عليه قريش ذلك ورجعوا إلى كاهنتهم العرافة فأشارت بالاقتراع بينه وبين فديته من الإبل إلى أن خرج الاقتراع على مائة جمل وقع نحرها . وصار ذلك مقدار الدية بين قريش .

[تحلية الكعبة بصفائح الذهب والكسوة]

ثمّ إنّ عبد الله بن الزبير هدم الكعبة وبناها على قواعد إبراهيم وغيّر بعد ذلك الحجّاج بن يوسف الثقفي بعض جهاتها . وكان عبد الملك بعث إلى إلى وآليه على مكّة خالد بن عبد الله العنزي بستّة وثلاثين ألف دينار ليضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب وعلى ميزابها وأساطينها وأركانها من داخلها . وزاد الخلفاء بعد ذلك في تحلية الكعبة بصفائح الذهب من داخلها .
[89] وأهدى لها الملوك معاليق الذهب المرصّعة بالجواهر / والسيوف المحلاّة بالذهب إلى غير ذلك من النفائس التي تلاشتها اليد العادية .

وقدْ كَسَا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم البيت بالثياب اليمانية واستمرّ كسوها في الإسلام إلى أن أوقف الملك الصالح بن الملك الناصر قلاوون قريتين بمصر على كسوة الكعبة الشريفة وهما بيسوس وسنديبس . فكانت الكسوة السوداء مكتوب (كذا) لا إله إلا الله محمّد رسول الله الات في قلب الات وربما زيدت في الحواشي آيات من القرآن وأسماء بعض الصحابة . واستمرّ سلاطين آل عثمان على ذلك كلّ سنة تجدّد كسوة الكعبة وتقسّم الكسوة القديمة فيبيعها بنو شيبة أصحاب سدانة الكعبة .

وفي نظم الطرسوسي (1) : (من الرجز)

---

(1) الطرسوسي : هو إبراهيم بن عماد الدين الطرسوسي الحنفي قاضي الحنفية في دمشق سنة 1345م. وتوفي نحو سنة 1356م. له : « أنفع الوسائل إلى تحرير المسائل » في الفروع . مخطوط في استنبول .

1 – وَمَا على الكعبَةِ منْ لِبَاسْ   إنْ رَثَّ جَازَ بَيْعُهُ للنَّاسْ
2 – وَلاَ يجُوزُ أخذُهُ بلاَ شِرَاء   لِلأَغْنِيَاءِ لاَ وَلا لِلْفُقَرَا

أمّا أبنية الخلفاء والسلاطين في المسجد وتوسيعهم إيّاه في تلك الدول فجميعه مدوّن في تاريخ مكّة المكرّمة بما لا داعي لتفصيله . أما فضل مكّة وكعبتها فحسبك أنّها كعبة جميع المسلمين لأداء فريضة الحجّ التي هي أحد أركان الإسلام الخمسة . وقد جمعت بين فضل العبادة المالية والعبادة البدنية فكانت من أفضل العبادات المكفّرة للسيّئات فرضت بالكتاب والسنّة والإجماع . والأحاديث الصحيحة في فضائل هاته الفريضة كثيرة .

وللحجّ فرائض ومسنونات ومندوبات وفضائل مدوّنة في جميع كتب الفقه وأفردت لها كتب المناسك لا غرض لنا في الكلام على شيء منها وإنّما نقتصر على موضاعات السفر .

[وصول المؤلّف إلى مكّة المكرّمة]

فقد أشرفنا على مكّة المشرّفة فجر يوم الثلاثاء / الثامن والعشرين من [90]
ذي القعدة وبعد أداء فريضة الصبح التزمنا السير رجالا ونحن حفاة محرمون نُلَبّي داعي الله رجاء غفرانه . وتلقّانا المطوّفون فأعلمتهم بأنّ مرادي الدخول على طريق كدا فأخبروني أنّه لم يبق طريقا مسلوكا وطريق القوافل إنّما هو الطريق المسلوك . فطلبت الاستقلال بالسير على طريق كدا وانفردت فيه مع المطوّف حسن صبّاغ .

ودخلنا للمسجد الحرام من باب السلام . وأدّينا بمنّة الله هنالك أحسن المناسك بطواف القدوم ومستتبعاته . وقد رأيت المطوّفين يحملون القادمين على المناسك بمقدار معرفتهم لها مع أنّهم لا تبعد حالتهم عن الجهل حتّى إنّي كنت مضطبعا (1) في ثوب الإحرام فتجاسر المطوّف عند شروعي في الطواف

(1) اضطبع : أبدى أحد ضبعيه . أدخل الرداء تحت إبطه الأيمن وغطى به الأيسر . والضبع هو وسط العضد .

وأخذ ثوبي وستر به كتفيّ كما رأيت غيره يفعل مع غيري . وبعد فراغه من عمله أرجعت الاضطباع وأمرته بالشروع في الطواف .

وبعد الفراغ أعلمته بحكم المسألة فِقهًا ثُمّ إنّه دعا إليّ أفرادًا في المسجد عند حجر إبراهيم وذكر أنّ موضوعهم تلقّي الصدقات في ذلك المسجد الحرام من الوافدين فصرّحت له ولهم بكراهة الصدقة داخل المسجد في مذهبنا وأتممت نسك القدوم . ودخلت بيت كبير المطوّفين التونسيين السيد علي الكافي وهو في سنّ الهرم .

ثمّ اشتغلت باستئجار بيت مفرشة وعيّنت مقدار نفقتي اليومية ونوع طعامي هنالك مع مراعاة الحميّة . فكنت بمنّة الله مدّة إقامتي بمكّة متمتّعا بكمال الراحة . وأوّل عملي قصيدة أتممتها هنالك في البيت المحرّم ضمّنتها منازل المسير وأوّل المناسك وأسماء المشاعر وهي قولي : / (من بحر الطويل) [91]

1 ـ لأوّلِ بَيْتٍ فِي البَرِيَّةِ مَرْفُوعِ
حَجَجْتُ وَيَا فَوْزِي إذَا تَمَّ مَشْرُوعِي

2 ـ قَطَعْتُ لَهُ البَحْرَيْنِ مِنْ مُتَوَسِّطٍ
وَمِنْ أحْمَرَ وَغْرٍ بِجِدّ سَرِيعِ (1)

3 ـ وَثَبْتُ على المَشْحُونِ عَنْ فُلْكِ غَدَا
عَلَى ظَهْرِ يَمٍّ مُشْرِقٍ بِسُطُوعِ

4 ـ تَبَرَّجَ فِي لُجِّ أجَاجٍ تَسَخَّرَتْ
مَسَالِكُهُ لَوْلاَ مِزَاجُ دُمُوعِي

5 ـ وَهَبَّتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ طَيِّبَةً بِهَا
بَدَا حِفْظُهُ فَاجْتَازَ غَيْرَ مَرُوعِ

(1) وغر يغر وغرا اليوم : اشتد حره .

6 — وَسَارَتْ بِهِ النَّارُ الَّتِي قَدْ تَأَجَّجَتْ
بِأَحْشَائِهِ كَالشَّوْقِ بَيْنَ ضُلُوعِي

7 — وَمِنْ جَدَّةٍ يَمَّمْتُ خَيْرَ تَنُوفَةٍ
عَلَى خَيْرِ نُوقٍ مِنْ خِيَارِ نُجُوعِ (1)

8 — مِنَ اليَعْمَلاتِ الذُّبْلِ المُهْتَدَى بِهَا
إلَى كُلِّ وَعْرٍ مِنْ أَشَمَّ مَنِيعِ (2)

9 — طَوَيْتُ بِهَا بِيداً تُبِيدُ سَنَابِكَا
وَفِي وَخْدِهَا لُطْفٌ كَذَاتِ رَضِيعِ (3)

10 — فَلَمْ نَدْرِ لَيْلِي أَيْنَ كَانَ امْتِدَادُهُ
وَسَابَقْتُ شَمْسَ الأُفْقِ عِنْدَ طُلُوعِ

11 — إلَى أَنْ رَأَيْنَا مِنْ مَعَالِمِ مَكَّةَ
مَقَاماً عَظِيماً مِنْ أَجَلِّ رَفِيعِ

12 — فَسِرْنَا حُفَاةً قَدْ ضَحَوْنَا تَنَازُعاً
عليها فِئَامَ الوَفْدِ من كلِّ مَجْمُوعِ (4)

13 — وَمِنْ كُلِّ فَجٍّ قَدْ أَتَيْنَا لِرَبِّنَا
نَبُوءُ لَهُ بِالذَّنْبِ فِي كُلِّ مَوْضُوعِ

14 — نُلَبِّيهِ فِي عَجٍّ وَنَجٍّ حَجِيجُنَا
إلَى بَيْتِهِ الأَسْنَى وَأَوَّلَ مَرْفُوعِ (5)

---

(1) التنوفة : البرية لا ماء فيها . ولا أنيس .

(2) اليعمل واليعملات : الجمل والناقة المطبوعان على العمل .

(3) وخد يخد وخدا البعير : أسرع وصار يرمي بقوائمه كالنعام .

(4) ضحا يضحو ضحوا الرجل : برز للشمس . الفئام : الجماعة من الناس (ولا واحد له من لفظه) ج فوم .

(5) عج عجا وعجيجا الناقة : زجرها فقال لها : عاج عاج . نج نجا الرجل : أسرع .

15 — وَلَمَّا دَخَلْنَا مَكَّةَ مِنْ كَدًا مِنْهَا
رَأَيْتُ انْبِعَاثًا قد تَمَكَّنَ في رُدُوعي (1)

16 — وَبِالأَبْطَحِ اجْتَزْتُ اجْتِيَازَ مُسَارِعٍ
مُجِيبٍ لِمَنْ أَمْسَى لنا خَيْرَ مَسْمُوعِ

17 — بِهِ كَانَ إِبْرَاهِيمُ أَذَّنَ دَاعِيًا
وَلَبَّاهُ مَنْ وَافَى بِسَيْرٍ سَرِيعِ

18 — فَسِرْتُ لِبَيْتِ اللَّهِ سِيرَةَ وَاجِلٍ
أُرَجِّي مِنَ الرَّحْمَانِ مَسْحَ دُمُوعِي

19 — وَسَلَّمْتُ مِنْ بَابِ السَّلاَمِ مُؤَمِّلاً
سَلاَمًا بِهِ مَا انْ نَرَى بِمَرُوعِ

20 — وَقُمْتُ بِذُلٍّ عِنْدَهُ مُتَوَسِّلاً
نَرَى أَنَّنِي قَدْ شَطَّ سَوَا صَنِيعِي (2)

21 — وَلَمَّا رَأَيْتُ الْوَفْدَ بِالْبَيْتِ طَائِفًا
تَطَفَّلْتُ فِي أَثْنَائِهِمْ بِخُضُوعِ / [92]

22 — وَفُزْتُ بِتَقْبِيلِ الْيَمِينِ وَإِنَّنِي
لأَرْجُو وَفَائِي أَنْ يَرَى خَيْرَ مَسْمُوعِ

23 — وَطُفْتُ بِبَيْتِ اللَّهِ أَمْشِي مُهَرْوِلاً
ثَلاَثًا وَمِنْ هَوْنٍ لَقَدْ تَمَّ أُسْبُوعِي (3)

24 — وَصَلَّيْتُ مِنْ خَلْفِ الْمَقَامِ وَبَعْدَهُ
بِمُلْتَزَمٍ لاَزَمْتُ دَعْوَةَ مَوْجُوعِ

---

(1) الردع : العنق .

(2) سواء صنيعي : ما استقام منه .

(3) الهون : السكينة والوقار .

25 ـ وَفِي حِجْرِ إبْرَاهِيمَ صَلَّيْتُ وَالدُّعَا
بِهِ كَالْحَطِيمِ التَّاحَ أسرَعَ مَرْفُوعِ (1)
26 ـ وَمِنْ زَمْزَمَ نِلْنَا شَرَابَ الشِّفَا لِمَا
نُؤَمِّلُ مِنْ خَيْرٍ بِهِ خِصْبُ مَزْرُوعِ
27 ـ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ اجْتَزْتُ سَاعِيًا
وَلِلَّهِ أضْحَى مَذْهَبِي وَرُجُوعِي
28 ـ وَأرْمَلْتُ بَيْنَ الأخْضَرَيْنِ مُكَبِّرًا
وَمُسْتَغْفِرًا لِلَّهِ خَيْرَ سَمِيعِ (2)
29 ـ أُنَادِيهِ فِي تِلْكَ الْمَشَاعِرِ رَاجِيًا
إجَابَتَهُ بِالصَّفْحِ عَنْ كُلِّ مَصْنُوعِ
30 ـ وَأدْعُو دُعَاءَ الْمُلْتَجِينَ لِرَبِّهِمْ
عَلَى مَا أذَابَ الْقَلْبَ بَيْنَ ضُلُوعِ
31 ـ عَلَى أنَّ ذَنْبِي يُثْقِلُ الكَاهِلَ الَّذِي
تَحَمَّلَ عِبْءَ الذَّنْبِ فِي كُلِّ مَشْرُوعِ
32 ـ فَيَا خَالِقِي جُدْ لِي بِتَوْبَةِ مُخْلِصٍ
وَمَغْفِرَةٍ تَجْرِي بِأعْذَبَ يُنْبُوعِ
33 ـ بِهَا نَلْتَقِي مَبْرُورَ حَجٍّ قَصَدْتُهُ
وَمَشْكُورَ سَعْيٍ أجْرُهُ غَيْرُ مَقْطُوعِ
34 ـ وَنَحْظَى بِهَا فِي الدِّينِ أيْضًا وَفِي الدُّنَا
بِخَيْرِ مَقَامٍ بِالسَّعَادَةِ مَرْفُوعِ
35 ـ يُصَاحِبُنِي أمْنٌ وَيُمْنٌ وَعِيشَةٌ
رَضِيَّةٌ خَفْضٌ سَائِغٌ غَيْرُ مَمْنُوعِ

(1) الحطيم : جدار حجر الكعبة وقيل ما بين الركن وزمزم والمقام . التاج التياحا : عطش .
(2) أرمل القوم : نفد زادهم وافتقروا . الأخضران : العشب والشجر .

36 ـ وَعَاقِبَةٌ حَسْنَاءُ فِي كُلِّ مَأْمَلٍ
وَتَيْسِيرُ مَا أَمَّلْتُهُ بِشُرُوعِ

37 ـ وَعَائِدَةُ الرِّضْوَانِ تَشْمَلُنِي إِذَا
نَبَا عَمَلِي أَنْ يَرْتَقِي بِطُلُوعِ

38 ـ عَطَايَا مِنَ الْمَوْلَى الْكَرِيمِ لِوَافِدٍ
عَلَى بَيْتِهِ فِي خِدْمَةٍ كَمُطِيعِ

39 ـ يَعُمُّ بِهَا ءَابَائِي الْكُلَّ وَالأُلَى
أَضَاؤُوا لَنَا مِنْ هَدْيِهِمْ بِشُمُوعِ

40 ـ وَتَشْمَلُ مَنْ وَفَّى بِعَهْدِي وَمَنْ سَعَوْا
لِوِدِّي وَهُمْ عِنْدِي أَعَزُّ جُمُوعِ

41 ـ وَيَنْبُتُ أَبْنَائِي بِهَا الْمَنْبَتَ الَّذِي
بِوَبْلِ الْهُدَى يُمْسِي كَخَيْرِ زُرُوعِ

42 ـ وَرَبُّكَ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ فَمَنْ يَلُذْ
بِهِ فَهُوَ فِي أَمْنٍ بِحِصْنٍ مَنِيعِ / [93]

43 ـ وَنَحْنُ وَإِنْ سَاءَتْ صَنَائِعُنَا فَقَدْ
وَقَفْنَا بِبَابِ خَيْرِهِ غَيْرَ مَقْطُوعِ

44 ـ وَسِيلَتُنَا فِيهِ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ
وَبُشْرَى لِمَنْ يَدْعُو بِخَيْرِ شَفِيعِ

45 ـ عَلَيْهِ صَلاَةٌ تَشْمَلُ الْيَوْمَ مَنْ سَعَى
لأَوَّلِ بَيْتٍ فِي الْبَرِيَّةِ مَوْضُوعِ

وقد متّعني الله من فضله بملازمة المسجد الحرام في أكثر الأوقات وأكثر جلوسي في المقام المالكي لرواية الشفا للقاضي عياض مع الطواف بوجوه شتّى

من الدعاء بالمأثور والموضوع حتّى طفت بالشعر من كلام غيري وبالشعر من كلامي ومن ذلك قولي : (من بحر الكامل)

1 — يَـا رَبِّ إنْ لَـمْ تَـرْحَـم ِالْعَبْدَ الَّـذِي
بِذُنُـوبِـهِ قَـدْ جَـاءَ بَيْـتَكَ يَعْتَرِفْ

2 — فَمَـن ِ الَّـذِي أرْجُـوهُ فِيمَـا يُرْتَـجَى
وَأنَا الَّذِي فِـي بَابِ فَضْلِكَ قَدْ وَقَفْ

[حضور المؤلف غسل داخل الكعبة]

وقد تشرّفت بالدعوة لحضور غسل داخل الكعبة المشرفة صبيحة يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة 1299 فحضر هنالك الشريف عبد الله وعصمان باشا والي الحجاز والسيد الشيبي وقاضي مكّة السابق وقاضيها الجديد وبعض الأفراد من خاصّة الوافدين واتّزر أولئك المتوظفون بطيالسة من الكشمير وابتدأ العمل جناب الشريف وكنت من الخادمين في ذلك الغسل إلى منتهاه والمنّة لله . وصلّيت داخل الكعبة للجهات الأربع ثمّ صلّيت للجهات التي بينها فصليت لثماني جهات واعددت ذلك من سعادة الحياة نسأل الله أن يجعل ذلك العمل مقبولا بمنّه وفضله .

[النشاط العلمي بمكّة المكرّمة]

ووجدت الحرم المكي فيه كثير من العلماء يُقرىء الدروس من الفقه والتوحيد والنحو . ومن المبتدئين من يُقرىء مناسك الحجّ ووجدت مفتي مكّة يومئذ وشيخ شيوخها العلاّمة المحصّل الشيخ أحمد دحلان يُقرىء تفسير البيضاوي بعد صلاة الصبح ويحضر درسه كبار العلماء / بحيث إنّهم بعد [94]
انفصالهم من درسه يتفرّقون في جهات الحرم للتدريس بها . فتخرج من بحر درسه تلك الجداول التي تستمرّ بقية اليوم .

وطريقة تدريسه لا تبعد عن الطريقة التونسية في إلقاء المسألة أوّلا ثمّ تطبيقها على الكتاب . وهكذا رأيت بقية العلماء على اختلاف طبقاتهم في العلوّ والتوسّط والابتداء . وأكثرهم وافدون من مصر وغيرها . وكان للشيخ رحمة الله الهندي هنالك الصيت المشهور . وسيأتي له ذكر في الخاتمة (1) .

وكثير من علماء مكّة وأدبائها يشتغل بتجارته ويتّخذ للعلم وقتا من بياض يومه .

[رواج سوق التجارة بمكّة]

وقد رأيت أثناء إقامتي بمكّة المشرّفة من رواج سوق التجارة بها ما علمت به حسن حالة التجّار في تلك الديار ولكن رأيت من الواردين للحجّ تهافتًا على شراء ما لا يحتاجون إليه ما تعلّلوا فيه بأنّهم يريدون منه التجارة لما وجدوا عليه من تنازل الأسعار وربّما هذا الشره حملهم على التفريط فيما بين أيديهم من المال وتعويضه بتلك العروض التي لا تغني في حالة السفر شيئا . وقد نصحت لبعضهم فكان سريان الدّاء بحيث لا تنجع معه الأدواء . ولكن لما فشا المرض وضربت الكرنتينة ظهر على بعض أولئك المفرطين ما اقتضى لهم التطلّب لما لم يجدوا وانقطع بعضهم وفيهم من تردّدوا على بعض قنصلاة دولة الحماية في بعض البلدان .

ورأت الدولة التونسية بعد ذلك أنّ صنيعهم مخلّ بشرفها فصدر أمر عليّ بعد الإيّاب باشتراط إعطاء ضمان في المال الكافي للذهاب والإيّاب أو ما يستدين به الحاجّ في الخارج . وصار ذلك الشرط سبّة مضروبة على كلّ حاجّ في البلاد التونسية خاصّة لمّا رأت الدولة حصوله من بعض حجّاجها .

---

(1) المقصود بالخاتمة الجزء الثالث من الرحلة الحجازية للمؤلف (انظر : تحقيقنا لهذا الجزء : نشر الشركة التونسية للتوزيع . تونس 1978) .

[زيارات المؤلّف بمكّة]

[95] وفي أثناء إقامتنا بمكّة خرجنا لزيارة غار حراء / وفي اليوم الثامن من ذي الحجّة خرجنا عشية إلى عرفة وأقمنا اليوم التاسع وَجُزْءًا من ليلة العاشر فتمّت فريضة الحجّ بذلك الموقف الأعظم . وهنالك وردت الأخبار تؤذن بقدوم الشريف عون الرفيق من الآستانة متولّيا إمارة مكّة التي تلقّاها أخوه عبد الله قبله على ما سيأتي تفصيله .

ورجع الحجّ صبيحة العيد الأكبر وتمّت جميع النسك . وكانت هنالك جموع الوافدين في أفخر الخيام لابِسِينَ جميل اللّباس بعد فكّ الإحرام مظهرين للمسرّة بما تفضّل عليهم به ربّ الأنام .

[أسباب ظهور المرض على الحجاج]

وهنالك تحقّقت أسباب طروّ المرض على الحجّاج وذلك أنّ أغلب الحجّاج يتعوّد في مدّة سفره للحجّ على أكل المجفّفات من الخبز وغيره فتحصل لأبدانهم رياضة مع ضعف تفضي إليه المجفّفات وحالة السفر فإذا كانوا في يوم العيد بمنى ذَبَحُوا ضحاياهم وتناولوا لحومها بشره زائد . وربّما تساهلوا في شأن طبخها فتؤثّر فيهم آثارا غير ملائمة للصحّة .

وقد شاهدت من ذلك كثيرا زيادة على كون جميع تلك الذّبَائِح يجري دمها وتُلْقَى أقذارها وفضلاتها على صعيد واحد بين منازل النازلين مع شدّة حرّ المكان وبذلك يحصل تعفّن في الهواء واضح الضرر على الوافدين .

[موكب تحية العيد بمنى]

وكان أعظم المواكب في منى موكب جلوس شريف مكّة لقبول تحيّة العيد من الخاصّة والعامّة بملابسه الرسمية والطبول العربية . وحوله مواقف

المتوظّفين وأصحاب الرتب ومجلس لجلوس الأشراف والعلماء . وقد دخلت على الشريف عون الرفيق في هذا الموكب . وبعد تقديم التهنئة وتقبيل يده الشريفة أمرني بالجلوس هنالك فجلست برهة دخل فيها الواردون / على [96]
اختلاف طبقاتهم . وخَرَجْتُ لزيارة أخيه الشريف عبد الله وغيره من الأشراف . وهنا لا بأس بقول وجيز على تلك الإمارة .

[إمارة مكّة المشرفة]

كان أعطاها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند الفتح سنة ثمان من الهجرة لعتاب بن السيّد بن أبي العي بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف . وكان عمره إحدى وعشرين سنة رضي الله عنه . وتنقّلت إلى جمع من الصحابة وتداولتها عدّة أيدي إلى أن أخذها الأشراف من بني الأخيضر سنة إحدى وخمسين ومائتين واستمرّت دولة متوارثة في أبناء الأشراف إلى أن أتى عليها القرامطة و عاثوا فيها بما شاؤوا من البدع والخراب وإفساد الدين إلى أن استعد ليد الأشراف من بني سليمان بن داوود إلى سنة 452هـ .

ثمّ تنقلّت للأشراف من بني فليتة الهواشم ثمّ تنقّلت لآل قتادة في 27 رجب سنة سبع وتسعين وخمسمائة من الهجرة . واستمرّت إمارتهم بمكّة إلى هذا اليوم . وكان أوّلهم الشريف أبو عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن ابن عبد الكريم بن عيسى بن الحسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد الثائر بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسين السبط بن علي وفاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمّ ابنه الحسن بن قتادة ثمّ ابنه راجح بن قتادة ثمّ الحسن بن علي بن قتادة ثمّ حجاز بن الحسين بن قتادة ثمّ غانم بن راجح ثمّ أبو نمي ثمّ رميثة بن أبي نمي ثمّ عطيفة بن أبي نمي ثمّ أبو الغيث بن أبي نمي ثم محمّد بن إدريس بن / قتادة ثمّ عجلان بن رميثة وأخوه ثقبة ثمّ أخوهم مقامس ثمّ [97]

سند بن رميثة ثمّ محمّد بن عطيفة ثمّ أحمد بن عجلان ثمّ عنان بن مغامس ابن ميثة ثمّ أحمد بن ثقبة ثمّ عقيل بن مبارك بن ميثة ثمّ علي بن عجلان ثمّ محمد بن عجلان ثمّ الحسن بن عجلان ثمّ رميثة بن محمّد بن عجلان ثمّ بركات بن حسن بن عجلان ثمّ علي بن عنان بن مغامس ثمّ علي بن حسين ابن عجلان ثمّ أبو القاسم بن حسن بن عجلان ثمّ محمّد بن بركات ثمّ بركات بن محمّد بن بركات ثمّ هزاع بن محمّد بن بركات ثمّ حميضة بن محمّد بن بركات ثمّ أبو نمي بن بركات وابنه أحمد ثمّ حسن بن أبي نمي ثمّ أبو طالب بن حسن بن أبي نمي ثمّ إدريس بن حسين وأخوه فهيد ثمّ إدريس ثمّ عبد الله بن حسن بن أبي نمي ثمّ ابنه محمّد . وشاركه زيد بن محسن ثمّ نامي بن عبد المطّلب ثمّ سعد بن زيد بن محسن ثمّ بركات بن محمّد بن إبراهيم بن بركات بن أبي نمي ثمّ سعيد بن بركات بن محمّد ثم أحمد بن زيد بن محسن ثمّ سعيد بن سعد ثمّ أحمد بن غالب بن محمّد بن مسعود بن حسن بن أبي نمي محسن بن حسين بن زيد ثمّ عبد الله بن هاشم ابن محمّد بن عبد المطّلب ثمّ عبد المحسن بن أحمد بن زيد ثمّ عبد الكريم بن محمّد بن يعلى بن حمزة بن موسى بن بركات بن أبي نمي ثمّ عبد الله بن سعيد بن سعد ثمّ علي بن سعيد ثمّ يحيى بن بركات ثمّ محمّد بن عبد الله ابن سعيد بن سعد ثمّ مسعود بن سعيد بن سعد ثمّ مساعد بن سعيد بن سعد ثمّ جعفر بن سعيد بن سعد ثمّ عبد الله بن سعيد بن سعد ثمّ أحمد بن سعيد ابن سعد ثمّ عبد الله بن حسين بن / يحيى ثمّ سرور بن مساعد بن سعيد بن [98] سعد ثمّ عبد المعين بن مساعد ثمّ غالب بن مساعد ثمّ يحيى بن سرور ثمّ عبد المطّلب بن غالب بن مساعد ثمّ محمد بن عون بن محسن بن عبد الله بن حسين بن عبد الله بن حسين بن أبي نمي ثمّ ابنه عبد الله ثمّ حسين بن علي بن محمّد بن عون ثمّ أعيد لها عبد المطّلب بن غالب ثمّ عون الرفيق بن محمّد بن عون بن محسن بن عبد الله بن حسن بن عبد الله بن حسن بن أبي نمي بن حسن ابن علي بن قتادة رضي الله عن جميع آل البيت .

أمّا أخبار هؤلاء الأشراف في إماراتهم وإطلاقها وتقييدها إلى أن آلت إلى الانقياد إلى سلطنة آل عثمان فهي ضمن تواريخ مكّة ودولة الإسلام . لا تشذّ عمّن يتتبّع تراجم أولئك الأعلام .

وعند دخولي إلى مكّة المشرفة صادفت ورود خبر عزل عبد المطّلب واعتقاله بالطائف وإسناد الإمارة إلى الشريف عبد الله بن محمّد بن عون بن محسن . فأقام شارات الإمارة وأقيمت له علائم الملك . ووفد الوفود لتهنئته .

[تهنئة المؤلّف لأمير مكّة]

وقد انتهزت هاته الفرصة لتحلية شعري بمدح شريف مكّة فاستأذنت عليه وعيّن لي وقت التشرّف وزرته في مَجْلِسِهِ الخاصّ فوقف وأجلسني إلى جانبه وقبل مني الهناء والإفصاح عمّا وجدت عليه أهل مكّة من السرور بعود الإمارة إلى فرعهم الطاهر . ثمّ استأذنته في سرد ما سمح به الخاطر في تهنئته . فهشّ رضي الله عنه لذلك وأظهر علائم السرور وأذن لي بذلك . وقد استعاد منّي عدّة أبيات من هاته القصيدة التي لا فضل لها إلاّ بكونها تجمّلت بمدح أمير الأشراف وأحسن قبولها وهي قولي : (من بحر الكامل)

1 — ثَغْرُ التَّهَانِي عَنْ سُرُورٍ يَبْسِمُ
وَالبِشْرُ مِنْ نَفَحَاتِهِ يَتَنَسَّمُ / [99]

2 — وَلِطَلْعَةِ الأَفْرَاحِ أَيّ سَمَاحَةٍ
وَالخَيْرُ مِنْ إِقْبَالِهَا يَتَوَسَّمُ

3 — إِذْ أَسْفَرَتْ عَنْ جَبْهَةِ اليُمْنِ الَّتِي
فِيهَا غَدَا حُسْنُ التَّهَلُّلِ يَرْسُمُ

4 — هِيَ رَوْضَةُ الإِقْبَالِ بِالآمَالِ قَدْ
حِيطَتْ وَذَاكَ الدَّوْحُ فِيهَا يُطْعِمُ

5 — أَغْصَانُهَا قَدْ فُوِّفَتْ بِأَزَاهِرَ
تَصْفُو بِبَرْدِ الْحُسْنِ وَهُوَ مُعَلَّمُ

6 — وَهِيَ الْمَنَابِرُ لِلْمَزَاهِرِ مِنْ تَجَا
هُرِ كُلِّ طَيْرٍ صَادِحٍ يَتَرَنَّمُ

7 — يَشْدُو فَيَفْعَلُ بِالنُّهَى فِعْلَ الَّتِي
قَدْ كَانَ عِتْقُهَا بِرِقِّ جُرْهُمُ

8 — وَيُسَاجِلُ الْقَيْنَاتِ إِذْ غَنَّتْ وَقَدْ
حَنَّتْ لِمَنْ لاَ زَالَ وَهْوَ مُتَيَّمُ

9 — كُلٌّ يُدِيرُ كُؤُوسَهُ مَمْلُوءَةً
خَمْرًا وَلَكِنْ شُرْبُهَا لاَ يُحْرَمُ

10 — هِيَ خَمْرَةٌ قَدْ خَامَرَتْ بِسُرُورِهَا
عَقْلَ الزَّكِيِّ وَكُلَّ مَنْ هُوَ يَعْلَمُ

11 — إِذْ مَا زَجَتْ يُمْنَ الْهَنَا بِوِلاَيَةٍ
لِشَرِيفِ مَكَّةَ وَهْوَ ذَاكَ الْعَيْلَمُ (1)

12 — ذَاكَ الشَّرِيفُ بْنُ الشَّرِيفِ وَمَفْخَرُ الـ
ـشُّرَفَاءِ مَنْ بِهِمِ الإِمَارَةُ تَعْظُمُ

13 — فَخْرُ الأُلَى أَمَرَ الإِلَهُ بِوِدِّهِمْ
وَبِذَلِكُمْ جَاءَ الْكِتَابُ الْمُحْكَمُ

15 — فَخْرُ الأُلَى قَدْ عَظُمُوا وَهُمْ أَمَانُ
الأَرْضِ فَهْيَ بِفَضْلِهِمْ تَتَنَعَّمُ

16 — هُمْ آلُ بَيْتٍ قَدْ أُقِيمَ عِمَادُهُ
بِالدِّينِ وَالْهَدْيِ الَّذِي لاَ يُعْدَمُ

---

(1) العيلم : البحر .

17 ــ هُــمْ آلُ بَيْتِ خَــارَهُ الرَّحْمَانُ لِلـــ
ـــوَحْيِ الذِي يُتْلَى وَمَا أنْ يُكْتَمُ (1)

18 ــ هُــمْ آلُ بَيْـتٍ جَـاءَ جِـبْرِيلُ لَهُ
عَـنْ إذْنِ رَبِّـهِ بِالرِّسَـالَــةِ يَخْدِمُ

19 ــ آلُ الرَّسُولِ وَيَا لَهُــمْ مِـنْ سَادَةٍ
أوْصَى بِـهِـمْ وَالْكُلُّ طَـوْدٌ يَعْصِـمُ

20 ــ آلُ الرَّسُولِ دَعَا لَهُمْ وَلِـمَـنْ دَرَى
بِكَمَالِـهِـمْ وَبِمَدْحِـهِـمْ يَتَكَلَّـمُ

21 ــ هُمْ سَادَةٌ غُـرُّ الْوُجُـوهِ كَرِيمَـةٌ
تَسْتَنْزِلُ الْمَطَرَ الْغَزِيرَ فَيَسْجُمُ (2)

22 ــ هُــمْ سَـادَةٌ شُــمُّ الأنُوفِ وَبَيْتُهُــمْ
بَيْـتُ الضُّيُـوفِ وَمَـنْ أتَاهمْ يُكْرَمُ / [100]

23 ــ أكْرِمْ بِـهِـمْ مِـنْ سَادَةٍ كَمْ آيَةٍ
فِـيهِـمْ بِـهَا قَدْ جَـاءَ ذِكْرٌ مُحْكَمُ

24 ــ أكْرِمْ بِـهِـمْ مِـنْ عِتْرَةٍ فَازُوا بِـمَـا
أوْلاَهُــمْ الرَّبُّ الْكَرِيمُ الْمُنْعِـمُ

25 ــ أكْرِمْ بِـهِـمْ وَبِمَنْ رَقَى بِكَمَالِـهِـمْ
لإمَـارَةٍ فِـي فَخْـرِ مَكَّـةَ تُنْظَـمُ

26 ــ وَلَئِـنْ يَكُنْ شَرَفُ الشَّرِيفِ كَرَامَةً
فَشَرِيفُ مَكَّـةَ فِـي الْبَرِيَّـةِ أكْرَمُ

27 ــ وَلِـذَا إمَارَتُهَـا قَدِيمًـا يَمَّمَـتْ
بَيْتًـا بِهِ عَـوْنُ الشَّرِيفِ يَعْظُـمُ

---

(1) خـار : انتقى .
(2) سجـم : انصب .

28 ـ وَالآنَ قَـدْ عَادَتْ لَهُ وَالعَوْدُ أَحْـ
ـمَدُ وَهْوَ عَوْدٌ دَائِمٌ لاَ يُفْصَمُ

29 ـ فَاسْتَعْصَمَتْ بِذُرَى الشريفِ القَرْمِ عَبْـ
ـدِ اللّهِ وَهْوَ حِمًى لِمَنْ يَسْتَعْصِمُ

30 ـ وَهْوَ الأَمِيرُ بْنُ الأَمِيرِ أَخُو الأُلَى
بِهِمُ الإِمَارَةُ قَدْ زَهَتْ إِذْ حَكَمُوا

31 ـ هُمْ آلُ عَوْنِ الأَكْرَمُونَ وَمَنْ لَهُمْ
فِي خِطَّةِ الشَّرَفِ الطَّرِيقُ الأَقْوَمُ

32 ـ وَلَئِنْ سَمَتْ بِمُحَمَّدٍ وَبَنِيهِ فَهْـ
ـيَ لِذَا بِعَبْدِ اللّهِ مِنْهُمْ تَبْسِمُ

33 ـ هُوَ مَعْدِنُ الإِنْصَافِ لِلأَشْرَافِ فِي
وَقْتِ المَخَافِ لَهُ الفَخَارُ الأَقْدَمُ

34 ـ سَنَدُ الإِمَارَةِ بِالنَّجَدَارَةِ وَالْمَهَـ
ـارَةِ فِي الإِدَارَةِ حَيْثُمَا هوَ يُبْرِمُ

35 ـ حَامِي الذِّمَارِ وَرَافِعُ الأَخْيَارِ إِذْ
حَازَ الْفَخَارَ وَفَازَ وَهْوَ الأَفْخَمُ

36 ـ حَذِقَ الفَصَاحَةَ وَالسَّمَاحَةَ وَالرَّجَـ
ـاحَةَ وَالْمَلاَحَةَ وَهْوَ فَذٌّ أَشْهَمُ

37 ـ مَا شِئْتَ مِنْ كَرَمٍ وَلُطْفِ كِيَاسَةٍ
وَدَمَاثَةِ الأَخْلاَقِ وَهْوَ الأَحْزَمُ

38 ـ وَسِيَاسَةٍ عُلْوِيَّةٍ وَفِرَاسَةٍ
نَوْرِيَّةٍ يَدْرِي بِهَا مَا يُكْتَمُ

39 ـ وَشَهَامَــةٍ وَصَرَامَــةٍ وَمَهَابَــةٍ
تَــدَعُ الْجِبَالَ لِرَفْعِهَا تَتَذَمَّمُ

40 ـ وَمَضَاءِ عَزْمٍ فِي الأُمُــورِ وَخِبْرَةٍ
بِمَــوَاقِعِ التَّــدْبِيــرِ فِيمَا يَدْهِمُ

41 ـ يَا بِضْعَةَ الْمُخْتَــارِ يَا عَلَمَ الْفَخَــ
ــارِ مِنَ الدَّرَارِي دَامَ مَدْحُكَ يُنْظَمُ

42 ـ فَاهْنَأْ بِخَيْــرِ إِمَارَةٍ أَضْحَتْ بِــهَا
أَرْضُ الْحِجَازِ جَمِيعُهَــا يَتَنَعَّــمُ

43 ـ وَبِهَا مِــنَ الْبَلَدِ الأَمِــينِ تَضَمَّخَتْ
أَخْبَــارُ أَفْــرَاحٍ سَــرَتْ تَتَنَسَّــمُ / [101]

44 ـ فَالأَرْضُ مُشْرِقَــةٌ وَكُلُّ النَّاسِ قَدْ
أَمْسَى لَــهُ جَذَلٌ بِــهِ يَتَبَسَّــمُ

45 ـ وَالْمَــوْسِمُ الدِّينِي أَقْبَلَ جَمْعُــهُ
مِــنْ كُــلِّ شَاسِعَــةٍ وَكُلُّ مُحْرِمُ

46 ـ هُمْ أَقْبَلُوا كَيْ يَشْهَدُوا لَهم الْمَنَــ
ــافِعَ فَالْتَقَــاهُــمْ بِالْهَنَــاءِ الْمَوْسِمُ

47 ـ فَقِرَابُكُــمْ كُلٌّ لَــهُ بُشْــرَى تُرَى
وَهَنَــاؤُكُــمْ كُلٌّ بِــهِ يَتَــرَنَّــمُ

48 ـ وَبِذِمَّــةِ الشَّــرَفِ انْتَقَيْــتُ جَوَاهِــرًا
عَــنْ بِشْرِكُمْ فَأَتَــتْ كَعِقْــدٍ يُنْظَمُ

49 ـ عِقْــدٍ وَسَائِطُــهُ شَمَــائِلُكَ الَّتِي
لَــوْ مُثِّلَــتْ مِنْهَــا لَتَزِيــنَ الْمِعْصَمُ

50 — قَدْ صُغْتُ مِنْهَا غَادَةً بِمَدِيحِكُمْ
فَاقَتْ وَرَاقَتْ كُلَّ مَنْ هُوَ يَفْهَمُ

51 — عَرَبِيَّةَ الأَعْرَاقِ وَالأَخْلاَقِ مَا
رَضِيَتْ سِوَاكَ وَلَمْ يَنَلْهَا ضَيْغَمُ

52 — تَرْوِي هَنَاءَكَ مَعْ ثَنَائِكَ لِلأُولَى
عَنْكُمْ يُؤَخِّرُهُمْ زَمَانٌ مُعْدِمُ

53 — فَاقْبَلْ فَدَتْكَ النَّفْسُ مِنْهَا تُحْفَةً
يَبْدُو لِمُهْدِيهَا وِدَادٌ أَعْظَمُ

54 — لاَ زَالَ مَدْحُ عُلاَكَ أَجْمَلَ غُرَّةٍ
فِي وَجْهِ دَهْرِكَ زَائِدٍ لاَ يُخْتَمُ

[قصيدة الشيخ حسن وفا مهنّئا أمير مكة]

وقد هنّأه بهاته الإمارة جميع أدباء الحجاز بالقصائد الفائقة . وجمع هذا الأمير أدباء مجلسه للنظر في جميع قصائد تهانيه وجعلوا لها مراتب على عادة اعتناء عَرَبِ الحجاز بمقام الشعر . وقد وقفت على كثير من تلك القصائد وبقي معي بعضها نثبتها هنا إعلاء لذكر آل البيت . فمن ذلك قصيدة الشيخ حسن وفا وهي قوله : (من بحر الكامل)

1 — الدَّهْرُ يَا رَبَّ الْمَكَارِمِ وَالْعُلاَ
قَدْ تَابَ مِمَّا قَدْ جَنَاهُ أَوَّلاَ

2 — فَاسْمَحْ وَجُدْ بِالْعَفْوِ عَنْهُ فَإِنَّهُ
أَلْقَى مَقَالِيدَ الشِّقَاقِ وَأَقْبَلاَ

3 — وَاجْلُ مَآسِي الأَحِبَّةِ إِنَّهُ
بِجَمِيعِ مَا يُرْضِي عُلاَكَ تَكَفَّلاَ

4 — وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى الوَفَاءِ بِعَهْدِهِ
مَا قَالَهُ بَيْنَ الأَنَامِ مُفَصَّلاَ

5 — آلَيْتُ كُلَّ أَلْيَةٍ مَبْرُورَةٍ
عَنْ أَمْرِ عَبْدِ اللَّهِ لَنْ أَتَحَوَّلاَ / [102]

6 — الْعَبْدَلِيُّ بْنُ النَّبِيِّ مَنِ ارْتَقَى
أَوْجَ الْعُلاَ وَبِهِ الزَّمَانُ تَجَمَّلاَ

7 — مَلِكٌ كَسَاهُ اللَّهُ ثَوْبَ مَهَابَةٍ
وَعَلَيْهِ بِالْمُلْكِ الأَثِيلِ تَفَضَّلاَ

8 — وَحَبَاهُ مِنْ رُتَبِ الْكَمَالِ بِرُتْبَةٍ
أَضْحَى بِهَا بَيْنَ الْمُلُوكِ مُجَمَّلاَ

9 — نَاهِيكَ مَنْ شَرُفَتْ سَجَايَاهُ وَمَنْ
هَامَتْ بِحُسْنِ عُلاَهُ أَفْئِدَةُ الْمَلاَ

10 — وَجَبَتْ مَوَدَّتُهُ بِمَا قَدْ جَاءَ فِي
شُورَى وَبِالأَحْزَابِ صَارَ مُبَجَّلاَ

11 — أَوَمَا تَرَى نُورَ الشَّفِيعِ بِوَجْهِهِ
يَبْدُو لِمَنْ فِي الحَيِّ فِيهِ تَأَمَّلاَ

12 — فَإِذَا بَدَا لِلنَّاظِرِينَ تَرَى بِهِ
نُورًا مِنَ الْهَادِي تَلأْلأَ مُقْبِلاَ

13 — بَهَرَتْ مَهَابَتُهُ الْعُقُولَ وَأَشْرَقَتْ
فِي أُفُقِ مَجْدٍ بَدْرُهُ لَنْ يَأْفَلاَ

14 — فَإِذَا سَرَى تَسْرِي الأَمَاجِدُ خَلْفَهُ
وَإِذَا دُعِي يُدْعَى الإِمَامَ الأَفْضَلاَ

15 ـ أوَمَا تَرَاهُ لآلِ أحْمَدَ سَيِّداً
وَبِمَدْحِهِ التَّنْزِيلُ جَاءَ مُفَصَّلاَ

16 ـ جَلَّتْ مَزَايَاهُ وَعَزَّ نَظِيرُهُ
فَنَظِيرُهُ فِي الكَوْنِ لَنْ يَتَحَصَّلاَ

17 ـ أضْحَى بِهِ الْمَلِكُ الأثِيلُ مُؤَيَّداً
يَخْتَالُ مِمَّا قَدْ حَوَاهُ مِنَ الْعُلاَ

18 ـ يَخْتَالُ مِنْ شَرَفٍ وَمِنْ كَرَمٍ وَمِنْ
بَاسٍ بَوَادِرُهُ تُزَلْزِلُ يَذْبُلاَ

19 ـ سَمِحُ البَنَانِ إذَا أتَاهُ قَاصِدٌ
بَلَغَ المَرَامَ وَنَالَ حَظّاً أجْزَلاَ

20 ـ فَاضَتْ يَدَاهُ عَلَى الوَرَى بِمَكَارِمٍ
طَابَتْ مَوَارِدُهَا وَرَاقَتْ مَنْهَلاَ

21 ـ لاَ خَابَ مَنْ بِحِمَاهُ فِي الحَيِّ احْتَمَى
وَأتَاهُ مِنْ أقْصَى الدِّيَارِ مَامَلاَ

22 ـ سَاسَ الأنَامَ بِسُنَّةِ الْهَادِي الَّذِي
لَوْلاَهُ مَا انْكَشَفَ الضَّلاَلُ وَلاَ انْجَلاَ

23 ـ يَقْضِي بِمَا يُرْضِي الإلَهَ وَعَيْنُهُ
عَنْ حُسْنِ مَصْلَحَةِ الوَرَى لَنْ تَغْفَلاَ

24 ـ جُبِلَتْ عَلَى الْفِعْلِ الْحَمِيدِ طِبَاعُهُ
فَسِوَى الصَّلاَحِ بِحَيِّهِ لَنْ يَفْعَلاَ

25 ـ فَكَأنَّ بَيْنَ مَقَالِهِ وَفِعَالِهِ
مَلَكاً بِمَصْلَحَةِ الأنَامِ مُوَكَّلاَ

26 ــ قَرَّتْ بِهِ عَيْنُ الإِمَارَةِ وَازْدَهَتْ
وَمَقَرُّهَا بِسَنَا عُلاَهُ تَجَمَّلاَ / [103]

27 ــ وَرَقَتْ بِهِ أَوْجَ الْعُلاَ وَتَوَطَّنَتْ
بِالْعِزِّ فِي أُفْقِ السَّعَادَةِ مَنْزِلاَ

28 ــ وَغَدَتْ تَمِيسُ مِنَ السُّرُورِ كَأَنَّمَا
تَجْلُو عَلَيْهَا الْقَوْمُ كَاسَاتِ الطِّلاَ

29 ــ أَوَمَا تَرَاهَا مِنْ مَحَاسِنِ عَدْلِهِ
هَزَّتْ قَضَايَاهَا الْمَعَاطِفُ وَالطُّلاَ

30 ــ وَرَقَتْ مَرَاقِيَ النَّيِّرَيْنِ بِهِ ، وَقَدْ
وَطِئَتْ بِأَخْمُصِهَا السِّمَاكَ الأَعْزَلاَ

31 ــ وَغَدَتْ تَتِيهُ عَلَى الْبُدُورِ بِحُسْنِهِ
وَتَمِيسُ فِي حُلَلِ الْجَمَالِ تَدَلُّلاَ

32 ــ مَنْ لَمْ يَكُنْ كُفُؤًا لِذَاتِ مَحَاسِنٍ
فَلِوَصْلِ ذَاتِ الْحُسْنِ لَنْ يَتَوَصَّلاَ

33 ــ يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي سَرَّتْ بِهِ
أُمُّ الْقُرَى وَبِهِ الْحِجَازُ تَجَمَّلاَ

34 ــ وَافَيْتَ مَكَّةَ فَاسْتَهَلَّ جَمَالُهَا
وَالْوَجْهُ مِنْهَا بِالسُّرُورِ تَهَلَّلاَ

35 ــ وَالْبَيْتُ أَصْبَحَ بَاسِمًا بِقُدُومِكُمْ
وَتَلاَ أَلَمْ نَشْرَحْ وَجَوَّدَ مَا تَلاَ

36 ــ وَرَأَى عُلاَكَ بِهِ يَطُوفُ فَرَاقَهُ
مَا قَدْ رَآهُ مِنْ خُشُوعِكَ وَالْعُلاَ

37 – وَنَهَضْتَ تَسْعَى بَيْنَ مَرْوَةَ وَالصَّفَا
سَعْيًا بِهِ حُسْنُ الْقَبُولِ تَحَصَّلاَ

38 – أَحْرَزْتَ مِنْ حُسْنِ الطَّوَافِ وَسَعْـ
ـيِكَ المَشْكُورِ أَجْرًا بِالسُّرُورِ مُكَمَّلاَ

39 – شَاكَلْتَ بَدْرَ التَّمِّ فِي أُفْقِ السَّمَا
فِي كُلِّ آوِنَةٍ تُشَرِّفُ مَنْزِلاَ

40 – مَوْلاَيَ إِنِّي قَدْ أَتَيْتُ مُهَنِّئًا
فِي ضِمْنِ مَنْ هَنَّى عُلاَكَ وَأَجْمَلاَ

41 – وَلَوِ اسْتَطَعْتُ شَرَحْتُ مِنْ أَوْصَافِكُم
مَا قَدْ حَوَيْتَ مِنَ الْكَمَالِ مُفَصَّلاَ

42 – وَمَنِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ يَا مَوْلاَيَ أَنْ
يُحْصِيَ وَيَحْصُرَ مَا حَوَيْتَ من العُلاَ

43 – مَا امْتَازَ سَيِّدُ مَعْشَرٍ بِفَضِيلَةٍ
إِلاَّ وَكُنْتَ لَهُ الإِمَامَ الأَوَّلاَ

44 – يُهْنِيكَ فِي التَّارِيخِ عَوْدُ إِمَارَةٍ
بِمَقَرِّهَا رَكْبُ الْهَنَاءِ مُجَمَّلاَ

1299

45 – وَزَهَا بِتَارِيخٍ وَحُسْنِ إِمَارَةٍ
بِقُدُومِهَا عَادَ الصَّلاَحُ وَأَقْبَلاَ

1299

46 – وَبَدَا عَلَى التَّارِيخِ مِمَّا حُزْتَهُ
حُسْنٌ بِهِ الْبَلَدُ الأَمِينُ تَجَمَّلاَ [104]

[تقريض المؤلّف لقصيدة الشيخ حسن وفا]

وحيث إنّ هاته القصيدة أهداها إلي ربّها وطلب مني انتقادها فبعد اطلاعي عليها قرضتها بقولي : (من بحر الكامل)

1 ــ إنَّ الَّتِي تَاهَتْ عَلَيَّ تَدَلُّلاَ
سَمَحَتْ لِصَبٍّ بِالْوِصَالِ تَوَصُّلاَ

2 ــ وَجَلَتْ ذُؤَابَاتِ الدُّجُنَّةِ عَنْ سَنَا
بَدْرِ التَّمَامِ وَقَدْ تَبَدَّى مُقْبِلاَ

3 ــ فَسَبَتْ مُتَيَّمَهَا بِحُسْنِ شَمَائِلٍ
وَحَبَتْهُ مِنْ ذَاكَ الجَمَالِ تَأَمُّلاَ

4 ــ وَتَبَسَّمَتْ مَنْ لُؤْلُؤٍ رَطْبٍ صَفَا
أَضْفَتْ عَلَيْهِ مِنَ الجَبِينِ تَهَلُّلاَ

5 ــ وَتَرَنَّمَتْ فَرَأَيْتُ دُرًّا سَاقِطًا
يَخْتَارُ مِنْ وَسَطِ الْفُؤَادِ الْمَنْزِلاَ

6 ــ هُوَ جَوْهَرٌ عَالٍ وَلَكِنْ مِنْ هُنَا
أَمِيرُ مَكَّةَ قَدْ حَوَى كلَّ الْعُلاَ

7 ــ ذَاكَ الشَّرِيفُ الْعَبْدَلِيُّ وَمِثْلُهُ
ذُو الْمَكْرُمَاتِ يَنَالُ مِنْهُ تَجَمُّلاَ

8 ــ وَلِذَا رَأَيْنَا مِنْ مَحَاسِنِ هَاتِهِ
مَا مِنْ حُلاَهُ جَلَتْ جَمَالاً أَكْمَلاَ

9 ــ وَافَتْ بِيُمْنٍ وَفَا غَدَا حُسْنًا وَقَدْ
عَذُبَتْ مَشَارِبُهُ فَطَابَتْ مَنْهَلاَ

10 ــ هُــوَ مَنْهَلُ الآدَابِ رَاقَ وَفَاقَ إِذْ
حَازَ الْمَفَاخِرَ وَالْكَمَالَ مُفَصَّلاَ

11 ــ حُسْنٌ وَفِي أَهْلَ الْوَفَا لِمَنْ اكْتَفَى
بِكَمَالِـهِ وَرَآهُ فَـذًّا أَوَّلاَ

12 ــ خِدْنُ العَفَافِ وَكَامِلُ الأَوْصَافِ فِـي
الشُّـمِّ الطِّرَافِ الْمُعْتَلِينَ عَلَى المَـلاَ

13 ــ وَأَنَـا الَّـذِي إِنْ رُمْتُ حَصْرَ صِفَاتِـهِ
مَـا نِلْتُ يَـوْمًا لِلْمَـرَامِ تَـوَصُّلاَ

14 ــ مَعَ أَنَّنِي فِـي حَالَةٍ أَرْجُو بِـهَا
مِـنْ مِنَّـةِ الرَّحْمَانِ أَنْ يَتَقَبَّلاَ

15 ــ وَلِذَا نُؤَمِّـلُ مِنْـهُ دَعْوَةَ مُخْلِـصٍ
مُغْضٍ لأَنَّـهُ بِالْفَخَارِ تَكَمَّلاَ (1)

[قصيدة الشيخ علي بن عبد الله الريس مهنئا أمير مكّة]

ومن ذلك قصيدة الشيخ علي بن عبد الله الريس إمام الشافعية والمدرّس
[105] وهي قوله : (من بحر البسيط) /

1 ــ الْيَـوْمَ مَكَّـةُ وَالْمِـيزَابُ وَالْحَـرَمُ
بِنُورِ وَجْهِ ابْنِ خَيْرِ الْخَلْقِ مُبْتَسِمُ

2 ــ شُمُوسُ أَبْنَاءِ عَـوْنٍ بِالسُّرُورِ لَقَدْ
عَادَتْ وَعَادَ الْهَنَا وَالْجُودُ وَالْكَرَمُ

3 ــ جَـاءَ الْبَشِيـرُ لأَرْضٍ يُخْبِـرُنَا
بِمَـنْ بِـهِ الْفَخْرُ لاَ عُرْبٌ وَلاَ عَجَمُ

(1) أغضى يغضي اغضاء على الأمر : سكت وصبر .

4 ـ بِالعَبْدَلِيِّ الَّذِي فِيهِ الْفَخَارُ لَنَا
فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمُ
5 ـ قَالُوا تَهَنَّا بِعَبْدِ اللَّهِ قُلْتُ لَهُمْ
الْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا الْمُفْرَدُ الْعَلَمُ
6 ـ وَافَتْ إِلَى الطَّائِفِ الْمَيْمُونِ تَسْعَى لَهُ
مَرَاتِبُ قَصُرَتْ مِنْ دُونِهَا الْهِمَمُ
7 ـ سَجَدْتُ لِلَّهِ شُكْرًا مُذْ سَمِعْتُ بِهِ
نَادَى الْمُنَادِي وَقُلْتُ الصَّوْمُ مُلْتَزَمُ
8 ـ قَدْ كُنْتُ طَلَّقْتُ نَظْمَ الشِّعْرِ مِن قِدَمٍ
وَالْيَوْمَ قَدْ عَادَوا عِقْدُ الشِّعْرِ مُنْتَظِمُ
9 ـ هُمُ الْمُلُوكُ الأُلَى فِي كُلِّ مَكْرُمَةٍ
لَهُمْ أَيَادٍ غَدَتْ مِنْ دُونِهَا الدِّيَمُ (1)
10 ـ عَرِّجْ عَلَى مَكَّةَ الْفَيْحَا وَنَازِلُهَا
أَبْنَاءُ عَوْنٍ إِذَا مَا هَالَكَ الْعَدَمُ
11 ـ آلُ النَّبِيِّ الأُلَى يُسْقَى الْغَمَامُ بِهِمْ
وَمَنْزِلُ الْكُرَمَا فِي ذَاتِهِمْ خُتِمُوا
12 ـ وَانْزِلْ بِسَيِّدَةٍ عَبْدِ اللَّهِ سَيِّدِنَا
نُزُلَ الَّذِي فِيهِ يَسْمُو السَّيْفُ وَالْقَلَمُ
13 ـ بِاللَّهِ دَعْنِي مِنْ كِسْرَى وَقَيْصَرَ
وَاذْكُرْ إِمَامًا لَهُ أَهْلُ النُّهَى خَدَمُوا
14 ـ شَمَائِلُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَعْرِفُهَا
عَلِيُّ بْنُ عَوْنٍ الَّذِي عَزَّتْ لَهُ قِيَمُ

(1) الديمة : مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق . ج : ديم .

15 ــ هَـذَا هُوَ صَفِـيُّ الرَّأيِ مَنْ رَتعتْ (كذا)
مِنْـهُ الأنَامُ بِظِـلِّ دَوْحِـهِ حَرَمُ

16 ــ بَاهَى بِأبْيَضَ وَضَّاحِ الْجَبِـينِ بِـهِ
عِقْـدُ الْمَدَائِحِ مَبْدُوٌّ وَمُخْتَتَمُ

17 ــ فَاللَّـهُ يُبْقِـي لَنَا أيَّامَ دَوْلَتِـهِ
مَا فِـي بَدِيعِ جَلاَءَ رُصَّعَ الْكَلِـمُ

[ولاية عون الرفيق إمارة مكّة مكان أخيه]

وبعد أن انقضت العشر الأوائل من ذي الحجّة في نشر علائم إمارة الشريف عبد الله دار الخبر في أواخرها بأنّ الإمارة وليها أخوه الأكبر الشريف عون الرفيق وأنّ ولاية عبد الله كانت للمحافظة على الإمارة إلى قدوم أخيه. وفي يوم عرفة أقبلت البُرُد ونُشِرَت علائم اقتبال الشريف / في موقف عرفة. [106]
وأدرك الشريف ذلك الموقف وصبّح العيد معيدا لتلك الولاية وتلقّاها أخوه عبد الله أيضا بالبشر والسرور حيث إنّ الإمارة طالت مدّة خروجها من بيتهم بولاية ابن عمّهم الأبعد الشريف عبد المطلب. وكان مجرّد رجوعها إلى بيتهم كافيا في جلب السرور سيّما وأخوه عون الرفيق أكبر منه وهو الذي كان يناضل عنها في أبواب الخلافة.

أمّا أهل مكّة فكان سرورهم بولاية عبد الله أعظم من سرورهم بولاية عون لما في طبع عبد الله من اللطف واللين وحسن المعاملة مع أنّ لأخيه عون شدّة وحدّة يتّقيها أهل مكّة. وقد كشف الغيب عن صدق ما حدسوه فإنّه في يوم الثالث من قدومه وضع يد القبض على كبير بني شيبة الذي بيده سدانة البيت وحمله الضبطية مسجونا للقلعة. وكان لذلك تأثير عظيم. وكان ذلك بمجرّد صحبته مع الشريف عبد المطلب.

وقد بادر بعض الأشراف من آل عبد المطلب إلى الخروج وظهرت شدّة الشريف عون على العلماء والخاصّة بعد ذلك . وانتصر على شدّته بمن أعانوه من أخلاط البلاط السلطاني يسوق إليهم المنهوب ويكتفي لنفسه بما وصل إليه من المطلوب هذا ما أفضى إليه حال ولايته .

[تهنئة المؤلّف لعون الرفيق أمير مكّة الجديد]

وعلى كلّ حال فإني عند تهنئته بالعيد لاقيت منه ما سرّني وأعدت التهنئة له بالإمارة وأذن لي بزيارته في بيته . فدخلت عليه في قاعة جلوسه العام وبعد تقديم التحيّة أمرني بالجلوس برهة إلى أن قضى ما بين يديه . فاستأذنته في تقديم قصيدة التهنئة له بالإمارة فأمرني بإنشادها . فوقفت في موكبه وأنشدتها بين يديه وتلقّاها مني بسرور . وقد ضمّنتها ما سبق للشعراء من تهنئة أخيه بالإمارة المذكورة مع حسن التعليل الجاري مجرى الاعتذار وهي قولي : (من بحر الكامل)

107 / 1 — عِيدُ التَّهَانِي عَادَ فِي أُمِّ القُرَى
وَأَعَادَ لِلإِسْلاَمِ عِيداً أَكْبَرَا

2 — إِذْ قَدْ أَتَى وَالمُؤْمِنُونَ بِمَوْقِفٍ
كُلاًّ تَرَاهُ مُلَبِّيًا وَمُكَبِّرَا

3 — لَكِنْ تَضَاعَفَ بِشْرُنَا وَهَنَاؤُنَا
بِقُدُومِ فَخْرِ السَّادَةِ الشُّمِّ الذُّرَا

4 — هُوَ ذَلِكُمْ عَوْنُ الرَّفِيقِ وَحَبَّذَا
عَوْنٌ وَمَا مِنْ ذِكْرِ عَوْنٍ قد جَرَى

5 — إِذْ مِنْ ذَوِي عَوْنٍ إِلَى البَلَدِ الأَمِيـ
ـنِ مَفَاخِرُ عَمَّتْ بِفَضْلٍ أَثَّرَا

6 – وَلآلِ عَوْنٍ فِي الإمَارَةِ آيَةٌ
تُتْلَى بِمَقُولٍ صَادِقٍ دونَ افتِرَا

7 – وَلِيَوْمِ عَوْدَتِهِمْ لَهَا نَبَأٌ فَكَمْ
بَرْقٌ يَسِيرُ بِهِ وَبَدْرٌ قدْ سَرَى

8 – وَتَسَاجَلَ الشُّعَرَاءُ مِنْهُ وَإنَّمَا
كُلٌّ لِعَوْدَةِ آلِ عَوْنٍ اسْتَبْشَرَا

9 – وَقَدِ انْجَلَى صُبْحُ الْيَقِينِ عَنِ الذي
تَتَكَرَّرُ الْبُشْرَى بِهِ بَيْنَ الْوَرَى

10 – إذْ بَيْتُ عَوْنٍ شَخْصُ فَضْلٍ أيْنَمَا
حَلَّ الْحُلِيُّ بِهِ يَزِينُ كَمَا تَرَى

11 – وَتَكَرُّرُ الْبُشْرَى يَرُوقُ وَرُبَّمَا
بِالْعَوْدِ رَاقَ وَفَاقَ كَأسٌ أسْكَرَا

12 – نَاهِيكَ مِنْ عَوْدٍ بِهِ قَدْ أصْبَحَتْ
صُوَرُ الْهَنَا تَخْتَالُ فِي أمِّ القُرَى

13 – إذْ قَدْ غَدَا عَوْنُ الرَّفِيقِ مُلَقَّبًا
بِشَرِيفِ مَكَّةَ فَارْتَقَى وَتَقَرَّرَا

14 – وَأقَامَ أعْظَمَ مَوْكِبٍ لإمَارَةٍ
أمْسَى بِهَا بَيْنَ الْكَوَاكِبِ مُقْمِرَا

15 – وَهْوَ ابن خَيْرِ الخَلْقِ ذُو شِيَمٍ سَمَتْ
مَنْ سَامَهَا أثْنَى عَلَيْهِ وَكَبَّرَا

16 – وَكَفَاهُ أنَّ اللَّهَ أوْجَبَ حُبَّهُمْ
وَجَمِيعُهُمْ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ طُهِّرَا

17 – وَفَخَارُهُمْ يُتْلَى مِنَ الْقُرْآنِ إنْ
زَانَ الإمَامُ مَحَارِبًا أوْ مِنْبَرَا

18 ـ أمَّا عُلاَ هَذَا الأميرِ وَفَخْرُهُ
فَعَنِ اجْتِيَازِ مَدَاهُ قَيْصَرُ قَصَّرَا

19 ـ وَكَذَا مَهَابَتُهُ وَهِمَّتُهُ الَّتِي
فَاقَتْ فَقَدْ جَاءَتْ كَمَا قَدْ دَبَّرَا

20 ـ وَكَذَا تَثَبُّتُهُ وَفَصْلُ خِطَابِهِ
عَنْ خِبْرَةٍ فِيهِ تَسَامَى مَخْبَرَا / [108

21 ـ وَكَذَا مَعَارِفُهُ وَحُسْنُ فِعَالِهِ
وَعَطَاؤُهُ فَالْكُلُّ بَحْرٌ قَدْ جَرَى

22 ـ وَمِنَ الإشَارَةِ يَكْتَفِي هذَا الْمُـ
ـشِيرُ فَإِنَّ فَخْرَ كَمَالِهِ لَنْ يُحْصَرَا

23 ـ فَاهْنَأْ بِمَا أُوتِيتَ يَا عِيدَ الوَرَى
وَلَكَ الْهَنَاءُ بِمَا لَدَيْكُمْ قَدْ نَرَى

24 ـ وَاقْبِلْ هَنَاءَ الْوَافِدِينَ فَإِنَّنَا
لِهَنَاءِ مَجْدِكُمْ انْتَقَيْنَا جَوْهَرَا

25 ـ وَأَرَى الأُلَى فَرِحُوا بِأَمْرِكَ كُلُّهُمْ
قَدْ طَابَ نَشْرًا عَابِقًا مُتَعَطِّرَا

26 ـ وَلِذَلِكَ جَاءَ الْعِيدُ وَهوَ مُبَشِّرٌ
بِهَنَائِكُمْ كَيْمَا يَطِيبَ وَيَفْخَرَا

27 ـ وَأَنَا الَّذِي قَدْ طَابَ عِنْدِي بِشْرُهُ
قَدْ قُلْتُ أَرِّخْ طَابَ عِيدٌ بَشَّرَا

[تهنئة الشيخ حسن وفا أمير مكّة الجديد]

وهنّاه بتلك الامارة أيضا الشيخ حسن وفا بقوله :

(من بحر مجزوء الكامل)

1 — أَشَرِبْتَ من كأسِ الرَّحيقِ وَطَرِبْتَ من رَاحِ العَتيقِ
2 — حتَّى غَدَوْتَ بِنَشْوَةٍ وَصَبَوْتَ في الغَيِّ العَتيقِ
3 — أَمْ حَدَّثَتْكَ الغيدُ عَوْ دَ الوَصْلِ في رَوْضِ العَقيقِ
4 — فَأَثَرْنَ وَجْدَكَ في الحَشَا وَنَثَرْنَ دَمْعَكَ كالعقيقِ
5 — وَأَذَبْنَ قَلْبَكَ في الهَوَى بذَوَائبِ القَدِّ الرَّشيقِ
6 — حتَّى نَحَلْتَ وَقدْ رَجَوْ تَ بِوَعْدِها شَمَّ العَبيقِ
7 — طَبًّا لِصَبِّ قَدْ هَوَى وَرْدًا عَلى الخَدِّ الأَنيقِ
8 — وَالقَلْبُ عَادَ مِنَ الجَوَى خَالاً على شَفَقِ الشَّقيقِ
9 — فَرَوَى مَحَاسِنَ ثَغْرِهِ بِشَوَاهِدِ الدُّرِّ النَّسيقِ
10 — وَطَوَى الحَدِيثَ بِأَسْرِهِ عن وَصْفِ مَكْنوزِ الرَّحيقِ
11 — سَلْ ما لِسَلْمَى في الوَفَا بِالوَعْدِ وَالعَهْدِ الوَثيقِ
12 — وَالرَّشْفِ منْ عَذْبِ اللَّمى وَالعطفِ بِالخِلِّ الرَّفيقِ / [109]
13 — تُنْبِئْكَ عن وَصْلِ الوُفُو دِ إلى حمى البيْتِ العَتيقِ
14 — وَمَنَالِ آمَالِ وَفَيْـ ـضٍ منْ نَدى عوْنِ الرَّفيقِ
15 — ذي الجودِ وَالمجْدِ السَّعِيـ ـدِ الجَدِّ وَالجِدِّ الحَقيقِ
16 — وَالحَزْمِ وَالعزْمِ الحَميـ ـدِ الرَّأيِ وَالرَّأيِ الطَّليقِ
17 — وَالحِكَمِ وَالعِلْمِ المُفِيـ ـدِ مَنارُهُ هَدْيُ الطَّريقِ
18 — وَرِثَ المَكَارِمَ وَانْتَمَى في الفضْلِ بالأصْلِ العَريقِ
19 — نُورِ الوُجُودِ مُحَمَّدٍ لَوْلاهُ لم تُضِئِ الشَّرِيقِ (1)
20 — غَيْثٌ جرَى يَرْوِي الوَرَى في البَرِّ وَالبَحْرِ العَميقِ
21 — أَصْلُ المَكَارِمِ كُلِّهَا يَسْمُو بِهَا الفَرْعُ الأَنيقُ
22 — مَنْ في المَعَالِي سَعْدُهُ يزْهو على سَعْدِ الأَفيقِ (2)

(1) الشريق : الشمس حين تشرق .
(2) الأفيق : الذي بلغ النهاية في الكرم أو العلم . من أفق يأفق أفقا . فهو آفق وأفيق .

23 — مَنْ لاَحَ بَدْرُ كَمَالِهِ ... بِإِمَارَةِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ
24 — وَبِغَايَةِ لِلطِّيبِ قَدْ ... أَرَّخْتُ فِي نَظْمِي الرَّقِيقِ
25 — سَعِدَ الأَنَامُ بِسَعْدِ مَجْــــــدِ شَادَهُ عَوْنُ الرَّفِيقِ

1299

[مشيخة سدانة الكعبة المشرّفة]

[وَهُنَا نَتَيَمَّنُ بِذِكْرِ بَيْتِ مَشْيَخَةِ سِدَانَةِ الْكَعْبَةِ المشرّفة التي هي من أعظم الإمارات الخالدة التالدة في الإسلام لبني شيبة رضي الله عنهم . ذلك أنّ قُصَيًّا جَدَّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذي اجتمعت له وجوه الإمارة بين العرب في مكّة أعطى سدانة الكعبة إلى ولده عبد الدار . فكان مفتاح الكعبة وسائر وجوه خدمتها بيده وبيد أولاده من بعده إلى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزّي بن عبد الدار بن قصيّ .

وفي يَوْمِ فَتْحِ مَكَّةَ أخذ منه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم المفتاح وسأله العبّاس أن يدفع إليه المفتاح فنزل قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) (1) فدفع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم المفتاح إلى عثمان بن طلحة بحضرة ابن عمّه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة . وقال : « خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله تعالى خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلاّ ظالم » .

وكان عثمان بن طلحة من كبار الصحابة وكذلك ابن عمّه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة . وكذلك ابنه مسلم بن شيبة كلّهم من الصحابة رضي الله عنهم وبعد وفاة عثمان بن طلحة أخذ المفتاح ابن عمّه شيبة المذكور . ولم تزل مشيخة السدنة في بنيه وبنيهم الأكبر فالأكبر من عهد خزاعة على ما نقله ابن إسحاق في السيرة . وجرى عليه عمل قصيّ في بنيه قبل الإسلام كما

---

(1) القرآن : سورة النساء 4 — الآية : 58 .

جرى عليه عمل بني أبي طلحة في صدر الإسلام من الصحابة والتابعين وتابعيهم وجميعهم حجّة فلا محلّ لتوقّف ابن حجر (1) في شرح العباب في وجه ذلك وقد أوضحه الحطاب (2) من فحول المالكية. ولذلك لم يزل حقّ الحجابة للأكبر فالأكبر وهي خالدة تالدة معجزة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم حضرنا لمشاهدة صحّتها هاته السنة المباركة حيث وجدنا مشيخة السدنة بيد من جمعنا الله به في ذلك المقام سيّدي عمر (1) بن جعفر (2) بن محمد (3) بن زين العابدين (4) ابن محمد (5) بن عبد المعطي (6) بن عبد الواحد (7) بن محمد (8) بن قاسم (9) ابن أبي السعود (10) بن فخر الدين (11) بن أبي بكر بن جمال الدين (12) محمد بن عمر (13) بن محمد (14) بن علي (15) بن غانم (16) بن محمد (17) ابن مفرج (18) بن محمد (19) بن يحيي (20) بن عبيدة (21) بن حمزة (22) ابن بركات (23) بن عبد الله (24) بن شعيب (25) بن شيبة (26) بن جبير (27) ابن شيبة (28) الصحابي رضي الله عنه وعنهم.

وقد ذكر كثير من علماء الحديث وجود بني شيبة في مشيخة سدانة الكعبة في عصور مختلفة في مقام المعجزة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وقد تطلّبت الإحاطة بجميع من ولي هاته المشيخة الشريفة من فروع هاته السلسلة الطاهرة إلى أنْ أتاحت لي الأقدار شجرة حرّرها أحد علماء مكّة بسبب إرادة من السلطان عبد الحميد تحوي تواريخ أغلبهم وقد ساعدتني بها أيادي فرعهم

---

(1) ابن حجر : أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني المصري القاهري محدث وفقيه ومؤرخ شافعي المذهب. ولد بمصر سنة 1372/773م. وتوفي سنة 1449/852م. (راجع دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الفرنسية الجديدة ج 3 ص 779–802) من تآليفه فتح الباري في شرح صحيح البخاري — ط. بولاق 1300. والأصابة في تمييز الصحابة. ط. القاهرة : 1323–1325. وتهذيب التهذيب — ط. حيدراباد : 1325.

(2) الحطاب : هـ محمد بن محمد بن عبد الرحمان الرعيني أبو عبد المعروف بالحطاب وهو فقيه مالكي من علماء المتصوفة. أصله من المغرب. ولد سنة 1497/902 بمكة وبها اشتهر وتوفي بطرابلس الغرب سنة 1547/954. من كتبه : قرة العين بشرح ورقات إمام الحرمين —خ. في الأصول. وتحرير الكلام في مسائل الالتزام — ط. وهداية السالك المحتاج — خ. في مناسك الحج. وتفريح القلوب بالخصال المكفرة لما تقدم وما تأخر من الذنوب — ط. ومواهب الجليل في شرح مختصر خليل — ط. في الفقه المالكي. وشرح نظم نظائر رسالة القيرواني لابن غازي — خ. ورسالة في استخراج أوقات الصلاة بالأعمال الفلكية بلا آلة — خ. وجزآن في اللغة. وتحرير الكلام — خ. فقه. (أنظر : الزركلي : الأعلام. ج 7 — ص : 286).

الجليل سيدي زين العابدين بن عبد الله بن محمد بن زين العابدين حين شرّف البلاد التونسية ونَالَ بيتي من زيارته أكرم مزيّة .

وحيث إنّ فحول العلماء من أئمّة الحديث قارنوا ذكر أفراد هذا البيت بالمعجزة النبوية فقد لاحظت من الفتح الإلهي خلوص نسب هؤلاء الشيوخ ما كانوا في سدانة الكعبة حيث إنّ الله جعلها في بني أبي طلحة . وبذلك كان هذا النسب محقّقا بالطريق الشرعي . وهذه خصيصية لبني شيبة لا في مقام المعجزة النبوية شاهد نسبهم الكريم باستمرارهم في رفعة مشيخة سدنة كعبة الإسلام أدام الله بناء فروعهم على الدوام] (1) .

[تأهّب المؤلّف لمغادرة مكّة المكرّمة]

وقد تأخّر خروج القوافل من مكّة بسبب حدوث ولاية الشريف مع طروء المرض في الحجّ . وعلى كلّ حال فقد ترافقت مع قاضي المدينة الجديد عصمت أفندي في قافلة زعيمها اسمه مساعد . وتعجّلنا الخروج إلى ظاهر مكّة . وقابلت الشريف عبد الله لأداء تحية الوداع . وسألني عمّن اكتريت منه من زعماء القوافل . فأحضره وأوصاه بي وصاية حمدت أثرها فكنت بحمد الله في ذلك السفر مستريحا آمنا . وقد قدّمت إلى شرفه أبياتا في التهنئة [110] بالعيد وفيها من حسن الاعتذار عن شأن الامارة / ما استجاده بلطف أدبه وهي قولي : [من بحر الكامل]

1 — مَوْلاَيَ أَنْتَ الْعَبْدَلِيُّ ذُو الْمَفْخَرِ
وَلَكَ الْهَنَا بِقُدُومِ عِيدٍ أَكْبَرِ

2 — فَابْشِرْ بِهِ وَأَعِدْ كُؤُوسَ الْبِشْرِ مِنْ
عَوْنِ الرَّفِيقِ أَخِي الْكَمَالِ الأَبْهَرِ

(1) هذا النص الوارد بين معقفين هو نص أقحمه المؤلف بالطرة من الصفحة رقم : 109 .

3 — إذْ باعْتضَادِ كُمَا تَرْقيَّةُ بَيْتكُمْ
يَزْدَادُ غَيْظُ الْحَاسِدِ المُتَنَكِّرِ
4 — وَأنَا أقُولُ مَقَالَ مُخْلِصِ وِدِّكُمْ
مُتَقَرِّبٍ بِكَ لِلنَّبِيِّ الأطْهَرِ
5 — يُمْنُ الإمَارَةِ لاَحَ أرْفَعَ خَاتَمٍ
بِهِ حِلْيَةٌ لِيَمِينِ بَيْتكُمُ السَّرِي
6 — وَإذَا تُنُوقِلَتِ الْحُلَى فَهْوَ الَّذِي
لَمْ يعد خنْصَرُكُمْ لِغَيْرِ البِنْصَرِ
7 — وَعُلاَكَ بِالشَّرَفِ الأثِيلِ مُرَقَّعٌ
وَعَلَيْكَ مِنْهُ وشَاحُ فَخْرٍ أعْطَرِ
8 — فَاهْنَأ فُدِيتَ وَدُمْ بَقِيتَ مُرَفَّعًا
تَخْتَالُ فِي حُلَلِ الْفَخَارِ الأكْبَرِ

[مراحل السفر إلى المدينة المنوّرة]

وهنا نذكر مراحل السفر إلى المدينة المنوّرة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

[فهد]

قد خرجنا من مكّة المشرّفة لزيارة المدينة المنوّرة صحبة البدو في قافلة تخصّنا في رفقة الترك عشية يوم السبت الثاني والعشرين من ذي الحجّة الحرام . ونزلنا خارج مكّة بفهد المعروف بالشهداء جوار ضريح سيّدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه . وأصبحنا هنالك ننتظر خروج القوافل . وزرنا ضريحه وبتنا ليلة ثانية وارتحلنا عند الزوال من يوم الاثنين الرابع والعشرين .

[وادي فاطمـة]

قد بلغناه في الساعة الثامنة من الليل ونزلنا على أحسن حالة وقضينا ليلتنا
[111] في أمان . وأصبحنا ننتظر قفول القوافل . غير أني اشتدّت بي حمّى / رأيت مبادئها عند الشهداء فارتحلنا منه في الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء الخامس والعشرين .

[عسفـان]

قد بلغناه في الساعة التاسعة من الليل وهذا الموضع هو المذكور في قول الشاعر : (من بحر مجزوء الخفيف)

1 — يَا خَلِيلَيَّ أَخْبِرَا عَنْ مَنْزِلٍ بِعَسَفَانَ

وبما أنّي في هاته المرحلة الطويلة كنت أعاني ألم الحمّى وحسبت أن المرحلة قريبة ندركها أوّل الليل لم ننزل عند الغروب . واستمرّ المسير والحمّى تساورني . ولمّا طال عليّ انتظار النزول وسألت عن المنزلة وسمّوها لي باسمها اعتراني اشمئزاز وفهمت من اسمها تثنية العسف حتّى نزلناها .

[محاولة أحد الصعاليك الاعتداء بالقتل على المؤلّف لنهب ماله]

وبمجرّد النزول بادرت إلى قصد التوضيء لأداء الصلاة فتعمدت الخروج من دائرة الشقاذف (كذا) وكان حولها بعض أتباعنا على المشعل فابتعدت على سمته وجلست للوضوء مستقبلا لمشاعل منزلتنا . وبينما كنت جالسا حدّثتني نفسي شبه أخبار أن هؤلاء البدو إن ظفروا بأحد الحجّاج مسكوا على فيه وأخذوه لصحرائهم لأخذ سلبه . وكان وقتئذ معي مبلغ من المال يستحيل استبقاء الحياة على حامله فخشيت أن يأتي عليّ أحد من وراء . ولمّا التفت رأيت صعلوكا ليس عليه غير إزار يستر العورة المغلّظة وهو أسود وبيده قطعة رافع بها على رأسي لينزل بها عند قيامي. فانقدح فيّ خاطر : « من فاز

برأسه فقد أفلح» . وأنزلت رأسي إلى أسفل وتقدّمت به إلى أمام حتّى تحققت خروجه من تحت ضربته . كلّ ذلك وظلام الليل هو الستار / . [112]

ولكن أعظم منه عناية اللطيف الستار وعند قيامي وأخذي في الفرار نزل بضربته فأصابت عضدي الأيمن وأيست من سلامة يدي وحمدت الله على سلامة الرأس . وناديت أتباعنا فما تلاقينا إلا والرجل لحق بروؤس الجبال . ورأيت أن السلامة منه غنيمة تلك الليال .

غير أني وقعت مغشيا عليّ عندما أحسست بوصولي للأمن فما أفقت إلاّ بعد حين وعدت ثانية من صداع ما أصابني . ولما أفقت ثانية وجدت (يدي) اخضرّت من انحباس الدم مع شدّة الانتفاخ . فطلبت بدوية من نساء تلك الحيّ لمداواتها وامتنعت من استعمال شيء ممّا أشاربه الناس عليّ . فلم يكن منها إلاّ أن أوقدت نارًا عظيمة وأتت بخرقة زرقاء أحكمت لفّها وقابلتها بالنار إلى أن اشتدّ حميها وصارت في أقصى درجات الحرارة . فباشرت زندي ولم تزل بها كذلك كلّما بردت أعادتها للنار إلى أن لان الانتفاخ بعد شدّة اليبس فجرت عليه بزيت ولفّته ومضت .

وكانت العافية بحمد الله على ذلك بحيث أنّي عند دخولي للمدينة المنوّرة لم يبق من أثر ذلك إلا القليل . ومع ذلك عوفيت من الحمّى بسبب الفجع الذي أصابني عند الضربة . وعلى كلّ حال نشكر الله سبحانه على كمال لطفه الخفي . ولولاه لما كان من المعقول للبدوي أنّه يجدني بين يديه منفردا ويبقى ينتظر قيامي إذ لا محلّ لهذا الانتظار إلاّ محض لطف العزيز الجبّار . ولذلك كنت بعد هاته الواقعة في سرور مع رفقائي وربّما أعددتها من مشاقّ الزيارة . ومن يخطب الحسناء لن يغلوه المهر وإلى ذلك أشرت في قصيدتي النبوية عند ذكر / المدينة المنوّرة بقولي : (من بحر الطويل) [113]

1 — وَقَدْ ذُقْتُ مِنْ لأْوَائِهَا فِي طَرِيقِهَا
مَذَاقًا لِنَفْسِي كَانَ أَحْلَى مَشَارِبَا

2 ـ لِعِلْمِي بِأنِّي قَدْ تَيَمَّمْتُ مَعْقِلاً
مَنِيعًا وَنَلْقَى دُونَ هَذَا مَصَاعِبَا

وَكَانَ تِرْحَالُنَا مِنْ هَاتِهِ الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي السَّاعَةِ الرابعة من يوم الاربعاء السادس والعشرين من الشهر .

قطيفة

قد بلغناها في الساعة التاسعة من ليلة الجمعة . فكان مسير المرحلة سبع عشرة ساعة . وارتحلنا في الساعة الرابعة من يوم الخميس السابع والعشرين .

رابغ

هذا ميقات إحرام أهل المدينة المنورة ، وكلّ من جاء على طريقها . وقد بلغناها في الساعة التاسعة من ليلة الجمعة وأصبحنا هنالك بين نخيلها . ودخلنا سوقها المملوء بصعاليك البدو المتوحّشين يبيعون فيه الدقيق والشعير والسمن والدجاج والبيض والتمر وبعض مصنوعات الخسف والجلد .

وعادة الراحلين إذا وصلوا إلى هذا الموضع أخذوا فيه راحة لوجود شبه عمران واستقوا منه واشتروا علف الإبل وسقوها . وربّما طبخ النازلون إن طال المقام . وقد ارتحلنا في الساعة السابعة من يوم الجمعة الثامن والعشرين

مستورة

بلغناها في الساعة السابعة من ليلة السبت . فكان مسير المرحلة اثنتي عشرة
[114] ساعة . وارتحلنا في الساعة الرابعة من يوم السبت / التاسع والعشرين .

بئر بلحسن

هو موضع بئر فوّارة كثيرة الماء حسنة الموقع يقع النزول إليها للاستقاء بحدو الإبل . وقد بلغناه في الساعة الحادية عشر من يوم الأحد وارتحلنا في الساعة السابعة من ليلة الإثنين .

بئر خــراص

لما كانت هذه البئر عند قرب القراء والجديدة مواضع سكان أهل الإبل من أصحاب القوافل يطلبون الراحة فيها وربما ذهب بعض الجمالين لعيادة أهله وإنما كان قليل الأمن ذلك لأنّ البدو أصحاب الإبل إن كانت للواحد منهم عداوة مع بعض حيّه يترصّدون وصول قافلته ليأتوا عليها حتّى يوقعوه بذلك في شغب . ولذلك كان أحسن الجمالين من يعرف بمسالمة أهل حيّه ليأمن من يصاحبه في الركوب . وقد يكون الجمّال نفسه سبب هلاك القوم . وهذا في الغالب ينشأ عن سوء معاملة بعض الناس للجمّال في أثناء الطريق فيريد الجمّال منه الانتقام بيد قومه فيقع ذلك . فالعاقل من سالمهم وأحسن إليهم سيّما في هاته المواقع الوعرة لأنّهم فيها تعتري رؤوسهم خنزوانة (1) البداوة والمنعة التي لا تنالهم معها الدولة . وهذا أمر عظيم يلزم أن يلاحظه المسافر بينهم .

وقد وصلنا لهذا البئر في الساعة التاسعة من يوم الاثنين غرّة المحرّم . وتوجّه زعيم القافلة ليأتي من أهله بما شاء وتبعه على ذلك أكثر الجمّالين وأتوا لنا ببعض أهل قبيلهم ليحرسونا فأصبحنا في مكان خوف يحيط بنا حرّاس لا نعرف حالهم معنا والنفوس / ذاهبة فيهم إلى كلّ مذهب ممكن [115]
إلى أن رجع إلينا أولئك الصعاليك فارتحلنا في الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء الثاني من المحرّم الحرام لسنة ثلاثمائة وألف .

بئــر قريــش

بلغناه في الساعة الثامنة من ليلة الأربعاء بعد أن مررنا بين جبال تلك الجهات المستطيلة . وارتحلنا يوم الأربعاء فسرنا يحدونا حادي الاشتياق إلى لذيذ التلاقي نستشرف بإعمال الأحداق إلى طيبة دار هجرة المصطفى ومأوى

(1) الخنزوانة : الكبــر .

آل بيته وأنصاره أهل الوفاء . وأقبل علينا الليل ونحن بين مواقع النخيل إلى أن امتنّ الله علينا بالدخول إليها بعد أن اعترضنا من أهلها من وجدناهم من كرام أهاليها .

وأكملنا ليلتنا على فراش الأمن نائمين وبمزيد الطرب هائمين واستيقظت بعد الفجر فوجدت الماء اللازم للاغتسال . فنزعت أثواب التعب وتجمّلت للزيارة التي قرّت بها العين صباح يوم الخميس الرابع من المحرم الحرام والحمد لله على ما أولانا به من مزيد الإنعام بزيارة نبيّه عليه الصلاة والسلام .

المدينة المنوّرة

هذه طيبة محلّ هجرة سيّد المرسلين ومسكن الذين آووه ونصروه من الأنصار والمهاجرين وأحبّ البلاد لربّ العالمين وبها أشرف بقاع الأرض بمضجع سيّد الأوّلين والآخرين عليه أفضل صلاة المصلّين وأزكى سلام المسلمين . دخلتها آخر ليلة الخميس الرابع من المحرّم الحرام ونزلت في منزل العالم المحدّث الشيخ علي الوتري (1) .

وأدركت صلاة الصبح / بالمسجد النبوي وأدركت بتلك الزيارة الحافلة [116] تعطير المناسم ومن حجّ ولم يزر فقد جفا أبا القاسم . ورأيت من فضل المواجهة والسلام ما تردّد سرّه على ممرّ الأيّام وَبَعُدَ الحصول على شرف الزيارة اجتمعت هنالك بأفاضل العلماء ممّن يأتي ذكرهم (2) . ولازمت المجاورة بقدر الاستطاعة وزرت ضريح إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه وغيره من مزارات المدينة . ورأيت من حسن أخلاق أهل المدينة ولطف شمائلهم ما اقتضاه الأدب في جوارهم لذلك المقام .

---

(1) انظر ترجمته في الجزء الثالث من الرحلة الحجازية ص 84 وما بعدها .

(2) يأتي ذكرهم في الجزء الثالث من الرحلة الحجازية .

أمّا ما يتعلّق بالحجرة الشريفة والمسجد النبويّ في أصل وضعه ومواقف النبيّ صلّى الله عليه وسلّم منه ومواقف كبار الصحابة فيه وما استحدث في توسعته فقد اختصّ بتآليف لا تشذّ على طالب وفي ضمنها تاريخ الإسلام في تلك المدينة . ولم يزل العلماء يجاورون بها . وبها خزائن في كتب مهمّة عمومية .

وحيث إنّي في وجيز مدّة إقامتي بالمدينة لم أشتغل إلاّ بما تقتضيه الزيارة لذلك المقام وجعلت فاضل الوقت في أخذ الهداية عن الشيخ حبيب الرحمان الهندي فلم يكن لي هنالك إلاّ ما سنذكره من الذين اجتمعت بهم من فضلاء الرجال . وقد واجهت سيّد المرسلين بقصيدة أنشدتها في موقف شبّاك الحجرة الشريفة نرجو من الله قبولها وهي قولي : (من بحر الطويل)

1 ــ إلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ أَحْدُو النَّجَائِبَا
وَأُلْقِي عَصَا التَّسْيَارِ إِذْ كُنْتُ حَائِبَا (1)

2 ــ فَقَدْ جِئْتُهُ مِنْ شَاسِعٍ لِزِيَارَةٍ
بِهَا أَرْتَجِي أَمْنًا يَزِينُ الرَّغَائِبَا

3 ــ عَلَى أَنَّنِي خَاوِي الْوِطَابِ وَلَيْسَ لِي
117 زَهِيدٌ مِنَ الأَعْمَالِ أَلْقَاهُ صَائِبَا /

4 ــ سِوَى أَنَّنِي يَمَّمْتُ أَكْرَمَ مُرْسَلٍ
وَأَعْظَمَ مَنْ بِالدِّينِ عَمَّ الْجَوَانِبَا

5 ــ فَجِئْتُ بِلاَ زَادٍ لِعِلْمِي بِفَضْلِهِ
لأَنَّ الأَيَادِي مِنْهُ فَاقَتْ مَوَاهِبَا

6 ــ وَفَارَقْتُ آبَائِي وَأَبْنَائِي الأُولَى
بِأَرْضِي وَأَهْلِي قَدْ أَوَى غَائِبَا (2)

---

(1) النجيبة : ج النجائب : الناقة السريعة ــ حاب يحوب حوبا بكذا : اثم وأذنب .
(2) أوى يأوي مأواة له : رق له .

7 ـ وَفَارَقْتُ مَـنْ آلَفْـتُ مِنْهُمْ عِشْرَةً
فَكُنْتُ إِلَى خَيْـرِ الْبَرِيَّـةِ آئِـبًا

8 ـ رَكِـبْتُ إِلَيْهِ الْعِيسَ بَيْنَ مَهَامِه
وَيَمَّمْتُ مَا أَمَّلْتُ مُذْ كُنْتُ وَاذِبًا

9 ـ وَأَقْصَى مُرَادِي أَنْ أَفُـوزَ بِطِيبَةَ
لِـذَا طِبْتُ مِمَّا سِمْتُ مِنْـهُ الْمَتَاعِبَا

10 ـ وَقَدْ ذُقْتُ مِـنْ لأوَائِهـَا فِـي طَرِيقِـهَا
مَذَاقًا لِنَفْسِـي كَانَ أَحْلَى مَشَارِبَا

11 ـ وَإِنِّـي لَـرَاضٍ صَابِـرٌ مُـتَـلَـذِّذٌ
بِمَا نَلْتَقِي فِي جَنْب مَنْ عَزَّ جَانِـبًا

12 ـ لِعِلْمِـي بِأَنِّـي قَدْ تَيَمَّمْتُ مَعْقَلاً
مَنِيعًـا وَنَلْقَى دُونَ هَذَا مَتَاعِبَا

13 ـ فَفِـي ذِمَّةِ الْمُخْتَار سَيْرِي وَمَرْجِعِـي
وَإِكْـرَامُ نُزْلِـي إِنْ حَضَرْتُ الْمَوَاكِـبَا

14 ـ وَمِنْ فَضْلِ رَبِّـي أَنَّنِـي كُنْتُ عِنْدَ ذَا
أُحِـبُّ بِقَـاعَ الأَرْضِ لِلَّـهِ طَالِبًا

15 ـ وَفِـي يَـوْمِ فَـوْزِي بِالْوِصَالِ الَّذِي بِهِ
اسْتَقَـرَّ هَنَـائِـي لَسْتُ أَرْجِعُ خَائِـبًا

16 ـ فَيَـا حَبَّـذَا مَـا اللَّـهُ أَسْعَدَنِـي بِـهِ
فَأَبْلَغَنِـي خَيْـرَ الْمَغَانِـمِ دَائِـبًا

17 ـ بَلَغْتُ بِفَضْلِ اللَّـهِ حَضْرَةَ خَيْرِ مَنْ
لِسَاحَتِـهِ يَحْدُو الْوَحِيدُ الرَّكَائِـبَا

18 — هُوَ المُصْطَفَى المُخْتَارُ من آلِ هَاشِمٍ
سِرَاجُ الهُدَى مَنْ جاءَهُ أمَّ لاَحِبًا (1)

19 — هُوَ العُرْوَةُ الوُثْقَى هوَ الكوْكَبُ الَّذِي
بِآفَاقِ دِينِ اللَّهِ قَدْ لاَحَ ثَاقِبًا

20 — بِهِ قَدْ هَدَى اللَّهُ العِبَادَ لِدِينِهِ
وَأجْلَى لَهُ بِالمُعْجِزَاتِ الغَيَاهِبَا

21 — وَأسْرَى بِهِ فِي الجَهْرِ مُخْتَرِقًا لَهُ
مِنَ الحُجُبِ الشَّمَّاءِ مَا كَانَ حَاجِبَا

22 — وَأوْحَى لَهُ مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ ما بِهِ
غَدَا لِذُيُولِ الفَضْلِ فِي الخلق ساحِبَا

23 — فَكَانَ مِنَ الرحْمَانِ أعْظَمَ رَحْمَةٍ
يُجِيبُ بِهِ لِلْعَالَمِينَ المَطَالِبا

24 — وَمَا رَحْمَةٌ فِي الكَوْنِ إلاَّ وَبَابُهُ
لَهَا المَدْخَلَ الأسْنَى لمنْ جاءَ رَاغِبَا [118]

25 — فَيَا خَيْرَ مَنْ يَهْدِي بِهِ اللهُ لِلْهُدَى
وَيُنْقِذُ مِنْ خَطْبٍ وَيُسْدِي المَوَاهِبَا

26 — بِبَابِكَ قَدْ أنْزَلْتُ رِجْلَ مَقَاصِدِي
وَمَنْ جَاءَ رَاجٍ نَالَ مِنْكَ المَكَاسِبَا

27 — وَقَدْ جِئْتُ دَاعٍ مُسْتَجِيرًا وَرَاجِيًا
فُيُوضًا مِنَ الرَّحْمَانِ تَصْفُو مَشَارِبَا (2)

28 — وَأرْجُو لِقَلْبِي مِنْ مَحَبَّتِكَ المُنَى
لأعْمَلَ مَا يُرْضِيكَ قَلْبًا وَقَالِبَا

(1) اللاحب : الطريق الواضح .
(2) كذا في النص : وقد جئت داع والتركيب يقتضي : وقد جئت داعيا .

29 ـ فَتَنَوَّرْ بِنُورِ الحُبِّ قَلْبِي وَصَفِّهِ
بِأَحْسَنِ تَطْهِيرٍ يَسُدُّ الشَّوَائِبَا

30 ـ بِفَضْلِكَ فَاسْتَخْلِصْهُ لِلَّهِ كَيْ يَرَى
مَحَلًّا لِآيَاتِ التَّجَلِّي مُرَاقِبَا

31 ـ وَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلاً فَإِنَّكَ شَافِعٌ
وَهَذَا وُقُوفِي حَوْلَ بَابِكَ طَالِبَا

32 ـ وَمِنْ خَالِقِي أَرْجُو بِجَاهِكَ حَاجَتِي
وَرَبُّكَ رَبُّ الْفَضْلِ يُسْدِي الْمَآرِبَا

33 ـ فَيَا خَالِقِي جُدْ لِي بِمُخْلِصِ تَوْبَةٍ
وَإِصْلَاحِ حَالِي بِالْعِبَادَةِ دَائِبَا

34 ـ وَجُدْ لِي بِفَتْحِ العَارِفِينَ تَفَضُّلاً
فَقَدْ تَاقَ قَلْبِي لِلتَّعَرُّفِ رَاغِبَا

35 ـ وَحُطْنِي مِنْ زَيْغٍ بِفَضْلِكَ وَاحْمِنِي
مِنَ الْكَيْدِ إِنِّي أَسْتَقِيلُ الْمَعَاطِبَا

36 ـ فَإِنِّي ضَعِيفٌ لَائِذٌ بِكَ سَيِّدِي
وَإِنَّكَ حَسْبِي لِلَّذِي جَاءَ شَاغِبَا

37 ـ وَأَرْجُو بِكَ اللَّهُمَّ فِي الدِّينِ وَالدُّنَا
أَمَانًا وَثِيقًا مِنْكَ زَانَ العَوَاقِبَا

38 ـ به خَفْضُ عَيْشِي فِي حَيَاتِي وَرَاحَتِي
عَلَى وِفْقِ مَا يُرْضِيكَ تَصْفُو مَشَارِبَا

39 ـ وَأَصْلِحْ إِلَاهِي مِنْكَ ذُرِّيَّتِي بِمَا
بِهِ عَمَلِي يَبْقَى وَإِنْ كُنْتُ آئِبَا

40 — وَوَفِّرْ لآبَائِي جَزَاءً مُضَاعَفًا
مِنَ الخَيْرِ وَارْزُقْنِي رِضَاهُمْ وَاهِبًا

41 — وَأَجْزِلْ لأشْيَاخِي وَإِخْوَانِي الأُولَى
هَدَوْنِي جَزَاءً عَمَّ مِنْهُمْ جَوَانِبًا

42 — وَكُنْ لِلأُلَى قَدْ أَحْسَنُوا لِي مُجْزِيًا
بِمَا أَمَّلُوا وَاسْعِفْ بِفَضْلِكَ طَالِبًا

43 — فَيَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ هَذَا تَوَسُّلِي
لَدَيْكَ وَسُؤْلِي حَيْثُ جِئْتُكَ رَاغِبًا

44 — بِرَحْمَتِكَ العُظْمَى مِنَ اللَّهِ أَرْتَجِي
إجَابَةَ مَا أَدْعُو بِهِ اليَوْمَ دَائِبًا

45 — وَإِنِّي لَرَاجٍ مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ
لِضَيْفٍ أَتَى عَلْيَاكَ يَرْجُو المَوَاهِبَا / [119]

46 — عَلَيْكَ صَلاَةُ اللَّهِ ثُمَّ سَلاَمُهُ
وَصَحْبُكَ مَعَ آلٍ تَسَامَوْا مَرَاتِبَا

[موكب قدوم المحمل الشريف إلى المدينة المنوّرة]

وأعظم المواكب في المدينة المنوّرة يوم قدوم المحمل الشريف صحبة الركب الشامي يخرج فيه جميع المتوظّفين والرؤساء والأعيان والعامّة إلى ظاهر المدينة لتلقّي المحمل الشريف . وقد كان اجتماع الخاصّة في بيت هنالك حضرته بالاستدعاء فكان به شيخ الحرم والقاضي والمفتي وكبار الأئمّة . وقد اتّفق في هذا المجلس المجتمع لانتظار قدوم المحمل أنّ شَيْخَ الحرم عرض عليّ استعمال التدخين وقد التزمت في جميع سفري بالبلاد الأورباوية والبلاد التركية والبلاد الحجازية أن لا أغيّر شيئًا من عادتي . وأنا أكره

التدخين والنشوق فلم أستعمل شيئا من ذلك لأجل . وكنت أعتذر بما لا يحتاج إلى إقامة برهان بتعلّل بأني أكره ذلك .

وقد بلغني عن أحد الشيوخ التونسيين بالآستانة أنه قبل في مجلس مشيخة الإسلام استعمال التدخين فحصل له منه سعال في ذلك المجلس اختلّ به أدب الاجتماع بسبب تحمّل ما لم يقع به الاعتياد . ولكنّي لمّا اعتذرت لشيخ الحرم ألحّ عليّ المفتي في استعمال النشوق واحتجّ عليّ باستعمال التونسيين له وأفاض الجمع في تعليل حسن الاستعمال والتطلّب لوجه ما أنا عليه من عدم استعمال شيء من ذلك . وعند ذلك أظهرت لهم ما يخالجني كثيرًا في سائر بلاد الترك وبلاد الحجاز حيث رأيت التدخين يستعمله النساء والولدان كما يستعمله الرجال من غير أدنى تستّر فرأيت أن مصيبة البلاد الشرقية والتركية من التدخين أعظم من بلاد أوربا ورأيت أنّ ما عليه التونسيون من كون الصغير لا يستعمل التدخين بمحضر الكبير والجاهل لا يستعمله بمحضر العالم بل إن ملوك تونس لا يستعملونه في مجلس علمائهم حتّى إن محمّد باشا باي الرشيد كان / يسامر العلماء ويخرج لاستعمال التدخين وعندما [120]
طلبوا البقاء منه معهم على تدخينه قال إنه يفعل ذلك لتعظيم جانب العلم فلا يخشى بذلك ضررا .

وفي هاته الأحوال التونسية ما يدلّ كلّ جاهل على أنّ التدخين ليس حكمه في الشرع كحكم أكل الخبز وشرب الماء والخلاف الشرعي فيه مقرّر ولكن حالة البلاد التركية والحجاز في عدم التستّر منه لا تفيد شيئًا إن لم نقل إنّها قاضية بأنّه من أنواع المباح بإجماع . وليس كذلك . وقد استحسن تقريري جميع الحاضرين . وحيث إنّهم يسمّون الدخان بالتتن وهو لا محالة نتن قلت : (من بحر الرمل)

1 — إنَّ أهْلَ الشَّرْقِ طُرًّا وَلَعُوا
بِدُخَانٍ ذِي البُخَارِ النَّتِنَ

2 — وَاكْتَفَوا مِنْ نُقْطَةٍ زِيدَتْ عَلَى
نَتِنٍ لِسَتْرِهِ بِالتَّتِنِ (1)

[مصاحبة المؤلّف للركب الشامي في طريق الإيّاب]

وبما رأيت عليه انتظام الركب الشامي مع فشوّ المرض وخطر طريق البدو اخترت مصاحبة الركب الشامي للإيّاب وترافقت مع قاضي المدينة السابق حيث أراد الرجوع بعد أن استكمل سنة وظيفه . وتصاحبت لذلك مع عبد الباقي باي وسيأتي لجميع هؤلاء ذكر (2) .

وأخذت من المدينة ما يقتضيه سفر الصحراء من ضروري الطعام واللباس وأخذنا طبّاخا وخادما على وجه الشركة . ولكني لم أر من وافقني على استحسان ذلك السفر الطويل سوى الأفندي عبد الجليل برّاده (3) . وأكثر الناس ينسبون خدمة الركب الشامي إلى سوء المعاملة مع طول السفر ولكني بعد سفري رأيت الأمر على خلاف ما عرف به غير العارفين ولا سبب لسوء المعاملة إلاّ عدم المجاملة . والإحسان يقود إلى الطاعة كلّ إنسان والله وليّ الامتنان .

وعندما أزمعت على السفر حضر عندي أحد مدرّسي الحرم الشريف
[121] الشيخ محمد بن خليفة وأصله من عرب الواسطة وقرأ أوّلا بتونس ثمّ / جاور بالمدينة ونسّني مدّة إقامتي هنالك وأخذ منّي قصيدة المواجهة فقرظها بقوله :

(من بحر الطويل)

1 — تَتَبَّعْتُ مِنْ فَنِّ البَدِيعِ مَذَاهِبَا
وَأَمْسَيْتُ فِي نَهْجِ البَلَاغَةِ ذَاهِبَا

2 — وَخُضْتُ لُجَاجَاتِ الْمَعَانِي مُفَتِّشَا
رَقَائِقَهَا حَتَّى انْتَخَبْتُ عَجَائِبَا

---

(1) التتن : التبغ ومعناه بالتركية دخان .

(2) انظر الجزء الثالث من الرحلة الحجازية .

(3) انظر ترجمته في الجزء الثالث من الرحلة الحجازية : ص 75—84 .

3 — فَأَوْدَعْتُهَا بَطْنَ الزُّجَاجَةِ بَعْدَ مَا
مَلأْتُ لأَجْلِ الزَّادِ مِنْهَا حَقَائِبَا

4 — بِهَا بَزَغَتْ شَمْسُ المَعَارِفِ منك إِذْ
رَسَمْتَ بِأُفْقِ النَّيِّرَاتِ كَوَاكِبَا

5 — وَأَبْرَزْتَ مِنْ بَحْرِ الطَّوِيلِ خَرِيدَةً
بِهَا أَنْشَبَ الذَّوْقُ السَّلِيمُ مَخَالِبَا

6 — فَجِئْتَ إِذْ أَحْيَيْتَ قَلْبِي بِحُسْنِهَا
وَجُوزِيتَ إِذْ أَدَّيْتَ مَا كَانَ أَوْجَبَا

7 — مَدَحْتَ بِهَا المُخْتَارَ حِينَ قَصَدْتَهُ
فَحُزْتَ بِمَدْحِ الهَاشِمِيِّ المَنَاصِبَا

8 — تَقَاصَرَ عَنْهَا الفِكْرُ وَاللَّهُ شَاهِدٌ
بِعَجْزِي وَلَوْ حَرَّرْتُ فِيكُمْ مَنَاقِبَا

9 — فَلاَ فُضَّ ذَاكَ الثَّغْرُ مِنْكَ وَلَمْ يَزَلْ
لِسَانُكَ فِي نَظْمِ الجَوَاهِرِ رَاطِبَا

10 — وَلاَ زَالَ منكَ الصَّدْرُ يَحْوِي ذَخَائِرًا
وَفِكْرُكَ لِلشِّعْرِ المُذَهَّبِ جَالِبَا

11 — وَدَامَتْ لَكَ الأَيَّامُ تُبْدِي ابْتِسَامَهَا
وَلَيْسَ يُرِيكَ الدَّهْرُ إِلاَّ مَكَاسِبَا

12 — وَدُمْتَ مُصَانًا بِالعِنَايَةِ مِثْلَ مَا
تَدُومُ مُعَافًا لاَ عَدِمْتُكَ صَاحِبَا

13 — وَدَامَتْ لَكَ الأَفْرَاحُ وَالبِشْرُ وَالهَنَا
وَدُمْتَ لأَذْيَالِ السَّعَادَةِ سَاحِبَا

14 ــ وَحُصِّنْتَ بِاللُّطْفِ الخَفِيِّ وَلَمْ يَزَلْ
لأعْدَائِكَ الحُسَّادِ قَهْرُكَ غَالِبَا
15 ــ وَآخِرُ سُؤْلِي أنْ يَدُومَ اتِّصَالُنَا
وَلاَ زِلْتَ لِي طُولَ الزَّمَانِ مُكَاتِبَا

[بئر عثمان]

هذه أوّل مرحلة تنقّل إليها ركاب المحمل الشريف خرجنا إليها على الأحمرة ووصلناها بعد العصر بعد أن سبقتنا أمتعتنا وما تستتبعه وذلك عشية يوم الاثنين السادس عشر من المحرّم الحرام فإذا بالخيام مضروبة / على اختلاف [122] ألوانها وأوضاعها سموطا والإبل مصطفّة حولها والناس في ارتجاج فكان أمير الركب سعيد باشا وهو رجل شهم حازم يحسن اللسان العربي بسبب كثرة إمرته على الحجّ في نحو العشرين سنة . وهو صاحب الإمارة العسكرية هنالك وأمين الصرّة في هاته السنة هو أصف باشا وهو رجل خيّر ولي قيادة كثير من أعمال الترك . وكان في هاته السنة مدير البلدية بالسكودار (كذا) وهو في رتبة بيلاد باي (كذا) من بيت أصيل كان جدّه تبرلنلي علي باشا والي يانيه حتّى ادّعى فيها الاستقلال وثار على السلطان محمود .

[خبر الصرّة المجعولة لإقامة شعائر الحرمين]

واسم الصرّة عبارة عن المال الخارج من دار الخلافة لإقامة شعائر الحرمين الشريفين من شموع وزيت وقناديل ولازم الإيقاد والفرش وجراية المستحقّين من أهلها وعوائد جميع أهل الأراضي الحجازية في أثناء مرور الركب .

أخبرني أمين الصرة أنّ مبلغ ذلك نحو خمسة ملايين ونصف قروش . وذلك نحو إحدى عشرة مائة ألف فرنك من خصوص المال عدا القفاطين والعوائد وأدوات الإيقاد وغيره . ومجموع مبلغ الصادر نحو المليونين ونصف

من الفرنكات . والقفاطين تخرج لجميع خطباء الأراضي الحجازية ولخصوص شريف مكّة قفطان مجوهر تبلغ قيمته نحو الستين ألف قرش أي اثني عشر ألف فرنك .

أمّا مرتّب أمين الصرّة فهو ستّة آلاف ليرة يقوم منها بجميع لوازم أبّهته من أتباع ومراكب وخيام ومطابخ وغير ذلك . أمّا وقف السلطان سليم فقد جعل فيه ستمائة قرش لأمين الصرّة فقط ولذلك لم تزل عادة السلاطين عند حضور خروج المحمل الشريف يعطون بأيديهم لأمين الصرّة ستّمائة قرش من ريع الوقف على أنّها أجر الواقف . ولذلك شأن عظيم وآخذها يتبرّك بحفظها حيث إنّها من ريع الوقف / السلطاني ووقع تلقّيها من خصوص اليد [123] السلطانية أمّا مخروج مال الصرّة كلّها فهو من نظارة الأوقاف بالدولة العلية .

[لطيفـــة]

بلغني عن الشريف المشير الشيخ السيد سلمان الجيلي أحد ذرّية الشيخ عبد القادر نقيب الأشراف ونقيب زاوية جدّه ببغداد أنّه لمّا قدم إلى الحجّ منذ ثلاثة أعوام وقد بلغت قيمة ما أهداه للسلطان من الخيل والمجوهرات إلى المليونين فرنكا . وكان مع الركب فسأل أمين الصرّة عن مبلغ مصاريف الدولة العلية على الحرمين الشريفين ولمّا علمه استصغره جدّا وقال له : إنّ خطباء المسلمين في جميع الدنيا ينادون بأنّ السلطان خادم الحرمين الشريفين وهذا المبلغ إذا اعتبرنا منه مصاريف الركب ونظرنا لخصوص ما ينال أهالي الحرمين مع كون أوقاف المسلمين على الحرمين من الممالك العثمانية بيد نظارة الأوقاف لا نجد فيه نسبة معتبرة وإني أنا بموجب نظارتي على زاوية جدّي في بغداد يصلني كلّ سنة من زيارات أهل الأقطار مبلغ أكثر ممّا يصل للحرمين من الدولة فضلا عن مداخيل وقف الزاوية في سائر الجهات وهي أيضا في نفسها أكثر من هذا المبلغ تصل إلى النقباء والعلماء والمجاورين وتصرف في الإيقاد والتحصير والإطعام العامّ على ممرّ الأيّام .

[الخبر عن السيّد سلمان وآله رضي الله عنهم]

هُوَ سَلْمَانُ بنُ عليّ بن سليمان بن زين الدين الكيلاني تَوَلَّى النقابة بعد وفاة والده . وكدّر صفوه فيها أحد أبناء أعمامه السيد الطاهر بن يوسف
[124] ابن حسين بن عيسى بن زين الدين الكيلاني . وذلك أنّ جدّه حسين / كان مُتَوَلِّيًا النقابة قبل أخيه علي ولولده يوسف رغبة في السياحة فدخل بلد حَيْدَرْآبَادَ من البلاد الهندية فتلقّاه فيها النوّاب شمس الأمراء وأكرم نزله ورغّبه في الإقامة عنده محبّة في جدّه وزوّجه بربيبة له فأقام في بيته متسيطرا على جميع زوايا القادرية التي في البلاد الهندية البالغة نحو الأربعين ألف زاوية تجيء إليه مداخيلها . وولد منها ولده السيد الطاهر .

وتوفّي النوّاب شمس الأمراء عن ولد صغير اسمه بهاء الدين فتولّى نوّابا عوض والده وتَصَرَّفُ الدولة للوزير مختار الملك . ثمّ تُوُفِّيَتْ أختُ بهاء الدين لأمّه والدة السيد الطاهر ثمّ تُوُفِّيَ والده السيّد يوسف فتبنّاه الوزير مختار الملك إلى أن بلغ أشدّه فخرج إلى بغداد منبت الآباء والأجداد . على حين انتشار الحرب بين الروس والدولة العلية . فدخل بغداد ومعه من الخدم والأموال ما يناسب وعلى رأسه تاج أقرباء الملك . فوجد نقابة زاوية الشيخ الجيلي بيد عمّ والده السيّد علي فأكرم نزله وأحلّه محلّ أبنائه . وتوفي فتولاّها ابنه السيّد سلمان . ومضى على تبجيل ابن عمّه .

وفي أثناء ذلك كان الوالي تقي الدين باشا يُسوّل للسيد الطاهر الخروج إلى الآستانة ويسهل له طَرِيقَ الوصول إلى أخذ النقابة . وأعانه على السفر فأكرم السلطان عبد الحميد نزله وأسكنه في منزله وأعطاه العطايا الفاخرة . وأقام عنده سنين تحرّك في آخرها على ابن عمّه وأخذ يسعى لنفسه ويشكو تصرّفات ابن عمّه حتّى اضطر السلطان للإرسال إلى السيد سلمان يستدعيه لزيارته . وقدم بهداياه وعطاياه فوجد ابن عمّه خصما له ودعاهما
[125] السلطان للصلح فاشتطّ السيّد / بإغراء المفسدين وأبى إلاّ عزل ابن عمّه

مع أنّه في رتبة مشير والدولة تراعي مقامه عند العرب عموما فلم يجب السلطان لعزله حتّى غضب السيد الطاهر وتجاسر في يوم الجمعة فطلع على المنبر قبل طلوع الإمام وشافه السلطان بالتظلّم من تصرّفه مع آل البيت وأخذ يستنجد غيرة المسلمين لهذا الظالم إلى غير ذلك ممّا لا محلّ له . فقبضوا عليه ومع ذلك بعناية الله لم ينله مكروه سوى أنّه سقط اعتباره .

فوجد ابن عمّه سبيلا لكيده وكان السيّد الطاهر يجلس كثيرا عند أمير اللواء العربي زروق التونسي في الآستانة فأمسكه في إحدى الليالي للمبيت عنده وأخبره أنّه تدخّل بينه وبين ابن عمّه بالصلح وفي وسط الليل حضر هنالك بعض أتباع السيّد سلمان فاستدعوا السيد الطاهر فدخل على ابن عمّه فوجده مغاضبا . وبعد أن هدّده أمر أتباعه بالقبض عليه وسجنه في بعض مخادع بيته . وتحرّرت مضبطة بأن السيّد الطاهر دخل على ابن عمّه ليقتله شهد فيها من شهد وأرسلت حالا للسلطان . وفي آخر الليل ورد الإذن بسفر السيّد الطاهر منفيّا إلى بلاد الإغريق . ولمّا لاقى رئيس الضبطية قال له : « كيف تريد أن تقتل ابن عمّك بفرد (مسدس) ذي سبعة أوجه (1) ؟ » فقال له : « إنّي لم يكن معي ولا موسى وعلى كلّ حال خرج بأمّ طمرة وأقام أيّاما هنالك بغير جراية ثمّ أجرت له الدولة دورو (2) في كلّ يوم . وقضى هنالك أكثر من سنة .

ثمّ إنّ السلطان أرسل إليه ألف ليرة وأذن له بالسفر إلى حيث شاء سوى الآستانة وبغداد . وأذن لابن عمّه بالإقامة في الآستانة حتّى لا تقع بسببهما فتنة في البلاد العربية . فأقام على شرفه وتوارد / أمواله هنالك وسافر السيّد الطاهر إلى كثير من الجهات ودخل [126]

(1) فرد ذو سبعة أوجه : تعبير تونسي المقصود منه : مسدس يطلق سبع رصاصات .
(2) كلمة : دورو : كلمة اسبانية تعنى قطعة من النقود تساوي خمسة فرنكات .

سلطنة فاس فأكرمه السلطان مولاي الحسن (1) وأعطاه تذكرة بختمه لسائر عمّاله وقفت عليها يأمرهم فيها بإكرامه . ونال منه العطايا السلطانية زيادة عمّا ناله من طوافه .

وطاف كثيرًا من جهات أوربا وذكر الوزير مصطفى بن اسماعيل (2) فيمن أحسن إليه . وقدم لتونس سنة ثلاث وثلاثمائة وألف وسنّه لا يتجاوز الخمس والثلاثين سنة . وتلقّاه الباي في باردو (3) وأكرمه هو وأبناءه . واستظافه الأمير الناصر باي (4) وهاداه ولاقى إكراما من أكثر الأعيان .

غير أنّ بعض المحترفين بالطرق من المنتسبين للطريقة القادرية أحسّوا من أمره ونقلوا عدم صحّة نسبته فتغيّر عليه الحال أوّلاً عند من تذريهم الرياح وآذاه من لا يرقبون في الله إلاً وَذِمَّةً . وعلى كلّ حال هو شابّ لطيف الأخلاق أبعد الناس عن التصنّع والتكلّف محبّ للخلاعة لا يبالي بحاله ولا يمسك ما بيده من ماله . وكلّما قيل له في أمر نسبه يقول : « ما كان قصدي التفاخر بالنسب الجيلي وهل الجيلي إلاّ من أولياء الله ولئن أتفاخر بجدّي الحسن أو علي بن أبي طالب أو الشرف النبويّ أحبُّ إليّ » .

ولقد أبدع العالم الأديب الفاضل الشيخ محمّد جعيط التجاني طريقة إذ قال فيه : (من بحر الكامل)

1 — يَا طَاهِرَ الحَسَبِ العَظِيمِ وَطَاهِرَ الـ
ـنَّسَبِ الَّذِي قَدْ جَلَّ عَنْ تَبْيِينِ

(1) هو مولاي الحسن بن أحمد : سلطان المغرب وهو الرابع عشر من بيت الحسني أشراف سجلماسة وهم يلقبون أيضا بأشراف فلالي أو العلوية . بويع له بالسلطنة (1873—1894) . كان ورعا حكيم السياسة حسن الادارة . أهتم في تدريب الجيش على أحدث الطرق والأنظمة وفي المشاريع العمرانية والتعليمية .

(2) انظر ترجمته أعلاه : صفحة 48 : التعليق .

(3) باردو اسم ضاحية شمالية لتونس الحاضرة به كان قصر أمراء البيت الحسيني وأصبح اليوم مقر مجلس الأمة منذ إعلان الجمهورية التونسية في 25 جويلية 1957 .

(4) انظر ترجمته أعلاه : صفحة : 56 التعليق .

2 ـ فـي وَجْهِكُمْ نُورٌ يُحَقِّقُ نِسْبَةً
لَكُمُ إِلَى الْجِيلِي مُحْيِي الدِّينِ

أمّا السيّد سلمان فبعد إقامته مدّة بالآستانة في عظمة شرفه ونعومة ترفه تخلّص بالرجوع إلى بغداد بعد تقلّد أعظم النياشين العثمانية والمراتب العلمية ممّا هو به جدير لفضله الشهير / . [127]

ملاحظة [تتعلّق بأمر العلم في الحجاز والشام]

لقد جعبت كلّ العجب من أمر العلم في الحجاز والشام مع وجود فحول العلماء هنالك . كلّهم يقرىء العلوم الدينية والآلية احتسابا لربّه وليس لواحد منهم معاش عن ذلك من أموال بيت المسلمين ولا من إدارة الأوقاف بحيث إنّه لا جراية على التدريس ولا للمدرّس أصلا مع أنّ صنف العلماء لا محالة مستحق من بيت مال المسلمين وإنّ هذا الأمر عجيب بالنظر إلى أمثال هاته الجهات التي هي منبت أصل الدين . وذلك من أعظم ما ينبغي للدولة أن تهتمّ بشأنه . والأموال الصادرة إلى الحرمين هي مرتّبات أئمّة ومفتيين وحفظة وصدقات جزئية ربّما دخل فيها بعض العلماء .

[بيان عن المحمل الشريف]

ومن العوائد المستحسنة في الدولة العلية أنّ السلطان يحضر بنفسه لاحتفال خروج المحمل الشريف ويأخذ قياده بيده فيسلّمه ليد أمين الصرّة حتّى إذا حصل العود يسلّم أمين الصرّة ذلك القياد ليد السلطان .

والمحمل اسم لشبه هودج من خشب تحيط به أساترة خضر مطروزة بالفضّة والذهب أفخر طرز تحمل على أفخر الجمال تحت قيادة أمين الصرّة وإذا نزل الحجّ نصبت لها خيمة خضراء مطروز جميعها بالفضّة ولها رمّانتان من ذهب .

وتجتمع عليها الموسيقى العسكرية في كلّ مرحلة تعظيما له لشرف الانتساب إلى الحجّ الأكبر فهو بمنزلة راية الدولة التي تعتبرها الجنود والأهالي ويعظّمونها تعظيمهم للدولة نفسها ولذلك جميع المسلمين يُقبلون على تعظيم هذا المحمل تعظيمهم للموسم الأكبر .

وعند وصوله للحرم الشريف يتولّى قيادة زمام ناقته أكبر الباشوات والعلماء إلى أن يدخلوا به إلى مقرّه من الحرم النبويّ

[تفاصيل أحوال الركب الشامي]

وبما أنّ أمر هذا الركب في غاية الانتظام أذكر هنا تفاصيل أحواله
[128] إذ عسكرية حراسته مؤلّفة من أربعمائة عسكر بياده نسيشخان (كذا) / على الخيل ومائة جندارمي وخمسين طوبجية معهم مدفعان وباش بوسطجي أحمد أفندي من أبناء الترك بيده إمرة المكاتيب الواردة والصادرة . وكذلك خوجة دار (كذا) إبراهيم أفندي . ونائب القضاء محمود أفندي هو رجل خيّر يؤمّ من يحضر معه في محلّته عند الصلاة . والطبيب ذئب أفندي . هذا من جهة انتظامه الدولي .

وأمّا تَقَوُّمُه فكان في هاته السنة يحتوي على أكثر من ألفي جمل وعدد النفوس فيه بين رجال وركبان يناهز الخمسة آلاف شخص . وهم مقسمون إلى أقسام على حسب المقومين . والمقوّم رجل يملك عدداً وافراً من الإبل الصالحة بأدواتها وخيامها . ويقوّم بجميع لوازم مستخدميها ويستعدّ لاستئجار ذلك على حسب الحاجة والمال . فمن الناس من يكتري محفّة وهي عبارة عن اصطفتين ذاتي جنبين تحملان على الجمل وعلى مجتمعهما خيمة ملوّنة وتدها يوضع على سنام الجمل ويركبها رجلان يلزم تعادلهما في الجسم ولا يحملها إلاّ عظيم الجمال يسير براكبيها نصف مرحلة والنصف الثاني تنقل فيه إلى جمل ثان مستريح .

وهاته المحفّة إذا حسن وضعها وربطها تبقى على ظهر الجمل ثابتة لا حركة لها وراكبها في راحة تامّة ينام ما شاء ويجلس ما شاء وله بين الركاب اعتبار زائد . وبالجملة فهو بمثابة من يكتري في قمراء فابور البحر وفي الرتبة الأولى مع سكّة الحديد .

ومن يكن له أمتعة يكتري لها ظهرًا آخر على حسبه . ومن الناس من يكتري جملا واحدًا يضع عليه أمتعته ويركب عليها تارة بشبرية من خزم (1) يستظلّ بها على شدّة حركتها . والأكثرون يستظلّون من الشمس بأثوابهم أو شمسيات . وقليل من الناس من يركب فرسًا أوْ حمارا .

وأمّا خيام السكنى فمعظمها على المقوّمين وقلّ من يملك خيمة لنفسه . وأمّا مؤنة السفر فمن الناس من يكتري على أن يطعمه المقوّم ويسقيه حتّى يكون بمثابة / النازل في أوتيل يسكن ويأكل . ومن الناس من لا يرضى ذلك [129]
الطعام فيلتزم القيام بطبخه ويكتري من المقوّم على أن يأتيه بالماء والحطب خاصّة لقلّتهما في كثير من الجهات . ولهذا لزم السقّاؤون بكثرة من خدمة الإبل ولهم في الركب زعيم وهو في هاته السنة يوسف باش سقّاء .

ويسمّون خدمة الإبل عكّامين وأعلاهم قادة أصحاب المحفّات لأن الجمل إذا كان حاملا للمحفّة بثقلها تحمل رجلين مضطرّ لرفع رأسه رفعا لا يتحرّى معه موطىء رجليه فيأخذ بخطامه عكّام يقوده في جميع المرحلة . وللعكّامين في الركب زعيم يرجعون إليه . وكان باش عكّام في هاته السنة أبو قاسم .

وأكرية جميع ذلك مختلفة وليس لها حدّ معيّن بل هي على حسب حال الراغب وكثرة الراكبين وقلّتهم . فربّما تجاوز كراء المحفّة وما تستتبعه بغير أكل الستمائة فرنك وربّما كان أقلّ . وهكذا كراء الجمل

(1) الخزم : شجر كالدوم يفتل من لحائه الحبال .

المنفرد ربّما كان مائة فرنك أو أكثر أو أقلّ . وهذا تفصيل ما لمقوّمي هاته السنة من الإبل وهم الاتي بيانهم :

800	باش مقوّم محمد الزمريق
200	عمر بوصبع
150	أبو فارس الذئب العجان
100	حسن العجمي
80	اسماعيل الانـاط
30	يوسف زاده
50	الحمويسات
500	البـدو
= 1910	

[130 ومن عادة الركب إذا وصل إلى نصف المرحلة أذن لحاملي / الخيام ويسمّون المهاترية . وكان باش مهاتري إبراهيم أحمد في هاته السنة فيتقدّمون إلى محلّ النزول ويضربون به الخيام على معتاد وضعها بحيث إنّ الركب يقسم على الجهات الأربع من القبلة والجوف والشرق والغرب . وكلّ جهة معينة لأربابها توضع فيها الخيام بوضع هندسي فتصير المنزلة ذات محجّات عامّة وحومات صغيرة وسوق يحيط بجميعهم المعسكر .

ويجري ذلك الترتيب في جميع المراحل وفي حالة المسير بحيث إنّ الرجل في كلّ منزلة يجد نسبته من جميع جيرانه واحدة وعليها نسبة المسير .

ومن العوائد المستحسنة أنّه بعد رحيل الركب تتأخّر رسلة من الإبل تتألّف من مائة ناقة نحو الساعة أو أكثر ليعيدوا نظرهم على المنزلة هل تخلّف فيها شيء أو أحد ويأتون على الطريق وراء الركب فينزلون بعد نزول الركب بزمن . ويسمّى ذلك الحجّ العقيلي وكبيره هاته السنة حسن الشبل . وفي الغالب يأتون باللقطات وينادون عليها فيأخذها أهلها .

ومن العادة أيضا إطلاق المدفع عند النزول وعند أوقات الصلوات . وأمّا عند الرحيل فيطلق مدفعان بينهما نصف ساعة أحدهما للتهيّؤ فإذا زمّ الناس جمالهم وشدّوا رحالهم وأطلق المدفع الثاني تنهض الجمال من عند أنفسها بقيام واحد . وسير الإبل يكون قطارات كالسموط المنتظمة بينها محجّة للراجلين . وفي بعض المسالك يكون الركب كلّه قطارا واحدا . وفي كلّ ليلة تترنّم الموسيقى العسكرية بالألحان التركية .

وفي ليلة مبيتنا في بئر عثمان حضر عندنا بعض أحبابنا من أهل المدينة للمشايعة وحضر عندنا إبراهيم رأفت أفندي قاضي المدينة المنفصل وقائمقام نجف الأشرف علي ياود كنانة بن عبد القادر زاده الكركوكي نِسْبَةً إلى كركوك من عمل الموصل / وهو رجل حازم عارف باللسان العربي [131]
والفارسي والتركي . وقد أحسن معاشرتنا ومؤانستنا مدّة الرحيل .

[خبر الشيعة بنجف]

وقد دار بيننا خبر الشيعة فذكر لنا من أحوالهم أخبارًا ووصف لنا مقام سيّدنا علي بن أبي طالب في نجف حتّى ذكر أن قبّته ومنارتيه كلّها من الذهب الإبريز . وذكر لنا أنّ واردات الهند وجهات العجم من هدايا المصوغ بالأحجار النفيسة لو بيعت لوفت بديون الدولة العلية وواصلت بين النجف والآستانة بسكّة الحديد . ومن عنوان ذلك أن الواحد من أغنياء الهند وإيران ربّما كان وزيرا يطلب أن يكون دفنه في النجف ويتصدّق على ذلك المقام بجميع ما ملكت يداه في حياته لا يترك منه شيئا لوارثه فإذا مات حمل في صندوق على ظهر الإبل من الهند أو إيران مسيرة أشهر ويدفن هنالك ويحجز نائب الوقف عن جميع المخلّف من منقول وغير منقول .

فقلت له : « وهلاّ فعلوا ذلك في اختيار الدفن في المدينة المنورة وأغلبهم لا ينكر رسالة محمّد وإنّما هم يجعلون عليّا أحقّ بالخلافة فقط ولكن هذا دليل التعصّب البحت » .

فاعترف بذلك . ثمّ سألته عن تقدير مبالغ ما يوجد في مستودع المقام فأخبرني أنّه بعد الألف من الهجرة جمعت جميع النفائس في دهليز تحت المقام ووقع سدمه . ومن ذلك العهد جعلوا خزنة أخرى لها دفتر تحت نظر الناظر هنالك . ولمّا أقبل محمّد شاه إيران للزيارة منذ السنين الأخيرة طلب الاطلاع على هدايا أهل مملكتهم ليرى هل أجالت الدولة يدها فيها أم لا فاستأذن مدحت باشا والي بغداد في ذلك العهد وورد له اذن بذلك . وبعد أن نظر محمّد شاه ما هنالك أراد أن يتقرّب بأخذ قنديل مرصّع يعلّقه بنفسه
[132] داخل الحرم فاختار قنديلا / امتنع الناظر من إخراجه . وقال إنّه إن علّق يحتاج إلى عساكر تقيم على حراسته . وأحضر الدفتر فإذا قيمته ثمانون ألف ليرة عثمانية ثمّ اختاروا له أقل قنديل مرصّع هنالك فكانت قيمته ثمانية عشر ألف ليرة . فعلّقه هنالك بيده وكفى بهذا عنوانا على سعة ما هنالك .

وكان ارتحالنا من بئر عثمان قبل طلوع الشمس من يوم الثلاثاء السابع عشر من المحرم .

[بئر جابر]

قد نزلنا به قبل الغروب بساعتين وراق لنا النزول وأقمنا هنالك الليلة وكان ارتحالنا قبل طلوع الشمس من يوم الاربعاء الثامن عشر من المحرم .

[آبار نصيف]

نزلنا في هاته المرحلة في الساعة التاسعة ونصف قبل الغروب بساعتين ونصف . وبعد استقرار نزولنا أخذت أمشي بين الخيام فاجتمعت هنالك بالعالم الجركسي الشيخ صالح الأصمّ . وهو من أفاضلهم يحسن اللسان العربي والتركي زيادة على لسان قومه . وهو ممّن هاجر من بِلاَدِهِ حين تملّكتها الروسيا في الحرب الأخيرة . وأخبرني أنّ الروس لمّا تملّكوا أرضهم

استأصلوا أموالهم واستخدموا أبناءهم في العسكرية . وكان ذلك سبب هجرة كلّ من قدر على الخروج . وأمّا من تثاقل وأراد بعد ذلك خروجا فقد منع وعند ذلك سألته عن حالة إقامتهم الآن في بلاد الترك فشكا عُمُوم الرشوة عند قضاتهم وسائر حكّامهم حتّى كان ذلك سبب محنة كثير من علماء الجراكسة بالنظر إلى العامّة / والحكّام . [133]

[اجتماع المؤلف بالشيخ صالح الأربيلي مجتهد الشيعة]

ثمّ اجتمعت بالشيخ صالح الأربيلي مجتهد الشيعة . وهذا الرجل قد صاحبنا أوّلاً عند ركوبنا من الآستانة إلى جدّة في ركوب البحر واتّفق أن كان ركوبه أوّلا في بيت ركوبي من القمراء . ولمّا سألته عن بلاده وحاله أوضح لي أنّه علويّ وأنّه في خطّة مجتهد فباحثته في معنى الاجتهاد الأصولي فلم يكن كذلك وغاية الأمر أنّ لفظ مجتهد يُعطى للعالم عندهم في معنى مُفْتٍ لا غير .

وعندما علمت حاله صرت أتّقي مباحثته سيّما والفابور به نحو الثمانمائة نفس منهم أكثر من ستّمائة من الإيرانيين الذين على عقيدته والقوم يعتقدونه ويعتقدون به .

أمّا حالة الرجل العلمية فله مشاركة علمية مع معرفة اللسان العربي غير أنّه ينطق بالكلمات العربية من مخارج الحروف الفارسية ، ويقرأ بها القرآن ويزيد على ذلك ملازمة اللحن الفارسي في التلاوة فيمدّ آخر كلّ كلمة كيفما كانت .

ولمّا علم أني سنّيّ مالكيّ المذهب تردّد عليّ بمسائل فقهية ، فكنت أقتصر في جوابه قدر الحاجة ، فإن رأيت منه الاسترسال للمباحثة تعلّلت له بأنّ هذا يفضي إلى جدال لا يناسب حالة الحاجّ ، ومع ذلك ربّما أجبته بغير الواقع لما نرى عليه من قصد الاعتراض .

ولما رأى منّي ذلك التجاني أراد أن يتظاهر بجهله فتفصّيت عنه بالتنقّل من البيت الذي نجتمع فيه . فما لبث أن صار يحضر لبيتي الثاني للمسائل وربّما أتاني ببعض الكتب الفقهية معترضا على بعض المسائل من مذهبي مالك وأبي حنيفة فنقتصر على قدر الحاجة في إجابته .

وقد حضر عندي في بعض الليالي فرآني أصلّي العشاء ، وبعد الفراغ أنكر عليّ صفة التشهّد وقال لي : « ما مستندكم في تحريك الإصبع ؟ وماذا تقولون في أثناء ذلك ؟ » / فقلت له : « أمّا التحريك فنحن مقلّدون فيه [134]
لأصحاب المذهب . وأمّا ما نقوله فهو أنّي أقول : رضي الله عن الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، أكرّرها . فاسترحت منه بسبب ذلك أيّاما .

ثمّ أتاني يومًا في لمّة من جَمَاعَتِهِ وهو يضحك فقال لي : « مذهب مالك يرى أنّه يجوز للمصلّي أن يحمل كلبا في حالة الصلاة . فلم أتمالك أن قلت له : « إنّ مالكا لم يقل ذلك بغير تعليل » . فقال لي : « وكيف كان التعليل ؟ » فقلت له : « إنّ مالكا يرى طهارة كلّ حيّ ، وحيث إنّ الحياة الموجودة في الإنسان هي الموجودة في الكلب ونحكم بطهارة مثل سيادتك فأنت والكلب سواء في الطهارة المترتّبة على الحياة » . فلم يجد لذلك جوابا .

واسترحْت مِنْهُ بقيّة مدّة السفر إلى أن اجتمعت به في هاته المرحلة [مرحلة آبار نصيف] فوجدته في مجلس يحيط به كثير من علمائهم . ولمّا جلست بينهم سألني عن أحوالي في السفر فقلت له : « نحن بعد أن امتنّ الله علينا بحجّ بيته الحرام وزيارة قبر نبيّه عليه الصلاة والسلام والفوز بالسّلام عليه وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما نرى كلّ شيْءٍ دون ذلك هيّنا والحمد لله على كلّ حال » . فقال لي : « صدقت ، ولا شكّ أنّ زيارة الشيخين وبقيّة الصحابة رضي الله عنهم من المهمّ » . ومع اعتقادي بأنّ ضمير عنهم في كلامه لا يقصد به إلاّ من عدا الشيخين تغاضيت عن

ذلك وتنقّلت بالحديث عن أحوال الرّكب . وقضينا تلك الليلة وارتحلنا باكرة يوم الخميس التاسع عشر من المحرم .

[اصطبر عنتر]

عنترة بن شدّاد العبسي من أشهر شجعان العرب وفرسانهم . ومنزله بين جبال في هاته الجهة نزلنا حولها عند الغروب وارتحلنا في / الساعة السابعة [135]
من الليل .

[الفحلتين]

قد أدركنا هذا الموضع عند صلاة الصبح وصلّينا هنالك وسرنا إلى الساعة التاسعة من نهار الجمعة الموفّى عشرين .

[هدية]

هذا الموضع فيه قلعة عتيقة ويقال في وجه تسميته بهدية أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا رجع من غزوة تبّوك (1) وجد أصحابه منتظرين قدومه بهذا الموضع ومعهم هدية . ولم نطلع على ما يفيد صحّة هذا الخبر . وقد ارتحلنا منها قبل طلوع الشمس من يوم السبت الحادي والعشرين من المحرّم .

[بزاقة]

هي أرض محجرة لا ماء فيها نزلناها قبل الغروب وارتحلنا منها قبل طلوع الشمس من يوم الأحد الثاني والعشرين .

[البئر الجديد]

هذا الموضع فيه بركة عظمى تسمّى بركة البئر الجديد وماؤها مالح . وهنالك ماء عذب يجري في سفح جبل هنالك يأتون منها بماء الشرب . وفي

(1) تبوك : مدينة في طريق الحج من دمشق إلى المدينة المنورة . اشتهرت بالغزوة العظيمة التي قام بها النبي صلعم لاخضاع عرب الشمال (8هـ./630م.) .

حوالي هاته المنزلة سكّان من البدو أتوا لتلقّي الحجّ بغنم ونبات يابس يسمّى موصل لعلف الإبل . وكان النزول هنالك في الساعة السادسة . وجرى سقي الإبل العشر وشراء علفها من ذلك النبات . ثمّ لم يكن من البدو هنالك إلاّ أنّهم ساقوا قطعة من الإبل بمرعاهُمْ فأرسل سعيد باشا أمير الركب عساكر من سائر الجهات ولم تمض ساعة / من زمان إلا وجيء بالإبل ونجا سائقوها . [136

وعند ذلك اقترح عليّ بعض رفقائنا من الترك أبياتا في شكر الأمير على حزمه في حفظ أحوال الركب فقلت : (من بحر الكامل)

1 – لِلْمَحْمَلِ الشَّامِي أيُّ مَحَاسِنَ
لاَ يَمْتَرِي فِي فَضْلِهِنَّ عَنِيدُ

2 – إنْ سَارَ فَهْوَ مُنْتَظِمٌ أوْ حَلَّ فِي
أرْضٍ فَعَنْهُ الأمْنُ لَيْسَ يَحِيدُ

3 – فِي الْحَالَتَيْنِ لَهُ أمِيرٌ حَازِمٌ
يَرْعَاهُ وَهْوَ بِبَأسِهِ صِنْدِيدُ

4 – فَالرَّاكِبُونَ جَمِيعُهُمْ مِنْ شُكْرِهِ
كُلٌّ بِإكْثَارِ الثَّنَاءِ يُجِيدُ

[مجلس سمر للمؤلف في تلك المرحلة]

وقد اجتمعت في هاته المرحلة بقاضي تبريز الشيخ محمد مهدي ومعه ابن بنت ولي عهد شاه إيران . وهو مير أحمد وكلاهما شيعي . وللقاضي معرفة قليلة باللسان العربي غير أنّه سريع الفهم به في العلميات بحيث إنّه عالم محصّل . وكانت خيمة اجتماعنا تحوي كثيرًا من الأعيان فدارت بيننا مسائل من التصوّف في أحوال القوم والصبر على المشاقّ وغير ذلك ممّا جرّه المجلس . وعند ذلك قرعت الساعة فجرى الحديث على اصطلاحي الترك والافرنج في اعتبار الساعات الماضية أو الباقية . ثمّ وقع الكلام في أيّ الطريقتين أحسن .

وذكر كلّ ما بدا له . فمنهم من قال : لما كان لا أمل للإنسان فيما مضى ولم يبق سائلا عنه فلم يبق إلا سؤاله عن المستقبل وما بقي لأزمان الآمال . فرجحت طريق اعتبار الماضي وبمناسبة موضوع أصل المجلس قلت : (من بحر الرمل)

1 — هَــذِهِ السَّاعَــةُ عِــنْــدَ الْمُعْتَبِــرْ
قَــرَعَــتْ بِالواعِــظِ قَــلْــبَ الْمُزْدَجِرْ

2 — قَــرْعَ تَنْبِيــهٍ عَلَى مَا قَدْ مَضَى
مِــنْ نَفِــيسِ الْعُمْرِ هَــلْ مِنْ مُدَّكِرْ / 137

وكان ارتحالنا باكرة يوم الاثنين الثالث والعشرين من المحرم .

[الــزمــــرّدة]

موضع كثير الحجر قليل الماء فيه قلعة ضخمة متّسعة في وسطها بئر ليس له آلة وخارجها بركة قليلة المآء لا يمكن تعميم السقي منه . وسكّان تلك الجهة لا يأكلون إلاّ التمر العجوة (1) . ويوجد عندهم قليل المعز ولذلك نصبوا سوقًا لبيع ذلك التمر ولحم المعز . فخرج سعيد باشا وأتلف الطعـام المطبوخ بلحم المعز ومنع بيع التمر خشية اعتراض الإسهال للآكلين ممّا يوجب الكرنتينة . وإلى هاته المرحلة بحمد الله لم يمت غير شخصين أصيبا في أوائل السفر عليهما رحمة الله .

وقد اجتمعت في هاته المرحلة بصالح أفندي كاتب الصرّة وجرى بيننا الحديث على مصاريف الدولة لإيصال المحمل كلّ سنة ولجرايات الحرمين وعوائدهما فذكر أنّها تبلغ جميعا إلى خمسمائة ألف مجيدي أي نحو المليونين فرنكا .

(1) العجــوة : التمر المحشي في وعائه .

وقـد ارتحلنـا في الساعـة السابعـة من ليلـة الثلاثـاء الرابع والعشريـن من المحـرم .

[المـربـع]

قبل الوصول إلى هاته المرحلة بثلاث ساعات تغيّر علينا الهواء بالبرد عندما وجدنا الأرض مرملة . وذلك الرمل مبدأ المدائن . وكان المنزل بين جبال محيطة بنا . ويسمّى أبيار عتم والمربع . ومن تلك الجبال جبل طبيعي عجيب الوضع على صورة الرحى الكبرى ذو طبقات وفي أعلاه عمود صنوبري وجميع ذلك طبيعي يخاله الناظر مصنوعا وسبحان الصانع الحكيم .

وعند نزول الركب أطلقت المدافع استبشارا بالوصول إلى المدائن .
[138] غير أنّ هاته البشارة أعقبها موت شخصين من الأعاجم بالكوليرة فكدّر / ذلك على العموم . وقد وجدت من نفسي قلقا قلت فيه : (من بحر الكامل)

1 ـ يَـا رَبِّ قَـدْ عَـوَّدْتَنِـي بِـاللُّطْـفِ فِـي
طَعْنِـي عَلَـى أَخْطَـارِ سَيْرِي كُلِّـهِ

2 ـ فَأَنَا بِلُطْفِـكَ عَـائِـدٌ مِـنْ كُلِّ مَـا
يَعْـرُو وَلِـي مُتَمَسَّـكٌ مِـنْ حَبْلِـهِ

[قلعـة المـدائـن]

كان ارتحالنا في الساعة الثامنة من ليلة الأربعاء . وقطعنا عقبة المدائن في الساعة الثالثة من النهار . ودخلنا بين ديار ثمود المنحوتة في الجبال . ووصلنا إلى القلعة في الساعة السادسة فوجدنا وفد الشام المسمى بالجرده نازلا هنالك . وهو عبارة عن معسكر تحت إمرة قائمقام وهو شاكر أفندي ومعه بريد مكاتيب الحجّاج وهدايا أهلهم وكثير من باعة المأكول واللباس إعانة للوافدين وربّما أقبل بعض أقرباء الحاجّ أو أحبّته إلى ذلك المحلّ بحيث إنّ عموم

الشاميّين على كلّ حال يستفيدون أحوال من خلفهم في تلك المنزلة فيكون ذلك اليوم يوم سرور عام .

ومن هنالك تتوجّه المكاتيب مع بريد الدولة على يد المكلّف بها في خفر من الحراسة . وهنالك أقبل باعة من بلد يسمّى العلا على بعد ساعتين فجاؤوا بليمون حامض وحلو والحلو منه على شكل غير معروف لنا بحيث إنّه كبير جدًّا أملس متساوي الجهات في التكوير ولا رأس له وقشره رقيق جدًّا .

وارتحلنا في الساعة الرابعة من يوم السادس والعشرين من المحرم .

[جبل الطاقة]

هذه المرحلة كانت صعبة جدًّا لأنّا سرنا يسيرًا ثُمّ أخذنا في الصعود إلى عقبات مبرك الناقة التي عقرها أشقى ثمود . وكان الصعود إلى جبل من رمل بين جبال من الحجارة يظهر للرائي انقلابها إذ تراها قائمة على رؤوسها / [39
وقواعدها أعلاها ومن هنالك خرجنا إلى فضاء فيه نخلة وحولها ساحة يقال إنها مبرك الناقة . والممرّ هنالك ضيّق مع عسر الصعود إلى دعص (1) الجبال . ولذلك نزل أكثر الركاب تخفيفا على الإبل ومع ذلك كانت الإبل تطلب النزول لما أعياها الصعود في الرمال فأطلقت المدافع ازعاجا للإبل حتّى لا تبرك .

وفي تلك الجهات من آثار الغضب ما يوحش النفوس . وفي هاته الديار استحثّ رسول الله صلعم راحلته ونهى عن استعمال مائها وترابها على ما سيأتي .

[خبر عاد وثمود]

أمّا خبر قوم عاد وثمود في هاته الأراضي فقد قصّه الله في القرآن . وكان قوم عاد وثمود جبّارين طوال القامات . فأرسل الله هودًا إلى قوم

(1) الدعص : كثيب الرمل المجتمع .

عاد وكانوا أهل أصنام فدعاهم فلم يؤمن منهم إلاّ قليل فأهلك الله الذين لم يؤمنوا بريح سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما دائمة فلم تدع من قوم عاد أحداً إلاّ أهلكته غير هود والمؤمنين معه فإنّهم اعتزلوا في حظيرة ونجّاهم الله من تلك الريح .

وأمّا ثمود فكانوا ينزلون بالحجر ووادي القرى فيما بين الحجاز والشام وطالت أعمارهم فنحتوا بيوتا في الجبال وأرسل الله إليهم صالحا فدعاهم إلى التوحيد فلم يؤمن به إلاّ قليل مستضعفون . ثُمّ إنّ كفّارهم عاهدوا صالحا على أنّه إن أتى بما يقترحون عليه آمنوا به . واقترحوا عليه أن يخرج من صخرة معيّنة ناقة فسأل الله في ذلك فخرجت من تلك الصخرة ناقة وولدت فصيلا . فلم يؤمنوا وآل بهم الأمر أن عقروا الناقة . فأهلكهم الله بعد ثلاثة أيّام بصيحة من السماء قطعت قلوبهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين . نعوذ بوجه الله الكريم .

وقد رأينا على مدى البصر انقلاب تلك البيوت المنحوتة في الجبال حتّى
صار عاليها سافلها فصار معظمها أطلالا . واستحشّينا / السير بينها إلى الغروب . [1]
وكان هذا الطريق كثير المزالق من الصخور حتّى اعتاد العكّامون أن يقولوا : من مبرك الناقة إلى جبل الطاقة أربع وعشرون زلاّقة . وفي هذا اليوم رأيت من أخلاق رفيقي مع أتباعنا ما ضاقت معه النفس مع صعوبة الطريق فقلت : (من بحر الوافر)

1 — لَقَدْ عَسُرَ الطَّرِيقُ مَعَ الْمَضِيقِ
وَسَاءَ كَمَا نَرَى خُلُقَ الرَّفِيقِ

2 — وَيُسْرُ اللّهِ يَأْتِي بَعْدَ عُسْرٍ
وَكَمْ فَرَجٍ أَتَى بَعْدَ الْمَضِيقِ

ولمّا بلغنا جبل الطاقة رأينا جبلا فيه خرق عظيم منفتح فتحا طبيعيا . وكانت المنزلة ليس فيها ماء وارتحلنا آخر ليلة الجمعة السابع والعشرين من المحرّم .

[ظهر الحمراء]

هذه المرحلة كانت صعوبة الطريق فيها من الارتقاء . غير أنّا في ضحوة النهار كنّا في بيداء لا يعرف لها مبدأ تعرف بروش رز وفيها الركب حاد عن الطريق بسبب خطأ الدليل . ووقع التراجع وأخذنا نرتقي إلى الجبال المرملة والصخور المرتفعة بمزالق الأحجار . ورأينا هنالك حَجَرًا لمَّاعًا ومررنا بقلعة حولها بركة لا ماء فيها وعليها تاريخ بنائها . وفيها أنّ بانيها عصمان باشا سنة سبع وستين ومائة وألف . وكان البرد مشتدّا . ونزلنا عند الغروب .

[بركة المعظم]

هذه البركة من أوسع البرك وأضخمها . والحجّاج ينسبونها إلى إيمان الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه . وذلك لأنّها تحيط بها جبال وربى . ومصبّ الماء إليها يأتي مسيله من بين سفوح الجبال من ناحية بغداد . وأما ضخامة / هاته البركة واتّساعها فهي بحيث أنّ جميع الحجّ استقى منها 141]
ولم ينقص من مائها إلاّ نحو نصف ذراع .

ولمّا دخلنا إلى القلعة التي حولها وجدت بعض بدو تلك الجهات سألني عن بلدي وعن أحوالها بعد حماية فرانسا لها فأعلمته بحسن حالها ففرح . وعند ذلك سألته عن سبب معرفته لتونس مع أنه من سكّان تلك الصحراء المنقطعة . فأعلمني أنّه وفد عليها في دولة أحمد باشا (1) وأقام أشهرا بين ماطر وجبل نفزة .

وكان ارتحالنا قبل طلوع الشمس من يوم الأحد التاسع والعشرين من المحرّم .

---

(1) هو المشير الأول ولد في 2 ديسمبر سنة 1806 وجلس على العرش الحسيني بتونس في 10 أكتوبر سنة 1837 وتوفي في 30 ماي سنة 1855 .

جنائن القاضي

هذه المرحلة كانت الأرض فيها مختلفة حيث مررنا في أوّل النهار بأرض يابسة ينسبونها إلى أيّوب عليه السلام ويذكرون أنّها محلّ ابتلائه . وفي أثنائها يوجد حجر مستطيل في غلظ الإصبع أو أقلّ يسمّونه دود أيّوب ويدّعون مسخه ويذكرون للحجر المذكور خاصيّة في القروح والجروح يُحرق ويُسحق وتكمّد به فيحصل برؤها بإذن الله . ولم ندر مسألة تحجّر دود أيوب أو إبقاء أثره إلى هذا العصر . ولا مانع من حصول فائدة الضمد بإحراق ذلك الطين المتخزّف .

أمّا أيّوب عليه السلام فقد كان نبيّا . وكانت له زوجة اسمها رحمة وكان ذا مال وضياع . فابتلاه الله بذهاب ماله حتّى صار فقيرًا وأقام معتكفا على عادته وشكره . ثمّ ابتلاه الله في جسده حتّى تجذّم ودوّد وبقي مرميا على مزبلة لا يطيق أحد أن يشمّ رائحته . وكانت زوجته رحمة تخدمه وهي صابرة على حاله . فتراءى لها إبليس وأراها ما ذهب لهم وقال لها : « اسجدي لي لأردّ مالكم إليكم » . فاستأذنت أيّوب فغضب وحلف ليضر بنّها مائة .
[1 ثمّ إنّ الله عافى أيّوب ورزقه وردّ إلى إمرأته / شبابها وحسنها وأمره أن يأخذ عرجونا من النخل فيه مائة شمراخ فيضرب به زوجته ليبرّ في يمينه ففعل ذلك وولدت له ستّة وعشرين ذكرًا ومنهم ابنه ذو الكفل .

وبعد أن قطعنا بالسير أرض أيّوب مررنا بأرض محجرة ودخلنا بين صخور كالجبال منها صخرة على صورة الدبّ . وفي مضيق بعد صخرةّ أخرى مكتوبة يزعم العكّامون أنه مكتوب فيها شتم من يحمل معه للحج امرأة وليس كذلك بل إنّ الكتابات هي بسملات وصلاة وايداع للشهادة من بعض المارة الراجلين . ثمّ اجتزنا بأرض مملوءة صخورا وأحجارا سودا ليس بينها مسلك حتّى نزلنا بين أعشاب وأشجار لا ثمرة بها بأرض لا ماء بها تسمّى جنائن القاضي يقتطعون منها الأحطاب .

وفي هاته الليلة دعانا أمين الصرّة سعاد تلو آصف باشا . وقد سبق ذكره وكان المسامرون لنا يترجمون بيننا . ومنهم رأفت أفندي قاضي المدينة وعبد الباقي باي من خلفاء كتاب الوزارة الخارجية في الباب العالي . وقد أخبرنا أمين الصرّة تلك الليلة أن سعيد باشا حرّر مضبطة في سلامة الحجّ لئلاّ ترسم عليه الكرنتينة قبل دخول الشام . وارتحلنا باكرة يوم الإثنين منسلخ المحرّم .

[الأخضر]

هو من المنازل النبوية وفيه مسجد بقلعة بناها السلطان سليمان وهي قلعة كبيرة بها قبر حيدر بابا في أعلى يمين الداخل إليها . وبها بئر عليه ناعورة تستجيز الماء بعلف من خشب . ماؤها خالص عذب يروى أنّ أيّوب عليه السلام اغتسل في هذه البئر وسقط فيها من دوده . ويقال إنّ هنالك مقام الخضر عليه السلام . ولعلّ ذلك وجه تسمية المكان بالأخضر وأصله الخضر .

وفي خارج القلعة أربع بركات وجدنا اثنتين منها / مَمْلُوءَتَيْنِ ماءً [143]
في غاية الجودة واثنتين معطّلتين بالرمل . وبينها تاريخ مكتوب في أحد أوجهه اسم السلطان وبالوجه الآخر مكتوب أنّ الذي باشر عمارتها هو الأمير موسى ابن محمد بن حسين التركمان الحاكم بعجلون . وكان ارتحالنا باكرة الثلاثاء غرّة صفر الخير سنة 1300 .

[دار المغير]

هذه المرحلة أكثرها صعود للجبال وولوج بين مضائقها . كان ابتداؤها من موضع يقال له : بوغاز ظهر الاخضر . وهو في مبدأ المرحلة السابقة . ثمّ في ابتداء هاته المرحلة موضع يُسَمَّى غار ظهر الاخضر . وكلاهما مسلك بين جبال . وهذا الأخير متصعّد على صخور حتّى اضطررنا فيه للنزول إلى أن خرجنا منه بسير نحو نصف ساعة . وكان استمرار السفر بهاته المرحلة

إلى الغروب . ويسمّى هذا المكان دار المغير وظُهْرَ مَغْرٍ وَكَانَ الارْتِحَالُ في الساعة الثانية من يوم الاثنين الثاني من صفر الخير .

[تبّوك]

يقال باك العين بيوكها إذا ثوّر مَاؤُهَا بعود . وقد رأيت أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لمن وجده بيوك عينا هنالك قلّ ماؤها تبوك (كذا) فاطّرد ذلك الاسم للمكان . وهو محلّ أصحاب الأيكة وخبر شعيب مع أصحاب الأيكة مذكور في القرآن العظيم .

ولغزوة تبّوك خبر مبسوط في كتب السير النبوية ويقال لها غزوة العسيرة ويقال لها الفاضحة لأنّها فضحت كثيرا من المنافقين . وكان خروجه (أي النبيّ صلعم) لغزوة تبّوك في رجب سنة تسع (للهجرة) بسبب ما بلغه صلعم من أنّ الروم تجمّعت جموعهم بالشام وقدّموا مقدماتهم إلى البلقاء فرأى غزوهم .

[144] وكانت البلاد مجدبة . والحرّ شديد / والسفر بعيد . مع أنّ حضور إبّان إثمار الشجر الذي كانوا يستقبلونه فأعلم (النبي صلعم) الناس بمقصده الشريف . وكان قلّما يخرج في غزوة إلاّ كنّى عنها وَوَرّى بغيرها إلاّ ما (كان من) غزوة تبّوك آخر غزواته .

وكان أوّل من جاء بالنفقة أبو بكر فأتى بجميع ماله أَرْبَعة آلاف درهم . وجاء عمر بنصف ماله . واعتنى عُثمان بتجهيز عشرة آلاف رجل بعشرة آلاف دينار وتسعمائة بعير ومائة فرس بجميع لوازمها . وجاءه بألف دينار . وجاء كثير من أعيان الصحابة بمال له بال . وبعث النسوة بكلّ ما يقدرن عليه من حليهنّ .

وخرج لهذه الغزوة بسبعين ألفا من الرجال وعشرة آلاف فرس . وعند ارتحاله صلعم عن ثنيّة الوداع عقد الألوية والرايات . فدفع لواءه

الأعظم لأبي بكر ورايته للزبير وراية الأوس لأسيد بن حضير وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر . ودفع لكلّ بطن من قبائل العرب لواء وراية . وعند مروره صلّعم بديار ثمود السابقة الذكر سجى ثوبه على رأسه واستحثّ راحلته وقال : « لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلاّ وأنتم باكون خوفًا أن يصيبكم ما أصابهم » . ونهى عن شرب مائها ومن استعماله للوضوء أو الطبخ أو العجن .

ولمّا نزلوا تبوك وجدوا عينها قليلة الماء فاغترف رسول الله صلّعم بيده غرفة من مائها ومضمض بها فاه ثمّ بصقه فيها ففارت عينها حتّى امتلأت وقال لمعاذ : « يوشك إن طالت بك حياة أن ترى هنا مليء جنانا » . قلت : وجدنا بها جنانا من نخيل غير أنّ نخلها ذكر لا تمر فيه . وبها وجدنا عينا ويقطينا ومياهًا لم يكن مثلها فيما مررنا عليه من المراحل السابقة . وبذلك شاهدنا آثار إخباره صلّعم بالمغيّبات .

وأتاه صلّعم وهو بتبوك صاحب أيله وصحبته أهل جرفاء من الشام وصالحه على عطاء / الجزية . وكتب لهما كتابين . فتضمّن كتاب أهل [145]
أذرح وجرفاء أنّ عليهم مائة دينار في كلّ رجب . وصالح أهل ميناء على ربع ثمارهم .

وأقام صلّعم بتبوك عشرين ليلة واستشار أصحابه في مجاوزتها فقال عمر : إنّ للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام . وقد دنونا وأفزعهم ذلك فلو رجعنا هذه السنة حتّى نرى أو يُحدث الله أمرًا . ثمّ انصرف صلّعم قافلا إلى المدينة . وأراد من كان معه من المنافقين أن يوقعوا به صلّعم في العقبة التي بين تبوك والمدينة . وعلم بهم أخبر عنهم وتحرّز منهم وترك عقابهم وقال : « إنِّي أكْرَهُ أنْ يَقُولَ النَّاسُ إنَّ مُحَمَّدًا قَاتَلَ بِقَوْمٍ حَتى إذَا أظْهَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِمْ أقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ » . ولمّا أشرف صلّعم على المدينة قال : « هَذِهِ طيبة

أسْكَنْتَنِيهَا رَبِّي تَنْفِي خُبْثَ أهْلِهَا كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خُبْثَ الْحَدِيدِ » . وعند دخوله لها تلقّاه النساء والصبيان يقلن :

1 ـ طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ
2 ـ وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهَ دَاعِ

أما بناء تبّوك فهو من لبن غير مطبوخ وجدرانها قصيرة دون قامة الإنسان ومسجدها الذي صلّى فيه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أقامه عمر بن عبد العزيز . ومنها إلى المدينة كان مزروعا في عهد عمر بن الخطاب . ورُوي أنّ النبيّ صلّعم جلس في ثنية تبّوك وأشار إلى جهة الشام وقال : « هذا شامي » . وأشار إلى جهة المدينة وقال : « هذا يمني » . واستدلّ العلماء بذلك على أنّ الحجاز من اليمن .

وقلعة تبّوك ذات بئر بناها السلطان سليمان . ولبركتها عين جارية .
[146] ولا أدري هي التي كان يبوكها البايك أو غيرها . وفي طريق هاته / المرحلة يوجد حجر يُستَدَرّ به لبن المرضع تعليقا . وفي الطريق جبل على صورة منبر من الصخر يزعم العكّامون أنّه خطب عليه رسول الله صلّعم . فكان مكان خطابته على الصورة المذكورة .

وعند نزول الركب في هاته المنزلة السعيدة قبل أمير الركب سعيد باشا مكاتيب الدولة العلية التي وجدها في انتظاره تأمره بالكرنتينة في الزرقاء عشرة أيّام . وكان الباشا قبل ذلك حرّر شهادة في سلامة الركب من الأمراض . وأراد أن يوجّه بها بريده جوخدار . غير أنّه سبق السيف العذل وتقدّمت الأوامر على الاستئذان فعدل عن استئذانه وامتثل ما ورد إليه من الأمر .

غير أنّي رأيت من أمين الصرّة وقاضي المدينة تلك الليلة كدرا من تعجيل الدولة للأوامر قبل استعلام حالة الركب . وقد شاهدت من صعوبة الطريق ما صرت به في شفقة على رواحلنا . وكان بمحفتنا جملان فحلان

أحدهما أسود اسمه ريحان والثاني أبيض اسمه درويش فيتناوبان كلّ مرحلة بحمل محفّتنا . ورأيت من الجمّال أنّه أجهدهما ولم يشفق عليهما فارتجزت له في ذلك عند المسامرة قولي : (من بحر الرجز)

1 ـ يَا أيُّهَا الْجَمَّالُ رِفْقًا بِالْجَمَلِ
وَإِنْ تَكُنْ قَامَتُهُ مِثْلَ الْجَبَلِ

2 ـ فَلَيْسَ فِي الرَّكْبِ سِوَى رَيْحَانِ
شَبِيهِ دَرْوِيشٍ أخِيهِ الثَّانِي

3 ـ هُمَا جَمِيلاَنِ إذَا مَا سَارَا
رَأيْتَ طَيْرًا فِي فَلاَةٍ طَارَا

4 ـ وَمَنْ عَلَيْهِمَا قَدْ رَكِبَا
لَمْ يَكُ يَدْرِي مِنْ مَسِيرٍ تَعَبَا

5 ـ فَيَحْسِبُ الأرْضَ بِهِ تُطْوَى إلَى
أنْ يَبْلُغَ الْغَايَةَ مِنْ بَيْنِ الْمَلاَ

6 ـ وَلَمْ يَجِدْ مِنْ بَعْدِ سَيْرٍ خَضًّا
وَلاَ رَأى مِنَ الْمَسِيرِ رَضًّا

7 ـ سِوَى اهْتِزَازِ الْجَمَلِ الْجَمِيلِ
هَزَّةَ ذَاتِ الْكَفْلِ الثَّقِيلِ (1) / [147]

8 ـ كِلاَهُمَا مُشَابِهٌ لِصَاحِبِهْ
فِي حُسْنِ وَصْفٍ قَدْ أتَى بِوَاجِبِهْ

9 ـ أمَّا هُمَا فِي الشَّكْلِ وَالألْوَانِ
فَاخْتَلَفَا بِحَسَبِ الْعِرْفَانِ

(1) الكفل من الدابة : العجز أو الردف . ج : اكفال .

10 – وَإِنَّمَا نَجَابَةُ الأَعْيَانِ
عَرْفٌ عَزِيزٌ فَاحَ مِنْ رَيْحَانِ

11 – وَهْوَ الَّذِي قَدْ خَاضَ لَيْلاً أَدْهَمَا
وَقَدَّ جِلْداً مِنْهُ دَاجٍ أَسْحَمَا

12 – وَطَاوَلَ الْجِبَالَ فِي الْبَيْدَاءِ
وَسَابَقَ الْفُحُولَ بِاهْتِدَاءِ

13 – وَمَنْ رَآهُ ظَنَّهُ السَّحَابَا
بِذَاتِهِ لأَرْضِهِ أَصَابَا

14 – وَمَنْ يَكُنْ يَسْمَعُهُ يَرْغُو فَلاَ
يَخَالُهُ إِلاَّ رُعُوداً تَجْتَلِي

15 – عَنِ الْبِعَادِ يُبْصِرُ الْوِهَادَا
وَيَعْرِفُ الأَغْوَارَ وَالأَنْجَادَا

16 – فَيَتَّقِيهَا كُلَّمَا تَهَادَى
وَيَسْلُكُ السُّهُولَ مَا أَرَادَا

17 – وَيَقْذِفُ الْحَصَا بِخُفَّ خَفَّ
وَلاَ يُبَالِي بِالَّذِي قَدْ حَفَّ

18 – وَهَكَذَا دَرْوِيشُ فِي الْمَسِيرِ
يَسِيرُ سَيْرَ عَارِفٍ خَبِيرِ

19 – لَكِنَّهُ ضَوْءَ النَّهَارِ خَاضَا
حَتَّى كَسَا عَاتِقَهُ بَيَاضَا

20 – وَإِنْ يَكُنْ مِنَ الرُّغَاءِ أَرْعَدَا
رَأَيْتَهُ كَمِثْلِ بَحْرٍ أَزْبَدَا

21 — وَهْــوَ صَــؤُولٌ كُـلَّمَــا أَتَــاهُ
يَـقُــودُهُ شَـخْــصٌ سِـوَى مَوْلاَهُ
22 — فَارْأَفْ بِـهِ يَـا أَيُّهَـا الْجَمَّــالُ
فَإِنَّــهُ فَــحْـلٌ لَــهُ الْكَمَـالُ

وكان الارتحال من هاته المنزلة المباركة باكرة يوم الخميس ثالث صفر الخير سنة 1300 .

[قاع الصغير]

هاته أول مرحلة في الأراضي الشامية . وكانت الأرض صحراء منبسطة وليس بها ماء ولا قلعة . وبها وقعت غارة على الحجّاج سنة 1171هـ. وقد سرنا فيها بياض يومنا . وشاهدنا فيها أحسن المناظر الجوية بسبب / اتّساع [148] الأرض وانبساطها وظهور انجلاء قبّة الأفق وتلوّن غيومه وأنواره وامتداد السراب على الأرض بوجه عجيب . وقد وصفت ذلك في عشرة أبيات وهي قولي : (من بحر الكامل)

1 — سَيْـرُ الصَّبَـاحِ عَلَـى ظُهُـورِ الأَنْيُقِ
فِـي الْبِيـدِ أَبْـدَى مَنْظَـرَ الْمُتَأَنِّقِ
2 — فَمِـنَ السَّمَـاءِ نَرَى عَلَيْنَا قُبَّةَ الْـ
ـبِلَّوْرِ قَدْ حِيطَتْ بِخَيْرِ مُزَوَّقِ
3 — فَكَأَنَّمَا قُــزَحٌ أَرَاهَـا قَـوْسَــهُ
فَـأَرَتْـهُ دَائِـرَةَ الْبَهَـاءِ الأَوْرَقِ
4 — فِيهَـا سَحَـابٌ قَدْ تَلَـوَّنَ وَاكْتَسَى
وَشْـيَ الْبُرُودِ مِـنَ الصَّبَـاحِ الْمُشْرِقِ
5 — وَالشَّمْسُ تَطْلَعُ كَالمُطِلَّةِ مِـنْ كَرَى
بِـأَغَـرَّ وَجْـهِ فَـاتِـنِ الْمُتَعَشِّقِ

6 ـ حتّى إذَا بَانَتْ بِهَا بَسَطَتْ لَنَا
بُسُطًا تَعُمُّ الأفْقَ بِالإسْتَبْرَقِ

7 ـ وَكَأنَّ سَطْحَ الأرْضِ عِنْدَ نِهَايَةِ
الأبْصَارِ حِيطَ بِمَاءِ بَحْرٍ مُغْدِقِ

8 ـ بَحْرٍ وَلَكِنْ مِنْ سَرَابٍ لاَ شَـ
ـرَابَ بِهِ وَلاَ رَشْحَ بِمَاءٍ مُطْلَقِ

9 ـ فَتَرَى مَدَارَ الأفْقِ دَائِرَةً وَلَـ
ـكِنْ شَأوهَا طُولَ العَوَالِمِ يَلْحَقِ

10 ـ وَكَأنَّ سِمْطَ قِطَارِهَا فِي البِيدِ فَـ
ـاصِلُ قُطْرِهَا فَصْلاً بِوَجْهِ البَيَقَ

11 ـ هَذِي مَنَاظِرُ سَائِقِ الأضْعَانِ فِي الـ
ـبَيْدَاءِ يَطْوِيهَا بِقَلْبٍ مُشْفِقِ (1)

وقد بتنا وبات القوم في انبساط وراحة بقاع الصغير وارتحلنا منه باكرة يوم الجمعة رابع صفر .

[ذات الحج]

نزلنا بهذا المكان في الساعة العاشرة . ووجدنا قلعة فيها عين جارية يجري ماؤها إلى بركة هنالك بناها السلطان سليمان . وحول تلك القلعة نخيل ذكر لا تمر له . وبتلك الأرض حَجَرُ الحسن الأبيض . وكان المبيت هنالك في راحة والرحيل باكرة يوم السبت الخامس من صفر / . [149]

(1) الملاحظ أن هذا القصيد به احد عشر بيتا لا عشرة كما قال المؤلف .

[قلعة المدورة]

هذه قلعة حولها بركة بناها عبد الله باشا . والماء يخرج من تلك القلعة قليلا في تلك الفلاة نزلناها في الساعة العاشرة نهارًا بعد أن قطعنا رمال الطريق ومررنا برصيف من حجر يُسَمَّى حالات عمار . وللعكّامين في وجه تسميته حكايات لا نعيرها شيئا من الاعتبار . وتحيط بتلك الفلاة جبال محجّرة وهنالك صحراء واسعة يحيط بها السراب عن قُرب كالبحر . وتسمّى هاته المنزلة طبيليات المدورة . وارتحلنا منها باكرة يوم الأحد السادس من صفر .

[بطن الغول]

هذه المنزلة تسمى أمّ غيلان وأمّ عياش تحت العقبة الآتية . وهي منبت أحطاب وبها شجرة شربط (1) بها الخروق . ويدّعي لها الجهلة للنذور . وتلك من آثار الجاهلية في ذات الشراميط . وقد سرى داء ذلك في الإسلام عند الجهلة فترى بأبواب زوايا بعض الأولياء وشبابيكها ربط الشراميط للنذور التي ما أنزل الله بها من سلطان . وفي أهل البادية من يتّخذون شجرة عتيقة لربط الشراميط للنذور .

وقد عرف أهل جبل خمير من المملكة التونسية باتّخاذ شجرة من الفرنان لذلك . ولكنّي رأيت في بلد نابلي من أشهر بلدان ايطاليا محلاً حوله شجرة وبمنافذه شراميط فذكروا أنّها شراميط نذور لعامّتهم . وكان المبيت تلك الليلة في بطن الغول أسفل العقبة بعد قطع الرمال . وارتحلنا يوم الإثنين سابع صفر بعد وضوح الفجر .

[ظهر العقبة]

[150] هذه عقبة عظمى في جزيرة العرب حتّى أنّ اسم العقبة إذا أطلق / انصرف إليها لعظمتها وامتدادها وشدّة ارتفاعها وصعوبة رصيفها . فكنّا

(1) كلمة : شربط كذا بالنص ولعل المقصود كلمة : شربين أي شجر كالسرو .

بياض يومنا في الارتقاء للعقبة . وحجارة الطريق سوداء من نوع الصوان الأملس وفي بعضه لمعان معدني . وكان المبيت على ظهر العقبة في أرض محصبة . والعادة سابقا أنّ أمير الحجّ يضرب خيمته ويجلس بها إلى نهاية مرور الحجّاج ويقف هنالك باش سقّاء يسقي المارة شربات السكر .

والمنزلة عند عَبَدان بتحريك العين والباء . وهي آخر القرى الشامية . وفي المثل : ليس وراء عبدان قرية . وهنالك قرية بناها عثمان باشا . وارتحلنا آخر ليلة الثلاثاء الثامن من صفر .

[بلد معان]

هذه قرية في الصحراء بناؤها من طوب وحولها قلعة وبالقرب بلد آخر يسمّى أيضا معان فهما معانان ينتسب أهل أحدهما إلى الحجاز وأهل الآخر إلى الشام . وبذلك كانت العداوة بين أهل البلدين راسخة والتقاتل بينهما مسترسل لا وازع ولا رادع لهم . وقد سأل تابع لنا امرأة انتسبت إلى معان الحجازية عمّا وقع بينهم وبين أهل معان الشامية أخيرا . فقالت وقعت معركة ذبحنا فيها سبعة عشر رجلا منهم وكسرنا قوائم رجلين وغلبناهم . (قالت ذلك) مجاهرة دون توار من الحكومة . والحكومة التي بينهم أعجز عنهم من عجز أضعفهم عن أقواهم .

والمستفاد من التاريخ أنّ كثيرا من قبائل تلك الأراضي تأثّلت بينهم عداوات بسبب الحروب وبقي كلّهم على تلك العداوة يقاتلون فَيَقْتُلُون وَيُقْتَلُون كلّما ساعدتهم الفرصة بذلك . ولا يبعد أن يكون أهل معانين ممّن دخلت بينهم تلك العداوات فبلغوا بها إلى هاته الغايات .

[151] وقد كانت معان مسكنا لطائفة / من بني أميّة . وطريقها صعب جدّا مع المطر . وماؤها كثير . وهنالك قلعتان إحداهما بناها السلطان سليمان وأجرى

بداخلها سقاية من عين تسمّى عين الباشا . وبالثانية عين الخاصّة وبها شجر السفرجل والدرّاقن . ويرد لها الليمون والأترج من بلد الخليل .

وعند نزولنا أتوا من فواكههم بالتين والرمّان المجفّف . وفيهم جمال بديع غير أنّ البنات يشوّهن وجوههنّ بلحى من الوشم تحيط بخدودهنّ الحمر إحاطة النبات الأخضر بالشقيق الأحمر ويثقبن الأنوف ويضعن فيها الحلق المتعدّدة تحلّيا بها .

وفي ليلة مبيتنا بهاته المنزلة أنشأت مقامة أدبية في معان شعرية من لغات متعدّدة استجدتها من مؤانسة أخلاط الرفقاء وشجون الحديث يدعوني إلى إثباتها في هذا المحلّ .

المقامة المعانية

أخبرنا أبو المحاسن ابن بسام. أنه خرج في بعض الأعوام. لحج بيت الله الحرام. وزيارة روضة خير الأنام. عليه الصلاة والسلام. ثم قصد دمشق الشام. ليحصل من يمن الزيارات على المرام. قال: وكان خروجنا في ركب عظيم. متسق القطار كالدر النظيم. نقطع به البراري. وتفلي غضون منقطع الصحاري. بين أوعار وأنجاد. وربما أحاطت بنا شوامخ الجبال ونحن في الوهاد. لا ترى عيوننا أشجاراً ولا أطياراً. وليس نلاقي إلا كثيباً أو أحجاراً. تحملنا محفات الرحال. على الجمال. فتلج بنا مضايق الجبال. وتسير بنا بياض النهار وأطراف الليال. حتى مللنا كل فحل يعادل ثبير. وأعياه بعد الماء واقتراب المسير. / بعد أن [152]
قضى في ذلك شهراً. يصبر علينا ونحن نشكوه سراً وجهراً. فأوجب الحال أن يقيم الركب مستريحاً. وكنا نرى الزمان براحتنا شحيحاً. فتخيرنا المعان. ونزلنا حول بلد معان. حتى إذا قضينا في أعمالنا باكرة نهارنا. وغيرنا ألبستنا لتحسين أطوارنا. أخذت أمشي بين الخيام. وأنظر من

حَوَتْهُمْ مِنَ الْعَرَبِ وَالأَعْجَامِ . وَأُرَدِّدُ الْفِكْرَ الْمُسْتَهَامَ فِي عِبَرِ الأَيَّامِ . كَيْفَ جَمَعَتْ بَيْنَ مُتَبَايِنِ صُنُوفِ الأَنَامِ . فِي هَذَا الْمَقَامِ . فَوَقَعَ بَصَرِي عَلَى فُسْطَاطٍ . اجْتَمَعَتْ فِيهِ الأَخْلاَطُ . عَلَى حَالَةِ النَّشَاطِ . وَعَرَفْتُ فِيهِمْ ظَرِيفًا انْبَرَى مِنْ بَيْنِهِمْ . حَتَّى صِرْتُ مُرْتَادَ نَظَرِ عَيْنِهِمْ . فَتَلَقَّانِي بِأُنْسٍ وَإِكْرَامٍ . وَحَيَّانِي تَحِيَّةَ السَّلاَمِ . وَدَعَانِي أَنْ أَدْخُلَ فِي سِلْكِ ذَلِكَ النِّظَامِ . فَتَهَلَّلَتْ مِنْهُمْ أَسَارِيرُ الْمَسَرَّةِ . وَأَوْسَعُونِي احْتِفَالاً وَمَبَرَّةً . فَقُلْتُ لَهُمْ شَكَرَ اللَّهُ يَدَ السَّفَرِ . فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تُشْرِكُونِي فِي أُنْسِكُمُ الْمُعْتَبَرِ . وَإِذَا هُمْ يَتَجَاذَبُونَ أَطْرَافَ الأَدَبِ . وَيَنْسَلُّونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ . وَكَانَ مَحَطُّ رِحَالِ الْمُحَاوَرَةِ . وَمُجْتَمَعَ لَطَائِفِ الْمُحَاضَرَةِ . هُوَ ذِكْرُ فَضْلِ الشَّاعِرِ الَّذِي بَرَعَ فِي أَدَبِهِ . وَيَقُولُ الشِّعْرَ الْجَيِّدَ كَمَا يُرَادُ بِهِ . وَأَخَذَ كُلٌّ يَذْكُرُ مَا يَسْتَحْضِرُهُ مِنْ هَذَا الْبَابِ . وَيَأْتِي مِنْ بَدَائِعِ رِوَايَتِهِ بِالْعَجَبِ الْعُجَابِ . وَكَانَ ذَلِكَ الظَّرِيفُ مِنْ بَيْنِهِمْ لاَ يَفُوهُ بِبِنْتِ شَفَةٍ وَإِنَّمَا تَارَةً يَرْمُزُ إِلَيَّ بِجَفْنِهِ . وَتَارَةً بِعَضِّ مَرْشَفِهِ . فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَخِرٌ لَبِقٌ (1) لَيَنْبَاعُ (كذا) . وَمُجَرْمَرٌ (2) سَيِّدُ الْبَاعِ . وَلِذَلِكَ تَطَفَّلْتُ عَلَى مَائِدَةِ الْقَوْمِ . وَقُلْتُ لَهُمْ بَارَكَ اللَّهُ لَكُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ . إِنَّ الشِّعْرَ الْقَدِيمَ . قَدْ أَحْصَاهُ الرَّقِيمُ . وَلَطَائِفُ كُلِّ صِنَاعَةٍ . قَدْ نَشَرَتْهَا بِهَذَا الْعَصْرِ رُقُومُ الطِّبَاعَةِ . فَهَلْ مِنْ بَدِيعٍ جَدِيدٍ . نَعُدُّهُ مِنْ أُطْرُوفَاتِ السَّفَرِ الْبَعِيدِ . فَقَالُوا
لَبِئْسَ فِينَا / شَاعِرٌ يَقُولُ كَمَا يُرِيدُ . وَلَمْ نَرَ فِي الْعَصْرِ [153]
الْحَاضِرِ مَنْ يَأْتِي فِيمَا يُرَادُ بِهِ بِالْقَوْلِ السَّدِيدِ . فَقُلْتُ :

---

(1) مخر البيت : أخذ خيار متاعه . لبق : لطيف ظريف .

(2) كذا بالنص ولعل الكلمة هي : نحرير .

أَلَيْسَ بَيْنَكُمْ هَذَا الظَّرِيف الصبيحُ . وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْبَدَاهَةِ بِالْقَوْلِ الْفَصِيحِ . فَإِذَا هُوَ كَأَنَّمَا نَشطَ مِنْ عُقَال . وَمَا تَهَيَّبَ أَنْ قَالَ . إِنَّ الْقَوْمَ لاَ يَسْتَطِيبُونَ فَنِّي . لِصِغَرِ سِنِّي . وَيَرَوْنَ الْفَضْلَ مَقْصُورًا عَلَى مَنْ تَطَاوَلَتْ عَلَيْهِم الأَيَّامُ . أَوْ تَعَاظَمُوا بِكِبَرِ الأَجْسَامِ . مِنْ غَيْرِ الْتِفَاتٍ إِلَى مَحَلِّ اخْتِيَارِ اللَّهِ فِي ثَابِتِ الأَحْلاَمِ . فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ هَذَا الْمَقَامَ . لَيْسَ مَحَلًّا لِلْخِصَامِ . وَلا تَسْتَكِف فِيهِ إلا إلَى لَطَائِف الْكَلاَمِ . فَهَلْ لَكَ مِنْ رَقِيقِ النِّظَامِ . مَا تَسْتَمِيلُ بِهِ إِلَيْكَ هَؤُلاَءِ الأَعْلاَمِ . قَالَ : إِنِّي مُنْذُ يَوْمَيْنِ قَدِ اعْتَذَرْتُ بِبَيْتَيْنِ . لِمَنْ عَذَلَنِي فَحَمَّلَنِي الأَيْنَ . وَهُمَا : (من بحر الوافر)

1 – حَبِيبِي نَاطَ حُبَّهُ بالنِّيَاطِ   فحاطَ القلبَ منّي باحْتِيَاطِ
2 – فنِطْتُ به وَثِيقَ الحبّ قَسْرًا   وَهِمتُ به لتحقيقِ المَنَاطِ

فَتَشَخَصَ الْقَوْمُ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْرِفُونَهُ . وَاسْتَدْنَوْا مَجْلِسَهُ لَعَلَّهُمْ يُنْصِفُونَهُ . بَعْدَ أَنْ أَثْنَوْا عَلَى مَا أَنْشَدَهُ . وَاسْتَعَادُوهُ مِنْهُ فَرَدَّدَهُ . وَسَأَلُوهُ مَوْضُوعَ حَدِيثِهِم الأَوَّل . فَادَّعَى أَنَّه يَقُولُ كَمَا يُرَادُ بِهِ وَعَلَيْهِ فِي هَذَا الْبَابِ الْمُعَوَّلُ . وَكَانَتْ دَائِرَتُنَا تَحْوِي عَدَدَ أَيَّامِ الأُسْبُوعِ . فَقَالُوا كُلُّ وَاحِد مِنَّا يَقْتَرِحُ مَعْنًى تُنَظِّمُهُ رَحْمَةً لِمَقْطُوعِ . وَإِنْ أَتَيْتَ لَنَا بِهَذَا الْبَيَانِ . فَأَنْتَ بَدِيعُ الزَّمَانِ (1) . فَلَبَّى دَعْوَتَهُمْ وَأَقْسَمَ بِمَنْ أَحَلَّهُ ذَلِكَ الْمَكَانَ . أَنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُ لأَيْسَرُ مِنْ تَحْرِيكِ اللِّسَانِ . فَقُلْتُ عَلَى شَرْطِ أَنْ أَكُونَ رَاوِيَةَ مَا تُنَظِّمُهُ مِنَ الْحِكَمِ . فَقَرَّبُوا إِلَيَّ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَ .

(1) هنا إشارة إلى تشبيه ببديع الزمان الهمذاني أحمد بن الحسن بن يحيى ولد بهمذان سنة 358هـ/969م. ومات في هراة مسموما سنة 398هـ/1009م. وهو أحد أئمة الكتاب . له : مقامات 7 . وأخذ الحريري أسلوب مقاماته عنها . كان قوي الحافظة يضرب المثل بحفظه ويذكر أن أكثر مقاماته ارتجال . (انظر : الزركلي : الاعلام : ج 1 – ص : 112 .

وَعِنْدَ ذَلِكَ بَادَرَهُ الأَوَّلُ بِقَوْلِهِ : إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ وِدِّي .
[15] أَنْشَدَنِي / مَعْنًى مِنَ الشِّعْرِ الْهِنْدِي. مَا لَهُ أَنَّ جُودَ الْمَحْبُوبِ بِبَقِيَّةِ مَشْرَبِهِ مِنَ الدُّخَانِ . يُعْطِيهِ قُبْلَتَهُ بِالإِحْسَانِ . فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْبَيَانِ . فَانْظُمْهُ فِي عُقُودِ الْجُمَانِ . فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلاَّ أَنْ قَالَ : (من بحر الرجز)

1 ـ قَدْ قَالَ مَنْ يَهْوَى مَصُونًا أَنَّهُ
مَتَّعَ الْمُقَبِّلَ فِي السِّنِينِ الْفَارِطَهْ

2 ـ حَتَّى إِذَا عَلِقَ الدُّخَانَ وَجَادَ مِنْ
مَعْسُولِهِ قَبَّلْتُهُ بِالْوَاسِطَهْ

وَقَالَ الثَّانِي : إِنِّي رَأَيْتُ مَعْنًى مِنَ الشِّعْرِ الْفَارِسِي . كُنْتُ بِهِ أَسْتَطِيبُ مَغَارِسِي . فِيهِ تَحْذِيرُ الْمَحْبُوبِ مِنْ دَمِ الْعَشِيقِ . حِينَ مُرُورِهِ عَلَى الطَّرِيقِ . فَأَبْرَزَهُ لَنَا فِي الْقَالَبِ الْعَرَبِيِّ الرَّقِيقِ . فَمَا تَرَيَّثَ أَنْ قَالَ : (من بحر الكامل)

1 ـ قَدْ مَرَّ مَحْبُوبِي بِبَيْتِي سَادِلاً
ثَوْبًا فَقُلْتُ لَهُ مَقَالَ مُتَيَّمِ

هَذَا مَمَرُّكَ مَجْزَرُ الْعُشَّاقِ فَاكْـ
ـشِفْ عَنْ سَنَى سَاقٍ وَحَاذِرْ مِنْ دَمِي

وَقَالَ الثَّالِثُ : إِنِي أَرَانِي . أَسْتَلِذُّ مَعْنًى مِنْ هَذَا اللِّسَانِ الإِيرَانِي . فِيهِ تَشْبِيهُ شُعَاعِ الشَّمْسِ بِالْمَشْطِ الرَّفِيعِ . عَلَى رَأْسِ ذَاتِ الْجَمَالِ الْبَدِيعِ . فَأَرِنَا مِنْهُ مَحَاسِنَ التَّرْصِيعِ . فَقَالَ : اكْتُبْ وَأَنَا الْبَدِيعُ : (من بحر الطويل)

1 ـ أَرَادَتْ فَتَاةُ الْحَيِّ مِنْ رَأْسِهَا مَشْطًا
فَرَاعَ ذُكَاءُ فَرْعَ لَيْلٍ بِهِ اخْتَطَّا

2 ـ فَسَارَتْ لَهَا بِالأُفْقِ تَسْعَى لِخِدْمَةٍ
وَمَدَّتْ بِأَسْلاَكِ الشُّعَاعِ لَهَا مُشْطَا

وَقَالَ الرَّابِعُ : لَقَدِ اسْتَجَزْتَ بِمَا أَسْلَفْتَهُ فَتَكْيِي . وَإِنِّي مُورِدٌ عَلَيْكَ مَعْنًى مِنَ الشِّعْرِ التُّرْكِي . تَضَمَّنَ الادِّعَاءَ . بِأَنَّ نُجُومَ السَّمَاء . مِنْ شَرَارِ الْحُبِّ . الَّذِي لاَ يُمْكِنُ كَتْمُهُ لِلْمُحِبِّ . فَاعْقِدْهُ أَيُّهَا الظَّبْيُ الأَغَنُّ . بِالنَّظْمِ الْحَسَنِ . فَقَالَ : (من بحر الكامل)

1 ـ أَرَأَيْتَ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ أُضْرِمَا
بِهَوًى فَتًى أَصْبَحْتُ مِنْهُ مُتَيَّمَا

2 ـ هَلْ مُمْكِنٌ كَتْمُ الْهَوَى مَعَ نَارِهِ
وَشَرَارُهَا بِالأُفْقِ أَمْسَى أَنْجُمَا / [155]

وَقَالَ الْخَامِسُ : أَعْرِفُ مِنْ شِعْرِ هَذَا اللِّسَانِ . مَعْنًى تَشَكَّى فِيهِ الشَّاعِرُ مِنْ جَوْرِ الزَّمَانِ . حَيْثُ إِنَّ جَمَالَ الْحَيَاءِ فِي وَجْهِ مَحْبُوبِهِ . كَانَ حَاجِباً لِبَصَرِهِ عَنِ الْحُصُولِ عَلَى مَطْلُوبِهِ . فَاسْلُكْ فِي نَظْمِ ذَلِكَ مَسْلَكَ أُسْلُوبِهِ . فَأَنْشَدَ : (من بحر الكامل)

1 ـ لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى الْجَمِيلِ أَبَانَ مِنْ
فَوْقِ الْمُحَيَّا بِالْحَيَاءِ نِقَابَا

2 ـ حَتَّى حُجِبْتُ بِهِ وَقُلْتُ تَعَجُّبُوا
إِذْ كَانَ لِي هَذَا الْجَمَالُ حِجَابَا

وَقَالَ السَّادِسُ : إِنِّي رَأَيْتُ مِنْ شِعْرِ اللِّسَانِ الْحَبَشِيِّ الْمَشْهُورِ . مَعْنًى يَرُوقُ سَامِعَ الشُّطُورِ . فِيهِ تَشْبِيهُ خَطِّ الْحَبِيبِ عَلَى الصَّحِيفَةِ . بِخَطِّ الْعِذَارِ عَلَى صَفْحَةِ الْخَدِّ اللَّطِيفَةِ . فَانْظُمْهُ بِدُونِ خِيفَةٍ . فَبَادَرَ قَائِلاً : (من بحر الكامل)

1 - وَرَدَ الْكِتَاب بِخَطِّ مَنْ أَهْوَى وَفِي
أَلْفَاظِهِ مَا صَانَ سَالِفَ وِدِّي

2 - وَلأَجْلِ ذَلِكَ لَثَمْتُهُ وَحَسِبْتُهُ
خَطَّ الْعِذَارِ عَلَى صَحِيفَةِ خَدِّهِ

وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا : إِنَّ النَّوْبَةَ أَفْضَتْ إِلَى الرَّاوِيَةِ . فَقُلْتُ : إِنِّي أَعْرِفُ مَا عَيْبَةُ الرَّجُلِ حَاوِيَةٌ . وَلَكِنِّي أُسَائِلُهُ عَنْ حَالِهِ فِي هَذَا السَّفَرِ الْبَعِيدِ . لِيَقُولَ كَمَا يُرِيدُ . فَصَعَّدَ النَّفَسَ الْمَدِيدَ . وَأَنْشَدَ مِنَ الدُّرِّ النَّضِيدِ : (من بحر الرمل)

1 - إِنْ يَكُنْ عَنِّي وَدُودِي سَائِلاً
فَأَنَا فِي طُولِ أَسْفَارِي غَرِيبْ

2 - أَرْتَجِي فِي غُرْبَتِي مِنْهُ الدُّعَا
وَعَلَى اللَّهِ اعْتِمَادِي أَنْ يُجِيبْ

فَكَتَبْتُ هَاتِهِ السَّبْعَةَ مَقَاطِيعَ بِبَنَانِي . وَعَوَّذْتُهُ بِالسَّبْعِ الْمَثَانِي . وَقُلْتُ لَهُ : رَدَّ اللَّهُ غُرْبَتَكَ وَبَارَكَ فِيكَ . وَلاَ زَالَ الدُّرُّ يَتَسَاقَطُ مِنْ فِيكَ . فَقَدْ عَرَفْنَا بِدُرِّكَ النَّضِيدِ . حُسْنَ التَّعْلِيلِ وَصِنَاعَةَ التَّوْلِيدِ . مِمَّا تَحَلَّى بِهِ لِلأُدَبَاءِ عَاطِلُ
[156] الْجِيدِ . وَأَدْرَكْنَا مِنْ سِرِّ التَّرْجِمَةِ بِالْعَقْدِ وَالْحَلِّ . / مَا جَمَعَ شَمْلَ مَحَاسِنِ اللُّغَاتِ فِي هَذَا الْمَحَلِّ . وَزَادَكَ بَيْنَ أَعْلاَمِ الأَدَبِ فَخْرًا . وَعَرَفْنَا بِهِ مِصْدَاقَ إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا .
وَأَقْسَمَ الْقَوْمُ عَلَى أَنَّهُ أَبْدَعَ فِي الصُّنْعِ . وَرَاقَتْ بَدَائِعُهُ فَكَانَتْ بِكَعَبَاتِ الْقُلُوبِ هِيَ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعَ . وَأَوْسَعَهُ جَمِيعُهُمْ شُكْرًا . وَرَفَعُوهُ قَدْرًا . وَقَالُوا نَشْهَدُ أَنَّهُ ابْنُ الْبَرَاعَةِ وَأَبُو الإِجَادَةِ . فَحَيَّا اللَّهُ لِسَانَهُ وَفُؤَادَهُ . وَلَقَدْ عَلِمْنَا بِهِ بَرَاءَةَ الشُّعَرَاءِ مِنْ شَيْنِ مَا يَنْظُمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ .

ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنْ مَنْشَئِهِ وَبِلاَدِهِ . وَطَارِفِهِ وَتِلاَدِهِ . وَكُنْتُ عَرَفْتُ خُضْرَةَ بَلْدَتِهِ . مِنْ نَفْحَةِ عَرْفِهِ الدَّالِ عَلَى مَنْبَتِهِ . فَاهْتَزَّ لِسُؤَالِ السَّائِلِ وَمَالَ . وَنَظَرَ إِلَيَّ وَقَالَ : (من بحر مجزوء الرمل)

1 — تُونِسُ الأُنْسِ بِلاَدِي   وَهْيَ غَايَاتُ ارْتِيَادِي
2 — بَلْدَةٌ قَدْ فُزْتُ مِنْهَا   بِطَرِيفِي وَتِلاَدِي
3 — قَدْ حَوَتْ أَصْلِي وَنَسْلِي   وَانْتَقَتْ أَهْلَ وِدَادِي
4 — قَدْ حَوَتْ كُلَّ هُمَامٍ   فِيهِ آيَاتُ السَّدَادِ
5 — فِيهِ لِلْمَعْقُولِ وَالْمَنْـقُولِ غَايَاتُ الْمُرَادِ
6 — فِيهِ لِلآدَابِ رَوْضٌ   بَكَّرَتْ فِيهِ الْغَوَادِي
7 — وَهْيَ خَضْرَاءُ سَقَاهَا   لُطْفُهُمْ صَوْبَ الْمِهَادِ
8 — مَنْ رَأَى يَوْمًا حُلاَهَا   عَادَ بِالأَمْدَاحِ شَادِ
9 — وَهْوَ إِنْ فَارَقَهَا يَصْـحَبُ لَوْعَاتِ الْفُؤَادِ
10 — فَاعْذِرُونِي يَا أُهَيْلَ الْـوُدِّ فِي حُبِّ بِلاَدِي

وبما تضمّنته هاته المقامة المعانية من لطائف اللغات يدعوني شجون الحديث إلى ذكر ما رأيت عليه علماء الحجاز من عنايتهم بعدّة / لغات أكثرها [157] عندهم اللسان التركي الذي هو لسان الدولة العلية ، واللسان الفارسي لكمال امتزاجه باللسان التركي ، واللسان الهندي لكثرة الوافدين من الهند ، واللسان الحبشي ولسان أهل جاوة وهاته الألسن زيادة على اللسان العربي الأصلي في جزيرة العرب .

[علماء الحجاز]

وفي علمائهم من يدرّس ببعضها الكتب العالية . وهذا برهان عظيم على تقلّبهم في فنون العرفان . وكلّ لسان بإنسان ، وداعية تعلّم الألسن بمقدار حاجة الإنسان ، ومقدار باعث المخالطة . وغير خفيّ أنّ الحجاز به

كعبة الأمّة الإسلامية يحجّون إليها من كلّ فجّ عميق فيخالطهم ساكنوا الحجاز مخالطة تقضي على كلّ طائفة بمعرفة لسان من يخالطونهم وهـذه أوفر داعية لحفظ الألسن وتعلّم اللغات فضلا عمّا يضطرّ إلى لسان الدولة أو القوّة لجلب المصلحة ودفع المضرّة .

[بيان للمؤلّف في فضل معرفة اللغات]

وفي هذا المعنى صدر منّي خطاب كتبته لأحد معلّمي المدارس التونسية بعد إيّابي من هذا السفر حيث عرض عليّ من تلاميذه بالمدرسة من امتحنهم فيما زاولوه من اللّغة الأجنبية . ورأيت من ذلك ما سرّني . ولكنّ إدارة المعارف نشرت ذلك الخطاب في الصحيفة الرسمية في 12 جمادى الأولى سنة 1302 (27 فيفري 1885) ولذلك نودعه للحفظ في هاته المناسبة ونصّ ما تضمّنه بعد الفاتحة :

أمّا بعد إهداء أعزّ السلام . المتفتّق الأكمام . عن عبير المودّة والإكرام . فإنّي لمّا زرت المدرسة الفرعية . ورأيت من آثار تعليمك تلك المزيّة المرعيّة . تملّأت جوارحي سرورا . وتهلّل عندي محيّا الفرح بما اكتسبت به حبورا . وشكرت الله على ما رأيت لتلاميذك من النجابة . التي [158]
أصبحت / بها سنائرهم منجابة . فرأيت من همّتك العزيزة . ما ظهر على المتعلّمين في هاته المدّة الوجيزة . إذ حصلوا فيها على حسن النطق بسائر الحروف وتركيبها . وضبط كتابتها على قواعد ترتيبها . ولو لم يكن لهم غير ذلك . لاتّخذناه دليلا على كمال اعتنائك كافيا . وبما يراد منك وافيا . ولكن رأينا فيهم بعد النطق وسرد القواعد باللسان الغريب . فضل حسن الترجمة بالتعريب . في مبادىء ابتدائهم . بجدّ اعتنائهم . مع تحرّيك لهم مهذّب الألفاظ العربية . وحسن الأمثال التي تنبعث لها الهمم الأبيّة . وفي غضون ذلك من فوائد التربية والتهذيب . ما نؤمّل من الله أن يظهر أثره في الخارج عن قريب . وبمثل ذلك تعرف مزيّة تعليمك . لنشأة أبناء إقليمك .

[احسان اللغات الأجنبية يمكن اعتباره من خدمة الدين]

وهنا أنتهز هذه الفرصة لتنبيه أفكار الفوارس وايقاظ همم زغب الحواصل من أبناء المدارس بأنّ ما يزاولونه يمكن لهم أن يعدّوه من خدمة الدين سيّما في هاته الأوقات . وإنّما الأعمال بالنيّات . وبذلك تنبعث هممهم حتّى لا يكون واحد منهم من المحجمين .

وفي صحيح البخاري (1) عن محمد بن الحسن الشافعي (2) لابدّ للحاكم من مترجمين . والمنقول في كتب الدين عن أهل الإفادة : أنّ مذهب أحمد إذا لم يعرف الحاكم لسان الخصم لا يقبل فيه إلاّ عدلان كالشهادة وإن اكتفى أبو حنيفة بالترجمان الواحد على مقتضى الخبر الوارد . ومذهب مالك على ما نقله من روى . وكتب عن أشهب وابن نافع عن إمام دار الهجرة يترجم له ثقة مسلم مأمون واثنان أحبّ إليّ .

وإذا كانت أئمّة المذاهب يشترطون في الترجمة العدالة والإسلام فذلك فرض كفائي تركه يوجب / الإثم العام . والقيام به على وجهه يتوصّل به إلى [159] إرضاء الملك العلاّم . سيّما إنْ تَوَقّفَ عليه حِفْظُ ما أجمع الملّيُّون على وُجُوب حفظه من الأصول والعرض والمال هما مداد الخصومات . هذا مع كون تعدّد الألسنة في الإنسان يكسبه مزيّة لا يختلف فيها اثنان : (من بحر الطويل)

1 — بِقَدْرِ لُغَاتِ الْمَرْءِ يَكْثُرُ فضلُهُ
وَتِلْكَ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ أعْوَانُ

2 — فَدَاوِمْ عَلَى حِفْظِ اللُّغَاتِ مُثَابِراً
فَكُلُّ لِسَانٍ فِي الْحَقِيقَةِ إنْسَانُ

---

(1) البخاري : محمد الجعفي : (194هـ/810م. — 256هـ/870م.) ولد وتوفي في بخارى . من علماء الحديث . اشتهر بكتابه : الجامع الصحيح . شرحه ابن حجر العسقلاني وأبو زيد القاسي . (راجع دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الفرنسية الجديدة : 1 — 1337) .

(2) المعروف هو أن الامام الشافعي هو محمد بن ادريس الشافعي وهو أحد الأئمة الكبار مع أبي حنيفة ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل .

[اللسان الفرنساوي كثير الانتشار في العالم]

على أنّ اللسان الفرنساوي هو اللسان العامّ وصاحبه ينتفع به في كلّ موقع ومقام . ولقد شاهدت من صدق ذلك في الأسفار ما يبعث الأبيّ إلى الملاحظة بمزيد الاعتبار حتّى إنّي رأيت أهل البلد الواحد يحتاجون إليه في بلادهم وصاحبه يكفيه بينهم على اختلاف جموعهم وأفرادهم إذ لابدّ أن يوجد بين كلّ أمّة من أهله ترجمانا لشيوعه وكثرة أهله في الأصقاع والبلدان بخلاف غيره من الألسن القاصرة على مملكة أو أمّة فإنّه لا يكفي السائحين من ركّاب البواخر والبالون وسلك الحديد المهمّة التي يقطعون بها أشسع مكان في أقرب زمان فلا يلبثون أن تنقلهم سرعتها إلى ما يشاهدون فيه آية توحيد الربّ الخلاّق من اختلاف الألوان والألسن والأخلاق .

وبهذا يظهر مقدار ما رأيت من مَزِيَّةِ تَعْلِيمِكُمُ الوَحِيدِ . للنجباء من أبناء هذا العصر الجديد . سيّما على الأسلوب الذي رأيتكم تزاولونه لاستخراج الجواهر المكنونة ممّا لم أر مثله سابقا لأهل الحظوة من شاهد تقدّمهم بأبرع خطوة حتّى لم أر ذلك من سلامة فطرة الأبناء مما لكم بهم من الاعتناء لعمري .

[160] ولقد تحقّقت / بذلك ما كنت أراه من أسباب تيسير التعليم . مع حفظ الآداب والعوائد على الوجه المستقيم . من أنّ ذلك لا يكون إلاّ بإعطاء التعليم ليد أبناء الوطن . المتأثّلة فيهم تلك الغرائز على الوجه الحسن . فيتلقّاها المتعلّم في غضون التعليم . ويصبح فيها بين أهل وطنه أكمل زعيم .

ومثل هذا جدير بالاعتبار بين جميع أمم الممالك والأمصار . ولهذا نحن نعدّ تخصيصك وتخصيص أمثالك لهذا التعليم الجديد . يعين على تنشيط بواعث أهل البلاد التونسية إلى نيل ذلك الفخر المديد . وإن مدرسة أخرجت أمثالكم لخدمات البلاد وبنيها . لجديرة بأن تزيدها الدولة اعتبارا وتنويها . وإن إدارة انتخبتكم لهاته الخدمات . يكون ذلك منها لمن أعظم الحسنات .

[تنويه للمؤلف بإدارة التعليم العمومي بتونس]

وهنا اهتمّ لذكر شأن وزارة المعارف . التي زينت البلاد بهاته المطارف . فأعيد عليها ثناء من لسان أعمالها . التي ستبلغ بها غاية آمالها . ممّا يعدّ من مفاخر البلاد . العائدة بحسن الذكر الوارث ملكها عن الآباء والأجداد . حتّى أصبحت المدارس ناشرة للتعاليم باسمه . وقام أمثالك بشؤونها عن أمره ورسمه . فكانت منها هاته المدرسة الفرعية فشهدت لمدرّسيها بصدق العمل . وآذنت لهم ببلوغ الأمل . وكأنّي بها قد أنبتت للبلاد نباتا حسنا . رأينا بدايته فشكرنا لها مننا .

وقد كتبت هذا إليكم ليخلد في دفتر مزاياها ويبقى لأهلها ذكرا حسنا لا يتناهى . ولعلّه به يزيد نشاط صنوانها . فتصبح مخضرّة مخضلّة في جنانها . إلى أن ترى منهم ما رأيناه فيك . وهذا القدر/ يكفيك . والسلام عليك [161]
ورحمة الله تعالى وبركاته من العبد الضعيف . محمّد بن عثمان السنوسي خادم العلم الشريف . وفقه الله آمين .

[ردّ السيّد لويز ماشيويل رئيس إدارة المعارف العمومية بتونس] (1)

وبعد نشر هذا الخطاب كتبت لي إدارة المعارف كتابا نصّه :

« الفاضل الزكي المدرّس البارع الشيخ السيّد محمّد السنوسي حرسه الله تعالى أمَّا بَعْدَ إهْدَاءِ التَّحِيَّةِ الزَّكِيَّةِ . فَقَدِ اطَّلَعْنَا عَلَى رَوْضَةٍ رَائِقَةٍ . وَعُيُونٍ دَافِقَةٍ . تَمَتَّقَتْهَا أَيَادِي الآدَابِ التُّونِسِيَّةِ . وَأَرْسَلَتْهَا الْحِيَاضُ الْعَذْبَةُ السَّنُوسِيَّةُ . فَوَجَدْنَاهَا دَلِيلاً وَاضِحَ الْبُرْهَانِ . يُشِيرُ إِلَى عَلَمِهَا بِالْبَنَانِ . وَيَشْهَدُ لَهَا

(1) لما أسست بتونس إدارة العلوم والمعارف في 28 جمادى الثانية 6/1300 ماي 1883 سمي مديرا لها لويس ماشويل اللذي استقدمته إلى تونس وزارة التربية القومية الفرنسية من مدينة وهران بالجزائر حيث كان يدرس اللغة العربية . وكان قدومه إلى تونس في فيفري 1883 . (راجع الرحلة الحجازية الجزء الأول ، تحقيقنا ، نشر الشركة التونسية للتوزيع سنة 1976 ، ص : 58) .

الْقَاصِي وَالدَّانِي . بِكَمَالِ الدِّرَايَةِ وَالْعِرْفَانِ . فَلْنَشْكُرْ سَعْيَكُمْ أَيُّهَا الْمُحَنَّكُ بِالتَّجَارِبِ . الْمُقَلِّبُ حَرَكَاتِ الْمَقَاصِدِ وَالْمَشَارِبِ . بِسَلاَمَةِ الذَّوْقِ وَصَفَاءِ الْمَشَارِبِ . عَلَى مَا اهْتَدَيْتُمْ بِهِ فَأَوْضَحْتُمْ سُبُلَهُ لِلسَّالِكِ . وَأَنَرْتُمْ مَنْهَجَهُ بِمَصَابِيحِ الأَدِلَّةِ لِمَنْ رَامَ ذَلِكَ . وَلَوْ أَنَّ هَاتِهِ الْخَضْرَاءَ لَمْ تَعْدِمْ غَيْرَكُمْ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ وَالرَّشَادِ . بَلْ فَازَتْ بِكُمْ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْبِلاَدِ . بِمَا لَكُمْ مَعَاشِرَ التُّونِسِيِّينَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَطُولِ الْبَاعِ وَغَزَارَةِ الْعَقْلِ وَوَافِرِ الْعِلْمِ . فَحَبَّذَا هَاتِهِ التُّرْبَةُ وَحَبَّذَا أَبْنَاؤُهَا .

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُرِينَا مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ مَا يَسُرُّنَا وَيُحَقِّقُ لَنَا جَانِبَ الرَّجَاءِ . بِمَا لَكُمْ مِنْ كَمَالِ الاعْتِنَاءِ . حَتَّى تَقَرَّ بِكُمُ الْعُيُونُ . وَيَتَوَفَّرَ الْحَظُّ كَمَا هُوَ الْمَظْنُونُ . حَرَّرَهُ فَقِيرُ رَبِّهِ لويز ماشويل رئيس إدارة المعارف العمومية التونسية في 22 جمادى الأولى سنة 1302 (مارس 1885) » .

وقد ارتحلنا من بلد معان في الساعة الأولى صباحا من يوم الأربعاء التاسع من صفر .

[162] [عنيـزة]

هاته المرحلة من المراحل الصعبة. ومَبْدَؤها صعود العقاب ومررنا فيها بوادي المسوخ . وفيه أحجار كريهة يزعم المارّة أنّها رؤوس المسوخين ويرجمونها بالحجارة . ولم تزل الطريق بين صعود إلى الأنجاد ونزول إلى الوهاد حتّى كان الممرّ على صلد الحجارة السوداء ويُسَمَّى الوعراء . ومررنا على قلعة عنزة وأمامها بركة للماء ولا ماء بها بناها سليمان باشا على ماء قليل فآل إلى النضوب . وكان المبيت بعنيزة .

وفي القاموس وعنيزة هضبة سوداء ببطن فلج وجارية . قلت : والجارية هي عنيزة بنت شرحبيل عمّ امرىء القيس بن حجر بن عمرو الكندي . وهو أحد أصحاب المعلّقات السبع من فحول الشعراء الذين أحرزوا الصيت الأوّل بين العرب العرباء في الشعر . وامتازت قصائدهم بالتعليق على الكعبة بالذهب على نفيس القماش .

ولحبّ إراحة النفس هنا نذكرهم بالإجمال :

[ترجمة امرىء القيس الكندي]

وأوّلهم امرؤ القيس الكندي ولد سنة 500 بعد المسيح . وكان والده شيخ قبيلته بني أسد فمات قتيلا . وسأل ولده أخذ ثأره من عرب البادية وملوك اليمن ومات مسموما سنة 540 . وكان أحبّ ابنة عمّه عنيزة وترصّدها بغدير دارة جلجل . فوردت مع العذارى ونزلن للاغتسال بعد نضو الثياب فجاء وأخذ الثياب وأقسم أن لا يدفعها إلاّ بعد خروجهنّ عواريَ فأبررنه وأخذن ثيابهنّ وشكين له الجوع فعقر ناقته وشووها وسقاهنّ خمرًا معه واحتمل العذارى ثيابه على رواحلهنّ واحتملته عنيزة على مقدم هودجها . وكان يدخل لها رأسه من الهودج . فحكى قصّته تلك في معلقته التي مطلعها : (من بحر الطويل) / [163]

1 – قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللِّوَا بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

[ترجمة طرفة بن العبد]

الثاني طرفة بن العبد بن سفيان البكري . واسمه عمرو وهو ابن العشرين ذو حسب كريم غضب عليه ملك الحيرة عمرو بن هند بسبب أن أخته خرنق كانت متزوّجة بعبد عمرو سيد أهل زمانه . فشكت من زوجها لأخيها فهجاه

وهجا الملك فدفنه حيًّا سنة 562 بعد الميلاد . وقد كان تعلّق بخولة الكلبية فأنشأ فيها معلّقته التي مطلعها : (من بحر الطويل)

1 — لِخَوْلَةَ أطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ
تَلُوحُ كَباقِي الوَشْمِ في ظاهِرِ اليَدِ

[ترجمة عنترة بن شدّاد]

الثالث : عنترة بن شداد من قبيلة نبهان . كان رقيقا تبَعًا لأمّه وأعتق في معركة واشتهر بالفروسية والشجاعة . وفاق في إتقان جميع أنواع الشعر . وقدم في وفد طيّ على النبيّ صلّعم سنة 629 (بعد الميلاد) . وتوفّي كبيرا ومعلّقته مثل السابقين في صور فكرية فيمن تعلّق بها ومطلعها : (من بحر الطويل)

1 — هَلْ غادَرَ الشُّعَراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ
أمْ هَلْ عَرَفْتَ الدّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

[ترجمة لبيد بن ربيعة]

الرابع : لبيد بن ربيعة بن مالك العامري . أسلم وقال : لم أقل شعرا بعد أن علّمني الله البقرة وآل عمران . وتوفي سنة ثلاث وأربعين من الهجرة سنة 662 بعد الميلاد . ومعلّقته أيضا غرامية قال في مطلعها : (من بحر الكامل)

1 — عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّها فَمُقامُها
بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها

[ترجمة زهير بن أبي سُلمى]

الخامس : زهير بن أبي سُلمى المزني توفّي في السنة الخامسة من الهجرة سنة 627 بعد الميلاد . ومعلّقته في الصلح بين عبس وذبيان وافتتحها بغزل فقال في مطلعها : (من بحر الطويل)

1 ـ أمِنْ أمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ
بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

[ترجمة عمرو بن كلثوم]

السادس : أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن عتاب بن مالك الثعلبي . توفّي عام / الهجرة سنة 622 بعد الميلاد . [164]

[ترجمة الحرث بن حلّزة]

السابع : الحرث بن حلّزة بن مكروه بن بدير من بني شيكر بن بكر بن وائل ولد سنة 540 بعد الميلاد . وكان موضوع معلقتيهما (عمرو بن كلثوم والحرث بن حلّزة) في مخاصمة جرت بين قوميهما من بني تغلب وبني بكر بن وائل .

فقد جاء أناس من بني تغلب إلى بني بكر بن وائل يستسقونهم في سنة أصابتهم فطردهم بكر ورجعوا إلى الفلاة فمات من بني تغلب سبعون رجلا . واجتمع بنو تغلب لمحاربة بكر . واستعدّ بكر وخافوا شرّ الحرب . فدعا بعضهم بعضا إلى صلح . وتحاكموا عند عمرو بن المنذر ملك الحيرة . فأصلح بين الفريقين وعند ذلك ارتجل عمرو بن كلثوم في ذكر أيّام بني تغلب يفتخر بهم ومطلعها : (من بحر الوافر)

1 ـ ألاَ هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبِحِينَا
وَلاَ تُبْقِي خُمُورَ الأنْدَرِينَا

وحضر هنالك الحرث مستترا في بني بكر لبرص كان به فارتجل معلّقته في ذكر أيام بني بكر . والمقاتلات التي انهزم فيها بنو تغلب . وأنشدها من وراء السجف . وفي أثناء إنشادها أمر برفع السجف استحسانا لها ومطلعها : (من بحر الخفيف)

1 ـ آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

[قلعة الحصا]

هذه قلعة حسنة البناء في بطن وادي (1) بأرض جيدة واسعة . ومحلّ النزول منها يُسَمَّى تابوت . ولأهل الركب هنا ذكر لمحمّد بن الحنفية (2) رضي الله عنه وغاية ما نعرفه من محقّق التاريخ أنّ المختار الذي خرج من الكوفة في طلب ثار الحسين وتمكّن من ناصية جميع أعيان مقتله حتّى قتل شمّر بن ذي الجوشن متولّـي قتل الحسين . وقتل خولى الأصبحي صاحب رأس الحسين . ثمّ أحرقه بالنار وقتل عمر بن سعد بن أبي وقاص صاحب / [165] الجيش الذين قتلوا الحسين وهو الذي أمر أن يداس صدر الحسين وظهره بالخيل . وقتل حفصا ولد عمر المذكور . وبعث برأسيهما إلى محمّد بن الحنفية بالحجاز في ذي الحجّة سنة خمس وستين . واتّخذ هذا المختار كرسيّاً وادّعى أنّ فيه سرّا وأنّه لهم مثل التابوت لبني إسرائيل .

وكانت وفاة محمّد بن الحنفية سنة إحدى وثمانين (للهجرة) . ولا أدري إذا كان تابوت المختار وصل لهاته المنزلة التي تُسمّى تابوت أوْ لا . ويُقال إنّ مدفن الشيخ جلال الدين الخلوتي بتلك النواحي . وأرضها منخفضة من نوع التربة بعضها مجرى للسيل . ويروى أنّ الحُجّاج في بعض السنين أتى عليهم السيل البيات (كذا) فحمل جميع أمتعتهم وسلموا بأشخاصهم .

وفي هاته المنزلة كانت ترد إلى الحجّاج مأكولات القدس الشريف . رأيت نصرانيا لابسا قلنسية فعجبت من وجود مثله في تلك البادية ودعوته للمجالسة فإذا هو يحسن العربية . واسمه خليل موسى مدرّس بالمدرسة الرومية من بلد الكراد وهي بلد على البحر من الأراضي الشامية تبعد عن قلعة الحصا مسيرة نصف يوم . وذكر لي أنّ بلدهم مستقلّ وحاكمهم شيخ من بيت

---

(1) كذا بالنص والصواب ببطن واد .

(2) محمد بن حنفية (637م. — 700م.) من رجال الدولة . فكر بعضهم بمبايعته بالخلافة بعد أن خرجت من الحسن والحسين فحبسه عبد الله بن الزبير في مكة . أما هو فما عتم أن بايع بالخلافة لعبد الملك بن مروان . توفي بالمدينة .

أصيل في الحكم واسمه محمّد مجلي مستبد بالسياسة والقضاء والفتوى مع العدل وحسن التصرف .

والبلد به نحو الخمسة عشر ألف نفس الثلثان منهم مسلمون وباقيهم نصارى جميعهم تحت طاعة الأمير وحكمه . فقلت له : يا حبيبي رأيتك تذكر مسألة غريبة حتّى كدت أن أكون جاهلا بجغرافية الأرض التي نحن فيها . أو لسنا أنا وأنت في الأراضي الشاميّة التي هي من خصائص الدولة العلية ؟ وما سمعنا بتغلّب دولي يجلى (كذا) على الدولة العلية في بلد الكراد .
فقال لي : نعم الحقّ ما تقول ولكنّك / ترى هاته البراري الواسعة والأراضي [166]
الطيّبة التي مررت عليها كيف تركتها الدولة العلية لحكم الدمار وقهر البدو مع انّ هاته الأراضي من أخصب الأرض . ولو ساعدتها رجال الدولة لأصبح عمرانها أعظم مما عليه أراضي أوربا التي تقصر عنها في جميع الوجوه . والحاصل فلا تعجب إذا كان السيّد مجلي أحسن تدبير بلد بعيد عن مواقع عمران البلاد الشامية فاستعصم ببعد عن مظالم ولاة الشام . وحمى بلده من ذلك الظلم الفظيع فتعلّق به أهل بلده وقام بحقوق مدينتهم فصار إلى هذا الاستقلال . وعلاقته مع الدولة العلية لم تزل متواصلة حيث إنّه ترسل إليه كلّ سنة مع أمير الركب مدّين من القهوة وخمسة عشر ألف قرش عادة عليها ولا شيء لها غير ذلك العطاء .

وعلى كلّ حال فإنّ بلد الكرد من بلدان حوران الكائنة في جنوبي الشمسكين التي هي من أراضي الدولة العلية . وكان الرحيل من هاته المنزلة في الساعة التاسعة ونصف من آخر ليلة الجمعة الحادي عشر من شهر صفر .

[قلعة قطرانة]

قد قطعنا في هاته المرحلة بوغاز وادي الحصى في أرض منخفضة . ونحن مستضيئون بنور القمر . وسرنا بياض يومنا في أرض سهلة إلى أن

نزلنا حول هاته القلعة الخربة بناها السلطان سليمان . وليس هنالك ماء . وهنالك ضريح أحد علماء دمشق الشام الشيخ حامد العطّار وسيأتي له ذكر في اجتماعي مع من اجتمعت بهم من بنيه (1) .

وكانت العادة إرسال ذخيرة من الكرد والشوبد (كذا) ولم تبق هاته العادة . وكان الرحيل آخر ليلة السبت الثاني عشر (من صفر) / . [167]

[بطن الثمن]

هاته المرحلة كانت صعبة بسبب صعوبة الأرض بين الجبال . ومن مزالق أخفاف الجمال مع هطول المطر الذي شقّ معه السفر . ففي مبادي سيرنا من الليل أدركتنا المطر ولازمتنا إلى صلاة الصبح . فصحونا وصلّينا الصبح . وبعد المسيرة توالت المطر وصعدنا مع نزول المطر إلى سفح سلسلة جبال الثمن ذات الصخور والمزالق واشتدّ الخطر في ركوب الجمال حتّى اضطررنا للنزول وسرنا رجالا أكثر من ساعتين والمطر وابل وممرّ السير ضيّق في سفوح الجبال والناس يلتجئون في سيرهم إلى الأودية .

ثمّ ركبنا على تلك الأخطار. واشتدّ الريح والمطر وعظم الوحل ووقع في هذا اليوم أكثر من مائة جمل وآل الحال في الطريق إلى ممرّ واحد لا يزيد عرضه على موطىء الجمال . وانفرد الركب بالسير على قطار واحد إلى أن قطعنا تلك الجبال وخرجنا إلى أرض مطفلة صعبة المسلك وتعسر المسير واضطرّ الركب للنزول في الساعة السابعة من النهار . وتوالت المطر ليلة الأحد وأرعدت السماء وأبرقت وصعق الجوُّ حتّى ارتعدت الفرائص . ولم يستقرّ بنا قرار النزول إلاّ أن التزم أتباعنا قلب تراب مساحة خيمتنا إلى أن ظهر التراب الجافّ . ووضعوا عليه التبن وأداروا بالخيمة خندقا لسلوك ماء المطر واضطررنا لإيقاد الحطب داخل الخيمة للطبخ وتجفيف ثياب الأتباع .

(1) انظر الجزء الثالث من الرحلة الحجازية : ص 160 — 161 .

وفي آخر الليل تحرّكت الريح فجفّت بها الأرض وأصبح يوم الأحد متوالي السحب . وأمكن المسير في الساعة السابعة من النّهار . وقطعنا بذلك السير الصعب تلك الأرض وصعدنا سفوح جبال وبطون أودية إلى أن أدركنا / [168] المنزل عند الماء بين جبال بطن الثمن عند الغروب . وارتحلنا باكرة الإثنين الرابع عشر من شهر صفر .

[وادي الزرقاء]

هذا نهر الزرقاء على جنوب جبل علجون من أراضي حوران ومسمى هذا الجبل يشمل الأراضي الواقعة بين نهر اليرموك شمالا ونهر الزرقاء جنوبا . وهو من أشهر غابات سورية ، سهوله مغطاة بخضرة نضرة ، وغاباته من السنديان . وتنقسم أرضه بحسب الإدارة إلى ثمانية أقسام. وهي الكفراوات والسرو والجهامنه والوسطية وبنو عبيد والكورة وجبل علجون والمعراض .

وكلّ قسم منها يشمل عددًا كثيرا من القرى والكفراوات كانت عامرة وأصبح اليوم أكثرها خرابا غامرا . ولكن مناظر هذا الوادي الطبيعية كانت من أجمل المناظر في تلك البريّة . ولقد طاب عندي موقعها بأكثر ممّا رأيت عليه وادي منتكتيني في بلاد إيطاليا السابق إذ لا يخفى أنّ مواقع الأودية بين وهاد الجبال في نعومة أشجارها ما يروق النفس .

[وصف عين الريحان في جبل حمّام الأنف بتونس]

وقد تذكّرت به من محاسن الأودية التونسية ما رأيت عليه وادي السحير (1) في بلد نابل وقلت فيه قصيدة مطلعها : (من بحر البسيط)

1 — حَيَّتْكَ يَا وَادِي السُّحَيرِ فِي السَّحَرِ
بَوَاكِرُ السَّعْدِ تهمي عنك كَالمَطَرِ

(1) وادي السحير : كذا بالنص والمعروف اليوم هو وادي السوحيل وهو ضاحية من بلد نابل الجنوبية على طريق بلد الحمامات .

وما رأيت عليه عين الريحان في سفح جبل حمّام الأنف بتونس . وقد خرجت لذلك الوادي يوم النيروز (1) في جمع من الأمراء الكرام فقلت :

(من بحر الكامل)

1 — حَنَّ الْحَمَامُ وَرَنَّ بِالأَلْحَانِ
طَرَبًا لِمَوْقِعِ أَعْيُنِ الرَّيْحَانِ

2 — فِي بَطْنِ وَادٍ بَيْنَ أَعْلاَمٍ جَرَى
مِنْ عَيْنِهَا مَا فَاقَ بِنْتَ الْحَانِ / [169]

3 — مَاءٌ فُرَاتٌ صَفْوُهُ مِنْ فِضَّةٍ
فِي سَيْلِهِ يَنْسَابُ كَالثُّعْبَانِ

4 — أَوْ كَالْبِسَاطِ بِأَبْيَضِ الدِّيبَاجِ قَدْ
نَسَجُوهُ وَالْحَصْبَاءُ كَالعِقْيَانِ

5 — وَلِفَاعِلِ النَّسَمَاتِ فِي حَرَكَاتِهِ
طَيٌّ وَنَشْرٌ رَاقَ لِلأَعْيَانِ

6 — وَخَرِيرُهُ إِذْ ذَاكَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا
مِنْ رَنَّةِ الْعِيدَانِ فِي الآذَانِ

7 — وَعَلَى جَوَانِبِهِ الْمَنَابِتُ عَمَّمَتْ
تِلْكَ الْوِهَادَ بِأَبْهَجِ الأَغْصَانِ

8 — وَتَوَاصُلُ الرَّيْحَانِ فِي إِظْلاَلِهِ
لِذَوِي الْخَلاَعَةِ مَرْتَعُ الْخِلاَّنِ

9 — إِنْ أَنْسَ لاَ أَنْسَى بِهِ نَيْرُوزَنَا
يَوْمَ ابْتِهَاجِ الأُنْسِ فِي أَفْنَانِ

---

(1) كان ذلك في نيروز سنة 1303هـ./1886 كما نص المؤلف على هذا التاريخ في مخطوطة ديوانه ص : 200 . وقد حققنا هذا الديوان وسلمناه قصد الطبع إلى مركز الدراسات الاقتصادية والاجتماعية بتونس منذ سنة 1975 .

10 — يَوْمَ انْتَجَعْنَا مِنْ أَبِي قَرْنَيْنِ مَا
طَابَتْ لَدَيْهِ مَرَاتِعُ الحَيَوَانِ

11 — سِرْنَا وَفِي طُرُقِ الْمُحَصَّبِ سَيْرُنَا
بَيْنَ الْوِهَادِ إِلَى قَصِيِّ مَكَانِ

12 — فَدَعَا كِرَامُ الْقَوْمِ أَنْ يَضْحَوْا بِهِ
مُتَمَتِّعِينَ بِمَنْزَهِ اطْمِئْنَانِ

13 — نَزَلُوهُ فِي يَوْمِ الْخَلاَعَةِ عِنْدَمَا
طَابَ الثَّوَا فِي خِصْبِهِ الرَّيَّانِ

14 — فَغَدَا مِنَ الرَّيْحَانِ فَوْقَ سَرَاتِهِمْ
سَقْفُ الزُّمُرُّدِ صَنْعَةُ الرَّحْمَانِ

15 — مَدَّ الظِّلاَلَ عَلَيْهِمْ فِي مَجْمَعٍ
لَمْ يَحْوِ غَيْرَ مُؤَانِسِ الْخِلاَّنِ

16 — فِي صَدْرِ مَجْلِسِنَا فَخَارُ النَّاصِرِ الْـ
ـشَّهْمِ الْهُمَامِ الْوَاسِعِ العِرْفَانِ (1)

17 — وَالْمِصْقَعِ الْبَكُّوشُ مَنْ جَرَتْ إِمَا
رَتُهُ بِخَيْرِ مَفَاخِرِ الإِحْسَانِ (2)

18 — وَالْمُؤْنِسُونَ الْبَارِعُونَ جَمِيعُهُمْ
قَدْ زَانَهُمْ أَدَبٌ بِحُسْنِ بَيَانِ

19 — يَتَنَاوَلُونَ مَعَارِفًا وَلَطَائِفًا
هِيَ لِلأَرِيبِ مَثَالِثٌ وَمَثَانِي

20 — وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ سُرُورُ خَلاَعَةٍ
يَتَمَازَحُونَ بِهِ عَلَى افْتِنَانِ

---

(1) هنا يشير المؤلف إلى الأمير محمد الناصر باي .

(2) يشير المؤلف هنا إلى الشيخ محمد البكوش وكان له صديقا .

21 — فَتَـرَى الأُلَى اعْتَقَلُوا البَنَادِقَ كُلُّهُمْ
يَبْغِـي الْمَصِيدَ وَلَوْ مِـنَ الجِرْذَانِ
22 — لَكِنَّهُـمْ قَـدْ رَاقَ مَـرْتَعُهُـمْ فَلَمْ
يَرْضَوْا لأَنْفُسِهِمْ سِوَى الْخِرْفَانِ
23 — جَعَلُوا خَرُوفًا وَسْطَ تَنُّورٍ شِوَاءٍ
[170] يَصْطَلِي فِـي مَـوْقِـدِ النِّيـرَانِ /
24 — وَقَـدِ انْتَقَـوْا أَخَوَيْـهِ لِلطَّبْـخِ الَّذِي
قَـدْ طَابَ عِنْـدَهُـمْ عَلَى الْوَانِ
25 — فَتَـرَى زَعِـيمَ الْقَوْمِ يَحْمِـلُ قِطْعَةً
خَضَّبَتْ يَدَيْـهِ بِدَاسِـمِ الأَسْمَانِ
26 — وَلَـدَيْهِـمْ أَكْـرٌ تَمِنِيلُ بِقَلْبِـهَـا
وَالبُـرْدُقَـانُ عَلَيْـهِ بُـرْدٌ قَـانِـي
27 — لاَ صَوْلَجَـانَ لَـدَيْهِـمْ إلاَّ أَصَـا
بِعَهُـمْ تُقَلِّبُـهَـا بِغَيْـرِ تَـوَانِ
28 — يَنْضُـونَ مِـنْ أَثْوَابِـهَا مَـا رَابَهُـمْ
فَتَصِيرُ أَكْـلاً رَائِـقًـا لِلْجَانِـي
29 — وَمَـنِ انْتَحَـى حَمَّـامَ أَنْفٍ يَلْتَقِـي
طَرَبَ الْخَلاعَـةِ فِـي شَبَابِ زَمَانِ (1)
30 — كَسْـوُ الْجِبَـالِ بِزَيْنِهِـنَّ وَأَحْسَنُ
اسْتِحْمَـامِـهِ مَا خُصَّ بِالعُرْبَانِ
31 — وَالْحُسْـنُ مَا أَضْحَـى بِغَيْـرِ تَصَنُّـعٍ
يَـدْعُو النُّفُـوسَ لِبَهْجَةِ اسْتِحْسَانِ

(1) حمام الأنف ضاحية من الضواحي الجنوبية لحاضرة تونس وهي تقع في سفح جبل أبي القرنين .

وأرسل إليّ الهمام الأعزّ السيّد محمّد البكّوش أحد جمعية الأنس هنالك بقصيدة نظمها البارعُ الأريب الشيخ السيّد علي هَوِيسَة وشاركه فيها الهمام المذكور وهي قوله : (من بحر الكمِل)

1 — وَافَتْ تَجُرُّ مَطَارِفَ الأرْدَانِ
وَتَتِيهُ عُجْبًا عَنْ بَنِي حِمْدَانِ

2 — وَأَتَتْ تُرِينَا مَرَاتِعَ الْغُزْلاَنِ
وَتَمَايُلَ الأَغْصَانِ وَالخلاَّنِ

3 — بَقِيَتْ هُنَاكَ مَحَاسِنٌ قَدْ شُوهِدَتْ
يَصْبُو لَهَا قَلْبُ الْمَشُوقِ الْعَانِي

4 — فَعَلَيْكَ يَا ذَا الْقَوْلِ أنْ تُصْغِيَ لَهَا
وَتُبِيحَهَا الإصْغَاءَ بِالإحْسَانِ

5 — مِنْهَا تَمَايُلُ ذِي الْغُصُونِ عِنْدَمَا
قَدْ شَاهَدَتْ ذَاكَ العَظِيمِ الشَّانِ

6 — الأفْخَمِ الشَّهْمِ الْمُعَظَّمِ بَيْنَنَا
الْمُنْتَمِي أدَبًا إلَى قَحْطَانِ

7 — ذَاكَ السَّنُوسِيُّ الَّذِي قَدْ سَرَّنَا
بِنِظَامِ عِقْدٍ وَاضِحِ الْبُرْهَانِ

8 — وَتَلاَ عَلَيْنَا مِنْ جَوَاهِرِ مَنْ أتَى
سِحْرُ الْبَيَانِ إلَيْهِ بِالألْحَانِ

9 — الشَّاذُلِيّ الْمُزْرِي بِقُسٍّ وَالَّذِي
قَدْ فَاقَ فِي الْعِرْفَانِ وَالإحْسَانِ

10 — فَرَحَات مَنْ قَدْ أشْعَرَ اللَّقَبُ بِمَا
قَدْ نَالَ هَذَا الْمَجْمَعُ مُنْذُ زَمَانِ / [171]

11 — وَعُيُونُ هَذَا النَّهْرِ لَمَّا أَنْ رَأَتْ
نَجْلَ الْمُلُوكِ وَسَيِّدَ الْأَعْيَانِ (1)

12 صَارَتْ تُمَازِحُ صَفْوَهَا بِلِبَانِهِ
فَرَوَتْ مَهَى ذَاكَ النَّقَا وَالْبَانِ

13 — لاَ زِلْتَ يَا فَخْرَ الْمُلُوكِ وَسَيِّدَ الـ
ـسَّادَاتِ وَالْمَشْهُورِ بِالْعِرْفَانِ

14 — تَقْفُو شَمَائِلَ مَنْ تَسَابَقَ جَدُّهُمْ
مِنْ آلِ هذَا الْبَيْتِ ذِي أَرْكَانِ (2)

وكتب تحتها : (من بحر مجزوء الرمل)

1 — اسْتُرَنْ يا شَهْمُ عَيْبِي مَا نِظَامُ الشِّعْرِ دَأْبِي
2 — إِنَّمَا تِلْكَ دَوَاعِي حَيَّرَتْ نِيرَانَ قَلْبِي

[عود إلى وصف وادي الزرقاء]

أما وادي الزرقاء في البرّيّة الشاميّة فكان في نظرنا من أحسن المواقع سيّما بعد طول السفر في يابس الصحراء . ولحسن موقع هاته المنزلة كانت المحلّ الذي عيّنته أوامر الدولة العلية للحجز الصحي المسمّى بالكورنتينة لمدّة عشرة أيّام . ولكنّ السير في طريقها مصحوبٌ بصعوبة من جهة الأرض تارة ومن جهة الحوادث الجويّة أخرى .

فقد خرجنا من بطن الثمن وارتقينا جبالا متوالية تَحْمِلُنَا إِلَيْهَا الجمال التي أثقلها وقرها وطول مسيرها . وسقط جمل لرجل راكب في شبرية فانقطع نخاه للوقعة المذكورة ومات مكانه فدفنه صاحب الجمل ونحر الجمل مكانه وسار مع الركب حتّى لا يكون من المخلّفين .

(1) في هذا البيت إشارة إلى الأمير محمد الناصر باي .
(2) في هذا البيت إشارة إلى البيت الحسيني .

وبعد تلك الجبال سرنا في فلاة رحبة جيّدة التربة إلى الساعة السابعة من النهار فأدركتنا المطر وعند الغروب قدم من سكّان تلك الجهات بنو صخر يركبون جياد الخيل ويحملون الرماح الطويلة . واشتدّ الريح ليلة الثلاثاء فجغّت الأرض وأمكن المسير صباح الثلاثاء في الساعة / الثانية [172] ونصف .

ومررنا بقصر الذيب وهو بناء خرب وبقلعة بلقاء بركتها لا ماء فيها . وفي جوار تلك الجهة قريتان : أزرق وعمرى وبالأولى قلعة خربة ولعلّهما اللّذان كانا يُسمّيان خان الزيت وخان الزبيت سابقا .

ثمّ مررنا بمحلّ يسمّى البلاطه وهي أرض من صفوان . ثمّ أخذنا في الصعود إلى مصاعد تسمّى القلابات وهي جبال متواصلة متراوغة من صخر صعدنا على سفوحها ونزلنا بطون الأودية بينها ولا زال السير على هذا المنوال كلّما تخلّصنا من قلابة ونزلنا وَادِيًا بدت لنا أخرى فنصعد جبلها حتّى حسبت أنّا نرتقي إلى مواقع السحاب إلى أن أتاح الله لنا ذلك المستقرّ بوادي الزرقاء في الساعة العاشرة من يوم الثلاثاء الخامس عشر من صفر . وفي ذلك قلت : (من بحر الوافر)

1 ــ وَلَوْلاَ فَضْلُ رَبِّي مَا وَصَلْنَا
عَلَى خَشَبٍ تَمَاسَكَ بِالْحِبَالِ

2 ــ نُحْمَلُ فَوْقَ ذَاتِ دَمٍ وَلَحْمٍ
تَسِيرُ بِنَا عَلَى قِمَمِ الْجِبَالِ

وهاته المنزلة أرضها متّسعة بين جبال تحيط بها أوديتها وأنهرها المحوطة بمنابت القصب . وهنالك بقايا قصر شبيب من مشاهير العرب . ووجدنا بهاته المنزلة المباركة عساكر الحجز الصحّي تخفر دائرة سفوح الجبال . ووجدنا هنالك سوقا محتبكا بالباعة الوافدين من دمشق الشام بما يضطرّ إليه

المسافرون من أنواع المآكل والفواكه والغلال والحبوب والخضر والحلويات الشامية والملابس الكافية للتوقّي من البرد .

فوصلتنا فواكه الشام من التفاح والأنجاص والبردقان والمربّيات والحلويات من الكنافة والمعمول والقطائف والمخلّلات اللذيذة وغير ذلك [173] ممّا كانت النفوس في شوق إلى طعومه لولا ما كان / تلك الليلة من اشتداد المطر وتوالي عواصف الرياح التي سقطت بها أكثر الخيام انفلق بها فسطاط الباشا وأصبحنا يوم الأربعاء السادس عشر تتوالى علينا المطر والريح العاصف .

ونخاف المحافظ الصحيّ من خروج أحد مستترا بغيوم ليلة الخميس فأكثر من الحرّاس . وكان مركز أحدهم بالوادي فأقام ليلته وأصبح ميّتا شهيد المحافظة على الصحّة بسبب اشتداد البرد من الريح وماء المطر وماء الوادي وكلها أعداء للصحّة . ولكن يقال إنه أهلكه تيار من الوادي أتى عليه وهو في دهشة الريح والمطر ، وعلى كلّ حال : تعدّدت الأسباب والموت واحد .

وفي يوم الخميس طلب الباشا رفع الحجز الصحيّ لسلامة الركب وطلب الطبيب عمل شهادة من أهل الركب في السلامة من المرض الذي كان في الحجاز بعد أن طاف على الخيام . غير أنّ رعايا دولة الفرس من أهل إيران ورعايا دولة الروسيا من الجراكسة امتنعوا من الأداء . وتوقّف الباشا في إلزامهم . وأرسل في الاستئذان عن ذلك .

وطلب الباشا بعد تحرير شهادة الصحّة أن يكون إتمام بقية العشرة أيام المتعيّنة للحجز الصحّي في طريق المسير تحت الكردون أي تحت حراسة الحجز حتّى لا يختلط أهل الركب بأحد ولا يختلط بهم أحد . وتبيّن خروج أكثرَ من ثلاثين نفرا تستّروا بظلام الليل . واستعجلوا المسير للديار الشامية . فوقع الإغضاء عنهم .

[خبر وفاة محمّد الصادق باشا باي تونس يصل إلى علم المؤلّف]

وفي ليلة الجمعة الثامن عشر من صفر أطلعني أحد أحبابنا من تجّار إسكندرية على صحيفة ثمرات الفنون (1) الواردة إليه مع مكاتيبه . فإذا فيها خبر وفاة الصادق باشا باي بتونس بعد العشاء بساعة من ليلة الثامن والعشرين من نوفمبر (2) وولاية شقيقه علي باشا باي / . وكان لهذا الخبر من نفسي [174] موقع عظيم أتكلّم على سببه في هاته الفرصة بشرح حقائق المقتضيات لسفري هذا .

[المؤلّف يشرح حقائق مقتضيات سفره]

وذلك أني قد انفصلت من خطّة إنشاء الرائد التونسي خامس رجب سنة ثمان وتسعين لمجرّد طلب ترجمان السفارة يومئذ انتفاع كاتب المطبعة بخطّة إنشاء صحيفة الرائد على ما صرّح به لي نفس المترجم . وذلك على عهد وزارة محمّد خزنة دار . فأقمت على الاشتغال بالتدريس ورأيت من كدر الحال وخطر الاستقبال ما دعاني إلى السفر لأنظر المستقرّ . وفي أثناء ذلك دعاني أمير الأمراء حسين وزير المعارف إلى بلد ايطاليا لإعانته على بعض أغـراض كتابية فيما يخصّه فلم تأذن لي الدولة بالخروج . وصرّح الأمير الصادق باشا بمنعي كلّ المنع . وتركت ذلك السفر .

ثمّ جمعت أمري وطلبت الإذن بالتوجّه لحجّ بيت الله الحرام فصدرت لي تذكرة الإذن الدولية . ونصّها :

---

(1) ثمرات الفنون : هي صحيفة أسبوعية سياسية علمية أدبية أنشأتها سنة 1875 جمعية الفنـون الاسلامية في بيروت التي كان يترأسها سعد عبد الفتاح حماده . وأدار الجريدة عبد القادر القباني أحد أعضاء الجمعية ثم لم يلبث القباني أن استقل باصدارها وتحريرها واستمرت صحيفة ثمرات الفنون في الصدور طيلة أربعة وثلاثين عاما وتوقفت عن الصدور سنة 1909 . (انظر : أديب مروة : الصحافة العربية نشأتها وتطورها ، بيروت 1961 ، ص : 176 .

(2) يوافق : 17 محرم سنة 1300 .

« الحمد لله سرّحنا الفاضل الشيخ سي محمّد السنوسي للسفر من حلق الوادي لحجّ بيت الله الحرام بلا مصرف والسلام من الفقير إلى ربّه تعالى عبده المشير محمد الصادق باشا باي وفّقه الله . وكتب في 22 جمادى الأولى سنة 1299 » (1) .

وسافرت ابتداء على طريق نابلي من بلد إطاليا للسياحة وأعلمت وزير المعارف فتلقّاني بالترحاب في بلد نابلي واستصحبني معه في بلدان إيطاليا ورام منّي الاشتغال بحساباته الخصوصية . وكان متولّي خرجه يهوديا يسمّى ليـياه المليّح له بنتان وأولاد جميعهم متمتّعون في خدمة الوزير المذكور .

[175] وقد استحوذ اليهودي المذكور على جميع رسومه وأصول كسبه وأصول / دخله وخرجه . مع تعمية الحساب عنه بما لا يمكنه أن يتفصّى منه . وعندما اطّلعت على صعوبة الحال وعدته بالرجوع بعد الحجّ عسى أن يجد معه أثناء تغيّبي طريقا للتخلّص . وأنا أرى أنّ التخلّص عسير ولكنّ أهمّ ما اشتغلت به معه تحرير رواية ما كان يهذي به علاّلة ابن الزاي في شأن مخدومه مصطفى بن إسماعيل (2) .

وكان (علالة ابن الزاي) نائب الدولة كوتيرس (كذا) في تلك المدّة يراقب تجولاتي بأمر من مصطفى بن إسماعيل ويبلغها إلى مخدومه حتّى ظنّ الأمير أنّني خرّجْتُ بأسرار الدولة لحملها إلى من أخرجهم منها . والحال أنّي لم أكن في وظيفة تخوّلني شيئا من أسرار الدولة . وكدّر بهذا الظنّ صفوحفيده للأخ المرفّع شأنه سيّدي محمد الناصرباي بما لم يكن له به من علم .

وعندما علم بسفري إلى الآستانة اشتدّ حنقه وخاطب في ذلك وليّ عهده . وبعد بحثه لم يجد غير ما هو واقع من تجوّلي في السياحة إلى حضور موسم الحجّ . واطّلع على مكاتيبي إلى حفيده المذكور . فلم يكن بها غير ما هو

---

(1) يوافق : 11 أفريل سنة 1882 .
(2) أنظر أعلاه : صفحة : 50 . التعليق .

واقع ولكنّه عدّ ذلك من السيّئات وصرّح مصطفى بن إسماعيل بما لم يبلغه إليه الأمل في التوعّدات . وبذلك ترجّح عندي أنْ أصاحب أمير الأمراء حسين بعد الإيّاب أو أنظر لنفسي سببا من الأسباب . ولكن بما وجدت عليه حالة محلّ خلافة الإسلام اضطرب الرأي عندي وامتنعت عن أسباب الرجوع إليها على ما سبق تفصيله .

ولم يستقرّ لي القرار فيما أسلكه بتلك الأسفار فكان خبر خروج مصطفى ابن إسماعيل من الوزارة بموت مخدومه من واردات التبشير بحسن العود إلى الوطن لارتياد الموقع الحسن . ولهذا تلقّيت ذلك الخبر بالسرور وبادرت إلى الوطن . وبعد استقراري أعاد عليّ الخطاب أمير الأمراء المذكور في طلب إجابته للاستصحاب وألحّ عليّ بعدّة مكاتبات فطلبت / منه شرح مراده من [176]
ذلك فكتب إليّ أخيرا أثناء مكتوب بما لفظه : « أما ما يتعلّق بذاتكم الشريفة فإنّ قلبي تعب من معاشرة غير بني ديني وجنسي فتمنّيت أن يكون معي في السفر والإقامة أديب مثلكم يكتب لي كتابي ويمسك في يده زماما يسطّر فيه الأمور المالية من القبض والدفع فما دمت في أوربا يكون معي . وعند انتقالي إلى الآستانة يكون أيضا هنالك . ويحمل عائلته إليها إن تيَسّر له ذلك وإلاّ فإنّي أسرّحه بعد كلّ خمسة أشهر شهرا يزور أهله . ومصاريف السفر تكون عليّ والمرتّب ما يقع عليه الاتّفاق بيننا . ومدّة السراح كمدّة الخدمة . فإن ظهر لكم إمكان تحمّل البعد على العائلة على الوجه المذكور فشرّفوني بالإعلام والله يحفظكم ويرعاكم والسلام . من مخلص ودّكم حسين . في 26 جمادى الثانية سنة 1300 (1) » .

وحيث إنّي بعد رجوعي للحاضرة التونسية وجدت من إقبال الخاصّة والعامّة ما لم يكن لي معه داع للخروج اعتذرت إليه بما قبله عذرا وتخيّرت

(1) يوافق يوم 4 ماي سنة 1883 .

الإقامة في بلادي لتعمير موطن آبائي وأجدادي على حسب تيسير اللطيف الخبير . والله على كلّ شيء قدير .

[رجوع إلى إتمام الكلام على مدّة الإقامة بوادي الزرقاء]

وفي صباح الجمعة ورد الإذن بإجابة مطلب الباشا في إتمام مدّة الحجز بالطريق وفي يوم السبت طاف الطبيب لتقييد الحجاج . وفي يوم الأحد الموفى عشرين حرّر الطبيب تقييده وتعاطى استخلاص معلوم النظافة الصحّية بحساب ثلاث مجيديات إلاّ ربعا على راكب المحفّة ، ومجيديين ونصف عن راكب الشبرية ، ومجيدي واحد عن راكب ذروة الجمل .

ونازع الإيرانيون وقام بدعواهم شيخ الإسلام بحر آغه وطلبوا الاطّلاع على الفرمان أو القانون الصحّي الموجب لمبلغ ما وجب عليهم وعندما / ألزمهم الباشا شرطوا أن يكون الدفع تحت الدعوى . وهو شرط [17
كلّ عاجز ضعيف . ولذلك أجابهم إليه .

وفي هذا اليوم ارتفعت أسعار علف الجمال ارتفاعا فادحا . وفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من صفر حرّر أهل الركب مضبطة في طلب التنقّل من مكان النزول لسبب انخفاضه إلى أعلى الجبل لتوالي المطر وتعفّن المكان . وطلبوا اعتبار يوم الدخول في الحجز الصحّي ويوم الخروج منه في عدد العشرة الأيّام . ولكنّ ليلة الخميس اتّفق أن أمين الصرّة أصابه وجع برجله فأرسل إلى حكيم الركب فذهب تابعه إلى حكيم الكرنتينة خيفة من المرض ومنع الرحيل .

ووقع منه نزاع حتّى تحقّق سلامة أمين الصرّة ممّا أوجسه . وفي تلك الليلة مات أعجميان وتركي جراح بأمراض كانت معهم فوقع كتم أمرهم وتيسّر بمنّة الله الرحيل من تلك المنزلة في الساعة الثانية من يوم الخميس الرابع والعشرين من صفر .

وكان السير تحت الحجز الصحي ومررنا في طريقنا على أثر قرية عباد وتسمّى في الأصل كوم عباد وهي من قرى حوران الواقعة جنوبي داما من البلاد الخربة (كذا) . ونزلنا عند الغروب في المفرق وبه قلعة خربة وأرضه بما حمله المطر تنحلّ به كالعجين ولذلك كان مخيفا . وقد سمّـي هذا المكان بالمفرق لتفرّق الحجّ فيه . بغير انتظام . وهنالك شاهدنا السراب مقتربا منا كالبحر فأبصرناه في أحسن المناظر وتوالت المطر ورأى الباشا حسن الإقامة خشية مزالق الإبل فعارضه كمندان الكرنتينة لنفاد مؤنة العسكر الذين معه . ووقع الرحيل تحت الحجز الصحّـي صبيحة يوم الجمعة .

وسرنا إلى الساعة الخامسة وأشرفنا على موضع يسمّى نكتات الحدائج / [178] وعند ذلك أطلق مدفع الايذان برفع الحجز الصحّـي وصدحت الموسيقى العسكرية وقفل حكيم الصحّة ومن معه من عساكر الحراسة إلى حيث لا يعودون فتقدّموا على خيلهم إلى الرمتة (كذا) . وارتحل الركب في حرّيته لولا توالي المطر الذي كان مانعا طبيعيا ويأبى الله إلاّ ما يشاء . وكان هذا الرحيل المصحوب بالخروج من عراقيل ذلك الحجز في نحو الساعة السادسة من يوم الجمعة الخامس والعشرين من صفر بعد استكمال العشرة الأيّام ولله الدوام .

[تذييل في مسألة الحجز الصحّـي : الكرنتينه :]

إعلم أنّ تحفّظ الناس من الأمراض الوبائية بالتحرّز عن ملامسة المريض ولباسه وفراشه ومنع الصحيح الذي كان في موضع الوباء من الدخول ومشاهدة البقع في ذلك وضره في ضده (كذا) سنّة إسلامية قديمة جرى عليها العمل بالأندلس على ما استفيد من كلام ابن خاتمه .

والأصل في ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن عبّاس ، رضي الله عنهما أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتّى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع

بالشّام . فقال عُمَرُ : ادع لي المهاجرين الأولين . فدعاهم ، فاستشارهم وأخبرهم أنّ الوباء قد وقع بالشّام فاختلفوا فقال بعضهم قد خرجنا لأمر ولا نرى أن نرجع عنه . وقال بعضهم ، بقية الناس وأصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا نرى أن تقدّمهم على هذا الوباء فقال : ارتفعوا عنّي . ثمّ قال : ادع لي الأنصار . فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين
[179] واختلفوا كاختلافهم . فقال : ارتفعوا عنّي . ثمّ قال : ادع لي / من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم . فلم يختلف عليه منهم رجلان . فقالوا : نرى أن نرجع بالناس ولا تقدّمهم على هذا الوباء . فنادى عمر في الناس : إني مصبح على ظهر . فاصبحوا عليه .

قال أبو عبيدة : أفرارا من قدر الله ؟ – قال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله . أ رأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال : فجاء عبد الرحمان بن عوف ، وكان متغيّبا في بعض حاجته ، فقال : إن عندي من هذا علما ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإن وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه . قال : فحمد الله عمر ثمّ انصرف .

وقد اختلف العلماء في النهي في هذا الحديث ، فحمله على التنزيه طائفة ، وحمله على التحريم أكثر السلف . وهذا هو الأصل الأصيل في الحجز الصحيّ الذي انتشر في هاته العصور الأخيرة وفي سائر الممالك ، وأقامت له الدول مجالس صحيّة تنظر في موجباته ، وجرت عليه دولة الإسلام أيضا عند حدوث الأمراض الوبائية .

أمّا ما اقتضاه الحديث الشريف من النهي عن القدوم إلى أرض الوباء فظاهر ما فيه من التحفّظ على النفس والسعي في صيانتها بقدر الإمكان . وأمّا

النهي عن الفرار منه فهو بظاهره نهي عن إظهار التأثّر والانزعاج المؤذن باعتقاد التأثير العدوي . ولكن في طيّه أيضا صيانة الذين يقع الفرار لهم ممّن يتنقّل من أرض الوباء على معنى أنّ الإنسان لا يذهب للأرض الوبائية حفظا لنفسه ولا يخرج منها حفظا لغيره ممّا كان في أرضه / . وهذا المعنى الثاني [180]
وإن لم أر من نصّ عليه إلاّ أنّه لا يبعد عن محامل الحديث الشريف ، وليس في جميع ذلك ما يوجب اعتقاد التأثير للفرار منه أو الفرار إليه وغايته أنّ ما أودع الله في الطبائع البشرية من القابلية للتأثّر بما أعدّها الله له كان به مسيس النار محرقا له وشرب الماء مرْوٍ لها . وليس للنار ولا للماء تأثير ، والفاعل إنّما هو مسبّب الأسباب سبحانه وتعالى . وعلى العبد اتّقاء النار خشية الاحتراق واستعمال الماء لطلب الريّ ، وليس ذلك من اعتقاد التأثير في شيء : والحاصل لا مانع من اتّقاء البرد واتّقاء الأطعمة الباردة بطبعها من الفواكه والبقول والألبان الفاسدة ولحم السمك ، واتّقاء المعفّنات من البيوت والثياب والتحفّظ على أسباب النظافة عند انتشار الأمراض الوبائية التي تحدث ببرودة الجسم أو المعدة أو التعفّنات . والله غالب على أمره .

هذا ما تقتضيه الأصول الإسلامية في أصل التحفّظ الصحّي لكن ما وقع فيه من التشدّدات التي ربّما تدعو إليها مجرّد فلسفة الطبيب فهو لا توافق عليه الأحكام الإسلامية ومن أعظمها ما يدّعيه المتشدّدون من الأطبّاء من أن الجراثيم التي تتكون من انحلال الجسم أو انحلال الفضلات التي يتنصل عنه يكون لها تأثير في بعض الأجسام المستعدّة لقابلية ذلك . وبهذا يرون إحراق أثاث المريض مع ما في ذلك من إضاعة مال ورثته . ويمنعونهم من سكنى بيته أو من الإقامة معه . وربّما لم يكن لهم مأوى سواه . والشريعة توجب على الشخص أن يتولّى تمريض مَنْ هُوَ لَهُ والمحافظة عليه ، وربّما حرّم تركه لمن لا يتحقّق تحفّظه عليه .

ووراء ذلك كلّه أن بعض المتفلسفين ربّما تحرّوا بتعجيل قتل من حدث عنده المرض الوبائي بأجزاء من الأودية / يعطونها له وهم يوهمونه أنّها دواء [181]

لبرئه ، وليس المراد بها إلا تعجيل قتله تحفـّظا من انفصال الجراثيم عنه . ولا يخفى ما في ذلك من مصادمة أحكام جميع الشرائع إذ جميع الشرائع تستوجب حفظ النفس ومصداق ذلك نفس هذا المريض الذي يستأمن الطبيب على حياته فيقابله بكمال الخيانة في حياته . وتكون هاته الخيانة بتعمـّده لقتله المحقـّق عنده خشية ما يحدس حدوثه لغيره .

والأحكام الشرعية جاءت بضمان الطبيب في جهله وتقصيره فضلا عن عمده . ولذلك قال خليل في ضمان ما يسري إلى النفس كطبيب جهل أو قصّر قال شارحه عبد الباقي : « ومفهوم جهل أو قصّر أنّه إن علمه ولم يقصّر بل فعل ما يناسب المرض في الطبّ ولكن نشأ عنه تلف أو عيب فلا ضمان عليه . إلا أن يقصد هو أو الجاهل أو المقصّر الضرر فيقتصّ منه » .

فأنت ترى الأحكام الشرعية تعامل الطبيب بقصده معاملة القاتلين الجانين ، لأنّ الله قد عصم الدماء وأوجب حفظ حياة النفوس وأوجب القتل على متعمـّد القتل بغير ما يستوجب القتل . وللفقهاء في تفاصيل المسألة كلام طويل لا حاجة لنقله . وليس في الشريعة ما يقتضي عذرا للطبيب المتفلسف . ولم يجعل الله من مقتضيات إتلاف النفوس فلسفة الأطبّاء التي أخطأوا فيها أكثر ممّا أصابوا بشهادتهم على أنفسهم . وليس من الحكمة ارتكاب الضرر المحقـّق لرفع ضرر موهوم بل إنّ دفع الضرر بالضرر من أقبح ما يرتكبه أهل الشرّ والشرائع جاءت بعدم التضارر (لا ضرر ولا ضرار) أي لا يجوز ارتكاب الضرر في مقابلة ضرر آخر . هذا مع تحقـّق الضررين فكيف يصح ارتكاب ضرر محقـّق لضرر موهوم .

ولقد صار بسبب ذلك / خوف عظيم لمن يدعوهم المحافظون الصحـّيون لمحلاّت التحفظ ويرونها محلاّت للإهلاك . كما استفادوا ذلك بالتكرّر . [18

ولهذا كان الحجـّاج دائما في إشفاق عظيم في حدوث الأمراض من ضرب الحجز الصحـّي عليهم في المراكز المعيـّنة حتّى لقد بلغني أنّ من

الناس من دخل الحجز الصحّـي بسبب طروء مرض غير المرض المنتشر . وكانت له معرفة بمبادىء الطبّ ، وأعطاه الحكيم من المهلكات ما أمسكه بيده وتحفّظ عليه وأقام به الدعوى عندما وقع عليه الإلحاح في استعماله إلى غير ذلك ممّا ينقلونه من إهانة المرضى وإبعاد أمتعتهم إلى ما يؤول بها إلى النهب .

هذا ما تواتر به النقل عن الحجز الصحّـي الذي يقع بالأراضي المصرية ولكن بمنّة الله لم نصادف من ذلك ما نسوّد به وجه الحجز الصحّـي ولم يكن في الحجز الشامي إلا ما سبق تفصيله . والله وليّ الحفظ .

[الرمثـة]

كان القصد إلى الرمثة في هاته المرحلة من يوم الجمعة الخامس والعشرين من صفر . وبعد رفع الحجز الصحّـي هذا اليوم وقع المسير لولا عارض المطر الذي منع من تتابع السير حتّى اضطرّنا ذلك للنزول . ومضت تلك الليلة بين ريح ومطر . وأصبح يوم السبت 26 صحوا ، غير أنّ الأرض كانت رخوة تزلق فيها أخفاف الإبل ولذلك أقمنا يومنا ذلك . ومن الناس من أراد أن يتعجّل فوقعت أربعة عشر جملا . وبالليل نزل مطر قليل .

وارتحلنا في وضوح النهار من يوم الأحد على صعوبة الأرض بالمزالق إلى أن خرجنا إلى أرض محجّرة وقطعنا جسر الرمثة ورأينا نسوة ذلك البلد الذي هو أوّل بلاد حوران وهنّ في غاية الجمال . وكان مقرّ القرية فوق
[183] الجبل . وسرنا / إلى جسر كتزه (كذا) وهو في غاية الصعوبة لكثرة المزالق حتّى اضطررنا للسير رجالا حيث رأينا تساقط بعض الإبل . وتجاوزنا قرية طرّه إلى قلعة المزيريب وهي قلعة ضخمة البناء قرب قرية المزيريب . وفي هاته القلعة بركة فيها سمك لذيذ الطعم . وهي من بناءات السلطان سليم . ولرداءة ذلك الماء إذا غسلت به الثياب يحدث بها القمل . ولذلك يحذر الحجاج من

غسل الثياب به بل ربّما زعموا أنّ من يشرب من مائها يظهر به القمل على الجسد . وقد لازمنا السير إلى الساعة العاشرة .

[طفس :]

هذه إحدى قرى حوران الواقعة جنوبي الشمسكين أكثر أقسام حوران عمرانا كان النزول في هاته المنزلة مع توالي نزول المطر تلك الليلة . وأصبح يوم الاثنين 28 شديد المطر ولكن في هذا اليوم تواردت نساء طفس يبعن الدجاج والبيض والحطب ، وكلّهن جميلات الجمال البارع لولا أنّهن يستعملن وشما في عوارضهنّ وذقونهنّ على نحو اللحية للرجال . وفيهن يظهر مصداق تغيير خلق الله بالوشم الموجب إلى اللعن في حديث : لعن الله الواشمة والمتوشّمة .

وباشتداد المطر في يوم الاثنين اشتدّ الوحل وتعسّر التخلّص من تلك الأوحال على رواحل الجمال . وأخذ الناس يدبّرون طرقا للخلاص . فمنهم جماعات اجتمعوا للسبق على الخيل والبغال والحمير ممّا كان لهم مع الركب . وساعد أعيان المقوّمين الذين لا يمكنهم ترك رواحلهم فسمحوا بخيلهم للكراء . وارتفقت أنا ورفيقي عبد الباقي باي مع التاجرين السيد أمين مدور الاسكندراني [184] والسيد عبد الرحيم السبيعي الدمشقي . واستأجرنا أفراسا بكراء قدره عشرون / فرنكا للفرس .

واشترينا العباءات الصوف الغليظة للتوقّي من الريح والمطر . وعندما لبست تلك العباءات الغليظة ورأيت فائدتها للريح وجدت بها عونا عظيما على اقتحام تعجيل السفر لما تقرّ به العين وتحقّقت أنّ لبس ما كان لنا من الشوب الشفوف لا يمكن التوصّل معه إلى ما يوصل إليه لباس الصوف وأنشدت : (من بحر الوافر)

1 ــ وَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرُّ عَيْنِي
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ

وهنالك رأيت موقع الكساء في كافات الشتاء بوجه لا يقوم غيره مقامه وما أولاه بالتقديم في قول الشاعر : (من بحر البسيط)

1 — جَاءَ الشِّتَاءُ وَعِنْدِي مِنْ حَوَائِجِهِ
سَبْعٌ إِذَا الْقَطْرُ عَنْ حَاجَاتِنَا سَا
2 — كِنٌّ وَكِيسٌ وَكَانُونٌ وَكَأْسُ طِلاً
مَعَ الْكِبَابِ وَكُسٌ نَاعِمٌ وَكِسَا

وقد كنت جمعت راءات الربيع فقلت : (من بحر البسيط)

1 — جَاءَ الرَّبِيعُ وَفِي نَيْرُوزِهِ جُمِعَتْ
رَاءَاتُهُ عِنْدَنَا إِذْ نَحْنُ فِتْيَانُ
2 — رِيمٌ وَرُودٌ وَرَاحٌ وَالرَّبَابُ سَطَا
فِي رَوْضَةٍ عَمَّهَا رَوْحٌ وَرَيْحَانُ

وجمع أخونا الشيخ محمّد ابن الخوجة باءات للمصيف في قوله : (من بحر البسيط)

1 — بَادِرْ مَصِيفَكَ بِالبَاءَاتِ تَجْمَعُهَا
بَاءَاتُ كُلِّ مَلَذَّاتٍ وَسَرَّاءِ
2 — بَضٌّ وَبُلْبُلٌ بَسْلَبَالٌ وَبَهْكَنَةٌ
وبربص بطة بيت عَلَى المَاءِ

وسبحان من خصّ الأزمان بأنواع الأفنان . ولذلك عندما لاقتنا من الشتاء الشدّة أعددنا له تلك العدّة والتزمنا أن نترك أتباعنا ومتاعنا على رواحلنا . واخترنا لأنفسنا الفوز بالسبق للخروج من رطوبة الأرض وعواصف الأهوية الغربية . وامتطينا خيلنا والخيل معقود في نواصيها الخير . وسرنا هذا السير الجديد على ظهور الخيل باكرة / في جموع من السابقين يوم الثلاثاء التاسع والعشرين [185]
من صفر الخير .

[بلـــد الكســـوة]

قد بعثنا حبّ الارتياح إلى قطع مسافة طويلة بملازمة السير نحو العشرين ساعة في هاته المرحلة على وحل الأرض واختلاف أطوارها وصعوبة زلقها . ولكن وجدنا من الصحو باعثًا على إدامة المسير . فمررنا على جسر طفس والأرض من ميمنته مخاضة يقع فيها الراكب بدابّته إلى غاية الغرق .

ثمّ وصلنا للخربتين وهما أثر قريتين كانتا عامرتين . ثمّ مررنا بجسر الشمسكين وتلقّتنا نساء قرية الشمسكين بمبيعاتهنّ وهنّ من نساء حوران الجميلات . وأكلنا من تلك المبيعات الحلوة والفواكه الجافّة .

وكانت الطريق بعد ذلك بين وحل وحجر أسود لا يستوي عليه موْطِىء الدابّة واشتدّت بعد ذلك رخاوة الأرض في جهة تسمى مالطه وبها جسران طويلان جدّا من حجر لا يبعد خطر السير عليهما من خطر مخاضة الأرض حولهما لكن غلبة السلامة فيهما تمنع من التخلّي عنهما .

ومررنا بجسر قتيبة على الوادي من بناء ثمّ بجسر الصنمين وهو أحسن الجسور بناه السلطان سليم . والبلد كلّه خراب لا تظهر سلامة بنائه إلاّ في بعض الأديار التي هي أكثر ما بقي في البلد . وسكّانها جميلات وأرضها تختصّ بحجر الطواحين وتوجد بها أنواع من الطيور ومياهها كثيرة العلق الذي يتولّد من الخزّ المتكوّن من الماء . وبقربها قرية الدلي على صغير (كذا) .

ووصلنا إلى غباغب عند الغروب ، وهي من القرى الواقعة على شمالي الشمسكين من بلدان حوران . فأدركنا حولها صلاة المغرب . وكان القصد إلى المبيت هنالك لكنّ أخوي رفيقنا وهما السيد أبو الفضل مدور والسيد أبو / حامد السبيعي تلقّيا أخويهما هنالك وبسطُوا من جديد طعامهم الدمشقي [186]
ما طاب بعده المسير على خطر الليل لتقارب العمران بقرى حوران . أما الأراضي الحورانية فهي من أجود الأرض وسكّانها يحرثونها بدون عوض والحارث في بعضها خمس سنين يملكها لضعف العمارة .

[الكـلام على حــوران]

لا بأس بقول وجيز في هذا القسم من الأراضي الشامية وهو يحدّه شمالا دمشق وشرقا البادية وجنوبا بَرِّيَّةٌ متواصلة بالحجاز وغربا نَهْر الأردن إلى ما وراء بحيرة طبريّة . قال ياقوت (1) : حوران كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع . وكانت مقرّ ملك شداد . وعندما شاد عاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وجعلها جنّـة العباد أخذ حورها وغلمانها من قرى حوران لتوفّر آية الجمال فيهم . وما زالت منازل العرب وذكرها في أشعارهم كثير وقصبتها بصرى . قال امرؤ القيس : (من بحر الطويل)

1 ــ وَلَمَّـا بَـدَتْ حُـورَانُ وَالآلُ دُونَهَـا
نَظَرْتُ فَلَمْ تَنْظُـرْ بِعَيْنِكَ مَنْظَرَا

وقد فتحت حوران قبل دمشق حيث اجتمع جيش الإسلام عند قدوم خالـد بن الوليد على بصرى فَفَتَحُوهَا صُلْحًا وانبثّوا إلى أرض حوران جميعا . وكـان الرومانيون يسمّون حوران : أورَانِـيتِس . وقرى حوران في هذا اليوم تبلغ إلى مائتين وثلاثين قرية سكّانها بين مسلمين ونصارى وبدو . وعدد جميعهم نحو التسعين ألف نفس وأرض حوران جيّدة ومحاصيلها جيّدة . غير أنّها اليوم معطّلة عن العمل بسبب اتّساعها وقلّة سكّانها . فأرضها أغلبها قفر والشجر فيها قليل ومعادنها معطّلة وأغلب حالـة / قراها [187]
الخراب . وربّما تناوب أهلها السكن في تلك القرى الخربة على شظف من

---

(1) ياقوت: هو ياقوت بن عبد الرومي الحموي ولد سنة 574هـ./1178م. وأصله من الروم . أسر من بلاده صغيرا وابتاعه ببغداد تاجر اسمه عسكر بن إبراهيم الحموي فرباه وعلمه وشغله بالأسفار في متاجره ثم أعتقه سنة 596هـ. وأبعده فعاش من نسخ الكتب بالأجرة ثم رحل رحلة واسعة انتهى بها إلى مرو بخراسان وأقام يتجر ثم انتقل إلى خوارزم وبينما هو فيها خـرج التتر سنة 616هـ. فانهزم بنفسه تاركا ما يملك ونزل بالموصل وقد أعوزه القوت ثم رحل إلى حلب وفيها توفي سنة 626هـ./1229م. من كتبه : معجم البلدان – ط. وارشـاد الأريب – ط. ويعرف بمعجم الأدباء – والمشترك وصفا والمفترق صقعا – ط. (انظر : الاعلام : ج : 9 – ص : 157 .

العيش مع قلة العمل حتّى لم يبق فرق بين الحضر والبدو إلاّ بالنسبة بل إنّ كثيرا من قراها بقيت أسماؤها وزال مسمّاها بالمرّة بحيث إنّ مئات الأسماء التي يسمّيها العارفون وربّما نقلها المؤرّخون صار الكثير منها اسما لعرصة البلاد وإن بقي في بعضها أثر الأبنية العربية التي شادها ملوك بني غسّان في تلك البلدان وملأ ذكرها تاريخ دول الغسانيين من العرب .

وسنلمّ بذكر شيء منه . وقد كان لجبل حوران أيضا ذكر عظيم وكانت به مئات من المدن والقرى . ومن أعظمها مدينة السويداء التي صارت الآن مكانها قرية من مراكز القائمقامية شيخها اليوم إبراهيم الأطرش . والمدينة الأصلية القديمة بناها الملوك الغسّانيون وشاد فيها المنذر بن النعمان (1) قصرا تدلّ آثاره على قوّة بانيه . وكان بناؤه قبل الهجرة بزمن طويل .

وتوجد في هذا الجبل طرق قديمة صناعية منحوتة سهلة كانت تسير فيها العجلات أيام الغسانيين . ولمياهه أقنية تحت الأرض تصل إلى بصرى . وكان القدماء من اليونان والرومان وبني غسّان يبنون بحجارة كبيرة سوداء . وقد مررنا على بقاياها المنحوتة في طريقنا . وكانوا يجعلون الأسقف من عمد حجرية ويستعيضون بصفائح من حجارة عن الألواح الخشبية فيصنعون أبوابهم من حجارة ويزينونها بنقوش وربّما كان فتحها وإغلاقها أسهل من الأبواب الخشبية .

وقد ذاعت النصرانية في دول بني غسان هنالك ومن نظرية الحديث ما ورد أنّه كان الاسود بن المنذر بن النعمان بن امرىء القيس من ملوك الحيرة
انتصر على ملوك غسّان وأسّر منهم / ثمّ رام أن يعفو عنهم . وكان له ابن [188]

---

(1) المنذر بن النعمان هو أول أمراء بني لخم المناذرة حكم من سنة 431م. إلى سنة 473م. أما الأمراء المناذرة الأربعة الباقون فهم المنذر الثاني بن المنذر (493م. — 500م.) والمنذر الثالث من أشهر ملوك بني لخم (514م. — 554م.) حارب الروم مرارا ونال منهم الغنائم. زوجته هند الكبرى أم عمرو. ثم المنذر الرابع (573م. — 580م. ابن قابوس بن المنذر وعلى أيامه أحرق الغساسنة الحيرة . ثم المنذر الخامس (628م. — 632م.) .

عمٌّ يقال له أبو أذينة قد قتل آل غسان له أخا فقال قصيدة يُغرى بها الأسود ومنها : (من بحر البسيط)

1 ــ مَا كُلَّ يَوْمٍ يَنَالُ الْمَرْءُ مَا طَلَبَا
وَلاَ يَسُوغُهُ الْمِقْدَارَ مَا وَهَبَا

2 ــ وَأحْزَمُ النَّاسِ مَنْ إنْ فُرْصَةٌ عَرَضَتْ
لَمْ يَجْعَلِ السَّبَبَ المَوْصُول مُنْقَضِبَا

3 ــ وَأنْصَفُ النَّاسِ في كُلِّ المَوَاطِنِ مَنْ
سَقَى المُعَادِينَ بِالكَأْسِ الذِي شَرِبَا

4 ــ وَلَيْسَ يَظْلِمُهُمْ مَنْ رَاحَ يَضْرِبُهُمْ
بِحَدِّ سَيْفٍ بِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ ضُرِبَا

5 ــ وَالْعَفْوُ إلاَّ عَنِ الأكْفَاءِ مَكْرُمَةٌ
مَنْ قَالَ غَيْرَ الَّذِي قَدْ قُلْتُهُ كَذِبَا

6 ــ قَتَلْتَ عَمْرَوا وَتَسْتَبْقِي يَزِيدَ لَقَدْ
رَأيْتَ رَأيًا يَجُرُّ الوَيْلَ وَالْخَرَبَا

7 ــ لاَ تَقْطَعَنَّ ذَنَبَ الأفْعَى وَتُرْسِلُهَا
إنْ كُنْتَ شَهْمًا فَأتْبِعْ رَأسَهَا الذَّنَبَا

8 ــ هُمْ جَرَّدُوا السَّيْفَ فَاجْعَلْهُمْ له جُزُرًا
وَأوْقَدُوا النَّارَ فَاجْعَلْهُمْ لهَا حَطَبَا

9 ــ إنْ تَعْفُ عَنْهُمْ يَقُلِ النَّاسُ كُلُّهُمْ
لَمْ يَعْفُ حِلْمًا وَلَكِنْ عَفْوُهُ رَهَبَا

10 ــ هُمْ أهِلَّةُ غَسَّانَ وَمَجْدُهُمْ
عَالٍ فَإنْ حَاوَلُوا مُلْكًا فَلاَ عَجَبَا

11 ـ وَعَرَضُوا بِفِـداءٍ وَاصفِـيـنَ لَنَـا
خَيْـلاً وَإِبْـلاً تَرُوقُ العُجْمَ وَالعَرَبَا

12 ـ أ يَحْلِبُـونَ دَمًّا مِنَّـا وَنَحْلِبُهُـمْ
رُسْلاً لَقَـدْ شَرَّفُـونَا فِـي الوَرَى حَلَبَا

13 ـ عَـلاَمَ تَقْبِـلُ مِنْهُـمْ فِدْيَـةً وَهُـمْ
لاَ فِضَّةً قَبِلُـوا مِـنَّـا وَلاَ ذَهَبَـا

وعلى كلّ حال فقد فتح الإسلام تلك الأرض وانتشر فيها وأقام المسلمون في كلّ قرية منها جوامع ومدارس لا تزال آثارها تدلّ عليها . ولكنّ ذلك الخراب أتى على ذلك الجبل وجلت أيدي الفساد منه المسلمين وبقيت فيه بقية من النصارى فأتى عليهم قوم من الدروز وسكنوا الجبل وصار اليوم ينسب إليهم فيقال له : جبل الدروز لكثرتهم فيه . والبدو بينهم لا يبلغون أربعة
[189] آلاف نفس وَسُبْحَانَ مَنْ يَرِثُ / الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ . ومن علم تاريخ ملوك بني غسّان في تلك الأراضي التي مررنا عليها وما شاده العرب فيها وشاهد حالتها التي هي عليها اليوم اندهل من تحوّل الحال إلى ما يؤذن بالاضمحلال .

ولقد كانت حرقة بنت النعمان بن المنذر وفدت على سعد بن أبي وقّاص بعد فتح القادسية . وأكرم وفادتها وقال لها : سلي حاجتك . فقالت : لا أريد أيّها الأمير سوى خربة أعمّرها وأرتفق منها . فأمر عمّاله أن ينظروا لها قرية خربة . فقالوا : لا يوجد هنا خراب . فقالت : الحمد لله الذي وفّق آبائي لأن يعمّروا الدنيا ويسلّموها لغيرهم عامرة ، فاجتهد أيّها الأمير أن تسلّمها لغيرك كما استلمتها .

ومن تتبّع آثار الأبنية الجاهلية في عموم جزيرة العرب شاهد منها ما يفوق بحالته الحاضرة أعظم المباني الشهيرة . ومن طالع وصف جزيرة العرب،

للعلاّمة ابن الحائك الهمداني (1) رأى من فرط خصبها وطيب تربتها وجودة مائها وكثرة معادنها وخيراتها ما يفوق الوصف .

وقد جاءت شريعتنا المطهّرة بالترغيب في عمران الأرض وإحياء مواتها للزيادة في عمرانها حتّى روى البخاري : أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : « مَنْ عَمَّرَ أرْضًا لَيْسَتْ لأحَدٍ فَهُوَ أحَقُّ بِهَا » . وعلى ذلك انبنت أحكام إحياء الموات من كتب الفقه .

وقال الأئمّة : لو يعلم عباد الله رضا الله في إحياء أرضه لم يبق على وجه الأرض موضع خراب . وفي الحديث : « مَنْ أحْيَا أرْضًا مَيِّتَةً فَلَهُ فِيهَا أجْرٌ وَمَا أكَلَتِ الْعَوَافِي مِنْهَا فَهُوَ صَدَقَةٌ » . والعوافي : طلاّب الرزق كالبنائين والفعلة وسائر الدواب .

[190] ومن ذلك ترى أنّ حقيقة التاريخ العربي / الذي تشهد له آثار الخورنق والسدير وقصر سنداد وغمدان (2) . ومقتضيات الشريعة الإسلامية جميعها موجبات عمران مدني كانت عليه العرب في جاهليتهم ، وجاءتهم به الشريعة الإسلامية .

(1) ابن الحائك الهمداني : هو الحسن بن أحمد بن يعقوب ، من بني همدان ، أبو محمد ، عالم بالأنساب عارف بالفلك والفلسفة والأدب ، شاعر مكثر ، من أهل اليمن . كان يعرف بابن الحائك ، وبالنسابة . ولد ونشأ بصنعاء وأقام على مقربة منها ببلدة ريدة وطاف البلاد واستقر بمكة زمنا وعاد إلى اليمن فأقام في مدينة صعدة وهاجى شعراءها فنسبوا أبياتا قيل عرض فيها بالنبي (ص) فحبس ونقل إلى سجن صنعاء . من تصانيفه : الاكليل – خ . في أنساب حمير وأيام ملوكها . وكتاب صفة جزيرة العرب : (انظر : الزركلي : الاعلام : ج 2 – ص : 192–193 .

(2) الخورنق : موضع في العراق قرب النجف . سكنه بنو اياد . وفي بدء القرن الميلاد عمر فيه نعمان اللخمي قصرا لبني ساسان وسعه العباسيون وخرب في القرن الرابع عشر الميلادي . وقد شاد بذكر الخورنق شعراء الجاهلية منهم الأسود بن يعفر القائل :

ماذا أؤمل بعد آل محرق (أي المناذرة)   تركوا منازلهم وبعد اياد
أهل الخورنق والسدير وبارق   والقصر ذي الشرفات من سنداد

السدير : قصر في الحيرة قريب من الخورنق اتخذه النعمان الأكبر لبعض ملوك العجم . ذكره شعراء الجاهلية . قيل اسمه السدير لكثرة شجره ونخله .

[انتقاد المؤلّف لنظرية عبد الرحمان بن خلدون في نسبة التوحّش للعرب]

وأمّا نسبة التوحّش للعرب فمنشؤها الجهل بحقيقتهم وحقيقة بلادهم . وبهذا تعلم أنّ ولي الدين بن خلدون قذف به تيّار الغلط حين خاض هذا الوادي في مقدّمة تاريخه فنسب الخراب للعرب . وكأنّ الرجل اشتبه عليه ما فعلته أيدي البرابرة من التحريق والتخريب والتدمير في ممالك اشتغلت بعمرانها الأمّة العربية والأمة الرومانية وغيرها من الأمم فنسب الخراب للعرب .

والحال أنّ الأمّة العربية هي التي أخذت على أيدي البرابرة في أوّل نهضتها وقهرت بربريّتهم وكسرت شوكة توحّشهم وأجلت كهنتهم وكاهناتهم بفتوحات الإسلام التي ترتّب عنها تمصير الأمصار وتعمير الديار وتخليد الآثار وإنشاء العلوم إلى الغاية التي وصلت إليها دار الإسلام في دولة الاسلام وبلغ إليها التمدّن العربي في بلاد الأندلس ومصر والشام وبلاد إفريقية على عهد سلطنة بني حفص في تونس (2) .

ومن راجع تاريخ الفتوحات الإسلامية وما كانت عليه تلك الممالك التي خرّبها البرابرة وما آلت إليه بعد دخولها في حوزة العرب يتبيّن له وضوح غلط ابن خلدون في ذلك الفصل الذي سوّد به وجه تلك المقدمة . والله غالب على أمره .

---

(1) ابن خلدون : عبد الرحمان بن محمد ولد بتونس سنة 732هـ./1332م. وتوفي بالقاهرة سنة 808هـ./1406م. (راجع دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الثانية ، ج 3 – ص : 849–855) . راجع أيضا : الرحلة الحجازية : ج 1 – ص : 18 وص : 315–316 – تحقيقنا نشر الشركة التونسية للتوزيع : 1976) .

(2) بنو حفص : أسرة من البربر حكمت إفريقية (1228م. – 1574م.) . عميدها الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني وهو قائد بربري رأس الهنتاتية من أوائل مريدي ابن تومرت وأحد ضباط عبد المؤمن بن علي المخلصين .

[رجوع المؤلّف إلى إتمام حديثه عن حوران]

أمّا أهالي قرى حوران فلهم نحلات وعوائد متباينة مثلا حالة التزويج عندهم في أكثر البلاد أن الوالد يعطي ابنته بشبه البيع بثمن باهظ ربّما يأخذ فيه جميع كسب زوجها من الدواب والأرض / والأثاث والحبوب والمال [191] ويسلّمها له مصحوبة بلبدين للنوم فقط بحيث إن أبا البنات عندهم عرضة للغنى من بناته .

وفي مثل بلد الكسوة التي هي ممرّ للركب كلّ سنة مرّتين فينزل بها المصاحبون له واللاحقون به والسابقون عنه ويحتاج لكثرة الفرش والأغطية فان مهر البنات يضيف إليه والدهنّ ما يساويه للتجهيز ويجعل جميع ذلك في شراء الفرش والأغطية خاصّة بحيث إنّ كلّ بيت فيه العدد الذي يمكنه من الفرش والأغطية ويتباهى النسوة والرجال بكميّة ذلك .

وقد دخلنا إلى بلد الكسوة بعد منتصف الليل بعد أن لاقينا جهد الطريق في ظلام الليل وآثار المياه . وفي أثناء ذلك السير أنشأت بيتين اقتصرت فيهما على حكاية الحال . وتوخّيت صِدْقَ المقال صدّرتهما وأنهيتهما بالصدر والنهاية من بيت أبي الطيب المتنبي (1) الذي دعاه التحمّس إلى الغرور فلم يصدق في مقاله . وقامت عليه الحجّة بقوله فاضطرّه الغرور أيضا إلى الاستسلام إلى ما لاقى به الحمام وتحرّي الصدق دعاني فقلت : (من بحر البسيط)

1 ـ الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ قَدْ عَرَفَتْ
مِنِّي سَرِيًّا بِفَضْلِ السِّلْمِ يَعْتَصِمُ

2 ـ مَا لاَذَ بِالسَّيْفِ أَوْ بِالرُّمْحِ فِي خَطَرٍ
وَإِنَّمَا إِلْفُهُ الْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

---

(1) أبو الطيب المتنبي : (915م. ـ 965م.) ولد في محلة كندة من الكوفة وقتل في عودته من فارس إلى بغداد . شاعر فحل تخرج في الشام والعراق . امتدح سيف الدولة الحمداني . ثم كافور الاخشيدي ثم عضد الدولة البويهي . كان متكبرا شجاعا طموحا محبا للمغامرات . خلف شعرا مبتكرا حكيما محكم الصياغة . له : ديوان : اهتم به العكبري والشيخ إبراهيم اليازجي خاصة .

وقد كان نزولنا في بيت السيد أبي الفضل علية من أفخر بيوت البَلَد المملوءة الصالات (1) بالفرش . وأحضر لنا في ذلك الليل أحسن طعام ونمنا عنده أحسن منام استرحنا به من نصب الركوب . وأصبحنا بمنّة الله على أحسن حالة نستقبل التنعّم بغوطة دمشق الشام والتأنّس بما لأهلها من الفضل والإكرام . وهنا كانت خاتمة الأوصاب والأتعاب بقطع البيداء في ذلك التراب وأنهينا هذا السفر بنهاية شهر صفر .

[قصيدة المؤلّف في وصف المحمل الشامي]

[192] وقد نظمت / قصيدة في وصف المحمل الشامي وضمّنتها ذكر منازل الركب قطعت بها كثيرا من مسافات السير . وهي لا تخلو من وعثاء السفر ولذا أثبتها على علاّتها . وهي قولي : (من بحر الطويل)

1 — شَدَدْتُ رِحالي أقْصِدُ المَسْجِدَ الأقْصَى
بُعَيْدَ مَزَارٍ فَضْلُهُ لَيْسَ يُسْتَقصَا

2 — بُعَيْدَ مَزَارِ الحَجِّ وَالمَسْجِدِ الذي
بِرَوْضَةِ خَيْرِ المُرْسَلِينَ قَدِ اخْتَصَّا

3 — فَكُنْتُ إلَى أقْصَى المَرَاحِلِ آخِذاً
زِمَامَ بَعِيرٍ فِي قِطَارٍ قدِ ارْتَصَّا

4 — قِطَار بِهَا آلاَفُ نُوقٍ تَؤُمُّهَا
عَساكِرُ أبْطالٌ على الخَيْلِ لاَ تُحْصَا

5 — هُوَ الرَّكْبُ وُسْطَاهُ الأمِيرُ بِتَخْتِهِ
يَسِيرُ وَمِنْهُ الأمْرُ إذْ ذَاكَ لاَ يُعْصَا

6 — وَأعْلاَمُ هَذَا الرَّكْبِ كُلٌّ مَحَفَّةٌ
عَلَى جَمَلٍ مِنْ حُسْنِ تَبويبِهَا خَصَّا

(1) الصالات : كلمة من الدخيل أصلها في اللغة الفرنسية كلمة صال Salle ومعناها البيت الواسع .

7 — لَهَا قَادَةٌ هُمْ آخِذُونَ خِطَامَهَا
لِسَيْرٍ بِاتِّفَاقِ النِّظَامِ قَدِ اخْتُصَّا

8 — يَسُوسُونَ مِنْ رُكْبَانِهَا كُلَّ سَيِّدٍ
تَسَامَى بِفَضْلٍ كَامِلٍ لَمْ يُسَمْ نَقْصَا

9 — وَمِنْ حَوْلِهِمْ قَوْمٌ عَلَى الإِبِلِ امْتَطَوْا
حُمُولَتَهَا لاَ يَلْتَقُونَ بِهَا وَقْصَا

10 — وَقَوْمٌ رِجَالٌ سَائِرُونَ وَمِنْهُمُ
مِنَ البَاعَةِ القَوْمُ الأُلَى حَمَلُوا شِصَّا

11 — تَرَى مَدَى أَبْصَارٍ سُمُوطًا تَنَظَّمَتْ
مِنَ الرَّكْبِ لَمْ يَخْتَلَّ مِيزَانُهَا رَهْصَا

12 — تَسِيرُ بَيَاضَ اليَوْمِ مِنْ بُكْرَةٍ وَإِنْ
طَمَحَتْ عَيْنُهُ تَنْحَازُ لِلمَبْلَغِ الأَقْصَى

13 — وَفِي سَيْرِهِ تَلْقَاهُ أَفْعَمَ وَادِيًا
بِمُنْسَابِهِ حَتَّى الفَضَاءِ لَقَدْ عَصَّا

14 — وَيَحْكِي إِذَا مَا حَاطَ بِالشُّمِّ خَاتَمًا
وَمَحْمَلُ خَيْرِ الخَلْقِ فِيهِ حَكَى فَصَّا

15 — فَإِنْ خَيَّمُوا فِي الأَرْضِ أَبْصَرْتَ غَامِرًا
تَحَلَّى بِعُمْرَانٍ بِهِ صَارَ مُرْتَصَّا

16 — قِبَابُ خِيَامٍ قَدْ عَلَتْ وَتَنَظَّمَتْ
وَتَلْوِينُهَا يَقْتَادُ مَنْظَرَ مَنْ بَصَّا

17 — وَفِي وَسَطِ الخَيْمَاتِ كُلُّ نَفِيسَةٍ
مِنَ الرَّحْلِ قَدْ حَطَّتْ بِأَكْنَافِهَا رَصَّا

18 — زَرَابِيُّهَا مَبْثُوثَةٌ وَتَنْزِيلُهَا
[193] لَهُ رَاحَةٌ يَأْتِيهِ مَا بِهِ قَدْ وَصَّا /

19 — وَنِيرَانُهَا مَشْبُوبَةٌ مِنْ أَمَامِهَا
عَلَيْهَا قُدُورٌ رَاسِيَاتٌ حَوَتْ قَنْصَا

20 — يَجُودُونَ مِنْهَا بِالَّذِي يَصْطَفُونَهُ
لأَنْفُسِهِمْ بَلْ يُؤْثِرُون مَنِ اخْتَصَّا

21 — عَدِيمُهُمْ يَلْقَى بِهِمْ خَيْرَ مَآكِلٍ
وَخَيْرَ شَرَابٍ رَاقَ يَلْتَذُّهُ مَصَّا

22 — وَأَرْفَاقُهُمْ يَلْقَوْنَ مِنْهُمْ أُنْسًا
يَزِيدُهُمْ لِلائْتِلاَفِ بِهِمْ حِرْصَا

23 — وَإِنْ مَا سَجَى لَيْلٌ تَرَنَّمَ بَيْنَهُمْ
نِظَامِي لَحْنٍ يَجْلِبُ الأُنْسَ وَالرَّقْصَا

24 — فَدَعْ عَنْكَ لَحْنَ المَوْصِلِيِّ وَمَعْبَدٍ
وَنَغْمَةَ مَنْ طَابَ الغِنَاءُ بِهِ نَصَّا

25 — إِذَا رَنَّ مِنْ آلاَتِهَا مُتَرَنِّمُ
رَأَيْتَ غُصُونَ القَوْمِ مُهْتَزَّةً رَقْصَا

26 — وَإِنْ سَكَتَ لَمْ يَفْتَأْ القَوْمُ كُلُّهُمْ
رَقِيمًا بِمَا يَرْوِيهِ مِمَّا بِهِ اخْتَصَّا

27 — فَلاَ تَسْمَعُ الآذَانُ إِلاَّ بَلاَبِلاَ
عَلَيْهَا سِتَارُ اللَيْلِ قَدْ أَرْسَلَ القُمْصَا

28 — نَهِيمُ بِهَا حَتَّى نَنَامَ بِمَوْطِىءٍ
رضَى عَلَيْهِ الامن قد سهل الوعصا

29 — فَإِنْ شَمَّرَ اللَّيْلُ القَمِيصَ تَرَ الأُلى
يَشُدُّونَ رَحْلاً عَاجَلُوا صُنْعَهُم حِرْصَا

30 — وَمَا هِيَ إِلاَّ طَرْفَةٌ وَقَد انْطَوَتْ
خِيَامٌ وَكُلُّ الرَّحْلِ مُحْتَكَمٌ عقْصَا

31 — فَإِنْ صَدَرَ الإِذْنُ الْعَمِيمُ بِمِدْفَعٍ
لَهُ نَهَضَتْ أَنْعَامُهُمْ وَهْوَ لاَ يُعْصَا

32 — فَتَأْخُذُ مَسْرَاهَا بِحُسْنِ انْتِظَامِهَا
وَتَسْلُكُ مِنْ أَفْجَاجِهَا مَسْلَكًا وَعْصَا

33 — فَإِنْ أَدْلَجُوا هُمْ أَسْرَجُوا سمرائهم
وَسَارُوا بِهَا كَالشَّمْسِ تَحْسِبُها قُرْصَا

34 — وَإِلاَّ كَمَا نَهْرُ الْمَجَرَّةِ قَدْ غَدَا
عَلَى لأَحِبٍ يَسْرِي وَلَنْ يَبْلُغَ القُرْصَا

35 — وَإِنْ عَرَّسُوا أَنَارَتْ مَنَازِلُهُمْ بِهِمْ
إِنَارَةَ بَدْرٍ لاَ خُسُوفَ وَلاَ نَقْصَا

36 — بهمْ يَهْتَدِي مَنْ ضَلَّ في وَعْرِ مَسْلَكٍ
وَيَأْمَنُ فِي البَيْدَاءِ مَنْ يَخْتَشِي اللَّصَا

37 — هوَ المَحْمَلُ الشَّامي وَمَنْ شامَ حُسْنَهُ
يَشُمُّ شَيَمًا مِنْ شَأْنِهَا قصد القمصا

38 — بهِ فِي طَرِيقِ الرُّشْدِ قد كَانَ مَرْكَبِي
عَلَى جَمَلٍ مَا طَالَهُ جَبَلٌ دِعْصَا

39 — إِذَا مَا تَهَادَى خِلْتَهُ ذَاتَ دمْلَجٍ
تَتِيهُ على مَنْ بِاعْتِلاَقِ الهوَى خُصَّا / [194]

40 – يَلِـينُ بِوَضْعِ الخُفّ في كُلِّ مَسْلَكٍ (1)

....

41 – يخال مقيما غيـران (2)...............

....

42 – فيعـلي الفيـافي (3)..............................

....

43 – عليـه تـراث صفـة في محفـة
تحف بهـا الاستـار محكمة عمصا

44 – موشاة قد فاتت على الهودج الـذي
حوى طيبـات .... (4)

45 – وَلَكِنَّ هَاتِيكَ المَحَفَّةَ قَدْ حَوَتْ
نَجِيبَيْنِ كُلٌّ مِنْهُمَا عَادَلَ شَخْصَا

46 – يَسِيرُ بِهَا فَحْلٌ صَبُورٌ لِمَنْزِلٍ
بِهِ الرَّحْلُ لاَ يَخْشَى لَهُ أبَدًا لِصًّا

47 – نَسِيرُ إلَى الأرْضِ المُقَدَّسَةِ الَّتِي
بِرَحْمَتِهِ الرَّحْمَانُ أكْنَافَهَا خَصَّا

48 – مَسِيرًا جَمِيلاً فِي مَمَرِّ رَسُولِهِ
وَأصْحَابِهِ لَمَّا غَزَوْا وَانْتَقَوْا قَنْصَا

49 – وَفِيهِ اشْتَرَيْنَا فِي مَحَلٍّ هَدِيَّةً
تَلَقَّتْهُمْ فِي مَرْجِعِ الفَوْزِ لاَ تُحْصَى

(1) عجز البيت مطموس .
(2) بقية البيت مطموسة .
(3) ثلاثة أرباع البيت مطموسة .
(4) بقية العجز مطموسة .

50 – وَسِرْنَا فَأَبْصَرْنَا مَدَائِنَ صَالِحٍ
بُيُوتًا مِنَ الأَعْلاَمِ قدِ انحتت رَقْصًا

51 – وَفِيهَا رَأَيْنَا مَبْرَكَ النَّاقَةِ الَّتِي
بِأَشْقَى ثمُود عقرهَا جَلَبَ النَّقْصَا

52 – وَمَا قَدْ أَصَابَ الْقَوْمَ مِنْ غَضَبٍ بِهِ
هُمْ هَلَكُوا وَالْتَاحَ عُصْرَانُهُمْ عصًا

53 – وَمَا زَالَ حَتَّى الْيَوْمِ فِيهِ مَوَاعِظٌ
بِرُؤْيَةِ أَعْلاَمٍ قَدِ انْقَلَبَتْ نكْصًا

54 – تَرَى سَيْرَ نِصْفِ الْيَوْمِ مُنْقَلِبًا بِهَا
وَمِنْ غَضَبِ الْجَبَّارِ قَدْ كُسِيتْ قُمْصًا

55 – وَقَدْ ضَاقَ مِنْهَا مَسْلَكٌ مُتَوَعِّرٌ
بِمَزْلَقِ أَحْجَارٍ حَوَى رَمْلاً وَعصًا

56 – جِبَالٌ وَأَطْلاَلٌ وَوَعْرٌ تَوَحَّشَتْ
بِهِ أَنْفُسٌ قَدْ أَبْصَرَتْ مُوعِظًا نَصًّا

57 – له انْدَهَشَتْ عُجْمُ الجِمَالِ وَنَحْنُ فِي
تَعَوُّذِ مَنْ يَدْرِي بِمَا اللَّهُ قَدْ نَصًّا

58 – وَلَكِنْ فِي تِلْكَ المَدَائِنِ أَلْفِيَتْ
رَوَاحِلُ فِيهَا جُرْدَةُ الشَّامِ لا تُحصَى

59 – وَفِيهَا لأَهْلِ الرَّكْبِ مَا سَرَّ جَمْعَهُمْ
هَدَايَا وَأَمْوَالٌ لَهَا أَسْرَعوا قصا

60 – وَفِيهَا مَبِيعَاتٌ وَأَمْتِعَةٌ أَتَتْ
وَأَنْوَاعُ أَكْلٍ مَا شَكَوْا بَعْدَهُ نحصًا / [195]

61 — يَحُوطُهُمُ حَرْسُ النِّظَامِ عَلَيْهِمُ
أَمِيرٌ مُطَاعٌ لَيْسَ يُعْصَى إِذَا أَوْصَى

62 — وَعِنْدَ التَّلاَقِي مِنْ صُرَاخِ مَدَافِعٍ
بِتَبْشِيرِ لُقْيَانَا تَرَى البِشْرَ لاَ يُحْصَى

63 — وَكُلُّ فَتًى جَاءَتْ مَكَاتِيبُ أَهْلِه
تَرَاهُ عَلَى إِرْفَاقِهِ خَبَرًا قَصَّا

64 — يَرَى الخَطَّ فِي تِلْكَ الصَّحِيفَةِ مِثْلَ مَا
بِخَطِّ عِذَارِ وَاضِحِ الخَدِّ قَدْ خَصَّا

65 — وَكَانَ لَنَا بِالْوَفْدِ أَيُّ تَأَنُّسٍ
بِكَثْرَةِ إِرْفَاقٍ يُسَلُّونَ مَنْ غَصَّا

66 — وَكُلُّهُمْ قَدْ ضَمَّ لِلرَّكْبِ عَائِدًا
فَزَادُوا عَلَى مَا كَانَ فِي المَجْمَعِ النَّصَّا

67 — وَجِئْنَا تَبُوكًا وَالْبَرِيدُ بِهَا حَوَى
رَسَائِلَنَا وَاجْتَازَ يُسْرِعُ مُقْتَصَّا

68 — وَكَانَ معانا ركبنا الاهناء
فَجِئْنَا معانا وَهْيَ قَدْ كُسِيَتْ جِصَّا

69 — وَبِالسَّيْرِ مِنْهَا قَد تَجَاوَزَتْ وَادِيَ المُـ
ـسُوخِ وَبَطْنَ الغُولِ مُنْتَهِمًا جِرْصَا

70 — وَجِئْنَا إِلَى الزَّرْقَاءِ أَبْهَجَ مَنْزِهٍ
بِأَوْدِيَةٍ تَجْرِي بِخَالِصِهَا خلْصَا

71 — عَلَيْهَا دَرَابِيزُ مِنَ القَصَبِ الَّذِي
بِمَنْبَتِهِ إِذْ ذَاكَ لَمْ يَنَلِ القَصَّا

72 ـ وَأَقْبَلَ حَرَسُ الحَجْزِ تحتَ حَكِيمِهِمْ
وَمِنْ خِشْيَةِ الأَمْرَاضِ يَسْبُرُنَا فَحْصًا

73 ـ فَأَوْقَفَنَا عَشْرًا تَحَقَّقَ طُهْرَنَا
مِنَ المرَضِ المُخْشى مِنْ بعلما اسْتَعْصَى

74 ـ وَلَكِنَّهَا الأَمْطَارُ أَيْضًا تَوَارَدَتْ
فكان احْتِبَاسُ القَوْمِ لاَ يَقْبَلُ الحِرْصَا

75 ـ إلَى أنْ أبَانَ اللَّهُ حُسْنَ سَلاَمَةٍ
وَأَعْطَى بِهَا ذَاكَ الطَّبِيبُ لنَا نَصًّا

76 ـ فَسِرْنَا عَلَى صَعْبِ الْمَزَالِقِ نَتَّقِي
بِوَهْنِ مَسِيرٍ مِنْ مَخَاطِرَ لاَ تُحْصَى

77 ـ وَجِئْنَا قُرَى حُورَانَ وَهْيَ كَثِيرَةٌ
نُلاَقِي قِرَى سُكَّانِهَا لاَ نرَى نِكْصَا

78 ـ وَمِنْ بَاعَةِ النِّسْوَانِ نُبْصِرُ خُرَّدًا
منَ الحورِ في أرْدافِهِنَّ ما حكى الدِّعْصَا / [196]

79 ـ يَزِينُ الجَمَالُ اليُوسُفِيُّ وُجُوهَهَا
وَحُسْنُ اخْضِرَارِ الوَشْمِ أيضًا بها اخْتَصَّا

80 ـ ففي حُورِ حُورَانَ الجَمَالُ تَجَمَّعَتْ
مَحَاسِنُهُ مَا أنْ يُسَامَ بِهَا نَقْصَا

81 ـ أقَمْنَا حَوَالَيْهِمْ وَفي الحُسْنِ حَابِسٌ
يَقُودُ أَلِيفَ الحُبِّ مِنْ حَيْثُ لاَ يُعْصَى

82 ـ وَفِي طَفَسٍ عَزَّ المَسِيرُ وَأحْجَمَتْ
رَوَاحِلُنَا أنْ تَقْتَفِيَ أرْضًا غَوْصَا

83 ـ لِـهـذا أرَحْنَاهَا إرَاحَـةَ مُشْفِـقٍ
وَرُمْنَـا جِـيَـادَ الْخَيْلِ نَطْلُبُهَا حِرْصَا

84 ـ وَلَـمَّا امْتَطَيْنَـا ظَهْرَهَا فِـي مَسِيرِنَا
رَأَيْنَـا بَعِـيدَ الأَرْضِ مُنْتَقَصًا نَقْصَا

85 ـ فَخُضْنَا بِـهَا لَيْـلاً طَوِيلاً وَمَوْطِئًـا
عَلِـيلاً نَرَى فَضْلَ المَسِـيرِ إلى الأَقْصَى

86 ـ وَفِـي كِسْوَةٍ تَمَّ المَبِيتُ فَأَصْبَحَـتْ
وُفُـودُ دِيَـارِ الشَّـامِ تَسْتَقْبِلُ القَنْصَا

87 ـ هُنَاكَ تَرَى القَوْمَ الْمُلاَقِـينَ وَوِدًّا
عَلَيْهِـمُ بِشْـرٌ قَـدْ تَـوَارَدَ لا يُحْصَى

88 ـ فَمِـنْ وَالِـدٍ قَدْ ضَمَّ نَجْـلاً وَضَمَّهُ
وَمِـنْ مُشْفِـقٍ بِالبِشْرِ عِنْدَ اللِّقَا غَصَّا

89 ـ وَأَمَّـا غَرِيبُ الْقَوْمِ مِثْلِـي فَإِنَّـهُ
تَجَـرَّعَ بِالتِّذْكَـارِ مَا هَيَّجَ النَّقْصَا

90 ـ وَفِي صَدْرِهِ نِيرَانُ شَوْقٍ تَأَجَّـجَتْ
وصقـرهَا جَـذْبٌ بِـهِ المَرْكَزُ امْتَصَّا

91 ـ فَإِنْ رَدَّهَـا بَيْـنَ التَّرَاقِـي تَطَلَّعَـتْ
لِمَـرْكَزِهَـا لاَ يَسْتَطِـيعُ لهَا رَصَّا

92 ـ وَلَـمْ يَكُ يُجْدِينَا سِوَى صَبْرِ حَازِمٍ
بِإِينَـاسِ مَـوْلاَهُ الكَرِيمِ قَدِ اخْتَصَّا

93 ـ عَسَى مَنْ لَهُ وَجَّهْتُ وَجْهِـي يَرُدُّنِـي
بِـرَدٍّ جَمِـيلٍ بَعْدَ إِبْـلاَغِـي الأَقْصَى

94 ـ وَيَجْمَعُ شَمْلِي فِي بِلاَدِي بِكُلِّ مَنْ
نَـرَى بُعْدَهُمْ بِالبَيْنِ يُطْعِمُنِي عَفْصَا

دمشق

[من بحر الوافر]

1 ـ دِمَشْقٌ لاَ يُقَاسُ بِهَا سِوَاهَا
وَيَمْتَنِعُ القِيَاسُ مَعَ النُّصُوصِ

2 ـ حُلاَهَا رَاقَتِ الأبْصَارَ حُسْنًا
عَلَى حُكْمِ العُمُومِ أوِ الخُصُوصِ

3 ـ بِسَاطُ زُمُرُّدٍ نُشِرَتْ عَلَيْهِ
مِنَ اليَاقُوتِ أَلْوَانُ الفُصُوصِ

هذه أكبر مدينة في قسمي سوريا وفلسطين تسمّى دمشق / وجيرون [197] وجلق والفيحا والشام . وقد خاض المؤرّخون والجغرافيون وأهل اللغة في وجوه تسميتها بما لا طائل تحته ولا حاجة به لمؤرّخ . وقد كانت في حوزة الأشوريين إلى 721ق‌م . واستولى عليها ملك بابل شلمناصر .

وعند سقوط بابل صارت دمشق لليونان بولاية اسْكَنْدَر المكدوني 331ق‌م . ثمّ أخضعها بنبايوس للرومانيين سنة 64 ميلاديا . وبقيت خاضعة للرومان نحو سبعمائة سنة حصلت فيها على التقدّمِ وساد فيها ملوك بني سلمان بتقويهم على الضجاعمة من ملوك الطوائف حيث إن آل غسان من عرب

الشام وأصلهم من اليمن من آل جفنة فاتّخذهم ملوك الروم عمالا على عرب الشام . ودخلت دمشق في حوزتهم فساسوها أحسن سياسة عربية مدّة ستمائة سنة .

واستولى عليها منهم أحد وثلاثون ملكا أولهم جفنة بن عمرو بن ثعلبة ابن فريقيا . وأقاموا فيها القصور والحصون والمصانع والجسور . وكان منهم عمرو بن الحرث بن جبلة الثاني عشر أنشأ قصورا في بعضها مجالسه وجلساء دولته . وأشكال صورته . فكانت منتزهات لا يوجد مثلها . وكان للحرث بن جبلة الرابع والعشرين حروب مع قبائل العرب وملوك الحيرة . ولم يجتمع من الشعراء بباب أحد الملوك ما كان يجتمع ببابه ومن المنقطعين لمدحه حسان بن ثابت الأنصاري (1) .

وكان ابنه النعمان يحب العلماء ويقدّمهم على أشراف العرب . وكان آخرهم جبلة بن الأيهم باني مدينة جبلة . وقد أسْلَمَ في خلافة عمر بن الخطاب ودخل مكّة حاجّا بمائتين وخمسين من أصحابه مقلّدا خيلهم بقلائد الذهب والفضّة . وتلقّاه عمر بمن عنده ورفع مقامه وكان فتح البلاد
[198] الشامية على يد خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجرّاح في خلافة / عمر بن الخطاب . وأخبار هذا الفتح المبين مبسوطة بما تقتضيه قوّة الإسلام .

ثُمّ إنّ معاوية بن أبي سفيان (2) جعل دمشق دار ملك لخلافة الإسلام وتوارد عليها المسلمون وازداد عمرانها وعظم شأنها وكثر سكّانها بما زادت به على ما كان لها في دولة الرومان . وهكذا استمرّت بها الدول الأموية في

(1) حسان بن ثابت : ولد بيثرب . وهو من الشعراء المخضرمين . اتصل أول أمره بالغساسنة فمدحهم ولقي في بلاطهم النابغة وعلقمة . ثم أصبح من الأنصار . وهجا القرشيين وكان أول من نظم الشعر الديني في الاسلام . لقب بشاعر النبي . وشعره من مصادر تاريخ تلك الحقبة من حياة الاسلام . له ديوان معروف رواه أبو سعيد السكري عن ابن حبيب . وطبع مرارا . وأفضل طبعاته : في مجموعة جيب التذكارية : في لندن سنة 1910 .

(2) معاوية بن أبي سفيان الصحابي تولى الحكم في الشام عشرين عاما والتقى بالقتال في سبيل الخلافة مع علي بن أبي طالب في صفين عند الفرات سنة 657م. وانتصر في التحكيم وأسس خلافة الأمويين في الشام وعاصمتها دمشق وتوفي سنة 683م.

خلفاء بني أمية الذين شادوا فيها أفخر المباني الإسلامية وخلّدوا بها الآثار إلى أن قتل آخرهم مروان بن محمد ثالث ذي الحجة 132هـ. وسقطت دمشق بيد السفاح من أمراء بني العبّاس . وصارت إلى ولاية العبّاسيين (1) .

وأوّل وَالٍ ولّوه عليها عبد الله بن علي بن عبد الله بن عبّاس . واستمرّت تحت بني العباس وتناولها ملوك مصر وتغلّب عليها الإفرنج وصارت إلى الأيوبيين سنة 557هـ. ثمّ استعادها المصريون إلى أن أتت عليها مصائب تيمور . فكانت أعظم ما دهمها منذ وجدت في المعمور . إلى أن استنقذها الفاتح السلطان سليم خان بن بايزيد ففتحها ونزل بها وتردّد مدّة إقامته بها على الجامع الأموي ولم تزل تحت ولاة سلاطين آل عثمان إلى هذا الأوان .

وعدد النفوس فيها اليوم دون المائة والخمسين ألف . ولا شكّ أنّ تتبّع تاريخ الشام من عهد خلفاء بني أميّة إلى هذا الوقت يحصل لكلّ من طالع تاريخ دول الإسلام وليس ذلك من مقاصد هذا المقام . وقد خرجنا لدخولها (دمشق) يوم الأربعاء . ونحن نستقبل منها ذلك العمران . وننتظر جميل البنيان المحوط بكل بستان إلى أن ظهر لنا بياضها وتجلّت دونه رياضها .

فأنشدت في ذلك قولي : (من بحر الوافر)

1 — فَحَيَّ اللَّـهُ أَرْضَ الشَّامِ حَيًّا
وَحَيَّ دِمَشْقَهَا يَبْدُو إِلَيَّ / [199]

2 — بَدَتْ تِلْكَ الْبِلاَدُ لَنَا عَرُوساً
وَحُسْنُ بَيَاضِهَا فَاقَ الْحُلِيَّا

3 — وَلاَقَتْنَا بَسَاتِينُهَا بِبِشْرٍ
بِهِ قَدْ لاَحَ لِي طَلْقَ الْمُحَيَّا

4 — كَأَنَّ أَشْهَرَ الْفَضْلِ مِنْهَا
تُلاَقِي وَافِداً كَانَ الْقَصِيَّا

(1) بنو العباس : جدهم الأعلى العباس عم النبي صلعم دامت دولتهم من 750م. إلى 1258م. وعدد الخلفاء العباسيين 37 .

وزرنا في الطريق محلا به حجارة بها أثر مثال القدم الشريفة . وكان مقفلا لم نتمكّن من الدخول إليه . واجتزنا إلى العسالي وبه خيام المنتظرين لقدوم الركب . وأدركنا بمنّة الله صلاة العصر بأحد مساجد دمشق المباركة . ورأيت من لطف أهلها وكرم نفوسهم وحضارتهم ما كدت أن أتعجّب منه لولا أنّي على يقين من أنّهم أهل بلد كانت دار ملك لخلافة الإسلام . وفيها ضربت الأخلاق العربية تلك الخيام إلى غير ذلك ممّا قلبتها فيها الأيام مع حسن أرضها وهوائها ومائها المشهور بين الأنام .

وقد قضيت بها تلك الليلة في بيت العالم الفاضل التاجر السيد عمر السبيعي . وأقمت يوم الخميس غرة ربيع الأول في بيت الأمير الجليل أبي محمد عبد القادر بن محيي الدين الحسني (1) . وخرجت صبيحة الجمعة للزيارة فتبرّكت بالمزارات الآتية نسأل الله أن يعيد علينا يمنها آمين .

---

(1) انظر ترجمته في الجزء الثالث من الرحلة الحجازية . ويضاف إلى ترجمته ما يلي : انخرط الأمير عبد القادر الحسني في خلية الاسكندرية : الأهرام : للفراماصون المتفرعة عن الخلية الباريسية : هنري الرابع : للفراماصون في 18 جوان سنة 1864 . انظر : مجلة هيستوريا باللغة الفرنسية ، عدد 376 مارس 1978 ، مقال دولويوس ديشان : مشاهير الفراماصون . ص : 116 . انظر أيضا : المجلة التاريخية المغربية . عدد 15–16– جويلية 1979. تونس . مقال عبد الجليل التميمي : الامير عبد القادر في دمشق (1855–1860 .

الجامع الأموي

هذا من أعظم جوامع بلاد الإسلام . وكان هيكلا عظيما أيّام الأراميين على اسم إلاَهِـهِـمْ رَامُونَ . وبه مذبح جميل أمر آحاز ملك يهودا بأن يعمل مثله في هيكل سليمان بأرشليهم . ثمّ اتّخذه اليونيون معبدا لآلهتهم . وكذلك الرومانيون . وفي أيّام أرخاديوس قيصر الروماني ظهر به خراب فبناه متقنا وحوّله كنيسة مسيحيّة / باسم ماريوحنا المعمدان . وعندما وقع [200] فتح دمشق للإسلام جعل نصفها الشرقي جامعا وبقي نصفها الغربي كنيسة إلى أن أراد الوليد بن عبد الملك بن مروان بناءه فأخذ النصف الآخر وهدمه وجمع إليه أشهر الصناع من مملكته المتّسعة . وأتى له باثني عشر ألف صانع من بلاد الروم فأتقنوه بالنقوش الحسنة والفسيفساء البلورية المدهونة بالأدهان الجميلة .

وكانت نفقته لا تقصر عن مائتين وخمسين ألف ليرة . وكان ابتداء بنائه وبناء مسجد النبي صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة سنة 89هـ. على يد عمر ابن عبد العزيز . وعند تمام بناء الجامع الأموي أمر الوليد بأن يكتب على حائطه « ربّنا الله لا نعبد إلا الله أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي بجانبه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في سنة سبع وثمانين . وكان تمام بنائه سنة 96هـ. » . فكان طوله من الشرق إلى الغرب مائتي خطوة وعرضه من الشمال إلى الجنوب

نحو مائة وخمسين خطوة . وله رواق يحيط بجهاته الأربع قائم على عمد وسوائج متقنة . وأرضه مفروشة بالرخام الملوّن . وبصحنه بركتان على كل واحدة قبّة قائمة على أعمدة . وحرمه على طوله من المشرق إلى الغرب وسقفه على أعمدة شاهقة . وفي وسط السقف قبّة شاهقة مغطاة بالرصاص وتسمّى قبّة النسر لكون الرواقين عن يمينها وشمالها كجناحين لها . وفي وسط بيت الصلاة قبّة تسمّى قبّة النبي يحي . وبحائطه القبلي أربعة محاريب لأصحاب المذاهب الأربعة. وبه مشهد الإمام علي والحسين وعائشة رضي الله عنهم . وله ثلاث مآذن وأعلاها مئذنة عيسى شرقي الجامع تعلو قبّته بأكثر من مائة
[201] قدم وأمامها إلى الغرب مئذنة الغزالية / وأصلها بقايا أبنية الرومان واليونان . وكانتا معدّتين للرصد .

وبنى به الوليد مئذنة ثانية تسمى العروس ، وله سبعة أبواب . ففي جهة القبلة باب العبرانية 1 ويسمّى باب الساعات ، وباب الزيادة 2 . وفي جهة الغرب باب البريد 3 ، وفي جهة الشرق باب حيرون 4 ، وفي جهة الشمال باب الفراديس 5 ، وباب السلسلة 6 ، أو باب الكاملة ، وباب آخر صغير 7 وبه عدد عظيم من المؤذّنين ، وله أئمّة من المذاهب الأربعة يصلّون به يوميا ويتناوبون الجمعة .

وقد أصيب هذا الجامع بعدّة حرائق وانتزعت منه محسناته الفاخرة التي ذكرها المؤرّخون . وقد أدركته مبلط الحيطان رفيع السقف نظيف الفرش ، به دروس يقرئها العلماء . وصلّيت به الجمعة وتردّدت عليه مدّة إقامتي بدمشق . وعند دخولي له من أحد أبوابه سألت عن اسمه فذكروا لي أنّه باب الزيادة فتذكّرت قول ابن نباتة (1) فيه : (من بحر الطويل)

---

(1) ابن نباتة : هـ محمد بن نباتة (ولد في ميافارقين سنة 1288م. وتوفي في القاهرة سنة 1366م.) كان من أصدقاء أبي الفداء المؤرخ . وعاش في دمشق . وله ديوان شعر حسن الصياغة .

1 ـ أرَى الحُسْنَ مَجْموعًا بجامِعِ جِلَّقَ (1)
وَفِـي صَدْرِهِ مَعْنَـى المَلاَحَةِ مَشْرُوحُ
2 ـ فَـإنْ يَتَغَـالَ بِالْجَـوَامِـعِ مَعْشَـرٌ
فَقُـولُـوا لَهُمْ بابُ الزِّيَـادَةِ مَفْتُوحُ

وقد بلغت جوامع دمشق إلى أكثر من مائة وخمسين جامعا عدا المدارس ومشاهد الأولياء أدام الله عمرانها وشيّد بالإسلام أركانها .

[المـزارات]

قد دخلنا في المدينة إلى عدّة مزارات من مدافن بعض الفضلاء المشهورين . وفي هذه الأثناء مررنا على موضع مملوء بالحجارة . فقال رفقائي : هذا مدفن يزيد بن معاوية قاتل الحسين رضي الله عنه ، وانّ المارّة يحمل كلّ واحد منهم سبع حجرات يرميه بها ويلعنه . وأخذ كلّ واحد من أصحابي / حجرات [202] من الطريق للرمي المذكور . فكان مبلغ الحجر إلى ما بلغ إليه من الارتفاع فوق الثلاثة ميتروات . وحيث إنّ مسألة لعن اليزيد مسألة طويلة ولم يكن من المناسب الخوض في بسطها معهم تخلّصت منهم بقولي : « نحن خرجنا هذا اليوم للزيارات لا للرجم واللعن ، وما ضرّنا لو أغضينا عن مثل ذلك » . ومررنا في طريقنا إلى زيارة المقبرة الكبرى المعروفة بباب الصغير وحظينا هنالك بالمزارات المشهورة . غير أنّي رَأيْت فيها نسبة قبور إلى من نقل لنا التاريخ خبر مدافنهم بغير البلاد الشامية ولذلك لم يكن لي أن أعتمد على تسميات المزوّرين .

وهنا نذكر مسألة مهمّة :

فقد رأيت في بعض مختصرات أخبار دمشق أن بالباب الصغير مدفن ثلاث من زوجات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . وعند دخولي للمقبرة

---

(1) جلق : موضع في جنوبي سوريا . حشد فيه البيزنطيون جيشهم قبل مواقعة العرب في أجنادين سنة 634م .

المذكورة وقفوني على ثلاثة قبور نسبوا أحدها للسيدة حفصة والثاني للسيدة أم سلمة والثالث للسيدة أم حبيبة أمّهات المؤمنين رضي الله عنهنّ . فتعجّبت كلّ العجب من ذلك وتخيّلت أنّ كتب السير لم تكن معروفة لعلماء دمشق حتّى يهتدوا بها إلى أخبار زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلّم إذ أنّ حفصة بنت عمر بن الخطاب ماتت بالمدينة في شعبان سنة خمس وأربعين (للهجرة) وصلّى عليها أمير المدينة مروان بن الحكم وحمل سريرها . وأمّ سلمة هي هند توفيت في ولاية يزيد بن معاوية وصلّى عليها أبو هريرة ودفنت بالبقيع . وأم حبيبة هي رسلة بنت أبي سفيان بنت عمّة عثمان بن عفّان رضي الله عنه .

ولم أعرف في الأخبار ما يفيد ما ذكروه ولكن من علم ما طرأ على البلاد من الحروب والانجلاء والتخريب في عصور متتابعة يمكن له أن يعذر القوم
فيما ينقلون . ولذلك يهرفون بما لا يعرفون ولذلك / ننقل ما يذكرون في [203]
تلك المزارات وهي ما يأتي :

– بلال بن رباح : مؤذن رسول الله صلعم ، وعلى مدخله تاريخ وفاته سنة 20هـ .
– أسماء بنت أبي بكر
– سكنية أخت الحسين
– أم قاسم بنت علي المرتضى
– عبد الله بن جعفر الصادق
– عبد الله بن علي زين العابدين
– عبد الله بن جعفر الطيار أخي زين العابدين
– أخوه علي
– سعيد بن خالد بن الوليد
– حبيب بن مظاهر
– هانـي بن عـروة

– حرّ بن زيـد
– الأخوة محمد وإبراهيم وعباس أبناء مسلم بن عقيـل
– القاسم بن حسن المجتبي
– الشيخ أبو الخطاب حمـاد
– مقبـرة أهـل الصفـة

ولا حاجة بنا إلى تتبّع أخبـار هؤلاء . وعلى كلّ حال فانّا على علم من أنّ الوقائـع نقلـت طائفة من أهل البيت إلى الديار الدمشقية ومات بها / [204] كثيرون عليهم رحمة الله .

وبعد الخروج زرنا قبر نور الدين الشهيد ودخلنا مدرسته . وكان شيخها يومئذ المدرس الشيخ سليم الطيبي . وفي عشية هذا اليوم أعني الجمعة الثاني من ربيع الأول خرجنا للصالحية :

– الصالحية جنّة والصالحون بها أقاموا

وهي من منتزهات دمشق تبعد عنها بنحو نصف ساعة . وقد زرنا بها نبيّ الله ذا الكفـل . وهنالك محـلّ أصحـاب الكهف ومغـارة الأربعيـن يقال إنّه مات بها أربعون نبيًّا جوعا . غير أن اشتداد الريح منعنا من الدخول إلى هذين المحلّين المباركين . وزرنا مقام الشيخ الأكبر سيّدي محيي الدين بن العربي (1) وعلى قبره تابوت من الفضّة منقوش به هذان البيتان : (من بحر البسيط)

1 – قَدْ كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ جَوْهَرَةً
مَكْنُونَةً صَاغَهَا اللَّهُ مِنَ النطْفِ

(1) محيي الديـن بن العربي الأندلسي ولـد في مرسيـة بالأندلس سنة 1165م. وتوفي في دمشق سنة 1240م. . صوفي أقام 30 عاما في اشبيلية ثم رحل إلى الشرق . كان ظاهريا في العبارات باطنيا في الاعتقادات . اتخذ دليلا لحياته النور في قلبه لا في الشريعة . ورمي بالزندقة . ومن مؤلفاته : الفتوحات المكية . (انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج 3 – ص : 729 .

2 ـ جَـاءَتْ فَلَـمْ تَعْرِفِ الأيَّـامُ قِـيمَتَهَا
فَـرَدَّهَـا غَيْـرَةً مِنْـهُ إلَى الصَّدَفِ

وزرنا قبر الامام ابن مالك صاحب الألفية النحوية وبقربه قبر ابنه شارحها وزرنا محلاً مكتوب على بابه ما لفظه : هذا المقام مدفن أسيادنا الأكراد الأيوبية وهما (كذا) السيد صالح أيّوب الذي رجله اليسرى ظاهرة والثاني السيد محمّد أيّوب . فكان قبر الأول مكشوفا من جهة الأرجل . ورأيت داخله قطنا قالوا إنّه موضوع على الرجل الظاهرة . ومقام الاحترام مع بعد التظافر على كذب النقلة يمنع من تتبّع ذلك .

وزرنا مقام الشيخ عبد الغني النابلي العالم الشافعي وعنده ألهمت أن أجعل ولدي في ذمّة الشيخ محيي الدين رجاء أن يكون من العلماء . فاسترجعت رفقائي إلى مقام الشيخ محيي الدين وأشهدتهم / بذلك ولقبت ولدي بمحيي الدين . [205]

وكان المرافقون لي في جميع زيارات هذا اليوم المبارك هم الأمير أحمد ابن الأمير عبد القادر والسيد محيي الدين بن مصطفى والسيد محمد الطالب شكر الله فضلهم . وفي يوم السبت الثالث من ربيع حضر عندي الأمير علي بن الأمير عبد القادر مرسلا من والده للسؤال عنّي والاستدعاء إلى مقابلته التي كانت في ذلك اليوم في ضيعة بدمّر وهي الربوة المشرفة على غوطة دمشق .

[مدينة دمشق]

خرجنا صبيحة يوم الأحد الرابع من ربيع الأول للجولان في هذا البلد الطيّب فجلنا في كثير من أسواقها التي يختصّ كلّ سوق منها بصناعة . وكانت جملة أسواقها ثلاثين سوقا تحوي نحو سبعة آلاف حانوت . وأكثر الطرق في غاية الاتّساع ، وأبنية الدور على غاية من الانتظام والتحسين . ولبعضها قاعات في وسطها برك الماء وحمّاماتها من أفخر الحمّامات يبلغ عددها نحو الستين حمّاما .

ودخلت منها إلى حمّام الخيّاطين فإذا هو قد جمع النمط التركي والنمط العربي مع اتّساع وحسن مخادع مبلّط بالمرمر والرخام . فلم أر نفسي دخلت لحمّام مثله ، ورأيت على بابه هاته الأبيات حيث إنّ بانيه محمد البارودي :

(من بحر الكامل)

1 ــ لِمُحَمَّــدٍ حسنـي أبـا قَـدْ أَحْكَمَتْ
أَيْـدِي الْمَعَـالِي حُسْـنَ هِمَّةِ حَازِمِ

2 ــ لِلَّــهِ بَـارُودِي عــزم جـد فِـي
تَجْـدِيـدِ رُكْـنِ مَفَاخِرٍ وَمَكَارِمِ

3 ــ يَـا دَاخِـلاً حَـمَّامَـهُ أَبْشِـرْ وَطِبْ
بِحُبُـورِ عَافِيَـةٍ غَـدَتْ لِلْقَادِمِ

4 ــ حَـمَّـامَ طُهْـرٍ فَاحَ مِـنْ تَارِيخِـهَـا
عِطْـرُ الْمَسَـرَّةِ بِالنَّعِيمِ الدَّائِمِ

أمّا خانات دمشق وقهاويها (كذا) التي يبلغ كلّ منها إلى أكثر من مائة / [206] فهي مختلفة في الحسن والاتّساع . وقد حضرت ليلا في تشخيص تياترو باللسان العربي في وقائع تاريخية صاحبه أبو خليل (القبّاني) وكان إنشاء روايته في غاية الفصاحة وشعر أناشده في غاية الرقّة وأغانيه في غاية الانتظام فلم أر أوقع منه فيما رأيت بأوربا والبلاد العثمانية .

[مدارس التعليم بدمشق]

أمّا المدارس في دمشق فمنها ما يختصّ بالذكور المسلمين وهي خمسة وسبعون مدرسة ، ومنها ما يختصّ بالبنات المسلمات وهي ثلاثون مدرسة . وقد أقامت الحكومة بها أربع مدارس رشدية ومكتبا حربيا استعداديا . وقد صاحبني مفتّش المعارف يومئذ السيد طاهر بن صالح الجزائري إلى مكتب ابتدائي ومكتب رشدي فأمليت في الأول للكتابة : (من بحر الوافر)

1 ـ تَعَلَّمْ مَا اسْتَطَعْتَ تَكُنْ أَمِيرًا
وَلاَتَكُ جَاهِلاً تُمْسِي أَسِيرًا
2 ـ فَلَوْ عَلِمْتَ حَرْفًا كُلَّ يَوْمٍ
تَرَى الْجُهَّالَ كُلَّهُمُ حَمِيرًا

ووجدت تلاميذ (المكتب) الرشدي يدرسون المنطق. وطلب مني المفتّش سؤالهم فأوردت عليهم أسئلة تصوّرية وأحسنوا الجواب عنها . فكتبت لهم في اللوح العام ضروب الشكل الأوّل وطلبت من أحدهم بيان المنتج والعقيم منها ، فأحسن البيان .

[زيارة المؤلف لمكتبة دمشق ومطبعة الكتب الابتدائية]

ودخلت إلى مكتبة دمشق التي اجتمعت فيها متفرّقات كتب المدارس وزيد عليها وأهدى إليّ ناظرها نسخة من دفترها ودخلت مطبعة الكتب الابتدائية وأهدى إليّ ناظرها ما بيده من مطبوعاتها . وخلاصة ما أقوله في شأن المعارف العربية الاسلامية إنّها ليست على ما يجب لمثل ذلك البلد الذي سكّانه في أعلى درجات التهذيب . وليس للعلماء / هنالك معاش منتظم ولا [207] لتعليمهم اهتمام من جهة الدولة .

[حالة العلماء والمدرّسين بدمشق]

فالعالم يقرىء في بيته أو في أحد المساجد أو في الجامع الأموي احتسابا . والمتعلّم يأخذ عنه ما تدعوه إليه رغبته وحاجته . ومن علم أسباب تقدّم المعارف في جميع بلاد الله المتمدّنة في هذه العصور لا يمكن له أن يأخذ حظّه في دمشق من السرور . وعلى كلّ حال فقد ساعدني الحال وفزت بالاجتماع بفضلاء الرجال من فحول العلماء وفي طالعتهم الأمير عبد القادر والشيخ محمود حمزة والشيخ سليم العطار والشيخ أبي بكر العطار والشيخ مصطفى

الطنطاوي والشيخ محمد بن يوسف بدر الدين والشيخ سليم الطيبي وغيرهم من نقّادة المدرّسين وقادة المحصّلين .

واستجزت من فزت بإجازاتهم فكانت عندي أعظم مغنم وسيأتي لأعلامهم ذكر تفصيلي إن شاء الله تعالى (1) ورأيت من لطف آداب الدمشقيين ولطافة خطابهم ورنّة كلامهم وذكاء أحلامهم ما جمعوا به بين الفضائل العربية والفضائل التركية . وكنت هنالك كثيرا ما أردّد قول الشاعر : (من بحرِ البسيط)

1 ــ إِيبَاءُ فَارِسَ فِـي لِـينِ العِرَاقِ مَعَ اللُّـــ
ـــطْفِ الشَّامِـي وَالنُّطْـقِ الْحِجَازِيِّ

2 ــ وَمَـا المَدَامَةُ بِالأَلْبَابِ أَفْعَلُ مِنْ
فَصَاحَةِ البَدْوِ فِـي أَلْفَاظِ تُرْكِيِّ

بل إنّي رأيت أهل دمشق جمعوا بين العربي والتركي في معاملاتهم وألسنتهم وزيّهم وطعامهم وحلاوتهم ولباسهم وسائر أحوالهم فزادهم ذلك كمالا على كمالهم .

[مناخ دمشــق]

وأمّا حسن تربة البلد وحسن نباتها ورواج تجارتها ووفور صنائعها فهو من أحسن ما عليه البلاد العربية مع انخفاض سعر المحصولات ومياهها كثيرة وأنهارها / تجري من تحت جميع بيوتها ذات البرك وتسقي جميع حدائقها [208] وبساتينها حتّى كانت فواكهها وثمارها من أشهر الغلال جودة . ويقال إنّها تُسقى من سبعة أنهر وهي : بردي 1 ، ويزيد 2 ، والديرات 3 ، وثورا 4، ومتوات 5 ، وبانياس 6 ، وعقرباء 7 . وهي المجموعة في قول شاعرهم : (من بحر البسيط)

(1) انظر : الجزء الثالث من الرحلة الحجازية .

1 ـ شَوْقِي يَزِيدُ وَدَمْعُ الصبِّ مَا بَرَدَا
وَبَانَ يَأْسِي مِنَ المَحْبُوبِ حِينَ بَدَا

2 ـ وَمَدْمَعِي قَنَوَاتٌ وَالْعَذُولُ حَكَى
ثَوْرًا يَلُومُ الْفَتَى فِي عِشْقِهِ حَسَدَا

3 ـ عَلَى مُغَنِّيَةٍ بِالْجَنْكِ جَاوَبَهَا
وَخِلُّهَا مَاتَ فِي خَلْخَالِهَا كَمَدَا

وكانت مدّة إقامتي بدمشق خمسة أيّام استوفيت فيها المرام وخرجت عن غير رضى أهلها بذلك الفراق ورأيت من حسن مشايعتهم ما ننتظر به حسن التلاقي .

بيروت

إحدى مدن فينيقيا على الجانب الشمالي الشرقي من لسان يعرف برأس بيروت ببحر الروم . وآثارها القديمة تدلّ على أهمّيتها . ونكبت في أيّام الأشوريين والفرس وخرّبها القائد تريمون وبقيت على خرابها مدّة خمسة وسبعين سنة إلى أن رمسها الرومان سنة 65ق‌م. ورفع شأنها أوغسطس وسمح بدراسة علم الأحكام فيها . وأقيمت المدرسة العظمى بعد ذلك وبنى فيها من بعده الامفيتياترو الكبير الذي جعله ملعبا للحيوانات . وأتى له بأربع عشرة مائة رجل من المحكوم عليهم بالموت وقسّمهم قسمين وأمرهم فاقتتلوا إلى أن هلكوا جميعا . وأقام الملك تيطس (1) من ملوك الرومان / هنالك عيدا [209]
لتذكار ولادة أبيه فقتل فيه من أسرى اليهود جمّا غفيرا سنة 71 بعد الميلاد .

وقد أنشأ بها اسكندر سيفيروس (2) مائتين واثنتين وعشرين مدرسة للشرائع الرومانية فوفد إليها العلماء والطلبة من سائر الأنحاء واشتهرت بأمّ الشرائع ومدرسة الشرائع الرومانية ومدينة الفقهاء .

---

(1) تيطس : ابن فسبسيانس . وهو الامبراطور الروماني فاتح أورشليم سنة 70م. واشتهر بحلمه واحسانه. كان يقول: لقد فقدت نهاري. إذا ما قضى نهاره ولم يصنع لأحد خيرا. ثار على أيامه بركان فيسوف سنة 79م. وغطى بالرماد هرقولانوم وبومبايا . (انظر : الرحلة الحجازية الجزء الأول تحقيقنا : نشر الشركة التونسية للتوزيع ، 1976 — ص : 108–113) .

(2) هو اسكندر سويروس (208م./235م). ولد في عرقة من بلاد عكار لبنان . امبراطور روماني خلف هليوغابال . حارب الفرس وكان شجاعا متساهلا حليما . شجع الآداب والفنون واتخذ أولبيانوس الفقيه مستشارا .

واستمرّت مدارسها زاهرة إلى أن خرّبها توالي الزلزال .

وعند ظهور الإسلام فتحها أوّلا يزيد بن أبي سفيان سنة 13هـ. على ما ذكره ابن الأثير. ثُمّ غلب عليها الروم ففتحها معاوية بن أبي سفيان واستمرّت تحت خلافة الإسلام . وتخرّج منها أفاضل وبها مدفن الإمامالأوزاعي .

وبعد أن تداولتها الدول ونالها من حـــرب الصليبيين ما نالهـا وكان أميرها عزّ الدين اسامة الكناني نكاية في البحر على الإفرنج . فأوقعوا بها من التخريبوالتحريق أمرا عجيبا . ولم تزل بيد العرب إلى أن فتح السلطان العثماني مصر وسوريا سنة 1517 ميلاديا فصارت من ممالك الدولة العثمانية العليّة .

وتوالى عليها الولاة العثمانيون . وكان من الأمير يوسف أحمد الجزّار فيها ما أنسى جميع المظالم السالفة حتّى استنقذها إبراهيم باشا أمير مصر سنة 1831م. ثمّ إنّ الدول عضدت في شأنها السلطان عبد الحميد فرجعت لدولته سنة 1840م. فاستفاقت من دهشتها وأخذت تتقدّم وأنشأ فيها القسوس الأميركان مدارس ومطبعة . وسهلّت لها شركة فرنسوية طريقا إلى دمشق .

وتقدّمت فيها المدارس وفتح بها المكتب السلطاني العسكري وبلغت التلاميذ بها إلى نحـو الثمانية آلاف تلميذ . وكثرت فيها المطابع وانتشرت
[210] منها الصحائف / العربيّة وجرّت لها شركة إنقليزية ماء نهر الكلب في أنابيب من حديد سنة 1875م. فصار سكّانها يبلغ عددهم إلى خمسة وسبعين ألفـا المسلمون فيهم أكثر الطوائف . وفيها من التلغراف والبوسطة وفروع البانكة ما تسهّلت به المواصلات وتواصلت بدمشق بكروسـة تسمّى ديليجـانس تسير يوميا . وتصل في مدّة إثنتي عشرة ساعة .

وكان ركوبي بها باكرة يوم الإثنين الخامس من ربيع الأول . ودخلت مدينة بيروت عشية ذلك اليوم . ونزلت بها في أوتيل بولس على شاطىء البحر قرب المرسى ومعي رفيقي عبد الباقي باي . وأخذت خادما بيروتيا للمصاحبة

في الطرق . وأصبحت يوم الثلاثاء متجوّلا بالبلد . ودخلت قشلة العساكر النظامية . واجتمعت بطيار باشا رئيس العسكر النظامي . وهو رجل حاز من اللطف التركي ما يعادل شدّة بطشه في العسكرية . واجتمعت بالسيد محمّد مرتضى بن محمّد السعيد بن محيي الدين الجزائري حفيد الأمير عبد القادر لأخيه وهو أستاذ الطريقة القادرية . وبيته معدود للزائرين .

وزرت مطبعة ثمرات الفنون واجتمعت بصاحب امتيازها السيّد عبد القادر الفناني ومنشئها الشيخ إبراهيم الأحدب . وزرت المطبعة الأميريكانية واجتمعت بشاهين مدير المقتطف وزرت المدرسة العربية واجتمعت بمديرها المعلم بطرس البستاني وزرت مطبعته صحبة ولده سليم وحضرت مجمع دائرة المعارف واجتمعت بالأمير محمد باشا بن الأمير عبد القادر والشيخ يوسف الأسير . وسيأتي لبعض هؤلاء ذكر جميل (1) .

وقد اطلعت هنالك على جميع طرق نشر المعارف العربية / بما زادني [211] سرورا في الاعتناء بشأنها . ولاقيت من أولئك الأفاضل ما نشكرهم به . وقد تداولت خبر قدومي جميع الصحائف العربية التي هنالك . ومنها ثمرات الفنون في الصحيفة عدد 412 المؤرخ في 13 ربيع الأول سنة 1300هـ. (2) حيث نشرت ما لفظه :

« حظينا بمشاهدة العالم الفاضل والأديب الكاتب الشاعر سليل بيت العلم والصلاح الشيخ محمد أفندي السنوسي محرّر الرائد التونسي ومن أجلاء تونس قادمًا من الحجّ الشريف صحبة ركب الحاجّ الشامي . فأهلنا به وسررنا بمشاهدته والتملّي بآدابه . وقد زار محلاّت العلم والأدب ورحّب به الفضلاء والأدباء . وسيعود إلى وطنه بلّغه الله السلامة » .

---

(1) انظر الجزء الثالث من الرحلة الحجازية .
انظر أيضا أسفله : الملحق رقم : 1 قصيدة المؤلف في تفضيل الرائد على سائر الصحف .

(2) يوافق 22 جانفي سنة 1883 .

وقد اقترح عليّ محرّر صحيفة الجنان والجنة (1) ديباجة فيما استحضره في ذكر أمير تونس الحالي حيث ولي الإمارة ولم يتلقّوا في ترجمته ما يكفي . فكتبت إليه عجالة نشرها في صحيفة الجنّة عدد 1261 المؤرّخ في 11 ربيع الأول سنة 1300هـ. بعد أن نشر في العدد قبله خبر قدومي تحت هذا العنوان :

« ترجمة المعظّم الأرفع [سيّدي علي باشا] باي تونس » .

أوردنا في جنّة أوّل أمس أنّ الحظّ أسعدنا بلقياء حضرة الفاضل الأبرّ الكامل السيّد محمّد أفندي السنوسي أحد علماء جامع الزيتونة في تونس الخضراء وصاحب مسامرات الظريف الغراء قادما من الحجّ الشريف بطريق الشام وإنّه علما بكون حضرته هو الناسج والموشّي تاريخ البيت الحسيني الكريم سألناه اتحافنا بترجمة الباي / الجديد . فأكرم سؤالنا وجاد بما التمسنا . [212]
وكان ضيق المقام مانعا في المرّة السابقة من إيراد تلك الترجمة الوضّاء فأثبتناها في هذا العـدد .

ولقد تلقّينا من العلامة المومى إليه كلاما ينطق بسعة معارفه وينطبق على شهرته وآل بيته الطائر الصيت في الشرق والغرب . وهذا ملخّص ما تلقّيناه منه :

« هو الباي أبو الحسن علي بن حسين بن محمود بن محمد الرشيد بن حسين ابن علي خامس سلسلة آبائه الكرام وثالث عشر آل بيته العظام الذين تولّوا الإمارة التونسية . وقد افتخرت بهم البلاد نحوا من مائتي سنة فلا زالوا زينة لها ولهم فيما بين أهلها الصيت الشهير والودّ القرير كما لا يخفى ذلك على خبيـر .

وقد ولد هذا الأمير ثامن عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف (2) ونشأ في مهد الحكومة وتربّى في حجر عناية دولة المرحوم والده

(1) انظر أسفله : الملحق رقم 1 .
(2) يوافق 21 جانفي سنة 1818 .

على البرّ ومتافنة المطالعة . وتحنّك بمهامّ الحكومة في أيّام المرحومين أخويه .

وارتقى خطّة إمارة الأمحال وولاية العهد بعد وفاة أخيه سيدي حموده باي سنة 1277هـ. (1) فباشر الإمارة على الجيوش التونسية في جباية الخراج صيفا وشتاء ، وانقادت له الأعراب في سائر أطراف البلاد .

ولمّا اشتطت حمقاء أهل البوادي أواخر سنة 1280هـ. (2) وخرج هذا الأمير إلى الجريد بمحلّة ظهر لخروجه أعظم تأثير في تسكين النفوس وردع الثائرين ثمّ إنّ وزير العمالة يومئذ استنجده لملاقاة رئيس الثائرين حتّى تيسّر له الانتصار بذلك . ورجع الأمير المذكور بمن تقيّد منهم يوم الخميس ثاني ذي الحجّة الحرام سنة إحدى وثمانين (3) . وكان أبقاه الله هو أوّل / من [213]
تقلّد نيشان مزية تسكين تلك الثائرة . ولمّا جاهر أهل جبل باجة بالخلاف أوائل عام 1284هـ. (4) خرج إليهم بمحلّته في منتصف جمادى الأولى ، وقبل إتمام الشهر أزال منهم الفساد ورجع في 18 جمادى الثانية (5) . ولمّا التأم نظام الحكومة كان المرحوم أخوه يعتمد عليه في مهمّاتها ويستشيره في صعاب ملمّاتها . ولنصائحه في دولة أخيه مآثر .

ولمّا خرج إلى جبل خمير في منتصف جمادى الأولى سنة 1297 (6) كانت له مزية تسكين ثائرتهم الأولى التي حولهم وثائرة العروش حتّى صار القسم الغربي من البلاد كلّه في الطاعة . وكان رجوعه منتصف جمادى الثانية (7) .

---

(1) يوافق سنة 1860—1861 .

(2) يوافق شهر أفريل من سنة 1864 . والمراد بحمقاء أهل البوادي الاشارة إلى ثورة علي بن غذاهم . (انظر أسفله الملحق رقم 3 الخاص بمساندة الدول الأجنبية للباي) .

(3) يوافق 27 أفريل من سنة 1865 .

(4) يوافق ماي جوان من سنة 1867 .

(5) يوافق منتصف شهر سبتمبر من سنة 1867 .

(6) يوافق 25 أفريل من سنة 1880 .

(7) يوافق : 25 ماي سنة 1880 .

وبسبب ما ظهر من نتائج خروجه إلى تلك الجهات أعيد رجوعه أوائل شهر رمضان المعظّم الى جهة زغوان . وكان ذلك من أسباب تسكين نفوس أعراب البوادي لما لهم من المودّة لجنابه والخضوع لأوامره سيّما وطول مدّة ولايته إمارة الامحال أكسبتهم معرفة بخصاله مع ما هم عليه من الطاعة والانقياد لبايات البيت الحسيني . ولذلك كانت ولايته الآن حكومة البلاد بعد وفاة المرحوم أخيه من أحبّ الأشياء الى آل بيته العظام وأهل البلاد كافّة ولمن يسعى في خيرها .

وهو أبقاه الله جليل القدر رفيع الذكر خبير بأحوال البلاد عارف بمصالحها يودّ خيرها محبّ للاستشارة كريم النفس عالي الهمّة سديد الرأي فيما هو من مقتضيات الحال محبّ للمعارف كثير المباحثة في المسائل الدينية مواظب على المطالعة له عناية تامّة بتربية أبنائه الكرام حتّى إنّه اتّخذ لهم في بيته مدرسة لتعليم اللسان الفرنساوي ومعارفه زيادة على الاعتناء بهم في تعليم العلوم الدينية .

وقد انتفع بثمر غراسة تربيته لأنّه اختصّ أكبر أبنائه الهمام المرفّع
[214] شأنه / سيّدي مصطفى باي بتفويض أموره المالية والإدارية إليه . وظهرت منه مزيّة حسن الإدارة والتوفير مع ما هو عليه من علوّ الهمّة ورفعة الشأن وحسن التدبير . وهكذا كانت بمنة الله نشأة جميع أعضاء هذا البيت الحسيني كعوبا متناسقة على كمال يسرّ نفس كلّ ودود وهم أبقاهم الله كالنفس الواحدة في الالتئام والاعتضاد ممّا قلّ أن يوجد مثله في أمثالهم متّع الله البلاد التونسية بأعمالهم وأدام لأبنائهم حسن كمالهم » .

[حضور المؤلّف حفل المولد النبويّ بجامع سيّدنا يحيى ببيروت]

وقد حضرت يوم المولد بجامع سيّدنا يحيى فجلس إمَامُه على منصة الختمة وأخذ يترنّم بقراءة المولد النبويّ . وهو مولد رجز من نظم الأديب الاسحاقي والحاضرون يترنّمون بالصلاة على النّبيّ صلّى الله عليه

وسلّم في كلّ موقف . وعند انتهائه وزّع القيّمون قراطيس من الحلويات الشامية على جميع الحاضرين .

[العناية باللغة والآداب العربية في دمشق وبيروت]

وهنا أذكر ما وجدت عليه البلاد الشامية عموما وبيروت خصوصا من الاعتناء باللغة العربية والآداب العربية والتوسّع في فنون الإنشاء من الإرسال والنثر والنظم بما تقتضيه المكاتبات والمراسلات والمحاضرات . وقد رأيتهم متداولين لفنّين وهما فنّ التخميس وفنّ الألغاز مداولة يدعوني شجون الحديث إلى جذب أطراف حديثها .

[عقد نفيس في فنّ التخميس (1) :]

التخميس هو زيادة ثلاثة مصاريع على البيت من الشعر حتّى يصير البيت مركّبا من خمسة مصاريع . والمتعارف فيه أن الشاعر يزيد الثلاثة المصاريع في صدر البيت ويدخل بتصديره على أصل البيت فيمتزج معناه بما زاده . وهذا شرط التخميس – ومحلّ صعوبته حيث إنّ / الشاعر الأصلي [215] يستوفي معانيه في شعره فيأتي الشاعر الثاني في تخميسه بما تكون به الأجزاء كلّها في غاية الالتحام مع عدم الخروج عن وحدة الموضوع . وذلك محلّ براعة أصحاب التخميس فيما يزيدونه . وأصعب منه في هذا الغرض التشطير وهو أن يزيد الشاعر على البيت الأصلي شطرين فيزيد لضربه عروضا ويجعل لعروضه ضربا بحيث يمتزج ما يزيده بالأصل امتزاج الماء بالراح مع التحام الأجزاء ووجه الصعوبة في التشطير ظاهر من حيث أنّ التخميس يستدعي

(1) التخميس أو المخمسات كما يدل اسمها عبارة من قطع تتألف كل واحدة منها من خمسة أشطر الأربعة الأولى ذات قافية موحدة والخامس بمثابة اللازمة التي تكون لها قافية خاصة بها . وقد يدخلها التصريع أو التقفية مع الأشطر الأربعة الأولى في المقطع الأول فتكون الأشطر الخمسة الأولى كلها من قافية واحدة ويعرف الشطر الخامس بعمود القصيدة . (انظر : صفاء خلوصي : فن التقطيع الشعري والقافية . بيروت 1966 – ص : 296 .

أمرا واحدا وهو حسن الإدخال على البيت الأصلي مع إبقاء انتساق البيت الأصلي على حاله بخلاف التشطير فإنّه يستدعي حسن الإدخال على خصوص عروض البيت وحسن الامتزاج بما يتداخل به بين المصراعين اللذين ربّما يكونان في التحام يمنع من التداخل بينهما وذلك محلّ براعة أهل التشطير . ولكن وجدت أدباء الشام صيّروا التخميس إلى صعوبة التشطير بزيادة ثلاثة مصاريع تتخلّل مصراعي البيت الأصلي وتقوم بوظيفة حسن الامتزاج ومتانة الارتباط والإدخال على وجه لطيف يروق لكلّ أديب .

وقد كنت شطّرت بيتين لأحمد بن جابر الأندلسي وهما قوله : (من بحر الكامل)

1 – لَمَّا رَآنِي مَنْ أُحِبُّ مُفَكِّراً
نَادَى إِلَيَّ مُلاَعِباً بِتَلَطُّفِ

2 – حَدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسُّلُوِّ فَقُلْتُ بَلْ
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأَنَّكَ مُتْلِفِي

حيث ضمّن فيهما مصراعا للشيخ ابن الفارض (1) وسلك بهما في غزله مسلك الإيّاس الذي هو من أفضع حالات المحبّين . وقد أردت من تشطيرهما نقل المعنى إلى حالة الرجاء التي هي أحبّ الحالات للمحبّين . وكان الداعي لتشطيرهما التحامهما لأنّ البيت الأول فيه أداة شرط في / الصدر وجوابها [21
في العجز ، والبيت الثاني فيه أداة إضراب في الصدر والمضروب عنه في

(1) ابن الفارض : هو عمر بن علي بن مرشد بن علي الحمودي الأصل المصري المولد سنة 576هـ./1181م. والدار والوفاة سنة 632هـ./1235م. هو أشعر المتصوفة يلقب بسلطان العاشقين . في شعره فلسفة تتصل بما يسمى وحدة الوجود . أورد ابن حجر أبياتا صرح فيها ابن الفارض بالاتحاد كقوله :

وفي موقفي لا بل إلي توجهي ... ولكن صلاتي لي ومني كعبتي

من آثاره : ديوان شعره من أشهر ما فيه قصيدته الخمرية وتائيته الكبرى وفيها تحت رموز الألفاظ الغرامية الوله بالحق سبحانه وتعالى :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة ... سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم
وقالوا شربت الاثم كلا وإنما ... شربت التي في تركها عندي الاثم

(أنظر : الزركلي : الاعلام : ج 5 – ص : 216 . راجع أيضا : المنجد الكبير ص : 379) .

العجز . وهاته الأحوال العربية تمانع محاول التشطير . وقد شطّرتهما بقولي :
(من بحر الكامل)

1 – لَمَّا رَآنِي مَنْ أُحِبُّ مُفَكِّرًا
فِيمَا أعَانِي مِنْ جَوًى وَتَلَهُّفِ
2 – حَيَّا وَرَقَّ لِحَالَتِي لَكِنَّهُ
نَادَى إلَيَّ مُلاَعِبًا بِتَلَطُّفِ
3 – حَدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسُّلُوِّ فَقُلْتُ بَلْ
أوْسَعْتُهُ صَبْرًا بِوَصْلِ المُسْعِفِ
4 – فَحَدِيثُ وَصْلِكَ شُغْلُ أفْكَارِي وَلَوْ
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأنَّكَ مُتْلِفِي

وقد اقترحتُ على أولئك الأدباء تخميس هاته الأربعة أبيات بالطريقة الجديدة فخمّسها عدد من الأدباء ولكنّ أحسنها تخميس مقتضب هاته الطريقة العذراء الأديب أسعد داغر من بلاد اللآذقيــة إحــدى البلدان الشامية حيث قال : (من بحر الكامل)

1 – لَمَّا رَآنِي مَنْ أُحِبُّ مُفَكِّرًا
فِي خَيْبَةِ المَسْعَى وَلَمْ أذُقِ الكَرَى
2 – أبْدَى التَّجَاهُلَ سَائِلاً مُتَنَكِّرًا
فَأفَدْتُهُ حَتَّى رَأى أنْ لاَ مِرَا
فِيمَا أُعَانِي مِنْ جَوًى وَتَلَهُّفِ
3 – حَيَّا وَرَقَّ لِحَالَتِي لَكِنَّهُ
لَمْ يَدْرِ مَا قَلْبِي الكَلِيمُ أكَنَّهُ
4 – فَقَسَا وَكَذَّبَ فِي مُصَابِي ظَنَّهُ
وَأعَادَ لِي الهِجْرَانَ إلاَّ أنَّهُ
نَادَى إلَيَّ مُلاَعِبًا بِتَلَطُّفِ

5 ـ حَـدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسُّـلُـوِ فَقُلْتُ بَلْ
بِنَـوَالِ وَصْلِكَ يَا حَبِـيبِ فَلَمْ أَنَـلْ

6 ـ فَأَجَابَ سمه الصَّبْـر قُلْتُ لَهُ أَجَـلْ
عِنْـدِي عَلَيْكَ وَكُلَّمَـا طَالَ الأَجَلْ
أَوْسَعْتُـهُ صَبْـرًا بِوَصْلِ الْمُسْعِفِ

7 ـ فَحَدِيثُ وَصْلِكَ شُغْـلُ أَفكَارِي وَلَوْ
أَنْكَرْتَنِي وَحَسِبْتَنِي مِمَّنْ سَلَـوْا / [217]

8 ـ يَا لَيْتَ شِعْرِي مِنْ جَفَاكَ السُّقْمُ أَوْ
دَى بِي وَغَـادَرَنِـي شَهِيدُ الوَصْلِ أَوْ
قَلْبِـي يُحَدِّثُنِي بِأَنَّكَ مُتْلِفِـي

(إضافة بالطرّة بخطّ المؤلّف) : وخمّسها الشيخ محمّد كامل قاضي محكمة المنصورة من مصر القاهرة بقوله : (من بحر الكامل)

1 ـ لَـمَّـا رَآنِـي مَـنْ أُحِـبُّ مُفَكِّـرًا
وَالْعَقْـلُ مِنِّـي قَدْ غَـدَا مُتَحَيِّرًا

2 ـ وَرَأَى انْـدِهَـاشِـي وَاضْطِرَابِـي وَافِـرًا
بَـلْ قَـدْ رَآنِـي قَدْ شُغِفْتُ مُـدَبِّـرًا
فِيمَا أُعَانِي مِنْ جَوًى وَتَلَهُّفِ

3 ـ حَـبًّـا وَرَقَّ لِـحَـالَـتِـي لَـكِـنَّـهُ
مُتَـمَـسِّـكٌ بِـدَلاَلِـهِ وَبِـأَنَّـهُ

4 ـ يَـدْنُـو وَيَبْعُـدُ فَـوْقَ مَا هُـوَ شَأْنُـهُ
تِـيهًـا عَلَـيَّ وَبَـعْـدُ حَنَّ لأَنَّـهُ
أَوْمَـا إِلَـيَّ مُـدَاعِـبًا بِتَلَطُّفِ

5 ـ حَدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسلُوِّ فَقُلْتُ بَلْ
إنِّي عَلَى عَهْدِ الْمَحَبَّةِ وَالأَمَلْ
6 ـ كَيْفَ السُّلُوُّ وَأَنْتَ إنْسَانُ الْمُقَلْ
قَلْبِي لَئِنْ زَادَ الْتِهَابًا وَاشْتَعَلْ
أوْسَعْتُهُ صَبْرًا بِوَصْلِ الْمُسْعِفِ
7 ـ فَحَدِيثُ وَصْلِكَ شُغْلُ أفْكَارِي وَلَوْ
قَدْ جُدْتَ لِي بِالقُرْبِ كُنْتُ فِداكَ أوْ
8 ـ أنَّ الْهَوَى الْعُذْرِيَّ يُسْعِفُنِي بِمَــ
ــوْتٍ أسْتَرِيحُ فَإنَّ مِنْ هَذَا اللِّقَا
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأنَّكَ مُتْلِفِي

وخمّسها الشيخ محمد علي الدرويش من أدباء مصر بقوله : (من بحر الكامل)

1 ـ لَمَّا رَآنِي مَنْ أُحِبُّ مُفَكِّرًا
وَبِذُلِّ إطْرَاقِي أذُوبُ تَحَسُّرًا
2 ـ وَأكَادُ مِنْ وَلَهِي أغِيبُ فَلاَ أرَى
وَالْجَفْنُ بِالْعَبَرَاتِ صَارَ أبْحُرًا
فِيمَا أُعَانِي مِنْ جَوًى وَتَلَهُّفِ
3 ـ حَيَّا وَرَقَّ لِحَالَتِي لَكِنَّهُ
لَمْ يَخْلُ مِنْ بَعْضِ التَّدَلُّلِ حُسْنُهُ
4 ـ بَادِي التَّبَسُّمِ كَاسِرٌ لِي جَفْنَهُ
فَطِنًا بِمَنْ يُنْمِي الغَرَامَ لأنَّهُ
أوْمَا إلَيَّ مُدَاعِبًا بِتَلَطُّفِ
5 ـ حَدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسُّلُوِّ فَقُلْتُ بَلْ
إلَى أمْرِ الْجَمَالِ الْمُمْتَثِلْ

6 — إذْ لَيْسَ حَوْلٌ لِلرفِيقِ وَلاَ حِيَلْ
هَيْهَاتَ ذَاكَ يَكُونُ لَكِنْ لاَ أمَلْ
أوْسَعْتُهُ صَبْرًا بِوَصْلِ الْمُسْعِفِ

7 — فَحَدِيثُ وَصْلِكَ شُغْلُ أفْكَارِي وَلَوْ
وَافَى الْغَرَامُ بِزَوْرَةٍ مِنْ غَيْرِ خَوْفِ

8 — مِنْ سُهَادٍ لَمْ يَزَلْ عَنِّي رُكُــ
ــونِي حَائِرًا بَيْنَ الأمَانِي فِيكَ أوْ
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأنَّكَ مُتْلِفِي

وخمّسها محمّد بك سعيد ولد جعفر مظهر باشا بقوله : (من بحر الكامل)

1 — لَمَّا رَآنِي مَنْ أُحِبُّ مُفَكِّرًا
بِالْوَصْلِ وَالتَّقْرِيبِ جَاءَ مُبَشِّرًا

2 — صَافَى الزَّمَانُ وَكَانَ لِي مُتَنَكِّرًا
وَرَثَى الْعَذُولُ لِحَالَتِي مُتَبَصِّرًا
فِيمَا أُعَانِي مِنْ جَوًى وَتَلَهُّفِ

3 — حَيًّا وَرَقَّ لِحَالَتِي لَكِنَّهُ
يَدْرِي بِمَا فِيهِ الْفُؤَادُ لَكِنَّهُ

4 — بِدَلاَلِهِ أبَدًا يُلاَزِمُ حُسْنَهُ
وَبِسَيْفِ لَحْظٍ قَامَ يَحْرِسُ جَفْنَهُ
أوْمَا إلَيَّ مُدَاعِبًا بِتَلَطُّفِ

5 — حَدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسُّلُوِّ فَقُلْتُ بَلْ
لِي مَسْمَعٌ مِنْ كَثْرَةِ التَّفْنِيدِ كَلّ

6 — مِنْ عَاذِلٍ جَمَّ الْمَلاَمِ عَلَيَّ كَلّ
وَالْمُهْجَةُ الْجَرْحَى إذَا زَادَ الْمَلَلْ
أوْسَعْتُهَا صَبْرًا بِوَصْلِ الْمُسْعِفِ

7 ــ فَحَدِيثُ وَصْلِكِ شُغْلُ أَفْكَارِي وَلَوْ
عَنِّي الْعَوَاذِلُ صِرْفَ بُهْتَانٍ رَوَوْا
8 ــ وَرَأَوْا صَرِيحَ الْحُبِّ فِيكَ وَمَا ارْعَوَوْا
دَعْ أَيُّهَا الْوَجْدُ الْمُبَرِّحُ مَا عَزَوْا
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأَنَّكَ مُتْلِفِي

وخمّسها الشيخ أحمد مفتاح مدرّس مدرسة دار العلوم بقوله : (من بحر الكامل)

1 ــ لَمَّا رَآنِي مَنْ أُحِبُّ مُفَكِّرًا
سَدَلَ النِّقَابَ وَشَبَّ لِي نَارًا
2 ــ هَبْنِي قَنَعْتُ مِنَ الْوِصَالِ بِمَا أَرَى
أَوَ لَيْسَ قَلْبِي بِالْغَرَامِ تَفَطَّرَا
فِيمَا أُعَانِي مِنْ جَوًى وَتَلَهُّفِ
3 ــ حَيًّا وَرَقَّ لِحَالَتِي لَكِنَّهُ
سَرْعَانَ مَا أَغْضَى وَأَكْبَرَ حُسْنَهُ
4 ــ أَفْدِيهِ مِنْ رَشَا حَبَانِي مَنَّهُ
وَلَئِنْ يَكُنْ صَانَ الْجَمَالَ فَإِنَّهُ
أَوْمَا إِلَيَّ مُدَاعِبًا بِتَلَطُّفِ
5 ــ حَدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسُّلُوِّ فَقُلْتُ بَلْ
حَدَّثْتُ عَنْكَ بِمَا أَقُولُ مِنَ الْغَزَلْ
6 ــ يَا دُرَّ حُسْنٍ فِي فُؤَادِي قَدْ نَزَلْ
يَفْدِيكَ قَلْبٌ فِيكَ مَا عَرَفَ الْمَلَلْ
أَوْسَعْتُهُ صَبْرًا بِوَصْلِ الْمُسْعِفِ
7 ــ فَحَدِيثُ وَصْلِكَ شُغْلُ أَفْكَارِي وَلَوْ
حَمِيَتْكَ أَسْتَارٌ مِنَ الْوُشَاةِ بما رَوَوْا

8 ـ نَادَيْتُ لَمَّا أَنْ رَأَيْتُهُمْ سَعَوْا
وَقَلَبْتَ لِي ظَهْرَ الْمِجَنِّ كَمَا رَأَوْا
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأَنَّكَ مُتْلِفِي

وخمّسها الشيخ مصطفى أفندي البرنسي المعاون الأول في مديرية جرجا بمصر بقوله : (من بحر الكامل)

1 ـ لَمَّا رَآنِي مَنْ أُحِبُّ مُفَكِّرًا
وَبَدَا هُيَامِي غَادِيًا وَمُهَجِّرًا

2 ـ وَالسُّقْمُ مِنْ عَيْنَيَّ قَدْ ذَادَ الكَرَى
وَغَدَا فُؤَادِي وَالِهًا مُتَحَيِّرًا
فِيمَا أُعَانِي مِنْ جَوًى وَتَلَهُّفِ

3 ـ حَيًّا وَرَقَّ لِحَالَتِي لَكِنَّهُ
لَمْ يُبْدِ لِي مَا فِي الضَّمِيرِ أَكَنَّهُ

4 ـ وَجَرَى عَلَى مَا فِي التَّنَائِي سَنَّهُ
إِذْ لَمْ يُصَرِّحْ بِالْوَفَا مَعَ أَنَّهُ
أَوْمَا إِلَيَّ مُدَاعِبًا بِتَلَطُّفِ

5 ـ حَدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسُّلُوِّ فَقُلْتُ بَلْ
أَنْتَ الَّذِي فِي وَصْلِهِ تَفْنَى الْحِيَلْ

6 ـ عَذَّبْتَ قَلْبًا عَنْ وِدَادِكَ مَا عَدَلْ
أَنْ يُغْرِهِ لاَحٍ بِأن يَهْوَى الْبَدَلْ
أَوْسَعْتُهُ صَبْرًا بِوَصْلِ الْمُسْعِفِ

7 ـ فَحَدِيثُ وَصْلِكَ شُغْلُ أَفْكَارِي وَلَوْ
جَدَّ الْعَوَاذِلُ فِي السُّلُوِّ بِمَا وَشَوْا

8 ــ أفْـديـكَ مَـا صَدَقُوكَ فِـيمَا قدْ رَوَوْا
فَاعْطِفْ فَإِنِّـي قَـدْ ضَلَلْتُ بِمَا سَعَوْا
قَلْبِـي يُحَـدِّثُنِي بِـأَنَّـكَ مُتْلِفِي

(إلى هنا ينتهي النصّ المقحم بخطّ المؤلّف بالطرة من الصفحتين 217 و218) .

وقد تسابق إلى تخميس ذلك التشطير كلّ بارع نحرير من أدباء البلاد التونسية فمن ذلك تخميس العالم الماجد البارع الأكتب الفاضل الشيخ حمودة تاج على هذا المنوال الجديد وذلك قوله : (من بحر الكامل)

1 ــ لَـمَّـا رَآنِـي مَـنْ أُحِـبُّ مُـفَـكِّـرَا
مُتَجَـافِـيَ الأَجْفَـانِ عَنْ سِنَةِ الكَرَى
2 ــ أُمْسِـي وَأُصْبِـحُ لِلـرَّدَى مُتَحَيِّـرَا
وَأَبِـيتُ مِـنْ بَيْنِ الوَرَى مُتَحَيِّـرَا
فِـيمَـا أُعَانِـي مِـنْ جَـوًى وَتَلَـهُّفِ
3 ــ حَـيَّـا وَرَقَّ لِـحَـالَـتِـي لَـكِـنَّـهُ
سَـرْعَـانَ مَـا أَبْـدَى الـوَفَـا وَأَكَـنَّـهُ
4 ــ فَبَـقِـيـتُ مَحْجُـوبَ الحِجَـا هَـلْ أَنَّـهُ
قَـدْ رَامَ وَصْلِـي فِـي الـهَـوَى وَكَأَنَّـهُ
نَـادَى إِلَـيَّ مُـلاَعِـبًـا بِتَلَـطُّـفِ
5 ــ حَـدَّثْـتَ قَلْبَـكَ بِالسُّـلُـوِّ فَقُلْتُ بَـلْ
بِالصَّافِـي مِنْ كَأْسِ الصَّبَابَةِ لَمْ أُبَلْ
6 ــ فَتَهَلَّـلَ الـقَـمَـرُ الـمُـنِـيـرُ وَقَالَ هَـلْ
عَلَّلْتَـهُ يَـوْمًـا فَقُلْتُ لَـهُ أَجَلْ
أَوْسَعْتُـهُ صَبْـرًا بِوَصْلِ المُسْعِفِ

7 ـ فَحَدِيث وَصْلِكَ شُغْلُ أفْكَارِي وَلَوْ
هَامَتْ بِيَمِّ الوَهْمِ فِي جَوٍّ وَلَوْ

8 ـ وَرَأتْ مِنَ العُذَّالِ قَوْمًا مَا رَوَوْا
عَنِّي أحَادِيثَ السُّلُوِّ وَلاَ رَأَوْا
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأنَّكَ مُتْلِفِي

وخمّسه على هذا المنوال أيضا العالم الفاضل الماجد المدرس الشيخ محمد النيفر بقوله : (من بحر الكامل)

1 ـ لَمَّا رَآنِي مَنْ أُحِبُّ مُفَكِّرًا
فِي حُبِّهِ السَّارِي بِحَيْثُ دَمِي جَرَى

2 ـ وَالقَلْبُ فِي مَيْدَانِ يَأْسٍ قَدْ جَرَى
فَتِنٌ مَفْطُورُ الحَشَا مُتَحَيِّرًا / [218]
فِيمَا أُعَانِي مِنْ جَوًى وَتَلَهُّفِ

3 ـ حَيًّا وَرَقَّ لِحَالَتِي لَكِنَّهُ
مِنْ بَعْدِ مَا جِسْمِي الغَرَامَ أكَنَّهُ

4 ـ يَا حُسْنَ تَقْرِيرِهِ يَا حُسْنَهُ
يَوْمَ الرِّضَى أخْفَاهُ حَتَّى أنَّهُ
نَادَى إلَيَّ مُلاَعِبًا بِتَلَطُّفِ

5 ـ حَدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسُّلُوِّ فَقُلْتُ بَلْ
قَلْبِي عَنِ اسْتِجْلاَءِ حُبِّكَ مَا انْتَقَلْ

6 ـ كَيْفَ السُّلُوُّ وَأنْتَ بَدْرٌ قَدْ كَمَلْ
لَكِنَّنِي إنْ ضَاقَ صَدْرِي وَاشْتَغَلْ
أوْسَعْتُهُ صَبْرًا بِوَصْلِ المُسْعِفِ

7 ـ فَحَدِيثُ وَصْلِكَ شُغْلُ أفْكَارِي وَلَوْ
عَنِّي الوُشَاةُ حِمَى اقْتِرَابِكَ قَدْ حَمَوْا

8 – مَا دَارَ فِي خُلْدِي السُّلُوُّ إذَا عَفَوْا
فَإذَا رَأَيْتُكَ قَدْ أَخَذْتَ بِمَا وَشَوْا
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأَنَّكَ مُتْلِفِي

وخمّسه على الطريقة القديمة العالم النحرير الفاضل المدرّس الشيخ محمد ابن يوسف بقوله : (من بحر الكامل)

1 – فَتَكَ الْعِذَارُ بِمُهْجَتِي لَمَّا انبَرَى
فِي خَدِّهِ الْوَرْدِيِّ يَنْقُطُ عَنْبَرَا

2 – وَلَقَدْ رَثَى لِصَبَابَتِي بَيْنَ الْوَرَى
لَمَّا رَآنِي مَنْ أُحِبُّ مُفَكِّرَا
فِيمَا أُعَانِي مِنْ جَوًى وَتَلَهُّفِ

3 – دَنَا عَلَى شَغَفٍ إلَيَّ كَأَنَّهُ
سَلَبَ الْمَهَى لَحْظًا يُشَاكِلُ حُسْنَهُ

4 – وَإذَا شَكَوْتُ عِذَارَهُ أَوْ جَفْنَهُ
حَيًّا وَرَقَّ لِحَالَتِي لَكِنَّهُ
نَادَى إلَيَّ مُلاَعِبًا بِتَلَطُّفِ

5 – مَهْلاً فَذَا حَالُ الْمُتَيَّمِ لَمْ يَزَلْ
مِنْ يَوْمِ أَنْ خُلِقَ الهَوَى لَمْ يَعْتَدِلْ

6 – وَأَرَاكَ لَمَّا فِي غَرَامِكَ لَمْ يَصِلْ
حَدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسُّلُوِّ فَقُلْتُ بَلْ
أَوْسَعْتُهُ صَبْرًا بِوَصْلِ الْمُسْعِفِ / [219]

7 – احماك إنْ حشَاشَتِي وَاصَلْتَ أَوْ
رُمْتَ الْجَفَا مَا اعْتَادَهَا يوْمًا سُلُوّ

8 – أوَمَا كَفَى أنَّ العَوَاذِلَ إنْ أتَوْا
فَحَدِيثُ وَصْلِكَ شُغْلُ أفْكارِي وَلَوْ
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأنَّكَ مُتْلِفِي

وسدّسه الأديب الأبرع الماجد الصفوة الشيخ محمد الحشائشي بقوله :

(من بحر الكامل)

1 – يَا مَنْ عَدَا بِجَمَالِهِ مُتَخَيِّرًا
جَفْنِي وَحَقِّكَ صَامَ عَنْ طَعْمِ الكَرَى
2 – وَالقَلْبُ كَادَ عَلَيْكَ أنْ يَتَفَطَّرَا
لَكِنْ مِنْ لُطْفِ المُهَيْمِنِ بالوَرَى
3 – لَمَّا رَآنِي مَنْ أُحِبُّ مُفَكِّرَا
فِيمَا أُعَانِي مِنْ جَوًى وَتَلَهُّفِ
4 – وَوُفُورِ شَوْقٍ ظَاهِرٍ قَدْ سَنَّهُ
وَرَسِيسِ وَجْدٍ بِالفُؤَادِ أكِنُّهُ
5 – حَيَّا وَرَقَّ لِحَالَتِي لَكِنَّهُ
نَادَى إلَيَّ مُلاَعِبًا بِتَلَطُّفِ
6 – أوْمَا بِطَرْفٍ جَارٍ لَمَّا أنْ عَدَلْ
عَنْ غَيْرِنَا وَتَبَدَّى يُزْرِي بِالأسَلْ
7 – وَافْتَرَّ عَنْ ثَغْرٍ شَنِيفٍ قَدْ سَالَ
بِحَيَاةِ ذَاتِي عَلَيْكَ إجْلاَلاً فَهَلْ
8 – حَدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسُّلُوِّ فَقُلْتُ بَلْ
أوْسَعْتُهُ صَبْرًا بِوَصْلِ المُسْعِفِ
9 – كَيْفَ السُّلُوُّ وَأنْتَ تِلْكَ صَاحِ أوْ
مَلَكٍ كَرِيمٍ فِي البَشَرِيَّةِ مَا دَرَوْا

10 – يَا مَنْ بِجَمْرَةِ خَدِّهِ الخَلْقُ انْكَوَوْا
وَجُيُوشُ حُبِّكَ فِي النُّفوسِ لَقَدْ رَسَوْا

11 – فَحَدِيثُ وَصْلِكَ شُغْلُ أَفْكَارِي وَلَوْ
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأَنَّكَ مُتْلِفِي

وشطّره أيضا الأكتب الأبرع الماجد الأديب الشيخ عمر الرياحي بقوله :
(من بحر الكامل)

1 – لَمَّا رَآنِي مَنْ أُحِبُّ مُفَكِّرًا
وَهْوَ العَلِيمُ بِكُنْهِ أَمْرِي المُخْتَفِي

2 – وَرَأَى اصْفِرَارِي دَائِمًا وَتَحَيُّرِي
فِيمَا أُعَانِي مِنْ جَوًى وَتَلَهُّفِ / [220]

3 – حَيًّا وَرَقَّ لِحَالَتِي لَكِنَّهُ
لَمْ يُوقِنِي مِنْ سَيفِ لَحْظٍ مُرْهَفِ

4 – فَغَدَوْتُ مَكْلُومًا بِهِ مَعَ أَنَّهُ
نَادَى إِلَيَّ مُلاَعِبًا بِتَلَطُّفِ

5 – حَدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسُّلُوِّ فَقُلْتُ بَلْ
حَدَّثْتُهُ بِبِعَادِ كُلِّ مُعَنِّفِ

6 – فَحَدِيثُ وَصْلِكَ شُغْلُ أَفْكَارِي وَلَوْ
أَنِّي أُجَرَّعُ غُصَّةَ المُتَأَسِّفِ

7 – وَأَقُولُ يَا مَنْ قَدْ كَلِفْتُ بِحُبِّهِ
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأَنَّكَ مُتْلِفِي

(اضافة بالطرة بخطّ المؤلف : وشطّر الأصل أيضا الشيخ أحمد أديب المكي بقوله : (من بحر الكامل)

1 ــ لَمَّا رَآنِي مَنْ أُحِبُّ مُفَكِّرًا
نَادَى بِمَا تَهْوَاهُ مِنْ وَصْلِي قِفِي

2 ــ وَقَدِ اسْتَبَانَ خَفِيَّ مَا أَضْمَرْتُهُ
أَوْمَا إِلَيَّ مُدَاعِبًا بِتَلَطُّفِ

3 ــ حَدَّثْتَ قَلْبَكَ بِالسُّلُوِّ فَقُلْتُ بَلْ
أَنَا بِالتَّأَمُّلِ فِي خَيَالِكَ مُكْتَفِي

4 ــ عُذْرًا لِمَا أُبْدِيهِ مَهْمَا جِئْتَنِي
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأَنَّكَ مُتْلِفِي

وقد أوردت هاته الإدخالات على تعدّدها ليرى منها مبلغ أهل الصناعة في تلك البضاعة وإلاّ فإنّي أرى صعوبة بني التخميس والتشطير بما لا يخفى على بارع نحرير . ودليل ذلك قصيدة السموأل بن غريض بن عادياء المشهورة (1) في إحكام النسج التي خمّسها فارس حلبة الآداب والسابق على الشعراء والكتّاب المولى صفيّ الدين الحليّ (2) بتخميسه المشهور . فإنّ كثيرًا من إدخالاته على بيوت الأصل رابطها خياليّ ضعيف وربّما رأى الناظر بعضها لا تعلّق بينه وبين الأصل حتّى كأنّ طالع تخميسه قبيح حيث يقول :

(من بحر الطويل)

قَبيحٌ بمن ضَاقتْ عن الرِّزْقِ أَرْضُه ....

---

(1) السموأل : يهودي عاش في القرن السادس الميلادي وهو صاحب الحصن المعروف بالأبلق . ويضرب بالسموأل المثل في الوفاء لأنه فضل قتل ابنه على التفريط بأمانة أودعها عنده امرؤ القيس لما سار إلى الشام يريد القيصر . والسموأل من شعراء الجاهلية له قصيدة شهيرة مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

(2) صفي الدين الحلي 677هـ./1278م. ــ 750هـ./1349م.) ولد في الحلة بالعراق وتوفي في بغداد . شاعر أقام في القاهرة وماردين . له ديوان : درر النحور : يمدح فيه الملك منصور الأرتقي وفيه 29 قصيدة كل منها بها 29 بيتا . وكل قصيدة تبدأ أبياتها وتنتهي بحرف من الحروف الهجائية المسلسلة . (راجع : المنجد الكبير ص : 165) . انظر أيضا : الزركلي : الاعلام : ج 4 ــ ص : 141) .

وقد اتّفق لي أن حضرت في جمع من الأدباء وتجاذبوا حديث ذلك التخميس فافترقوا فيه فرقتين . فمن قائل : إنّ شدّة إحكام أصل القصيدة لا يمكن معه للشاعر أن يأتي في الارتباط بأبلغ ممّا أتى به صفيّ الدين . ومنهم من قال : إنّ دقّة صناعة التخميس قابلة لإتقان في تخميس تلك القصيدة لم يصله صفيّ الدين . وتراهن الفريقان . ثمّ كلّفني الفريق الثاني بتخميسها مع أنّـي كنت مع الفريق الأوّل في الرأي .

[تخميس المؤلّف لقصيدة صفيّ الدين الحلّي]

وبعد التمنّع والإلزام لم يسعني إلاّ / التجاسر على الدخول في ذلك الالتحام [221]
ولذلك أثبت هذا التخميس تطرية للأخبار أثناء حديث الأسفار وهو قولي : (من بحر الطويل)

1 ــ بِحَزْمِ الفَتَى تُكْسَى مِنَ المَجْدِ أَرْضُهُ
فَتُثْمِـــرُ فَضْلاً قَـامَ بِالْعِزِّ فَرْضُهُ

2 ــ وَلاَ لَوْمَ عَمَّنْ بَاعَدَا لُّوْمَ اضه [كذا]
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُدْنِسْ مِنَ اللؤْمِ عِرْضُهُ
فَكُـلُّ رِدَاءٍ يَـرْتَدِيـهِ جَـمِـيـلُ

3 ــ وَمَنْ تَسْتَطِبْـهُ المَكْرُمَاتُ نَدِيمَهَا
تَقُــدْ لَـهُ مِـنْ كُلِّ فَخْـرٍ أَدِيمَهَـا

4 ــ وَمَنْ زَاحَمَ الأَخْطَـارَ فَـزَحَّ غَيْمَهَـا
وَإِن هوَ لَمْ يَحْمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَهَا
فَلَيْـسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِـيلُ

5 ــ وَافْـرَادُنَـا مَهْـمَـا تَبِـيـدُ الأَعَادِيَـا
رَأَيْتُ اضْطِرَابَ الرَّأْيِ في القَوْمِ بَادِيَـا

6 — فَمِنْ قَائِلٍ بَتَّ السُّرَاةُ الأَيَادِيَا
وَقَائِلَةٍ مَا بَالُ أُسْرَةِ عَادِيَا
تُنَازِي وَفِيهِمْ قِلَّةٌ وَخُمُولُ

7 — وَنَحْنُ يُعَنَّى لِلْخُطُوبِ وَلِيدُنَا
وَلَيْسَ سِوَى دَاعِي الحُرُوبِ يُمِيدُنَا

8 — وَرُبَّ فَتَاةٍ غَمَّ عَنْهَا بَعِيدُنَا
تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا
فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ

9 — عَلَى أَنَّ حُكْمَ الفَصْلِ قَدْ زَانَ قَوْلَنَا
وَفِينَا أُسُودٌ كُلُّهُمْ صَانَ عَدْلَنَا

10 — إِذَا غَابَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ شِمْتَ شِبْلَنَا
وَمَا قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنَا
شَبَابٌ تَسَامَى لِلْعُلاَ وَكُهُولُ

11 — تَعَاضُدُنَا عَزَّتْ بِهِ الْيَوْمَ دَارُنَا
وَيُحْمَى بِهِ بَيْنَ الْبَرَايَا ذِمَارُنَا

12 — فَنَحْنُ لِعِزِّ الْجَارِ تُوقَدُ نَارُنَا
وَمَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا
عَزِيزٌ وَجَارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ

13 — بِنَا عَزَّ مَنْ أَمْسَى وَنَحْنُ ظَهِيرُهُ
فَيَأْوِيهِ مِنْ كَهْفِ المَعَالِي ثَبِيرُهُ / [222]

14 — لأَنَّا حُمَاةُ الْمُسْتَجِيرِ نَصِيرُهُ
لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجِيرُهُ
مَنِيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ

15 — تَكَلَّلَ مِنْ إِكْلِيلِنَا بِشِهَابِهِ
وَدَعَّمَهُ مِنَّا رُسُوخُ إِنْشَابِهِ

16 — لِذَلِكَ لَمَّا أَنْ حَوَى أُسْدَ غَابِهِ
رَسَا أَصْلُهُ فَوْقَ الثَّرَى وَسَمَابِهِ
إِلَى النَّجْمِ فَرْعٌ لاَ يُنَالُ طَوِيلُ

17 — أَمَا إِنَّهُ مَأْوَى يَسُرُّكَ سِرُّهُ
وَطَالَ عَلَى الأَفْلاَكِ بِالمَجْدِ جَهْرُهُ

18 — تَفَرَّدَ فِي جَمْعِ العُلاَ وَهْوَ مُخْبِرُهُ
هُوَ الأَبْلَقُ الفَرْدُ الَّذِي شَاعَ ذِكْرُهُ
يَعِزُّ عَلَى مَنْ رَامَهُ وَيَطُولُ

19 — حَمَيْنَاهُ حَيْثُ اسمر تَكْسُوهُ رَهْبَةٌ
لأَنَّا إِذَا مَا هَبَّتِ الْحَرْبُ هَبَّةً

20 — فَرَيْنَا أَدِيمَ الأَرْضِ نُسْرِعُ رَغْبَةً
وَإِنَّا لَقَوْمٌ لاَ نَرَى الْقَتْلَ سَبَّةً
إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

21 — هُمُ جَعَلُوا مُحَيَّاهُمْ غَايَةَ الْمُنَى
وَنَحْنُ نَرَى أَنْ لاَ حَيَاةَ سِوَى الثَّنَا

22 — وَحَيْثُ عَشِقْنَا مَوْتَةَ السَّيْفِ وَالْقَنَا
يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا
وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

23 — عَلاَمَ اتِّقَاءُ الْمَوْتِ أَوْ بُغْضُ وَصْفِهِ
إِذَا نُثِرَ الْمَقْتُولُ مِنَّا بِحِلْفِهِ

24 — لِـذَا كُلُّنَـا مَا هَابَ أَسْبَـابَ حَتْفِـهِ
وَمَـا مَـاتَ مِنَّـا سَيِّـدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ
وَلاَ طَـلَّ مِنَّـا حَيْثُ مَـاتَ قَتِيـلُ

25 — لَبِسْنَـا دُرُوعَ الْبَـأْسِ فَهْـيَ لَبُوسُنَـا
وَعِنْدَ اصْطِلاَمِ الحَرْبِ يَزْهُو عُبُوسُنَا

26 — وَإِنْ شَرُفَـتْ فِـي أَخْـذِ ثَـأْرٍ كُؤُوسُنَا
تَسِيلُ عَلَى حَـدِّ الظُّبَـاتِ نُفُوسُنَا
وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْـرِ الظُّبَـاتِ تَسِيـلُ

27 — نَجُـودُ بِـهَـا إِنْ وَفَّتِ الحَرْبُ نُذْرَنَا
وَمَغْنَمُنَـا مِنْهَـا يُـوَفَّـرُ وِفْرُنَا / [223]

28 — وَحَيْثُ اعْتِزَازُ الأَصْلِ أَخْلَصَ تِبْرَنَا
صَفَوْنَـا فَلَـمْ نُكَـدَّرْ وَأَخْلَصَ سِرُّنَا
أَنَـاثٌ أَطَابَـتْ فَرْعَنَـا وَفُحُـولُ

29 — وَلَـمَّا حَمَيْنَـا بِالْقَوَاضِبِ خَطَّنَـا
تَهَاوَتْ نُجُـومٌ كَـيْ تُرَصِّعَ قُرْطَنَا

30 — لأَنَّا الأُولَى مُذْ مَنْطَقَ الحَزْمُ وُسْطَنَا
عَلَـوْنَـا عَلَـى خَيْـرِ الظُّهُورِ وَحَطُّنَا
لِـوَقْـتٍ عَلَى خَيْـرِ الْبُطُونِ نُزُولُ

31 — وَنَحْـنُ إِذَا جَاءَ الْوُفُـودُ لِبَـابِـنَـا
تَنَادَوْا لِخِصْبٍ فِـي مَسَـاقِ سَحَابِنَا

32 — وَإِنْ عُـدَّ أَهْـلُ الْفَضْلِ بَيْنَ صِحَابِنَا
فَنَحْـنُ كَمَـاءِ الْمُـزْنِ مَا فِي نِصَابِنَا
كَهَـامٌ وَلاَ فِينَـا يُعَـدُّ بَخِيـلُ

33 — وَنحنُ الأُلَى أفْشَوْا على الأرْض طَوْلَهمُ
فَطَالُوا عَلَى كُلِّ امْرِيءٍ كانَ حَوْلَهُمْ

34 — نَرَى فَضْلَ مَنْ نوفي إلَيْهِمْ عَدْلَهُمْ
وَنُنْكِرُ إنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ
وَلاَ يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حَيْثُ نَقُولُ

35 — نَقُولُ وَسَيْفُ الْحَقِّ فِينَا مُؤَيَّدٌ
وَنَفْعَلُ مَا حُسْنُ الثَّنَاءِ يُخَلِّدُ

36 — وَنَحْنُ لآثَارِ الْجُدُودِ نُجَدِّدُ
إذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلاَ قَامَ سَيِّدُ
قَؤُولٌ بِمَا شَاءَ الْكِرَامُ فَعُولُ

37 — لَنَا رَبْعُ عِزٍّ مُنْتَحَى لِلْخَلاَئِقِ
يَؤُمُّونَ مِنْ أَعْلاَمِهِ وَعْدَ صَادِقِ

38 — فَمَا طَارِقٌ إلاَّ رَأى خَيْرَ بَارِقِ
وَمَا خَمَدَتْ نَارٌ لَنَا دُونَ طَارِقِ
وَلاَ ذَمَّنَا فِي النَّازِلِينَ نَزِيلُ

39 — فَنَقْرِي بِوَفْرٍ وَافِرٍ فِي هُدُوِّنَا
وَنَنْزِلُ فِي يَوْمِ الوَغَى مِنْ سُمُوِّنَا

40 — نُقَرِّرُ وَجْهَ الْمَجْدِ عِنْدَ غُدُوِّنَا
وَأَيَّامُنَا مَشْهُورَةٌ فِي عَدُوِّنَا
لَهَا غُرَرٌ مَعْلُومَةٌ وَحُجُولُ

41 — وَقَائِعُهَا كَمْ مِنْ كَمِيٍّ مُدَرَّبِ
سَقَتْهُ بِصِرْفِ الْمَوْتِ أعْذَبَ مَشْرَبِ / [224]

42 ـ وَأَسْهُمُنَا فِي سُمِّهَا كُلُّ مَأْرَبٍ
وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبِ
بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ

43 ـ مُفَلَّجَةٌ بِيضٌ تُنِيلُ وِصَالَهَا
لِمَنْ بِالتَّجَنِّي يَسْتَهِينُ خِصَالَهَا

44 ـ تُطَوِّقُ أَجْيَادًا أَبَانَتْ فِصَالَهَا
مُعَوَّدَةٌ أَنْ تُسَلَّ نِصَالُهَا
فَتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَتِيلُ

45 ـ فيا رَبَّةَ الخَالِ انْظُرِي القَوْمَ إِنْ هُمُ
تَبَارَوْا لإِحْكَامِ الْوِشَاحِ مِنْهُمُ

46 ـ وَإِن كنتِ لاَ تَدْرِي ذَوِي الفضْلِ مَنْ هم
سَلِي إِنْ جَهِلْتِ النَّاس عنَّا وَعنهُمْ
فَلَيْسَ سَوَاءً عَالِمٌ وَجَهُولُ

47 ـ سَلِي لاَ تَسُومِي القَوْمَ الخَسَّ سَوْمَهُمْ
وَلاَ تَطِئِي بِالْجَهْلِ مَوْطِيءَ نَوْمِهِمْ

48 ـ وَلاَ تُسْرِعِي لِلأَكْرَمِينَ بِلَوْمِهِمْ
فَإِنَّ بَنِي الرَّيَّانِ قُطْبٌ لِقَوْمِهِمْ
تَدُورُ رَحَاهُمْ حَوْلَهُمْ وَتَجُولُ

[تقريظ تخميس المؤلف للشيخ حمّودة تاج]

وقد كتب لي في تقريظ هذا التخميس الشاعر المجيد والنظامة الفريد العالم البارع الأكتب الشيخ حمّودة تاج بقوله : (من بحر مجزوء الكامل)

1 ـ أُنْهِي الجَلِيلَ مِنَ السَّلاَمِ ... لِلْفَذِّ رُكْنِ الإِسْلاَمْ
2 ـ العَالِمِ الشَّيْخِ السَّنُو ... سِيِّ الَّذِي فَاقَ الأَنَامْ

3 ــ مَنْ لَيْسَ يُسْتَرُ فَضْلُهُ وَالبَدْرُ يُسْتَرُ بِالْغَمَامْ
4 ــ وَهُوَ الْهُمَامُ بْنُ الْهُمَا مِ بْنِ الهُمام بْنِ الهُمَامْ
5 ــ وَهَلُمَّ جَرًّا فَالْمَعَا لِي فيهِمِ ذَاتُ انْتِظَامْ
6 ــ وَلَطَائِفُ الآدَابِ عِنْـ ـدَهُمُ عَلى طَرَفِ التَّمَامْ

مَوْلاَيَ أَبْقَاكَ اللّهُ لِشَخْصِ الْبَلاَغَةِ تُجَلِّيهِ عِيَانًا. وَتُولِيهِ مِنْ مُتْقَنِ الصِّيَاغَةِ بَيَانًا. وَصَلَنِي مَا بِهِ بَرِحَ الْخَفَاءُ. عَلَى أَنَّكَ سَمَوْءَ لِيُّ الْوَفَاءِ. مِنْ ذَلِكَ / التَّخْمِيسِ الَّذِي يَقْصُرُ [225] عَنْ مِثْلِهِ ابْنُ خَمِيسٍ. فَلَقَدْ أَحْرَزْتَ بِهِ تَبْرِيزًا. وَأَبْرَزْتَهُ بَيْنَ مَعَادِنِ الْكَلاَمِ إِبْرِيزًا. إِذْ بَيْنَمَا كَانَتِ الْقَصِيدَةُ السَّمَوْءَلِيَّةُ. رَتْجَاءَ (1) عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الأُدَبَاءِ. عَلَى تَعَذُّرِ تَخْمِيسِهَا بِأعظم اليه. (كذا) لما رَأَوْا أَنَّ حُلَّةَ الصفيِّ عَبَاءَةٌ. لاَ تُسَامُ عِنْدَ الْعَارِفِ بِهَبَاءَةٍ (2). مَعَ مَا يَعْلَمُونَ مِنْ رِقَّةِ غَزَلِهِ. فِي جِدِّهِ وَهَزْلِهِ. حَتَّى اتَّخَذْتَ بِنَوَاصِيهَا. وَأَنْزَلْتَهَا مِنْ صَيَاصِيهَا (3). وَأَلَّفْتَهَا بِجَوَاهِرِكَ الفَرِدَهْ. تَأْلِيفًا لَوْ شَامَهُ فَيْلَسُوفِيٌّ مَا رَدَّهْ. فَعِنْدَ ذَلِكَ عَلِمَ الْعَالِمُ أَنَّكَ ابْنُ مَجْدَتِهَا. وَرَبُّ بَجْدَتِهَا (4). فَلاَ غَرْوَ أَنِ انْقَادَ لَكَ مِنَ الْمَعَانِي. مَا تَعَاصَى عَنْ كُلِّ مُعَانٍ. وَقَابَلَكَ مِنَ الأَلْفَاظِ. مَا هُوَ أَسْحَرُ مِنَ الأَلْحَاظِ.

أَمَّا عَبْدُكَ أَعَزَّكَ اللّهُ فَإِنَّ نُطْقَهُ شَدَّ نِطَاقَهُ. وَوَجَّهَ إِلَيْكَ بِسِهَامِهِ الْبِطَاقَهْ. وَمَعَاذَ اللّه أَنْ أَتَجَاسَرَ عَلَى مَا تِيكَ بِالْمَدِيحِ. وَهَبْنِي أَجِيءُ بِالضِّحِّ وَالرِّيحِ. إِذْ مِنَ الأَمْثَالِ السَّنِيَّةِ. الشَّمْسُ

(1) أرتج على الخطيب : استغلق عليه الكلام .
(2) الهباءة : القطعة من الهباء ، والهباء : الغبار .
(3) الصياصي جمع صيصة بمعنى الحصن وكل ما امتنع به .
(4) يقال هو ابن بجدة الأمر أي هو عالم به .

عَنْ مَدْحِ الْمَادِحِ غَنِيَّةٌ . هَذَا وَقَدْ شَقَّ عَلَيَّ الإرْجَاءَ . بَعْدَمَا رَأَيْتُ ذَلِكَ الإِبْدَاعَ . وَبِوِدِّي أَنْ يَكُونَ عِنْدِي بِخَطِّكَ . وَتَأَنُّقِكَ وَضَبْطِكَ . لَكِنِّي امْتَثَلْتُ أَمْرَكَ . وَالْتَزَمْتُ بِسِرِّكَ . عَسَاكَ تُرْجِعُهُ إِلَيَّ بِعَيْنِهِ . فَيَصِلُكَ مِنِّي السَّلاَمُ حَرَّرَهُ حَمُّودَةُ بْنُ مُحَمَّدٍ تَاج .

[حسن الطراز في فنّ الإلغاز :]

اللغز لغة ميلك بالشيء عن وجهه وبالضمّ ما يعمّى به كالألغوزة . ويقال ألغز كلامه وفيه عمّى مراده . وعند علماء البديع هو أن يتكلّم المتكلّم بعدّة أوصاف في ألفاظ مشتركة من غير ذكر الموصوف ويشير بها إلى مقصود مجهول أو يأتي بكلمات تتضمّن / اسم المطلوب بقلب بعضها [226] أو تصحيفه أو مرادفه أو إسقاط بعض الحروف أو تبديلها أو غير ذلك من التصرّفات الحسنة .

ولابدّ من التنبيه على ذلك في أثناء الكلام بما يشير إلى تلك الوجوه بنكتة حتّى يحسن استخراجُه به ، وإن لم ينبّه على ذلك كان استخراجه بدقّة الفكر . وعدّوا عدم التنبيه عيبا في اللغز إلاّ نوع الأحاجي فإنّها اشتهرت بإعمال الرديف فلا يحتاج إلى التنبيه على ذلك .

قلت وقد توسّع المتأخّرون من الأدباء في وجوه الإلغاز بما لا يدخل تحت الحصر . ومداره على لطائف اعتبارات الملغز وثقوب فكر المستخرج . وبابه واسع بمقدار توسّع اللطائف البلاغية والمحسّنات اللفظية والمعنوية ووجوه المجازات البيانية في اللغة العربية .

[ما ألغز به الشيخ حسين الجسر]

وَإِيرَادُ ما وجد من أنواعه يستدعي طولا لا داعي إليه ، وإنّما بهاته المناسبة أذكر بعض الألغاز الشامية وأجوبة عنها تونسية فمن ذلك ما ألغز به

العالم الفاضل الشيخ حسين الجسر (1) ونشرته صحيفة الثمرات ، وذلك قوله :

(من بحر مجزوء الكامل)

1 — يَا أَيُّهَا الشَّهْمُ الَّذِي   هُوَ مَلْجَأُ الْمُسْتَشْكِلِ
2 — وَمَنِ الصِّعَابُ بِرَأْيِهِ   سَهُلَتْ لِفِكْرِ الْمُنْجَلِي
3 — مَا اسْمٌ ثُلاَثِيٌّ غَدَا   فِعْلاً لَدَى الْمُتَأَمِّلِ
4 — كَمْ قَدْ رَأَيْتُ مُرَكَّبًا   مِنْ خَتْمِهِ فِي الأَوَّلِ
5 — وَلَكَمْ أَمَرْت بِصَدْرِهِ   قَدَ الْحَبِيبِ الْمُقْبِلِ
6 — إِنْ أَنْتَ شَبَّهْتَ الْعَذَا   رَ بِلاَمِهِ لَمْ تُعْذَلِ
7 — وَإِذَا الْمَبَاسِمُ شُبِّهَتْ   بِالْفَاءِ مِنْهُ فَاقْبَلِ / [227]
8 — إِنْ نَابَ عَنْهَا خُمْسُهَا   فَارْمِ لَهَاةَ الْعُذَّلِ
9 — إِنْ فُتَّ فِيهِ مُصَحِّفًا   فَإِلَى مَبِيتِكَ فَارْحَلِ
10 — هُوَ وَاضِحٌ مُنْذُ اغْتَدَى   تَصْحِيفُهُ فِي مُشْكِلِ
11 — وَغَدَا مُحَرَّفُهُ لَهُ   ظَرْفًا خَفِيفَ الْمَحْمِل
12 — هُوَ مُمْسِكٌ إِلاَّ الأَخِيـــرَ مِنَ الدَّرَاهِمِ فَاسْأَلِ
13 — مِنْ مُسْكِرٍ لَكِنَّهُ   حِلٌّ لَدَى الْمُسْتَعْمِلِ
14 — قسمي بِأَوَّلِهِ مَضَى   وَبِقَلْبِهِ مُسْتَقْبَلِ
15 — إِنْ ضَاعَ مِنْكَ وَجَدْتَهُ   فِي الْحَالِ غَيْرَ مُؤَجَّلِ
16 — حظرمتى تلك محرما   حَتَّى تَرَى بِتَحَلُّلِ
17 — وَإِذَا تَقَدَّمَ قَلْبُهُ   فَهُوَ الْحَلاَلُ بِمَا تَلِي
18 — وَإِذَا تَوَسَّطَ ختمه   فَاذْكُرْ جُهَيْنَةَ وَاعْذِلِ
19 — قُلْ لِلَّذِي هُوَ خَامِلٌ   وَبِهِ الْوَرَى لَمْ تَحْفَلِ
20 — أُغْلُدْ بِهِ مُتَمَسِّكًا   يَعْرِفْكَ أَهْلُ الْمَحْفَلِ

---

(1) الشيخ حسين الجسر : (1845–1909) ولد في طرابلس لبنان وتعلم في الأزهر بالقاهرة . وأنشأ في مدينته جريدة : طرابلس الشام . وجعل وجهة عمله تطبيق العلوم الطبيعية والفلسفية على القواعد الدينية الاسلامية . من مؤلفاته : الرسائل الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية .

21 — هَـذَا وَإِنْ قَسَّـمْتَـهُ   يَأْتِيكَ تَقْسِيمٌ جَلِي

22 — فَالثُّلْثُ مِنْهُ بَـازِل   عَيْنِ الحَسُودِ بِمِعْوَلِ

23 — وَالثُّلْـثُ حَمـد بادي   لبني حمـادة يَنْجَلِي

24 — وَالثُّلْـثُ ودي ثَـابِتٌ   لَهُـمُ بِوَجْهٍ أَكْمَـلِ

25 — هَـاتِ الجَوَابَ مُفَصَّلاً   يَـا سَيِّـدًا لَمْ يَبْخَلِ

26 — وَالشُّكْرُ مِنِّـي إِنْ يَكُـنْ   نَظْمًـا كَمِثْلِ السَّلْسَلِ

27 — قَدْ خطَّ فِي قَلَمٍ غَـدَا   لَغْـزًا لِصَاحِبِنَا عَلِي

[228] 28 — فَهْوَ الَّـذِي بِيَـرَاعِـهِ   نَيْلُ البَرَاعَةِ تَمَّ لِـي /

[إجابة الشيخ سالم بوحاجب]

وأجاب عنه أديب تونس وشاعرها العالم المدرّس الشيخ سالم بوحاجب (1) بقوله : (من بحر مجزوء الكامل)

1 — يَا أَيُّهَا العَلَمُ العَلِـي   وَالعَيْلَمُ العذْبُ المَلِي

2 — وَالجَهْبَذُ المهدِي الهُدَى   في طَيِّ طَرْحِ المُشْكَـلِ

3 — نُهْدِي إِلَيْكَ تَحِيَّـةً   كَالنَّـدِّ أَوْ كَالمَنْـدَلِ

4 — بَلْ مِثْلَ مَا تَعْنِيهِ فِي   اللُّغْزِ العَجِيبِ المُرْسِلِ

5 — أُحْجِيَّةٌ تَـدَعُ الحِجَى   مِنْ حُسْنِهَا فِـي مَشْغَلِ

6 — تَرْنُو فَيَعْبَثُ رَمْزُهَـا   بِتَثَبُّتِ المُتَـأَمِّلِ

7 — تُلْهِيهِ رِقَّـةُ لَفْظِـهَا   عَنْ فهم مَلْحَظِهَا الجَلِي

8 — زَارَتْ وَزَرَّتْ جِيبَـهَـا   عَنْ مِسْكِ خال أَجْمَلِ

9 — وَبَعْدَمَـا أَنْ أَرَّجَـتْ   أَرْجَاءَ بَهْـوِ المَحْفَلِ

(1) سالم بوحاجب : ولد سنة 1244هـ./1828 ونشأ بالساحل التونسي وانتقل إلى تونس الحاضرة ودخل جامع الزيتونة سنة 1258هـ./1843 ثم جلس للتدريس بجامع الزيتونة من 1265هـ./1849 إلى 1330هـ./1912 . وبلغ مقام مشيخة الاسلام سنة 1337هـ./1918 وتوفي في ذي الحجة سنة 1343هـ./جويلية سنة 1925 (انظر : محمد الفاضل ابن عاشور : تراجم الاعلام ، تونس 1970 — ص : 219-233) .

10 – قالَتْ ألاَ تَـدْرُونَ مَـا عَلَيْـهِ زُرَّتْ حُلَلِـي
11 – وَأطْنَبَـتْ فِـي وَصْفِـهِ فَأطْرَبَتْ نَفْسَ الخَلِي
12 – فَقُلْتُ وَالتَّقْصِيرُ فِـي قَوْلِـي لَدَيْهَـا مُخْجِلِي
13 – يا مَنْ حكتْ شِيَمَ الغَزَا لِ فحكتْ غَزْلَ تَغزُّلِـي
14 – إنْ رُمْت تَحجبَ قَـارَةً مِنْـهُ بِـزُرِّ مُقْفَـلِ
15 – فَالْعَرْفُ عَـرَّفَنـي بِـهَا وَبِحَـالِ خَالِكَ تَمَّ لِي
16 – وَأرَاهُ أصْدَقَ دَاهِـنـًا مِنْ رُؤْيَةِ البَصَرِ الجَلِـي
17 – إذْ مَنْ رَأى في صَدْرِك الْـمَصْقول صَقْلَ سَجنجلِ
18 – شبـه كسـاف القلب من سَوْدَائِـهِ لَمْ يَعْقِـلِ
19 – اذاك خيـال أم خيـال مِنْ سَوَادِ الْمُقَـلِ / [229]
20 – ايـه فشبـه الخـال يَحْـلُو وَصْفُـهُ فِـي مِقْوَلِي
21 – وَمِنِ اسْمِهِ أجِدُ الشَّذَا لَكِنْ بِأنْفِ تَخَيُّلِـي
22 – هـوَ شبهنـا بطهـارة لَيْسَتْ بِـذَاتِ تَأصُّلِ
23 – ثـلـثـاه كـالثلـث المـا وي كلـه بِتَـأمُّـلِ
24 – وَإذَا تَحَلَّى الجِيدُ مِنْـهُ ارتك منيئك الحلـي
25 – وَشَذَاهُ يُنْشَقُ مِنْ حُسَـيْنِ بَعْدَ حَذْفِ الأوَّلِ
26 – لاَ زَالَ مِنْ كَمَالِهِ اسْـتِمْدَادُ كُلِّ الْكُمَّلِ
27 – مَا لاَحَ حَلُّ اللُّغْزِ فِـي خَتْمِ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

[ما ألغز به خليل الأيّوبي]

ومن ذلك ما ألغز به الأديب البارع خليل الأيّوبي وذلك قوله :

« أيُّهَا الأفَاضِلُ الْمُجْتَنُونَ . مِنْ يَانِعِ ثَمَرَاتِ الْفُنُونِ . مَا كَلِمَةٌ ثُلاَثِيَّةُ الْحُرُوف . وَهْيَ اسْمٌ لِحَيَوَانٍ مَعْرُوف . إنْ قَلَبْتَهَا كَانَ أمْرًا يُحْظَرُ فِـي الشَّرْعِ . وَعِنْدَ مَنْ يَعْرِف لِلاقْتِصَادِ النَّفْعِ . وَإنْ صَحَّفْتَهَا فِي ذَلِكَ الْحَالِ . كَانَ وَصْفًا لِذَوِي

الاعْتِبَارِ وَالْجِلاَلِ . ، وَإِنْ جَعَلْتَ ثَالِثَ ذَلِكَ الْمُصَحَّفَ فِي الْبَيْتِ كَانَ حَرْفَ جَفْنِ الْعَيْنِ وَإِنْ جَعَلْتَ ثَانِيَهُ قَبْلَ الأَوَّلِ . كَثُرَ وُرُودُهُ فِي وِرْدِ الرِّضَابِ السَّلْسَلِ . ، وَإِنْ قَدَّمْتَ ثَالِثَ الأَصْلِ عَلَى الْمُبْتَدَإِ دَلَّ عَلَى سَيْرٍ طَوِيلٍ يَرْغَبُ فِيهِ أَهْلُ العِلْمِ وَالتِّجَارَةِ لِمَا عَنْهُ يَنْشَأُ مَعَ أَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْ مُصَحَّفِهِ الذِي مِنْهُ يُرْهَبُ وَلاَ عَجَبَ . فَغَالِبُ الْفَوَائِدِ مَقْرُونَةٌ بِمَا يُسْتَصْعَبُ . وَرُبَّمَا كَانَ مُرَادِفًا لِلْكِتَابِ . أَوِ الظُّهُورِ وَالإِضَاءَةِ بَعْدَ الاحْتِجَابِ . وَإِنْ قَدَّمْتَهُ عَلَى الثَّانِي دَلَّ عَلَى إِبَانَةِ الْمَعَانِي ، وَإِنْ حَذَفْتَ ثَالِثَ هَذَا مَعَ تَصْحِيفِ الأَوَّلِ كَانَ عَلَمًا عَلى بَلِيغٍ اشْتَهَرَ بِهَا فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ ، وَإِنْ حَذَفْتَ ثَانِيَهُ بِلاَ تَصْحِيفٍ كَانَ فِعْلَ مَنْ / أَقْلَقَهُ الْخَوْفُ وَالْحُزْنُ . وَمَعَهُ فَهُوَ فِعْلُ مَنِ [230] اطْمَأَنَّ وَسَكَنَ . فَأَجِبْ عَنْهُ أَيُّهَا السَّابِقُ فِي مَيْدَانِ الآدَابِ . لِيُسْفِرَ فِي حُلَلِهِ الرَّائِقَةِ لأُولِي الأَلْبَابِ » .

[إجابة الشيخ سالم بوحاجب]

وأجاب عنه العلاّمة المذكور (1) بما نصّه :

« أَيُّهَا الأَدِيبُ الْبَارِعُ . المقرط لِمَسَامِعِ الْمَجَامِعِ . بِأَبْدَعِ النَّفَائِسِ وَأَنْفَسِ الْبَدَائِعِ . مَنْ لاَسْتِكْشَافِ سِرِّهِ الْمَكْنُونِ . تُهْتَصَرُ أَفْنَانُ ثَمَرَاتِ الْفُنُونِ . أُهْدِي إِلَيْكَ تَحِيَّةً تَسْتَنِدُ لأُلْفَةِ عَالَمِ الأَرْوَاحِ . مَحْمُولَةً لِنَادِيكُمُ الْبَهِيجِ عَلَى رَاحِ الأَرْوَاحِ . الَّتِي هِيَ كَمَا قِيلَ أَصْلٌ . لِلْمُرَادِ الْمُتَّضِحِ مِنْ لُغْزِكَ وُضُوحَ الْغُرَّةِ مِنْهُ وَالتَّحْجِيلِ . فَهُوَ مَطِيَّةُ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ . الَّذِي لاَ يُعَدُّ التَّغَالِي فِيهِ مِنَ السَّرَفِ . يَعْبُرُ الأَنْهَارَ بِالسَّبْحِ وَالطَّفْرِ . وَيُدْعَى لِظَرْفِهِ بِكَسْرِ طَرَفِ الشَّفْرِ . يَسْتَعْذِبُ

(1) العلامة المذكور هو الشيخ سالم بوحاجب .

الشَّرْبَ بِالصفيرِ . كَمَا يَسْتَعْذِبُ رَشْفَ الْكَأْسِ بِتَطْرِيبِ الْمَزَامِيرِ . وَهُوَ مِلاَكُ الظَّفَرِ وَالرَّاحَةِ فِي السَّفَرِ . الَّذِي هُوَ كَمَا قِيلَ قِطْعَةٌ مِنْ عَذَابِ سَقَرَ . كَمَا أَنَّهُ أَنْفَعُ عُدَّةٍ فِي الكَرِّ وَالْفَرِّ . وَأَنْجَحُ وَسِيلَةٍ لإِبْلاَغِ الْمَقَرِّ . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَزَايَاهُ الَّتِي سَارَتْ بِهَا الرُّكْبَانُ . وَشَارَتْ شهد بِبَيَانِهَا كَفَانس وَسَحْبَان . وَأَخْلاَقُهُ الَّتِي أَسْفَرَتْ عَنْهَا الأَسْفَارُ . وَامْتَلأَتْ بِمَدْحِهَا صَحَائِفُ الأَسْفَارِ . فَهَذِهِ أَرْشَدَكَ اللَّهُ رُمُوزُ مَقَالِكَ . وَإِنْ شِئْتَ مَزِيدَ الْجَوَلاَنِ عَلَى الْمَرْمُوزِ إِلَيْهِ فِي مَجَالِكَ . فَهُوَ الرَّابِعُ فِي مَيْدَانَي السُّرُورِ وَالْبَأْسِ . وَالرَّابِعُ فِي آيَةِ الشَّهَوَاتِ الَّتِي زُيِّنَتْ لِلنَّاسِ . الْمُحْرِزُ غِبَّ الطِّبَاقِ . قَصَبَ السِّبَاقِ . وَالْمَعْرُوجُ عَلَيْهِ إِلَى السَّبْعِ الطِّبَاقِ . يُضْرَبُ لَهُ فِي الْغَنَائِمِ بِسَهْمٍ . وَإِنْ لَمْ يَضْرِبْ قَطُّ بِسَيْفٍ وَلاَ سَهْمٍ . يَخْشَاهُ شَاهُ الشِّطْرَنْجِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سَمْتِهِ . وَلاَ يُحْيِيهِ مِنْ كَشِيشِهِ إِلاَّ التَّحَوُّلُ مِنْ بَيْتِهِ . وَيَكْفِي لإِيضَاحِ حَالِهِ . وَسَدِّ طُرُقِ احْتِمَالِهِ . أَنَّا نَتَوَصَّلُ إِلَى اسْمِ جَمْعِهِ . بِحَذْفِ الثَّانِي
مِنِ اسْمِ مَنْ تَعْرِضُ هَذِهِ / الْفِقَرَاتُ الْفَقِيرَةُ عَلَى سَمْعِهِ . [231]
أَخِينَا خَلِيلِ أَفَنْدِي . لاَ زَالَ لِغَرَائِبِ الآدَابِ يُبْدِي . وَلِجَوَالِبِ الْكَمَالِ يَهْدِي وَيَسْتَهْدِي » .

[ألغاز الشيخ حمزة فتح الله]

وقد كان الأديب الفاضل الشيخ فتح الله السكندراني أقام بعض أشهر على إنشاء الرائد التونسي (1) فأورد ألغازا تحت عنوان : « ملح أدبية وألغاز علمية » . في نثر رائق وهذا نصّها :

(1) ولد الشيخ حمزة فتح الله سنة 1849 وتوفي سنة 1918 . وكان يبلغ من العمر 26 سنة لما قدم إلى تونس سنة 1875 في عهد وزارة خير الدين باشا . كتب المواهب الفتحية في علوم العربية وله باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام . انظر : Louca A., voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIXe siècle, p. 198.

أيُّهَا السَّادَةُ . مَعْدَنُ الإفَادَةِ . إخْوَانُ البَرَاعَةِ . وَأخْدَانُ هَاتِه الصِّنَاعَةِ . بَيْنَا أنَا أجُولُ بِهَذِهِ الحَاضِرَةِ . وَأرَوِّحُ الرُّوحَ فِي أرْجَائِهَا النَّاضِرَةِ . إذْ نَادَتْنِي الأشْوَاقُ . لِوُلُوجِ بَعْضِ الأسْوَاقِ . فَلَمْ أفْتَأْ أغُورُ وَأُنْجِدُ . وَأنْحَدِرُ فِيهَا وَأصْعَدُ . حَتَّى اضْطَرَّنِي الصَّوْبُ لِلصَّوْبِ (1) . وَوَدَقَ الأوْبُ لِلأوْبِ (2) . ، وَكَانَتْ قَدْ نَصِبَتْ خُطَايَ . وَنُقِبَتْ مِنَ العَدْوِ خُفَّايَ . وَالجَوُّ مُغْرَوْرِقَةٌ عَيْنَاهُ . بِمَا وَكَفَتْهُ (2 مكرر) سَمَاهُ . فَيَمَّمْتُ نَحْوَ المَسَاجِدِ . وَأوَيْتُ إلَى بَعْضِ المَعَابِدِ . وَلَمَّا قَضَيْتُ الفَرْضَ . وَتَوَسَّدْتُ فِيهِ أدِيمَ الأرْضِ . رَيْثَمَا أنْتَشِقُ الرَّاحَةَ . فِي رَحِيبِ تِلْكَ السَّاحَةِ . لَمْ يَرُعْنِي إلاَّ ضَجِيجُ المَسْجِدِ بِأهْلِهِ . وَصَخَبٌ بَدَّدَ مِنْ كَرَى الأجْفَانِ مُعْظَمَ شَمْلِهِ . فَأشْخَصْتُ البَصَرَ . وَأمْعَنْتُ فِي المَسْجِدِ النَّظَرَ . وَإذَا بِعُصْبَةٍ أمَامَ المِحْرَابِ . مِنْ ذَوِي النُّهَى وَالآدَابِ . بَيْنَ يَدَيْهِمْ بُرْدٌ بَهِيَّةٌ . يَتَقَاسَمُونَهَا بَيْنَهُمْ سَوِيَّةً . وَقَدْ دَهَمَهُمْ شَيْخٌ حَسَنُ الشَّارَةِ . تَلُوحُ عَلَيْهِ مِنْ حُلَى الفَضْلِ أمَارَةٌ . قَدْ تَنَكَّرَ مَا خَلاَ عَيْنَيْهِ . وَعَدَا كِلْتَا يَدَيْهِ . وَأسْكَرَتْهُ حَمِيًّا الغَضَبِ فَعَرْبَدَ (3) . حَتَّى قَذَفَ مِنْ فِيهِ الزَّبَدَ . وَنَشَرَ الشَّرَرَ . مِنْ آمَاقِ البَصَرِ . يُبْرِقُ وَيُرْعِدُ . وَيَقْرُبُ وَيَبْعُدُ . وَيَصِيحُ فَتَرْتَجُّ الجُدُرُ . وَتَمِيسُ مِنْ وَجْفَةِ (4) صَوْتِهِ العُرُوشُ وَالسُّرُرُ . وَالقَوْمُ تَشْخَصُهُ بِالبَصَرِ . حَائِرِي اللُّبِّ وَالفِكَرِ . فَيَمَّمْتُ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ . لاسْتِكْشَافِ

---

(1) الصوب : الجهة . يقال فلان مستقيم الصوب : إذا لم يزغ عن قصده يمينا وشمالا .

(2) ودق يدق ودقا : المطر : قطر . ودق إليه : دنا منه .

(2) مكرر : وكف يكف وكفا الدمع : سال قليلا أوب يأوب أوبا : غضب . الاوب : الرجوع . الاوب : القصد والعادة والطريق .

(3) الحميا : شدة الغضب وأوله .

(4) وجف يجف وجفا : الشيء : اضطرب .

أمْـرِهِ وَكُنْهِـهِ / فَلَـمْ يَلْبَـثْ أن كَشَـفَ الْقِنَاعَ . وَاسْتَنْصَتَ [232]
لِحَدِيثِهِ الأَسْمَاعَ . وَأخَذَ يَسْرُدُ عَلَـيَّ قِصَّتَهُ . وَيَسْتَشْفِـي
بِسَمَاعِـي غُصَّتَهُ . وَصَالَ وَجَالَ . وَاسْتَفْتَحَ وَقَالَ :

« إعْلَمْ أيْ بُنَـيَّ . الْعَزِيزَ عَلَـيَّ . أنَّ أولَئِكَ الْقَوْمَ . الحَرِيِّينَ بِاللَّوْمِ . قَدْ أُثِيبُوا بِجَائِزَةٍ . لأنْوَاعِ الْفَضْلِ حَائِزَةٍ . مِـنْ بَعْضِ أحْبَابِـهِمْ . مُكَافَأةً عَلَى آدَابِـهِمْ . الَّتِـي سَارَتْ بِحَدِيثِـهَا الرُّكْبَانُ . وَاعْتَرَفَ بِـهَا كُلُّ لِسَانٍ . وَجَرَتْ مَجْرَى الأمْثَالِ . وَفَاقَتْ سَلاَسَةَ السَّلْسَالِ . فَلَمَّا أنْ أقَرُّوا بِهَذِهِ الجَوَائِزِ أعْيُنَهُمْ . وَاقْتَسَمُوا نِضَارَهَا فِـيمَا بَيْنَـهُمْ . انْقَضَضْتُ عَلَيْهِـمْ انْقِضَاضَ الشِّهَابِ . فِـي نَفْسِ ذَلِكَ الرِّحَابِ . وَكُنْتُ إذْذَاكَ حَلِـيفَ إمْلاَقٍ . وَقَرِيحَ آمَاقٍ . وَرَفَّ أشْجَانٍ . حَدِيثَ عَهْدٍ بِنَوَائِـبِ أزْمَانٍ . فَجَعَلْتُ أكَفْكِفُ عَبْرَتِـي ، . حَتَّى رَثَوْا لِحَالَتِـي . وَنَاصَفُونِـي اللُّجَيْنَ وَالنُّضَارَ . وَذَلِكَ الدِّرْهَمَ وَالدِّينَـارَ . عَلَى شَرِيطَةِ أنْ لاَ أزَاحِمَهُمْ فِـي خِطَّتِـهِمْ . وَلاَ أنْتَحِلَ لِنَفْسِـي عِنْوَانَ حِرْفَتِـهِمْ . فَلَمْ يَنْقِمُوا مِنِّـي نُكْرًا . وَلاَ عَصَيْتُ لَهُمْ أمْرًا . بَلْ أنْجَزْتُ الْوُعُودَ . وَأوْفَيْتُ بِتِلْكَ الْعُهُودِ . وَآلَيْتُ لاَ أنْفَكُّ بِـهَا وَفِيًّا . وَعَلَى نَكْثِـهَا عَرِيًّا .

فَلَمْ أزَلْ عَلَى هَاتِهِ الْحَالِ . سَالِكًا ذَلِكَ الْمِنْوَالَ . حَتَّى فَاجَأتُهُمْ الآنَ يَقْتَسِمُونَ أنْوَاعَ الْبِدَرِ . وَيَتَحَلَّوْنَ مِـنْ مَنْضُودِ لآلِئِـهَا بِالدُّرَرِ . فَلَمْ يُنْعِمُوا لِـي هَاتِهِ الْكَرَّةَ . بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ . وَلاَ بِـبَدْرَةٍ أوْ دُرَّةٍ . مَعَ أنَّ الْعَادَةَ كَمَا لاَ يَخْفَى تَثْبُتُ بِمَرَّةٍ . عَلَى أنِّـي لَـمْ أزَلْ حَلِـيفَ إخَـائِـهِمْ . حَفِـيظًـا عَلَـى وِدِّهِـمْ وَوَفَائِـهِـمْ » .

فَلَمَّا أتَمَّ قِصَّتَهُ . وَسَوَّغَ بِإكْمَالِـهَا غُصَّتَهُ . نَادَيْتُهُ : وَيْحَكَ أيُّهَـا الْمِكْثَـارُ . الْمُسْتَهْدَفُ لأسْهُمِ الْعَارِ . لَقَدْ

تَيَمَّنْتَ بِغُرَابٍ . وَيَمَّمْتَ لِظَمَئِكَ السَّرَابَ . أَجَلْ وَاسْتَسْمَنْتَ ذَا وَرَمٍ . وَنَفَخْتَ فِي غَيْرِ ضَرَمٍ . فَاقصر عَنْ طِلاَبِ الْمُحَالِ . وَاكْبَحْ أَزِمَّةَ الآمَالِ / . وَمَا بَالُكَ نُثْبِتُ عَادَتَهُمْ بِمَرَّةٍ فِي [233]
الإِحْسَانِ . وَلاَ نُثْبِتُهَا بِهَا فِي الْحِرْمَانِ . وَأَنْتَ خَبِيرٌ بِأَنَّ تِلْكَ الْمَرَّةَ الَّتِي قَاسَمُوكَهَا لَيْسَتْ أَوَّلَ مَا مَنَحُوا . وَلاَ بِدَاءَةَ مَا رَبِحُوا . بَلْ طَالَمَا أُثِيبُوا وَحَرَمُوكَ . وَاسْتَأْثَرُوا دُونَكَ بِتِلْكَ الْجَوَائِزِ وَمَا ظَلَمُوكَ . فَلَمْ أُكْمِلْ قَصْدِي. حَتَّى قَصَدَ قَصْدِي . وَنَظَرَ إِلَيَّ شَزَرًا . وَقَالَ :

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نكرًا . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اسْتِبْدَادَهُمْ . بِالآدابِ بَيْنَ ظَهْرَانِيَّ وَاسْتِئْثَارَهُمْ . بِجَزِيلِ حِبَاكِهَا عَلَى مَا تَعْتَرِفُ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ . وَتُكِنُّهُ ضَمَائِرُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ . مِنْ كَوْنِي ابْنَ بَجْدَتِهَا (1) . وَأَبَا عُذْرَتِهَا (2) . مِمَّا تَأْبَاهُ الْعُقُولُ . وَيُنْكِرُهُ صَرِيحُ النُّقُولِ . فَهُنَالِكَ هَانَ عَلَى الْحَاضِرِينَ أَمْرُهُ . وَهَوَى إِلَى الْحَضِيضِ قَدْرُهُ . ، وَاتَّخَذُوهُ بَيْنَهُمْ سُخْرِيًّا . وَقَالُوا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا . وَأَيْقَنُوا أَنَّ عَقْلَهُ مَعْقُولٌ . حَيْثُ ادَّعَى مَا لاَ يَسَعُهُ إِلَيْهِ الْوُصُولُ . وَأَنَّهُ قَدْ خَرِفَ مِنَ الْكِبَرِ . وَتَصَارِيفِ الْعِبَرِ . وَالسُّقْمِ وَالضُّرِّ . لِبُلُوغِهِ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .

فَلَمَّا تَحَقَّقَ لَدَيْهِ ذَلِكَ الْمُرَادُ . وَشَعَرَ بِأَنَّ بِضَاعَتَهُ الأُولَى مُزْجَاةٌ لَمْ تُصَادِفْ سِوَى الْكَسَادِ . أَمَاطَ عَنْهُ نِقَابَ الْحَيَاءِ . وَطَفِقَ يَقْتَرِحُ الْمِرَاءَ . وَقَالَ :

أَمَا شَعَرْتُمْ بِأَنِّي الْجُزَيْلُ الْمُحَكَّكُ . وَالْعُذَيْقُ المرجبُ الَّذِي بِهِ يُهْتَدَى فِي حُنُوسِ الْفَضْلِ وَيُسْلَكُ . وَلأَمْرٍ

(1) يقال هو ابن بجدة الأمر بمعنى هو عالم به . وبجدة الأمر : باطنه وحقيقته .
(2) العذرة : الناصية .

مَا تَنَكَّرْتُ عَلَيْكُمْ . حَالَ الْوُصُولِ إِلَيْكُمْ . عَلَى أَنِّي لَنْ أُنْكِرَ يَدَكُمْ الطُّولَى . فِي الْجَائِزَةِ الأُولَى . فَأَمَّا إِذَا ضَنَنْتُمْ بِالْمُقَاسَمَةِ . وَأَبَيْتُمْ تِلْكَ الْمُسَاهَمَةَ . وَشَفَعْتُمْ ذَلِكَ بِالإِنْكَارِ عَلَيَّ . وَتَسْدِيدِ سَهْمِ السُّخْرِيَّةِ إِلَيَّ . فَأَنْشُدُكُمْ مِنَ فَلَقِ الْحَبِّ . وَذَرَا الأُمَّ وَالأَبِ . وَفَلَقِ الإِصْبَاحِ . وَالْكَوْكَبِ الْوَضَّاحِ . إِنْ لَمْ تَطْوُوا كَشْحَ هَذَا الأَمْرِ بِتَلاَفِيهِ . لِمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ مَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ . أَنْ تُوَجِّهُوا الأَفْكَارَ إِلَى مَجَالِ الاخْتِبَارِ . وَإِلاَّ فَاجَأْتُكُمْ بِمَا / [234] يَرُوعُ الأَلْبَابَ . وَلاَ يَكَادُ يُعْثَرُ لَهُ عَلَى بَابٍ .

هَذَا وَمَا أَجْدَرَكُمْ بِالْوِفَاقِ . وَتَدَارُكِ ذَلِكَ الشِّقَاقِ . بِبَذْلِ حُثَالَةٍ مِنَ الْمَالِ . وَعَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ أَشُدَّ لِلرِّحْلَةِ الرِّحَالَ . فَاكْفَهَرَّتِ الْوُجُوهُ غَضَبًا . وَقَالُوا مَا رَأَيْنَا كَالْيَوْمِ عَجَبًا . وَأَجْمَعَ بَعْضُهُمْ عَلَى مُنَاظَرَتِهِ . وَالبِدَاءَةِ بِمُحَاوَرَتِهِ . لَوْلاَ نَهَاهُمُ الزُّعَمَاءُ . عَنِ اقْتِحَامِ تِلْكَ الْبَيْدَاءِ . وَقَالُوا لَهُمْ هَبْ أَنَّهُمْ سَأَلُوكَ فَأَجَبْتَ . وَسَدَّدْتَ وَأَصَبْتَ . وَإِنَّكَ كَمَا تَزْعَمُ عَيْنُ الأَعْيَانِ . وَمِنْ أَوْجِ الْفَضْلِ بِمَكَانٍ . فَأْتِهِ مِنْ هَيْنَتِهَاتِكَ . وَأَبِنْ عَنْ تُرَّهَاتِكَ . وَابْلِهِمْ بِأَعَاجِيبِكَ . وَلَكَ إِذَنْ حَظُّ الْمُسَاهِمِ . فِي تِلْكَ الدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ . وَأَفْرَطُوا فِي التَّهَكُّمِ عَلَيْهِ . بِمَا اقْتَرَفَهُ بِيَدَيْهِ . إِذْ قَدْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ الْمُرَادَ مِنْ دُونِهِ خَرْطُ الْقَتَادِ . فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَدَحَ مِنْ فِكْرِهِ الزَّنْدَ . وَنَحَا نَحْوَ ذَلِكَ الْقَصْدِ . وَقَالَ :

مَا اسْمٌ مُضْمَرُ الْحُرُوفِ . مَنْكُورٌ وَهْوَ مَعْرُوفٌ . أَصْلِيُّ الْمَادَّةِ . لاَ يَخْلُو عَنْ زِيَادَةٍ . ثُلاَثِيٌّ رُبَاعِيٌّ . قِيَاسِيٌّ سَمَاعِيٌّ . إِنْ صُحِّحَ مِنْ يَدِهِ مَعَ التَّصْدِيرِ . فَقَلْبُهُ مُعَلاًّ لَقَبٌ شَهِيرٌ . وَعَكْسُهُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ . مَجْهُولٌ مُشَابِهٌ . وَمَاضٍ

مَعْلُومٌ إنْ أبْقَيْتَ أصْلَ إعْلاَلِهِ بِهِ . وَهُوَ فِي هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ .
خَبَرٌ بِلاَمَيْنِ . فَإنْ صُحِّفَ فِيهِمَا ثَانِيهِ بِلاَ زِيَادَةٍ . أنْبَأَ بِصَرِيحِ
الزِّيَادَةِ . وَاسْتَحَالَ ثَانِيهِمَا بِلاَ مِرَاءٍ . إلَى حَقِيقَةِ الإنْشَاءِ .
مُصَدَّرًا فِي تِلْكَ الْعِبَارَةِ . بِمَا هُوَ حَرِيٌّ بِالصَّدَارَةِ . ثُمَّ إنَّ
ذَلِكَ الْقَلْبَ الْمُفْضِي كَمَا ذُكِرَ إلَى اللَّقَبِ . يَدُلُّ عَلَى النَّسَبِ .
بِذَلِكَ السَّبَبِ . وَعَلَى الإضَافَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ . لأعْرَفِ الْمَعَارِفِ
الْجَلِيَّةِ . وَجَلِيٌّ أنَّ كِلاَ ذَيْنِكَ الْمَدْلُولَيْنِ مِنْ أفْصَحِ
الْوَسْمِ . الَّذِي يُعْلَمُ بِهِ الاسْمُ . فَمَا بَالُهُ مَاضِيًا وَهُوَ نَاقِصٌ .
[235] مَعَ هَاتِهِ الْخَصَائِصِ . وَهُوَ إنْ حَذَفْتَهُ لَمْ يُشَبْ بِنُقْصَانٍ . /
وَلَيْسَ مِنَ الأحْرُفِ الشَّبِيهَةِ بِالْفِعْلِ وَلاَ مِنْ بَابَيْ ظَنَّ وَكَانَ .
فَإنْ صُدِّرَ ثَانِيهِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ . فَهُوَ صِيغَةُ أفْعَلَ بِلاَ
مَحَالَةٍ . فَإنْ كُسِرَ فِيهِمَا مَا قَبْلَ آخِرِهِ . كَانَ مُضَارِعَ الْفُهُومِ .
الْمَعْرُوفِ الْمَعْلُومِ . أوْ فُتِحَ مَعَ ثَانِيهِ اسْتَحَالَ إلَى صِيغَةِ
الْمُضِيِّ . مُصَدَّرًا بِاسْتِفْهَامٍ جَلِيٍّ . فَإنْ ضُمَّ مَعَ ذَلِكَ أوَّلُ
أصُولِهِ . تَوَجَّهُ الْمُشَابِهُ الْمَجْهُولُ بِإكْلِيلِهِ . فَإذَا ثَنَيْتَ
مِنْهُ عِنَانَ الْمَقَالِ . وَنَظَرْتَ فِيهِ إلَى أصْلِ الْحَالِ . وَصَحَّحْتَ
عَيْنَهُ مِنَ الإعْلاَلِ . افْتَتَحَ ذَلِكَ الْمَآلُ . مِنْ تَحْرِيكِهَا
بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ صِيغَتَيِ الْمَاضِي وَالأمْرِ مِنْ مَعْنَى مُقَدِّمَاتِ
الْوِصَالِ . لِرَبَّاتِ الْحِجَالِ . وَتَزِيدُ أولَى الصِّيغَتَيْنِ بِإنْبَائِهَا
عَنْ مُتَعَاطِفَيْنِ . لَكِنْ بِنَسَقِ الْعَطْفِ وَكِلاَ الْمُتَعَاطِفَيْنِ .
حَرْفُ الأوَّلِ بِسِمَاهُ . وَالثَّانِي بِمُسَمَّاهُ . وَفِي كِلْتَا الصِّيغَتَيْنِ
إذَا تَقَهْقَرَ إلَى مَا قَبْلَ الْعَجُزِ صَدْرُهُ . أفْصَحَ عَنْ مَعْنَى نَهْلِ
الْعَذِيبِ مَاضِيهِ وَأمْرُهُ . مَا خَلاَ أنَّ مَاضِيَهُ إنْ شِئْتَهُ مُصَدَّرًا
بِأدَاةِ اسْتِفْهَامٍ حَرْفِيَّةٍ . ألْفَيْتَهُ كَذَلِكَ بِصِيغَتِهِ الْجَلِيَّةِ .
أوْ مَاضِيًا خَبَرِيًّا . شِمْتَهُ مِنَ الاسْتِفْهَامِ عَرِيًّا . صَرِيحًا فِي

تِلْكَ الإِفَادَةِ . بِلاَ نَقْصٍ مَعَ ذَلِكَ وَلاَ زِيَادَةٍ . كَمَا أَنَّ طَلَبَهُ لَيِّنُ الْعَرِيكَةِ . تَخَالُهُ سَبِيكَةً . بِحَيْثُ أَنَّكَ تَصُوغُ مِنْ أَمْرِهِ . إِنْ نَظَرْتَ إِلَى عَجزُهِ وَصَدْرِهِ . مَا يُفْصِحُ لَكَ عَنْ عَاطِفٍ وَمَعْطُوفٍ . بِبِنَاءٍ فَصِيحٍ مَأْلُوفٍ . لَكِنَّ عَجزُهُ الْمَرْسُومَ . صَرِيحٌ آوِنَةً فِي مَاضِيَيْنِ مَجهُولٍ وَمَعْلُومٍ . كِلاَهُمَا جَلِيُّ الْبَيَانِ . ، فِي مَعْنَى الْحِرْمَانِ . وَآوِنَةً فِي مَصْدَرِ ذلك المبنى . صَرِيحاً فِي هَذَا الْمَعْنَى . لَكِنَّمَا الْعَجَبُ الْعُجَابُ . الَّذِي تَحَارُ مِنْهُ الأَلْبَابُ . أَنَّكَ إِنْ صَحَّفْتَ صَدْرَ عَجزِهِ الْمَذْكُورِ . شِمْتَهُ جَلِيَّ الظُّهُورِ . فِي الاسْتِحَالَةِ إِلَى الإِعْطَاءِ وَالزِّيَادَةِ . بِصَرِيحِ الإِفَادَةِ . / ثُمَّ إِنْ عَمَدْتَ إِلَى ثَانِي حُرُوفِهِ فَفَتَحْتَهُ . [236]
رَأَيْتَهُ اسْتِفْهَاماً عَنْ أَضْوَعِ زَهْرٍ تَوَدُّ لَوْ نَشَقْتَهُ . فَإِنْ كَسَرْتَهُ تَمَحَّضَ ذَلِكَ الاسْتِفْهَامُ . عَنْ مَنْهَلٍ عَذْبٍ كَثِيرِ الزِّحَامِ . فَإِنْ لَفَظْتَ أَوَّلَهُ . وَأَقَمْتَ آخِرَهُ . بَدَلَهُ أَبْصَرْتَهُ حدث وَاوِيَّ أَجْوَفُ . يَتَحَاشَى عَنْهُ فِي وَسْمِ الْمُعَرَّفِ . وَجَمْعاً تَأوى لِمَدْلُولِهِ الأَنَامُ . عَلَى مَدَى اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ . فَإِنْ لَفَظْتَ بَعْدَ أَوَّلِهِ الْوَسَطَ . وَتَحَرَّيْتَ سُلُوكَ الْغَلَطِ . شِمْتَهُ أَمْرا مِن الأَجْوَفِ الْمَرْقُومِ . وَجَوْهَراً يَزْهُو بِجِيدِ الْغِيدِ لُؤْلُؤُهُ الْمَنْظُومُ . عَكْسُهُ أَمْرٌ مِنْ وَاوِيٍّ مِثَالٍ . مُفْصِحٍ عَنْ رَشْفِ عَذِيبِ الزُّلاَلِ . بَلْ أَمْراً مِنْ أَجْوَفَ يَائِي . إِذَا عَجَمْتَ صَدْرَ ذَلِكَ الثُّنَائِي . وَطَرْدُهُ مَعَ تَصْحِيحِ صَدْرِهِ . جَلَى فِي فِعْلٍ لاَ مَاضِيَ لأَمْرِهِ . وَصَرِيحٌ مَعَ ذَلِكَ فِي اسْمِ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ مَشْهُورٍ . مَضْرُوبٌ بِهِ الْمَثَلُ بَيْنَ الْجَمْهُورِ . فَإِنْ أَعَدْتَ إِلَيْهِ مَا لَفَظْتَهُ . وَرَدَدْتَ جَمِيعَ مَا حَذَفْتَهُ . وَصَدَّرْتَ ثَانِي حُرُوفِهِ . اجْتَنَيْتَ عَلَى الْفَوْرِ مِنْ قُطُوفِهِ . مَاضِياً مِنْ مُفَاعَلَةِ الْمِثَالِ الْمَزِيدِ . وَاسْمَ فَاعِلٍ مِنْهُ لَكِنْ فِي حَالَةِ التَّجْرِيدِ . وَأَمْراً مِنْ تِلْكَ

الْمُفَاعَلَةِ الْمَذْكُورَةِ . بَعْدَ زِيَادَتِهَا الْمَأْثُورَةِ . فَإِنْ قَدَّمْتَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ حَرْفَهُ الأَخِيرَ . وَآثَرْتَهُ دُونَ أَخَوَاتِهِ بِالتَّصْدِيرِ . اسْتَحَالَ إِلَى إِحْدَى صِيَغِ الْمُبَالَغَةِ مِنْ أَجْوَفَ . بِالإِحَاطَةِ وَالشُّمُولِ يُعْرَفُ . فَإِنْ أَعِلَّ ثَانِيهِ . بِالْقَلْبِ بَعْدَ إِيجَادِ مُقْتَضِيهِ . وَتَحَقَّقَ ذَلِكَ الإِعْلاَلُ فِيهِ . أَسْفَرَ لَكَ عَنْ جَمْعِ كَثْرَةٍ مُكَسَّرٍ . مُفْرَدُهُ أَجْوَفُ بِوَاوِيِّ الْعَيْنِ يُشْهَرُ . تَحِنُّ إِلَيْهِ قُلُوبُ الْعُشَّاقِ . وَتُوكِفُ فِي عَرَصَاتِهِ عَسْجَدَ الآمَاقِ . وَأَبَانَ مَعَ ذَلِكَ عَنْ مُفْرَدٍ يُضَاهِي صِيغَةَ الْمُبَالَغَةِ وَزَانَهُ . وَإِنْ عُرِّيَ عَنْهَا بِنَالَهُ وَعُنْوَانَهُ . فَتَوَغَّلَ / مَفْهُومُهُ [237] فِي الإِيهَامِ . بِحَيْثُ لاَ تَتَوَصَّلُ إِلَى تَشْخِيصِهِ الأَفْهَامُ . فَإِنْ ثَنَّيْتَ بِآخِرِهِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ . وَعَدَلْتَ مَعَ ذَلِكَ عَمَّا يُوجِبُ إِعْلاَلَهُ . أَلْفَيْتَ مَاضِيَيْنِ . مِنَ الزِّيَادَةِ خَالِيَيْنِ . أَحَدُهُمَا يَائِيٌّ نَاقِصٌ . وَكِلاَهُمَا مُسْنَدٌ لِجَمَاعَةِ الذُّكُورِ زِيَادَةً عَلَى تِلْكَ الْخَصَائِصِ . وَالأَوَّلُ مُفْصِحٌ عَنْ تَعَقُّلِ الْعُلُومِ . وَنِسْبَةِ مَعْنَى الإِدْرَاكِ لِلْفُهُومِ . وَثَانِي ذَيْنِكَ الْفِعْلَيْنِ مُضَعَّفُ اللاَّمِ وَالْعَيْنِ . يَنْبَنِي بِسَخَاءِ الْبَنَانِ . بِوَابِلِ الإِحْسَانِ . مَعَ ارْتِكَابِ تَجَوُّزٍ فِي أَصْلِ الْمَبْنَى . الْمُؤَدِّي بِهِ ذَلِكَ الْمَعْنَى . فَإِنْ أُعْجِمَ أَوَّلُهُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ اسْتَحَالَ إِلَى فِعْلَيْنِ . وَبِنَائَيْنِ آخَرَيْنِ . مُسْنَدَيْنِ ذَلِكَ الإِسْنَادَ . لَكِنْ بِغَيْرِ هَذَا الْمَعْنَى الْمُرَادِ . بَلْ أَوَّلُهُمَا صَرِيحٌ فِي أَمْرِ جَمَاعَتِهِ . بِتَرْكِ مَا لاَ حَدَثَ لَهُ مِنْ صِيغَتِهِ . وَالثَّانِي مَاضٍ مَوْصُوفٌ بِإِعْلاَلَيْنِ . عِلَّةِ اللاَّمِ وَتَضْعِيفِ الْعَيْنِ . صُرَاحٌ فِي الْخَبَرِ وَالإِنْشَاءِ . بِلاَ تَغْيِيرٍ فِي دَعَائِمِ الْبِنَاءِ . ثُمَّ إِنَّهُ الْخِرِّيتُ (1) الْمَاهِرُ . وَالْمِنْطِيقُ الْبَلِيغُ السَّاحِرُ . وَجُرْثُومَةُ

(1) الخريت : الدليل الحاذق الذي يهتدي إلى أخرات المفاوز وهي مضايقها وطرقها الخفية .

الْخِصْبِ . فِي الْمَحْلِ وَالْجَدْبِ . وَأَنِيسُ الْجَلِيسِ . وَنَدِيمُ الْمَرْؤُوسِ وَالرَّئِيسِ . وَعَابِرُ الْبِلاَدِ . وَمُرْشِدُ الْعِبَادِ . وَكَرِيمُ الأَصْلِ . وَعَذِيبُ الْمَرْشَفِ وَالنَّهْلِ . دَانِي الْقُطُوفِ . جَوَادٌ لاَ قَطُوفٌ . آوِنَةً رَاوِيَةٌ جُهَيْنَةٌ (1) . وَطَوْرًا كُثَيِّرُ عَزَّةَ (2) . وَجَمِيلُ بُثَيْنَةَ (3) . وَأُخْرَى بِالْفِضَّةِ قَمِينٌ . وَالْحَسَنُ أَوِ ابْنُ سِيرِينَ (4) . ، وَقَدْ يَتَحَمَّسُ فَيُتَخَيَّلُ مِنْهُ قِيلٌ أَصِيرٌ (كذا) تَضْطَرِبُ مِنْ بَأْسِهِ فَرَائِصُ الْهِزَبْرِ . وَتُرْعِدُ فَيَنْتَهِي وَيَأْمُرُ . وَيُذَكِّرُ وَيَذْكُرُ . ، ثُمَّ لاَ يَلْبَثُ أَنْ يَقُصَّ الْقَصَصَ الْحَقَّ . وَيَنْشُقَ مِنْ نَفَحَاتِهِ أَذْكَى الْعَبَقِ . وَإِنْ شِئْتَ فَهُوَ الْمُوَازِي لِلْقُطْبِ . الْمُخْتَرِقُ لأَكْثَفِ الْحُجُبِ . الْمُدَارَةِ عَلَى رَحَا الثَّقَلَيْنِ . بِحَيْثُ / لاَ يَبْرَحُهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ . فَهَلُمَّ الْجَوَابَ . ، [238]
أَيُّهَا الأَحْبَابُ . وَاهْدُوا لِلصَّوَابِ . وَأَمِيطُوا عَنْهُ النِّقَابَ .

فَمَا اسْتَتَمَّ كَلاَمَهُ . وَلاَ خَتَمَ إِعْجَامَهُ . حَتَّى قَطَّبَتِ الْغُرَرُ . وَقَطَرَتْ بِذَوْبِ الرُّحَضَاءِ (5) الطُّرَرِ . بَلْ تَصَبَّبَ الْقَوْمُ عَرَقًا . وَمَلأَهُمُ الْعِيُّ فَرَقًا . وَكَانَ أَحَدُهُمْ يُشَارُ إِلَيْهِ فِي نَحْوِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْبَنَانِ . ويقصر عَنْ حِدَّةِ لِسَانِهِ فِي فُصُولِ

---

(1) جهينة : قبيلة عربية ، بطن من قضاعة . والمقصود هنا الإشارة إلى المثل الآتي : وعند جهينة الخبر اليقين . وهو مثل يضرب في معرفة حقيقة الأمر .

(2) كثير عزة : شاعر أقام في المدينة . غالى في تشيعه وقال بالرجعة والتناسخ وبإمامة المهدي محمد ابن الحنفية . تغزل بعزة فسمي بها . توفي سنة 723 م .

(3) جميل بثينة : شاعر من بني عذرة . تغنى بمعشوقته بثينة حتى عرف بجميل بثينة : في شعره صدق العاطفة و بساطة التعبير ما حببه إلى المغنين . توفي في مصر (نحو 701م.) .

(4) ابن سيرين : محمد بن سيرين (33هـ./653م. — 110هـ./729م.) إمام وقته في علوم الدين بالبصرة . مولده ووفاته بالبصرة . روى الحديث واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا . (أنظر : الزركلي : الأعلام : ج 7 — ص : 25) .

(5) الرحضاء : العرق في أثر الحمى عند إشرافها على الفترة . عرق يغسل الجلد لكثرته والطرر من الطرة وهي الطريقة من السحاب .

الإعْرَابِ السنان . لَوْ رَأى الزَّجَّاجَ (1) لَصَدَعَ زُجَاجَتَهُ . أوْ عَايَنَ ابْنَ . خَرُوف (2) لَجَعَلَهُ أضْحِيَّتَهُ . أوْ لَقِيَ ابْنَ جِنِّيٍّ (3) آنَسَهُ . بِطَرَائِفِ الْمُفَاكَهَةِ وَالْمُمَارَسَةِ . وَآخَرُ على التَّصْرِيفِ عَاكِفٌ . لاَ يَلْوِي عِنَانَهُ عَنْ جَادَّتِهِ صَارِفٌ . يَقْتَنِصُ مِنَ الْكَلِمِ الآحَادَ وَالْحُرُوفَ . فَيُسْمِعُ لَهَا مِنْ قَوْسِ إشْرَاكِهِ عِدَادُ الْمِئِينَ وَالأُلُوفِ . وَاثْنَانِ آخَرَانِ . أدِيبَانِ بَارِعَانِ . كِلاَهُمَا بَلِيغِيٌّ مِيزَانِيٌّ . وَهَاتِهِ الأصُولَ يُعَانِي . وَفَقِيهٌ قَامَ عَلَى فَضْلِهِ الْبُرْهَانُ . وَرَجَحَتْ أقْيِسَتُهُ فِي ذَلِكَ الْمِيزَانِ . وَفَرَضِيٌّ بِسَاحَةِ الْمَوَارِيثِ مُعَرِّسٌ . وَعَرُوضِيٌّ يَقْرِضُ الشِّعْرَ وَمُهَنْدِسٌ .

فَقَالَ النَّحْوِيُّ : أمَّا أنَا فَقَدْ نَشِطْتُ مِنْ عِقَالٍ . إذْ لَمْ أكُنْ مَعْنِيًّا بِهَذَا السُّؤَالِ . وَمَا ذَلِكَ إلاَّ لأنَّ صَرْفَهُ أكْثَرُ مِنْ نَحْوِهِ الَّذِي هُوَ فَنِّي . فَقَدْ بَرِئْتُ إذَنْ مِنْ عُهْدَةِ جَوَابِهِ وَمَا أجْدَرَنِي بِصَرْفِهِ عَنِّي . وَحَذَا حَذْوَهُ الثَّلاَثَةُ بَعْدَهُ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ . وَقَالُوا لَيْسَ هَذَا السُّؤَالُ قَاصِرًا عَلَى فَنِّ أحَدِنَا المَعْزُوِّ إلَيْهِ . وَأمَّا الْفَقِيهُ وَمَنْ عَطَفَ عَلَيْهِ . فَقَدْ أفْلَتُوا بِالْبَذْلِ مِنْ يَدَيْهِ . حَيْثُ رَجَّحُوا مُقَاسَمَتَهُ . وَأبَوْا جِدَالَهُ وَمُنَاظَرَتَهُ .

---

(1) الزجاج : إبراهيم بن السري بن سهل : ولد سنة 241هـ./855م. في بغداد وبها مات سنة 311هـ./923م. هو عالم بالنحو واللغة . كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو فعلمه المبرد . وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره . من كتبه : معاني القرآن — خ. والاشتقاق وخلق الانسان — خ. (أنظر : الزركلي : الأعلام ، ج 1 — ص : 33) .

(2) ابن خروف : علي بن محمد بن علي بن محمد الحضرمي : ولد سنة 524هـ./1130م. وتوفي سنة 609هـ./1212م. عالم بالعربية : أندلسي من أهل إشبيلية وبها توفي له كتب منها : شرح كتاب سيبويه . وكتاب شرح الجمل للزجاجي (انظر : الزركلي : الأعلام : ج 5 — ص : 151) .

(3) ابن جني : هو عثمان بن جني الموصلي ولد بالموصل وتوفي ببغداد عن نحو 65 عاما حوالي سنة 392هـ./1002م. (أنظر : عبد القادر المهيري : النظريات النحوية عند ابن جني . Abdelkader Mehiri, *Les théories grammaticales d'Ibn Jinni*, publications de l'Université de Tunis, 1973).

انظر أيضا : الزركلي : الأعلام : ج 4 — ص : 364 .

وَتَقَدُوهُ عَلَى الْفَوْرِ شَطْرَ أَنْصِبَائِهِمْ . وَنَاصَفُوهُ فِي جَمِيعِ حِبَائِهِم . وَبَرَؤُوا مِنَ الْقُوَّةِ وَالْحَوْلِ . وَآثَرُوا الصَّمْتَ عَلَى لَغْطِ الْقَوْلِ . فَمَنَحَهُمْ صَالِحَ دَعَوَاتِهِ . / وَخَدَعَهُمْ بِسِحْرِ نَفَثَاتِهِ . [239]
وَقَالَ لِلْبَاقِينَ : قَبِيحٌ مَا ذَكَرْتُمْ . وَمَا عَلَيْهِ عَوَّلْتُمْ . وَكَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ أَسْتَهْدِفَ كُلاًّ عَلَى حِدَتِهِ . لِيُنْفِقُ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ . فَمَا فَاهَ بِهَاتِهِ الْكَلِمِ . حَتَّى قالوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ . ثُمَّ لاَ عَلَيْكَ أَنْ تُرْجِئَنَا لِلْغَدِ . فَقَدْ بَلَغَ بِنَا طولُ الْمَقَامِ الْجَهْدَ .

فَقَالَ : أَجَلْ ، لَكِنْ عَلَى شَرِيطَةِ أَخْذِ الْبِدَرِ . رَهِينَةَ يَدِي إِلَى الأَمَدِ الْمُنْتَظَرِ . وَإِلاَّ فَلَنْ يَبْرَحَ أَحَدُكُمُ الأَرْضَ . حَتَّى يُؤَدِّيَ النَّفْلَ وَالْفَرْضَ . فَلَحَظَتْهُ الْقَوْمُ شَزَرًا . وَتَغَامَزُوا فِيمَا هُوَ بِهِمْ أَحْرَى . ثُمَّ قَالَ زَعِيمُهُمْ : مَا يُضِيرُكُمْ لَوْ سَدَدْتُمْ فَاهُ . كَيْمَا يُقْلِعَ عَنْ ذَلِكَ الْجِدَالِ وَيَتَلاَفَاهُ . هنالك تَمَحَّلُوا (1) بِنَزْرٍ مِنْ مَالٍ . عَلَى أَنْ يَكُفَّ عَنِ الْقِيلِ وَالقَالِ . فَأَعْظَمَ لَهُمُ الأَلِيَّةَ . أَنْ لاَ يَقْبَلَ هَاتِهِ الْعَطِيَّةَ . وَلا يَنَالَ مِنْهَا سَبَدًا وَلاَ لَبَدًا (2) . وَلاَ يُعَافِيَ مِنَ الْمُنَاصَفَةِ وَالْمُنَاظَرَةِ أَحَدًا . فَاسْتَفَزَّهُمُ الْغَضَبُ . وَقَالُوا : لَقَدْ أَسَأْتَ الأَدَبَ . أما لاَ فَهَاتِ مَا لَدَيْكَ . فَلاَ نَخَالُكَ إِلاَّ بَاحِثًا شُؤْمَكَ بِيَدَيْكَ . وَلْتَعْلَمْ يَا حَلِيفَ الْمَيْنِ . أَنَّنَا لا نُرْجِئُكَ وَلا طَرْفَةَ عَيْنٍ .

فَانْسَابَ انْسِيَابَ الأَفْعُوَانِ . وَاسْتَلَّ مُرْهَفَ ذَلِكَ اللِّسَانِ . وَبَرَزَ بُرُوزَ الْكُمِيِّ . وَقَالَ لِذَلِكَ النَّحْوِيِّ . : (من بحر الطويل)

(1) تمحل الشيء وله : احتال في طلبه .
(2) السبد : القليل من الشعر . يقال : ما له سبد ولا لبد : أي لا شعر ولا صوف ، يقال لمن لا شيء له .

1 — أَبِنْ لِي رَعَاكَ اللهُ آيَةَ لَفْظَةٍ
بِهَا ظَلَّتِ الأَفْهَامُ فِي غَاسِقِ الجَهْلِ

2 — وَمَا ذَاكَ إِلاَّ أَنَّهَا لَفْظَةٌ مُعْرَبٌ
صَحِيحُ حُرُوفٍ وَهْوَ مِنْ مُظْهَرِ القَوْلِ

3 — وَقَدْ جَاءَ فِي قَوْلِ الأَوَائِلِ فَاعِلاً
كَمَا اشْتَرَطُوا مِنْ قَبْلِهِ سَابِقَ الفِعْلِ

4 — وَتَعْلَمُ أَنَّ الفَاعِلَ المُعْرَبَ الَّذِي
غَدَا عَارِيًا مِن عِلَّةِ الأَحْرُفِ الكُلِّ

5 — لَهُ الرَّفْعُ فِي حُكْمِ النُّحَاةِ مُحَتَّمٌ
وَلاَ مَانِعَ فِيهِ وَلاَ شُبْهَةَ الحَمْلِ

6 — فَمَا بَالُهُمْ جَرُّوهُ بِالخَفْضِ ظَاهِرًا
[24] وَمِن بعد ذَا قد سَكَّنوا الحَرْفَ بالنَّقْلِ /

7 — وَلَمْ يَكْتَفُوا حَتَّى أَعَارُوا انْجِرَارَهُ
لِمَا قَبْلَهُ كَيْ يُحْرِزُوا قِسْمَةَ العَدْلِ

ثُمَّ رَمَقَ بِالطَّرْفِ. إِلَى عَالِمِ الصَّرْفِ. وَقَالَ: (من بحر الخفيف)

1 — كم تُعَانِي التَّصْرِيفَ يا هَاجِرَ الغَمْـــ
ـــضِ وَتَرْعَى السُّهى (1) لفَرْطِ السُّهادِ

2 — إِنْ يَكُنْ لي مَدْعَاكَ فِي ذَاكَ حَقًّا
أَوْ مُنِحْتَ الحِجَا وَنَهْجَ السَّدَادِ

3 — أَلْقِ مِنْكَ العِنَانَ صَوْبَ مَقَالِي
وَتَجَرَّدْ عَنِ المِرَا وَالعِنَادِ

(1) السهى: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى. ومنه المثل: «أريها السهى وتريني القمر». يضرب للذي يسأل عن شيء فيجيب جوابا بعيدا.

4 ـ مَـا تَـرَى فِـي أَفْعَـالِ مَاضٍ لَفِـيفٍ
ذِي افْتِرَاقٍ وَاوِيٍّ فَـا بِالطِّـرَادِ (كذا)

5 ـ قَـدْ تَوَالَـى عَلَيْـهِ حَذْفٌ إِلَـى أَنْ
آذَنَتْنَـا حُـرُوفُـهُ بِالنَّفَـادِ

6 ـ ثُـمَّ قَامَـتْ مَقَـامَهَـا حَرَكَـاتٌ
قَـدْ أَبَانَـتْ عَنْهَـا جَلِـيَّ الْمُـرَادِ

7 ـ لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ الهِدَايَةُ فِي تَصْـ
ـرِيفِـهَا بَعْـدَ ذَا لِسُبْلِ الرَّشَادِ

ثُمَّ اسْتَهْدَفَ بِمَا صَاغَهُ. رَبِـيَّ الْمِـيزَانِ وَالْبَلاَغَةِ. وَابْتَدَأَ قَائِلاً. وَلِكِلَيْهِمَا سَائِلاً. : (من بحر الرجز)

1 ـ مَا بَـالُ الْهُمَـامِ مَوْلاَنَا صَامِتًا
مُفَكِّـرًا فِـيمَـا عَـرَاهُ بَـاهِـتًـا

2 ـ لاَ شَمَّـتَ الرَّحْـمَانُ فِـيـهِ شَامِـتًـا
وَلاَ يَـزَالُ زِينَـةً لِلْعَصْـرِ

3 ـ وَبَعْـدَ هَـذَا فَاسْتَمِـعْ مَقَـالِـي
سَمَـاعَ مَـنْ فِـي الْحَقِّ لاَ يُبَالِـي

4 ـ إِذْ لَسْـتُ وَاللَّـهِ لَكُـمْ بِقَـالِ
وَلاَ مُرِيـبٍ إِنْ وَعَيْـتَ خَبَـرِي

5 ـ إِنِّـي امْـرُؤٌ أَقْفُـو سَوَاءَ الصِّـدْقِ
كَيْمَـا يَقُودَنِـي لِنَهْـجِ الْحَـقِّ

6 ـ وَأَنْتُـمْ لَكُـمْ جَزِيـلُ السَّبْـقِ
فِـي كُـلِّ مِضْمَـارٍ جَلِيلِ الْقَدْرِ

7 – فَمَا تَقُولُ أَيُّهَا الْهُمَامُ
فِيمَا لَهُ انْجَرَّ بِنَا الْكَلاَمْ
8 – وَصَدَحَتْ فِي أَيْكِهِ الأَقْلاَمُ
وَقَلَّدَ الطِّرْسُ نَظِيمَ الدُّرّ
9 – وَذَاكَ أَنَّ كَذِبَ الْقَضِيَّةِ
وَصِدْقَهَا يَا عَالِمَ الْبَرِيَّةِ
10 – كِلاَهُمَا مُوَجَّهٌ سَوِيَّةً
لِحَدَثٍ مُقَدَّمٍ فِي الذِّكْرِ / [241]
11 – أَيْ نِسْبَةُ الْمُسْنَدِ لِلْمُسْنَدِ لَهُ
قَالُوا وَهَذِي لِلْقَضَايَا شَامِلَهْ
12 – بِأَسْرِهِنَّ وَبِهِنَّ كَافِلَهْ
فِي الاخْتِيَارِ وَاضْطِرَارِ الشِّعْرِ
13 – إِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ الْمَقُولاَ
وَمِزْتَ فِي أَبْوَابِهِ الْمَنْقُولا
14 – وَالنَّصَّ وَالْفُرُوعَ وَالأُصُولَ
مِنْ شَاهِدٍ فِي النَّظْمِ وَفِي النَّثْرِ
15 – فَفِي صَحِيحِ الأَعْلَمِ الْبُخَارِي
مَنْ سِرُّهُ فِي ذِي الْبَرَايَا سَارِي
16 – خُلْفٌ لِهَذَا الأَصْلِ وَالْمِعْيَارِ
وَنَبْذُ مَا قَالُوهُ خَلْفَ الظَّهْرِ
17 – فِي قَوْلِ طَهَ خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ
الصَّادِقِ الْقَوْلِ بِلاَ اشْتِبَاهِ
18 – مَنْ جَلَّ فِي الْمِقْدَارِ عَنْ أَشْبَاهْ
بِمُحْكَمِ الآيِ وَنَصِّ الذِّكْرِ

19 - إِذْ وَجْهُ الْمَيْتِ بِهَذَا السَّنَد
لِنِسْبَةِ النُّعُوتِ لاَ لِلسَّنَدِ

20 - وَذَا الصَّحِيحُ حُجَّةٌ لِلْمُهْتَدِي
يُهْدَى بِهِ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ

21 - هَذَا وَلَيْسَ نَاطِقًا عَنِ الْهَوَى
كَسلاً وَلاَ ضَلَّ الْهُدَى وَلاَ غَوَى

22 - أَبِنْ رَعَاكَ اللَّهُ مَا لَهُ رَوَى
وَوَفِّقَنْ إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَدْرِي

فَلَمَّا أَنْ وَضَحَتْ حُجَّتُهُ . وَاسْتَنَارَتْ بِنِبْرَاسِهَا (1) مَحَجَّتُهُ . وَلاَحَ بُرْهَانُهُ الأَكْبَرُ . حَظِيَ مِنْ تِلْكَ الْبِرَرِ بِالْحَظِّ الأَوْفَرِ . لَكِنَّهُ لَمْ يُحَقِّقِ النَّجَازَ . حَتَّى عَبَرَ الْحِجَازَ . وَيَمَّمَ دَسْكَرَةَ (2) الْحَانَةِ . وَخَلَعَ رِبْقَةَ تِلْكَ الأَمَانَةِ . وَطَفِقَ يُنْشِدُ وَيَشْدُو . وَهْوَ يَخُبُّ وَيَعْدُو . (من بحر مجزوء الرمل)

1 - يَا أُهَيْلَ الْحَيِّ إِنِّي لاَ شُيِّبَ الفَوْدُ مِنِّي (3)
2 - فَاسْأَلُوا الأَقْوَامَ عَنِّي كَمْ بِأَنْوَاعِ التَّجَنِّي
قَدْ خَتَلْتُ النَّاسَ سِحْرًا
3 - شَأْوُ مِضْمَارِي بَعِيدٌ نَجْمُ إِشْرَاقِي سَعِيد
4 - ظِلُّ آرَائِي مَدِيدٌ غُصْنُ فِكْرِي لا يَمِيدُ/ [242]
إِنْ صَبَا الأُمْلُودَ قَسْرًا (4)

(1) النبراس : المصباح .
(2) الدسكرة : بيوت يكون فيها الشراب والملاهي .
(3) الفود : جانب الرأس مما يلي الأذنين إلى الامام . الشعر اللذي عليه . يقال : بدا الشيب بفوديه .
(4) الصبا : ريح مهبها جهة الشرق – والأملود : الناعم اللين من الغصون . وقسره يقسره قسرا على الأمر : قهره وأكرهه عليه .

5 — حَسْبُكُمْ مِنِّي وَحَسْبِي   مِنْ جَوَاكُمْ ما بِقَلْبِي
6 — طَالَمَا تَاقَتْ لِقُرْبِي   مُهْجَةٌ مِنْ فَرْطِ حُبِّ
عَمَّهَا لُقْيَايَ بِشْرَا
7 — إنَّ حَظِّي مِنْ نُضَارَى (1)   ذَاتِ قُرْطٍ وَسِوَارِ
8 — أَخْجَلَتْ شَمْسَ النَّهَارِ   رَشْفُهَا صِرْفُ الْعُقَارِ
نَظَمَتْ بِالدُّرِّ ثَغْرَا
9 — إنْ يكنْ مِلْءَ ذَنُوبِي(2)   بِالْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ
10 — فَلِعَلَّامِ الْغُيُوبِ   رَحْمَةٌ تَمْحُو عُيُوبِي
تَشْمَلُ الْعَاصِينَ طُرَّا

[إجابة الشيخ سالم بوحاجب]

وقد أجاب عن أحد تلك الألغاز شاعر البلاد وعالمها أيضا شيخنا سيّدي سالم بوحاجب بقوله : (من بحر الخفيف)

1 — أَيُّهَا الْبَارِعُ الْمُحَرِّرُ فِي الرَّا
ئِدِ لَغْزًا حَوَى فُنُونَ بَيَانِ
2 — حَلَّهُ حَلَّ مِنْ أَسَيْمَاءَ ذَا الْبَيْـ
ـتِ مَحَلَّ مُضِيئَةِ الأَكْوَانِ
3 — دُرَرًا خَفِيَتْ بِطِرْسٍ وَلَكِنْ
طَبْعُهُ مُلْجِي إلَى الإِعْلاَنِ
4 — فَلِذَا لاَحَ سِرُّهُ فِي أَسَارِيـ
ـرِ حُرُوفٍ تَبْدُو بِلاَ إِمْعَانِ

(1) النضار : الخالص من كل شيء . نضر ينضر الوجه نضارة : حسن و كان جميلا .
(2) الذنوب : القبر .

5 — مِثْلَ سِرِّ الْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيٌّ
فَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِالْعِنْوَانِ
6 — أَحْرُفٌ قَلْبُهَا لَهُ الْقَلْبُ يَصْبُو
شَغَفٌ أَصْلُهُ مِنْ إِسْكَانِ
7 — وَبِإِمْدَادِ ثَالِثٍ بِثَلاَثِيـ
ـنَ وَتَصْدِيرِهِ ارْتِفَاعُ الشَّانِ
8 — إِذْ يَفُوحُ بِهِ شَذاً اسْمٍ لِخَاقَـ
ـانَ بِهِ قَدْ تَبَاشَرَ الْخَافِقَانِ
9 — بِمَزَادِ حُصُولُ كُلِّ مُرَادِ
وَأَمَانٍ لِكُلِّ ذِي إِيمَانِ / [243]
10 — نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعِزَّ بِهِ سَلْـ
ـطَنَةً بَايَعَتْهُ عَنْ إِذْعَانِ

ثُمَّ كَتَبَ في إيضاح حلّ اللغز المذكور واستخراج بقيّة الألغاز بما نصّه : « وَقَفْتُ فِي الْعَدَدِ 21 الماضي من الرّائد على ما يقتضي استحسان محرره أعانه الله تعالى للأبيات التي أجبنا بها عن أحد ألغازه المدرجة بعدد 18 منه استحسانا ناشئا عن نظره إليها بعين الرضى ورغبته في ترويج بضائع الآداب بقدر الإمكان والاقتضاء ومن آثار ذلك تشوّقه إلى جواب الألغاز الثلاثة الباقية وما كان يحسن من العبد الاقتصار في الجواب على اللّغز الأول لكن عذرنا في ذلك مع ما أشار إليه أخونا المذكور من تشويش البال أنّ اللغز الأول لم أر من تنبّه إلى حلّه بخلاف اللّغزين بعده فإني رأيت كثيراً من التلامذة يستهلون حلهما مع أنّ المحاجاة فيهما قديمة مشهورة . فاللغز النحوي سبق إليه البدر الرماميني بقوله : (من بحر الطويل)

1 — يَا عُلَمَاءَ الْهِنْدِ إِنِّي سَائِلٌ
فَمُنُّوا بِتَحْرِيرٍ بِهِ يَظْهَرُ السِّرُّ

2 ـ أَرَى فَاعِلاً بِالْفِعْلِ أُعْرِبَ لَفْظُهُ
بِحَرْفٍ وَلاَ حَرْفَ يَكُونُ بِهِ الْجَرّ
3 ـ وَلَيْسَ بِمَحْكِيٍّ وَلاَ بِمُجَاوِرٍ
لِذِي الْجَرِّ وَالإِنْسَانُ لِلْبَحْثِ يَضْطَرُّ

وَقَدْ كُنْتُ في مبادىء انتصابي للتعليم طلب منّي الجواب عن هذا اللغز فنسجت على منوال السؤال أَبْيَاتًا لاأَذْكرُ الآنَ إلاَّ أَوَّلَهَا وَآخِرَهَا وَهُمَا : (من بحر الطويل)

1 ـ وَأُحْجِيَةٍ تَحْكِي السَّدِيفَ جِفَانُهَا
بِهَا الْمُلْغِزُ النِّحْرِيرُ نَادِينَا يَعْرُو (1)
2 ـ وَذَا الْقَدْرُ في ظَنِّي يُفِيدُكَ مَا عَنَى
وَإِنْ شِئْتَ تَصْرِيحًا بِهِ فَهْوَ صِنَّبْرُ

[244] وَالإِشَارَةُ إلَى قَوْلِ طَرَفَةَ (2) : (من بحر مجزوء الرمل) /

1 ـ بِجِفَانٍ يَعْتَرِي نَادِينَا
مِنْ سَدِيفٍ حِينَ هَاجَ الصِّنَّبْرُ (3)

فلفظ صنبر بكسر الصاد وتشديد النون المفتوحة وسكون الموحّدة فاعل هاج . وقد جرّ في البيت بالكسرة المنقولة إلى البناء كما هو أحد وجوه الوقف وبه قرىء (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (4) بكسر الباء .

والصنبر البرد الشديد وبه سمي أحد أيّام العجوز . والسديف : لحم السنام والعرب تتفاخر بإطعام أطيب الطعام أيّام شدّة البرد . والذي سهّل

(1) السديف : شحم السنام . وعرا يعرو عروا فلانا : قصده طالبا معروفه .
(2) هو طرفة بن العبد أحد شعراء المعلقات .
(3) اعترى يعتري اعتراء فلانا : غشيه طالبا معروفه .
(4) قرآن : سورة العصر : 103 ، الآية : 3 .

جرّ الفاعل في مثل البيت أنّ الفعل فيه في قوّة المصدر لحلوله محلّ المضاف إليه الذي لا يكون في الأصل إلاّ مفردا ولا يبعد أن تخرج عليه قراءة من قرأ : (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسِ) (1) بكسر السين . وإن اقتصر البيضاوي (2) على تفسير الناس في هاته القراءة بآدم عليه السلام . وأن أصله الناسي بالياء. ولا يخفى بُعْدُهُ لفظا وخطّا ومذاقا والعلم عند الله .

وأمّا اللغز الصرفي فالإلغاز فيه أيضا مشهور من ذلك قول من قال : (من بحر الرجز)

1 — أمْرٌ عَجيبٌ يا نُحاةَ المِلَّةِ حَرَكَةٌ قامتْ مقامَ جُمْلَةِ

والإشارة بذلك إلى الأمر من وَأَى بمعنى وعَدَ الذي هو فعل لفيف مفروق مهموز العين . فإنّك تقول في مضارعه يَئِي بإسقاط الواو لوقوعها بين عدّوتين وفي الأمر بإسقاط الياء أيضا لبناء الأمر المعتلّ على حذف آخره . فإذا تقدّمه ساكن جاز نقل الكسرة إليه ثمّ تحذف الهمزة قياسا وحينئذ لا يبقى من فِعْلِ الأمْرِ إلاّ تلك الحركة المنقولة كقولك : أشَرْتُ أنِ بكسر النون .

وأمّا اللغز الأخير الذي هو لغز أصولي وبياني فشرحه على وجه الإجمال أنّ الأئمّة / اختلفوا في مدلول الجملة الخبرية هل هو الإثبات أو الثبوت [245] بعد اتّفاقهم على أنّ الصدق والكذب منوطان بمطابقة الكلام لمدلوله وعدم مطابقته له . فإذا كان المدلول هو الإثبات أي الحكم بالثُّبُوتِ اختصّ التصديق والتكذيب بالمركّب الإسنادي . أما إذا قلنا مدلُول الكلام هو الثبوت فلا مانع أن يتعلّقا بالمركّبات التقييدية باعتبار إشعارها بالنسب الخارجية . فمن قال : يا زيد بن عمرو يقال له كذبت إذا لم تصحّ بنوة عمرو لزيد .

(1) القرآن : سورة البقرة : 2 ، الآية : 199 .
(2) البيضاوي : هو ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي : أحد مفسري القرآن وهو ابن قاضي قضاة فارس ، ولي القضاء بشيراز . وتوفي في تبريز سنة 685هـ./1286م. ومن أهم تصانيفه : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج 2 — ص : 1163) .

ومنه الحديث المشار إليه في اللغز ولهذه المسألة أشار بعض الشافعية بقوله :
(من بحر الرجز)

1 ــ الْحُكْمُ بِالنِّسْبَةِ مَدْلُولُ الْخَبَرِ
دُونَ ثُبُوتِهَا عَلَى الْقَوْلِ الأَبَرّ

2 ــ مِنْ ذَاكَ قَالَ مَالِكٌ مَنْ أَشْهَدَا
يَوْمًا بِتَوْكِيلٍ فَمَا عَنْهُ اعْتَدَا

3 ــ لِلانْتِسَابِ وَإِمَامُنَا ذَهَبْ
وِكَالَةٌ أَصْلاً وَضِمْنًا بِالنَّسَبْ

وممّن أشار إلى أصل الخلاف السعد (1) في المطوّل قبيل أحوال الإسناد الخبري . والمسألة طويلة الذيل كثيرة الفروع لكن لا يتيسّر الآن استيعاب ما يناسب ذكره لضيق نطاق الوقت بأشغال السفر للذي تعارض فيه على العبد المانع والمقتضى وذلك من أسباب الاقتصار على جواب اللغز الأوّل بحيث لولا غرابته ودقّة رموزه لم أثن عنان القصد إلى نظم تلك الأبيات غير الموفية بملاحظاته وإن تضمّنت ما يمكن أن يستحسن كالتورية في قوله : (من بحر الخفيف)

1 ــ حَلَّهُ حَلَّ مِنْ أَسْمَاءِ ذَا الْبَيْتِ مَحَلَّ مُضِيئَةِ الأَكْوَانِ

فإنّ المراد أنّ الكلمة الملغز فيها هي الاسم الرابع من الأسماء السبعة التي احتوى عليها المطلع احتواء الفلك على الكواكب السبعة السيارة / مع [246] الإشارة إلى الوضوح الشمسي ، الذي اقتصر عليه في شرح البيت محرّر الرائد

---

(1) السعد : هو السعد التفتازاني مسعود بن عمر ، سعد الدين : من أئمة العربية والبيان والمنطق ولد بتفتازان من بلاد خراسان سنة 712هـ./1312م. وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند فتوفي بها سنة 793هـ./1390م. من كتبه : تهذيب المنطق ، ط. والمطول ، ط. في البلاغة . والمختصر ، ط. اختصر به شرح تلخيص المفتاح . ومقاصد الطالبين ، ط. في الكلام . وشرح مقاصد الطالبين ، ط. والنعم السوابغ ، ط. في شرح الكلم النوابغ للزمخشري . وارشاد الهادي ، خ في النحو . وشرح العقائد النسفية ، ط. وحاشية على شرح العضد على مختصر ابن الحاجب ، ط. في الاصول .... (انظر : الزركلي : الأعلام : ج 8 ص : 114) .

من تصرفاته الغريبة الدالّة على بصارته بالتماس الذي هو كما قال الغزالي (1) ركن عظيم من أركان حسن الخلق أنه لما رأى أنّ قلب لفظ رائد إلى ديار غير تامّ بموجب أنّ الياء في رائد مهموزة وفي ديار باقية على حالها أخذ يتطلّب وجها لتصحيح القلب فأوصله الفكر الثاقب إلى اعتبار أصل تلك الياء في كلتا الكلمتين حيث إنّ أصل ديار دوار كما أن أصل رائد راود أي أصله الأصيل والاّ فهمزة فاعل المعتلّ العين منقلبة عن الألف كما في كتب التصريف .

لكنّا لا أرى هذا الاعتبار الخفيّ محتاجا إلى ارتكابه في هذا المقام حيث إن القلب ممّا تعتبر فيه رسوم الخطّ ، وهمزة فاعل المعتلّ العين ترسم ياء ولو كان أصلها الأصيل واوا كرائد . وسبب ذلك أنّ هذه الهمزة تسهّل إلى الياء تخفيفا كما أشار إليه المصرّح لكنّ هذا التسهيل لا يبلغ به إلى التصحيح المعدود من اللحن . وحينئذ فرسم الياء هنا له استناد إلى اللفظ وليس هو مجرّد اصطلاح كما ذكره حبيبنا المشار إليه .

وأمّا استناده إلى عدم نقطها فلا نراه مفيداً في المقصود لأنّهم قصدوا به التفرقة بين الياء الأصلية والمهموزة على أنّ إعجام الحروف أمر حادث لا مدخل له في أصل صور الحروف الرسمية ولذلك تحسب الياء في مثل رائد بعشرة لا بواحد وإلاّ كان يتوجّه الإبطال على قولنا : وَبِإِمْدَادِ ثَالِثٍ بِثَلاَثِينَ ... البيت .

وبالجملة فالقلب نوع من الجناس المنقسم إلى لفظيّ وخطّيّ فلا أقلّ من كون مراعاة الرسوم الخطّيّة جائزة أحرى إذا انضمّ لذلك اعتبار لطيف كالجناس / والتضمين في البيت . ومثل هذا في الظهور بحيث لا يخفى على [247]
الحبيب المشار إليه لكنّه عدل عن الظاهر القريب إلى الغامض البعيد لنرى آثار حدّة نظره أو لفتح باب المحاورات الأدبية على ما هو دَيْدَن أرباب

(1) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي : حجة الاسلام (450هـ./1058م. — 505هـ./1111م.) مولده ووفاته في الطابران بخرسان . (انظر : الأعلام ، ج 7 — ص : 247) .

الجُرْنَالات (1) فكثيرا ما تراهم يبرزون الأمور السهلة في معرض الاستصعاب توصّلا إلى استخراج التبر من التراب لكن مثل الآداب بالنسبة إلى فكر العبد الآن كمثل طفل صاحبة امرىء القيس القائل في حالتها معه :
(من بحر الطويل)

1 – إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْتَفَتَتْ لَهُ
بِشِقٍّ وَشِقٍّ نَحْوَنَا لَمْ يُبَدَّلِ (2)

وَمِنَ اللّهِ اسْتِمْدَادُ الْهِدَايَةِ . وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي الْبَدْءِ وَالنِّهَايَةِ ...

[تعقيب الشيخ حمزة فتح الله على إجابة الشيخ سالم بوحاجب]

وقد تعقّب الملغز ذلك الجواب بما نصّه : فقوله إنّ اللغز الأول لم أر من تنبّه لحلّه ، قد يقال إنّ في تحمّلنا قبول ذلك مع تيقّننا كفاءته للاستبداد نوعا من العناء إلاّ أن يكون المراد خلاف ذلك وأنت خبير بأن مسألة دفع الايراد بالمراد وعدم دفعه به ممّا ثار عجاجه بين القوم .

وأما تنبّه كثير من التلامذة لحلّ اللغزين الآخرين بالمعنى المرقوم فلا مرية فيه لأنّ ذلك المعنى كرة تطارحتها أيدي براهينهم . أمّا أوّلا فلأنّنا لم نُحَاجِ بما عناه الرماميني بل بكلمة أخرى يسهل ذلك أنّ إطلاق الفعل على المعنى اللغوي دون أحد الثلاثة المبوّب لها في النحو معهود في كلامهم كإضافة المصدر لفاعله بحيث يطلق على ذينك المتضايفين أنّهما فعل وفاعل بهذا المعنى حتّى أنّه ورد السماع برفع ذلك الفاعل بعد توسّط المفعول مضافا في قول المغيرة بن الأسود الأسدي (3) : / (من بحر البسيط) [248]

---

(1) جرنالات : جمع جرنال بمعنى صحيفة أو جريدة . والكلمة من الدخيل .

(2) كذا في النص والصواب كما يلي :
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له   بشق وتحتي شقها لم يحول
(انظر : شرح المعلقات السبع للزوزني ص : 12 . طبعة مصر 1938 .

(3) المغيرة بن عبد الله بن معرض الأسدي ، أبو معرض : شاعر هجاء عالي الطبقة . من أهل بادية الكوفة . كان يتردد إلى الحيرة . ولد في الجاهلية وتوفي نحو سنة 80هـ/700م. نشأ في أول الاسلام وعاش عمرا طويلا . وكان عثمانيا من رجال عثمان بن عفان . وأدرك دولة عبد الملك بن مروان . لقب بالأقيشر لأنه كان أحمر الوجه أقشر . عرفه الآمدي بصاحب الشراب لقوله من قصيدة مشهورة :
أفنى تلادي وما جمعت من نشب   قرع القوافيز أفواه الأباريق
(انظر : الزركلي : الأعلام ، ج 8 – ص : 200) .

1 — أفنَى تِلاَدي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ نَشَبٍ
قَرْعُ الْقَوَارِيرِ أَفْوَاهُ الأَبَارِيقِ (1)

برفع الأفواه والحقّ جوازه في النثر إذ لا ضرورة في هذا البيت تدعو الشاعر لخصوص الرفع لتمكنّه من النصب بلا خلل في الوزن . وعليه قراءة ابن عاصم (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّاءَ) (2) برفع الدال والهمزة . فكان ذلك صالحا لترجيح ترويّهم ريثما ينكشف لهم الغطاء . نعم إنّ لهم شبهة في اتّفاق موضوع اللغزين لو لم يصادرها ما ذكرنا . ولقد صار ذلك الموضوع أحجية من جهتين لكننا الآن أومأنا بحلّه أو كدنا كما كفينا القارىء أغلب المؤنة في لغز الرائد بقولنا في آخره : ثُمَّ إنّه الخرّيت الماهر ، والمنطيق البليغ الساحر ، عابر البلاد ، ومرشد العباد ، آونة راوية جهينة ، وطورا كثيّرعزّة وجميل بثينة ، الخ ...

وامّا ثانيا فلأن قول العبد في آخر اللغز التصريفي : (من بحر الطويل)

1 — ثُمَّ قَامَتْ مَقَامَهَا حَرَكَاتٌ
قَدْ أَبَانَتْ عَنْهَا جَلِيَّ الْمُرَادِ

2 — لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ الْهِدَايَةُ في تَصْـ
ـرِيفِهَا بَعْدَ ذَا لِسُبْلِ الرَّشَادِ

صريح في أنّ السؤال إنّما هو عن تصريف هاته الحركات التي قامت مقام تلك الأفعال والذهاب بها إلى أنحاء شتّى من التراكيب إفرادًا وتثنية وجمعًا وتذكيرًا وتأنيثًا وتوكيدًا بالنونين في كلّ حالة . هذا وقولهم : لوقوعها بين عدوّتيها ليس على إطلاقه لتخلّفه في يضع ويهب ونحوهما وإن اعتذر عن ذلك بالْحَلْقِيَّةِ .

---

(1) كذا في النص وفي العجز من البيت كلمة القوارير وفي قصيدة المغيرة كلمة القواقيز أي الاقداح جمع قاقوزه وهي القازوزة أيضا كما في القاموس . ثم أن كلمة : أفواه وردت بالفتح لا بالرفع .

(2) القرآن : السورة : مريم : 19 ، الآية : 2 .

وأمّا ثالثًا فلأنّ تفاقم الخلاف إنّما هو في إناطة الصدق والكذب
[249] بالمطابقة للواقع فقط أو له ولاعتقاد المخبر ولو / خطأً وللاعتقاد لا غير مفسّرا بمعناه المشهور أي التصديق أعمّ من العلم والظنّ وغيرهما كما ارتضاه في شرح الأطول أو بمعناه المشهور كما هو مقتضى عبارة المفتاح (1) والذي اضطرّهم لذلك أنّه لا يشترط في صحّة الحكم مطابقته للأعيان إذ قد لا توجد طرفاه ولا لما في الأذهان إذ قد ترتسم فيها الكواذب . فالمعتبر إذن مطابقته لما في نفس الأمر وهو مرادهم بالواقع والخارج . ثمّ تشعّب الخلاف في تفسير الواقع ونفس الأمر لما أنّه لم يتصوّر للنسبة المسمّاة بهما سيّما في المعدومات والمنوعات حصول الاّ بحسب التعقّل فمن قائل إنّهما الجوهر المجرّد المسمّى بالعقل الفعّال المرتسمة به صور الكائنات بأسرها واحكام الموجودات والمعدومات ، وهو المعبّر عنه في القرآن الكريم باللوح المحفوظ والكتاب المبين المشتمل على كلّ رطب ويابس . وقد نوقش في ذلك بما ليس هذا محلّه . ومن قائل ما يطول توضيحه هنا وهذا هو الخلاف الذي تعرّض لبعضه في المطوّل (2) قبيل مبحث الاسناد الخبري . فإنّما الخلاف في أن مدلول الخبر الإثبات أو الثبوت فهو لفظي كما في حواشي المطوّل . فليس ثمّة خلاف في الحقيقة . ثمّ إن بناء تعلّق التصديق والتكذيب بالمركّبات التقييدية لو فرض الخلاف حقيقيا على أنّ مدلول الخبر الثبوت لا يستقيم إلا على ظاهر ما حقّقه السيد الشريف لكن إمعان النظر فيه يفضي إلى أنهما لم يزالا قاصرين على الخبر غايته أنّ الخبر إمّا صريح في التركيب أو لا ولذا ختم عبارته بقوله : فصحّ أن الحقّ ما هو المشهور من كون الاحتمال من خواص الخبر . والتروي فيما ذكر في شرح الأطول ينبىء بأن عصام الدين (3)
[250] لا يقيم / لذلك المقول وزنا بل يلوح على ما قرره في شرح هذا المقام بعد المبالغة

(1) انظر أعلاه صفحة 245 التعليق الخاص بسعد الدين التفتازاني .

(2) المطول هو كتاب في البلاغة من تأليف السعد التفتازاني . (انظر أعلاه صفحة 245) .

(3) لعله عصام الدين العمري (1134هـ/1721م – 1193هـ/1779م) . شاعر ومؤرخ وأديب ولد بالموصل وتوفي في القسطنطينية . (انظر : الأعلام ، ج 4 – ص : 373) .

في تفنيد ذلك القائل أعني بتوجّهها للمركبات التقييدية أن تحقيق الشريف لا يغني من الحقّ شيئا على أنّه هو لم يتعرّض لها في هذا المبحث من شرح المفتاح (1) .

وبعد هذا كلّه فالحديث الشريف الذي وقع الإلغاز به ليس من قبيل الإنشاء رأسا فضلا عن تلك المركّبات بل هو خبر بحت كما هو صريح قولنا في لغزه :

إذْ وَجْهُ الْمَيْنِ بِهذَا السَّنَدِ　　لِنِسْبَةِ النُّعوتِ لاَ لِلسَّنَدِ

إذ مفاد ذلك أنّ ثمّة إسناد والمركبات التقييدية صفر الأكفّ منه وقد صرّح صاحب المطوّل وأقرّته حواشيه (2) فيما يظنّ العبد بِانْفِصَامِ النسبة الوصفية من تلك العرى فبقي الحال على ما كان .

أما سبب إدماجنا في حلّ قول الأستاذ :

حَلَّهُ حَلَّ مِنْ أَسْمَاءِ ذَا البَيْتِ　　مَحَلَّ مُضِيئَةِ الأَكْوَانِ

فقولنا مراده أن لفظة رائد قد حلّت من الأسماء المذكورة في البيت قبله محلّ الشمس في الوضوح ، واقتصارنا على ذلك المقدار دون التنويه بكونها رابعة على ترتيب الكواكب في قولهم :

زحل شرى مريخه من شمسه　　فتزاهرت لعطارد الأقمار

فسببه أنّ هذه النكتة البديعة لم ننتبه لها وقتئذ لأنّها والله من المحاسنِ التي تقوم لها الآداب على ساق والدرّ من معدنه لا يستغرب ، وهذا لا غيرُه هو الباعث على تجشّمنا فتح أبواب المحاضرة في المحاورات العلمية بصحيفة الرائد ، والله عزّ وجلّ على ما أقول وكيل ، وإنّما الأعمال بالنيّات .

[251] نعم إنّ لفظة ها في قوله أيها قد تقع اسما / في بعض أحوال تعتورها لكنّها في هذا التركيب متمحّضة للحرفية فاستقامت تلك النكتة البديعة . ثمّ

(1) انظر أعلاه صفحة 245 التعليق الخاص بالسعد التفتازاني .
(2) صاحب المطول هو سعد الدين التفتازاني . انظر أعلاه صفحة 245 .

إنّ الأستاذ في رسم لفظة رائد بالياء على تسهيلها إليها لا يقدح في كون رسمها كذلك اصطلاح فنّ مخصوص معدود في العلوم العربية قسما برأسه . كما أنّ كون السبب في عدم نقطها هو التفرقة بين الياء الأصلية والمهموزة محلّه بعد جعل لفظة الأصلية وقحمة أو مقولة بالتشكيك خصوص صيغ الجمع الأقصى المعتلة العين ومستثنيات أخرى وقعت همزتها حشوا إثر كسرة ، بدليل تخلّف النقط في اليائيات الأصلية الغير المهموزة كالقاضي ويرمي لما تقرّر أن الياء إحدى الحروف التي لا تنقط إذا انفردت أو تطرّفت .

على أنّ تلك التفرقة فيما ذكر إنّما هي سبب لعدم التصحيح لا لعدم النقط إلاّ أن يكون مِـنْ إطلاق اللازم وإرادة الملزوم . فالمتّجه أنّ سبب المنع كونها ليست ياء حقيقية بل همزة رسمت بصورة الياء يرشّح ذلك تسمية تلك الصورة بكرسي الهمزة كما صَرَّحُـوا به . ولذا غلّطـوا الكفـوى حيث أجاز في كلياته فقط تلك الصورة في بائع ومنعه في قائم للتفرقة على رأيه بين اليائيّ والواويّ .

ثمّ إنّ إعجام الحروف أقدم عهدًا من بعض العلوم العربية فضلا عن كون ذلك وغيره قد تقرّر لديهم فلا مدخل فيه لقدم ولا حدوث . أمّا عدّها بعشرة فليس لكونها ياء حقيقية بل نظرا للصورة الرسمية كما أسلفنا ألا ترى عدّهم الفتى ونحوه بعشرة ولا مدخل أيضا في ذلك للأصالة وعدمها لأنّ مثل المصطفى والمرتضى وَاويّانِ مع أنّ طرفيها في العدّ كذلك .

هذا وقد عدّوا القلب قسما من أقسام الجناس سوى الخطى . نعم / [252]
وقع للحريري بإحدى المقامات (1) في صدد ما لا يستحيل بالانعكاس اعتبار كلا الأمرين في قوله نثرا :

(1) الحريري : هو القاسم بن علي صاحب المقامات الحريرية – ط. ولد بالمشان بليدة قرب البصرة سنة 446هـ./1054م. وتوفي بالبصرة سنة 516هـ./1122م. ومن كتبه : درة الغواص في أوهام الخواص – ط. وملحة الاعراب – ط. وصدور زمان الفتور وفتور زمان الصدور : في التاريخ . (انظر : الزركلي : الاعلام ، ج 6 – ص : 12) .

لذ بكل مؤمل إذا لم وملك بـذل

ونظما بقولـه :

1 ـ اسْكِرْ تَـقْـوَ فَعَسَـى يُسْعِـفُ وَقْتَ تَكْسَلُ

خلا أن هذا الدليل عساه لا يطابق المدّعى ، وبالجملة فلم نقتحم توجيه القلب بما سبق إلاّ بعد إمعان النظر القاصر فيما لا تشمّ منه رائحة التعسّف . كما أنّه لا ريب عندنا في أنّ الأستاذ المومى إليه لولا ما يعوقه من تلك الأعذار لما ترك لقائل مقالا ولا أبقى لجائل في هذا المضمار مجالا . نسأله عزّ وجل نجاح الآمال وحسن خواتم الأعمال » .

[تعليق المؤلّف على تعقيب الشيخ حمزة فتح الله]

وقد علّقت على ذلك التعقيب شرحا للجواب بوجه مستطاب ، ونشرت معظمه في عددين من صحيفة الرائد. غير أنّه صادف انفصال الشيخ الملغز الأول من وظيفة إنشاء الرائد، وأحيلت إلى قلمـي خامس رجب سنة 1292هـ . اثنتين وتسعين ومائتين وألف (1) فكرهت إدراج بقيته على إثر انفصالـه ، وتلاشته الأيدي فلم يبق منه سوى ما حفظه الطبع وهذا نصّـه :

« نَحْمَدُكَ يَا مَنْ أَنَارَ بَصَائِرَ الْمُنْصِفِينَ . بِأَنْوَارِ الْحَقِّ الْمُبِينِ . فَتَخَيَّرُوا سُبُلَ الرَّشَادِ . وَسَلَكُوا مَنَاهِجَ السَّدَادِ . وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى خَيْرِ الْخَلْقِ مِنَ الْعَجَمِ وَالعُرْبِ الَّذِي كُرِّمَ مِنْ أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ كُلُّ جَدٍّ وَأَبٍ . ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ إِلَيْهِ انْتَسَبَ . أَمَّا بَعْدُ فَيَقُولُ رَاقِمُ هَاتِهِ الْحُرُوفِ إِنَّ مَزِيدَ وُلُوعِي بِمُطَالَعَةِ صُحُفِ الأَخْبَارِ . لا يَزَالُ يُطْلِعُنِي عَلَى غَرَائِبِ الآثَارِ . فَتَارَةً يَرَى مُحَرِّرِيهَا يَقُومُونَ فِيهَا مَقَامَ الوَاعِظِ فَيَهْدُونَ الأُمَمَ بِإِرْشَادِهِمْ . / وَتَارَةً يُقِيمُونَ [253]

(1) يوافق : 7 أوت سنة 1875 .

فِي طَيِّهَا سُوقَ عُكَاظ (1) فَيُرَوِّقُونَ الأَسْمَاعَ بِرِوَايَاتِهِمْ وَإِنْشَادِهِمْ . بَيْدَ أَنَّهُمْ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ . يُبْرِزُونَ تِلْكَ الأَنَاشِيدَ فِي قَوَالِبِ الاخْتِبَارِ وَالامْتِحَانِ . لِيُشِيرُوا بِهَا عَزَائِمَ الظُّرَفَاء . فَيُحَاضِرُونَهُمْ فِي ذَلِكَ مُحَاضَرَةَ الأُدَبَاءِ اللُّطَفَاءِ . فَتَرَاهُمْ يَصُوغُونَ مَحَاسِنَ الأَلْغَازِ . بَيْنَ إِطْنَابٍ وَإِيجَازٍ . وَإِنْ تَفَرَّقَتْ فِيهَا الأَغْرَاضُ . وَتَحَمَّلَتْ مَا يُعَدُّ مِنْ لَطَائِفِ الأَحْمَاضِ . وَلِذَلِكَ نَرَى كَثِيراً مِنْ مَهَرَةِ الْعُلَمَاءِ لاَ يَتَعَاطَى شَيْئاً مِنْ هَاتِهِ الْمُحَاضَرَاتِ . لِئَلاَّ يَقِفُوا بِهَا مَوَاقِفَ الْمُنَاظَرَاتِ .

وَلَقَدْ طَالَعْنَا فِي الثَّامِنَ عَشَرَ مِنْ أَعْدَادِ الرَّائِدِ . مُلَحاً أَدَبِيَّةً تَشْتَمِلُ عَلَى فَرَائِدَ . تَتَضَمَّنُ أَلْغَازاً لَطِيفَةً . لِمُحَرِّرِهِ ذِي الْمَنْقَبَةِ الْمُنِيفَةِ . فَرَاقَتْنَا بِأَسْجَاعِهَا . بَعْدَ كَبَادِ الاسْتِشْرَافِ عَلَى أَوْضَاعِهَا . وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ وَرَدَتْ إِلَيْنَا أَبْيَاتُ إِمَامِ الْبَلاَغَةِ . وَمُحْرِزِ السَّبْقِ فِي مَيَادِينِ النَّبَاغَةِ . الْهُمَامِ الَّذِي قَالَ فِيهِ مُحَرِّرُ الْجَوَائِبِ . (2) سِيبَوَيْهِ زَمَانِهِ فَأَيْنَ ابْنُ الْحَاجِبِ . (3) الْعَالِمُ الَّذِي لَهُ حَاجِبٌ . وَلَيْسَ حَاجِبَ أُسْتَاذِ دُرُوسِنَا الشَّيْخِ سَيِّدِي سَالِمُ بُوحَاجِبِ . أَدَامَ اللَّهُ بَقَاءَهُ تَتَضَمَّنُ الإِجَابَةَ عَنْ أَحَدِ تِلْكَ الأَلْغَازِ . مَعَ اسْتِحْسَانِهِ لِظَوَاهِرِ قَوَالِبِهَا مِنَ الصُّدُورِ وَالأَعْجَازِ . .

---

(1) عكاظ : من أسواق العرب في الجاهلية . كانت تجتمع فيه القبائل مدة عشرين يوما في شهر شوال كل سنة بموضع يقال له الأثيداء يبعد عن مكة ثلاثة أيام وهو بين نخلة والطائف وذي المجاز خلف عرفة ومجنة . كان الشعراء يحضرون سوق عكاظ ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر .

(2) محرر صحيفة الجوائب هو أحمد فارس الشدياق . انظر أسفله : الملحق رقم 1 .

(3) ابن الحاجب : هو عثمان بن عمر (ولد سنة 570هـ./1174م. في أسنا من صعيد مصر وتوفي بالاسكندرية سنة 646هـ./1249م) . وهو فقيه مالكي من كبار العلماء بالعربية . من تصانيفه : الكافية في النحو . والشافية في الصرف . ومختصر الفقه . والمقصد الجليل .. (انظر : الاعلام ، ج 4 — ص : 374) .

فَرَاقَنَا كَشْفُهُ عَنْ ذَلِكَ الْمُخَبَّإِ الْمُكْتَتَمِ . وَعَجِبْنَا مِنِ اعْتِنَائِهِ بِذَلِكَ مَعَ مَزِيدِ أَشْغَالِهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ الَّتِي كَنَارٍ عَلَى عَلَمٍ . ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِكَلِمَاتٍ مُرْسَلَةٍ تَتَضَمَّنُ الإِجَابَةَ عَنْ بَقِيَّةِ تِلْكَ الأَلْغَازِ عَلَى وَجْهِ الإِيجَازِ .

فرام محرّر تلك الألغاز الاسترسال معه في المحاورة بما يكشف له القناع عن رتبة الشيخ المجيب في تلك الفنون على وجه المحاضرة حيث إنّه لا خبرة له بما للشيخ من المزيّة / في سائر العلوم العربية فنشر في العدد الثالث والعشرين [254] من الرائد ملاحظات لطيفة وضمّنها زوائد . غير أن بروز العدد المذكور صادف سفر ذلك الاستاذ مع أنّا نرى ذلك التعصّب ماله من نفاذ . فأردت أن أحرّر لحبيبنا محرّر تلك الألغاز ما أشكل عليه حتّى يمتاز بعد سوق كلامه جملا مفصّلة وبيان الوجوه المحرّرة المحصّلة وأقول وبالله أستعين بعد أن أقدّم مقدّمة وهي :

إنّ حبيبنا صاحب الألغاز ممّن شهر عندنا بالبراعة والمعرفة بالأساليب العربية . غير أنّ ما أبداه من الافهام في تقاريره الآتية مما لم نفهم مطابقته للقواعد المدوّنة في كتب الفنون . ولولا علمنا بأنّ جناب الحبيب هو متولّي تصحيح صحيفة الرائد وأنّ نشر تلك التقارير إنّما كان بعد مقابلته وتصحيحه وتحريره كما هو مقتضى وظيفته فضلا عن كونها من تقريراته لما أجزنا أن يكون ذلك أصل كلامه أو لحملناه على مداخلة شيء من التحريف الذي كثيرا ما ينسبه أصحاب المطابع إلى الصفّافين مع أنّ عهدته ليست عليهم .

غير أنا بعد بروز العدد الرابع والعشرين من الرائد أيقنّا بأنّ ذلك أصل كلامه لا محالة إذ لو دخله شيء من التحريف لنبّه عليه في العدد المذكور كما هي عادة المطبعة . وحيث كان ذلك التقرير ممّا اعتنى بشأنه الحبيب لأنّه مسوق لاختبار أحد كبار المدرّسين فلا يمكن الاعتذار من بعد بِعَدَمِ التروّي

أو بتداخل التحريف وحاشا جناب الحبيب أن يرضى بإحدى هاتين الخطيئتين .

كما أني أرغب من جناب السادة المطالعين لهذه الأسطر أن يعودوا على .
[255] أعداد / الرائد السابقة التي انبنى عليها هذا الجواب حتّى يكونوا آخذين بأطراف الكلام متروين لما يرد عليه بعد من النقض أو الإحكام . وها نحن نورد ما وعدنا بإيراده ، والله المسؤول أن يرزقنا الهداية إلى سبل رشاده آمين .

قال : فقوله إنّ اللغز الأول لم أر من تنبّه لحلّه قد يقال إنّ في محملنا قبول ذلك مع تيقّننا كفاءته للاستبداد نوعا من العناء إلاّ أنْ يكون المراد خلاف ذلك . وأنت خبير بأنّ دفع الايراد بالمراد وعدم دفعه به ممّا ثار عجاجه بين القوم .

أقول : غموض درجة هذا الكلام في الفصاحة أبهم عن إفهامنا المعنى المراد ، فالمرجوّ من جناب الحبيب أن يفصح لنا عن مراده بهذا المطلع الحسن من غير أن يكلّفنا في افصاحه ما هو بعيد عن طور عقولنا . وكأني به إنّما تكلّف هذا العناء ليثير عجاج ما استظهره في وجوه مطالعي هذا الكلام والسلام .

قال : أما أوّلا فلأننا لم نُحتَاج بما عناه الرماميني بل بكلمة أخرى يسهل ذلك أنّ إطلاق الفعل على المعنى اللغوي دون أحد الثلاثة المبوّب لها في النحو معهود في كلامهم .

أقول : ليت الحبيب أبدل ضمير الجماعة من قوله : في كلامهم بالاسم الظاهر حتّى يبين لنا كلام من ؟ لأنّ مقتضى سياق أصل اللغز أنّ الكلام مع نحوي وهو المعنيّ بقوله : وكان أحدهم يشار إليه في نحو العربية بالبنان ، ويقصر عن حدّة لسانه في فصول الاعراب السنان ، لو رأى الزجاج صدع زجاجته ، أو عاين ابن خروف لجعله أضحيته ، أو لقي ابن جنّي

آنسه ، بطرائف المفاكهة والممارسة . ثم قال فيما بعد : فبرز بروز الكمي وقال لذلك النحويّ .

وهذا / يقتضي أنّ ضمير الجماعة من قوله : في كلامهم : يعود على علماء صناعة النحو ، وهم النحاة وحينئذ فإطلاق الفعل على المعنى اللغوي الذي ذكر أنّه معهود في كلامهم لم نعهده بعد بل كلام النحاة في مواضع متعدّدة من بابي المصدر والفاعل يدلّ على خلاف ذلك . [256]

فالمرجوّ من فضل الحبيب أن يرشدنا في أيّ موضع من كلامهم هذا الإطلاق . وإنْ جَعَل ضمير الجماعة من قوله : في كلامهم : عائدًا على أهل اللسان العربي مُطْلَقًا فموضوع إيراد اللغز يمنعه من هذا الإطلاق إذ الموضوع أنّ المخاطب إنّما هو نحويّ فخطابه باصطلاح آخر إنّما يكون من التخليط أو إرادة التغليط . وكلّ من المقصدين ينبو عنه مقام الحبيب . فالمقيّد بالقواعد إذا علم أنّ الكلام موجّه إلى نحويّ ورأى قوله في أصل اللغز :

وَقَـدْ جَـاءَ فِـي قَـوْلِ الأَوَائِـلِ فَـاعِـلاً
كَمَـا اشْتَرَطُـوا مِـنْ قَبْلِـهِ سَابِقِ الْفِعْلِ

إنّما يفهم منه الفعل الاصطلاحي للنحاة لا ما يطلق عليه فعل في اصطلاح آخر . فالجواب المبني على هذا الفهم يكون ناشئا عن غاية التروّي . والجواب بما سواه يتوقّف على علم اصطلاح جديد . وإن ذكر أنّ هذا الإطلاق أيضا من اصطلاح النحاة فنحن طالبون بيان موضع هذا الإطلاق لنتحقّق به وجه هذا المساق .

قال : كإضافة المصدر لفاعله بحيث يطلق على ذينك المتضايفين أنّهما فعل وفاعل فهذا المعنى حتّى أنّه ورد السماع برفع ذلك الفاعل بعد توسّط المفعول مضافا في قول المغيرة بن الأسود الأسدي : / (من البسيط) [257]

أفنَى تِلاَدي وَمَا جمعْتُ من نَشَب   قَرْعُ القَوَارِيرِ أفْوَاهُ الأبَارِيقِ

برفع الأفواه . والحقّ جوازه في النثر إذ لا ضرورة في هذا البيت تدعو الشاعر لخصوص الرفع لتمكّنه من النصب بلا خلل في الوزن .

أقول : هذه السبعة الأسطر قد أهالت علينا قرع القواقير كما هي الرواية في البيت وإن كان جناب الحبيب أبدلها بالقواقيز ولعله حفظه الله استصغر القواقيز وهي جمع قاقوزة ففي القاموس : والقاقوزة والقاقزة مشربة أو قدح أو الصغير من القوارير . إلاّ أنّه على كلّ حال هنالك إناء شراب إذ القوارير جمع قارورة وهي ما قرّ فيه الشراب ويختصّ بالزجاج ، نعم وسمعنا من هاته الأسطر إطلاق الفعل والفاعل على المتضايفين من المصدر وفاعله مع أنا لم نسمع به بعد إذ المعروف في المصدر أنّه من الشبيه بالفعل فيرفع الفاعل كمنيرا وَجْهُهُ .

وأما رفع فاعل المصدر بعد توسّط المفعول مضافا الذي سمعنا فيه دوي ذلك القرع والتكلم بالحق والترجيح بإبطال الضرورة إلى غير ذلك فإنّها مسألة صريحة في باب المصدر من الخلاصة في قول الناظم : (من الرجز)

1 – وَبَعْدَ جَرِّهِ الَّذِي أُضِيفَ لَهْ كَمِّلْ بِرَفْعٍ أَوْ بِنَصْبٍ عَمَلَهْ

وحاصلها أنّ المصدر يضاف إلى فاعله ويؤتى بعده بالمفعول منصوبا وهو الكثير نحو « أعجبني ضرب زيد عمرو » أو يضاف لمفعوله ويؤتى بعده بالفاعل مرفوعا نحو « أعجبني ضرب عمرو زيد » . وهو دونه . وعلى كلّ حال يوجد نثرا ونظما . وأمّا ما أشعر به كلام الحبيب من أنّه مختصّ بالنظم حتّى احتاج إلى إحقاق الحقّ فهذا الحقّ صرّح به ابن هاشم في شذور / [258] المبتدئين وعدّ القول باختصاصه بالشعر من تغالي بعض النحاة . وذكر هنالك البيت المذكور وردّه بأنّه ورد نثرا . على أنّ الكلام فيما يتعلّق باللغز من إطلاق الفعل على غير المبوّب له في النحو .

وأمّا كون المصدر يرفع الفاعل إذا توسّط بينهما المفعول فلا دخل له هنا حتّى نحتاج إلى ذكر الضرورة في البيت وإبطالها المبنيّ على أحد قولين

فيها هل هي ما وقع في الشعر أو ما ليس للشاعر عنه مندوحة . لكن على الأوّل الجواب غير مجد . قال : وعليه قراءة ابن عاصم (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّاءَ) (1) برفع الدال والهمزة .

أقول : لعلّه أراد قراءة عاصم لأنّا لم نسمع قبل بروز صحيفة الرائد من القرّاء من يسمّى بابن عاصم ، ولعلّ الحبيب لمّا رأى الشيخ عزا الجواب عن هاته الألغاز إلى التلامذة كما هو الواقع عمد إلى عزو قراءة عاصم إلى ابنه .

قال : فكان ذلك صالحا لترويّهم ريثما ينكشف لهم الغطاء ، نعم إن لهم شبهة في اتّفاق موضوع اللغزين لو لم يصادرها ما ذكرنا .

أقول : ذلك رآه الحبيب مسهلا كأنّي به لم يزد المسألة إلاّ سِتْرًا حيث أنّا لم نتحقّق إلى الآن جريان كلامه على أيّ اصطلاح بل وانفتحت لنا أبواب الاحتمالات . ووراء ذلك كلّه مسألة دفع الإيراد بالمراد لأنّ جناب الحبيب يعدّ الجواب مبنيًّا على شبهة لو لم يصادرها ما ذكره مع أنّه باعترافه أنّ ذلك المصادر محض إرادته ، ودفع الإيراد بالمراد وعدم دفعه به ممّا ثار عجاجه بين القوم .

قال : ولقد صار ذلك الموضوع أحجيّةً من جهتين لكنّنا الآن أومأنا بحلّه أو كدنا .

[259] أقول : هذه الجمل تفيد من يريد الجولان مع جناب الحبيب في هذا / الميدان حتّى يستقري منه المرادات المحتملة ففي هاته المرّة أفصح المُلْغِزُ عن مُرَادٍ رَتَّبَ عليه أنّ الموضوع صار أحجية من جهتين ، ومرّة أخرى يصير من ثلاث جهات . وهكذا إلى ما لا نهاية له ، فيلزمنا حينئذ التوقّف إلى أن نقف على حدّ المرادات .

(1) القرآن : السورة : مريم : 19 — الآية : 2 .

قال : كما كفينا القارىء أغلب المؤنة في لغز الرائد بقولنا : في آخره : ثم إنّه الخرّيت الماهر والمنطيق البليغ الساحر عابر البلاد ومرشد العباد آونة راوية جهينة وطورا كثيّر عزّة وجميل بثينة .

أقول : هذا الكلام يتعلّق بقول الشيخ : لم أر من تنبّه لحلّه مع أنّه يعارض كلام الشيخ في شيء لأنّ الشيخ إنّما قال : لم أر وعدم رؤيته لا يقتضي أنه ليس هنالك من تنبّه لحلّه . كيف وهو لغز قد دار على العقول التونسية بل وحاشا الشيخ أن يقصد أنّه لا يتنبّه لحلّه أحد على أنّا لو سلّمنا أنّ ذلك مفاد كلام الشيخ فلعلّ هذا لا يقدح في أصل اللغز حتّى يحتاج الملغز للتبرّي منه اللهمّ إلاّ أن يحمله على أنّ سبب عدم التنبّه لحلّه إنّما هو عدم إفصاحه عن المعاني المقصودة له ممّا يرشح الملغز فيه فحينئذ ربّ البيت أعرف بما أودع فيه لكن على كلّ حال فإنّ الشيخ قد أجاب عنه مع غضّ الطرف عمّا تَضَمَّنَه . فلا حاجة بنا إلى مزيد إطناب والله الهادي إلى الصواب .

قال : وأمّا ثانيا فلأنّ قول العبد في آخر اللغز التصريفي :

ثُمَّ قَامَتْ مَقَامَهَا حَرَكَاتٌ ... قَدْ أبانَتْ عنها جَلِيُّ الْمُرَادِ
ليتَ شِعْرِي كيفَ الهِدايَةُ فِي ... تصْرِيفِها بَعْدَ ذَا لِسُبُلِ الرَّشادِ

صريح في أنّ السؤال إنّما هو عن تصريف هاته الحركات التي قامت [260] مقام / تلك الأفعال .

أقول : أمّا موضوع الكلام فليس هذا إذ هذا الفهم مبنيّ على الضمير في تصريفها راجع إلى الحركات وهذا يتمّ لو كان أصل اللغز مركّبا من هذين البيتين فقط لكنّ الناقد بصير فأعادَ علَيْنَا ذكر البيتين قبلهما وهما :

مَا ترَى في أفْعَالِ مَاضٍ لَفِيفٍ ... ذِي افْتِرَاقٍ وَاوِيِّ فَا بِاطِّرَادِ
قدْ تَوَالَى عَلَيْهِ حَذْفٌ إلى أنْ ... آذَنَتْنَا حُرُوفُهُ بِالنَّفَادِ

فهذا صريح في أنّ السُّؤَالَ إنّما هو عن الأفعال المذكورة فالكلام قاضٍ بأنّ السُّؤَالَ عنها وإليها يعود الضمير في قوله : ثُمَّ قَامَتْ مَقَامَهَا

حَرَكَاتٌ . فإذا قوله : لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ الْهِدَايَةُ فِي تَصْرِيفِهَا .
الضمير فيه يعود على الأفعال المذكورة لعدم تشتيت الضمائر ولمكان قوله بعد ذا فإنّه ظاهر في أنه سائل عن تصريف تلك الأفعال بعد قيام الحركات مقامها إذ اسم الإشارة يرجع للقيام المذكور . فدعوى صراحته في غير ذلك بالحصر لا دليل عليه إلا الإرادة .

قال : والذهاب بها إلى أنحاء شتّى من التراكيب إفرادا وتثنية وجمعا وتذكيرا وتأنيثا وتوكيدا بالنونين في كلّ حالة .

أقول : حيث إنّ أمر وأى الذي عيَّنَهُ الشيخ من الأفعال وبين انطباق مضمون الأبيات الثلاثة الأول عليه كاف في المقصود من حلّ اللغز مع أنّ الشيخ يحاشي جناب الملغز عن أن يتطلب بعد ذلك تفصيل هذا التصريف حتّى يقول له في إجراء هذا الفعل على الأحوال المذكورة بأن تقول مثلا فيما إذا نقلت هاته الحركة إلى اللاّم الساكنة من قل هذا « قُلِ (بكسر اللام) بِالْخَيْرِ يَا زَيْدُ ، قُلِي بِالْخَيْرِ يَا هِنْدُ قُلِيَا بِالْخَيْرِ يَا زَيْدَانِ أَوْ يَا هِنْدَانِ / قُلُوا بِالْخَيْرِ يَا زَيْدُونَ قُلِينَ بِالْخَيْرِ يا هِنْدَاتُ » . [261]
فترد اللاّم في أمر الاثنين وجماعة الإناث . وتقول في التوكيد بالنون الثقيلة قُلِيَنَّ بِالْخَيْرِ يَا زَيْدُ قُلِنَّ بِالْخَيْرِ يَا هِنْدُ قُلِيَانِّ بِالْخَيْرِ يَا زَيْدَانِ أَوْ يَا هِنْدَانِ قُلُنَّ بِالْخَيْرِ يَا زَيْدُونَ قُلِينَانِّ بالخَيْرِ يَا هِنْدَاتُ بِرَدِّ اللاّمِ في أمر المخاطب والمثنّى وجماعة الإناث ، وبزيادة ألف فاصلة بين نون التوكيد ونونهنّ .

وتقول مثل ذلك في التوكيد بالخفيفة فيما عدا المسند إلى الاثنين أو جماعة الإناث لعدم جواز التوكيد بالخفيفة فيهما كما هو معلوم . لكن أمثال هذه السؤالات ليست ممّا يتحاجى بها حتّى يطلب الجواب عنها من مثل ذلك الهمام إذ ما هي إلاّ مسألة تصريف الأفعال اللفيفة المفروقة

العشرة التي جمعها مع تصريفاتها العلاّمة ابن مالك (1) في قوله :

(من بحر الوافر)

1 ــ إِنِّي أَقُولُ لِمَنْ تُرَجِّى شَفَاعَتُهُ
قِي الْمُسْتَجِيرَ قِيَاهُ قُوهُ قِي قِينَ

2 ــ وَإِنْ صَرَفْتَ لِوَالٍ شُغْلَ آخَرَ قُلْ
لِ شُغْلَ هَذَا لِيَاهُ لُوهُ لِي لِينَ

3 ــ وَإِنْ وَشَى ثَوْبٌ غَيْرَهُ قُلْتَ فِي ضَجَرٍ
شِ الثَّوْبَ وَيْلَكَ شِيَاهُ شوهُ شِي شِينَ

4 ــ وَقُلْ لِقَاتِلِ إِنْسَانٍ عَلَى خَطَأٍ
دِ مَنْ قَتَلْتَ دِيَاهُ دُوهُ دِي دِينَ

5 ــ وَإِنْ هُمُ لَمْ يَرَوْا رَأْيِي أَقُولُ لَهُمْ
رِ الرَّأْيَ وَيْلَكَ رِيَاهُ رُوهُ رِي رِينَ

6 ــ وَإِنْ هُمُ لَمْ يَعُوا قَوْلِي أَقُولُ لَهُمْ
عِ الْقَوْلَ مِنِّي عِيَاهُ عوهُ عِي عِينَ

7 ــ وَإِنْ أَمَرْتَ بِوَأْيٍ لِلْمُحِبِّ فَقُلْ
إِ مَنْ تُحِبُّ إِيَاهُ أوهُ إِي إِينَ

8 ــ وَإِنْ أَرَدْتَ الْوَنَى وَهْوَ الْفُتُورُ فَقُلْ
نِ يَا خَلِيلُ نِيَاهُ نُوهُ نِي نِينَ

9 ــ وَإِنْ أَبَى أَنْ يَفِيَ بِالْعَهْدِ قُلْتَ لَهُ
فِ يَا فُلَانُ فِيَاهُ فُوهُ فِي فِينَ

(1) ابن مالك : هو محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني ولد في جيان بالأندلس (600هـ./1203م.) وتوفي في دمشق (672هـ./1274م.) أشهر كتبه : الألفية في النحو. ولامية الأفعال وشواهد التوضيح وتحفة المودود في المقصور والممدود ... (انظر : الزركلي : الأعلام، ج 7 – ص ـ 111) .

10 — وَقُلْ لِسَاكِنِ قَلْبٍ إِنْ سَوَاكَ بِهِ
جِ الْقَلْبَ مِنِّي جِيَاهُ جُوهُ جي جِين

فهذا غاية ما يتبيّن من كلام الملغز أنّه يطلبه اللهمّ إلاّ أن يكون / مراده [262] غير هذه الأشياء الواضحة فليعيّنه لأنّ هذا في الحقيقة من الأمور التي هي كرة تطارحتها أيدي بداهة التلامذة من غير مريّة . وكان الوجه في تطلّبه لذلك محبّة الاسترسال في المحاورة ولو بمثل هاته الأشياء .

قال : وهذا قولهم لوقوعها بين عدوّتيها ليس على إطلاقه لتخلّفه في يضع ويهب ونحوهما وإن اعتذر عن ذلك بالحلقية .

أقول : يتبيّن من كلامه أنّه معترف بالقاعدة المذكورة وكونها مبحوثا فيها بما اعتذر عنه فما هذا أوّل بحث في قاعدة على أنّ قواعد الصرف أغلبية لا يحتاج معها إلى هذا التهويل . وكأنّي بإيراد مثل هذا جاء في غير محلّه اللّهمّ إلاّ أن يكون القصد به إفادة المطالعين أنّ تلك القاعدة ليست على إطلاقها ليحصلوا بذلك على ميثاقها .

قال : وأمّا ثالثا فلأنّ تفاقم الخلاف إنّما هو في إناطة الصدق والكذب بالمطابقة للواقع فقط أو له ولاعتقاد المخبر ولو خطأ أو للاعتقاد لا غير مفسّرا لمعناه المشهور أي التصديق أعمّ من العلم والظنّ وغيرهما كما ارتضاه في شرح الأطول أو بمعناه المشهور كما هو مقتضى عبارة المفتاح .

أقول : القصد ببسط هذا الخلاف المتفاقم في مناط الصدق والكذب هو معارضة ما حكاه الشيخ أبقاه الله من اتّفاق الأئمّة على إناطة الصدق والكذب بمطابقة الكلام لمدلوله وعدمها . ومعاذ الله أن يكون الشيخ ممّن لا يعرف متن التلخيص أو ممّن لا يضبط هذا الخلاف الذي حكاه الحبيب . كيف وعبارة الشيخ هكذا : إنّ الأئمة اختلفوا في مدلول الجملة الخبرية : هل هو الإثبات أو الثبوت بعد اتّفاقهم على أنّ الصدق والكذب منوطان ... الخ — وهذه العبارة صريحة / في أنّه يحكي اتّفاق من حكى [263]

عنهم الاختلاف وهم الأئمة أي أئمّة أهل السنّة المختلفين في مدلول الجملة الخبرية بعد اتّفاقهم على أنّ الصدق والكذب منوطان بالمطابقة لمدلول الكلام وعدمها كما يدلّ على ذلك بيانه أبقاه الله لمناط الصدق والكذب عندهم باتّفاق ، وهو المطابقة للمدلول وعدمها . فإذا الاعتقاد ليس مدلولا ولا داخلا في المدلول كلاًّ ولا القائل بذلك من الـمُعْتَزِلَةِ أو غيرهم ممّن يقصد بعنوان كونهم من الأئمّة ، كيف وسوقه للأبيات التي نقلها عن بعض الشافعية في الخلاف الواقع بين مالك والشافعي في المسألة من أوضح المخصّصات لتعيين أنّ الاتّفاق كائن من هؤلاء الأئمّة .

فاختلاف الواقع من غيرهم الذي حكاه الحبيب وإنْ بلغ تفاقمه إلى الحدّ الأقصى وصعد إلى عنان السماء وأوضحه المتون في علمي البيان والأصول لا أظنّ أحدا يراه قادحا في اتّفاق هؤلاء الأئمّة الذي حكاه الشيخ أبقاه الله .

ثمّ إن عبارة الحبيب في حكاية القول الأوّل قاضية بأنّ إناطَةَ كلّ من الصدق والكذب بالمطابقة للواقع وكون الكذب منوطا بالمطابقة للواقع لعلّه مشكل وإلاّ فكيف يكون المطابق للواقع كذبا فكأنّي بالعبارة غير محرّرة كما أنّي لم أفهم التقابل الذي حكاه في تفسير الاعتقاد حيث نقل عن شرح الأطول أنّه مفسّر بمعناه المشهور ثمّ قال أو بمعناه المشهور كما هو مقتضى عبارة المفتاح فلم أر في هذا التقابل إلاّ الشهرة في المعنيين ومع بلوغهما في الشهرة إلى هذا الحدّ فقد يشكل فَهْمُ التقابل بينهما على كلّ أحد فليتحرّ في أصل العبارة .

على أنّ الحبيب حفظه الله نقل التفسير الأوّل من شرح الأطول ولم نهتد
[264] لمعرفة هذا الكتاب لأنه إن عنى / أطول المولى العصام فإنّ ضعف بضاعتي إلى الآن لم يطلعني على شرح عليه يعرف بشرح الأطول فنرجو من جناب الحبيب أن يمنّ بالهدايّة إليه ، وإن عنى به التأليف المتعارف لنا فالجادّة في التعبير عنه إنّما هي الأطول لا شرح الأطول . وهذا التعبير قد تكرّر من

الحبيب مرارا فحسبي أن أقول إنّه سَبْقُ قَلَمٍ أدّى إليه تعوّد اللسان ، وحاشاه أن يحمله على أنّ الإضافة للبيان .

قال : والذي اضطرّهم لذلك أنّه لا يشترط في صحّة الحكم مطابقته للأعيان إذ قد لا توجد طرفاه ولا لما في الأذهان إذ قد ترسم فيها الكواذب فالمعتبر إذن مطابقته لما في نفس الأمر .

أقول : اسم الإشارة من قوله : اضطرّهم لذلك راجع إلى القول الأوّل الذي حكاه الحبيب في معنى الصدق والكذب وهو المطابقة للواقع . والقصد بهذا توجيهه وترجيحه على مقابليه مع أنّ هذا التوجيه في نفسه ضعيف إن لم نقل إنّه لا يتمّ وإن كان أصل القول في نفسه وجيها حتّى قال فيه صاحب الأطول : إن الملخص أعجب في بيانه حتّى بالغ في صحّته وظهور سلطانه إلى أن استغنى اعتباره عن نسبة إلى الجمهور وعن التأييد بتعارفه والشهادة بأنّه المعوّل عليه كما صنع ذلك كلّه صاحب المفتاح . ه.

بيان ضعف التوجيه الذي ذكره الحبيب هو أنّ قوله إنّه لا يشترط في صحّة الحكم مطابقته للأعيان يفيد أنّ هنالك من يقول إنّ الصدق والكذب هما المطابقة للأعيان وعدمها وهذا غير معهود في كلام القوم ولعلّه غير موجود .

وقوله : ولا لما في الأذهان إذ قد ترتسم فيها الكواذب كان إبطاله بارتسام الكواذب لم يتمّ للقوم كما أوضحوه في محلّه ووجّهوا به عدول الخطيب القزويني عنه إلى ما ذكره في التلخيص . فالمرجوّ إعادة النظر على كلام الكاتبين / في ذلك المبحث . [265]

بقي أنّ قول الحبيب : إذ قد لا توجد طرفاه ، بيد أنّ الطرفين تثنية طرف وهو مذكّر والتاء في توجد للتأنيث فيكون قد أنّث الفعل المسند إلى المثنّى المذكر فهو بمنزلة قولنا : تقوم الزيدان فانظر توجيه ذلك .

قال : وهو مرادهم بالواقع والخارج ثمّ تشعّب الخلاف في تفسير الواقع ونفس الأمر لما أنّه لم يتصوّر للنسبة المسمّاة بهما سيّما في المعدومات والممنوعات حصول إلاّ بحسب التعقّل .

أقول : الضمير المفرد المنفصل في قوله : وهو مرادهم لم نجد له معادا يتّضح معه المقصود على وجه صحيح . بيان ذلك أنّ جادّة الكلام تقتضي أنّه يعود على ما قبله أعني نفس الأمر ويقتضي ذلك أيضا قوله فيما يأتي : فمن قائل إنّهما الجوهر المجرّد لكن لا يحسن معه قوله هنا لما أنّه لم يتصوّر للنسبة المسمّاة بهما حصول إلاّ بحسب التعقّل .

وحيث لم يتمّ لنا سلوك هاته الجادّة عدلنا بالضمير المذكور إلى ارجاعه إلى ما من قوله لما في نفس الأمر فصحّ لنا في الجملة لولا أنّه أدى إلى اختلال ما بعده لأنّ ضَمِـيرَ التثنية من قوله للنسبة المسمّاة بهما حينئذ يكون عائدا على الواقع ونفس الأمر والنسبة المذكورة إنّما تسمّى بالواقع لا نفس الأمر لأنّها ما في نفس الأمر لا الأمر نفسه .

على أنّه لا يحسن معه أيضا قوله فيما يأتي فمن قائل إنّهما الجوهر المجرّد ، وحيث أشكل علينا فهم هذا الكلام لزمنا الرجوع به إلى أصله فوجدنا طريقته مُذَلَّلة وهي أن يبيّن الحبيب أوّلا أنّ الواقع والخارج يستعملان بمعنى النسبة الخارجية تارة وبمعنى ما هو طرف لها تارة أخرى كما صرّح به القوم . ثمّ يتكلّم بعد ذلك على كلّ من المعنيين بما يليق به
[266] ويبيّن معنى نفس الأمر عند القوم ما هو / قال : فمن قائل إنّهما الجوهر المجرّد المسمى بالعقل الفعّال المترسمة به صور الكائنات بأسرها وأحكام الموجودات والمعدومات وهو المعبّر عنه في القرآن الكريم باللوح المحفوظ . والكتاب المبين المشتمل على كلّ رطب ويابس وقد نوقش في ذلك بما ليس هذا محلّه . ومن قائل بما يطول توضيحه .

هنا أقول : ليت الحبيب ذكر المناقشة في التفسير الأوّل في هذا المحلّ لأنّها لا فرق بينها وبين ذكر أصل التفسير فيما ذكر . فالذي أساغ ذكر

الأصيل يسيغ ذكر الفرع ويا ليته أطال في توضيح ما أشار إليه في التفسير الثاني لأنّه لا يخلو إمّا أن يكون كالأوّل وحينئذ يطالع مثل السابقة أو أنّ الإطالة ترجع بجناب الحبيب إلى ما تضافر عليه أرباب الفنّ في تفسير نفس الأمر فيتّضح الحال لأنّ أهل الفنّ الملغز فيه يقولون إنّ معنى قولهم هذا الأمر موجود في نفس الأمر أنّه متحقّق في نفسه وليس اعتباريا محضا . فلفظ الأمر في العبارة إظهار في محلّ الإضمار فتؤدي الإطالة في توضيح القول الثاني إلى ذكر الشيء في محلّه .

قال : وهذا هو الخلاف الذي تعرّض لبعضه في المطوّل قبيل مبحث الإسناد الخبري .

أقول : رويدك ، حفظك الله ، وتجاوز عبارة الخطيب القزويني في متن التلخيص إلى ما أشار إليه السعد في شرحه المطوّل قبيل مبحث الإسناد الخبري كما قال الشيخ لأنّ السعد بعد أن فرغ من جميع التنبيه قال في المسودة في السطر 12 من الصفحة 29 ما نصّه :

« واعلم أنّ المشهور فيما بيْن القوم أنّ احتمال الصدق والكذب من خواصّ الخبر لا يجري في غيره من المركّبات مثل : الغلام الذي لزيد ، ويا زيد الفاضل ، ونحو ذلك ممّا يشتمل على نسبة . وذكر بعضهم أنّه لا فرق بين النسبة في المركّب الإخباري وغيره إلى أن قال : وأيّا ما كان فالمركب إمّا / مطابق فيكون صادقا أو غير مطابق فيكون كاذبا فيا زيد [267]
الانسان : صادق . ويا زيد الفرس : كاذب . ويا زيد الفاضل يحتمل . هـ » .

وهذا هو المعنى لصريح عبارة شيخنا وبالتروّي في كلامه لا يستشكل تنزيله على كلام السعد المذكور في حكاية الاتّفاق على إناطة الصدق والكذب بمدلول الكلام لأن إضافة أصل إلى الخلاف في قول الشيخ وممّن أشار إلى أصل الخلاف إمّا أن تجعل حقيقية أو بيانية . أمّا على جعلها بيانية فظاهر

لأنّ المراد بالخلاف حينئذ الخلاف في المدلول ولا يخفى أنّ كلام السعد فيه إشارة إلى ذلك لأنّ كلام البعض المختلف يتبيّن منه أنّه مبنيّ على أنّ المدْلولَ عنده الثبوت بمعنى تعلّق أحد الشيئين بالآخر . فالتعبير بالإشارة في محلّه لأنّ غاية ما ذكره السعد الخلاف في جريان الصدق والكذب في المركّبات هل يتقيّد بالخبرية . وهذا ليس صريحا بذلك الخلاف بل هو إشارة إليه .

وأمّا على جعل الإضافة حقيقية فالمراد بالخلاف الخلاف في جريان الصدق والكذب هل هو مختصّ بالمركّبات الخبرية وهذا لا ينافي الاتّفاق على أنّهما منوطان بمطابقة الكلام لمدلوله كما قال لأنّه في موضعه وحينئذ التعبير بالإشارة وبالأصل ظاهر أمّا الإشارة فلما ذكرنا وأمّا الأصل فلأنّ الخلاف في الجريان المذكور مبني على الخلاف في المدلول ما هو ؟ وحينئذ لا يبقى إشكـال .

قال : فأمّا الخلاف في أنّ مدلول الخبر الإثبات أو الثبوت فهو لفظي كما في حواشي المطوّل فليس ثمّة خلاف في الحقيقة .

أقول : هذا الكلام ساقه الحبيب لردّ قول الشيخ : إنّ الأئمّة اختلفوا
[268] في مدلول الجملة الخبرية : هل هو الإثبات ؟ / أو الثبوت ؟ متمسّكا بما في حواشي المطوّل من جعل الخلاف لفظيا حتّى لا يكون ثمّة خلاف حقيقيّ وعليه فلا فرق بين الإثبات والثبوت ومعاذ الله أنا لا نميّز بين الإثبات الذي هو الحكم بالنسبة والثبوت الذي لا يتوقّف على حكم . وإن ذكر ذلك بعض الحواشي . على أنّ من صعّد نظره إلى مغازي الكلام علم أنّ داعيهم لتصيير الخلاف لفظيا إنّما هو التوفيق بين كلامي السعد والسيّد في شرح المفتاح فإنّ كلام السعد قاضٍ بأنّ مدلول الخبر هو الثبوت وقد جزم السيّد في شرح المفتاح بأنّ مدلول الخبر هو الإثبـات فتكلّف السيلكوتـي في حواشيه لذلك بجعل الثبوت في كلام السعد الثبوت من حيث الحصول في الذهن وهو

من هذه الحيثية الإثبات بعينه وبذلك صار التخالف بين كلامي السعد والسيّد مفظيا فلا اختلاف بينهما وحينئذ يكونان متّفقين على أن المدلول هو الإثبات بهذا التصيير. وهل يتعمّد المثبتون إنكار أصل الخلاف بين الإثبات والثبوت بسبب هذا الجمع بين كلامي السعد والسيّد ؟ فمعاذ الله أن يفهم الشيخ من هذا الجمع بين الكلامين أنّه ليس ثمّة خلاف في الحقيقة أو يرضى به . كيف والإثبات فعل والثبوت من حيث الحصول انفعال . وهل يروج على البصير بالفنّ أن لا فرق بين الفعل والانفعال ؟

على أنّ أصل الخلاف مقـررّ عنـد الأصوليين ففي جمع الجوامـع ومدلول الخبر الحكم بالنسبة لاّ ثُبوتها وفاقا للامام وخلافـا للقرافـي وحاصله : أنّ الرازي يقول إن مدلول الخبر الإثبات والقرافي يقول : الثبوت . وعلى ذلك انبنت مسائل فقهية مختلفة الأحكام في المذاهب على مقتضى رأي الأئمّة في مفهوم النسب التقييدية هل / تحتمل الصدق والكذب [269]
بناء على أن مدلول الخبر مجرّد الثبوت أو لا تحتملهما بناء على أنّ مدلول الخبر هو الإثبات ؟

ومن ذلك مسألة ما إذا أشهد الشهود بأنّ زيدا بن عمرو وكلّ خالدًا فبعد اتّفاق الأئمّة على أنّ الشهادة واقعة بالتوكّل من زيد اختلفوا هـل تتعدّى الشهادة المذكورة إلى ثبوت بنوّته لعمرو ضمنا وهو مذهب الشافعي بناء على أن مدلول الخبر هو مجرّد الثبوت من غير توقّف على إثبات من المتكلّم أو لا تتعدّى الشهادة المذكورة إلى ثبوت البنوّة وهو مذهب مالك بناء على أن مدلول الخبر هو الإثبات أي الحكم بالثبوت والنسبة التقييدية الإثبات فيها وهي المسألة التي نقلها الشيخ في الأبيات الثلاثة عن بعض الشافعية . وهل يسعنا إنكار هذا الخلاف بعد بلوغه إلى ذلك الحدّ ؟

فمثل الشيخ لا يعدل عن قواعد مقرّرة في الفروع والأصول جارية على جادّة المعقول بمجرّد توقيف بين عبارتين .

قال : ثمّ إنّ بناء تعلّق التصديق والتكذيب بالمركّبات التقييدية لو فرض الخلاف حقيقيا على أنّ مدلول الخبر الثبوت لا يستقيم إلاّ على ظاهر ما حقّقه السيّد الشريف لكان إمعان النظر فيه يُفضي إلى أنّهما لم يزالا قاصرين على الخبر غايته أنّ الخبر إمّا صريح في التركيب أوْ لا ولذا ختم عبارته بقوله : فصحّ أنّ الحق ما هو المشهور من كون الاحتمال من خواص الخبر .

أقول : لا يخفى على الناظرين أنّ جناب الحبيب يسلّم للشيخ تعلّق التصديق والتكذيب بالمركّبات التقييدية على أنّ للمركبات التقييدية نسبة هي الثبوت كما فهم ذلك من ظاهر ما حقّقه السيّد الشريف غاية أنّه هنالك
[270] نزاع ينشأ من إمعان النظر في كلام السيّد وفهمه / على خلاف ظاهره وحينئذ فأصل البناء الذي قرّره الشيخ في قوله : أمّا إذا قلنا مدلول الكلام هو الثبوت فلا مانع أن يتعلّقا بالمركّبات التقييدية باعتبار إشعارها بالنسب الخارجية قدر اتّفاق بين الشيخ والحبيب فلا يقبل نزاعا من جديد نعم يبقى الكلام في إمعان النظر الذي أفضى إلى تلقّينا بتلك الغرر التي أملاها علينا ذلك الحبيب الأبرّ فإنّه حفظه الله ذكر أن إمعان النظر في كلام السيّد يفضي إلى أنّ التصديق والتكذيب لم يزالا قاصرين على الخبر إمّا الصريح أو غير الصريح .

وهذا كأنّي به لا يعارض كلام الشيخ على هذا الفهم لأنّ الشيخ ذكر في عبارته السابقة أنّه على جعل المدلول هو الثبوت فلا مانع من تعلّق التصديق والتكذيب بالمركّبات التقييدية باعتبار إشعارها بالنسب الخارجية واعتبار هذا الإشعار الذي قاله الشيخ هو المعبّر عنه بالخبر غير الصريح في كلام الحبيب فحينئذ هذا الإمعان أدّى إلى غير ما سيق له كلام السيّد بل وكان أيضا موافقا لكلام السيخ فيا نعم الإمعان لو كان كلام السيّد يقتضيه لكنّ الإنصافَ أنّ مجرّد التأمّل في كلام السيّد قاضٍ بأنّ صريحَ كلامه إنّما هو ردٌّ ذلك القيل الذي حكاه السعد عن بعضهم آنفا لكن بغير ما ذكره السعد من معلومية النسبة في المركّبات التقييدية دون الخبرية وهو أنّ النسبة

في الخبر من حيث ذاتها مُشْعِرَة بوقوع نسبة خارجية عنها فلذلك احتملت عند العقل مطابقتها ولا مطابقتها بخلاف نسبة المركّبات التقييدية فإنّ إشعارها بوقوع النسبة الخارجية لا لذاتها بل لما تشعر به من النسب الخبرية فاحتمالها / [271] للصدق والكذب بواسطة ما تشعر به أي والمعتبر احتماله حتّى يكون صادقا أوْ كاذبا هو المشعر بالذات لا بواسطة . وبعد أن ذكر السيّد معنى ما تقدّم ومثّل لكلّ من النسبة الخبرية والتقييدية وأوضح ذلك قال ما نصّه :

« فنسب الخبرية تشعر من حيث هي بما توصف باعتباره بالمطابقة » أي الصدق والكذب فهي من حيث هي محتملة لهما . وأما التقييدية فإنّها تشير إلى نسب خبرية والإنشائية تستلزم نسبا خبرية فهما بذلك الاعتبار يحتملان الصدق والكذب . وأمّا بحسب مفهومها فلا يصحّ أنّ الحقّ ما هو مشهور من كون الاحتمال من خواصّ الخبر . هـ.

فهذا الكلام صريح في الردّ على ذلك القيل الذي حكاه السعد لأنّ ظاهره يوافقه كما قال الحبيب وبمثل ما ذكرنا فهمه العصام كما ستراه وقول الحبيب غايته أنّ الخبر إمّا صريح في التركيب أو لا ليس في كلام السيّد ما يقتضيه لما تبيّن . هـ.

[زيادة شرح من الشيخ سالم بوحاجب]

وقد كتب شيخنا في زيادة الشرح بما وجّهه من بلد إيطاليا ونصّه : الحمد لله وقفت على عدد 26 من الرائد

لاَ زَالَ لِمَنْ مُفِيداً وَلِيُمْنٍ وَارِداً فَرَأَيْتُ بِهِ مَا يَرُوق النَّاظِرَ وَيَسُرُّ الْخَاطِرَ وَيُحِلُّ الْغَائِبَ مَنْزِلَةَ الْحَاضِرِ مِنْ إفادَاتٍ تَبْعَثُ الأُنْسَ وَالْحَنَسَ (1) بِانْبِعَاثِ رِيَاحِ النَّصْرِ عَلَى علم

(1) حنس يحنس حنسا : لزم وسط المعركة شجاعة .

الشَّخْصِ وَالْجِنْسِ . فَاللَّهُ يُدَعِّمُ تَأْيِيدَ الإِسْلاَمِ وَتَسْدِيدَ الْمُنْصِفِينَ مِثْلَكُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الأَعْلاَمِ فَلَقَدْ أَحْسَنْتُمْ فِيمَا أَبَنْتُمْ وَعَلَى الإِرْشَادِ أَعَنْتُمْ وَلِصَحِيفَةِ الْوَطَنِ زَيَّنْتُمْ غَيْرَ أَنَّكُمْ حَفِظَكُمُ اللَّهُ بَالَغْتُمْ فِي تَرْوِيجِ الْحَقِيرِ وَالتَّهَكُّمِ بِبَهَارِجِ الْحَبِيبِ الشَّطِيرِ لَكِنِ كُلُّ مُؤَلِّفٍ فَهُوَ كَمَا قِيلَ
[272] مُسْتَهْدَفٌ وَلاَ يُؤْمَنُ / غَيْرَ نَفْسِهِ إِنْ لَمْ يُنْصِفْ . وَعِنْدَ قِرَاءَتِي مَا كَتَبْتُمْ هَشَّتْ نَفْسِي إِلَى تَعْلِيقِ مُلاَحَظَاتٍ لاَ أَكْتُمُهَا عَنْكُمْ سَوَاءٌ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا لأَنِّي فِي الْوَاقِعِ لاَ سَبَبَ لِسُكُوتِي أَوَّلاً إِلاَّ انْقِبَاضِي عَنِ الْكَلاَمِ الْحَائِدِ عَنِ الآدَابِ الْجَدَلِيَّةِ مَعَ التَّحَاشِي عَنِ الإِخْلاَلِ بِحُقُوقِ الْوَارِدِينَ . فَمِنَ الْمُلاَحَظَاتِ أَنَّ اللُّغْزَ النَّحْوِيَّ صَرِيحٌ فِيمَا أَلْغَزَ فِيهِ الرَّمَامِينِي رَحِمَهُ اللَّهُ فَلاَ يُفَسَّرُ إِلاَّ بِذَلِكَ حَبَّ الْحَبِيبُ أَمْ كَرِهَ حَيْثُ إِنَّهُ أَوَّلاً قال : ما هي لَفْظَةٌ ؟ .. فهو يسأل عن كلمة جزئيّة لا عن حقيقة كليّة كفاعل المصدر الذي يشير الملغز إلى إرادته . ثمّ وصف اللفظة بأنّ الأفهام ضلّت فيها أي تحيّرت وجرّ فاعل المصدر أمر مشهور معقود له باب مخصوص فالإلغاز فيه بمثابة الإلغاز في رفع الفاعل ونصب المفعول .

وممّا يرفع النزاع مِن البين تصريحه في البيتين الأخرين بأنهم وقفوا على تلك اللفظة بالنقل فسكنوا الحرف الأخير وأعاروا انجراره للحرف الذي قبله . أفينطبق هذا على غير لفظ الصنّبر الواقع في قول طرفة حين هاجه الصنّبر حسبما بينته في الجواب وإن لم يقبله الملغز ؟ لكنّ الظنّ أنّه الآن يلتجىء إلى الموافقة ويستسمحكم في إتْعَابِكم وإسماعِكم قرعَ القواقيز بجلب نُبذة وافرة من أحكام فاعل المصدر لا تعلّق لها بالمقصود حتّى أحوجكم إلى مضايقته بأنّ الفعل لا يطلق على المصدر في الاصطلاح الذي به التخاطب أو إرادة التغليط . لكن كأنّي به يلتزم الأمر الثاني ويعتذر بأنّ

ذلك لا تنبو عنه خطّة الملغز إذ غايته أنّه مجاز خفيّ القرينة . وغالب الألغاز كذلك كقول الحريري في المقامة الفقهية : مَنْ صَلَّى وَعَلَيْهِ صَوْمٌ يُعِيدُ وَلَوْ صَلَّى مَائَةَ يَوْمٍ – أراد بالصوم ذَرْقَ النَّعَام ، والاصطلاح الفقهيّ لا يقبل من معاني الصوم إلا الإمساك عن الشهوتين كما هو معلوم . فإن يجنح الملغز لمثل هذا قائلا : إن الإغماض في المجاز ممّا تقتضيه وظيفة الإلغاز فنقول : إنّ مقتضيات تلك الوظيفة أن يكون الملغز فيه فردًا نادرا غريبا في نوعه لا نوعًا مشهورًا في الكلام أفرد بالتبويب. فنناشدكم الله التسوّغ للمهمّة العلمية لمن اطّلع على لغز الرماميني وعرف جوابه الراشق معرفة تامّة حتّى عدّه كُرَةً تطارحتها الأيدي أن يحوك على منواله لغزا في فاعل المصدر أو في غيره ما لم يكن أبدع منه على أنّ / البيتين الأخيرين لا يقدر معهما على [273] الحلّ بغير الصنّبر كما أوضحناه .

وأما اللغز النحوي فليس بعد بيانكم الشافي في شأنه مزيد بيان ومُلَخَّصُه أنّ مقتضى صناعة الألغاز المشار إليها آنفا أن يكون الملغز فيه هو فعل الأمر من وَأى إذ هو الفرد النادر الذي لا يوجد له نظير في الحذف المنبي لجميع حروفه حتّى لم يبق منه إلا حركة العين . لكن كأنّ صاحبنا لما أشرنا في جوابه إلى أنّ هذا لم يسأل عن تعيين الفعل المذكور بل عن تصريف تلك الحركة فيجاب أوّلاً بما ذكرتم بأنّ كلامه لا يتحمّل هذا المقصد مع أنّ الحركة في نفسها لا تقبل التصريف . وعلى فرض تحميل كلامه لذلك فهذا حاصل سؤال استرشادي بسيط لا ينتظم في سلك الألغاز بوجه من الوجوه . وقد يستعمل مثله في تدريب المتعلّمين كما يقال : كيف تبني من وَأى مثل كوكب ثم تجمعه بالواو والنون ثمّ تضيفه إلى نفسك .

وكَأنَّكم كاشفتم فيما أشرتم إليه من إغضاء العبد على أمور في كلام الحبيب . فمن ذلك أنّ قوله هنا ما ترى في أفعال ماض خفيف قد توالى عليه حذف ... الخ كان الأظهر إبدال الماضي بالأمر لأنّ الحذف إنّما توالى عليه

لا على الماضي . ثمّ لا يظهر وجه لجمع الفعل هنا لأن المسؤول عنه فعل واحد لا يتعدّد إلاّ باعتبار تعدّد الافراد أو اختلاف المسند إليه . ومثل ذلك كما قالوا لا يخرج اللفظ عن الشخصية بحلول الشخص الواحد بعدّة أماكن وتَنَزّيه بعدّة كيفيات . ثمّ إن الحبيب لم يلبث أن رجع إلى الحقّ في ذلك في الوصف فارتكب وصف ذلك الجمع بالمفرد بقوله : لفيف ذي افتراق قد توالى عليه . ولا يدّعي أنّ تلك صفات للفظ الماضي لوجوب حمل لفظ الماضي في كلامه على الزمان لتصحّ إضافة الأفعال إليه فلو قال : أيرى في الكلام فعل لفيف ... الخ لسلم من ذلك . ولا يخفى عنكم أنّ وصفه باللفيف المفروق يوجب أن يكون أحد العشرة المجموعة في نظم ابن مالك رحمه الله . ونفاد حروفه كلّه بحيث لا تبقى منه إلاّ حركة العين المنقولة يعيّن كون العين همزة فإذًا المسؤول عنه كلّيّ انحصر في فرد وهو أمر مرئي وفي تعريفه عملان زائدان على تصريف العشرة المشار إليها وهما النقل وحذف العين بل تلك العشرة عند إسنادها للضمائر البارزة ليس في تصريفها زيادة على سائر الأفعال المعتلّة فكان المقصد الأهمّ للإمام ابن مالك هو استيعاب ما ورد في كلامهم من اللفيف المفروق ، ولإتمام هذا ألغز من كنت ذيّلت كلامه بستّة أبيات أو سبعة لا أستحضر الآن نصّها . لكن من بناء ينسج مثلها على منوال ابن مالك لا يؤده أن يقول بعد البيت الأخير وهو قوله : (من بحر البسيط)

1 — وَقُلْ لساكنِ قلبٍ إنْ شَوَاكَ بِه
جِ القَلْبَ منْهُ جِيَاهُ جُوهُ جِي جِينَا

2 — وإنْ تَرُمْ كَتْبَ ما يُشْفِي هَتَّاكِ فَقُلْ
حِ رِقَّ رَاقٍ حِيَاهُ حُوهُ حِي حِينَا

3 — وإن تَرَ العُنْفَ مجاي الإعرَاضَ عنك فَقُلْ
خِ نَهْجَ رِفْقٍ خِيَاهُ خُوهْ خِي خِينَا

لا على الماضي . ثمّ لا يظهر وجه لجمع الفعل هنا لأن المسؤول عنه فعل واحد لا يتعدّد إلاّ باعتبار تعدّد الافراد أو اختلاف المسند إليه . ومثل ذلك كما قالوا لا يخرج اللفظ عن الشخصية بحلول الشخص الواحد بعدّة أماكن وتَنَزّيِّيه بعدّةِ كيفيات . ثمّ إن الحبيب لم يلبث أن رجع إلى الحقّ في ذلك في الوصف فارتكب وصف ذلك الجمع بالمفرد بقوله : لفيف ذي افتراق قد توالى عليه . ولا يدّعي أنّ تلك صفات للفظ الماضي لوجوب حمل لفظ الماضي في كلامه على الزمان لتصحّ إضافة الأفعال إليه فلو قال : أيرى في الكلام فعل لفيف ... الخ لسلم من ذلك . ولا يخفى عنكم أنّ وصفه باللفيف المفروق يوجب أن يكون أحد العشرة المجموعة في نظم ابن مالك رحمه الله . ونفاد حروفه كلّه بحيث لا تبقى منه إلاّ حركة العين المنقولة يعيّن كون العين همزة فإذًا المسؤول عنه كلّيّ انحصر في فرد وهو أمر مرئي وفي تعريفه عملان زائدان على تصريف العشرة المشار إليها وهما النقل وحذف العين بل تلك العشرة عند إسنادها للضمائر البارزة ليس في تصريفها زيادة على سائر الأفعال المعتلّة فكان المقصد الأهمّ للإمام ابن مالك هو استيعاب ما ورد في كلامهم من اللفيف المفروق ، ولإتمام هذا ألغز من كنت ذيّلت كلامه بستّة أبيات أو سبعة لا أستحضر الآن نصّها . لكن من بناء ينسج مثلها على منوال ابن مالك لا يؤده أن يقول بعد البيت الأخير وهو قوله :

(من بحر البسيط)

1 — وَقُـلْ لساكـنِ قلْبٍ إنْ شَوَاكَ بـه
جِ الْقَلْبَ منْـهُ جِـيَـاهُ جُوهُ جِي جِـينَا

2 — وَإنْ تَرُمْ كَتْبَ ما يُشْفـي هتّاكِ فَقُلْ
حِ رِقّ رَاقٍ حِـيَـاهُ حُـوهُ حِي حِـينَا

3 — وَإن تَرَ العُنْفَ مجاي الإعراضَ عنك فَقُلْ
خِ نَهْـجَ رِفْـقٍ خِـيَـاهُ خُوهْ خِـي خِينَا

4 ـ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَبْتَغِي اجْتِمَاعَهُمْ
زِ صَاحِ أَوْ قُلْ زِيَا أَوْ زُوا وَزِي زِينَا
5 ـ وَإِنْ دَعَوْتَ بِإِذْلاَلِ الْوُشَاةِ فَقُلْ
صِ صَاغِرًا أَوْ صِيَا أَوْصُوا وَصِي صِينَا
6 ـ وَقُلْ لِيَلْقُوا عِثَارًا دونَ مَقْصُودِهِمْ
هِ لاَئِعًا أَوْ هِيَا أَوْهُوا وَهِي هِينَا
7 ـ وَهَاكَ جَمْعًا لِمَفْرُوقِ اللَّفِيفِ حَوَى
فَكِ الْجِرَابَ كِيَاهُ كُوهُ كِي كِينَا

وَحَى : كتب ، وَوَخَى : قصد ، وَوَزَى : اجتمع ، وَوَصَى : خسر بعد رفعه ، وَوَهَى : سقط ، وَوَكَى الجراب : ربط فمه بالوكاء والإشارة به هنا إلى استحفاظ تلك النظائر وهو مناسب في تمام الكلام . وهذا الاستطراد وإن كان من باب قرع القواقيز لكن أنتم حفظكم الله فتحتم هذا الباب وسبقنا لمثل ذلك أخونا الملغز فإن توجّهت الملامة فهي مشتركة . وعلى كلّ حال لا تخلو حركة من بركة فالله يجازي الجميع بالإرشاد إلى حسن الصنيع .

كتبه سالم بوحاجب
في 27 رجب سنة 1293 (1)

رجـوع إلى المقصد (2)

وقد كان قصدي الوحيد هو التوجّه من بيروت إلى زيارة بيت المقدس وذلك ما أشرت إليه في مطلع قصيدتي (3) بقولي : (من بحر الطويل)

شَدَدْتُ رِحَالِي أَقْصِدُ الْمَسْجِدَ الأَقْصَى
بُعَيْدَ مَزَارٍ فَضْلُهُ لَيْسَ يُسْتَقْصَى

(1) يوافق 18 أوت سنة 1876 .
(2) إلى هنا ينتهي النص المقحم بخط المؤلف ابتداء من الصفحة 272 . وهذا الاقحام هو سر طول الصفحة 273 .
(3) أنظر أعلاه صفحة 192 .

وأخذت من السيّد عارف المنير الحسني مكتوبا لرئيس الضبطية لخفر الطريق . وكان المكتوب مؤرخا في سادس ربيع الأول . قال فيه ما لفظه :

« إن جناب الفاضل مولاي الحاج محمّد التونسي السنوسي شيمه تغني
[274] عن وصفه فلا أطيل فيما هو ظاهر . المأمول من جنابكم أن تعاملوه / بما تعاملونا به لو كنا عندكم وإن احتاج لضبطية تصحبه إلى الخليل فارسلوا معه . واغتنموا وثناءه (كذا) وخدمته من تنفّسات الدهر لا يحظى بها كل آن . والسلام » .

غير أن أحبابي في بيروت أجمعوا على خطر الطريق في ذلك الوقت وذكروا لي أنّ استصحاب أحد الضبطية لا يغني عنه وعنك إذا صادفكم اللصوص الموجودون في ذلك الوقت فثبّطوني عن عزمي واختشيت أن أقع في مثل ما وقعت فيه في طريق المدينة وتحاميت الخطر ورجعت عن قصدي الأوّل ودعاني داعي طول الاغتراب إلى الانبعاث لمواصلة الأقرباء والأتراب سيّما والبلاد التونسية قد صفا جوّها بانقشاع غيوم وزارة مصطفى بن إسماعيل وموت مخدومه الصادق باشا اللذين ولعا ببعد الافراد عن مناظر البلاد عن مجرّد خبث في النفوس والله ولي المؤمنين .

وقد ركبنا من مرسى بيروت قصد التوجه إلى مالطة . وكان الركوب عشية يوم الأربعاء الرابع عشر من ربيع الأول ومررنا يوم الخميس بمرسى عكّا ومرسى حيفائم في يوم الجمعة مررنا على مرسى يافا وحمل الفابور من فاخر برتقانها ما تسوّقه التجّار إلى البلاد المصرية . وهو أعظم برتقان رأيته منه ما يبلغ معتاد الأترجة بتونس .

وعلى ذكره تذكّرت أبياتا من لطائف شعر أستاذنا شاعر البلاد التونسية (1) يشكر بها من أهدى إليه بردقانه : (من بحر الوافر)

(1) المقصود هنا هو محمود قابادو .

1 — بِنَفْسِي لَوْذَعِيًّا قَدْ سَقَانِي
كُؤُوسًا مِنْ حَلاَلِ الْبُرْتُقَانِ
2 — أَقُولُ لِكَأْسِهَا الْمِسْكِيِّ عَرْفًا
لِمَاذَا قَدْ كَسَيْتَ الْبُرْدُقَانِ
3 — فَاوحت ان في قلبي وقلبي
لا نفع ماتى في البرد فان / [275]

واجتزنا إلى مرسى بورت سعيد عند زوال يوم السبت السابع عشر من ربيع الأول . وكان طريق اجتيازنا على الإسكندرية بعد إقامة الفابور للوسق . فصادفنا فابورا انقليزيا بمرسى بورت سعيد يقد النار للسفر حالاً إلى مالطة سواء دون وقوف في المرسى . وكان الشوق يستحثّ فدعاني إلى تجديد الكراء مع الفابور الانكليزي وترك فابورنا بما أخذ منا الكراء ودفعنا إحسانا عن استخراج أمتعتنا من خزنته السفلى في ذلك الوقت وساعد التيسير الإلاهي على التمكّن من مصاحبة الفابور الثاني .

وقد وجدت ستّة أفراد من الحجّاج في بورت سعيد ألقتهم هنالك أيدي الكرنتينات وبعضهم انقطعت به الأسباب من أهالي بنزرت والكاف وتعلّقوا بي للمرافقة فيسّر الله لجميعهم الاكتراء معنا واستصحبتهم لهذا الفابور لتقصير مسافة السفر وأقلع حين حللنا به . وسرنا أوّلا في نواطيب وكانت بيوته على سطحه نوافذها متّسعة تعطي أحسن المناظر .

[زوبعة بحرية تَعْتَرِضُ الفابور]

ولكن بعد مضيّ الليل هاج البحر وماج وتوالت العواصف واضطربت الأهوية وتغيّرت الأنواء ولاقيت من البحر أشدّ ما يذكره المسافرون في أخباره وتوالى ذلك علينا يومين لم ينقطع فيهما الموج ولا المطر عن وسط

القابور . وكانت خادمة البحرية المكسوين بالجلود متواصلة وهم يتدرّعون
لذلك الخوض في الماء بشرب الشاي المسترسل بأكبر الأقداح . وحيث إن
الدوار كان يمنعني من الأكل لَمْ أترك حظّي من كثرة شرب الشاي إلى
أن أفرج الله تلك الغيوم وطلعت الشمس بوجهها المعلوم وخضع البحر للسفينة
وساقها الله بريح طيّبة أعانت موقد نارها فسارت تسير بها النار والريح
[276] إلى أن أدركنا / مشاعل مالطة آخر الليل . وسرنا الهوينا ودخلنا مرساها بعد
وضوح الفجر من يوم الخميس الثاني والعشرين من ربيع الأول .

مالطة

هذه جزيرة من جزر البحر طولها عشرون ميلا وعرضها اثني عشر ميلا ودورتها ستون ميلا وقاعدتها بالته تسمى المدينة . وقد عرفت هذه الجزيرة أخيرا باسم كامرينة واستوطنها الفينيقيون فسمّوها أوجاجه وسماها اليونان ميليته . واشتهر ذلك سنة 822 قبل الميلاد . وميليت في السريانية اسم إلاه يعرف في غيرها بجونو وأول القبائل التي استوطنها يقال لها الفياكنس ونزلها بعدهم الفينيقيون إلى أن تغلّب عليهم الاغريقيون بعد نحو أربعمائة وخمسين سنة . ثمّ سلّموها للقرطاجنيين نحو سنة 528ق.م. ثمّ جاء من بعدهم الرومانيون سنة 283ق.م. وقدم إليها ماربولس وانكسرت سفينته في خليج يسمّى به الآن سنة 58 بعد الميلاد وعند ذلك تنصّر أهل الجزيرة .

وبعد انقراض دولة الرومان استولت عليها قبيلة الفندلس ثم الغوث ثمّ تقلّب عليها البليساريون وأخرجوهم منها إلى سنة 780م. وبعد ذلك فتحها المسلمون في أيّام أبي الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الاغلب أمير إفريقية بالقيروان .

وبقيت هذه الجزيرة للمسلمين مدة مائتي سنة وتسمت باسم مالطة . ولا أرى هذا الاسم إلاّ تعريبا لاسمها الفينيقي السابق كما يظهر ذلك من مجرّد مقابلة أحرف مالطة بأحرف ميليته . ولا حاجة بعد هذا إلى بحث

تاريخي عن اسمها العربي . وقد ذكر مؤرخ الإفرنج حسن معاملة المسلمين
لأهل الجزيرة بالرفق والمياسرة وتوقير سننهم وأحكامهم حتّى امتزجوا / [277]
بهم امتزاجا صار به الجيلان واحدا كما يتبيّن ذلك من بقاء اللغة العربية
فيهم . ولم تزل إلى هذا اليوم لغتهم عربية فاسدة محرّفة في سائر مفرداتها مع
ضيق عظيم لقلّة عدد المفردات التي يخوضون فيها .

وعندما قام الأمير روجر النورماني ألحق جزيرة مالطة بصقلّية فصارت تابعة لحكومتها مدّة استقلالها ودخولها تحت سلطة قيصر جرمانية إلى أن تغلّب عليها ملك فرنسا نابوليون . يقال إنه وجد فيها ألفا ومائتي مدفع ومائتي ألف رطل من البارود وأربعين ألف بندقية وعدّة بوارج وأربعة آلاف وخمسمائة من المسلمين فأطلقهم من الأسر سنة 1798 .

وبعد أمد ثار المالطيون وسفكوا الدماء وملكوا أمر أنفسهم إلى أن استولى على جزيرتهم الانقليز أخيرا . وقد وجدت هاته الجزيرة مشحونة بالمحاسن الانقليزية لحسن موقعها من البحر المتوسّط وللحكومة من التساهل مع أهلها ما ليس في بلاد غيرهم ومع كون حاكم البلاد وحاميتها وحراستها كلّهم انقليزيون يأخذون جراياتهم وجميع لوازمهم العسكرية من ميزانية دولة انقلترة فإن القضاة وفقهاء الأحكام وكتّاب الصكوك والمتوظفين في الدواوين والشرطة جميعهم من المالطيين تجرى عليهم جراياتهم من دخل بلادهم الموزّع على خصوص مصالحها .

وبذلك رأيت من حسن السياسة الانقليزية ما هو من مشارع السياسة
الاسلامية إذ لا يخفى على مطالع للتاريخ الاسلامي أن عمرو بن العاص لما فتح
مصر في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما جعل قضاتها وولاتها وذوي
ولاياتها كلّهم من أهلها الأنباط وأجرى بينهم أحكامهم من حكّامهم .
ومع ذلك كان يقبل آراء أعيانهم في مصالحهم . وبذلك لقي المصريون من / [278]
دولة الاسلام ما فضلوا حالتهم على ما سبق عليهم .

وقد أقمت بمدينة مالطة ثلاثة أيام في انتظار نوبة البريد البحري إلى تونس وجلت في طرقاتها ومنازهها البرّية والبحرية فرأيتها قد خرجت من حالة النكر التي أقام عليهـــا بها أحمد فارس الشديـــاق مدة أربع عشرة سنة وجمع رذائلها في رسالة سمّاها : الواسطة في معرفة أحوال مالطة . وأخرجه منها ذلك النكر فقدم إلى تونس على عهد المقدس أحمد باشا . ولم تسعفه الأيّام بمرامه من الحطام وأقام في حلق الوادي في حرصه وطول أمله حتّى أنشد : (من بحر الرجز)

1 — مَـاذَا جَنَيْـتُ وَمَـا جَنَـتْ أَجْـدَادِي
حَـتَّـى غَـدَا حَبْسِـي بِحَلْقِ الوَادِي

ومدح أحمد باشا بقصيدة قال في مطلعها : (من بحر البسيط)

1 — زَارَتْ سُعَـادُ وَثَـوْبُ اللَّيْـلِ مَسْدُولُ

واشتدّ عليه كرب زوجته ففرّ منها إلى دين الإسلام للاستعصام بالطلاق وأسلم على يد الشيخ محمد بن الخوجة وأدرك ولاية محمد باشا باي ومدحه وتعلّق بأعيان من رجال الدولة . وأكثر من مدحهم بالأشعار إلى أن قضى الأوطار من هاته الديار وساقته الأقدار إلى بلد الخلافة يرمي لأغراضه بسهم صائب فنشر بها صحيفة الجوائب . واستمرّت في طويل الأعوام ، إلى أن منع عنها ولده سليم أثناء الحوادث التونسية والمصرية في خلافة عبد الحميد .

وقد أدركته بالآستانة على هرم يساور فيه متن اللغة العربية وقواعدها الصيرفية ولم يكن موضوع مجلسي معه سوى مسائل من آخر الاشموني صيرفية يستشكلها من جهة متن اللغة لقاعدة أنّ مسائل علم الصرف تجمع نظائر ورد بها متن اللغة ويبقى ما شذّ منها محفوظا وإنّه لا يصحّ استخراج شيء بالقواعد / الصيرفية لم يخالف متن اللغة . ولذلك لم يكن جوابي له عن [279]
جميع ما أورده عليّ إلا بأنّ أمانة الناقل تقضي بوجود ما أورده — ومن حفظ حجّة على من لم يحفظ — .

أمّا مدينة مالطة فقد صارت جميلة المنظر حسنة التقسيم ومرساها من أتقن المراسي فينزل فيه الراكب على الرصيف المنضد . وبما أنّ الجزيرة في ارتفاع كان كثير من طرقها به أدرج مستريحة يصعد بها للطرق التي حولها . وتوجد بها المخازن الكبيرة المعدّة لأحسن المبيعات . وبها حمّام وتياترو وعدّة حدائق . وأكثر تنزّههم في البحر بالزوارق الصغيرة سيّما في ليالي القمر . وعندهم غلال فاخرة ومزارع طيّبة . ولا أقول في أهلها إلا ما أقوله في سائر سكّان المعمور من نوع البشر من أنّهم يوجد في أعيانهم من كرم النفوس وعلوّ الهمّة ولين الجانب ما يوجد في أهل الطبقة الوسطى أو السفلى من الصفات اللائقة بهم .

وفيها من حسن المواصلات التجارية ما اقتضاه موقعها البحري . وأعظم ما كنت أؤمّلُه منها وصول فابور السفر لنبلغ به إلى المقصد المعتبر حتّى جعلت هاته القَوْلَة خاتمة سفري الذي قضيت فيه بمنّة الله جميع وطري . ولم يكن لنا غير توفيق الله من دليل ، وعلى الله قصد السبيل .

وكان الركُوبُ من مالطة بعد زوال يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الأول . ودخلت تونس يوم الإثنين السادس والعشرين من ربيع الأول سنة 1300 ثلاثمائة وألف (1) .

فأنشدت : (من بحر الطويل)

1 – فَألْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى
كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالإِيَّابِ الْمُسَافِرُ

(1) يوافق 5 فيفري سنة 1883 .

الملاحق

الملحق رقم : 1

قصيدة محمد السنوسي في تفضيل الرائد التونسي (1)

لاطار التاريخي لتأسيس صحيفة الرائد :

إن تقييم أيّ شيء لا يمكن أن يكون إلاّ بوضعه في إطاره الزمني المكاني في القرن الماضي فتحت الحوادث أعين السياسة الاوروبية على مصر والجزائر وتونس وغيرها من البلاد الإسلامية . ذلك أن الخلافة العثمانية كانت في مستهلّ القرن التاسع عشر في حالة تقهقـر الأمـر الذي استوجب التنظيمات .

وكان ذلك الشعور بضرورة إدخال التنظيمات من السلطان سليم الثالث (1789—1807) . وقد كان للدبلوماسية الفرنسية تأثير كبير في بلاط هذا السلطان ومن أجل ذلك اتخذ سليم الثالث في ما حاوله من تنظيمات مثال المؤسسات الفرنسية . وفي عهده نزل الفرنسيون بمصر عام 1798 ولم يُجْلَوْا عنها بعد سنة ونيف إلاّ بشقّ الأنفس ويفضل معاونة دولة أوروبية أخرى هي انقلترة التي نصبت عام 1882 حمايتها على مصر .

---

(1) نقلا عن الديوان : ص : 91—93. والملاحظ أننا صدرنا هذه القصيدة بإطار تاريخي لتأسيس صحيفة الرائد .

وفي سنة 1830 تمكّن الفرنسيون من أرض الجزائر واقتطاعها من العالم الاسلامي ثمّ أخذ ضغط الدول الأوروبية يزداد على السلطنة العثمانية كما ازداد توغّل الروسيين في اتجاه فارس والامارات الاسلامية الآسيوية . وتداعت القوّة الاسلامية في الهند نحو الانهيار وأصبحت القوّة التي تقدر على صون الاستقلال إنما هي قوّة الحديد والمال والعلم .

من أجل ذلك اهتمّ ولاة الأمر في البلاد الاسلامية بالجيش وبالتعليم العسكري إذ أدركوا وكاد يفوت الأوان أن لا بدّ للاحتفاظ بحكمهم من انتهاج مناهج جديدة غير سياسة صلم الآذان وخزم الأنوف وقطع الرؤوس التي لم تؤد إلاّ إلى الخراب الشامل . وهذه المناهج الجديدة لا يحصل عليها إلاّ بالتعليم ولذا اتضح لهم أن زمان ترك شؤون التعليم لرجال الدين والطوائف قد انقضى وأن لابدّ من إحلال هيمنة ولي الأمر على تلك الشؤون والاّ عدم الجيل الجديد الذي عليه المعوّل في بعث النهضة المنشودة .

ولعلّ أهمّ مميّزات النهضة الاسلامية في القرن الماضي هي ذلك الطابع العسكري الذي أسندت إليه الخلافة العثمانية أوفر العناية بتأسيسها أول مدرسة عسكرية تلقن بها العلوم على غرار ما كان نافقا في دول أوروبا عصرئذ وعلى منوال تركيا نسجت مصر في عهد الخديو محمد علي ثم تونس في عهد المشير الأول أحمد باي .

فليس هناك من شكّ في أن المؤسسات الأولى التي موّلت النهضة في القرن الماضي وعجّلت سيرها قد كانت المدارس العسكرية . فتلك المؤسسات أنجبت خيرة النخبة المصلحة وعن طريقها تيسّر الاتصال بالثقافة الغربية ونهضت بذلك حركة الترجمة التي كان لها تأثير مباشر في ظهور الطباعة ثم الصحافة ، وكل من الترجمة والطباعة والصحافة دعائم لها فاعليتها الايجابية الخطيرة في الاتجاه نحو الحضارة الغربية والاقتباس منها .

. فبمصر أول مطبعة بالحروف العربية ظهرت هي مطبعة بولاق أنشأها الخديو محمد علي بالقاهرة في 8 صفر سنة 4/1238 نوفمبر سنة 1821 . وأول الصحف العربية المصرية ظهرت هي جريدة الوقائع المصرية أنشأها الخديو محمد علي بالقاهرة في 15 رجب سنة 21/1244جانفي سنة 1829 . كما أن حركة الترجمة نهضت في عهده فترجمت الكتب الدراسية في جميع العلوم الرياضية والطبية والجغرافية والتاريخية والنظامات البحرية والحربية وغيرها وطبعت ببولاق .

أما بتونس فالظروف التي احتظنت ظهور الطباعة والصحافة شبيهة بظروف تركيا ومصر ذلك أن التأثيرات التي كانت تدفع إلى تعصير البلاد قد حملت بالفعل البايات المصلحين وأعضادهم نسجا على منوال خديو مصر محمد علي والباب العالي والادارة الفرنسية بالجزائر على البحث عن استخدام مطبعة وجريدة .

ولئن كان أحمد باي (1837—1855) ربما قد فكّر في مشروع من هذا القبيل فإنه لم تسمح له الفرصة لانجازه . أما خلفه محمد باي (1855—1859) فإنّه أسّس بادىء ذي بدء معملا للطباعة الحجرية نشر مجموعا من القوانين . لكن سرعان ما وقع التفكير في تعويضه بمطبعة حقيقية فوجّه الطلب إلى باريس لاقتناء أجهزتها وحروفها (1) .

ويفيدنا أحمد عبد السلام (2) أن مدير إحدى المدارس المهنية بفرنسا قد انتدب إلى تونس وأسندت إليه مهمّة تعليم مهنة الطباعة لبعض الشبّان التونسيين . إلا أن الحكومة التونسية بدّلت فجأة مشروعها بآخر تحت تأثير قنصل انقلترة ريشارد وود . وفي هذا الصدد يقول أحمد ابن أبي الضياف (3)

(1) أنظر : محمد ابن الخوجة ، متى كان ظهور الطباعة بالحروف العربية في تونس ، المجلة الزيتونية ج 5 عدد 4 محرم 1360/فيفري 1941 ، ص : 144 .

(2) أحمد عبد السلام ، المؤرخون ، ص : 116 .

(3) أحمد ابن أبي الضياف ، اتحاف ، ج 5 ص : 31—32 .

في غرّة محرم فاتح سنة 1277/(20 جويلية 1860) جعل الباي (محمد الصادق) في الحاضرة مطبعة لصحف الأخبار والوقائع والكتب وسميت صحيفتها الرائد التونسي يظهر يوما في الاسبوع . ولا أقول إن المطابع من التحسين بل هي في درجة الحاجي . ولا يخفى أنها من فوائد العمران لأنها تفيد آداب النفس وتسهل وجود الكتب النافعة المفيدة التي كانت مقصورة على الأغنياء . ولمصر اليد البيضاء في إخراج هذه الكتب من حيّز العدم إلى حيّز الوجود .

ويواصل ابن أبي الضياف قائلا : وبالمطابع تقدم من تقدم من الامم حتى صارت في مدن الحضارة كالأمور الضرورية وربما كانت سببا في اطفاء نار فتنة لأن الملوك تنظر بمرآتها إلى مطامح أنظار العامّة فتعالج سقيهما بالأدوية النافعة إلى غير ذلك من فوائدها التي لا تحصى. وأرجو الله أن يلهم للاعتناء بها أهل بلادنا حتى يتحققوا حسن الحسن وقبح القبيح وما يجب عليهم في مجاري العادات وما يجب لهم من الحقوق الانسانية . وجعل (محمد الصادق باي) نظر هذه المطبعة للألمعي الثقة أبي عبد الله حسين رئيس المجلس البلدي وكتب له أمرا في ترتيب لا يتجاوزه ومحصّله أن لا يطبع الا ما ينفع الناس ولا ينافي السياسة والآداب الانسانية على قدر حضارة المملكة واستعداد غالبها ونحو ذلك .

وينهي ابن أبي الضياف حديثه عن جريدة الرائد والمطبعة قائلا :

ولا يخفى أن المطابع تنطق بلسان ممالكها واختلاف حالاتهم في التمدن والحرية . فقد تنطق مطبعة بمقال لا يضرّ بلادها لما في طباع أهلها من العراقة في التمدّن واستوائهم في معرفة الحقوق الواجبة لها وعليها . وربما كان ذلك ضررا في بلد آخر بالنظر إلى طباع أهله ومقدار ما عندهم من المعرفة بما لهم وما عليهم . واختلاف طباع البشر وعادات البلدان من لوازم النوع الانساني ولو شاء الله لجمعهم على الهدى .

وقال في تفضيل الرائد التونسي (1) على سائر الصحف العربية : (بسيط)

1 — تجمّعت صحـف الأخبـار قـاطبـة
حـول الفصاحـة تبغـي فخـر اظهـار

2 — وقـد أتـت تبغـي منهـا مزاولـة
كيمـا تفـوز ولـو منهـا بمعشار

3 — قـالت جوائبهـم قـد جئـت شـاسع مـا
حـولي ولـم أحـظ يوم الأخـذ بالثـار (2)

---

(1) أسس المشير الثالث محمد الصادق باشا باي المطبعة الرسمية التونسية في غرة المحرم سنة 1277/ 20 جويلية سنة 1860 لاصدار جريدة الرائد التونسي وجعل نظر المطبعة لأمير الأمراء حسين رئيس المجلس البلدي وعهد بتحريرها إلى المستشرق الفرنسي منصور كراتي صاحب جريدة عطارد التي كان قد أسسها في مرسيليا عام 1857 والتي استمرت في الصدور سنة واحدة ثم في ربيع الأول سنة 1292/ماي 1875 كلف الوزير الأكبر خير الدين الشيخ محمد-بيرم الخامس بإدارة المطبعة الرسمية التونسية فانتخب الشيخ بيرم الخامس محمد السنوسي محررا لجريـدة الرائد التونسي في 5 شعبان سنة 1293/26 أوت سنة 1876 فبقي السنوسي في هذا المنصب إلى أن دعته السلطات الفرنسية الحامية إلى التخلي عنه في 5 رجب سنة 1298/3 جوان سنة 1881 . والملاحظ أن جريدة الرائد التونسي هي رابعة الصحف العربية في العالم من حيث قدامة العهد بعد جريدة : التنبيه : أصدرها بونابرت بمصر عام 1800 . وجريدة : الوقائع المصرية : أصدرها الخديو محمد علي والي مصر عام 1829 . وجريدة : المبشر : أصدرتها الدولة الفرنسية عام 1847 بالجزائر . (انظر : أحمد ابن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، ج 5 — ص : 32 . انظر أيضا : فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، بيروت 1914 ، ص : 64—65 ، 139—141 . انظر أيضا : أديب مروة : الصحافة العربية نشأتها وتطورها سجل حافل لتاريخ فن الصحافة العربية قديما وحديثا ، بيروت 1961 م. ص : 153—221 . انظر أيضا : مجلة : .I.B.L.A 1954 ص 138—139 . انظر أيضا : محمد ابن الخوجة، متى كان ظهور الطباعة بالحروف العربية في تونس، المجلة الزيتونية ، ج 5 ، عدد 4 ، محرم 1360/فيفري 1941 ، ص : 144 . راجع كذلك : أحمد عبد السلام ، المؤرخون ، ص : 116—117) .

(2) جريدة الجوائب هي أول صحيفة عربية قوية ظهرت في الآستانة سنة 1860 أنشأها أحمد فارس الشدياق اللبناني وهو علم كبير من أعلام الصحافة العربية الأوائل كان واسع الاطلاع على دقائق اللغات الأجنبية إلى جانب تعمقه بالعربية وقد ساعدته كثرة رحلاته إلى أوروبا على الإلمام بفنون الصحافة كما أنه أول من استحدث أكثر الكلمات العربية اليوم شيوعا على ألسنة الصحف أمثـال : مؤتمـر واسطـول وبريـد وحافلـة وأزمة وسنـد (كمبيالة) والبرق (تلغراف) ... الخ . وكان الشديـاق ينشر جريـدة الجوائب أسبوعيا وقد ساعد السلطان عبد العزيز على توسيع نطاق هذه الجريدة لبث فكرة الخلافة النبوية بين المسلمين المنتشرين خارج الدولة العثمانية . وفي جويلية سنة 1879 صدر الأمر السلطاني بتعطيل جريدة الجوائب مدة ستة أشهر لامتناع صاحبها عن نشر مقال طعنا بالخديو اسماعيل حاكم مصر ثم عادت الجوائب فاستأنفت الصدور . وفي سنة 1882 قبض أحمد فارس الشدياق من سفارة انقلترة في الآستانة مبلغ ألف ليرة انقليزية لطبع المنشور الذي أصدره الباب العالي بإعلان عصيان أحمد عرابي باشا في وادي النيل . فكان ذلك سببا لانكسار أحمد عرابي وسقوط اعتباره . وفي سنة 1883 نقلت جريدة الجوائب إدارتها إلى القاهرة وهناك احتجبت في السنة نفسها بعد أن استمرت في الصدور قرابة 23 عاما متواصلة دون انقطاع . (انظر : الصحافة العربيـة : ص : 145 — 152 — 153) .

4 — ومن وقائع مصر العذر بان فقد
تقيّدت دون اطلاق بأخبار (1)

5 — والنيل ما نال ما يبغي في أرب
حتى توخّى إقامات لأعذار (2)

ص : 92 /

6 — وهكذا روضة الأخبار ما ينعت
بين البرايا بأزهار وأثمار (3)

7 — أمّا حقيقة أخبار الورى فلها
عذر من الصغر المفضي لاصغار (4)

8 — ومصر قد طال طولا يستدلّ به
واجتاز جاوله من ملء أبحار (5)

(1) جريدة الوقائع المصرية هي الصحيفة التي كان والي مصر محمد علي أصدرها باسم : جورنال الخديوسنة 1827 وما لبثت أن تحولت في جانفي 1829 إلى جريدة الوقائع المصرية . وقد جعلها الخديو محمد علي لسان حال الحكومة وكانت تصدر بشكل غير منتظم حتى عهد الخديو إسماعيل وما زالت تصدر إلى اليوم . وقد أصبحت الآن تعتبر الجريدة الرسمية للدولة . وكانت في مطلع عهدها تورد إلى جانب نشرها أوامر الحكومة وأحكامها الحوادث والأخبار الهامة وتعالج طرفا من الموضوعات الأدبية والاجتماعية وغيرها بقدر ما كان يسمح به التفكير ويأذن به النظام الحاكم في مثل ذلك الزمان . وقد ظهرت الوقائع المصرية في أول عهدها باللغة التركية ثم باللغتين التركية والعربية وعادت فأصبحت عربية محضة . وقد تولى تحريرها نفر من كبار الكتاب في ذلك العصر وعلى رأسهم رفاعة الطهطاوي الذي كان أول من بث حركة فكرية قوية بين المصريين وبعده أحمد فارس الشدياق وبعده محمد عبده . (انظر : الصحافة العربية : 145—149) .

(2) النيل هي جريدة : وادي النيل وهي في الحقيقة مجلة أدبية علمية سياسية أصدرها سنة 1866 عبد الله أبو السعود . وكانت تصدر مرتين في الأسبوع . وقد عاشت هذه المجلة اثنتي عشر سنة حتى تعطلت سنة 1878 بوفاة صاحبها . وقد كانت تخدم أفكار الخديو إسماعيل . (انظر : الصحافة العربية : ص : 154—191) .

(3) روضة الأخبار هي مجلة ورد ذكرها في كتاب أديب مروة : الصحافة العربية تحت اسم : روضة المدارس . وقد صدرت في سنة 1870 وهي مجلة للطلبة وكانت منبرا حرا لأقلام أعلام الفكر والأدب أمثال رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك واسماعيل الفلكي وحسين المرصفي وعبد الله فكري . (انظر : الصحافة العربية ، ص : 192) .

(4) حقيقة الأخبار : هي جريدة أصدرها أنيس خلاط اللبناني في القاهرة عام 1877 لم تعمر طويلا . (انظر : الصحافة العربية : ص : 194) .

(5) جريدة : مصر : أسسها في الاسكندرية عام 1877 أديب اسحاق المولود في دمشق عام 1856 . وقد قصد أديب اسحاق بيروت واشتغل في تحرير جريدة : ثمرات الفنون : البيروتية ثم انصرف عنها إلى جريدة : التقدم . ثم انتقل إلى الاسكندرية عام 1876 حيث اتصل بجمال الدين الأفغاني وتوثقت الصلات بينهما فاقترح عليه الأفغاني اصدار جريدة فأسس جريدة : مصر في الاسكندرية . وكانت هذه الجريدة ميدانا لأعظم كتاب مصر وقد صال الأفغاني فيها وجال . ولكن نطرف جريدة مصر أغضب الحاكمين فاقفلت . فسار أديب اسحاق إلى باريس حيث أسس مجلة سياسية باسم : مصر القاهرة . وفي عام 1881 عاد إلى مصر وسمحت السلطات بإعادة إصدار جريدته : مصر . (انظر : الصحافة العربية ، ص : 163—165).

9 — والوطـن اليـوم وافـى لا يطيـق لمـا
يسـام منه بتثقيـل وأخـطـار (1)
10 — وقـد نمـا هـرم الأهـرام حين بـدت
ولـم تنـل غيـر تقصير وإدبـار (2)
11 — ورام مـن بعـدها الكشّاف كشف حلى
مـا قـد خفـى فاختفـى من تحت أستار
12 — وعـنـده سكنـت اسكندريـة لا
تـرجـو مزاحمـة في نيـل مقـدار
13 — والأقـدم الكوكـب الشرقـي قد أفلت
بـه المطالـع في أبعـاد أغـوار (3)
14 — وثمـرات الفنـون اليـوم قـد ذويـت
مـع أن فيهـا خبيّـات لأسـرار (4)
15 — وبئـس مـا سلكـت تلك الحديقـة إذ
لم تبـد يومـا جنى يزهو بـأزهـار (5)

---

(1) جريدة الوطن هي أول جريدة قبطية بمصر أصدرها في سنة 1877 ميخائيل عبد السيد (انظر : الصحافة العربية : ص : 195) .

(2) يشير محمد السنوسي في هذا البيت وفي البيتين المواليين إلى جريدة الأهرام التي كان أصدرها في الاسكندرية سنة 1876 الشقيقان اللبنانيان سليم وبشارة تقـلا . وفي عام 1898 نقلت صحيفة الاهرام إلى القاهرة حيث بلغت شأوا بعيدا من التقدم والرسوخ والانتشار . وما زالت هذه الصحيفة تصدر إلى اليوم وهي الجريدة العربية الأولى التي اتخذت لها مراسلين في أوروبا وسائر أنحاء الشرق . وكانت تصدر عن الأهرام طبعة بالفرنسية وأخرى تجارية وطبعة ثالثة في الاسكندرية باسم : صدى الاهرام ، بعد أن انتقلت إلى القاهرة . (انظر : الصحافـة العربية : ص : 193—194) .

(3) الكوكب الشرقي : صحيفة عربية هي أول صحيفة أصدرها اللبنانيون في مصر بعد نزوحهم إليها . أسسها في الاسكندرية سليم الحموي عام 1873 . وكانت جريدة أسبوعية سياسية أدبية وقد ألغاها الخديو إسماعيل . (أنظر : الصحافة العربية ، ص : 193) .

(4) ثمرات الفنون : هي صحيفة أسبوعية سياسية علمية أدبية أنشأتها سنة 1875 : جمعية الفنون الاسلامية : في بيروت التي كان يترأسها سعد عبد الفتاح حماده . وأدار الجريدة عبد القادر القباني أحد أعضاء الجمعية ثم لم يلبث القباني أن استقل باصدارها وتحريرها واستمرت صحيفة : ثمرات الفنون : في الصدور طيلة أربعة وثلاثين عاما وتوقفت عن الصدور سنة 1909 . (أنظر : الصحافة العربية ، ص : 176) .

(5) حديقة الأخبار : جريدة شبية صريحة أصدرها عام 1858 في بيروت خليل الخوري وتوقفت نهائيا عن الصدور سنة 1911 . وكانت حديقة الأخبار أول صحيفة عربية مستقلة يصدرها عربي في البلاد العربية . (انظر : الصحافة العربية ، ص : 144 — 151 — 167) .

16 ـ وفي الجنان جنون لا يميل لها
غير الذي ليس يدري فضل أشعار (1)

17 ـ والجنّة اليوم العير حلّ بها
فلم تسلم بسوى الالقاء في الدار (2)

18 ـ وللتقدّم تأخير لأنه منذ
أضحى ككر زغدا يحشى بأوزار (3)

19 ـ لذا ترى لسان الحال مكتفيا
بحاله وهو من خير الحلى عاري (4)

20 ـ وقد تنحّى عن الآداب مقتطف
فلم يكن ليرى شيئا بأخبار (5)

---

(1) الجنان : مجلة بيروتية أنشأها المعلم بطرس البستاني في عام 1870 . وقد كانت مجلة الجنان تصدر مرتين في الشهر وجعل شعارها : حب الوطن من الايمان : وقد اشتهرت هذه المجلة في جميع البلدان العربية نظرا للذيوع شهرة صاحبها وتأليفه قاموس : محيط المحيط ، وكتاب : دائرة المعارف : وقد توقفت مجلة الجنان عن الظهور نهائيا سنة 1887 . والملاحظ أن محمد السنوسي نشر بهذه المجلة قصيدته التي سماها : الفريدة في المخترعات الجديدة سنة 1882 . (انظر تحقيقنا للرحلة الحجازية لمحمد السنوسي ج 1 — ص : 107 وج 3 — ص : 172 . راجع أيضا : فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية : بيروت سنة 1933 ج 2 — ص : 45 . انظر أيضا : أديب مروة : الصحافة العربية : ص : 169—170) .

(2) صحيفة الجنة : هي صحيفة لبنانية أصدرها في بيروت عام 1870 سليم البستاني . كانت تصدر مرتين في الأسبوع حتى عام 1881 . وظلت الجنة تصدر مستقلة في طبعها حتى وفاة صاحبها عام 1884 فتحول امتيازها إلى أخيه خليل البستاني الذي أصدرها مدة عامين ثم أوقفها باختياره بسبب اشتداد الرقابة على الجرائد في لبنان وسوريا حينئذ . (انظر : الصحافة العربية : ص : 169) .

(3) التقدم : هي جريدة عامة أصدرها يوسف الشلفون عام 1874 . وقد صدرت أولا نصف أسبوعية ثم في عامها الثالث صارت تصدر أسبوعية ثم عطلها صاحبها عام 1878 . ثم عادت إلى الصدور عام 1881 واستمرت في الصدور حتى عام 1889 حيث توقفت نهائيا عن الظهور . (انظر : الصحافة العربية ، ص : 175—176) .

(4) لسان الحال : صحيفة بيروتية أسسها خليل سركيس عام 1877 وما زالت تصدر إلى اليوم إذ أصبحت في القرن العشرين تنطق بلسان الطائفة الانجليزية في لبنان وقد جرت منذ أول عهدها على خطة الاعتدال والمسالمة وعدم التحزب إلى عنصر دون آخر . (انظر : الصحافة العربية ، ص : 169—176) .

(5) المقتطف : هي أقدم مجلة علمية أدبية راقية في العالم العربي . كانت من أكثر المجلات انتشارا وأبعدها أثرا . وقد أنشأها في بيروت الدكتور يعقوب صروف وفارس نمر سنة 1876 . ثم في عام 1884 انتقلا بالمقتطف إلى القاهرة لشدة الرقابة والضغط في بيروت . وقد ساعدت المقتطف على نشر ألوان من الثقافات الغربية وترجمة المباحث العلمية الرصينة واطلاع العالم العربي على آخر تطورات العلم والاختراع في الغرب وتنشيط العلوم والفنون في البلدان العربية . وتعتبر المقتطف مدرسة فكرية ثقافية عالية ساهمت مساهمة فعالة في النهضة الحديثة وتتلمذ على يديها كثير من الكتاب والأدباء العرب ومن بينهم محمد السنوسي نفسه . وقد احتجبت عن الظهور سنة 1952 . (انظر : محمد السنوسي : الرحلة الحجازية ج 1 — ص : 35—85—103 انظر أيضا : الصحافة العربية : ص : 178) .

21 — والـزور في هـاتك الـزوراء ليس لـه
حـدٌ بمـا تفـتري في كـلّ أعصار (1)

22 — وقـد بـادت شهب الشهبـاء مظلمـة
فلـم تطـق عندنـا كشفـا لأغـوار (2)

23 — وفي طرابلس الغـرب المكـاذب لا
يعبــأ بهـا عـارف منْ دون اغـرار (3)

24 — والنحلـة انتحلـت عيّـا وقـد رميت
في ألسـن العرب الفصحا باعسار (4)

25 — ويـا شناعـة مـا المـرآة قـد طغيـت
بـه فأبـدت لنـا أضعـاف أشرار (5)

---

(1) الزوراء : صحيفة رسمية أسبوعية أصدرها والي بغداد مدحت باشا في العاصمة العراقية سنة 1869 وجعلها ناطقة بلسان حال الولاية المذكورة . وكان غرضها نشر الأخبار والأوامر والاعلانات الرسمية باللغتين التركية والعربية . وهي أول جريدة ظهرت في العراق وكان يحرر القسم العربي منها المدرس فهمي ثم جميل صدقي الزهاوي وبعد ذلك الشاعر معروف الرصافي . (انظر : الصحافة العربية : ص : 155–212) .

(2) جريدة الشهباء : أصدرها سوري في سوريا هو عبد الرحمان الكواكبي في مدينة حلب عام 1877 بالاشتراك مع هاشم العطار . (انظر : الصحافة العربية ، ص : 207) .

(3) جريدة طرابلس الغرب هي أول صحيفة صدرت ببلاد طرابلس الغرب في عهد السلطان عبد العزيز العثماني وبأمره سنة 1866 . وكانت تنشر باللغتين التركية والعربية . وقد احتجبت عن الظهور إثر الاحتلال الايطالي للقطر الليبي عام 1912 . (انظر : الصحافة العربية : ص : 220) .

(4) النحلة هي مجلة أنشأها القس صابونجي في عام 1870 . وكانت تصدر أسبوعيا وكانت تتناول مختلف المواضيع ما عدا الدين والسياسة . وقد استمرت في الصدور حتى العدد الحادي والثلاثين منها حيث أمر بتعطيلها راشد باشا والي سوريا . (انظر : محمد السنوسي : الاستطلاعات البارسية ، تونس 1891/1309 ، ص : 273 . راجع بخصوص صحيفة النحلة : فيليب دي طرازي : تاريخ ج 2 ، ص : 71–73 . راجع أيضا : الصحافة العربية ، ص : 170) .

(5) المرآة هي جريدة مرآة الأحوال أنشأها رزق الله حسون الحلبي وهو أول عربي أصدر باسمه صحيفة عربية في الآستانة سنة 1855 . وقد عاشت هذه الصحيفة سنة ونصف وكانت تنشر وقائع حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا ثم غادرها إلى لندن حيث أصدر ثانية جريدته مرآة الأحوال ثم عطل مرآة الأحوال وتوفي بلندن سنة 1880 . وقد عمد رزق الله حسون إلى نشر بعض المقالات التي تتضمن انتقاد الاتراك والتنديد بأعمال الحكومة العثمانية فصمم الباب العالي على القبض عليه ففر هاربا إلى روسيا فحكم عليه الاتراك بالاعدام غيابيا . وكان حسون حر الأفكار طويل الباع في الانشاء مر الهجاء في الشعر . (انظر : الصحافة العربية : ص : 150–151 — 161–162) .

ص : 93 /

26 ــ وقد قفاها الصدا الصادي بما له من
تلك الوقاحة في سرّ واجهار (1)

27 ــ وقد أتى قائلا ذاك المبشّر لا
أرجو مزاولة في كلّ مضمار (2)

28 ــ وقال رائدهم أرسو نزاولها
فكلّ حتف امرىء يجري بمقدار

(1) صحيفة الصدا صحيفة ظهرت بفرنسا استنادا إلى ملاحظة بالطرة في المخطوط ، ص : 93 ولم نعثر على ذكر لها في كتاب أديب مروة .

(2) صحيفة المبشر (الجزائرية) هي ثالث الصحف العربية التي ظهرت إلى عالم الوجود منذ تأسيس الصحافة العربية . ففي 15 جويلية سنة 1847 أصدرت الدولة الفرنسية جريدة المبشر في مدينة الجزائر . وهي صحيفة رسمية كانت تصدر مرتين في كل شهر في ثلاث صفحات . وكان أسلوبها ركيكا ضعيفا وظلت المبشر الجريدة الرسمية لحكومة الجزائر حتى عصرنا هذا . (تلك هي عبارة أديب مروة في كتابه الصادر عام 1961 أي قبل استقلال الجزائر بسنة . (انظر : الصحافة العربية : ص : 150) .

الملحق رقم : 2

حيث ان المؤلف الشيخ محمد بن عثمان السنوسي تعرّض في هذا الجزء الثاني من تأليفه الرحلة الحجازية من الصفحة 69 إلى الصفحة 76 إلى قناة السويس رأينا من المفيد للقارىء أن نقدّم له في هذا الملحق النصوص الرسمية الخاصّة بقناة السويس ومشكلاتها إلى حدّ سنة 1882 نقلا عن كتاب : قناة السويس ومشكلاتها بقلم بطرس بطرس غالي ويوسف شلاله ، طبعة الاسكندرية سنة 1958 :

فرمان الامتياز الأوّل 30 نوفمبر 1854

مادّة : 1

يؤسّس المسيو فرديناد دلسبس شركة تعهد إليه بإدارتها تسمّى : الشركة العالمية لقناة السويس البحرية : لشقّ برزخ السويس واستغلال طريق صالح للملاحة الكبرى وإنشاء وإعداد مدخلين كافيين أحدهما على البحر الأبيض المتوسّط والآخر على البحر الأحمر وبناء مرفأ أو مرفأين .

مادّة : 2

يعيّن مدير الشركة دائما من قبل الحكومة ويختار ما أمكن من بين أكبر المساهمين في الشركة .

مادّة : 3

مدّة الامتياز تسع وتسعون سنة تبتدىء من التاريخ الذي تفتح فيه قناة السويس .

مادّة : 4

تجرى الأعمال على نفقة الشركة وحدها . وتمنح بدون مقابل جميع ما يلزمها من الأراضي التي ليست ملكا للأفراد . ولا تكون التحصينات التي ترى الحكومة القيام بها على نفقة الشركة .

مادّة : 5

تجبي الحكومة سنويّا من الشركة 15 في المائة من صافي الأرباح المستخلصة من ميزانية الشركة . عدا الفوائد والحصص الخاصّة بالأسهم التي تحتفظ الحكومة بحقّ الاكتتاب فيها لدى إصدارها وذلك دون أي ضمان من جانبها لتنفيذ الأعمال أو لقيام الشركة بمهمّتها . ويوزّع الباقي من صافي الأرباح على الوجه الآتي : 75 في المائة للشركة و10 في المائة للأعضاء المؤسسين .

مادّة : 6

يتمّ الاتفاق على تعريفات رسوم المرور بقناة السويس ما بين الشركة وخديوي مصر ، ويجبي عمال الشركة هذه الرسوم وتكون التعريفات متساوية دائمًا لجميع الدول ، ولا يجوز مطلقًا اشتراط امتياز خاص لإحدى الدول دون سواها .

مادّة : 7

إذا رأت الشركة ضرورة وصل ما بين النيل وممر البرزخ بإنشاء طريق صالح للملاحة أو إذا سلكت القناة البحرية طريقًا متعرجًا يرويه ماء النيل تنازلت الحكومة المصرية للشركة عن الأراضي الداخلة في الأملاك العامة مما لا يزرع اليوم وقد بقي ويزرع على نفقة الشركة أو بإشرافها .

وتنتفع الشركة بالأراضي المذكورة مع إعفائها من الضرائب عشر سنوات ابتداء من يوم افتتاح القناة . وتدفع ضريبة العشر للحكومة المصرية في مدة 89 سنة الباقية لانقضاء مدة الامتياز ، وبعد ذلك لا يجوز لها المضي في الانتفاع بالأراضي المذكورة إلا إذا دفعت للحكومة ضريبة تعادل ما سوف يفرض على الأراضي المتماثلة لها .

مادّة : 8

تلافياً لكل صعوبة تتصل بالأراضي التي ستتنازل عنها الحكومة للشركة صاحبة الامتياز يضع المسيو لينان بك المهندس من قبلنا لدى الشركة رسماً بين الأراضي الممنوحة سواء لإنشاء القناة البحرية وقناة التغذية المتفرعة من النيل ومؤسساتهما أو للاستغلال الزراعي وفقاً لأحكام المادة 7 .

هذا ومن المتفق عليه أن كل مضاربة تتعلق بالأراضي الداخلة في الأملاك العامة التي ستمنح للشركة محظورة من الآن وأن الأراضي التي كانت تخص الأفراد وطلبت منها في المستقبل سقيها من مياه قناة التغذية المنشأة على نفقة الشركة يدفعون إتاوة قدرها ... عن كل فدان مزروع (أو إتاوة تحدد بالاتفاق الودي بين الحكومة المصرية والشركة) .

مادّة : 9

وأخيراً تمنح الشركة صاحبة الامتياز الحق في أن تستخرج من المناجم والمحاجر الداخلة في الأملاك العامة جميع المواد اللازمة لأعمال القناة والمباني التابعة لها مع إعفائها من الرسوم ، كما أنها تنتفع بهذا الإعفاء فيما يتعلق بالآلات والمواد التي تستوردها من الخارج لاستغلال امتيازها .

مادّة : 10

عند انتهاء الامتياز تحل الحكومة المصرية محل الشركة وتنتفع بكافة حقوقها دون تحفظ ، وتستولي على قناة البحرين وجميع المنشآت التابعة لها .

ويحدد مقدار التعويض الذي يمنح إلى الشركة في مقابل تنازلها عن المهمات والأشياء المنقولة باتفاق ودي أو بطريق التحكيم .

مادّة : 11

يعرض نظام الشركة علينا فيما بعد بواسطة مديرها ويجب أن يحوز موافقتنا . ولابد من إقرارنا مقدماً أي تعديل قد يدخل عليه في المستقبل . ويجب أن يذكر نظام الشركة أسماء المؤسسين على أن تحتفظ بحق اعتماد قائمتهم . وستتضمن هذه القائمة أسماء الأشخاص الذين سبق أن اشتركوا في تنفيذ مشروع قناة السويس الكبير سواء بأعمالهم أو بأبحاثهم أو بجهودهم أو بأموالهم .

مادّة : 12

وفي الختام فتسهيلا للعمل بهذا الترخيص واستغلاله نعد الشركة بمساعدتنا الطيبة الخاصة بتعضيد جميع الموظفين في القطر المصري لها .

فرمان الامتياز الثاني (5 يناير 1856)
الباب الأول – الالتزامات

مادّة : 1

على الشركة ألتي أسسها صديقنا المسيو فرديناند دلسبس وفقاً للفرمان الصادر منا بتاريخ 30 نوفمبر سنة 1854 أن تقوم على نفقتها ومسؤوليتها بجميع ما يلزم من الأشغال وأعمال البناء لإنشاء :

1 – قناة صالحة للملاحة البحرية الكبرى بين السويس على البحر الأحمر وخليج الطينة (بور سعيد) على البحر الأبيض المتوسط .

2 – قناة للرى صالحة للملاحة النهرية في النيل تصل هذا النهر بالقناة البحرية المذكورة .

3 ــ فرعين للري والشرب مستقيين من القناة الأخيرة لجلب المياه إلى السويس والطينـة .

وتجري الأعمـال بحيث تنهى في ميعاد ست سنوات إلا إذا طرأت موانع وأسباب تأخير ناشئة عن قوة قاهرة .

مـادّة : 2

للشركة الحق في أن تنفذ بذاتها وعلى النظام « الريجي » الأعمـال المكلفة بها ، أو أن تعهد بها إلى مقاولين بطريق المناقصة أو الممارسة ويجب في جميع الأحوال أن يكون على الأقل أربعة أخماس العمال المستخدمين في هذه الأعمال من المصريين .

مـادّة : 3

تحفر القناة المعدة للملاحة البحرية الكبرى بالعمـق والاتسـاع المقررين في برنامج اللجنـة العلميـة الدوليـة .

وتبتدىء القنـاة من ميناء السويس ذاتها وفقـًا لهذا البرنامـج وتجتـاز الحوض المعروف باسم البحيـرات المرة وبحيـرة التمسـاح وتنتهي إلى البحر الأبيض المتوسط في نقطة من خليج الطينـة تحددها المشروعات النهائيـة التي سيضعها مهندسو الشركة .

مـادّة : 4

تبتدىء قناة الرى المعدة للملاحة النهرية وفقـًا لشروط البرنامج المذكور بالقرب من مدينة القاهرة وتسير في وادي الطمبلات (أرض جسان قديمـًا) وتنتهـي إلى القنـاة البحرية الكبرى عند بحيرة التمساح .

مـادّة : 5

تتفرع القناة السابق ذكرها قبيـل مصبها في بحيـرة التمساح فيتجـه من هذه النقطة إلى السويس وفرع اخر إلى الطينة بمحاذاة القناة البحرية الكبرى .

مـادّة : 6

تحـول بحيـرة التمسـاح إلى مرفـأ داخلي صالـح لدخـول أكبـر البواخر حمولة ويجب على الشركة فوق ذلك عند الاقتضاء :

1 — بناء مرفـأ تأوي إليه السفن عند مدخل القناة البحرية في خليج الطينة .

2 — تحسين مرفـأ وبوغاز السويس بحيث تأوى إليها السفـن كذلك .

مـادّة : 7

توالى الشركـة القيـام على نفقتها بصيانـة القنـاة البحريـة والمرافىء التابعة لها والقناة المتصلة بالنيل والقناة المتفرعة عنها .

مـادّة : 8

لمن يرغب من ملاك الأراضي الواقعة على ضفـاف الأقنيـة التي تنشئها الشركـة في رى أرضه بالميـاه المستمدة من هذه الأقنية أن يحصل على هذا الامتيـاز في مقابـل دفعـه تعويضًا أو إتاوة تحـدد قيمتها وفقًا للشروط المبينة بعد في المـادة 17 .

مـادّة : 9

تحتفظ بحق انتـداب منـدوب خاص في مركـز إدارة الشركة يتقاضى منها مرتبه ويمثل لدى إدارتها حقـوق الحكومـة المصرية ومصالحها فيما يتصل بتنفيذ أحكام هذا الفرمان .

وعلى الشركة إذا كان مركز إدارتها خارج القطر المصري أن تعين وكيلا أعلى يمثلها بمدينة الاسكندرية مزودًا بكافة السلطات اللازمة لضمان حسن سير العمل وعلاقات الشركة بحكومتنا .

مـادّة : 10

لإنشاء الأقنية وملحقاتها المشار إليها في المواد السابقة تترك الحكومة المصرية الانتفاع بلا ضريبة أو إتاوة بما قد يلزمها من الأراضي غير المملوكة للأفراد . كذلك تخول الشركة حتى الانتفاع بجميع ما تقوم الشركة بريه

وزرعه على نفقتها من الأراضي التي لا تزال بوراً حتى اليوم وليست ملكاً للأفراد ، وذلك مع التحفظات الاتية :

1 — تعفى الأراضي الداخلة في هذه الفئة الأخيرة من كل ضريبة لعشر سنوات فقط ابتداء من تاريخ استغلالها .

2 — بعد انتهاء المدة المذكورة تصبح هذه الأراضي طيلة الباقي من مدة الامتياز خاضعة للالتزامات والضرائب التي تخضع لها في الظروف نفسها سائر أراضي القطر المصري .

3 — يمكن للشركة فيما بعد إما بنفسها وإما بالمستحقين عنها موالاة الانتفاع بهذه الأراضي واستمداد المياه اللازمة لاستثمارها وذلك في مقابل توفية الحكومة المصرية الضرائب المفروضة على الأراضي المماثلة لها .

مادّة : 11

يرجع إلى الرسوم الملحقة بهذا في تعيين مساحة الأراضي الممنوحة للشركة وحدودها طبقاً للفقرتين 1 و 2 من المادة العاشرة السابقة والأراضي الممنوحة لإنشاء الأقنية وملحقاتها مع إعفائها من الضريبة والإتاوة وفقاً للفقرة الأولى قد صبغت في الرسوم المذكورة باللون الأسود ، أما الأراضي الممنوحة للزراعة على أن يدفع عنها بعض الرسوم وفقاً للفقرة الثانية فقد صبغت باللون الأزرق .
تعتبر باطلة كل وثيقة لاحقة لفرماننا الصادر في 30 من شهر نوفمبر سنة ألف وثمانمائة وأربع وخمسين تنشىء للأفراد قبل الشركة إما حقاً في المطالبة بتعويض لم يكن قائماً إذ ذاك على الأراضي وإما حقاً في المطالبة بتعويضات تفوق القدر الذي كان يجوز لهم المطالبة به في ذلك الحين .

مادّة : 12

تقوم الحكومة المصرية عند الاقتضاء بتسليم الأراضي التي يملكها الأفراد وتلزم الشركة حيازتها لتنفيذ الأعمال واستغلال الامتياز على أن تدفع الشركة التعويضات العادلة لمستحقيها .

تسوى التعويضات عن الاستيلاء المؤقت أو نزع الملكية النهائي تسوية ودية على قدر الإمكان . وفي حالة الاختلاف تحدد التعويضات هيئة تحكيم تباشر عملها باجراءات مختصرة وتؤلف من :

1 ــ محكم تختاره الشركة .

2 ــ محكم يختاره أصحاب الشأن .

3 ــ محكم ثالث ومعين منا .

وتكون قرارات هذه الهيئة التحكيمية نافذة فورًا وغير قابلة للاستئناف .

مـادّة : 13

تمنح الحكومة المصرية الشركة صاحبة الامتياز طيلة مدة الامتياز الحق في أن تستخرج من المناجم والمحاجر الداخلة في الأملاك العامة جميع المواد اللازمة لأعمال البناء والصيانة المتعلقة بالمنشئات والمباني التابعة لها دون أن تدفع عن ذلك أي رسم أو ضريبة أو تعويض .

وتعفى الشركة فوق ذلك من جميع الرسوم الجمركية ورسوم الدخولية وغيرها على الآلات والمواد التي تستوردها الشركة من الخارج سدًّا لحاجة أقسامها مدة الإنشاء أو الاستغلال .

مـادّة : 14

نعلن رسميًا باسمنا وباسم خلفائنا أن القناة البحرية الكبرى من السويس إلى الطينة والمرافىء التابعة لها مفتوحة على الدوام بوصفها ممرًا محايدًا لكل سفينة تجارية عابرة من بحر إلى آخر دون تمييز أو حرمان أو تفضيل بين الأشخاص أو الجنسيات في مقابل دفع الرسوم ومع مراعاة الأنظمة التي تفرضها الشركة العالمية صاحبة الامتياز فيما يتعلق باستخدام القناة المذكورة وملحقاتها وذلك بشرط إقرار الباب العالي ما تقدم .

مـادّة : 15

يترتّب على المبدأ المقرّر في المادّة الســابقة أنه لا يجوز للشركة العالمية صاحبة الامتياز في أي حال من الأحوال أن تمنح سفينة أو شركة أو فرد أيّة فوائد الأحوال . أو امتيازات لا تمنح لغيرها من السفن أو الشركات أو الأفراد في نفس

مـادّة : 16

مدة الشركة محددة بتسع وتسعين سنة تبتدىء من إنجاز الأعمال وافتتاح القناة البحرية للملاحة الكبرى .

تستولى الحكومة المصرية لدى انقضاء هذه المدة على القناة البحرية التي أنشأتها الشركة على أن تتسلم في هذه الحالة جميع الآلات والمؤن المخصصة للخدمة البحرية للمشروع مع توفية الشركة قيمتها محددة وديًا أو بواسطة خبـراء .

على أنه إذا احتفظت الشركة بالامتياز لمدد متتالية كل منها تسع وتسعون سنة رفع الاستقطاع المشترط عليه لصالح الحكومة المصرية في المادة الثامنة عشرة المذكورة بعد إلى عشرين في المائة للمدة الثانية ، وخمسة وعشرين في المائة للمدة الثالثة ، وهكذا على التوالي بزيادة خمسة في المائة لكل مدة دون أن يتجاوز هذا الاستقطاع بحال من الأحوال خمسة وثلاثين في المائة من صافي أرباح المشروع .

مـادّة : 17

تعويضًا للشركة عن نفقات البناء والصيانة والاستغلال التي تتكلفهـا بمقتضى هذا الفرمان نرخص لها من الآن وطيلة المدة التي تتمتع فيها بالامتيـاز وهي المدة المبينة في الفقرتين الأولى والثالثة من المـادة السابقة في أن تفـرض وتتقاضى عن المرور في الأقنية والمرافىء التابعة لها رسومًا للملاحة والإرشاد

والقطر والسحب والرسو وفقًا لتصريفات لها أن تعدلها في كل وقت مع مراعاة الشروط الصريحة الآتية :

1 ــ تحصل هذه الرسوم دون استثناء أو تمييز على جميع السفن بشروط مماثلة .

2 ــ تنشر التعريفات قبل ثلاثة أشهر من العمل بها في عواصم البلدان التي يعنيها الأمر وفي مرافئها التجارية الرئيسية .

3 ــ لا يزيد رسم الملاحة الخاص على حد أقصى قدره عشرة فرنكات عن كل طن من حمولة السفن وعن كل فرد من المسافرين .

للشركة أيضًا أن تتقاضى عما تمنحه للأفراد من الحق في استمداد المياه بموجب المادة الثامنة المتقدم ذكرها رسما متناسبًا مع قدر المياه المستهلكة ومساحة الأرض المروية وذلك وفقًا لتعريفات تضعها .

مادّة : 18

على أنه نظرًا للأراضي المتنازل عنها والامتيازات الأخرى الممنوحة للشركة بمقتضى المواد السابقة تحتفظ لصالح الحكومة المصرية بحق استقطاع 15 ٪ من صافي الأرباح السنوية التي تحددها وتوزعها الجمعية العمومية للمساهمين .

مادّة : 19

يجب أن تعتمد منا قائمة الأعضاء المؤسسين الذين اشتركوا بأعمالهم وبحوثهم وأموالهم في تحقيق المشروع قبل تأسيس الشركة .

وبعد استقطاع الحصة المتفق عليها لصالح الحكومة المصرية طبقًا للمادة 18 المتقدم ذكرها يخصص جزء من صافي أرباح المشروع السنوية قدره 10 في المائة للأعضاء المؤسسين أو لورثتهم أو لمن يحل محلهم في حقهم .

مـادّة : 20

بغض النظر عن الوقت اللازم لتنفيذ الأعمال يرأس صديقنا ووكيلنا المسيو فرديناند دلسبس الشركة ويديرها بوصفه أول مؤسس لها وذلك لعشر سنوات تجري في اليوم الذي تبدأ فيه مدة التمتع بالامتياز وقدرها تسع وتسعون سنة وفقًا للمادة 16 .

مـادّة : 21

ونقر نظام الشركة المؤسسة باسم « الشركة العالمية لقناة السويس البحرية » ويعتبر ذلك الإقرار ترخيصًا في تأسيس الشركة في شكل الشركات ابتداء من اليوم الذي يكتتب فيه رأس مالها أجمع .

مـادّة : 22

وإظهارًا لاهتمامنا بنجاح المشروع نعد الشركة بتعضيد الحكومة المصرية لها تعضيدًا خالصًا ، ونحث صراحة بمقتضى هذا جميع الموظفين والموردين والعمال التابعين لأقسام مصالحنا على إمدادها بالمساعدة وحمايتها في كل فرصة سانحة .

ونضع مهندسينا لينان بك وموجل بك تحت تصرف الشركة فيما يتعلق بإدارة وتسيير الأعمال التي تأمر بها ، ويكون لها الإشراف الأعلى على العمال وعليهما تنفيذ اللوائح الخاصة بمباشرة الأعمال .

مـادّة : 23

تلغى جميع أحكام الفرمان الصادر منا في 30 نوفمبر سنة 1854 وغيرها من الأحكام التي تتعارض مع شروط الامتياز هذه ، وتعتبر وحدها نافذة فيما يختص بالامتياز الذي تتعلق به .

إتفاقية 22 فبراير 1866
التي تحدد الشروط النهائية التي صدق عليها الباب العالي

مادّة : 1

يلغى جميع ما جاء باللائحة الصادرة في 20 يوليه سنة 1856 الخاصة باستخدام الفلاحين في أعمال قناة السويس وبالتالي لا يقام أي اعتبار لأحكام المادة الثانية من عقد الامتياز الصادر في 5 يناير سنة 1856 ، ونصها كالآتي « ويجب في جميع الأحوال أن يكون على الأقل أربعة أخماس العمال المستخدمين في هذه الأعمال من المصريين » .

وتدفع الحكومة المصرية للشركة 38 مليون فرنك تعويضًا عن إلغائها لائحة 20 يوليه سنة 1856 والمزايا التي تضمنها .

ومن الآن فصاعدًا تستخدم الشركة العمال اللازمين لأعمال المشروع وفقًا لشروط القانون العام دون اختصاصها في ذلك بامتياز أو قيود .

مادّة : 2

تتنازل الشركة عن الانتفاع بأحكام المادتين 7،8 من عقد الالتزام الصادر في 30 نوفمبر سنة 1854 والمواد 11 ، 12 من العقد الصادر في 5 يناير سنة 1856 وقد تحددت باتفاق الطرفين مساحة الأراضي القابلة للري المتنازل عنها للشركة بموجب العقدين المذكورين الصادرين في سنتي 1854 ، 1856 والتي ردت للحكومة بمقدار 63 ألف هكتار يستنزل منها 3 آلاف هكتار تدخل ضمن الأماكن المخصصة لمقتضيات استغلال القناة البحرية .

مادّة : 3

بما أن المادتين 7 ، 8 من عقد الالتزام الصادر في سنة 1854 والمواد 10 ، 11 ، 12 من العقد الصادر في سنة 1856 قد ألغيت وفقًا لما جاء بالمادة 2 فإن

التعويض المستحق للشركة قبل الحكومة عن رد هذه الأراضي يبلغ 30 مليون فرنك باعتبار ثمن الهكتار 500 فرنك .

مـادّة : 4

بما أنه يلزم تحديد مساحة الأراضي اللازمة لإنشاء القناة البحرية واستغلالها بشروط تضمن نجاح المشروع ، وبما أن المساحة يجب ألا تقتصر على القدر الذي تشغله القناة فعلا ويلي الطريق المخصصة لسحب السفن وعلى الشقة المحتفظ بها فيما وراء هذه الطريق . وبما أن الوفاء بحاجة الاستغلال على أكمل وجه يستلزم تمكين الشركة من أن تنشىء على مقربة من القناة البحرية مستودعات ومخازن وورش وموانى حيثما تتحقق فائدتها . وأن تقيم أخيراً المساكن الملائمة للحراس والملاحظين والعمال المكلفين باعمال الصيانة ولجميع مستخدمي الإدارة .

وبما أنه من المناسب أيضاً أن تلحق المساكن المذكورة أراضي تنشأ فيها بساتين وتمون إلى حد ما أماكن محرومة تماماً من المنتجات الزراعية ، وأخيراً بما أنه لا مندوحة للشركة من أن تستطيع التصرف في أراض كافية لزرعها وتنشىء فيها أعمالا كفيلة بصيانة القناة البحرية وصيانتها من تراكم الرمال دون أن تمنح شيئاً أكثر من القدر الوافي اللازم للقيام بمختلف الأعمال السابق بيانها . وبما أنه لا يسوغ للشركة أن تدعي في الحصول على مساحات من الأراضي أيّاً كانت قصد المضاربة عليها سواء بتخصيصها للزراعة أو بإقامة المباني عليها أو بيعها للغير عند زيادة عدد السكان .

لذلك التزم الطرفان المتعاقدان هذه الاعتبارات في تحديد الأراضي الواقعة على مجرى القناة البحرية والتي يكون الانتفاع بها طول مدة الامتياز لازماً لأنشاء القناة واستغلالها وصيانتها . وفقاً لما تم تحريره وتوقيعه وتقريره من الرسومات المرفقة بهذا الاتفاق للغرض المتقدم .

مادّة : 5

ترد الشركة للحكومة المصرية الجزء الثاني من قناة المياه العذبة الواقع بين الوادي والاسماعيلية والسويس ، كما وردت لها بموجب اتفاق 18 مارس سنة 1863 الجزء الأول من القناة المذكورة الواقع بين القاهرة وتفتيش الوادي .

ورد الجزء الثاني من هذه القناة مرهون بالشروط الآتي بيانها :

1 ـــ على الشركة إنجاز الأعمال الباقية لتكون قناة الوادي ـــ الاسماعيلية ـــ السويس بالمقاييس المتفق عليها وصالحة لتسلمها .

2 ـــ وتتسلم الحكومة المصرية قناة المياه العذبة والمنشآت الفنية والأراضي التابعة لها حالما تقدر الشركة أن في إمكانها تسليم القناة بالشروط المتقدم ذكرها ويترتب على هذا التسليم تسلم من جانب الحكومة المصرية ويتم في مواجهة مهندس الحكومة والشركة ويثبت بمحضر يوضح بالتفصيل المواضع التي تخالف فيها حالة القناة ما كان يجب أن تستوفيه من الشروط .

3 ـــ تكلف الحكومة المصرية ابتداء من تاريخ التسليم صيانة القناة المذكورة أي :

1) القيام في الميعاد المناسب بكافة أعمال الغرس والزرع مع أعمال التقوية اللازمة لحفظ الجسور من التلف مع تدفق الرمال وبقاء تموين القناة من قناة الزقازيق إلى أن يكفل التوزيع مباشرة من مأخذ المياه في القاهرة .

2) تنفيذ الأعمال الخاصة بالجزء الذي رد لها باتفاق 8 مارس سنة 1863 وربط الجزء الأول للمذكور بالجزء الثاني عند نقطة الاتصال بالوادي .

3) كفالة الملاحة في جميع الفصول بتغيير عمق مياه القناة وقدره 2،50 متراً في أوقات ارتفاع منسوب النيل ومتران في فصل المنسوب المتوسط ومتراً واحداً على الأقل في أوقات التحاريق .

4) تموين الشركة فوق ما تقدم بمقدار 70 ألف متر مكعب من الماء لسد حاجة الأهالي القاطنين على مجرى القناة البحرية ولرى البساتين ولإدارة الآلات المخصصة لصيانة القناة البحرية وآلات المنشآت الصناعية المرتبطة باستغلال القناة والرى والغرس والزرع على الكثبان وغيرها من الأراضي التابعة للقناة والتي لا يمكن ريها ريًا طبيعيًا .

وأخيرًا تموين السفن التي تمر في القناة المذكورة .

5) القيام بجميع ما يلزم من أعمال التطهير وغيرها لصيانة قناة المياه العذبة ومنشآتها الفنية وحفظها في حالة جيدة .

لذلك تحل الحكومة المصرية محل الشركة في تحملها جميع المصاريف والالتزامات التي تقع عليها لسبب تقصير في الصيانة مع مراعاة الحالة التي ستكون عليها القناة عند تسليمها والمهلة اللازمة للقيام بالأعمال التي تكون هذه الحالة قد اقتضتها .

مادّة : 9

تبقى القناة البحرية وملحقاتها خاضعة لنظام البوليس المصري ويباشر عليها سلطة مطلقة مثلما يباشرها في أي مكان من الأراضي المصرية بحيث يحافظ على النظام والأمن العام ويكفل تنفيذ قوانين البلاد ولوائحها .

تنتفع الحكومة المصرية بحق المرور بعرض القناة البحرية حيثما ترى هذا المرور ضروريًا لتضمن مواصلاتها أو تكفل الحرية للتعامل التجاري واتصال الجمهور ولا يجوز للشركة بحجة ما أن تفرض أي رسم لهذا العبور أو لجعل آخر .

مادّة : 10

للحكومة المصرية أن تشغل داخل حدود الأراضي المحتفظ لها كملحقات للقناة البحرية أي موقع أو نقطة حربية تراها لازمة للدفاع عن

البلاد على ألا يعرقل هذا أشغال الملاحة ولا يتعارض مع حقوق الارتفاق المترتبة على الشقة المحتفظ بها الواقعة على ضفتيّ القناة .

مادّة : 11

يجوز للحكومة المصرية بالتحفظات نفسها وفاء لحاجة مرافقها الإدارية (من بريد وجمارك وثكنات وغيرها) أن تشغل أي مكان يمكن التصرف فيما تراه ملائماً لغوضها مع مراعاة ما يقتضيه استغلال الشركة لمرافقها وتدفع الحكومة للشركة إذا دعا الأمر ما تكون الشركة قد أنفقته لإنشاء الأراضي التي ترغب الحكومة التصرف فيها أو لإعدادها .

*** مادّة : 13

رعاية لصالح التجارة والصناعة وتحقيقاً لاستغلال القناة استغلالا منتجاً يجوز للأفراد قاطبة الاستقرار في الأراضي الممتدة لطول القناة البحرية أو في المدن المؤسسة على جوانبها بشرط أن ينالوا ترخيصاً سابقاً من الحكومة وأن يخضعوا للائحة الإدارية أو البلدية التي تصدرها السلطة المحلية وقوانين البلاد وعرفها ولنظام الضرائب المقررة فيها مع استثناء الضفاف والطرق المعدة لسحب السفن والشقة المحتفظ بهما وراء هذه المواقع فيجب أن تبقى هذه الأراضي المستثناة مباحة للمرور وفقاً للوائح التي تحدد نظام استغلالها .

ولا تجوز هذه الإقامة إلاّ في الجهات التي يقرر مهندسو الشركة أنها غير لازمة لاستغلال مرافقها وعلى المنتفعين أن يردوا للشركة المبالغ التي قد تكون أنفقتها لإنشاء تلك الأماكن أو إعدادها .

*** مادّة : 16

بما أن الشركة العامة لقناة السويس البحرية شركة مصرية فإنها تخضع لقوانين البلاد وعرفها – على أنها فيما يتصل بتكوينها كشركة وبعلاقات الشركة فيما بينهم تنظمها وفقاً لاتفاق خاص القوانين التي تخضع لها

الشركات المساهمة في فرنسا ومن المتفق عليه أن جميع المنازعات التي تنشأ عن ذلك يفصل فيها محكمون بفرنسا ويجوز استئناف حكمهم أمام المحكمة الامبراطورية في باريس بوصفها محكماً ثالثاً .

أما المنازعات التي تنشأ في مصر بين الشركة والأفراد من أي جنسية كانوا فتنظرها المحاكم المحلية تبعاً للأوضاع المقررة في قوانين البلاد وعرفها والمعاهدات .

كذلك تعرض المنازعات التي قد تنشأ بين الحكومة المصرية والشركة على المحاكم المحلية فتفصل فيها طبقاً لقوانين البلاد .

يحاكم المستخدمون والعمال وغيرهم من التابعين لإدارة الشركة أمام المحاكم المحلية وفقاً لقوانين البلاد والمعاهدات فما يتصل بجميع الجرائم والمنازعات التي يكون فيها أحد الطرفين أو كلاهما وطنياً .

إذا كانت جميع الأخصام من الأجانب اتبعت فيما بينهم القواعد المقررة . الاعلانات القضائية الصادرة للشركة من صاحب الشأن بمصر أياً كان صحيحة باعلانها في مركز إدارة الشركة بالاسكندرية .

الملحق رقم : 3

تعرّض المؤلف خلال تقديمه لترجمة الأمير علي باش باي تونس في الصفحة 212 من هذا الجزء الثاني للرحلة الحجازية إلى حركة العصيان التي تزعّمها علي بن غذاهم قائلا : « ولمّا اشتطت حمقاء أهل البوادي أواخر سنة 1280هـ. (أفريل سنة 1864) وخرج هذا الأمير إلى الجريد بمحلّة ظهر لخروجه أعظم تأثير في تسكين النفوس وردع الثائرين ثم ان وزير العمالة يومئذ استنجده لملاقاة رئيس الثائرين حتى تيسّر له الانتصار بذلك . ورجع الأمير المذكور بمن تقيّد منهم يوم الخميس ثاني ذي الحجّة الحرام سنة إحدى وثمانين (27 أفريل سنة 1865) . وكان أبقاه الله هو أوّل من تقلّد نيشان مزيّة تسكين الثائرة » .

ولئن توفّر لدينا من المصادر والمراجع (1) ما يكفي لمعرفة متشعّبات الملابسات لتلك الثائرة التمرّدية التي اندلعت في أفريل من سنة 1864 لأسباب

(1) انظر : نشرية دار الكتب الوطنية : بيبليوغرافيا ثورة علي بن غذاهم 1864 : ملتقى علي بن غذاهم : القصرين من 18 إلى 21 ديسمبر 1975 . صفحات : 10 . والملاحظ أن أهم المصادر هي المصادر التونسية وقد نشر بيار قرانشان Pierre Grand Champ في كتابه : وثائق تونسية متعلقة بثورة 1864 (الجزء الأول من صفحة 287 إلى صفحة 383) تحليلا لبعض وثائق الحكومة التونسية المخصصة لعلي بن غذاهم ونشر بالاخص ترجمة رسالتين بعث بهما زعيم الثورة إلى محمد الصادق باشا باي مع مذكراته بالسجن . ويضاف إلى ذلك تاريخ ابن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان : فصل مدة محمد الصادق باي وفصل ثورة 1280هـ. (الجزء الخامس ص : 112 وما بعدها . كما يضاف إلى هذين المصدرين كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار لمحمد بيرم الخامس ، ط. أولى ، مصر 1302هـ. ج 2 ص : 24 — 37 . أما المراجع فهي كثيرة ومنها دراسة بيشي سلامة Bice Slama ثورة ابن غذاهم 1864 ، تونس 1967 .

عدّة أبرزها نفاد الصبر على تحمّل النظام الجبائي الغـاشم بالمملكة التونسية وسرعان ما اتّسعت رقعة حركة العصيان فشملت القبائل الرحل بداخل البلاد وقرى الساحل التونسي ومدنه فإنّنا رأينا تتميما للفائدة التاريخية إتحاف القارىء بنشر شذرات من المراسلات السياسية التي تبادلها وزير الخارجية الفرنسية مع سفـراء الامبراطوريـة الفرنسيـة وقناصلها بشـأن المسألـة التونسية طوال سنة 1864 .

ذلك أن هذه الشذرات تغافل عن نشرها — لأمر ما — كلّ من بيار ڤرانشان وبيشي سلامة وجان ڤانياج . وهي — في نظرنا — نبذ تاريخية هامّة تتمّـم المعلـومـات الكاشفـة في جـلاء للذلك الاهتمـام الذي تتبّعـت به دولة الامبراطورية الفرنسية بل الدول الأجنبية العظمـى عصرئذ تطوّر الشؤون التونسية .

ونحن نعرض للقارىء هذه الشذرات من المراسلات السياسية التي نقلتاها إلى العربية حسب ترتيبها الزمني عارية عن التعاليق والتأويل :

المراسلات السياسية بين دروين دي لويس
وزير الخارجية الفرنسية وسفراء الامبراطورية الفرنسية
وقناصلها بشأن المسألة التونسية سنة 1864

***

خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية باريس
المراسلات السياسية : تركيا 1864 جانفي إلى أفريـل
الماركي دي موستييي Demoustier سجلّ عدد 361

ص : 88

رسالة من الماركي دي موستيي سفير فرنسا بالآستانة إلى
السيد دروين دي لويس وزير خارجية الامبراطورية
الفرنسية
بيسرة (الآستانة) في 4 فيفري سنة 1864

ان ابن السلطان وأصغر أبناء أخيه سيدخلان لأوّل مرّة إلى المدرسة العسكرية حيث أعدّت لهما محلاّت خاصّة للاقامة تحت رعاية عقيد (كولونيل) هو أستاذ بالمدرسة وسمّي خصيصا لرعايتهما . وسيزاول الأميران الصغيران الدروس نفسها التي يزاولها سائر تلامذة المدرسة العسكرية . وإن السلطان قد انفصل هكذا عن عادات وتقاليد الماضي بسحبه الأمراء الفتيان من تربية الخصيان والنساء حتى يتلقّى أولئك الأمراء الفتيان تربية تكتسي طابع الرجولة بصفة أوفر . وقد اغتنم فؤاد باشا (الصدر الأعظم بالسلطنة العثمانية) تلك المناسبة ليدخل إلى المدرسة العسكرية الفتيان النصارى الذين تمّ أخيرا الاعلان عن السماح لهم بالقبول لمزاولة التعلّم بها .

ص : 255

من خطاب للسيد هـ. بولوير H. Bulwer سفير انقلترا بتركيا
بيرة (الآستانة) في 7 أفريل سنة 1864

وقد كانت قبل حرب الشرق التأثيرات الحقيقية الوحيدة بالآستانة إنما هي تأثيرات روسيا وبريطانيا العظمى ثمّ لمّا أعيد إقرار السلام طالبت فرنسا وهي كانت قامت بدور كبير جدّا في الحرب بأن يكون لها قول ودور بالتساوي في المفاوضات . وبالإضافة إلى ذلك فإن تركيا التي أفلتت من حماية انقلترا مفردة قد وقع وضعها تحت حماية ستّ دول عظمى لا تستطيع دولة منها القيام بنشاط مّا دون مساعدة الدول الخمس الباقية .

ص : 322

برقية تلغرافية عدد 361 من الماركي دي موستيي سفير
فرنسا بتركيا إلى وزير خارجية فرنسا
بيرة في 28 أفريل سنة 1864 (الساعة الواحدة و58 دقيقة
صباحا)

قد أوفد حيدر أفندي إلى تونس بمهمّة البحث عن الأسباب التي من أجلها وقعت الحوادث الأخيرة وهو مكلّف بوصف الوضع الراهن بالبلاد

التونسية كما أنه أمر بأن يدلي للباب العالي بالارشادات والمعلومات وعليه أن ينتظر ما سيصدر إليه من تعليمات .

وترافق حيدر أفندي ثلاث بوارج حربية . وقد أمر حيدر أفندي بالاتصال بقوّاد الاسطولين الانقليزي والفرنسي . وأن الباب العالي مستعدّ لعدم القيام بأيّ عمل دون التفاهم معنا في شأنه والباب العالي يؤمّل أن تتوخّى حكومة الامبراطور نفس الطريقة . على أن الباب العالي ليس لديه أخبار عن الحوادث الجارية بالبلاد التونسية فالرجاء إمدادي بها .

ص : 323

سفارة فرنسا لدى الباب العالي العثماني
بيرة في 28 أفريل سنة 1864 (الادارة السياسية
عدد : 44 المسألة التونسية) إلى السيد دروين دي‌لويس
Drouyn de Lhuys وزير خارجية فرنسا

لقد أطلعت علي باشا (وزير خارجية الباب العالي العثماني) على البرقية التلغرافية التي بعث بها إلي سعادتكم بخصوص شؤون تونس . وقد طلبت في الوقت نفسه من وزير الخارجية العثمانية الذي تلقّى الأخبار نفسها في مساء اليوم السابق من جميل باشا (سفير تركيا بباريس) أن يبيّن لي كيف يتصوّر الباب العالي الحوادث التي جدّت بالبلاد التونسية وهل في إمكانه إدراك الأسباب التي جلبت سقوط (محمد) الصادق باشا (باي تونس) وتولية (اعلان) (باي) رئيس عربي مكانه .

فأجابني علي باشا بأن الباب العالي لا يستطيع في الوقت الراهن أن يعلم هل أنه يحبّذ أو يفنّد التغيير الذي حدث بالبلاد التونسية ولكنّ الباب العالي لن يوافق بحال من الأحوال على قيام مملكة مستقلّة بالبلاد التونسية .

وأضاف وزير الخارجية التركية قائلا : إن الباب العالي ليست لديه أيّة تفاصيل عن الحوادث الجارية بتونس ولكنه كان يعلم فقط بوجه عام

أن محمد الصادق باشا باي قد صيّر نفسه بغيضا في نظر الشعب وقطع الصلات أخيرا بينه وبين رجالات البلاد وأن الاستياء كبير من جرّاء حالة الاهمال التي وقعت فيها الإدارة بالبلاد التونسية .

ص : 324

وختم علي باشا كلامه بان كلّفني إبلاغ سعادتكم تاكيدات الباب العالي بأنه لا رغبة له البتة في أن يركب متن رأسه في القضية .

هذا وقد أعلمني اليوم علي باشا بأن مجلس الوزراء العثماني الذي التأم يوم أمس قد قرّر أن يوفد إلى البلاد التونسية حيدر أفندي الوزير المفوّض كان لتركيا بطهران . ومهمّة حيدر أفندي هي إجراء البحث على العين عن الأسباب التي نجمت عنها الحوادث الأخيرة والتعرّف بالمكان على الوضع الراهن بتونس . فهو مكلّف باستقصاء المعلومات وبانتظار ما سوف يصدر إليه من تعليمات .

وترافق حيدر أفندي مبعوث الباب العالي ثلاث بوارج حربية في الرحلة إلى تونس ومن واجب هذا المبعوث أن يتصل برؤساء الاسطولين الفرنسي والانقليزي المرابطين حاليّا بمياه تونس . وقد كلّف الباب العالي سفيره بباريس (جميل باشا) بأن يعبّر عن الأمل في أن تتفق سلفا حكومة الامبراطور مع حكومة الباب العالي في صورة ما إذا اقتضى الأمر اتخاذ إجراءات جديدة . ويعبّر عن رغبته في السير على تمام الوفاق معنا .

وتفضلوا سيدي الوزير بقبول تأكيدات فائق تقديري

دي موستيي

ص : 338

من وزير الخارجية الفرنسية إلى سفير فرنسا بالآستانة المارکي دي موستيي باريس في 29 أفريل سنة 1864

السيد المـاركي

لقد نشبت حركة عصيان بالإيالة التونسية كما أعلمتكم بذلك في برقية تلغرافية ، وتلك الفتنة يظهر أن سببها بالغ الاستياء الذي أجّجت سعيره الزيادة في الضرائب . وقد انتشرت الفتنة بسرعة بين القبائل العربية التي نادت بالمسمّى : نمدون ؟ الشريف وهو عامل (قائد) كان نسبته من أولاد ماجر وبايعته بايا على عمالة (ولاية) الكاف .

إن آخر الأنباء التي بعث بها إلي السيد دي بوفال De Bauvall (قنصل عام فرنسا بتونس) هي أنباء مؤرخة في 26 أفريل 1864 وتفيد هذه الأنباء أن المتمرّدين العصاة يقصدون في تحرّكهم تونس الحاضرة . وإني لست على علم بعد إلا بصفة منقوصة غير كاملة بشأن القوّات التي تحت يد العرب كما أنه ليس لي علم كاف بخصوص وسائل المقاومة التي قد تكون تحت يد الباي سيدي محمد الصادق كي يعارضهم بها ..

هذا وبمجرّد أن ورد إلينا نبأ هذه الحركة أصدر الامبراطور أمره بتوجيه أسطولنا المتجوّل بالبحر الأبيض المتوسّط إلى الالتحاق بمياه الإيالة (التونسية) . وقد استلم قائد قوّاتنا البحرية التعليمات بخصوص السهر على حماية مواطنينا ومحميينا وكذلك باجتناب التدخّل في الشؤون الداخلية للبلاد التونسية .

ص : 339

وقد اضطرّ السيد وزير الحرب أن يتّخذ في الوقت نفسه في ولاياتنا الشرقية بالجزائر بعض التدابير الاحتياطية التي قد تمكّننا من مواجهة جميع الطوارىء . ان الانقليز لهم الآن في مياه الإيالة التونسية باخرتان حربيتان وباخرة حربية خفيفة . وقد اطلعت على التعليمات التي بعث بها اللورد روبلي Rupele إلى السيد وود Wood (قنصل عام انقلترا بتونس) بعد أن سبق أن عبّر له الأمير دولاتور دوفارنيي Pce de la Tour d'Auvergne عن رغبتنا في السير على صعيد الوفاق التام في هذه القضية مع الحكومة الانقليزية .

وقد دعي القنصل العام للروس بتونس أن يسعى في أعمالـه قـدر الإمكان على صعيـد الوفـاق مع السيـد دي بوفال De Bauval وأن يمسك هو أيضا عن كلّ تدخل في الشؤون الداخلية للبـلاد التونسية .

لذا فلي الأمل بأن لا ينجم خلاف بين هذين العونين وإني قد أوصيت السيد دي بوفـال عند إعلامه بالتعليمـات الموجهة إلى زميلـه قنصل عام إنقلترا بأن يسعى في نشاطه بخصوص هذه القضية على اتفاق مع السيد وود Wood

إن الوضع الذي سبـق الحركـة التمرّدية العصيانيـة بالبلاد التونسيـة هو وضع متشعب بمسائـل تهمّ عدّة حكومـات أجنبيـة وخاصّة حكـومـة ملك إيطاليـا فيكتـور ايمانيـوئيـل Victor Emmanuel الذي له عـدد كبيـر من مواطنيه (الطليان) يقيمون بالايالة التونسية . لـذا فإني قمت بإعـلام وزارة تورين Turin بأننـا نأمل في أن يكـون أعـوان فرنسـا وإيطاليـا يعلمون عند الاقتضاء على اتفـاق تام بينهم حسب ما تقتضيه الظروف .

ص : 340

وإني لا أشكّ في أن السيد فيسكونتي فينورتا Visconti Venorta سيوجّه إلى عونه حسب الرغبـة التي كلّفت من يعبّـر عنها له تعليمـات مماثلة للتـي قمت أنا بتبليغها إلى السيد دوبوفـال . وقد علمت أن باخرتين حربيتين ايطاليتين وصلتا إلى حلق الوادي . وإني قد اتصلت بالبرقيـة التلغرافيـة التي بعثتم بها إلي بتاريخ 28 أفريل الجاري بخصوص مهمّة حيـدر أفندي وإني لسعيد بأن أعلم أن الباب العالي مستعدّ للتفاهم معنا .

وبدون أن نسمح في أي حال من الأحوال أن يقـع السعي في شـيء مّا مخالف لمصالحنا الخصوصيـة التي يخلقها لنا جوار الجزائر والالتزامات التي اتخذتها تركيـا منذ زمـان معنا حول هذه القضيـة فإننا كذلك على استعـداد لإجـراء التعامل بالمثل كما يطلب ذلك منّا الباب العالي .

إنه في إمكانكم باعتبار هذه الاحترازات أن تعطوا في ذلك الضمانات والتأكيدات إلى علي باشا . على أنه ليس في وسعي بعد إعلامكم بالوجه الذي ترتئي عليه حكومة الإمبراطور وضعا نحن ليس لنا إلا أن ننتظر تطوّره حتى نتخذ له التدابير عن روية وبينة .

دروين دي لويس
وزير خارجية فرنسا

***

خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية باريس المراسلات السياسية : تركيا 1864 ماي إلى أوت
الماركي دي موستيي سجل عدد 362

ص : 42

برقية تلغرافية إلى الماركي دي موستيي سفير فرنسا بالآستانة باريس في 16 ماي سنة 1864 (الساعة منتصف النهار وخمس وأربعين دقيقة)

لقد صرّح لكم علي باشا (وزير خارجية تركيا) بأن الباب العالي عندما وجّه بواخر حربية ومبعوثا إلى تونس كان مصمّما العزم على عدم القيام بأيّ فعل دون أن يكون قد تفاهم سلفا في شأن ذلك مع الحكومة الفرنسية . على أن التقارير الواردة من تونس قد أفادتني أن بعض الأيدي التي تغتصب اسم السلطان قد تسعى بفضل القلاقل الراهنة إلى أن تقلب بتلك الايالة نظام الوراثة لذا قولوا للصدر الأعظم العثماني ولوزير الخارجية (علي باشا) أن الامبراطور سيعارض مثل هذه المحاولة وأنه يطلب في صورة ما إذا انقطع الباي (محمد الصادق باشا) عن الحكم أن يكون خلفه من نفس العائلة طبقا للعرف ولما جرت علية العادة في السابق .

وستوجّه تعليمات بخصوص حدوث الأمر المحتمل إلى قائد الأسطول وإلى حكومة الجزائر كي يدعّما عند الحاجة تلك التدابير التي لا ينكر الباب العالي شرعيتها .

وزير الخارجية

ص : 52

رسالة من وزير الخارجية الفرنسية إلى الماركي دي موستيي
سفير فرنسا بتركيا باريس في 20 ماي سنة 1864

إن الموقف الذي قد تتخذه تركيا أمام القلاقل الجارية بالإيالة التونسية وإن المنفعة التي قد تحاول الحصول عليها من أن تقيم بتلك البلاد سلطة لم تكن لها بها قطّ قد كانا منذ المبدأ موضوع اهتمامنا . إن القرائن المستقاة أخيرا من نواح مختلفة جعلتني أخشى كون الباب العالي بالرغم من التأكيدات التي صرّح بها لكم علي باشا قد ينساق عند الاقتضاء إلى اتخاذ تدابير نحن لا نسمح بدخولها حيّز الانجاز . وقد كنت في هذا الإطار من بعد النظر بعثت لكم في 16 ماي من الشهر الجاري برقية تجدون رفقة هذا نظيرا منها .

وإني في الوقت نفسه لفتّ بعد أخذ أوامر الامبراطور انتباه السيد وزير الحرب إلى تعيّن استعدادنا ووجوبه للعمل عند الحاجة على الحدود الشرقية للجزائر . وقد أعلمني السيد الماريشال رودون Raudon (وزير الحرب الفرنسي) أنه سيحزم أمره في هذا الشأن .

أمّا وزير البحر الذي كنت وجّهت له مخابرة مماثلة فقد أصدر أمره لقائد الأسطول المتجوّل بأن يتوجّه إلى مياه تونس بجميع القوّات . وقد أبلغني التعليمات التي بعث بها إلى هذا الضابط العام . وأنا بدوري أبعث لكم بنسخة منها كي تطلعوا عليها .

وحيث أنه من الأهمّية بمكان أن تكونوا على اطلاع أكمل قدر الامكان على ما يجري بالبلاد التونسية وعلى وجهات نظر حكومة الامبراطور

ومقرّراتها بخصوص الحوادث التي مسرحها تلك البلاد فها أنا أبعث لكم كذلك بنسخة في الملحق من :

1 — ثلاثة تقارير من السيد دي بوفال

2 — برقية تلغرافية من هذا العون مؤرخة في 11 من الشهر الجاري وردّي عليها بتاريخ 14 منه

3 — وأخيرا البرقيات التي بعثت بها بتاريخ 19 ثم 20 من الجاري إلى القنصلية العامّة الفرنسية بتونس .

ص : 53

وهذه المخابرات تعفيني سيدي الماركي من الدخول معكم في تفاصيل مسهبة . وإنكم ستجدون في تلك المخابرات الارشادات التي تحتاجون إليها كي تحملوا (حكومة) الآستانة على أن تحترم مثلما نحن ودّ الحفاظ عليه بتونس من إبقاء لنظام الأمور الموجود بخصوص الاستقلال السياسي لتلك البلاد وبخصوص العائلة التي هي بها مالكة للسلطة ملكا ووراثيا .

وإني لا أعلم إلى أيّ حدّ قد يبلغ التأثر في الآستانة بخصوص الحادث الذي إليه تشير البرقية التلغرافية التي بعث بها إليّ السيد دي بوفال بتاريخ 11 من الجاري . ذلك أن ما صدر من هذا العون ومن أمير البحر هربنغام Herbinghem من معارضة بادىء ذي بدء ومنع لحيدر أفندي من أن ينزل إلى أرض تونس . كل ذلك قد أزيل بمجرّد وقوعه تقريبا . وذلك كما يتّضح لكم من مراسلتي للقنصلية العامّة (الفرنسية بتونس) فلقد بادرت إلى عدم تحبيذ مثل ذلك التدبير ويمكنكم إذن في صورة ما إذا كان للحكومة العثمانية التشكّي والتذمّر من ممانعة نزول حيدر أفندي إحاطتها علما بأني قد قرأت حساب مطالبتها في هذا الشأن . وعبّروا لها عن تأسّفنا لحدوث هفوة لم يوح بها إلى أعواننا أيّة نيّة خادشة وإنما أوحى بها تقدير متفاوت الرجحان لما عليه الحالة الروحية بالبلاد التونسية .

وزير الخارجية

ص : 80

برقية تلغرافية من وزير الخارجية الفرنسية إلى الماركي
دي موستيي بالآستانة باريس في 25 ماي سنة 1864 (الساعة
الواحدة وخمس وأربعين دقيقة مساء)

لقد قيل بتونس إن الباب العالي يعتزم إرسال جيوش من طرابلس الغرب إلى تونس ؟ وإني لا أستطيع التصديق بهذا الخبر ولكن أستطيع التصريح إلى علي باشا (وزير خارجية تركيا) بأنه لو تمّ وقوع هذا الخبر فإن فيلقا من الجيش الفرنسي سيدخل حالاً إلى البلاد التونسية .

وزير الخارجية

ص : 82

برقية تلغرافية من سفير فرنسا بتركيا إلى وزير الخارجية
الفرنسية
بيسرة في 26 ماي سنة 1864 (الساعة التاسعة وسبع وأربعين
دقيقة مساء)

لقد كرّر القول لي علي باشا وهو يتذمّر من بعض طرق سلوك أمير البحر الفرنسي مؤكدا بأن الباب العالي لا يفكّر في تغيير نظام الوراثة وأنه يريد السير في وفاق معنا وأنه يرفض كل تضامن مع المناورات التي قد يقع القيام بها تحت شعار اسم السلطان .

سفير فرنسا بتركيا

ص : 88

برقية تلغرافية من وزير الخارجية الفرنسية إلى الماركي
دي موستيي بالآستانة باريس في 28 ماي سنة 1864 (الساعة
الثانية والنصف مساء)

إن الحديث بتونس ما زال دائما متواصلا بشأن مشروع نزول جيوش تركية بأحد موانىء البلاد التونسية وإن الأمر قد صدر لقائد أسطولنا باستعمال

القوّة للممانعة من وقوع هذا الاجراء في صورة ما إذا حدث . ولو كان ذلك النزول للجيوش التركية بطلب من حكومة الإيالة التونسية . إن العلاقات بين حيدر أفندي وقنصليتنا العامة بتونس لا تكتسي صبغة الودّ والثقة كما وقع الوعد بذلك .

وزير الخارجية

ص : 104

رسالة من سفير فرنسا لدى الباب العالي إلى سعادة وزير الخارجية الفرنسية
الآستانة في غرّة جوان سنة 1864

سيدي الوزير

لقد اتصلت بالبرقية التلغرافية التي شرّفتموني بارسالها لي بتاريخ 28 ماي والمتعلقة بمشروع نزول جيوش تركية بموانىء البلاد التونسية . إن علي باشا (وزير خارجية تركيا) قد كرّر أمس على مسامع السيد أوتري Outrey (المترجم الأول بالسفارة الفرنسية بتركيا) ما كان قاله لي منذ ثلاثة أيام بمعنى أن الحكومة العثمانية ليست لها أيّة نيّة في تغيير حالة الأمور الراهنة ولا في تغيير نظام الوراثة بتونس .

أما بخصوص إرسال جنود فإن الباب العالي ليست له في ذلك رغبة ولا قدرة له عليه . وأن جميع ما زعم بهذا الشأن لا أساس له من الصحّة .

وقال علي باشا : نحن لبس لنا سوى بعض الكتائب (الطوابير) بطرابلس الغرب ولا يمكنكم افتراض كوننا قادرين على الاستيلاء على تونس بمثل ذلك العدد القليل من الجنود . ثم قال علي باشا : إنه اتصل برسائل بعث بها إليه حيدر أفندي الذي كان والحقّ يقال يتذمّر من سلوك أمير البحر الفرنسي ولكنه كان يثني الثناء كله على علاقاته مع السيد دي بوفال .

لقد أبدى إذن وزير خارجية تركيا تعجّبه لعلمه أن الحكومة الفرنسية تتذمّر من كون تلك العلاقات لا تكتسي صبغة الودّ والثقة كما كان ينتظر بعد تصريحات الباب العالي

ص : 105

فلم يكن في وسعه الادلاء بأي تفسير أو توضيح بهذا الصدد . وقد أعلم حيدر أفندي حكومته بأن حركة العصيان تنزع إلى النقصان وأن باشا تونس قد عبّر عن رغبته في تسوية علاقاته مع الباب العالي . وأضاف حيدر أفندي أن السيد دي بوفال والسيد وود وقد أطلعهما على هذه الرغبة من باشا تونس قد أبديا وفاقهما على هذا الضرب من التفكير .

ومنذ بضعة أيام كان علي باشا تحدّث إلى السيد أوتري وأشعره بالرغبة في أن يعرض عليه بعض الملاحظات السياسية المتعلقة بالبلاد التونسية ولكن رجا منه أن يعطيها الصبغة السرية فقط دون الصبغة الرسمية . وقال له إنه لا يفهم كون الحكومة الفرنسية تفضّل أن يكون لها على حدودها أمير حقير الشأن نصف مستقلّ في إمكانه في يوم مّا قلب ظهر المجنّ لفرنسا وينكص على عقبيه ليرتمي في أحضان دولة أخرى كانقلترا مثلا بدلا من أن يكون لفرنسا تعامل مباشر مع تركيا التي تكون واثقة دائما بتبادلها معها أطيب العلاقات وخاصّة العلاقات المضبوطة .

فأجابه السيد أوتري جوابا واضحا لا غبار عليه بأن الحكومة الفرنسية لا ترغب ألبتة في ان يكون الباب العالي جارا لها وأنها ترغب صراحة في بقاء دار لقمان على حالها .

وقد ذهب اليوم (السيد أوتري) مترجم السفارة الأول إلى زيارة (فؤاد باشا) الصدر الأعظم لمواساته بعد أن رزي بموت ابنه وخصّص هذه الزيارة الثانية ليسأله باسمي أنا عن أحواله وأخباره وبالرغم ممّا كان عليه الصدر الأعظم فؤاد باشا من الحزن والأسى الأمر الذي سيمنعه بعض الوقت من

الاهتمام بالشؤون السياسية فإنه لا محالة لم يتمالك من التحدّث قليلا عن البلاد التونسية . فهو يرى أن الحكومة الفرنسية من واجبها اغتنام هذه الفرصة التي مكّنتها منها الحوادث الراهنة للتفاهم مع الباب العالي كي يسوّى بصفة نهائية وضع باي تونس تجاه الحكومة العثمانية . وقد أضاف فؤاد باشا مصرّحا بقوله إنه في الامكان كما يبدو لي اتخاذ تنظيمات مختلفة تساعد كلها على طمأنينة الممتلكات الفرنسية بافريقيا . فبادىء ذي بدء تبرم بين الباب العالي وحكومة الامبراطور معاهدة في ضبط حدود الإيالة التونسية ثم يقع التنصيص لفائدة العائلة (الحسينية) الحاكمة اليوم البلاد التونسية لا فقط على حقّ الوراثة بل أيضا على حقوق مشابهة للحقوق المخوّلة لخديوي مصر نائب السلطان العثماني . إني أبوح بهذه التأملات إلى حكومة الامبراطور التي ينبغي أن لا ترى في تفكيري سوى الرغبة الصادقة في تسوية وضع يبقى خطرا على الجميع إن هو لم يضبط ضبطا محكما . إني لا أضيف أن الباب العالي قد يكون مستعدّا

ص : 107

للاعتراف رسميا بحقوق الحكومة الفرنسية في امتلاك الجزائر . إذ أن حكومة الامبراطور ليست في حاجة لهذا الاعتراف الذي لا يجلب لها أي عنصر جديد من القوة غير أنه لو أمكن لها أن ترى في ذلك الاعتراف عربونا على ما يكنّه لها الباب العالي من العواطف الطيبة لكان الباب العالي سعيدا بأن يعطيها بشأنه هذه الشهادة الجديدة .

(هذه مقالة فؤاد باشا) وإني من بعض وجهات النظر فوجئت حقا بهذا البوح ولا يبدو لي من أول وهلة أن الحكومة الفرنسية لها فائدة لا في أن تصبح العلاقات بين السلطان والباي أكثر ضبطا ولا في أن تقع تسوية مسألة الحدود مع البلاد التونسية .

ولقد فهمت من قراءة مراسلة قنصلنا بتونس تلك المراسلة التي تفضلتم بارسالها لي أن أفكار فؤاد باشا هي دون شكّ وليدة تقارير حيدر أفندي .

وأن هذا الرجل قد استلهم بلا ريب من المحادثات التي هي حسب رأيي قليلة الانطباع بتحليل ذكي للوضع وهي محادثاته مع السيد دي بوفال .

لقد كان حيدر أفندي رجلا ذا شخصية ضئيلة القيمة وإنما بعث به إلى البلاد التونسية كي لا يبقى السلطان مفصولا تماما عن أحداث كانت تجري بتراب هو يريد اعتباره بالاسم على الأقل كترابه . قد كان من مهمّة حيدر أفندي الاقتصار على أن يلاحظ ويطلع بما يلاحظ وأن يجري علاقات طيبة مع الأعوان الأجانب لا أكثر ولا أقلّ .

ص : 108

ويبدو لي أن السيد دي بوفال قد هوّل تلك المهمّة أكثر من اللازم ونزع إلى جعل حيدر أفندي حكما على الوضع وهو أمر لم يفكّر فيه الباب العالي بالمرّة . وهذا يبدو لي قليل الانسجام مع التعليمات التي بعثتم بها إلى عوننا (السيد دي بوفال) بتاريخ 19 ماي .

وإني ألحّ على هذه النقطة ضرورة أني ألاحظ أنه أسند إلي دور يتناقض تماما مع الدور الذي قمت به هنا في التقرير السرّي الذي وجهه من الآستانة إلى نائب السلطان بمصر عون سرّي وهو التقرير الذي بعثتم به إلي رفقة برقيتكم رقم 49 .

وإني أرفق هنا نسخة من الفقرة التي أشير إليها مع ملاحظة أن العون السرّي المعنيّ الذي كان فيما سلف كثير الاطلاع على الأمور يبدو أنه لم يبق كذلك تماما منذ ذهاب مصطفى باشا الأمر الذي يدعّم الأفكار التي خامرتني لحدّ الآن بشأن مصدر تلك المراسلة ."

ومهما يكن من الأمر فإني لم أتسبّب بالمرّة لدى الباب العالي كي يبعث بمندوب له إلى البلاد التونسية كما أن الباب العالي لم تكن له مندوحة من ذلك ولم أر من واجبي الاعتراض عليه ولكنّي اعتنيت بافهام علي باشا أهمية

كون عونه يحجم عن القيام بأي فعل وعن اتخاذ أي تدبير من شأنهما أن يحدثا قلقا لحكومة الامبراطور .

لقد وجدت علي باشا شديد الوعي بالخطر الذي قد يحدث للباب العالي إذا ما هو تدخّل بتنطّع في الحوادث التي تجري على مقربة دنيا من حدود ممتلكاتنا الجزائرية ."

ص : 109

ولقد ظهر لي علي باشا بالغ التأثر كلما أبلغته برقياتكم التلغرافية . وأنه هو الذي بذل دوما الجهد لطمأنتي بشأن نواياه وإني لم أبادر البتة باعطائه توضيحات على نوايانا مثلما توعز بذلك كما يبدو المراسلة السرية لنائب السلطـان بمصر .

إني على الخصوص لم أترك علي باشا ولو لحظة يظنّ أن المبادرة بالقمع (بتونس) قد يقع تركها للحكومة العثمانية وأن علي باشا متيقّن على العكس من أن كلّ محاولة من هذا القبيل من لدن الباب العالي ستعرقل بكل حزم من قبلنا .

وتفضّلوا يا سعادة الوزير بقبـول تأكيدات فائق تقديـري

المار كي دي موستيي

*
**

ص : 110

بيسرة في غرّة جـوان 1864

أمّا فيما يتعلّق بعملية إنزال الجنـود التي قام بها بعد بتونس جنـود بحرية فرنسا وانقلترا وإيطاليا فإنّ الماركي دي موستيي **De Moustier** قد أدلى بالبيان التالي وهو أن الظرف باكتسائه صبغة رجعية فقد كان من اللازم حماية الرعايا الأجانب وأما فيما يتعلّق بفرنسا فإنه كان عليها أن تراقب حدودها

الجزائرية حيث بدت روح رد الفعل أيضا تظهر ولها نوع من العلاقة مع ما كان يجري بتونس .

ومن جهة أخرى فإن سفير فرنسا (بالآستانة) قد أعطى للباب العالي جميع الضمانات بأنه سيترك له وحده القيام بكل مبادرة القمع إلا أنه احتفظ بحقوق حكومته فيما يتعلّق بالتعويضات التي قد يستوجب دفعها للرعايا الفرنسيين المتضرّرين في مصالحهم بسبب الحوادث المعنية .

وقد أبدى الباب العالي ارتياحه لهذه التوضيحات وذلك ضرورة أنه كان في الامكان أنه ينتظر في هذه القضية موقفا غير هذا الموقف من لدن الحكومة الفرنسية إلا أن فرنسا اليوم تعامل تركيا أحسن المعاملات . إن حيدر أفندي الذي كان وزيرا ببلاد فارس قد وقع إيفاده إذن إلى تونس بصفته مندوبا سلطانيا . وقد أبحر يوم الأحد صحبة ثلاث بوارج وألف ومائتين من الجنود كما أن البارجة العثمانية المرابطة ببيري (ميناء أثينة) قد صدر لها الأمر بالالتحاق بالثلاث بوارج السابقة .

ص : 111

أمّا التعليمات التي سلّمت لحيدر أفندي فهي تلزمهم بالتزام أوفر نصيب من الاعتدال وكثير من الحذر وبالسعي لايجاد الوفاق في كل شأن إذا أمكن ذلك دون الاضرار بسلطة الارادة السلطانية . إن حيدر أفندي ليس بالتدقيق الرجل الذي كان يليق بمهمّة وعرة بهذه المثابة ولكن الشأن كان يدعو إلى السرعة ولم يكن يوجد سواه تحت متناول اليد . إن القبطان البحري صالح بـاي يقـود السـرب البحـري بعـد أن وقعـت ترقيتـه بالمناسبة إلى رتبة كمّودور .

أمّا هنا فإن السيد بولوير Bulwer (سفير انقلترا بتركيا) قد أدلى للباب العالي بمقالة شبيهة بالتي أدلى بها السيد دي موستيي (سفير فرنسا بتركيا) أي أن انقلترا تلح من جهتها على أن تترك لحكومة السلطان كلّ مبادرة قمع .

ص : 130

باريس في 10 جـوان 1864
رسالة من وزير الخارجية إلى الماركي دي موستيي سفير فرنسا بالآستانـة (عدد 55)

سيدي الماركي إنه ليس لي سوى تحبيذ مقالتكم إلى وزراء السلطان بخصوص تونس وإنه ليبدو لي من الواضح البديهي استنادا إلى المعلومات التي اشتمل عليها تقريركم عدد 59 أنهم (وزراء السلطان) سوف يبذلون ما في الوسع للاستفادة من الحوادث كي يغيّروا لفائدة تركيا بأي قدر كان نظام سير الأمور الموجود في الإيالة التونسية . وإني أرى مثلكم أنه مما يؤسف له كون عوننا بتونس (دي بوفال قنصل عام فرنسا) قد نمّى دون قصد من شأن حيدر أفندي ومن شأن مهمّته . وإني أبعث إليكم رفقة هذا نسخة من التعليمات التي بعثت بها إليه كي تطلعوا عليها .

ص : 240

رسالة من وزير الخارجية الفرنسية إلى الماركي دي موستيي بالآستانـة (عدد 59)

سيدي الماركي لئن كانت الحكومة العثمانية مثلما يجب أن نعتقد على علم مدقق عن طريق مبعوثها بما يجري بتونس فإنها قادرة على تقييم مفعول مهمّة حيدر أفندي وحضور قوّة بحرية حتى في مياه الإيالة التونسية . أمّا فيما يخصّنا فإن رأينا في هذا الصدد قد صحّ عندنا تماما ونحن لا نتردّد في اعتبار الاجراء الذي اتخذه الباب العالي ظانّا أن ذلك من واجبه عند ما علم بحوادث تونس إجراء مكدّرا للغاية .

إنني لا أضع ولست في حاجة إلى ذلك موضع الشك التأكيدات التي حصلتم عليها من وزراء السلطان بخصوص نيّة تركيا في كونها لن تحاول تغيير أيّ شيء من الوضع السياسي والدستوري بالبلاد التونسية . إني أومن

بصدق هذه التصريحات التي هي من جهة أخرى ليست جديدة ولكني أتساءل إذا لم يكن المبعوث العثماني بطبيعة الأمور نفسها ومهما كانت التعليمات التي تلقاها قد يجد نفسه معرّضا ليستعمل كدعامة وبعبارة أوضح كعلامة نفير عامّ لأولئك الذين يرغبون في النيل من استقلال الإيالة التونسية ومن سلطـة البـاي .

إنكم سترون بالفعل سيدي الماركي عند الاطلاع على التقرير الذي تجدونه رفقة هذا والذي بعث به القائد الأعلى لأسطولنا إلى السيد وزير البحر أنّ التخوّفات التي أعبّر عنها لكم ليست مجرّد افتراضات . لقد سنحت الفرصة بعد للملاحظة أعراض مكدّرة بسواحل الإيالة وموقف من سكان

ص : 241

الساحل وكل من الاعراض والموقف يجب اعتبار سببهما حضور الراية العثمانيـة .

إن السيد أمير البحر دي ولّوميز De Willaumez قد ذهب به الأمر إلى اعتبار هذه الحالة خطرة بالقدر الكافي كي يتخذ عند الاقتضاء باتفاق مع القنصل العام إجراء هو في حدّ ذاته يكتسي خطورة قصوى إذ أنه قرّر أن يقف في وجه البوارج التركية ويصدّها عن الظهور أمام مدينة سوسة كما قرّر استعمال القوّة عند الحاجة لمنعها من أن تتجه تلك الوجهة .

والحاصل أننا سيدي الماركي نبحث دون جدوى عندما نرى الأمور من وجهة نظر الحكومة العثمانية فنتساءل عمّا هي الفوائد التي قد تجنيها من إقامة حيدر أفندي إقامة أطول مدى بتونس ومن حضور قوّة بحرية تركية بتونس في حين ليس من المستطاع التغافل عن المساوي والمحذورات المرتبطة بذلك بل التعقيدات التي في الامكان أن تنجرّ عن ذلك من وقت لآخر .

إني أرجوكم سيدي الماركي أن تسارّوا في ذلك بكل إخلاص الصدر الأعظم ووزير الخارجية لجلالة السلطان . إن حكومة الامبراطور يكدّرها

دائما أن ترى ما من شأنه أن يفسد علاقاتها الودية المبنية على الثقة مع الباب العالي ويلذّ لها التأميل بأن الحكومة العثمانية ستتخذ بحزمها تدبيرا به تنهي دون تأخير سبب تعقيدات أرجوكم إحاطتها بها علما .

ص : 288

رسالة من الماركي دي موستيي سفير فرنسا بالآستانة إلى
السيد دروين دي لويس وزير خارجية فرنسا (الادارة
السياسية عدد 82)
تيرابيسة في 20 جويلية 1864

سيدي الوزيـــر

لقد اتصلت بالبرقية التي شرفتني سعادتكم بارسالها إلي في غرّة جولية تحت عدد 59 . وحيث إني لم أتمكّن أنا شخصيا من مقابلة وزير الخارجية العثمانية فإني أمرت المترجم الأول للسفارة (السيد أوتري) بالقيام بسعي أول للحصول إن أمكن على استقدام حيدر أفندي والبواخر العثمانية الموجودة بمياه تونس . وقد أطلعني السيد أوتري على نتيجة سعيه في تقرير تجدونه رفقة هذا تضمّن جواب علي باشا (وزير خارجية تركيا) على مخابرتي .

وفي اليوم الموالي لتلك المقابلة ذهبت بنفسي إلى مقابلة وزير الخارجية (العثمانية) كي أقوم بمحاولة جديدة فوجدت علي باشا على حالة من الاهتياج شبيهة بالتي كان عليها في اليوم الفارط فاجتهدت لإفهامه أن تخوّفاتنا هي مقامة على أساس من الصحة وأننا مع كوننا لا نضع موضع الشكّ التأكيدات التي حصلنا عليها من وزراء السلطان نحن من واجبنا بحجّة صحيحة أن نهتمّ بالاتفاق الذي يبدو موجودا بين حيدر أفندي والقنصلية العامّة لانقلترا (بتونس) وبما يسمّى عند العموم بالمناورات الانقليزية التركية

ص : 289

الرامية إلى إعادة وضع البلاد التونسية تحت إدارة السلطان المباشرة . وقد صرّحت بصورة مخصوصة لعلي باشا بأننا لا نستطيع إقرار مثل هذه النتيجة ودعوته أن

يتكفّل إن كان يريد طمأنة حيرتنا المشروعة بأن يأمر حيدر أفندي بأن يبرهن في كل مناسبة على ثقة أوفر بالقنصلية العامّة الفرنسية تلك القنصلية التي كان من واجبه دوما السير معها مبدئيا في جوّ الوفاق لو امتثل للتصريحات التي ما انفكّ الباب العالي يدلي بها لنا . ودعوت أخيرا علي باشا إلى أن يعرض على نظركم سيدي الوزير التعليمات ذاتها التي وجّهها الباب العالي لمبعوثه إلى تونس حتى تتمكّن سعادتكم من أن تقيّم وهي على أتمّ اطلاع وضعا يهدّد بتعكير العلاقات الودية المبنية على الثقة والرابطة بين الباب العالي وحكومة الامبراطور .

وقد أعلمني علي باشا أن بريد اليوم سيحمل إلى جميل باشا (سفير الحكومة العثمانية بباريس) في آن واحد توضيحات وجميع التعليمات التي وقع إرسالها إلى حيدر أفندي . وقد كرّر لي وزير الخارجية المقالة نفسها التي فاه بها أمس للمترجم الأول بالسفارة وصرّح لي بأن الباب العالي لا يستطيع أن يستقدم في الوقت الراهن حيدر أفندي والبواخر الحربية العثمانية من البلاد التونسية دون أن يكون ذلك مجلبة عار له وأننا لا قبل لنا منطقيا أن نطلب مثل هذا الطلب إلا أنه صرّح بأنه مستعدّ للقيام بكلّ ما هو من مشمولاته لكي يبرهن لنا عن حسن إرادته وعن رغبته في عدم السعي لتحقيق أي غرض معاكس لأهداف الحكومة الفرنسية .

وتفضلوا سيدي الوزير بقبول ضمانات فائق تقديري .

المركي دي موستيي

ص : 291

تقرير المترجم الأول بالسفارة الفرنسية في الآستانة
في 20 جويلية 1864

سيدي السفيـر

لقد توجّهت طبقا لتعليمات سعادتكم إلى منزل علي باشا قصد إطلاعه على تخوّفاتكم بخصوص تونس وإبلاغه إبلاغا جزئيا تحت جناح السرّية

البرقية السياسية رقم 59 المؤرخة بغرة جويلية 1864 . إن وزير الخارجية قد صرخ مخالفا بمجرّد أن جعلته يفهم أن الباب العالي يليق به أن يستقدم مندوبه والقلّة من البواخر الحربية العثمانية الراسية بحلق الوادي وأعلن لي في صراحة أنه لن يرضى أبدا بأن يعرض مثل هذا المقترح على زملائه الوزراء وعلى السلطان . ودون جدوى حاولت إقناع علي باشا بعدم فائدة بل بخطورة إقامة حيدر أفندي بتونس إقامة أطول مدى معية القوى البحرية العثمانية . وها أنا أترك الكلمة لوزير الخارجية محاولا قدر المستطاع حكاية جوابه على المخابرة التي كلفني بها سعادتكم : قال علي باشا :

إني لا أفهم وجه تحيّركم ولا وجه استهدافكم للخطر بسبب إقامة حيدر أفندي بتونس نحن نريد كما تريد حكومة الامبراطور إبقاء دار لقمان على حالها . نحن نريد استبقاء الدولة الحالية على الحكم وليس قول أو فعل من أقوال وأفعال مندوبنا يترك المجال للظنّ بوجود تشجيع على حركة العصيان . إن حيدر أفندي ليس له أية مخابلة مع رؤساء العصاة وهو على العكس تنحصر مهمّته في تعزيز سلطة الباشا . ولسنا نحن الذين خلقوا الوضع الراهن ولا أقبل بأن تحمّلونا مسؤولية أعمال أعوانكم أنتم .

ص : 292

أفليس أعوانكم هم الذين شجعوا بالفعل في بادىء الأمر حركة العصيان للإطاحة بالوزير خزنة دار الذي كان يتمتّع بتأييد الانقليز ؟ انكم تنازعوننا مطالبنا بشأن البلاد التونسية ولكنكم لا تستطيعون مع ذلك عدم الاعتراف بأن لنا فيها بعض الحقوق تخوّلها لنا التولية على العرش وهي تولية نمنحها دائما إلى الباشوات الذين يحكمون تلك البلاد . وعلى كل فإن حقوقنا هي بغير منازع أكبر من حقوق إيطاليا التي لم تكتف بأن ترسل إلى تونس قوّات بحريّة هائلة بل تستعدّ أيضا على حدّ قول الصحف الايطالية لتوجيه فيلق من الجند للنزول بتونس . فنحن لا نستطيع دون أن ينالنا العار استقدام بعض

البواخر الحربية في حين توجد بالمياه التونسية أساطيل جميع البلدان . إن أمراء البحر الفرنسيين يهددوننا كل يوم بنسف بواخرنا إن هي تجاسرت على القيام بأدنى تحرك أو على التوجه إلى وجهة ما في البحر ولكننا نكن ثقة مفرطة في مشاعر الرعاية والإنصاف التي يتحلى بها الامبراطور وحكومته فلا نعتقد أن أمراء البحر الفرنسيين يستسمحون لأنفسهم دون سبب القيام بعمل تعسفي كهذا . إني أكرر القول بأن حيدر أفندي مهمته تنحصر في القيام بكل عمل يطلبه منه الباشا الذي نريد تأييده حتى لا يتغير شيء من الوضع . ونحن من صالحنا مثلكم أن يعود الهدوء إلى البلاد لأن الهيجان من الممكن أن يتسرب إلى ولاية طرابلس الغرب . وإننا سوف نبعث يوم الإثنين القادم بتعليمات إلى حيدر أفندي عن طريق الباخرة السريعة وتلك التعليمات هي مطابقة لتصريحاتنا وإن أعرب الباشا الذي هو الآن في عجز عن دفع مكافآت الجنود الذين بقوا له أوفياء عن رغبته في المدد فإن السلطان سيسبق له المبالغ اللازمة .

لقد بدأ علي باشا شديد الاهتياج من الكلام الذي قلته له لحمله على إنهاء مأمورية حيدر أفندي وقد اجتهدت في حكاية أجوبته على مخابرتي لاطلاع سعادتكم على ذلك إطلاعا وفيا .

الامضاء : أونستري

ص : 313

رسالة من وزير الخارجية الفرنسية إلى الماركي دي موستيي
سفير فرنسا بالآستانة

باريس في 29 جويلية 1864 (عدد 68)

سيدي الماركي لي الشرف بإعلامكم أني اتصلت بمراسلتكم حتى تاريخ 20 من الشهر الجاري إلى عدد 85 .

بالرغم من كون المساعي التي قمتم بها لدى علي باشا لحمله على فهم سوء العقبى الناتج عن تمديد إقامة مبعوث الباب العالي بتونس لم تسفر عن

استقدام هذا المبعوث فإنه ليس لنا أن نأسف على ذلك لأن تلك المساعي قد سمحت لنا بأن نعيد إلى ذهن الحكومة العثمانية ما نعلّقه من أهمّية على بقاء دار لقمان على حالها في الإيالة كما سمحت بحثّها على أن تؤكّد ضمانات جديدة بخصوص نيتها في احترام ذلك الوضع . وإني قد تناولت أثناء حديث أجريته أمس مع سفير تركيا (بباريس) الموضوع نفسه ووضعت نفسي في نطاق وجهة النظر التي بيّنتها في التعليمات التي كان لي الشرف بتوجيهها لكم في غرة الشهر الجاري . وإني قد لاحظت له أننا رغم كوننا لا ندّعي منازعة حكومة السلطان حقّها في أن توفد إلى تونس أحد أعوانها وكوننا لا نريد البتة إكساء تحذيراتنا صبغة لا بل مظهر مطالبة قطعية فإننا مضطرّون إلى الاعتراف بأن وضع تركيا تجاه تونس ليس مماثلا لوضع الدول الأخرى وأنه ينبغي قراءة حساب ذلك . غير أنه لم يكن ممكنا إنكار كون وجود نائب عن السلطان وبواخر حربية عثمانية أصبح سببا للهيجان خلافا لنوايا الباب العالي وهو هيجان ملحوظ وملموس بين سكّان

ص : 314

الساحل حيث نصبت في بعض الأماكن راية الدولة العثمانية وكون مثل هذه الحركة التي امتزج بها طبعا شيء من الثائرة الدينية كل ذلك لم يكن ليبعث الأجانب على الطمأنينة .

وإني قد أضفت منهيا قولي أننا عندما قدّمنا للحكومة العثمانية تلك الملاحظات التي نترك تقييمها لسداد نظرها كنّا ملهمين بوجه خاص بالرغبة التي تشاطرنا إياها تلك الحكومة دون شكّ في أن لا يحدث أي تعقيد يفسد العلاقات الودية التي تربطنا بالبلاد التركية . وإني أظنّ أن جميل باشا سفير تركيا بباريس سوف ينهي فحوى حديثنا إلى علم حكومته . على أني سأنتظر المخابرات التي سيكون في وسعه حسب ما أعلمتموني به إطلاعي عليها كي أبلغكم إن اقتضى الحال تعليمات جديدة .

ثم إني لاحظت في المحضر المرافق لبرقيتكم عدد 82 أن علي باشا (وزير خارجية الدولة العثمانية) قد قال للمترجم الأول بسفارتنا إن الحكومة الإيطالية بصدد إرسال قوى عظيمة إلى تونس بل إنها قد أخذت تعدّ فيلقا من الجيش للنزول بتونس على حدّ قول الصحف الإيطالية . إن هذه الأنباء قد راجت بالفعل ولكن اتضح من البيانات التي أدلت لنا بها حكومة تورين (الايطالية) أنها أنباء لا أساس لها من الصحة . وقد وقع الإدلاء للسيد البارون مالاسيت Malaset بالتأكيد على كون الحكومة الإيطالية تشاطرنا تماما وجهة نظرنا بخصوص سير الأمور بالبلاد التونسية كما أنها أمرت أعوانها بتلك البلاد

ص : 315

بأن يكونوا على وفاق تام مع أعوان الامبراطور .

المراسلات السياسية : تركيا 1864 سبتمبر إلى ديسمبر
الماركي دي موستيي السجلّ عدد 363

ص : 7

من وزير الخارجية الفرنسية إلى السيد دي بونّيير القائم
بأعمال السفارة الفرنسية بالآستانة عدد 76
باريس في 2 سبتمبر 1864

سيــدي

ومثلما ستطلعون عليه من النسخة المرافقة لهذا نظيرا للبرقية التي بعثت بها إلى السيد البارون دي مالاريت (سفير فرنسا بإيطاليا) بتاريخ 20 أوت فإن قائد القوّات البريطانية المرابطة بمياه تونس يسعى حثيثا كي يقبل البـاي أن يباشر بنفسه المطالبة بمبارحة حيدر أفندي والقوات العثمانية البلاد التونسية . إن حكومة الامبراطور لا تمانع من هذا التدبير وتوافق عليه وإني لا أشك في أن حكومة تورين ستوافق هي أيضا عليه .

إنه لخليق بي أن أعتقد أن الحكومة البريطانية ترى مثلنا أن قوّة حيدر أفندي هي معرقل لارجاع السلام . واستنادا إلى ما بعث إليّ السيد دي بوفال (قنصل عام للحكومة الفرنسية بتونس) من آخر الانباء فإن السيد وود Wood (قنصل عام الحكومة البريطانية) قد آزر مساعي أمير البحر (الانقليزي) يلفيرستون El Wirston ويظهر أن حيدر أفندي قد طلب بنفسه تحت إلحاح القنصل البريطاني أن تبعث إليه حكومة الآستانة ما تراه من التعليمات التي تمكنه من مغادرة تونس لو سنحت له الفرصة بذلك دون حطّ من الشرف .

وفي صورة ما إذا طالب سموّ الأمير سيدي الصادق هو نفسه برحيل حيدر أفندي وفي صورة ما إذا سحبت الدول الأخرى هي نفسها أساطيلها من مياه الإيالة على إثر رحيل المبعوث العثماني فإن الباب العالي قد لا يبقى له بطبيعة الحال موجب للاعتراض على استقدام مبعوثه ذلك الاعتراض التي جاء ذكره في البرقية التي بعثت بها إلي السفارة تحت عدد 82 .

لذا فإنه ليس لي أن أشك في أنه من الممكن عند الاقتضاء أن تحضّوا الباب العالي على المساهمة والمساعدة على نجاح التدبير الذي أوصى به الأعوان البريطانيون . ولقد كتبت بتاريخ 20 جويلية رسالة إلى السيد الماركي دي موستيي أعلمته فيها بأن الحكومة الايطالية هي حسب التأكيدات التي وقع الإدلاء بها للسيد البارون مالاريت (سفير فرنسا بإيطاليا) تشاطرنا تماما وجهة نظرنا بخصوص الشؤون التونسية وهي قد أمرت أعوانها بالسير على وفاق تامّ مع أعوان الامبراطور . وقد اتصلت في هذا الشأن بمخابرة جديدة من وزيرنا في تورين بتاريخ 23 أوت تصلكم رفقة هذا نسخة منها للاطلاع .

ص : 17

سفارة فرنسا لدى الباب العثماني

الإدارة السياسية عدد 109

الموضـوع : انخراط بربر القبائل في جيش باي تونس
استقـدام المبعوث العثماني .

رسالة من سفير فرنسا بالآستانة إلى السيد درويين
دي لويس وزير خارجية فرنسا بباريس الآستانة
في 7 سبتمبر سنة 1864

سيدي الوزير

منذ اتصالي بالبرقية التلغرافية التي شرفتني سعادتكم بارسالها لي بتاريخ 3 سبتمبر الحالي والتي موضوعها عرض انخراط في الجيش جيش باي تونس وهو عرض تقدّم به لبعض البربر القبائل الجزائريين جزائري سمح لنفسه بذلك بدعوى حمله لفرمان (أمر سلطاني) تركي قد بادرت بطلب توضيحات عن الأمر من وزير خارجية السلطان . فصرّح لي علي باشا في صراحة بأن الباب العالي لم يسلّم قطعا لأي كان فرمانا من هذا القبيل وأضاف علي باشا بأن ذلك مستبعد وأنه لئن كان الحاج محمد الكاهي يعلن لمواطنيه بأن له بيده فرمانا فإن ذلك لا يكون إلا إذنا من الباي نفسه .

وبهذه المناسبة قال لي علي باشا أن الباب العالي يرى في الوقت الذي تم فيه ضغط الاضطرابات بالبلاد التونسية وقمعها أن الحين آن لإنهاء مهمّة حيدر أفندي الذي سوف يصله الأمر بالعودة إلى الآستانة .

وتفضلوا يا سعادة الوزير بتقبل فائق تقديري
المار كي دي موستيي

ص : 51

رسالة من سفير فرنسا بالآستانة إلى السيد درويين
دي لويس وزير خارجية فرنسا الادارة السياسية عدد 114
الآستانة في 14 سبتمبر سنة 1864

سيدي الوزير

إن وزير الخارجية العثمانية الذي لم يصدر مني له أيّ تلميح إلى المخابرات المتبادلة بين حكومة الإمبراطور وحكومة إيطاليا بتورين بخصوص

استقدام البواخر الحربية الراسية بمياه تونس عند الاقتضاء قد أكّد لي من تلقاء نفسه مرّة أخرى الخبر الذي كان لي الشرف بإعلامكم به في مراسلتي الأخيرة . إن حيدر أفندي سيسمح له بالعودة إلى الآستانة بمجرّد أن تبدو له الظروف سانحة بذلك .

وقد تمّ تقديم تقرير بهذا المعنى إلى نظر السلطان وسوف توجّه الأوامر إلى المندوب العثماني بمجرّد استلام الحكومة العثمانية ردّ السلطان على ذلك التقرير .

وتفضلوا بقبول فائق تقديـري

المار كي دي موستيي

ص : 75 .

برقية تلغرافية من سفارة فرنسا بالآستانة إلى وزير الخارجية الفرنسية

الآستانة في 21 سبتمبر سنة 1864 (الساعة الرابعة وخمسون دقيقة مساء) القائم بأعمال السفارة الفرنسية ... الخ

إن الأمر الصريح قد صدر بعد بالتلغراف إلى حيدر أفندي كي يتفاهم مع قواد الأساطيل وكي يغادر مياه تونس في نفس الوقت وإياهم .

إن علي باشا قد قـرأ عليّ هذا الصبـاح نصّ البرقيـة التي بعث بها إلى جميـل باشا (سفير تركيا بباريس) ....

ص : 79

الإدارة السياسيـة عدد 117
برقية إلى وزير الخارجية بباريس
الآستانـة في 21 سبتمبر سنة 1864

سيـدي الوزيـر

لقد أجبت اليوم بالبرق على البرقية التي بعثتم بها إلي بتاريخ 18 من الجاري ولكن أريد على كل حال أن أكرّر القول لسعادتكم بأن علي باشا قد أدلى لي بتأكيد مجدّد بأن الأوامر التي صدرت إلى حيدر أفندي هي أوامر واضحة جلية وأنه لا يصدّق بتردّد حيدر أفندي في مغادرة مياه تونس بمجرّد أن تنطلق الأساطيل نفسها في عرض البحر .

وتصلكم رفقة هذا نسخة من برقيتي لكم هذا الصباح

وتفضلـوا .... الخ

ص : 80

ملحق للبرقيـة عدد 117

الآستانة في 21 سبتمبـر 1864

إن الباب العالي قد وجّه بالبرق الأمر الواضح إلى حيدر أفندي بأن يتفاهم مع قواد الأساطيل وأن يغادر مياه تونس في نفس الوقت وإياها .

ص : 238

بـرقيـة من وزيـر الخارجيـة الفرنسيـة إلى الماركي دي موستيي سفير فرنسا بالآستانـة

باريس في 15 نوفمبر سنة 1864 (الساعة السادسة والنصف مسـاء)

ورد إلي في رسالة من تونس أن الباي يريد تكليف خير الدين بالذهاب لتقديم الشكر والامتنان إلى السلطان على إيفاده حيدر أفندي . وإنه ليخشى أن يكون الهدف المكتوم من مهمّة خير الدين إنما هو إعادة وضع تونس تحت السيادة العثمانية . فلا تغفلوا عن أي شيء لاستكشاف باطن هذه المهمّة وإحباط تلك المشاريع إن وجدت . وعند الحاجة تكلّموا بقوّة ورباطة جأش .

ص : 280

رسالة من وزير الخارجية الفرنسية إلى الماركي
دي موستيي عدد 96
باريس في 24 نوفمبر 1864

سيدي الماركي

إن البرقية التلغرافية التي حصل لي الشرف بإرسالها لكم في 15 من الجاري والتي أرفق لهذا نسخة منها قد أعلمتكم بأن الجنرال خير الدين قد أوفده الباي إلى الآستانة في مهمّة اعتبرها قنصلنا العام بتونس كمهمة موضوعها إعادة وضع تونس تحت السيادة العثمانية .

وإني أبلغكم رفقة هذا قصد تكميل معلوماتكم في هذا الصدد نسخة من التقرير المؤرخ في 12 من الجاري أعلمني فيه السيد دي بوفال بهذا الحادث وكذلك نسخة من الردّ الذي بعثت به إليه . وكما سترون فإن الباي عندما أعلن للقنصل العام للامبراطور بأن خير الدين يقصد الآستانة ليبلّغ إلى السلطان التشكرات لكون جلالته قد أوفد حيدر أفندي إلى تونس كان رغب من قنصلنا أن يوصيكم خيرا بالجنرال خير الدين المكلف بهذه المأمورية .

وإن مسعى سموّ الباي قد يبدو معلما بأن سموّه ليس له نوايا مبيّتة مشبوه فيها بإرساله خير الدين إلى الآستانة وأن كل ما في الأمر إنما هو مسعى تفرضه المجاملة والملاطفة . وعلى كل فإن مهمّة خير الدين ولو هي مقصورة على ما قال الباي فهي مهمّة لا يمكن اعتبارها إلا ككونها لا محلّ لها من الاعراب إذ هي قد تصير خطرة بالنسبة لبقاء دار لقمان على حالها كما هي إرادتنا بالإيالة التونسية فهذه المهمّة التي يقوم بها خير الدين تتطلب منكم سيدي الماركي مراقبة خاصّة . وإني أفترض أن خير الدين الذي سافر من تونس يوم 14 (نوفمبر) حسب ما أبرق لي السيد دي بوفال قد اعتبر من واجبه أن يزور السفارة (الفرنسية) بالرغم من كونه ليس محمّلا إليكم برسالة

تقديم . . وإني أعتقد أنكم بلا شكّ قد رحّبتم به ترحيبا كافيا كي لا يحجم عن البوح لكم بما قد يتّفق أن يدلي لكم به من أسرار حول موضوع مهمّته .

ص : 290

السفارة الفرنسية لدى الباب العثماني
الإدارة السياسية عدد 151
الموضوع : وصول خير الدين باشا من تونس إلى الآستانة
الآستانة في 30 نوفمبر سنة 1864
إلى سعادة السيد دروين دي لويس وزير الخارجية الفرنسية
بباريس

سيدي الوزير

قد وصل خير الدين باشا مبعوث باي تونس إلى الآستانة حيث رحّب به الباب العالي أيّما ترحاب وأنزله دارًا مؤثثة . هذا وإن وزير الخارجية العثمانية قد سبق تلقائيا اهتمامات حكومة الامبراطور فصرّح لي بأن خير الدين باشا إنما أتى إلى الآستانة ليقدّم إلى السلطان تشكّرات باي تونس على ما بعث به إليه من مبالغ مالية مؤخّرا وأضاف علي باشا وزير خارجية تركيا أنه ليس في الإمكان البتة اعتبار أن الشأن يتعلق بإدخال أي تحوير مهما كان للوضع الراهن الذي عليه الأمور . وزاد قائلا إن الحكومة الفرنسية التي هي دواما واستمرارا تعرب عن تخوّفها من رؤية الباب العالي يستولي على الإيالة التونسية بالعنف من واجبها أن لا ترى قبيحا استقرار روابط طيّبة بين تونس والآستانة . وأمام هذه المقالة ردّ عليه فورا المترجم الأول بالسفارة قائلا له إننا لا نرغب في أية علاقات لا طيّبة ولا قبيحة .

ومهما يكن من الأمر بخصوص تصريحات وزير الخارجية العثمانية فأكبر الظنّ من جهة أن مبعوث الباي سيحتفي به الباب العالي احتفاء كبيرا

ومن جهة أخرى أن خير الدين باشا سوف لا يغفل القول إلى الوزراء إن باشا تونس هو من أوفى رعايا جلالة السلطان وهو يلتمس مؤزرة جلالته ضدّ الحكومة الفرنسية بينما سيقرّ لي إن هو لا يخشى بزيارته لي تصدّع سمعته وإحراج موقفه بأن سيّده الباي في حاجة إلى رعايتنا الحبيبة للمقاومة في وجه تطاولات الباب العالي ولصيانة استقلاله . وتلك هي بصفة عامّة خطّة مبعوثي باي تونس مدّة إقامتهم بالاستانة . وإن العناية التي يبذلها أعضاء الحكومة العثمانية والتي تتمثل في بذلهم الجهد كي لا يتسرّب أي نبأ عن محادثاتهم مع خير الدين باشا كل ذلك برهان قاطع يؤيد ما أقول .

على أنكم يا سعادة الوزير لكم أن تكونوا متيقنين من أني سأغتنم جميع الفرص كي تكون أقوالي لوزراء الحكومة العثمانية مكتسية صبغة لا يمكن لهم معها الحفاظ على أدنى شكّ بشأن عزمنا على عدم السماح بأي تغيير كان للوضع الراهن بحدود الجزائر .

وتفضلوا يا سعادة الوزير .....

ص : 308

السفـارة الفرنسية لدى الباب العثماني

الإدارة السياسية عدد 155

الآستانة في 7 ديسمبر سنة 1864

إلى سعادة السيد دروين دي‌لويس وزير خارجية فرنسا

بباريس

سيـدي الوزيـر

لقد اتصلت بالبرقية التي شرفتني سعادتكم بارسالها إلي تحت عدد 96 . ولحدّ الآن فإن مبعوث باي تونس لم يصلني منه شيء بعد ومن الواضح الجلي أنه ينوي الاعراب لدى السفارة (الفرنسية) عن استيائه بشأن طرق عمل السيد دي بوفال . وتلك الطرق قد حرّكت مشاعر علي باشا تحريكا شديدا وقد

تحدّث إليّ بشأنها في حماس كبير فقاطعت فجاءة تذمّراته رادّا عليه بقولي إن ما قام به قنصلنا ليس عملا متداولا ولكن فيه للباب العالي عبرة إذ أن ذلك العمل الذي هو في حدّ ذاته لا يبعد إلا قليلا عن المعقول كان منطلقه ما أوجدته لسوء الحظ الحكومة العثمانية من تريّب وقلّة ثقة . وأضفت قولي إن وزراء السلطان من واجبهم أن يجعلوا همّهم إزالة التريّب وقلة الثقة بكل ما لديهم من وسائل . إن سياسة فرنسا تجاه البلاد التونسية واضحة جلية فنحن لا نريد أن يكون لنا بها الباب العثماني كجار لنا . إذ مع الجار تحدث مشاتمات ومع الجار يبيّت خبيث العواطف ونحن لا نريد أن تكون لنا مع الباب العثماني مشاتمات ولا نريد أن نعرّض بأنفسنا كي تنطوي جوارحنا على عواطف خبيثة نحو الباب العثماني . وصفوة القول نطلب منكم أن لا تخلقوا لنا مصلحة في حلّ الامبراطورية العثمانية .

فلم يتأوّل علي باشا صراحتي شرّا وأكّد لي على العكس أنه متفهّم صدق ملاحظاتي حقّ التفهّم . وقال لي ما يلي :

أنا متيقّن مثلكم من ضرورة عدم خلق نقط اتّصال لتركيا مع فرنسا ومن ضرورة صيانة العواطف الطيّبة التي تعرب عنها حكومة الامبراطور في جميع الظروف والأحوال لحكومة السلطان وحفظها من التعرّض للفساد . ونحن لو لم تكن البلاد التونسية موجودة في ظروفها الحالية بين الجزائر وإيالة طرابلس الغرب لسعينا لإيجادها . وأنا أكرّر لكم أننا لا نريد تغيير أيّ شيء من الوضع الراهن وأن مهمّة خير الدين لا تخفي أي مشروع من المشاريع التي تخشون وأنها مجاملة محضة . وماذا تريدون مني قوله أكثر مما قلت ؟ وما هي التأكيدات الأشدّ وثوقا من هذه في إمكاني تقديمها لحملكم على الاقتناع ؟

فأجبت قائلا إني شخصيّا مقتنع تماما بصدق نيّة الباب العالي وحسن طويّته ولكن الأمر يتعلّق بباريس وبتونس حيث يتأكّد أن يكون اقتناعي

مشاطرا فيه وأن هنالك شكوكاً وهي شكوك جدّية للغاية ينبغي أن تتقشّع . ولذا كنت خليقا بأن أؤمّل أن سعادته المتفهّمة لخطورة الموقف تجد الوسيلة للوصول إلى هذا الحلّ بوجه تامّ .

وإني لم أكن قادرا على أن أقول أكثر ممّا قلت ولا أن أطلب من علي باشا أكثر مما طلبت ونحن من واجبنا اعتقاد أنه لا يحاول السعي في تغيير الوضع الراهن اللهمّ إن أسندنا إليه النيّة في السعي في الكذب إلى أقصاه .

وتفضّلوا يا سعـادة الوزير ......

المار كي دي موستيي

ص : 329

السفـارة الفرنسية لدى الباب العثماني

الإدارة السياسيـة عدد 157

الآستانة في 13 ديسمبر سنة 1864

رسالة إلى سعادة السيد دروين دي لويس وزير الخارجية الفرنسيـة

سيـدي الوزيـر

حيث ان مبعوث باي تونس لم يتّصل بي منذ قدومه إلى الآستانة فإنه كان مشروعا أن أظنّ أنه ربّما أراد اجتناب أيّ اتصال بسفارة فرنسا . غير أن الأمر ليس كذلك فخير الدين قد كلف من أعلمني بأنه بناء على كونه استقبل من جلالة السلطان فإنه سوف يزورني غدا .

وتفضّلوا يا سعـادة الوزير ...

الماركي دي موستيي

ص : 341

باريس في 15 ديسمبـر سنة 1864

برقيـة تلغرافية إلى المار كي دي موستيي

اتّصلت ببعثكم المؤرّخ في 7 من الجاري . وبين يديّ الآن نصّ المقترحات التي أخذها خير الدين معه إلى الآستانة قصد ترتيب مصالحة بين تركيا والإيالة التونسية . إني أسجّل التصريحات التي أفضى بها إليكم علي باشا كما أسجّل عزم السلطان على الحفاظ دون أيّ تغيير على الوضع الراهن بتونس . وذلك هو الشرط القاطع لصيانة بقاء علاقاتنا الطيّبة مع الباب العالي وسياستنا في الشرق . وسأكاتبكم في بريد يوم الغد .

وزير خارجية فرنسا

ص : 342

رسالة من وزير خارجية فرنسا إلى الماركي دي موستيي
بالآستانة عدد 100
باريس في 16 ديسمبر سنة 1864

سيدي الماركي لقد بلغت إليّ المراسلات التي بعثتم بها إلي حتّى يوم 7 ديسمبر وإلى عدد 155 وإني لم أكن اطلعت عليها بعد إلى أن زارني أمس السيد سفير انقلترا وحادثني بخصوص شؤون تونس وموضوع المهمّة التي يقوم الجنرال خير الدين في الآستانة . إنه عليّ أن أفترض أن مبعوث الباي لم يكن بعد قد بيّن موضوع سفره إلى الآستانة لمّا كان علي باشا يدلي لكم بالتأكيدات بأن مهمّة خير الدين إنما تكتسي صبغة المجاملة والملاطفة وأن الباب العالي لا يرغب في إدخال أيّ تغيير على الوضع الراهن في الإيالة التونسية . ذلك أن سفير انقلترا بفرنسا اللورد كونلي قال لي إن خير الدين قد وقع تكليفه بأن يبلغ لحكومة السلطان مقترحات في مذكّرة أبعث لكم رفقة هذا بنسخة منها وقد طلب مني اللورد كونلي تعريفه بوجهة نظري بشأنها .

وبعد أن أجلت النظر في تلك المذكّرة التي لتأييدها سلّم لي اللورد كونلي شبه قائمة وثائقية أحتفظ بإرسالها لكم فيما بعد أجبت سعادة سفير انقلترا بأني بدون الدخول في دراسة المقترحات المعلنة لحكومة الباي من واجبي أن ألاحظ أننا لا يمكننا التسليم بأية مصالحة من شأنها المسّ من

الوضع الموجـود بتلك الإيالـة : وأن كل ما يوجـد في المقترحـات التي أتى لمحادثتي في شأنها من أمور قد تنزع إلى هذه النتيجة هو مردود ومرفوض رفضا باتّا من جهتنا وأننا نعتبر سلفا كل فعل يصدر في نفس المعنى لا به يعمل ولا عليه يعـوّل .

وأعدت إلى ذهن اللورد كونلي التصريحات الدائمة المستمرّة التي ما انفككنا ندلي بها في هذا الصدد في لندن وفي الآستانة معا وكرّرت على مسامعه أن ممتلكاتنا بالجزائر خلقت لنا تجاه الإيالة التونسية وضعا خاصّا اعترفت الحكومة الانقليزية نفسها في عدّة مناسبات بالعواقب التي تنجرّ عنه وسلّمت بذلك .

وأخيرا قلت للورد كونلي إننا لئن كنّا نريد إرجاء استقلال الإيالـة التونسية فإننا لا نستطيع أن نقبل أن يخدشه آخرون وأنه من جهة أخرى لو حدث أن هذه البلاد التونسية يقع وضعها تحت سلطة السلطان المباشرة بالزيادة والنقصان وأننا يصبح لنا إذاك تركيا كجار فإنه قد تجدّ نتيجة لهذا الوضع الجديد تعقيدات وضائقات وقلاقل لست في حاجة كي أبرز خطورتها أمامه ضرورة أنه عند الاقتضاء قد لا تجد تركيا نفسها هي وحدها مورّطة فحسب بل كذلك دول أخرى .

ص : 344

ورجائي أن تستوضحوا وزير خارجية السلطان والصدر الأعظم العثماني في شأن المهمّة المسندة إلى الجنرال خير الدين مثلما قمت به أنا بنفسي مع اللورد كونلي بوجه لا يبقي لهم أيّ شكّ في ماالحكومة الامبراطور من نوايا قطعية بشأن عدم السماح بتحقيق التغييرات التي قد تكون مطروحة على بساط النظر وبشأن المقرّرات التي سوف لن نتردّد في اتخاذها عند الاقتضاء لضمان صيانة بقاء دار لقمان على حالها بالإيالة التونسية .

وإني لا أخالكم مثلما دعوتكم في البرقية التي بعثت بها إليكم أمس إلا وقد أعلمتم علي باشا أني سجّلت الاحتجاج الذي صرّح به لنا مؤكّدا عزم السلطان على المحافظة دون أيّ تغيير على الوضع الراهن بتونس . ولا تخفوا عن وزراء جلالته السامية أننا نعتبر ما ستتّخذه حكومة الباب العالي من عناية للبقاء وفيّة لذلك العزم أحد الشروط الأساسية لصيانة بقاء علاقاتنا الطيبة مع تركيا .

وأنه في صورة ما إذا حدث سلوك مغاير من الحكومة العثمانية إمّا لكونها استجابت لاستلهاماتها الذاتية أو لكونها خضعت لنصائح غير حكيمة فإن ذلك من شأنه أن يفسد إفسادا بالغا الاستعدادات للمعاملة بالحسنى التي نرغب كوننا دائما نضمرها تجاه الامبراطورية العثمانية . وإنه لكم في نفس الوقت يا سيدي الماركي أن تذكّروا وزراء السلطان بأن موقفنا تجاه باي تونس ما انفكّ قطّ ولو حتّى أثناء الأزمة الأخيرة التي اجتازتها الإيالة عن أن يكون موقف الأخذ بالحسنى وفي نفس الوقت موقفا مستلهما من نسبة سلطة سموّه . ان الأخبار المتتابعة التي حصل لي الشرف بابلاغها لكم عن شؤون تونس في هذه المدّة الأخيرة هي أخبار تمكّنكم من التعبير عن أفكاركم في هذا الصدد في صراحة .

وتفضّلوا ....

ص : 347

السفارة الفرنسية لدى الباب العثماني

الإدارة السياسية عدد 160

الآستانة في 19 ديسمبر سنة 1864

رسالة من الماركي دي موستيي سفير فرنسا بالآستانة إلى سعادة دروين دي لويس وزير خارجية فرنسا بباريس

سيـدي الوزيـر

قد قام الجنرال خير الدين بزيارتي وبدأ حديثه معي مؤكـدا أن مهمّته ليس لها من هدف سوى تقديم تشكّرات الباي للسلطان وأنه لا يمانع من الاعتراف بأنها في الظروف الراهنة تعدّ من باب قلّة السياسة وأنه قال ذلك للباي وكتبه له في صراحة لا مزيد عليها . وقد عبّر لي خير الدين في هدوء بالغ واعتدال عن رأيه بشأن جميع الأحداث وخصوصا بشأن السيد دي بوفال منتصفا له في طبعه ومتأسفا فقط لكونه منذ مقدمه إلى تونس قد لازم نوعا من العزلة المطلقة وهي عزلة قادته إلى جهل مطبق بجميع الأمور التي من المفيد له علمها . وإني ارتأيت من الواجب أن أستقبل الجنرال خير الدين استقبالا حسنا وأن لا أظهر له تحذّرا أو تريّبا مفرطا . وإني قد سجّلت احتجاجاته بخصوص رغبة الباي في عدم القيام بأيّ فعل من شأنه أن يكون كريها لحكومة الامبراطور وخاصّة في عدم إبرام أيّ مصالحة مع الباب العالي من شأنها تغيير الوضع الموجود بالإيالة التونسية . وقد أفهمته أن الحكـومـة الفرنسية ليس لها أن تولع بأن ترفض بانتظام فلانا أو فلانا من صفّ نصحاء الباي ضرورة أن أولئك الأشخاص يفهمون فهما كافيا كما بدا لي خير الدين نفسه قائما به الضرورة المطلقة لصيانة علاقات طيّبة مع الحكومة الفرنسية . انّ ما يصدر عن الشخصية الفلانية أو عن العون الفلاني من أخطاء أو عدم دربة وقلّة حذق متفاوتة نسبة الواقعية ليس من شأنه أن يكون سببا كافيـا للغفلة ولو طرفة عين عن هدف بمثل تلك الأهمية . وقد وافقني الجنـرال خير الدين تمام الموافقة على هذا المنحى من الرأي وبدا لي أنه يسند للنوايـا التركية ثقة محدودة وعلى كلّ بدا في الجملة كما ترى العين مرتاحا للاستقبال الذي استقبلته به .

وتفضّلـوا بـ......

المارکي دي موستيي

ص : 350

السفـارة الفرنسية لدى الباب العالي

الإدارة السياسيـة عدد 161

مذكرة علي باشا وزير خارجية تركيا من سفير فرنسا بالآستانة حول مهمـّة الجنرال خير الدين

الآستانة في 21 ديسمبـر سنة 1864 إلى سعادة السيد دروين دي لويس وزير الخارجية بباريس .

سيـدي الوزيـر

لقد اتّصلت ببرقيتكم المؤرّخة في 16 من ديسمبر الجاري وإني اعتقدت أني سأعمل بطريقة تطابق وجهات نظر سعادتكم عندما آخذ كتابة مسجّلة عن التأكيدات التي كان أدلى لي بها علي باشا بخصوص نوايا تركيا فيمـا يتعلّق بتونس . وقد قمت بهذه المهمّة بوجه من اللياقة القصوى حتّى بادر وزير خارجية الترك إلى الاستجابة . إلا أنه لاحظ في نفس الوقت لمترجم السفـارة الفرنسية شيئا من التعجّب لمثل هذه الاحتياطات فيما يخصّه . وقد بادر المترجم السيد دي لابورت De Laporte إلى الردّ عليه قائلا له بأني أنا السفير لي الثقة التامّة في كلّ ما وعدت به ولكنني لي مسؤوليتي الذاتية التي يجب عليّ الحفاظ عليها تجاه حكومتي وأن سموّه ليس له أن يستقبح كوني اتخذت تدابير ارتأيت أنها الأليق لبلوغ هذه النتيجة . على أني كنت أعتزم فقط تسجيل التأكيدات الشفوية التي أدلى لي بها إلزامه بإجابتي كتابة . وقال علي باشا إنه كان ينوي القيام بذلك وإنه سوف يبلغ رسالتي والرّد عليها إلى مجلس الوزراء العثماني .

وتفضّلـوا يا سعادة الوزيـر ....

الماركي دي موستيبي

ملحق : إني اتصلت الآن وأنا بصدد إرسال هذه البرقية بالتقرير التالي الذي أتاني به السيد دي لابورت .

ص : 352

ملحق للبرقيـة عدد 161

رسالة سفير فرنسا بالآستانة إلى وزير خارجية تركيا علي باشا

الآستانة في 21 ديسمبر سنة 1864

سيـدي الوزيـر

قد أنهيت إلى علم سعادة وزير خارجية الامبراطور التأكيدات الواضحة الجليّة والقويّة التي أدليتم بها لي بخصوص عزم جلالة السلطان الصريح على إبقاء دار لقمان على حالها بتونس . وإن السيد دروين دي لويس قد بادر إلى تسجيل ذلك التصريح وكلّفني بابلاغكم شكره على ذلك وبأن أقـول لكم إنه الآن متيقّـن من أنـه لـو أن البـاي يعـرض عليكم خلافا لتأكيداته وتأكيدات مبعوثه مقترحات مخالفة لهذا التصريح فإن تلك المقترحات يقع رفضها بوجه صريح .

تعريب المحقق : علي الشنّوفي

الملحق رقم : 4

لقد تعرّض المؤلّف الشيخ محمّد بن عثمان السنوسي في الصفحة 51 من هذا الجزء الثاني من الرحلة الحجازية إلى قضية غائلات ما كانت عليه وزارة مصطفى خزنة دار إلاّ أنّه لم يفصّل القول واكتفى بالتلميح ولذلك رأيت من المفيد إطلاع القارىء على جليّة أمر تلك الغائلات ففي رأيي أنّ دور مصطفى خزنة دار كان رئيسيا في إفلاس ميزانية الدولة التونسية وهذا الدور لا يتيسرُ إجلاءُ الضبابية المحيطة به إلاّ برفع النقاب عن حقيقة شخصية الرجل بادىء ذي بدء ثمّ نتعرّض للكيفية التي كان بها يستخلص موارد الدولة عن طريق صنائعه وللأساليب التي يستعملها مع أصحاب البنوك الأجانب بخصوص القروض التي أغرقت بها سفينة الميزانية التونسية في عهد تولّيه الوزارة الكبرى . تفيدنا المصادر والوثائق الصحيحة أنّ مصطفى خزنة دار ينتسب إلى المماليك من أسرة مسيحية واسمه الأصلي جورج كالكياس سترافيلاكيس . وقد ولد هذا المملوك اليوناني في بلدة كردميلة سنة 1817 بجزيرة كييو حيث هلك أبوه استيفان في مذابح فتنة العصيان سنة 1821 لمّا قام الوطنيون اليونانيون قومتهم ضدّ حكم الأتراك العثمانيين في سبيل استقلال بلادهم الخاضعة للأمبراطورية العثمانية منذ 1458م .

ونعلم أنّ اليونان حقّق استقلاله سنة 1825 وتمّ له الاعتراف به دوليا في مؤتمر لنـدن سنة 1830 .

هكذا ظلّ جورج يتيما إلى أن وقع في حالة الرقّ وذلك في تاريخ غير مضبوط بدقّة ثم حمل عبدا إلى أزمير فبيع بسوق الرقيق في الآستانة ثم بيع من جديد في سوق العبيد بتونس فوضع في البلاط الحسيني بباردو في عهد الأمير حسين باي الثاني (1824—1835) وصار يُدعى مصطفى بعد أن اعتنق الدين الإسلامي وسهر الأمير حسين باي على تنشئة مملوكه مصطفى فضمّه إلى حاشية الأمير الشاب أحمد (المولود سنة 1806) . وسرعان ما تمتّنت بين الأمير أحمد ومملوكه مصطفى روابط المودّة والإخاء إلى حدّ أن الأمير أحمد اجتهد مع مصطفى في تعليمه القرآن والكتابة فضمّ إليه الشيخ العالم أبا زيد عبد الرحمان الكامل المالكي والفقيه أبا النخبة الشيخ مصطفى بوغازلي الحنفي . فأخذ مصطفى عن هذين الشيخين من العلم ما حصّل به مشاركة — كما قال الشيخ أحمد بن أبي الضياف في كتابه إتحاف أهل الزمان ... الجزء الرابع صفحة 179 — . فكان مصطفى يجيد القرآن ويحسن الكتابة . وبالرغم من أنه احتفظ بذكرى أصوله اليونانية فإنّه قد نسي تماما لغته الأم اللسان اليوناني . مع أنه كان يفهم اللسان الايطالي وكانت اللغة الأوربية الدالجة أكثر من غيرها في البلاط الحسيني بباردو .

وحيث إنّ مصطفى خزنة دار كان ذكيّا متفتّح الذهنية عالما بسياسة معاشرة الرجال يلبس لكلّ حال لبوسه فقد نجح منذ أن بلغ سنّ العشرين من العمر في أن يتقلّد رتبة الشرفاء الأعيان ويصعد إلى أسمى منزلة في الدولة الحسينية . ثمّ تمكّن من أن يستمرّ في الحكم طوال ستة وثلاثين عاما . ولعلّه دون شكّ قد كان يبقى على رأس الوزارة الكبرى إلى لحظة لفظه لنفسه الأخير بتونس سنة 1878 لو لم يتسبّب في سقوطه وإبعاده عن الحكم في 21 أكتوبر سنة 1873 تدخّل من أعوان الديبلوماسية الفرنسية بتونس .

إنّ الميزة الرئيسية في شخصية المملوك مصطفى خزنة دار هي تلك التي تتمثّل في أنه كان الوزير الأكبر لثلاثة من البايات الحسينيين : أولا أحمد باي من سنة 1837 إلى سنة 1855 وثانيا محمّد باي من سنة 1855 إلى سنة 1859

وثالثا محمد الصادق باي من سنة 1859 إلى سنة 1873 . هذا والحال أنه كان من الأمور العادية أن يحصل المماليك في تونس بسرعة البرق على ترقيات مذهلة في مناصب الدولة الحسينية لكنّ هبوطهم عن تلك المنازل بالعزل والتجريد من الثروة والقتل أحيانا كان أيضا أكثر اطّرادا . فأبرز ما اشتهر به البلاط الحسيني في القرن الماضي هو ذلك السلوك المحيّر المتمثّل في إتباع المنح للحظوة بالحرمان منها وفي إتباع الترفيع للمنزلة بالتنزيل منها وفي إتباع أمر التولية للمنصب بأمر العزل منه . من أجل ذلك بدا لنا أنّ استمرار المملوك مصطفى خزنة دار في التمتّع بحظوته لدى البيت الحسيني طوال ستة وثلاثين عاما هو في الواقع استمرار جدير بالاهتمام خليق بأن يرفع عن مكنون سرّه الستار .

أفيكمن سرّ بقاء مصطفى خزنة دار وزيرا أكبر طوال هذا المدى الممتدّ في كونه يشترك والبيت الحسيني في الأصل الواحد الأصل اليوناني ؟ إنّه احتمال يرجّحه العقل إذ هو احتمال غير مستبعد . لكنّ وزن مواهب الرجل – وهو الاحتمال الأرجح – هو الذي كان له التأثير الباتّ في دوام بقاء الرجل في منصبه السامي طوال ذلك المدى الممتدّ .

فعلا قد عاش مصطفى خزنة دار في نقطة الدائرة من فترة في تاريخ تونس المعاصرة امتازت بالمواجهة والمكافحة مع أوربا وتركيا لذلك أثارت شخصية هذا المملوك خصومات غلب عليها التحمّس وصدرت في شأنها أحكام وآراء وتقييمات متناقضة ومن أجل ذلك فإن أمر هذا الرجل لا يخلو درسه من إفادة للمؤرّخ ولو أن تحليل المصادر والمراجع يوشك أن ينقلب إلى حذر تجاه هذه الشخصية .

فأهمّ المصادر التي منها استقينا كتاب الإتحاف لأحمد بن أبي الضياف وكتاب صفوة الاعتبار لمحمد بيرم الخامس ثم العديد من الوثائق بخزينة وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية وفي مقدمتها تقارير فرانسوا فيللي بتاريخ 19 ماي 1872 و2 جانفي 1874 . بشأن مصطفى خزنة دار . كما أننا استعنّا

بدراسات رجعنا إليها لاستجلاء غوامض ملامح شخصية مصطفى خزنة دار ودوره في إفلاس ميزانية الدولة التونسية وفي مقدمة هذه الدراسات كتاب جان قانياج عن أصول الحماية الفرنسية بتونس 1861—1881 .

على أن الهدف من دراستنا هذه ينحصر في محاولة الاهتداء إلى الفصل بين مسؤوليات الباي ومسؤوليات وزيره الأكبر ثم التفريق بين دور هذا وذاك وتوضيح مختلف ملامح السياسة الداخلية والخارجية للبلاد التونسية في فترة حكم مصطفى خزنة دار .

أفقراءة المصادر والمراجع من هذه الزاوية تكفل لنا إمكانية إقامة فصل بين صلوحيات كلّ من الباي ووزيره الأكبر ؟ سنحاول البحث في هذا الاتجاه انطلاقا من الافتراض التالي : إن مصطفى خزنة دار استطاع رغم ما اصطبغت به سلطة الباي الحسيني من إطلاق واستبداد أن يرتقي إلى المباشرة الفعلية لوظيف وزير أكبر وما استطاع ذلك إلاّ بفضل ما تمتّع به من حظوة ومحسوبية وتقريب لدى البايات الثلاثة أحمد ومحمّد ومحمّد الصادق وكذلك بفضل ما كان له من أهلية ونبوغ ومناقب خاصّة . وهناك بعض العلائم والقرائن تؤيّدها شواهد لا تردّ يستخلص منها أنه في الإمكان القول إنّ مصطفى خزنة دار احتكر لنفسه واستأثر تدريجيا بالسلطة في الدولة مع إبقائه الباي يشعر بأن الحلّ والعقد في البلاد بيده لا بيد وزيره الأكبر .

على أنّ الأمر الذي يكاد يكون يقينا بالرجوع إلى المصادر والمراجع هو أنّ مصطفى خزنة دار احتكر لنفسه السلطة مستأثرا بها دون البايات الثلاثة الذين كان في خدمتهم . فالمشير الأول أحمد باي اختاره منذ أن ارتقى على العرش الحسيني كاتبا لسرّه ثمّ اتّخذه مستشارا ورقّاه إلى رتبة خزنة دار . ولا غرابة في ترقية المملوك مصطفى إلى وظيف خزنة دار (وزير المال) لأنّه كان قبل ذلك مكلّفا بالسهر على ميزانية الأمير الخاصّة قبل توليته بايا .

وما أن بدأ مصطفى خزنة دار العمل في هذا الوظيف في 10 رجب 10/1253 أكتوبر 1837 حتّى حظي برتبة وزير أكبر فاحتفظ بها إلى أن لبّى المشير الأول أحمد باي نداء ربّه في 14 رمضان 30/1271 ماي 1855 .

وقد اعتنى مصطفى خزنة دار طوال الثماني عشرة سنة أي مدّة عهد المشير الأول أحمد باي اعتناء بالغا بإكساء وظيفة الوزير الأكبر مزيدا من الأهمّية والشأن دون تغيير ظاهر لنظام الحكم . وممّا يؤيّد هذه الظاهرة عديد من الأعمال والإجراءات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تلك الفعلة التي تمّت سنة 1263/1847 وهي فعلة التدليس الأوّل في عملة الدولة الحسينية . فنحن نجد طابع مصطفى خزنة دار على أوراق الرسوم المالية حذو طابع المشير الأوّل أحمد باشا باي . كأنّ الوزير الأكبر مشارك للباي في السيادة والسلطان .

وقد كتب الشيخ أحمد بن أبي الضياف ما يلي في هذا الصدد : وفي هذه السنة (رجب 1263هـ/جويلية 1847) ظهر للباي أن يطبع من الفضّة سكّة خاصّة ويطبع مقدارها أوراقا في أعداد مخصوصة بها طابعه وطابع الوزير أبي النخبة مصطفى خزنة دار وخطّه وكتابة الورقة بخطوط أفراد من الكتاب مختلفة خشية تقليدها وذلك لمّا ضاق دخل المملكة واتّسع خرجها بكثرة العساكر والأمراء بغير مأمورين والضبّاط بغير مضبوطين وغير ذلك مما اقتضته سياسته التي لا يسأل عنها في ذلك الوقت . وكتب بذلك إعلاما لسائر قناصل الدول بالحاضرة نصّه بعد افتتاحه : أما بعد فإنّ العمران الحضري لا قوام له إلا بالنقود التي هي أثمان البضائع ورأينا النقود المسكوكة في إيالتنا غير وافية لإدارة مكاسبها ورواج متاجرها فاقتضى نظرنا المؤسّس على مصلحة العمالة بنموّ متاجرها ودوران مكاسبها أن نضرب سكّة خالصة من الفضّة صرفها خمسة ريالات تونسية صغرى من الرائج في العمالة وكذلك نطبع رسوما مالية في أعداد من الريالات الرائجة ونحكم بجريانها في العمالة بأعدادها في البيع والشراء وسائر المعاملات مثل النقد المسكوك نصّا سواء ونجعل دارا في حاضرتنا حاطها الله تعالى فيها مبلغ من الدراهم التونسية لصرف تلك الرسوم المالية والذي يريد صرف رسم بيده فالدار تصرفه له على أن يسقط صرفا أربعة في المائة في مقابلة نقص الدراهم والزائف منها ... (إتحاف ، ج 4 ص : 113) .

ويواصل أحمد بن أبي الضياف مخبرا في الصفحة الموالية 114 أنّ أحمد باي لم يكتب على هذه السكّة إلا ما اعتيد كتبه على سكّة البلاد السابقة . ثم قال : وقلت له (أي لأحمد باي) : لو كتبت على هذه السكّة : أحمد الله على خلوصها ؟ فقال لي : كأنّك تريد الإشارة إلى اسمي ؟ هذا لا يكون مني لأن ذلك من حقوق السلطان (العثماني) ولا أحوم حول حقوق الدولة (العثمانية) عليّ والأصلح بنا بقاء ما كان على ما كان . ثم ذكر أحمد بن أبي الضياف أنّ أحمد باي وكّل على هذه الدار التي سمّاها : دار المال : محمود بن عيّاد وهو إذّاك المقرّب زلفى والنصوح الأوفى عند الباي . وجعل الوزير أبا النخبة مصطفى خزنة دار ناظرا عليه . وكتب لهما أمرا في ذلك وابتدأ العمل بهذه الدار في أواخر شعبان من سنة 1263هـ/أوائل أوت من سنة 1847 . إلى أن هرب محمود بن عياد قابض مال الدولة التونسية إلى فرنسا في شعبان 1268هـ/ جوان 1852 .

قال أحمد بن أبي الضياف (اتحاف ج 4 ص : 149) : « ولهذا الباي (أحمد) أمان في من يحبّه خصوصا ابن عيّاد لما يرى أنه صنيعته . فقد انتشله من مخالب الوزير شاكير صاحب الطابع ... وأخذ له مالا عظيما من الدولة لا يأخذه مثله بمقتضى تلك العادة وأعانه في خصامه مع أبيه وقدّمه على أنظاره وقرّبه نجيّا حتّى أنه كان يبيت عنده في بالاصه (قصره) بقمّرت (ضاحية المرسى) ليلة في السنة منقوشا ذكرها على حجر بباب البالاص إلى غير ذلك من أنواع الإحسان المسترقّ لحرّ الإنسان » .

هناك مثال آخر يشهد بمكانة مصطفى خزنة دار عند أحمد باي ذكره أحمد بن أبي الضياف (اتحاف ، ج 4 ص : 40–41) قال : « ركب (أحمد باي) البحر إلى قابس ... ولمّا نزل قال له أعيان المحلّة : إنّ ما بلغك من الخليفة (نائب الوالي) كذب فإنّ الصحراء بها أثر الخصب والماء كثير يكفي هذا العسكر وأكثر منه . وقد تمّت المكيدة لأهل الأعراض حيث بقي العسكر بمدافعه بعيدًا منّا إلى غير ذلك . فخلا (أحمد باي) بوزيره مصطفى خزنة دار

وخرج للديوان بالوطن وسأل عبد الوهّاب باش حانبة عن حال الطريق فأجابه على رؤوس الملأ بكثرة الماء والكلأ . فقال للخليفة (نائب الوالي) : لِمَ تخبرني بغير الواقع ؟ فسكت وبهت فأمر بقطع رأسه . ولمّا حمل لموضع القتل تطارح عليه وزيره أبو النخبة مصطفى خزنة دار وطلب منه العفو . فعفا عنه من القتل وسجنه مُدّةً وسرّحهُ . ودخل بعد خروج الديوان إلى الخيمة ليختم مكاتيب كنت أنتظره بها . ودعا لوزيره حيث أنقذه من سفك دم في وقت غضب . ولم يزل رحمه الله يذكرها للوزير ويعدّها من حسناته » .

ولا غرابة في هذه الحظوة التي كان مصطفى خزنة دار يتمتّع بها عند أحمد باي أفلم يزوّجه هذا الباي بأخته كلثوم ؟ . ولهذه المصاهرة بالغ المفعول استعان بها مصطفى خزنة دار في مدّة ولاية أحمد باي إلاّ أنّ الأمور لم تبق على هذا النسق مع ولاية خلفه محمّد باي (1855—1859) .

ذكر الشيخ أحمد بن أبي الضياف أنّ الوزير مصطفى خزنة دار قال لمحمّد باشا باي : « إنّ شرفي هو خدمة بيتكم لأني نشأت في داركم تحت ظلال نعمتكم فنطلب من فضلك أن تحاسبني على جميع ما جالت فيه يدي » (إتحاف : ج : 4 ص : 186) . ويواصل الشيخ أحمد بن أبي الضياف قائلا في الصفحة الموالية أي ص : 187 : « وبعد أن اطّلع (محمّد باشا باي) على تلخيص جوامعها (أي الحسابات) قال له (أي مصطفى خزنة دار) بعد ذلك : الآن أجدّد خدمتي لسيادتكم على أساس صحيح.» فدعا له الباي .

غير أنّ العلاقة بين الباي ووزيره الأكبر لم تكن كما كانت مع الباي السابق وممّا يوضّح ذلك أخبار أوردها الشيخ أحمد بن أبي الضياف منها الخبر التالي قال :

« وفي غرّة ذي القعدة من السنة (1271 الاثنين 16 جويلية 1855 نمى إلى الباي أنّ رجلا يقال له محمّد السقّا كان من العسكر وخرج بعوض يأوي بداره أهل الفسوق والبطالة ويقصد محلّه من يريد التستّر بمعصيته . وأنكر

ذلك المحتسب وقال للباي : هذا منكر يجب تغييره . فأمر الباي بإحضاره مع عواهر من فسقة النساء . ولمّا وقف بين يديه أمر بقتله هدفا للرصاص قبل أن يعلمه بذنبه أو يسمع منه كلمة .

وكان الوزير مصطفى خزنة دار واقفا بين يديه فتطارح على تقبيل رجليه شافعا في إبقاء حياته وعقابه بغير القتل قياسا على ما عهده من سيّده الأول . فردّ عليه منكرا ذلك وقال له : مثلك لا يشفع في مثل هذا . وقتل المسكين . ثمّ أمر بنفي النسوة إلى قرقنة وأمر المحتسب بالاستيلاء على سائر كسبهنّ وبيع بالسوق وأخذ الباي ثمن ذلك لنفسه . وخرجن منفيات يتكفّفن من أهل تلك الجزيرة بما يعلمه الله » . (إتحاف ، ج : 4 ، ص : 197) .

لقد كان المملوك مصطفى خزنة دار يحظى في البلاط الحسيني بنعمة التبنّي والمصاهرة في عهد المشير الأول أحمد باي إلا أنّه في عهد المشير الثاني محمّد باي أضاف إلى ذلك حظوة أخرى ثالثة هي أنّه حمل الباي على أن يتفضّل عليه بنيشان آل البيت الحسيني وفي ذلك قال الشيخ أحمد بن أبي الضياف :

« وفي أوائل ربيع الأنور 1273هـ/أوائل نوفمبر 1856 تفضّل الباي بنيشان آل بيته على وزيره وثقته أبي النخبة مصطفى خزنة دار وتشرّف الوزير بقبوله وقال له : إنّ آل بيتك يحملون هذا بلا مكتوب اعتمادا على نسبهم الشهير الواضح ومثلي لا يحمله إلا بمكتوب ليقع الفرق بين من يستحقّه أصالة ومن يناله بمحض الفضل . فامرني بانشاء مكتوب له » . (اتحاف ، ج : 4 ، ص : 219) .

لكنّ مصطفى خزنة دار لم يبلغ في الاستئثار مع المشير الثاني محمد باي مثل الذي بلغ إليه مع المشير الأول أحمد باي والشاهد على ذلك قرائن عديدة من بينها ما ذكره الشيخ أحمد بن أبي الضياف من أن محمد باي : « أمر في عام 1272هـ/1856 بضرب سكّة من الذهب وكتب فيها اسمه مجرّدا عن لقبه

في الوجه الذي به التاريخ . إلاّ أنّه أجحف فيها وحابى الدولة بالربح شأن المتأخّرين من ملوك الإطلاق في الإسلام فأجحف ذلك بالتجار لا سيّما الافرنج ورأوا نقصان أموالهم فضجّوا بالشكاية لقناصلهم » . (إتحاف ، ج : 4 ، ص : 201) .

فالمشير الثاني محمد باي لم يسمح لوزيره الأكبر مصطفى خزنة دار مشاركته في وضع طابعه عند ضرب السكّة كما جرى ذلك مع المشير الأول أحمد باي . ونحن لا نستغرب إذن من أن محمّد باي كان يبدو في الفترة قبيل وفاته في 24 صفر من سنة 1276هـ/22 سبتمبر 1859 كأنّه أخذ يسحب ثقته من مصطفى خزنة دار .

أمّا وضعية المملوك مصطفى خزنة دار مع خلف محمّد باي فهي واضحة لا غبار عليها . ذلك أنّ المشير الثالث محمّد الصادق باي كان خاضعا بل مستسلما لمشيئة مصطفى خزنة دار وزيره الأكبر الذي استطاع بدهائه وتشجيعه للباي على إرضاء خسيس هواه أن يبعده عن واقع السلطة فلم يبق له منها سوى الذكر والاسم . ذكر قنصل فرنسا العام بتونس : دي كازن دي بللكور أن مصطفى خزنة دار كان في سبتمبر من سنة 1865 هو الحاكم المطلق الحقيقي للبلاد التونسية . ثمّ قال : « وكيف نشكّ في ذلك عندما نلاحظ أنّه تمكن من تنظيم انقلاب في البلاط الحسيني كي يعيّن أنصاره المقرّبين إليه وصنائعه في المناصب الهامّة كوزارة الداخلية ووزارة الحرب والبحرية واحتفظ لنفسه زيادة على الوزارة الكبرى بوزارتي الخارجية والمالية » . (أنظر : قانياج ، أصول الحماية الفرنسية بتونس 1861—1881 ، ص : 280) .

على ضوء هذه المعلومات في إمكاننا التأكيد بأنه من الغلط الواضح أن نسند مسؤولية أعمال الحكومة التونسية في هذه الفترة المعنية بالفحص في هذه الدراسة أيّ من سنة 1837 إلى سنة 1873 للباي بمفرده بل يتعيّن علينا أن نقرأ حساب حضور المملوك مصطفى خزنة دار الوزير الأكبر إلى جانب الباي ويجب مضاعفة هذا الاعتبار فيما يتعلّق بالباي محمّد الصادق .

فماذا كان يا ترى دور مصطفى خزنة دار في حكومة البايات الثلاثة أحمد ومحمد ومحمد الصادق على صعيد السياسة الخارجية للدولة الحسينية ؟ هذا سؤال يتمثّل الجواب عنه في أن الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار لم يسلك سياسة واضحة وإنّما سلك سياسة التأرجح تجاه قناصل دولتي فرنسا وانقلترا . وهذه السياسة كان لها مبرّر من وجهة اعتبار استقلال البلاد التونسية كما كان يعتقد ذلك بعض المعاصرين الأجانب الذين عاشوا تلك الفترة نذكر منهم على الخصوص المحامي الفرنسي دي فوسي ايدموند صاحب كتاب : شؤون الشرق ، زوال نعمة سيدي مصطفى خزنة دار ... باريس 1875 . فقد قال ايدموند دي فوسي في الصفحة 16 من كتابه ما يلي :

« لقد صمد مصطفى خزنة دار في وجه الدسائس والتهديدات الصادرة عن الباب العالي وانقلترا وفرنسا وإيطاليا . واهتدى إلى منع الجيوش الأجنبية من احتلال بلاده وحافظ على السلامة الترابية وأبقى سيادة ملكه الباي كاملة واستقلاله موفورا » .

وممّا لاحظه ايدموند دي فوسي أن مصطفى خزنة دار لم يكن له — بصفته من أصل يوناني — أيّ ميل طبيعي نحو تركيا وذلك أقلّ ما يمكن أن يقال في هذا المضمار . ففي عهد المشير الأول أحمد باي كان مصطفى خزنة دار على تمام الوفاق مع سيّده الباي لمقاومة مطالب الباب العالي وكان يعتزم معاملة باي تونس كمجرّد صاحب اقطاعة يخضع للخلافة العثمانية وهي تفرض عليه دفع اتاوة سنوية .

ومن جهة أخرى كان يخيّم على أفق البلاد التونسية خوف من أن تزحف فرنسا بعد استيلائها على أرض الجزائر فتكتسح أرض تونس . وكان هذا الخوف يدفع بمصطفى خزنة دار إلى الميل نحو الجانب الفرنسي تلافيا لذلك الخطر . غير أن مصطفى خزنة دار أصبح منذ سنة 1856 خاضعا لتأثير انقلترا بمفعول علاقات المودّة المتينة التي ربطت بينه وبين ريشارد وود قنصل انقلترا العام بتونس وهكذا لم يعد مصطفى خزنة دار إلى الميل نحو فرنسا إلا ابتداء

من ديسمبر من سنة 1864 عند نهاية الانتفاضة التي تزعـّمها علي بن غذاهم منذ شهر أفريل من السنة نفسها . وفي الواقع لم يكن هذا الرجوع إلى أحضان فرنسا إلا مكيدة أراد بها مصطفى خزنة دار المحافظة على منصبه كوزير أكبر .

بقي حدث آخر على صعيد السياسة الخارجية هو الفرمان الذي أصدره السلطان عبد العزيز في 23 أكتوبر 1871 وقرىء بقصر باردو في 18 نوفمبر الموالي . فما هو مدى تأثير الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار في قضية هذا الفرمان ؟

إنّ تحديد هذا التأثير ليس بالأمر الهيّن لأنّ نجم الوزير المباشر خير الدين كان متواصل الصعود في الأفق . وكان مصطفى خزنة دار هدفا لتهجّمات اللجنة المالية الدولية (الكومسيون) التي تأسّست بتونس بأمر عليّ في 15 جويلية سنة 1869 . والأمر الثابت في هذه القضية هو أنّ القنصل الانقليزي ريشارد وود هو الذي نصح مصطفى خزنة دار باستئناف المفاوضات مع الباب العالي وبطلب الفرمان الذي كان السلطان وعد به في عام 1864 ثمّ عدل عن إصداره تحت ضغط معارضة فرنسا . وقد أسهب قانياج في كتابه : أصول الحماية الفرنسية بتونس ، ص : 415–419 معدّدا تفاصيل هذه النازلة .

تلك هي إذن أبرز ملامح السياسة الخارجية للدولة الحسينية فهي إجمالا سياسة كانت بجميع تموّجاتها بقبضة المملوك مصطفى خزنة دار الذي كان يخضع حسب مقتضيات الأحوال لمبادرات قناصل دولتي فرنسا وانقلترا . أما البايات فالظاهر أنه لم يكن لهم في هذا المضمار لا حلّ ولا عقد بالمرّة .

أما إذا نحن نظرنا في السياسة الداخلية التي سلكها هذا الوزير الأكبر فإنّنا نجد ثلاثة أحداث بارزة تجلب الانتباه : حدث أول اشتراعي وهو المجلس التأسيسي الأول بتونس في تاريخها الحديث . وحدث ثان اجتماعي وهو انتفاضة الأهالي بزعامة علي بن غذاهم . وحدث ثالث مالي اقتصادي وهو التداين والاقتراض من الخارج .

أما الحدث الاشتراعي فهو يتعلّق بإعلان أوّل دستور تونسي وملابسات قضية هذا الدستور متشعبة نحن نقتصر في إطار هذه الدراسة على التأكيد بأن اجتماع كلمة القنصلين الفرنسي والانقليزي بتونس فترتئذ قد حرّض الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار على أن يحمل الباي على قبول ضرورة الإعلان لهذا الدستور الهادف في معظمه إلى الإشهار والتنويه بصيت الباي الحسيني باعتباره ملكا حكيما تحرّريا في نظر الأمم الأوروبية . وهكذا أعلن المشير الثاني محمد باي في 9 سبتمبر من عام 1857 عن عهد الأمان . ثمّ أعلن المشير الثالث محمّد الصادق باي في جانفي سنة 1861 الدستور الأول وفي 23 أفريل الموالي دخل هذا الدستور حيّز التطبيق .

غير أن هذا الدستور لم يضمن بالفعل التطبيقي إلاّ عظمة الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار بل غاية ما حصل كنتيجة له تكوين مجلس أعلى تركّب من ستّين عضوا وهو مجلس شبيه بالهيئة التشريعية أو مجلس الشيوخ أو محكمة عليا . وجمع في هذا المجلس الأعلى كلّ شيء من سلطة ونفوذ وثروة . فلم يكن الدستور في واقع الأمر سوى ستار من دخان حجب استئثار مماليك البيت الحسيني بالسلطة الفعلية الحقيقية على حساب أبناء البلاد التونسية . وهكذا نتيجة لكلّ هذه الأمور مجتمعة شبّت حركة العصيان العامّ في الإيالة التونسية في أفريل من عام 1864 .

أمّا الحدث الاجتماعي فهو يتعلّق بتلك الحركة التمرّدية على حكومة الباي وهو عصيان هبّ اندلاعه في أفريل سنة 1864 على النظام الجبائي الجائر بالمملكة التونسية وسرعان ما اتّسعت رقعة تلك الحركة فشملت القبائل الرحل بداخل البلاد وقرى الساحل التونسي ومدنه . وهنا يبدو أن مصطفى خزنة دار قد كان إبّان هذه الفتنة الكبرى متفرّدا بأمر الحلّ والعقد في البلاد وكأنّ المشير الثالث محمد الصادق باي غائب لا وجود له .

لقد سلك مصطفى خزنة دار لمجابهة هذه الحركة التمرّدية سياسة التفريق بين العشائر تلك السياسة التي ساهمت في إثارة دفين الضغائن بين العروش

فتعدّدت إغارة بعضها على بعض وتواترت المفاوضات بين مشائخ العروش وقصر باردو . ثمّ في النهاية أصدر مصطفى خزنة دار وعوده بالعفو عن الثائرين وبتخفيض الجبايات من عشر وقانون زيتون ومجبى على الرؤوس كما عمد إلى تسمية القيّاد من أبناء البلاد بدلا من المماليك .

وفي الحقيقة لم تكن تلك الوعود لتصدر عن مصطفى خزنة دار إلاّ مدافعة منه عن منصبه كوزير أكبر ومعلوم أنّ القبائل والعروش التونسية كانت تطالب بإقصائه عن الوزارة الكبرى معتبرة إيّاه السبب الرئيسي في إفلاس خزينة الدولة وتهاطل الجباة عليهم سلبا ونهبا لأرزاقهم وأموالهم .

أما الحدث المالي فهو يتلخّص في التداين المصحوب باقتراضين . وصورة التداين تمثّلت في أن العاملين في هياكل الدولة من موظّفين بالإدارات وبالجيش ومن مقاولين ومموّلين صاروا لا يتقاضون جراياتهم بانتظام في مواعيدها وأصبحت الحكومة متدينة لهم وبلغ بها الأمر إلى أن أضحت تدفع لهم تذاكر صالحة للقبض المؤجّل . وهذا العجز عن الدفع لم يسلم منه أمراء البيت الحسيني أنفسهم فمرتّباتهم تأخّرت عنهم هم أيضا مثل سائر الموظّفين . ولمّا تأزّمت الأمور المالية إلى هذه الدرجة عمد مصطفى خزنة دار بدعوى إنقاذ الموقف الحرج إلى تحقيق اقتراضين : الأول سنة 1863 والثاني سنة 1865 .

غير أن الانفراج المأمول للوضع المالي لم يحصل بل كان ذانك الاقتراضان وبالا على ميزانية الدولة التي أعلنت الإفلاس فانتصبت اللجنة المالية الدولية في 15 جويلية سنة 1869 متألّفة من فرنسا وانقلترا وإيطاليا . وترأس هذه اللجنة خير الدين كما عيّن فرانسوى فيلّي المتفقّد العامّ للمالية بفرنسا (من 1869 إلى 1874) كرئيس مساعد نائب عن خير الدين . وقد حرّر هذا الموظف الفرنسي تقريرين عن أسباب الاضطرابات المالية في ميزانية الدولة التونسية أحدهما سنة 1872 والثاني سنة 1874 . وبعث بالتقريرين إلى وزير الخارجية

الفرنسية وهما الآن في عداد الوثائق المحفوظة بخزينة (أرشيف) وزارة الخارجية الفرنسية بباريس (المجلّد رقم 12 الإدارة السياسية ، ماي 1872 من صفحة 245 إلى صفحة 285 ، ثم جانفي 1874 من صفحة 286 إلى صفحة 302) .

وضّح التقرير الأول دور مصطفى خزنة دار في الاضطرابات المالية فذكر أن الإيالة التونسية كانت حالتها مزدهرة من وجهة الاقتصاد ازدهارا نسبيا إلى نهاية عهد مصطفى باي (1835—1837) الذي كان له على التوالي كوزير أكبر شاكير ومصطفى صاحب الطابع . وإذاك لم يكن لأيّ دين عمومي وجود بالمرّة . وكان العساكر — وعددهم بلغ 25 بل 30 ألف رجل — وكذلك الموظفون والأعوان يتقاضون بصفة منتظمة جراياتهم . وكانت الفلاحة مزدهرة حتى أن عدد الماشيات المحروثة بلغ إذاك 80 ألف ماشية مع العلم أن الماشية هي عبارة عن أرض زراعية مساحتها تتراوح بين 900 و950 هكتارا . وكان مجموع سكّان الإيالة يبلغ تقريبا مليونين من المتساكنين .

ولمّا خلف أحمد باي أخاه مصطفى على العرش الحسيني اتّخذ من مصطفى خزنة دار وزيره الأكبر وسرعان ما كشف مصطفى عن كمين هواه للثروة والمال والذهب ولم ينقطع عنه هذا الهوى بل تفاقم يصاحبه دون هوادة حتّى انتهى الأمر به إلى أن يضحّي في سبيله بثروة البلاد وبالمتساكنين أنفسهم بل وبأمن الملك صاحب نعمته .

ويواصل فرانسوى فيلّي واصفا في تقريره تلك الوسائل المتنوّعة التي كان يلجأ إليها مصطفى خزنة دار لبلوغ مآربه . فهو لم يكن يقتصر على كونه لم يعلم قطّ معنى للاستقامة واحترام حقوق الغير بل لم توجد مظلمة أو أيّة عملية عنف أو تبذير قد أحجم عنها لحظة كما لم يوجد قانون للبلاد التي له الولاية عليها ولو كان قانونا نظاميا لا عرفيا لم يدسه وذلك كلما تعلّق الأمر بالنسبة إليه بتوفير ربح واغتصاب الأموال . ولم يكن يعنيه مبلغ الربح وإنّما

الذي كان يهمّه تحقيق الربح . وكانت قولته دائما هي الآية : على قدر النتائج المحتملة التحقيق تعدّل الوسائل المستعملة .

ويقول فرانسواي فيللّي في الصفحة 246 من تقريره : إنه يكاد يكون من المستحيل كشف النقاب عن جميع الأعمال الإجرامية التي قام بها مصطفى خزنة دار من تنطّع وخيانة وموبقات . إن مثل هذا العمل الإحصائي يتطلّب القيام بفتح بحث يشمل ثلاثين سنة من الحكم الاستبدادي المطلق كما أنه يتطلّب أن يمثل أمام العدالة جميع الذين كانوا طوال هذه المدّة أعوان الحكومة بعنوان ما بمعنى كل الذين كانوا أعوان تنفيذ أو مشاركين لمصطفى خزنة دار لأنّ دخول الوظيف في الحكومة طوال هذه الثلاثين سنة كاد يكون مستحيلا دون أن يكون المترشّح للوظيف صنيعة بادىء ذي بدء للوزير الأكبر مصطفى خزنة دار . فقد كان له سماسرة أخصّائيون لمثل هذه الصفقات . وكان مبلغ الفدية (أي ثمن التوظيف) يعيّن بعد نقاش فيصبّ قسط من هذا المبلغ أحيانا في خزينة الباي الخاصّة ويبقى القسط الأعظم إن لم يكن كامل المبلغ في الغالب في قبضة الوزير الأكبر .

ويضيف فرانسواي فيللّي قائلا : فمن تونس الحاضرة إلى أعماق منطقة الجريد لا وجود لأيّ إنسان يجهل هذه الأعمال الإجرامية أو لم يكن لها ضحيّة . بل لم يكن كافيا أنّ الموظّف قد دفع ثمن الحصول على وظيفه حتى يطمئنّ بالتمتّع به إذ أن الوالي (القايد) كان بمجرّد مباشرته لوظيفه سرعان ما تساوره المخاوف من العزلة والتعويض بمترشّح جديد قدّم مبالغ مالية أكثر ممّا دفع هو . وهكذا كان هؤلاء القياد على استعداد دائم لتلبية رغبات الوزير الأكبر . وفي الواقع أن القايد كان يعمد — عندما يتعيّن عليه دفع هدية للوزير الأكبر قدرها 10.000 ريال — إلى اغتصاب مبلغ قدره 15.000 ريال أو 20.000 ريال من منظوريه الأهالي ويبقي الفارق لخاصّة نفسه . وفي مثل هذه الحال كان القايد آمنا من العقوبة على جوره .

كانت الفعلات من هذا القبيل مطردة شائعة إلى درجة أنه لا حاجة إلى التدليل عنها بأمثلة ولكن سأذكر منها مثالا هو الآتي : ففي عام 1866 اشترى زرّوق بن علي والعبيدي قيادة قفصة والقيروان بمبلغ قدره 500.000 ريال ولكن حيث إنّهما لم يكونا يملكان ذلك المبلغ فقد بادر الوزير الأكبر بإعانتهما فكلّف سمسار الحكومة الرئيسي بأن يوجد لهما ذلك المبلغ بطريقة شيطانية صورتها كالآتي : اقترضت الحكومة من بعض التجار بتونس عن طريق نفس السمسار مبلغا من المال وفي مقابلته سلّمت لهم تذاكر رقاع بقيمة اسمية مضاعفة أربع مرّات لمبلغ القرض . وكانت تلك التذاكر بربح ربوي . ثم دون جدوى طالب التجار بمالهم فتدخّل السمسار وأقنع التجار بأن يرجعوا بادىء ذي بدء التذاكر إلى المقادير التي كانت لها عند استلامهم لها بمبلغ قدره 300.000 ريال ثم بأن يدفعوا نقدا 200.000 ريال إضافية وكلّ ذلك مقابل التزام بحجّة عدلية لدفع المبالغ بعد ستّة أشهر وأمضى الالتزام زرّوق بن علي والعبيدي والضامن فيهما علي بن خليفة وأعطيت بدون شكّ جميع الضمانات بأن هؤلاء الأنفار الثلاثة ملاء .

وبمجرّد أن أرجع التجار التذاكر بادر الوزير الأكبر إلى بيعها محقّقا بذلك ربحا وفيرا . ثم عمد السمسار وهو السيد قوتّييريي العضو الايطالي بلجنة المراقبة إلى أن يخصّ نفسه بمبلغ 20.000 ريال كأجرة سمسرته خصمه من مبلغ 200.000 ريال المدفوعة نقدا . وكان المظنون أنّ القضية وقفت عند هذا الحدّ إلاّ أنّ شخصا آخر عرض للحصول على قيادة قفصة والقيروان مبلغا أعظم من المال الذي دفعه زرّوق والعبيدي فجاءتهما العزلة في الحين وولّي الشخص الآخر مكانهما وتقدّم إليهما أعوان بَعَثَهُمْ الوزير الأكبر فاغتصبوا كلّ ما وجدوه بمنزلهما ومن بين ذلك صندوق به 100.000 ريال على ملك العبيدي ولم يسمع فيما بعد شيء عن خبر الصندوق .

أما الالتزام بحجّة عدلية الذي قبله التجار فإنّه لم يوفّ به ولم تحقّق تدخلات القنصلية الايطالية أي إنجاز لفائدة أولئك التجار الايطاليين سوى

أنه منذ أشهر قلائل من عام 1872 عزم التجار على المطالبة بسجن زروق والعبيدي وعلي بن خليفة فأنجز الوزير الأكبر مطلبهم . وما أن تمّت هذه العملية حتّى بادر شخص من صنائع محمد بن مصطفى خزنة دار إلى إقناع التجار بأنه من المستحيل أن يستخلصوا دينهم وعرض عليهم أن يقبلوا عوضا عن دينهم رقاعا من الدين المعزّز بمنحة تمثّل القيمة الاسمية لا الحقيقية . ومعنى هذه العملية هو أن يضحّي التجار بمقدار 60 في المائة مما كانوا ينتظرون . وتفهّما للوضع قبل التجار ذلك الحلّ خوفا من أن يخسروا الصفقة كلّها . وتجريد الحساب في هذه القضية هو أن الأيام القلائل التي تولّى أثناءها زروق وعلي بن عبيد قيادة قفصة والقيروان قد كسب منها الوزير الأكبر أو ابنه محمد 8 أو 9 مائة ألف ريال أما زروق وعلي بن عبيد فكان الإفلاس والسجن من نصيبهما .

ويواصل فرانسواي فيللّي قائلا في الصفحة 248 من تقريره بتاريخ 19 ماي 1872 :

كما كان الارتشاء أمرا علنيا بخصوص الوظائف كذلك كان الأمر في ميدان القضاء . لقد كان مصطفى خزنة دار يفتكّ من أيدي القضاة النوازل ليحكم فيها حسب رغبة من اشترى رعايته . وكان الناس يعلمون باب من يقصدون في مثل هذه المناسبات إلاّ أنّ الأمر الذي كان يحيّرهم هو تقديم هديّة مرضية للوزير الأكبر الذي كان بالمرصاد لوفيات الأعيان من أصحاب الثروة فيسعى جاهدا للحصول على نصيب من تركاتهم مع المستحقّين من الورثة إنْ وجدوا أمّا إذا تبيّن أنّ الهالك الثري ليس له ورثة فإنّ مصطفى خزنة دار هو الذي يرثه . ولعلّ مثل هذه الأعمال يبدو غريبا يكاد لا يصدّقه العقل إلاّ أنّ عمليات نهب التركات بهذه الكيفية تواترت وهذه أمثلة على ذلك :

1) تركة الحاج حسن سنان
2) الأملاك التي خلّفها عمر باي

3) الأملاك التي خلـّفها حسن ساقصلي . والملاحظ بخصوص هـذه العملية أن مصطفى خزنة دار قصد القيام بصلاحيات وظيفة بيت المال إذ إليه تعود تركات من يهلك دون إبقاء وارث

4) أملاك زنائدة بن عزّوز الذي توفـّي وهو قايد دريد . فقد استولى مصطفى خزنة دار على جزء من تلك الأملاك وأخذ حذره فأسند بقيتها إلى أشخاص كانت ثرواتهم من شأنها أن ترجع إليه فيما بعد

5) أموال حميدة شباح استولى عليها مصطفى خزنة دار وترك بنات الهـالك في البؤس والفقر فاضطررن إلى الالتجاء إلى ضريح أحد الأمراء المراديين يتكفـّفن ذوي البرّ والإحسان

6) استولى الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار على قسط عظيم من الحجارة الكريمة والجواهر هي جزء من مخلـّف الشيخ الأصرم باش كاتب كان . وهنا يجب الاعتراف بأن الوزير الأكبر برّر هذا الاستيلاء بنوع من الرضى حصل عليه دون عناء من ابن الهالك . وكان متخلـّفا ذهنيا . فاعتنى به وأدخله في عمليات إيجار أراضيه للدولة وساقه بتلك التعلـّة إلى الإفلاس التام واستولى هو على كامل تلك الثروة فلم يبق لولد الأصرم المسكين سوى الفرار إلى زاوية سيدي أبي سعيد حيث عكف يتكفـّف ذوي الاحسان

7) الثروة التي تركها سعد بن عبيد وكان أحد رجال أعمال مصطفى خزنة دار. فهذه الثروة لم تقسـّم بين ورثة الهالك إلاّ بعد أن خصم منها سهمان أحدهما للوزير الأكبر والثاني لإبراهيم قايد دريد وكان إبراهيم أحد سماسرة مصطفى خزنة دار .

ويضيف فرانسواي فيلـّلي قائلا : تلك هي بعض العيـّنات من جور مصطفى خزنة دار وهو جور ستطول قائمته في اليوم الذي ينتهي الخوف من هذا الرجل . فلقد كانت المحصولات التابعة للحكومة هي الأخرى ميـدانا للرشوة كما كان الأمر بالنسبة إلى الوظائف والقضاء . لقد اتـّضح أنه لم يكن

يتمّ البتّ في إسناد امتياز أية محصولة من المحصولات إلاّ بعد أن تقدّم إلى الوزير الأكبر أو إلى ابنه محمد أو إلى أحد أعوانه هدية تسمّى جعلا . على أن مصطفى خزنة دار لم يقتصر على استغلال هذا الفرع الهامّ من مداخيل الدولة بمفرده بل شاهدنا منذ السنوات الأولى من عهد أحمد باي ظهور محمود بن عياد وبين يديه وقع تجميع كافة محصولات الإيالة دفعة واحدة . فمحمود بن عياد تصرّف طوال سنين عديدة في أكثر من سبعين صنف من المحصولات . وكان تأثير هذا الرجل عظيما ولم يسلم أحد من جوره وفي عهده كان الزائر لبعض مدن الإيالة عندما يسأل الأهالي عن سبب ما بمدنهم من خراب يجاب بأن ذلك من نتائج جور محمود بن عياد .

فقد كان من الواضح – كما يقول فرانسواي فيلّي – وذلك بالنسبة إلى الناس جميعا أن حظوة كالتي يتمتع بها محمود بن عياد ويستغلّها لتنمية ثروته التي سريعا ما أصبحت عظيمة هي حظوة ما كان لصاحبها أن يستغلّها كما فعل لولا موافقة الوزير الأكبر صاحب نعمته . إلاّ أنّ الخوف كان يغمض العينين بل كان يلجم الناس عن الكلام . فهذا أحد الموظفين وهو قايد مدينة الكاف تجاسر فقال إنّ مصطفى خزنة دار هو شريك محمود بن عياد وفي الحين بلغ ذلك إلى علم الوزير الأكبر فأجبره على أن يدفع غرامة مبلغها مليون من الريالات (وهو مبلغ لم يذهب إلى صندوق الدولة وإنما إلى صندوق خزنة دار) ثم هدّده بعقاب أشدّ . وقد صرّح محمود بن عياد لما كان مقيما بباريس في الوقت الذي عرضت فيه نازلته مع الحكومة التونسية لتحكيم الامبراطور نابليون الثالث وذلك في نهاية عهد أحمد باي ، صرّح محمود بن عياد بأنه إنما كان شريكا مع الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار وأدلى بوثيقة الاتّفاق الذي بمقتضاه يقع بينهما قسم الأرباح .

لقد كانت إدارة محمود بن عياد كارثة على البلاد التونسية إذ أن هذا الرجل جمع ثروة اطمأنّ عليها بتحويلها إلى الخارج وتقدّر بخمسين أو ستّين مليون من الفرنك . وبدون شكّ قد قبض الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار

مبلغا مساويا وعلى كلّ حال فالمسؤولية في سلسلة الخيانات والجور وما تبعها من عواقب وخيمة تقع على كاهل مصطفى خزنة دار أكثر مما تقع على كاهل محمود بن عياد الذي لم يكن إلا مشاركا فقط . ثم بعد فرار ابن عياد إلى فرنسا تولّى نسيم شمامة منصب قابض مال الدولة ورقي إلى رتبة أمير أمراء وبقي في هذا المنصب منذ آخر عهد أحمد باي وكامل عهد محمد باي وجزءا من عهد محمد الصادق باي .

وقد كان نسيم شمامة قابض مال خاصّ عند مصطفى خزنة دار ولم يكن له ثروة كبيرة وبمجرد تولّيه منصب محمود بن عياد حتّى سرعان ما صار يتمتّع بامتلاك ثروة طائلة إلى حدّ أنه استطاع بمفرده أن يقرض الحكومة التونسية مبلغا من المال قدره 12 مليونا من الفرنك ثم حمل معَهُ لما فرّ إلى الخارج مبلغا من المال يقدّر بما عدّه 25 أو 30 مليونا من الفرنك .

وفي الصفحة 252 من التقرير بيّن فرانسواي فيلّلي بعض الوسائل التي كان يستعملها نسيم شمامة لتحقيق ما وصل إليه بالإضافة إلى أصناف المضاربات التي كان يستعملها محمود بن عياد فهو مثلا احتفظ لنفسه لمدّة خمس عشرة سنة بامتياز محصول القمارق بتونس مقابل ثمن قدره 300.000 ريال بينما تقدّم غيره للحصول على ذلك الامتياز بمحصول قمارق الواردات وعرض المرّة تلو الأخرى ثمنا يفوق ثلاث أو أربع مرات مقدار الثلاثمائة ألف ريال ومع ذلك تمكّن نسيم شمّامة بالاحتفاظ بهذا الامتياز موضّحا بأنه امتياز راجع في الواقع إلى الوزير الأكبر وما هو إلاّ عون له .

وممّا استغلّه نسيم شمّامة لتوفير أرباحه أوامر الاذن بسراح تصدير الزيوت والحبوب إلى الخارج فقد كان يتسلّم من الوزارة أمرا بإخراج 10.000 من براميل الزيت واصدارها من ميناء مدينة سوسة مثلا ثم بعد مضي بضعة أيّام يعلن أن سوسة ليس بها زيت للتصدير ولكن غيرها من المدن كصفاقس والمهدية والمنستير وتونس بها مدخرات من الزيت ويطلب إذاك

أوامر الاذن بسراح التصدير من تلك المدن فيلبّى طلبه ولا تسأله مصالح الوزارة الكبرى أن يرجع الأوامر الأولى فيستعمل جميع الأوامر وهكذا بدلاً من أن يصدّر 10.000 برميل يصدّر 20.000 ويقبض عليها كلّها مكوسها ولا يثبت بسجلّ الحكومة الا مكوس 10.000 برميل فقط . فهذه الوسيلة في توفير الربح بسرقة الدولة لم تكن لتنجح لو لم يكن الوزير الأكبر مشاركا في العملية .

لقد كانت مرتبات أعوان الحكومة وجميع مصاريف الحكومة تدفع على صورة تذاكر (تسكرة) من الباي تسلّم للمستحقين . فهذه التذاكر كانت مناسبة استغلّها مصطفى خزنة دار لتوفير أرباحه وذلك بأن يقع تأجيل دفع مبالغ التذاكر عن أوقاتها حتّى يصبح أصحابها مع مرور الأيّام في حاجة ماسّة إلى مبالغها فيضطرّون خوفا من خسارة كامل مبالغها إلى ما يعرضه عليهم قابض مال الحكومة القائد نسيم شمّامة من التنازل على 70 بالمائة من مبلغ التذكرة ولا يقبضون إلا ثلاثين في المائة منه أما نسيم شمّامة فيسجّل في كتاب حسابات الدولة أنه دفع كامل المبلغ .

وكان من اختلاف قيمة نقود النحاس ونقود الفضّة أن توفّرت أرباح طائلة لنسيم شمّامة وسيّده مصطفى خزنة دار . ذلك أن الفوارق بين نقود النحاس والفضة بلغت إلى حدّ أن 300 ريال من نقود النحاس صارت لا تساوي إلا 100 ريال من نقود الفضة . وكان الكثير من مصاريف الحكومة يقع بنقود النحاس ولكن كان يقع التغافل عن فارق الصرف في حسابات الحكومة وبها كانت ريالات النحاس تتحوّل إلى ريالات فضّة . ولا داعي هنا إلى التساؤل عن مصير الفوارق المالية التي كانت توفّر بتلك الطريقة على حساب الدولة فجولان اليد في أموال الدولة لم يكن ليتمّ دون تسامح الوزير الأكبر . ومعنى التسامح عند مصطفى خزنة دار واضح لا يحتاج إلى تبيين .

وواصل فرانسواي فيلّي قائلا في تقريره : لي إضافة لتفصيل جزئي هو أن مبلغًا من المال قدره 400.000 ريال قد كتب على حساب الحكومة

بعنوان أجر سمسرة للحصول على القرض الذي مبلغه 12 مليونا من الفرنك (قرض نسيم شمّامة) والحال أنه لم يقع إجراء أية سمسرة بشأن هذا القرض ومعلوم إلى يَدِ مَنْ ذهب مبلغ الاربعمائة مائة ألف ريال وفيما بعد – إبَّانَ العمل بالدستور – عبثا حاول المجلس الأعلى الحصول على توضيحات بخصوص مصير ذلك المبلغ وغيره من الأموال وكانت الأجوبة عن هذه الأسئلة الفاضحة في الانتظار وإذا بالمجلس الأعلى والدستور – وكانا يعرقلان مشاريع الوزير الأكبر – يُعلن إبطال العمل بهما نتيجة لدسائس مصطفى خزنة دار .

لقد تحدّثنا عن طرق الارتشاء بخصوص الوظائف والقضاء ومحصولات الدولة ونضيف إلى ذلك أنّ مصطفى خزنة دار كان يسلك نفس السياسة بخصوص المراتب العسكرية والنياشين والأوسمة . وبهذه الطريقة ارتقى عدد كبير من الأنفار إلى أسمى الرتب العسكرية بينما لم يسبق لأسمائهم ذكر قطّ بسجّلات وإطارت الجيش . ونذكر على سبيل المثال حسّونة الجلّولي قايد صفاقس منذ ثماني سنين أو عشر فهو لم يكن يحمل سوى الصنف الثالث من نيشان الافتخار وبفضل هدية إلى الوزير الأكبر قدرها 50.000 ريال سمّي قائممقام ثمّ بعد مدّة ارتقى إلى رتبة أمير لواء دون أن يمرّ من رتبة أمير آلاي فهذه الرتبة الجديدة حصل عليها مقابل مبلغ من المال دفعه قدره 100.000 ريال .

ومن بين الأنفار الذين اشتروا النياشين أو الرتب العسكرية نذكر الجنرال إبراهيم قايد دريد كان وعلي الفاسي قايد كان بالجريد وماطر عزلتهما الإدارة الجديدة وصدر عليهما حكم بإرجاع مبالغ ما جالت فيه أيديهما من المال (قبل انتصاب الكومسيون) . على أنّ مصطفى خزنة دار لم يكن قنوعا ولم يكن ليكتفي بتلك المبالغ المالية التي كان يحصل عليها بطرقه وأساليبه غير الشرعية بل إنّه كان يريد ويعمل على أن لا يصرف منها في شؤونه العائلية . ففي عهد المشير الأول أحمد باي وكان عنده بمثابة الابن الذي يسوس أموال

والده عمد مصطفى خزنة دار إلى التدليس في الحسابات فزجّ تذاكر مصاريفه الخاصّة ضمن مصاريف الباي ولم ينته مصطفى عن هذا السلوك إلا بنهاية عهد أحمد بـــاي .

ومن أعمال التدليس التي قام بها مصطفى خزنة دار نذكر خبر المسمّى كيّاط (مهندس فرنسي) الذي كلّف بالسهر على قناة زغوان وعلى الطريقين بين تونس وباردو مقابل مبلغ سنوي من المال يقبضه وقدره 150.000 ريال تقريبا . فكيّاط هذا كان يتقاضى مرتّبه السنوي بصفة منتظمة إلى سنة 1867 ولكنه بداية من هذا التاريخ لم يبق المرتّب يجرى له بانتظام . والغريب في أمر هذا الرجل هو أنه لم يكن يستعمل المبالغ التي كان يقبضها سواء قبل سنة 1867 أو بعدها لا في السهر على قناة زغوان ولا في السهر على الطريقين بين تونس وباردو ما عدا القسط النزر منها وإنما القسط الأوفر من تلك المبالغ المالية كان يصرف في أعمال تنجز ببساتين الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار وفي عملية تجفيف بحيرة السجومي تلك البحيرة التي حصل عليها سيدي مصطفى كهبة من الباي وحاول بتجفيفها تصييرها أراضي زراعية والمصاريف على حساب الدولة بالطبع .

وهناك مثال آخر يوضّح دور مصطفى خزنة دار في إفلاس ميزانية الدولة التونسية قال فرانسواي فيلّي في تقريره ص : 256 : في العهد الذي كان فيه أحمد باي بصدد إقامة قصره بالمحمّدية تقدّم الاسرائيلي دكاش وكان المموّل لموادّ الرخام بهدية إلى الوزير الأكبر قدرها 200.000 ريال حتّى يحصل على الرضى عن الحسابات التي قدمها . وقد وقع العجب من هذا السخاء المفرط وأخذ الناس يتساءلون عن الكيفية التي بها استطاع الاسرائيلي دكاش إنجاز أرباح عظيمة مكّنته من ذلك السخاء . لكنّ حقيقة الأمر هي التالية : حيث إنّ دكاش حصل على لزمة الرخام فإنّه تعهّد بأن يقدّم ألواحا من الرخام بأسعار مكيفة على حسب حجم الألواح . وكان إذا وردت عليه تذكرة بتسليم 100 لوحة من الرخام من حجم خمسة أشبار مثلا كان يقول

لحامل التذكرة إنّه ليس لديه ألواحٌ من ذلك الحجم ويسلّم له عوضا عنها ألواحا من حجم ثلاثة أشبار وألواحا من حجم شبرين إلى عدّ المائة المطلوبة . ويرضَى حامل التذكرة بذلك الحلّ وهو يجهل ألعوبة الاسرائيلي ويظن أنّه وفّر للحكومة ربحا . وسرعان ما انتبه من كان من حاشية الوزير الأكبر إلى الأرباح التي يمكن الحصول عليها من موادّ البناء فتسارعوا إلى هذا الباب من الرزق الحرام فزاد ذلك في اضطراب ميزانية الدولة . ولم تنته العمليات من هذا القبيل إلاّ عند انتصاب الكوميسيون سنة 1869 .

فمنذ نهاية عهد أحمد باي أخذ عدد السكان بالإيالة يتناقص كما انخفض عدد الماشيات المحروثة من 80 ألفـا إلى ستة عشر ألفا وما ذلك إلا لكون السكان صاروا خاضعين لجبايات مجحفة وعرضة لمظالم متنوّعة . ثم في عهد محمد باي استعان مصطفى خزنة دار بالمقرّبين من هذا الباي خصوصا بالمسمّى خليفة السايس واتّخذه عونا له مثلما كان سعد بن عبيد عونـه مع الباي السابق وحاول مصطفى خزنة دار التظاهر بمساندة الباي الجديد الذي كان ميّالا إلى العدل مشجّعا للزراعة على بصيرة بشؤون رعيّته إلاّ أنّ هذا الباي لم يعمّر طويلا وبموته تنفّس مصطفى خزنة دار الصعداء وكان ينتظر منه العزلة . وعند وفاة محمد باي كانت خزينته الخاصة تحوي مبلغا من المال قدره خمسة ملايين من الريـالات فعمـد سيـدي مصطفى والقايـد نسيـم شمّامة إلى المبلغ وتقاسما القسط الأوفر منه وبعثا بالقليل الباقي إلى الباي الجديد بالمرسى . ولم يكتف الوزير الأكبر بهذه السرقة التي ارتكبها جهرا بل إنّه سلب تماما أفراد عائلة الباي الراحل سيدي محمد وكان يعتبرهم أعداءه فاستحوذ على أموالهم ومجوهراتهم باستثناء مجوهرات أميرة فتاة كانت خطيبة ابنه .

ثم في عهد محمد الصادق باي حقّق مصطفى خزنة دار مطامحه فاستطاع في عام 1862 أن يحمل الباي على أن يُدخل تحويرًا في أعضاء هيئة المجلس الأعلى لأن تلك الهيئة كانت تُعرقل أعمال تبذيره وجوره . وكان إذاك يوجد دين يتألّف من نقصان في المداخيل تمّ في عهد أحمد باي ومحمّد

باي . ولم يزد مبلغ الدين على 24 أو 25 مليونا من الفرنكات لا غير وتمّ خلاص فائض ذلك الدين تحت مراقبة المجلس الأعلى من موارد عادية للدولة . وكان في الإمكان مواصلة العمل بخصوص هذا الدين على نفس المنوال ريثما يتحسّن المحصول الزراعي بسنوات الخصب وبذلك قد كان في الإمكان خلاص أصل الدين . إلاّ أنّ مصطفى عمد إلى حلول أخرى وهي التي صنّفها فرانسواي فيلّي كما يلي في تقريره : ص : 258 :

لقد حاول مصطفى خزنة دار منذ سنة 1863 الاقتراض من الخارج فتقدّمت عدّة بنوك بعروضها ، لقد تقدّم السيدان روتشيلد وهما بنك انقليزي كما تقدّم السيد ايرلانجير إلاّ أنّ السيدين روتشيلد انسحبا بعرضهما وتركا الميدان فسيحا للسيد ايرلانجير الذي قبل عروض مصطفى خزنة دار وبذل لإبعاد منافسيْه الانقليزيين مجهودات متنوعة منها أنّ السيد ريشارد وود – قنصل انقلترا بتونس – ذكر أنه كان بباريس في آونة تقديم عروض الاقتراض وتلقّى من السيد ايرلانجير عرضا بهدية مبلغا 500.000 فرنك إن هو سمح بتأييد مصالحه . وبالرغم من أن بنك ايرلانجير بقي وحده دون منافس فإنّ الشروط التي كان عرضها على الحكومة التونسية – كما يقول فرانسواي فيلّي في تقريره – قد لقيت من بعض الشخصيات – لا من الوزير الأكبر بالطبع – معارضة عنيفة . فقد كان يظنّ أنّه من اللائق أن لا يخوّل للسيد ايرلانجير أكثر من 3 أو 4 في المائة بعنوان القطع والسمسرة . ولكن تلك الشخصيات المعارضة دعيت صباح ذات يوم من أيام مفاوضات الاقتراض بأن تتغيّب لمدّة 48 ساعة والدعوة باسم الباي . ولما عادت تلك الشخصيات إلى المفاوضة أطلعت على عقد الاقتراض ممضى وهو قد رفع مبلغ القطع والسمسرة إلى نسبة 14 ونصف في المائة أي 5.075.000 فرنك مقابل مبلغ 35.000.000 فرنك . وبتلك العملية حصل مصطفى خزنة دار على مليون فرنك كما حصل المسمّى سيرميسكي على مليون فرنك وحصل رشيد الدحداح على 500 ألف فرنك ثم بعد أن أخذ ايرلانجير نصيبه وزّع المبلغ الباقي على السادة ڤانيسكو والعزيز بوعتور وزير المال إذاك والياس مصلّي والطيب وآخرين .

ويضيف فرانسواي فيلّلي قائلا : وهناك شرط آخر في العقد يقضي بالاعتراف لفائدة الحكومة التونسية بمليون من الريالات -- 124 ، 628 فرنك -- لختم العقد . والملاحظ أن هذا المبلغ لم يسجّل في حسابات الحكومة زيادة في منتوج القرض وإنّما سجّل مطروحا من مبلغ القرض الذي على بنك ايرلانجير أن تدفعه وواضح أن المليون ريال اختلسه أعوان الوزير الأكبر .

وبعد حطّ المبلغ الذي قدره 5.075.000 من المبلغ الذي قدره 35.000.000 الذي هو أصل مبلغ القرض بدون أيّ طرح فإنّه يبقى متهيّئا تحت اليد مبلغ قدره بالفرنكات 29.925.000 وهو مبلغ يفوق جملة دين الحكومة التونسية وكان من الصالح تخصيصه لدفع مبلغ الدين سيّما وأنّ جزءا من هذا الدّين لم يحلّ موعد ردّ مبلغه وفي الإمكان طرحه من الحساب وأنّ الجزء الآخر من الدين كان خاضعا لفائض سنوي بنسبة 12 في المائة على الأقلّ . وبالفعل تلكّ كانت الوجهة التي تمّ رسمها لاستخدام القرض وذلك ما بدا تطبيقه في دفع الدين بخصوص مبلغ قدره 15 مليونا فرنكا من القرض . إلا أنّه في الوقت نفسه الذي كانت فيه مكاتب ممثّل بنك ايرلانجير بتونس تقوم بدفع مبالغ الرقاع القديمة لأصحابها كان سمسار الحكومة السيد قوتييرس ماكثا في مكتب بالطريق المجاور لمكتب بنك ايرلانجير متصيّدا لكلّ من استخلص رقاعه كي يسحب منه ما قبضه من مال ويسلّم له في المقابل رقاعا أخرى (تسكرة) بربح قدره 91 في المائة . وهكذا بفضل هذه المهزلة في ردّ مبلغ الدين صار دين الحكومة التونسية مضاعفا بخمسة عشر مليونا فرنكا إضافية على سبيل التقريب .

ويواصل فرانسواي فيلّلي تقريره قائلا في الصفحة 260 : ثمّ ان الباقي من المبلغ الذي قدره 29.925.000 بعد طرح 15 مليونا قد وقع قسمه إلى سهمين أحدهما قدره 5 ملايين وهذا السهم دخل صناديق الحكومة التونسية وخصّص للمصاريف العادية والسهم الثاني بقي تحت اليد ببنك ايرلانجير بباريس إلى جانفي 1864 . فلو كان الأمر بيد حكومة غير التي يسوسها مصطفى خزنة دار

لحصل الاستغراب من أنها تبقي مبلغا عظيما من المال قدره فرنكات 9.887.535 أي ثلث القرض تقريبا بدون استعمال لمدّة 7 أو 8 أشهر . فكيف لم يستعمل هذا المبلغ في استعادة الرقاع التونسية التي كان على الحكومة أن تدفع فائضا سنويا عليها نسبته 12 في المائة ؟ إلاّ أنّ الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار كانت له آراء أخرى غير هذا الاقتصاد الذي كان من شأنه أن يخفّف من التبذير .
فقد عمد مصطفى خزنة دار ابتداء من جانفي 1864 إلى جعل بنك ايرلانجير يسترد بالشراء من بورصة باريس عدد 20.926 من رقاع القرض نفسه وذلك باستعمال المبلغ الذي قدره 9.887.535 من الفرنكات . وكانت الرقاع المصدّرة بمبلغ قدره 480 فرنك تباع إذّاك بمبلغ قدره 50 ، 457 فرنك . فلو أنه تمّ إبطال الرقاع المسحوبة من الجولان لكانت العملية منتجة لشيء من الربح إلاّ أنّ ذلك لم يكن غاية مصطفى خزنة دار الذي ابتدأ بتعيين مبلغ لاستعادة الرقاع 20.926 وشرائها بربح أرفع من التسعيرة الرسمية وبدلا من مبلغ قدره 50 ، 457 فرنك لكلّ رقعة سجّل على حساب الحكومة التونسية مبلغ قدره 50 ، 472 فرنك لكل رقعة . فإلى أين وجّه المبلغ الذي قدره 310.000 فرنك الحاصل من هذه العملية الغريبة ؟

ثم فيما بعد — بدلا من إبطال العمل بالرقاع التي عددها 20.926 — وقع إبقاء تلك الرقاع تحت يد بنك ايرلانجير فاتّخذها هذا البنك كضمان لما ابتدأ منذ شهر جويلية 1863 يضعه من تسبقات مالية في حساب جار بباريس تحت تصرّف الحكومة التونسية ولم يسترجع مبالغها إلاّ في شهر أوت 1864 . وقد ضمّت تلك الرقاع فيما بعد إلى رقاع أخرى تمّ شراؤها في ظروف غريبة وخصّصت لضمان قروض جديدة . وهكذا اتّضح أنّ الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار كان يستعمل أموال قرض مطيّة لتحقيق قرض آخر . ذلك أنّ الحكومة التونسية أبرمت قرضا جديدا بدعوى احتياج طارىء خارق للعادة ناتج عن حركة عصيان العربان (حركة علي بن غذاهم) بينما كانت تلك الرقاع التي عددها 20.926 معدومة الحركة بين يدي بنك ايرلانجير .

فاقترضت الحكومة من السيد موربورقو مبلغا من الفرنكات قدره 5 ملايين يتمّ إرجاعه في مدّة 18 شهرا . وبلغت مصاريف إبرام هذا القرض من الفرنكات ما قدره 1.050.000 وتفصيل ذلك كما يلي :

50.000 فرنك : سمسرة

100.000 فرنك : جُعالــة

900.000 فرنك : فائض 18 شهرا تم دفعه مسبّقا بنسبة 12 في المائة

1.050.000 فرنك

وهذا المجموع يعني أن القرض أبرم بفائض يفوق 20 في المائة . أمّا المبلغ الباقي : 3.950.000 فرنك فلم يدفع منه نقدا إلا 500.000 فرنك . والبقية من القرض أي 2.500.000 دُفعَت في صورة كمبيالات بقي أمرها مجهولا لحدّ هذا الوقت (1872) .

فهذا القرض الذي أبرم في جويلية 1864 مع السمسار الاسرائيلي النمساوي موربورقو لم يحصل منه بالفعل للحكومة التونسية إلاّ مبلغ 500.000 فرنك بينما أضيف إلى الدين مبلغ 5 ملايين .

ثم تعرّض فرانسواي فيلّي بعد ذلك في تقريره المؤرخ في 19 ماي 1872 إلى قضيّة القرض الثالث المبرم في 9 فيفري 1865 مع ايرلانجير وأوبنهايم وموربو قو . وهذا القرض مبلغه 25.000.000 فرنك . وقد قسم هذا القرض نصفين متساويين (12.500.000 فرنك لكلّ منهما) أحدهما على حساب بنك ايرلانجير والثاني على حساب السيدين موربورقو وأوبنهايم . وأسهب صاحب هذا التقرير في ذكر ألاعيب مصطفى خزنة دار وايرلانجير وموربورقو وأوبنهايم وفصّل البيان المدعّم بالبراهين بخصوص عمليات جولان اليد في مبالغ هذا القرض ومن بين تلك العمليات عملية صفقات شراء الأسلحة المبرمة في 29 أفريل 1865 وفي هذه الصفقات الغريبة الأطوار تبخّر محصول القرض المبرم عام 1865 وهكذا تضخّم مبلغ دين الحكومة التونسية من سنة

1862 إلى سنة 1866 تضخّما مهولا فبعد أن كان مبلغه في عام 1862 فرنكات 24 أو 25 مليونا صار في عام 1866 دينا مبلغه 120 أو 125 مليونا فرنكا .

ينبغي ألاّ يُظنّ أنّ الموارد العادية للدولة التونسية قد نضب معينها ونزح طوال مدّة الأربع سنوات من سنة 1862 إلى سنة 1866 وفي الحقيقة لم تنعدم تلك الموارد العادية وفي جزء منها فقط إلاّ في سنة قيام حركة العصيان سنة 1864 . على أنّ الانخفاض الذي حصل في مداخيل الجبايات خلال تلك السنة قد تمّ تلافيه بتعويضات سنطلّع على غرابتها فيما يلي .

لقد كان مصطفى خزنة دار في أصل الأمر والواقع هو المحرّض السرّي لقيام حركة عصيان العربان . لقد كان يريد التخلّص من المجلس الأعلى المنبثق من عهد الأمان وكان يظنّ أنّه قادر على إيقاف تلك الحركة في الوقت الذي يريد . وكان يظنّ ذلك دون قراءة حساب للكراهية التي كان السكان بالايالة التونسية يكنّونها له منذ زمن بعيد بحيث أنّهم بمجرّد ثورتهم طالبوا بعزله قبل كلّ شيء وطالبوا بإطراد بعض المماليك من الوظائف . وكانت الحكومة التونسية عاجزة عجزا مطلقا سنة 1864 مثلما هي سنة 1872 عن الكفاح إلى جانب الأهالي العربان الذين لم تكن لهم قيادة حسنة ولم يكونوا ثائرين لا على الباي ولا على عائلته فلم يحاولوا الاقتصاص بأنفسهم من مصطفى خزنة دار . وهكذا حذق مصطفى خزنة دار في استغلال الوقت الذي وضعوه بين يديه فتمكّن من إقناع موظّفَيْن من كبار موظفي قصر باردو لهما كلمة مسموعة عند العربان كي يتوجّها إليهم للمحاورة معهم فتوجّه أحد الموظفين إلى قبائل الشمال الغربي من المملكة وتوجّه الثاني إلى الساحل التونسي والجريد . ولم يقبل هذان الموظفان القيام بهذه المأمورية إلا بشرط أن يسمح لهما بأن يُصدِرَا الوعد للعربان بأنّه بعد حصول تهدئة الثائرة التمرّدية يُقدّم الوزير الأكبر استقالته بنفسه . وبالفعل أقسم مصطفى خزنة دار بأنّه سوف يوفّي بكلّ ما طلب منه . ثمّ بعد مرور شهرين أو ثلاثة من تهدئة الثائرة صرّح

مصطفى خزنة دار عندما طولب بإنجاز ما وعد به إبّان الخطر فقال : « إني الآن واجد نفسي مطمئنّا ممطيا صهوة الجواد فلست مجنونا حتّى أنزل بنفسي من على صهوة الجواد . ولي أعمال أخرى أهتمّ بها وقد طلب هؤلاء الأشقياء القضاء عليّ وإعدامي ولن أكون مرتاحا إلا عندما يكونون هم أنفسهم في الشقاء ويكونون في عداد الأموات » .

وشمّر مصطفى خزنة دار على ساعد الجدّ في هذا المطلوب ووجّه أعوانه إلى جميع الجهات فجمعوا ضريبة حرب قدرها مائة مليون ريال (60 مليون فرنك) في بضعة أشهر . ودفعت منطقة الساحل التونسي التي تكالّف بها أحمد زرّوق وأنصاره اليهود أكثر من ثلاثين مليون ريال كما شهدت بذلك وثائق رسمية . ثمّ إنّ الموظفَيْن اللذين هدّدتهما الثائرة اضطرّا إلى مغادرة البلاد التونسية ولجآ إلى الاغتراب .

فماذا كان من مصير لتلك الملايين من الريالات التي افتكّت من الأهالي ؟ لا يعرف ذلك المصير إلا الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار بمفرده دون سواه . أما الأمر الذي يعرفه الخاصّ والعامّ فهو أنّ تلك الملايين لم تدخل إلى صناديق الدولة التونسية وأنّ الأعوان الذين أرسلوا إلى الجهات قد نهبوا العربانَ بكل الوسائل وسلبوهم من أموال طائلة ضافية لخاصيتهم مثل ما فعل أحمد زرّوق أثناء إدارته على جهة الساحل التونسي فقد نهب قرابة السبعة أو الثمانية ملايين وتعلّقت بأحمد زرّوق قضية إثر بحث في النازلة وصدر حكم من الباي ضدّه إلاّ أنّ هذا الحكم ضدّ زرّوق لم يستطع مصطفى خزنة دار المنع من صدوره من أجل تدخّل خير الدين ولذلك بقي الحكمُ حبرًا على ورق ولم ينفّذ نظرا إلى أنّ الوزير الأكبر كان يحمي علانية العون المنفّذ البارّ لأغراضه والآخذ بثأره فجرّ الخراب للساحل التونسي من أجل مصلحته الخاصّة .

هناك عيّنة أخرى من سرقات مصطفى خزنة دار هي التي ملخّصها كالآتي :

في سنة 1864 لمّا قدم إلى تونس ــ إبّان قيام حركة العصيان ــ حيدر أفندي المبعوث فوق العادة للسلطان العثماني حمل معه مليونا من الفرنكات بقصد توزيعها على الأهالي والعربان الثائرين . واستلم مصطفى خزنة دار هذا المبلغ بوصفه الوزير الأكبر للدولة التونسية ثم بعد أن نقله مصطفى إلى داره نقله إلى قصر باردو ولكن لا ليجرى في المصرف الذي خصّصه له السلطان العثماني ، ولمّا أفرغ مصطفى خزنة دار هذا المليون بصندوق الدولة احتاط فأخذ من المكلّف بالصندوق وهو القايد نسيم شمّامة توصيلا كأنّ الأمر تعلّق بقرض أو تسبقة من ماله الخاصّ . ثمّ بعد مدّة أدّى القايد نسيم شمّامة جزءا من مبلغ ذلك القرض الغريب إلى مصطفى خزنة دار ونسي أو تناسى أن يثبت بالسجلّ أنّ المليون هبة من السلطان العثماني لا من المال الخاصّ للوزير الأكبر بحيث أنّه لمّا فرّ القايد نسيم شمّامة من البلاد التونسية وعوّضه القايد شلومو شمّامة في منصبه كقابض مال الدولة قُدّمَ الوصلُ إليه فدفع المليون كاملا ثمّ لمّا عُوّضَ القايد شلومو شمّامة بالقايد مومو في منصب قابض مال الدولة قُدّم الوصل مرّةً أخرى للمطالبة بنفس المليون .

هكذا قد رأينا كيف كانت موارد الدولة التونسية وكذلك أموال الخواصّ من التونسيين قد بعثرها مصطفى خزنة دار وحوّلها عن وجهتها ونهبها بنيّة مسبّقة وإضمار كاشف وتفان في إفلاس ميزانية الدولة لا هوادة فيه ولذلك فهو رأس قائمة المسؤولين عن ذلك الإفلاس الذي ترتّب عنه انتصاب الكوميسيون المالي الدولي بتونس في جويلية 1869 .

المحقّق : علي الشنوفي

فهرس الآيات القرآنية

(تشير الأرقام إلى صفحات المخطوط)

فهرس الأحاديث النبوية

(تشير الأرقام إلى صفحات المخطوط)

فهرس القوافي

(تشير الأرقام إلى صفحات المخطوط)

اول البيت	القافية	البحر	عدد الابيات	الصفحة
	حرف القاف (تابع)			
لقد عسر	الرفيق	الوافر	2	140
سير	المتأنق	الكامل	11	148
أفنى	الأباريق	البسيط	1	248
	حرف اللام			
الدهر	أوّلا	الكامل	46	104 — 101
انّ	توصّلا	الكامل	15	104
يا أيها الجمّال	الجبل	الرجز	22	147 — 146
قفا	فحومل	الطويل	1	163
ولولا	بالجبال	الوافر	2	172
قبيح		الطويل	1	220
يا أيها	المستشكل	مجزوء الكامل	28	227 — 226
يا أيها	الملي	مجزوء الكامل	27	229 — 228
ابن	الجهل	الطويل	7	240 — 239
أمر	جملة	الرجز	1	244
إذا ما	يبدّل	الطويل	1	247
اسكر	تكسل		1	252
وبعد	عمله	الرجز	1	257
أقدّم	أنعم	الطويل	102	10 — 5
ثغر	يتنسّم	الكامل	54	101 — 98
اليوم	مبتسم	البسيط	17	105
قد مر	متيّم	الكامل	2	154
أرأيت	متيّما	الكامل	2	154
هل غادر	توهّم	الطويل	1	163
أمن	فالمتلثّم	الطويل	1	163
الخيل	يعتصم	البسيط	2	191

اول البيت	القافية	البحر	عدد الابيات	الصفحة
حرف السلام (تابع)				
لمحمّد	حازم	الكامل	4	205
أنهي	الاسلام	مجزوء الكامل	6	224
حرف النون				
ان البناء	الشأن	الكامل	1	36
خليليّ	يجتنني	الطويل	4	57
يا خليليّ	بعسفان	مجزوء الخفيف	1	111
ان أهل	النتن	الرمل	2	120
يا طاهر	تبيين	الكامل	2	126
بقدر	أعوان	الطويل	2	159
ألا هبّي	الأندرينا	الوافر	1	164
حسن	الريحان	الكامل	31	170 — 168
وافت	حمدان	الكامل	14	171 — 170
جاء	فتيان	البسيط	2	184
يا أهيل	منّي	الرمل	10	242 — 241
أيها	بيان	الخفيف	10	243 — 242
حلّه	الأكوان	الخفيف	1	245
انّي	قين	الوافر	10	261
وقل	جين	الوافر	7	273
بنفسي	البرتقان	الوافر	3	274
حرف الهاء				
عفت	فرجامها	الكامل	1	163
حرف الياء				
وقد	تلاقيا	الطويل	1	12

فهرس الأعلام

(تشير الأرقام إلى صفحات المخطوط)

— ش —

فهرس الأماكن والبلدان والمنشآت والطوائف والقبائل والشعوب والدول

(تشير الأرقام إلى صفحات المخطوط)

— ت —

— ح —

— خ —

— ن —

فهرس المصنفات والصحف

(تشير الأرقام إلى صفحات المخطوط)

— م —

فهرس الكلمات الدخيلة

(تشير الأرقام إلى صفحات المخطوط)

فهرس محتوى الجزء الثاني من الرحلة الحجازية

(تشير الأرقام إلى صفحات المخطوط)

الموضـوع	الصفحـة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحـة

الموضوع	الصفحة

طبع هذا الكتاب
بطريقة مونوتيب على
معامل المطبعة الرسمية
للجمهورية التونسية
1981

AR-RIḤLA AL-ḤIǦĀZIYYA

(Tome II de la Relation du voyage au Ḥiǧāz)

PAR

Muḥammad AS-SANŪSĪ

(1267/1851 - 1318/1900)

Texte arabe établi et annoté

PAR

ALI CHENOUFI

Agrégé de l'Université

Docteur ès Lettres

Professeur de l'Enseignement Supérieur à la Faculté des Lettres de Tunis





SOCIETE TUNISIENNE DE DIFFUSION

1402/1981